

ورده

رواية مصر الخالدة

أبرزها من الآثار القديمة
وأوراق البردى

د. جورج ايريس

نقلها إلى العربية

محمد مسعود

الجزء الأول والثاني



وردة مصر

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارئ في ماضي الحقب إلى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة، فيحس إذ يتلوها كأنه يحيا بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثاني، وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والأدب، ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارهم الكهوتية، ويلم بالأسباب التي علت بهم فوق شعوب الأرض طرا في زمنهم.

أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردي
الدكتور ايبرس الألماني

ونقلها إلى العربية بترجمة جديدة
محمد مسعود

الجزء الأول

مكتبة مديبولي
الناشطة

لمترجم وردة مصر

معارج الفلاح

كتاب عصرى هو للطلاب المقبل على الحياة العملية مرشده إلى ميادينها وسلاحه الكفيل له بالفوز فيها، ولرب الأسرة قائده إلى تنظيم شؤون الأسرة، وللتاجر رائده إلى ترويج تجارته، وللصانع هاديه إلى إتقان صناعته، وللقارئ بوجه عام الناصح الأمين والجليس الذى لا يمل.

وسائل النجاح

كتاب عصرى يبحث فى طائفة من الفضائل، التى إذا راض المرء نفسه عليها وأخذ بما احتوته من المبادئ القويمة والإرشادات النافعة كفلت له الفوز فى الحياة وبلغت به إلى السعادة المتناهية.

المرأة فى أدوارها الثلاثة

كتاب عصرى فى آداب المرأة وواجباتها وحقوقها فى جميع أدوار حياتها نحو أعضاء أسرتها ونحو غيرهم ممن تخططها بهم روابط المعاملات فى الحياة.

الاقتصاد السياسى لجيفونس

هو خير مصنف فى هذا العلم بإجماع الآراء، لأنه يزجى قواعده وأصوله إلى ذهن القارئ بدون أن يلقي عناء فى تفهمها.

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصلياً

أما بعد فهذه هي «وردة» قد تفتقت عنها أكمائها، لامعة الزهرة رائقة النضرة متلألئة الغرة فتانة الحسن للناظرين، أهدبها إلى شبيبة مصر النابهة التائقة منذ سنوات إلى استنشاق رياها الأرج النازعة إلى الانتشاء بشميم عرفها الطيب، فقد تواردت على رسائلها في إعادة نشرها، مبالغة في هذا الطلب بما لم أجد معه مناصاً من الإجابة، فسلخت نحو العام في تعهدا- تهذيباً وتشذيباً- حتى غدت بجزالة لفظها أشرف جوهراً وبحسن ديباجتها أجلى مظهراً وبجمال رونقها أكثر طلاوة منها في نشرتها السابقتين. ولست بكاشف اللثام عن فوائد «وردة مصر» ومايزخر به بحر حوادثها القصصية من الحقائق التاريخية، فإن ذلك ليس بالسر المكتوم، وقد سطع شذاها بالنقل والترجمة في لغات الأمم المتحضرة جميعاً التي يحج أسرياًؤها وعلماؤها من أقاصى العالم إلى مواطن حوادث «وردة» في طيبة الأموات وطيبة الأحياء. ولكننا إذ نتعرض لنشيء من أمرها نجتزئء ببيان الظروف التي حدثت بمؤلفها الفاضل إلى تأليفها.

كان الدكتور جورج إيبرس مؤلف رواية «وردة مصر» من أكابر علماء اللغة المصرية القديمة، وهو عند الألمان في منزلة مارييت وماسيرو عند الفرنسيين. ولقد هبط مصر في أخريات سنة ١٨٧٢ للبحث في آثارها، وقضى الشتاء منقبا بين مقابر

الفراغة بأطلال طيبة، فوفق للعثور على بعض الأساطير المدونة في أوراق البردى. ولما أكب على درسها لاستكناه أسرارها تراءت له بعض حقائق تاريخية لم تكن برزت بعد إلى عالم البحث ، فوجدها صالحة لأن تكون أساساً وطيداً لقصة غرامية رائقة المعنى، فوق ما تمتاز به من صفة الفائدة التاريخية الجزلة. وكان مما سهل عليه تحقيق أمنيته أنه من أقدان الشعراء الألمان الذين يشار إليهم بالبنان في براعة النظم وجلال المعاني المستمدة من لطف المشاعر وصفاء العواطف، فأعانتة هذه الصفات على وضع خطة شاملة لقصته حدد فيها أقسامها وضبط حوادثها، حتى إذا تم له الأخذ بأطرافها وارتسم في مخيلته هيكلها عول على سبكها في قالب التدوين والتحرير.

وكان ذلك عقب عودته إلى موطنه، فحدث أن حال بينه ومراده أن وصوله إليها كان مقترناً بأعراض اعتلال البدن وضعف القوة، فأشار الأطباء عليه بالراحة والإسك عن كد الفكر وإجهاد العقل ريثما يبرأ من مرضه. ولقد لبث ثلاث سنوات وصالاً لا يترأى له - وهو طريح الفراش - سوى طيف وردة وما استشفه خلاله من قد رشيق وحسن أنيق، واستوضحه من خصال شريفة وشيم كريمة. وما زال هذا دأبه تلكم السنوات الطوال حتى أذن الله له بالإبلال من مرضه (عام ١٨٧٦). وكانت وردة قد تفتحت أكامها في ذهنه وارتسمت صورتها طبق ما أراد لها في مخيلته، وما بقى إلا أن يصوغها في القالب الذي هم بأن يفرغها فيه عندما تاب إلى وطنه فصدده المرض طول ذلك الزمن عن تحقيق أمنيته.

وكان أيبرس، فوق عبقريته في الشعر ونبوغه في التأليف والتصنيف، صاحب إرادة قوية وعزيمة ماضية وهمة عالية. فإنه ما ترك فراش الألم والسقم إلا

للقرطاس والمداد والقلم. وكانت إلى جواره جنة ذات أشجار باسقة ومياه دافقة
وأزهار مونقة، فانتحى من هذه الروضة مكاناً قصياً ليزجى بنفسه في تيار الأفكار
والتأملات.

ومن ثم دبح ببراعة هذه الرواية متراجعاً بالقارئ، فيما انقرض من أحقاب
الدهر إلى تلك العصور التي خلدت ذكراها مدنية بان شأوها على سائر المدنيات
الكبرى المعروفة- وتشرف به من قمة التاريخ فيحس - إذ يتلوها- أنه يحيا بحياة
مصر لعهد رعمسيس الثانى ويرى بعينيه ويدرك بعقله معجزات تلك الحضارة في
العلوم والفنون والآداب، ويعجب بعظمتها الحربية وأنظمتها الاجتماعية
والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارها الكهنوتية وحكمتها التي ساست
بها البلاد في آسيا وأفريقيا، بين حدود فارس وخط الاستواء، ويلم على الجملة
بمجمال الأسباب التي علت بها فوق شعوب الأرض طراً في عصره والبواعث التي
هوت بها فيما بعد إلى الدرك الأسفل من الحضيض.

على أنه للوقوف على قيمة هذه الرواية من جهة البحث العلمى الخصيب الذى
ساق مؤلفها إلى تدبيجها، لا أرى خيراً من أن أعرض على القارئ ما خطه بقلمه في
هذا الصدد، إذ قال:

« في شتاء سنة ١٨٧٣ قضيت بضعة أسابيع في إحدى مقابر طيبة، للبحث في
أطلال هذه المدينة العظيمة، مدينة الأموات. وفي خلال رحلاتي الطويلة بالصحراء
نبتت في ذهنى الفكرة التى عليها بنيت هذه القصة. وقضى الله لى- خلال مرضى
الطويل- فراغاً كافياً وذهناً صافياً وقفتها على تدبيجها وتنسيق حوادثها.

« وكنت انتويت في مستهل الامر أن أذيل القصة بمذكرات مفصلة، كما فعلت في قصة الأميرة المصرية. ولكنى عدلت عن هذه الفكرة حينما لاح لي أنها سوف تؤدي إلى تكرار كثير مما وعته- في روايتي الأولى- تلك المذكرات التي أردت بها أن تكون شرحاً لما استعجم فهمه في متن الكتاب ودليلاً على العناية التي حاولت أن أصور بها التفاصيل التاريخية والأثرية نقلاً عن المراجع الخاصة بها، راجياً أن يجد القارئ البحاث فيها ما يرشده في مباحثه عن ذلك العهد، إلى معلومات أبعد غوراً وأجل خطراً.

«أما قصتي هذه، فلي أن أجهر بأنني لم أت فيها عن مصر وعن عهد رعمسيس الكبير بمعلومات يتعذر إرجاعها إلى مصدر من المصادر. ذلك لأن الآثار المختلفة التي خلفها لنا المصريون منذ ذلك العهد القصي تمكن الباحث من الوقوف على كثير من وجوه الحياة المصرية ونظمها. وقد أصبح من السهل تتبع تفاصيلها خطوة خطوة، بل الوقوف أيضاً على كل ما يتعلق بحياة أفراد معينين بالذات. ومن ثم يرى القارئ أن هذه القصة ظاهرة المعنى واضحة الحجة في جميع أجزائها، وأن لا حاجة للرجوع إلى شرح واقعة من وقائعها.

« وأساس القصة هو حديث لهرودوت انتهت إلينا منه بعض أساطير تحملنا على التسليم بأن حكاية الخيانة التي ارتكبها النائب عن الملك- والتي رواها لنا أبو التاريخ- ترجع إلى عصر رعمسيس الثالث، لا الثاني، وأنه لاشك في أن ذلك المؤرخ لم يتصل به الخبر الصحيح. على أنني سأقدم للقارئ صورة من عصر سيزوستريس الذي وقعت فيه حوادث القصة، مراعيًا في ذلك إظهار الحقيقة قدر الاستطاعة. ومن الحق أن أذكر أنني، لأجل الوصول إلى هذه الغاية، لم آل جهداً فيما

يمكن البحث عنه من الآثار وأوراق البردى. ولما كانت هذه الرواية من باب القصص والخيال الشعري - قبل أن تكون بحثاً تاريخياً - فقد جعلت لتصوير أشخاصها ووصف عواطفهم ومشاعرهم المختلفة المحل الأول، ولم تكن للحقائق التاريخية فيها غير أهمية ثانوية.

« ولدى ملحوظة أخرى، وهى أننا اعتدنا - لدى دراستنا الفن المصرى القديم - أن نتخيل سكان وادى النيل فى زمن الفراعنة قوما طوال القامة نحيلى الجسم، وأن ليس بين أفرادهم فروق أو مميزات. وهذا راجع لما كانت تستدعيه أصول الفن المصرى القديم من ضرورة التناسب والتماثل فى جزئيات معينة. ولكن خطأ هذا التخيل ظاهر من أن المصريين كانوا من أرقى الشعوب القديمة وأنشطها، ومن أن اتصالهم بغيرهم من الشعوب كان ضربة لزام، فمن الخطأ تمثيلهم فى أحوالهم المعيشية بما يمليه علينا مرأى تلك الأوضاع المنقوشة على جدران هياكلهم ومعابدهم. فإن الأوضاع إنما تعتمد منشئوها إبعادها عن مواطن الحقيقة بقدر ما أرداوه من المحافظة على أصول التناسب والتماثل المقدسة عندهم، وأن على من يريد التزام جانب الصدق فى تصوير قدماء المصريين أن يحل تلك الأوضاع التقليدية من القيود الخاصة بفنهم، والتى هى بعيدة كل البعد عن حقيقة حياتهم. وهناك بعض الآثار من عهد الهرم الأول تمثل القوم على حقيقتهم دون التقيد بالقيود الدينية المقدسة. ومن السهل أن نستعيد لذاكرتنا تمثال «قاضى القرى» المعروف بتمثال شيخ البلد والموجود فى المتحف المصرى، وتمثال «الكاتب» الموجود فى متحف باريس وتمثيل آخر مصنوعة من البرونز فى متاحف متفرقة، فإنها جميعا تنطق بعظم الفروق الجثمانية بين أفراد المصريين القدماء وما يتبع ذلك من الفروق الخلقية.

وهنا يظهر جليا واجب الكاتب الذى يريد تصويرهم، فإن عليه أن لا يتردد فى الأخذ بما يراه فى حياة أناس العصر الحاضر وأحوالهم، بل أن ينتحل من صفات من يعيشون حوله نماذج واضحة لحياة أولئك القوم. ولا خوف عليه من أن يحيد بعيدا عن الحقيقة فى تصويرهم، إذا هو ألبسهم روح العصر الذى عاشوا فيه.

«وقد وضعت هذا الرأى نصب عينيّ عندما أبرزت وردة إلى حيز الوجود. وهأنذا أقدمها للعالم مسدياً أجزل الشكر لأصدقائى الأعزاء الذين جدت بينهم نشاط روحى ووجدانى فى مقامهم الجميل المكسو بالخضرة السندسية والمجمل بطيور الغابات حيث أخط الآن آخر كلمات روايتى».

هذه الكلمة التى صدرَ بها المؤلف روايته عندما أتم كتابتها فى أواخر سنة ١٨٧٦. ومنها يتبين القارئ أن القصة ليست من قبيل الروايات التى ترمى إلى التسلية وترويح النفس فحسب، بل إن لها غرضاً أسمى وأبلغ، وأن لنا- نحن المصريين فى نهضتنا الحاضرة- أن نتخذ منها عبرة وذكرى. إذ نتبين من خلال حوادثها الطلية ما كان لنا منذ فجر التاريخ من شأن عظيم بين الأمم وجاه طويل عريض فى أرجاء الأرض، فنعمل على أن يكون لنا منه ما ينهض بنا إلى أسنى المعالى وأشرف الرتب إن شاء الله.

بيان

لصاحب الإمضاء

أحسن القصص صحيحه وموضوعه ما بنى على التاريخ أو على حوادث وأشياء لا يأبى العقل على الكاتب نسبتها إلى زمان معلوم ومكان معلوم وأمة معلومة.

ومن القصص الموضوع ما يراد به تعليم التاريخ بالذات في صورة التفككة، بحيث تقرب مطالبه البعيدة إلى الأذهان، وأجل ما كتب توخياً لهذا الغرض في النصف الأخير من القرن التاسع عشر قصة (وردة مصر) للعالم النحيرير إيريس الألماني. ضمنها كل ما يروق ذكره ويستغرب أمره من أخبار مصر إبان عهد رعمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة مدرجاً في حواشى قصة ملفقة تأخذ بالآليات فجاءت مرضية للعالم معلمة للجاهل سائغة المشرب للجميع.

على أن كثيرين من القصصيين قد حاولوا أن يتحدوا إيريس فأخفقوا سعياً وانتثرت أوراق كتبهم - لإهمال الناس لها - كانتشار أوراق الأشجار التى لا تتعهد سقياً وتربية فتكسو منبتها بساطاً أصفر ذابلاً، ولم تسلم فيه إلا (وردة مصر) فهى لم تزد على الأيام إلا زهواً ونضارة.

ولا مشاحة في أن تقدم علم الآثار المصرية منذ نيف على عشرين سنة قد أفضى إلى نقض أمور كثيرة مما كان العلماء يعتقدونه لعهد صدور (وردة مصر). غير أن ذلك لم يتناول إلا بعض الأعراض أما الجوهر فسلم يصح أن يعول عليه من يريد مطالعة سيرة عصر من أعظم عصور الأمة المصرية، بما اجتمع فيه من الدلالة على

ماضيها الفخيم والإشارة إلى مستقبلها الوخيم تحت نير الرق وفي ظلام الطاعة
المبنية على جهل ما يحق للإنسان وما يجب عليه ، حاكما أو محكوماً، وفي دينه
ودنياه.

قرأت (وردة مصر) باللغة الفرنسية منقولة عن الألمانية ولم يدر في خلدى أن
أقرأها بالعربية، فلم يليث القدر أن أتاح لى رؤية عنوانها فى المؤيد فتتبعها فصلا
فصلا إلى نهايتها، فكنت إذا أمعنت فى الموضوع الذى أقرأه محيت الحروف من
أمامى وزالت الصحيفة وهبط ستار الماضى، ورأيت طيبة الأحياء شامخة القصور
بجانب طيبة الأموات بانحة القبور، هذه تزدهم بالأقدام وتعالق فيها غمغمة
الأصوات بما لم تشهد مثله الشمس فى ذلك الزمان ولم تسمع مثله أذن إنسان،
وتلك ساكنة نائمة يلقي عليها القمر نوره الوسنان فترسل مقابرها الظلال الضخمة
إلى أقصى ما يحيط به العيان. هذه تمثل اجتهاد الأحياء وتنازع الطبقات، وتلك تمثل
سلام الرفقات وتأخى الأموات.

ثم رأيت ما كان من مطاعم ملوك، ومظالم ولاة، ودسائس كهان، وتحمل قوم
صبر ذلل، كالنبياق التى تتركب إلى الرزق مرة وإلى الحرب أخرى، إلى ما يماثل هذه
المشاهد التى لا يحيط بها إلا قلم كاتب بليغ أو رسام متقن.

ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية- بما طبعت عليه من التزام الوصف الحق، ومن
التباعد عن الخيال إلا بقدر ما يستطيع معه تجسيم المعنى الخفى فى شكل مألوف،
ومن تصوير حركات النفس فى كل حال من أحوالها- أطوع بكثير من لغتنا لأغراض
الكاتب فيها وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار، بحيث إذا أراد أديب منا أن

يحتذى مثالها في ذلك، جلّ ما يعانیه وبعدت عليه الشقة فلم يتسن له إدراك أمنيته إلا إذا كان مجيداً عارفاً بأسرار اللغة مفلول رأس القلم رياضة ومراسا. فالذى سرّنى في (وردة مصر) من هذا القبيل أننى قرأتها عربية كأنى أقرأها فرنسية وعجبت لما أوتيه معربها الفاضل من الذكاء والاقْتدار وملكة الإنشاء الجامعة علما الراسخة متانة اللينة قبولاً لانطباع الصور الجديدة فيها.

ولست هنا في مقام مدح وثناء، فإن صلّتى بصديقى مسعود تقضى علىّ بالجرى معه على القاعدة التى مقتضاها أن يكون حكم الأخ اعجاباً بأخيه حكم الأسير المقيد بيده ولسانه. فليكن ختام ما أذكره عن كتابه حث كل مصرى على اقتنائه. فإنى قلما وجدت أحداً من هؤلاء الإخوان الكرام واقفاً على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب في جمعه له واهدائه إليه.

وإنه من الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها لا تدرك حاضرها ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها.

هذه وردتنا، فعلياً أن نتمتع من شميم عرفها، وإلا فلا عطر بعد وردة، ولا أمة مع جهل، وما أجد طيبة الأموات أن تكون عبرة لطيبة الأحياء!

خليل مطران

الفصل الأول

وصف مدينة طيبة في ليلة صيف من سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد

يجرى النيل بالقرب من مدينة طيبة ذات المائة باب بين جبلين من الرواسى الشامخات، ينعكس خيال ذراهما العالية وسفوحهما المنحدرة على صفحة مياه اللجينية، ويختال في مشيته وسط الوادئ المحصور بينهما اختيال العروس في ثوبها الخزّ ليلة عرسها بين غادتين من صويحباتها.

وتمتد الصحراء فيما يلى الجبل الشرقى إلى حيث تنكسر بسواحلها أمواج البحر الأحمر، وترامى القلوات الجرداء خلف الجبل الغربى إلى أقصى مدى تدركه الأبصار. وفيما بين هذين الحاجزين تنساب مياه النيل حاملة في قطراتها عناصر الخصوبة ومواد الخير الوفير الذى يدور عليه محور حياة ألوف الألوف من النفوس، وما الابليز إلا الذهب الابرين.

وفيما يلى حافتى النهر يمنا ويسرة تنبسط الأرض صعيداً، مهدتها يد القدرة تمهيداً. وفي مائه العذب الفرات تغدو وتروح ألوف الأحياء المائية، على اختلاف أشكالها وتباين أنواعها، ومنها التمساح الهائل الجثة فاغراً فاه على الدوام. وفوق أغصان البردى اتخذت الطيور أوكاراً وملأت جوانب الفضاء بتغريدها اللطيف. وعلى السطوح الممهدة من الأرض تترنح المزروعات بمعاطفها اللينة على قوائمها اللدنة، فيخالها الرائي -لاتصالها بعضها ببعض- بساطاً غير متناه من السندس الأخضر. وفي جهات أخرى تدور عجلات النواعير بقرب أشجار الجميز التى يشعر الجسم في ظلها بطراوة المياه المتدفقة منها، فترتاح النفس وينشرح الصدر وينكشف الغم.

في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يرى الإنسان حوالى مدينة طيبة- عاصمة ملك الفراعنة- هذه المناظر البهيجة فيعجب من عنايتهم بتنسيقها وتعهدهم إياها بما يوجب دوام بهجتها. فإنهم أقاموا بينها وبين النيل السدود الضخمة لحمايتها من طغيان مياهه في أوان الفيضان وقسموها إلى أحياء، خصص أحدها -وهو الذى يلى النيل من جهة السدود- للمعابد والهياكل المشيدة على أجمل هندام، والثانى لقصور الملوك والأمراء، والثالث لمنازل الأهلين والعامّة. وكان ماء النيل يجرى بين هذه الربوع العامرة في سراديب ومسارب يحار العقل في وصف تشعبها وانعطافها وحصص عددها. وكانت الطرقات التى تتخلل هذه المباني الفخمة والقصور الباذخة لا يكف الناس عن الغدو والرواح فيها، فكانت حركتها الدائمة من دلائل توافر مشروط الحياة في تلك المدينة الجميلة.

وتجاه مدينة طيبة، على الضفة الغربية من النيل، كانت تناغى السماء مبانٍ سامقة منجدة متناء بعضها عن البعض الآخر، تحف بها أكواخ حقيرة كما يحف الأطفال بأمهاتهم. وكان الناظر إليها من قمة الجبل يخيل له أنها قصور الأمراء ودور الأغنياء تحيط بها قرى الفلاحين، أو من عرض السهل بدت لناظره منها أبواب متصل بعضها ببعض على خطوط مستقيمة متوازية. فكان أسلوب المباني ونظامها وتشعب الطرقات بينها وحركات السكان فيها غيرها في مدينة طيبة. فهنا تترتاح النفس لحسن النسق وجمال الهيئة وازدحام الناس في طلب الرزق ومزاولة الأعمال وسماع جلبة الغادين والرائحين وضحك الضاحكين وغناء المسرورين وتبتهج لوفرة دلائل الحركة والحياة وبواعث الفرح والانشراح، وهناك تنفر من قبح المنظر وعدم التناسق وقلة السكان ويتراكم لذلك عليها العناء، فلا عرابة إذا لقببت هذه بطيبة الأموات وتلك بطيبة الأحياء.

على أنه بالرغم من هذا السكون المحزن كانت لا تمر هنيهة إلا ويطلق الأذان فيها
 صدى الألحان والأناشيد تردده الآفاق من بعيد، وينحصر في مجال النظر ومطارج
 أشعه البصر مشهد المئات من الزوارق يتلو بعضها البعض مزينة بأجمل ما يلفت
 الأبصار من ضروب النقش والزخرف ومتجهة صوب الجبل في مظهر مؤثر من
 الخشوع والشجور. ولكن لم تكن تلك الأغاني إلا مراثى وهذه المراكب إلا مراكب تقل
 جثث الموتى إلى حيث توارى عن العيون، فإننا لله وإنا إليه راجعون. نعم إن منظر
 طيبة الأموات يشجى النفس ويؤلم القلب لأن السكون نشر عليها أجنحته، إلا أنها
 كانت لا تخلو من حركة تجارية فيما تستوجبه حالة الموتى من مقومات العناية
 بهم. فقد عرف المصري في العصور الخالية باعتبار الموت طوراً من أطوار الحياة
 وأن الأموات أحياء لا محالة على حد قول بعضهم:

قل لإخوان راونى ميتاً	فبكونى إذا راونى حزنناً
اتظنون بانى ميتكم	لست ذاك الميت والله اننا
أنا عصفور وهذا قفصى	كان سجنى وقميصى زمنناً
لا ترعكم هجمة الموت فما	هو إلا نقلة من ههنا
لا تظنوا موتاً إنه	لحياة هي غايات المنى

يحتضر المصري فيطبق آله جفنيه ويرسلون جثته إلى المحنط فيعالجها
 بمضادات العفونة، ثم ينقلونها إلى شاطئ النيل فالقبر المعد في الجبل لدقنها،
 ويقومون بعدئذ نحوه بسائر الفروض الجنازية. ولكنهم يعتقدون أن الروح إذا
 زابت الجسم تبقى على قيد الحياة وتوشك أن تحل في صور شتى أو تجيب دعوة
 أوزيريس إلى مصاحبته إياه في سفينة الشمس أو تهبط الأرض لمشاطرة الأرواح

نعمة القيام بأجساد الأحياء. ولقد رسخ هذا الاعتقاد في أذهانهم رسوخاً جعلهم يضاعفون العناية بتحنيط جثث الموتى لصونها من الفساد عملاً بالأصول القاضية بتقديم القرابين عنها من اللحوم اللذيذة والروائح الزكية والأزهار النضرة والفواكه اليانعة.

وكان لا يدنقل بدفن ميت ولا تُقدّم بعد وفاته القرابين للتكفير عن سيئاته إلا على أيدي الكهان. ولذلك كانت طيبة الأموات محط رجال العلماء وسدرة طلاب العلوم العالية. وكان لهم فيها بيوت يقيمون بها حول الهياكل، كما كان لطائفة المحنطين -الذين يتوارثون أسرار صناعاتهم عن الآباء والأجداد- منازل خاصة تحيط بمعامل التحنيط. وكانت الصناعات بها تنحصر في عمل التوابيت من الحجر أو الخشب، ونسج الأكفان التي تدرج فيها جثث الموتى، ورسم صور الأحبية والطلسمات الواقية من المكاره، كما كانت التجارة بالحوانيت وعلى أعطاف الطرقات مقتصرة على صنوف الأزهار والفواكه والروائح العطرية والفطائر المقدسة.

وكان من العادات الشائعة أن يتعهد زوار المقابر مايقدمونه من الوف الحيوانات- قرباناً باسم الموتى- كالبقر والماعز والغزلان والأوز- بالعلف اللازم، ثم يأتى الكهنة فيختارون منها ما يقدرّون على تطهيره من الدنس ويسمونّه بالميسم المقدس ثم يستاقونه إلى المعبد للقربان. وكان العاجز من عامة الناس وغوغائهم عن اقتناء ماشية يقربها باسم موتاه يشترى من القصاب قطعة لحم أو حيوانات مصنّعة من دقيق الحنطة ومبرقشة بالألوان الزاهية لتقوم الحيوانات الحية التي يقربها الأغنياء والكبراء.

وكان اتباع الكهان يبيعون في حوانيتهم المزخرفة ملفات من ورق البردى المسطر

فيه بعض الدعوات المقدسة، توضع مع الموتى في قبورهم لتعاونهم في ظلامها
الدامس على الخلاص من حبائل الشياطين ويستفتحوا بها أبواب السموات السفلى
حيث يجلس أوزيريس على منصة العدل وإلى يمينه ويساره اثنان وأربعون قاضياً
يتألف منهم مجلس العدل في باطن الأرض.

وكان الأهلون يجهلون ما يقام في الهياكل من الطقوس الدينية؛ فقد أحيطت
بسياجات عالية ذات أبواب لا تفتح إلا للكهان، كلما خرجوا في شروق الشمس
وغروبها إلى الخلوات أفواجاً متتالية، يترنمون بالأناشيد الدينية تعظيماً للإلهين
هوروس وطوم^(١).

وكانت المقبرة - عند الفراغ من ترنيم المساء - تخلو من الغادين والرائحين. لأن
زوار القبور كانوا - متى انقطعت أصوات النشيد - يسرعون بالفيئة إلى الشاطئ
حيث تنتظرهم الزوارق فيستقلونها إلى طيبة الأحياء وكانوا يتسكعون أحياناً في
الطريق فيطاردهم الحراس المنوط بهم حراسة القبور ووقايتها من عيث اللصوص
فيهرولون جماعات وشتى إلى ضفة النهر ويتهافتون على استقلال زوارقهم للعودة
إلى منازلهم.

وكان التجار يغلزون حوانيتهم والمحنطون يرجعون إلى أكواخهم الحقيرة
والكهان يوصدون أبواب الهياكل والأجانب الذين أقبلوا من الأنحاء القاصية لزيارة
موتاهم ينزلون بالفنادق ودور الضيافة المشيدة على ضفة النيل، مؤثرين التماس
الراحة بجوار الموتى على عبور النهر لقضاء الليلة في طيبة الأحياء التي لا تلبث جلبة

^(١) يشبه قدماء المصريين حياة الإنسان بالشمس في مسيرها، فشروقها رمز للطفولة وتسمى
فيه «هوروس»، وبلوغها الأوج رمز للفتوة وتسمى عنده «رع»، وأقولها رمز للشيخوخة
والهرم وتسمى فيه «طوم».

لناس فيها أن تمحو من النفوس ما انطبع فيها من الأثر المحمود خلال زيارة القبور.

خفتت أصوات المرتلين وانقطعت ولولة التكاالي وسكت نوتية الزوارق بعد إذ كانوا يملأون الفضاء بنشيدهم المنضود وغنائهم المعهود، وكان النسيم بعد ذلك يحمل إذ، السامعين صدئ أصوات بعيدة، ولكن لم تمض هنيهة حتى نشر السكون أجنته فوق ذلك المقام، دليلا على إدبار جيش النهار أمام جيش الظلام.

وكانت طيبة الأموات في هذه اللحظات كقفر لا ديار فيه ولا نافخ نار، يكدر صفاء أديم سمائه خيال الخفاش يلتمس بتحليقه فيها ضفاف النيل، فإذا ما بلغ إليه وارتوى بمائه العذب الفرات عاد إلى وكره في حنايا القبور وزوايا الصخور.

وربما شهدت العين أحيانا ظلال أشباح تمر على الثرى مرور الطيف، فإذا بها ظلال بنات أوى تتسلل إلى النهر بحركتها المعروفة يتبعها أمثالها، ثم تعود اسرابا شتى للوثبة على الأوز والماعز وما إليهما من الحيوانات التي أودعها أقارب الموتى الحظائر المسورة للتقرب بها إلى الآلهة تكفيراً عن ذنوب موتاهم.

ولم يكن أحد ليجسر على صد تلك الضواري عن هذه الحيوانات الداجنة الأليفة، لأن الديانة المصرية كانت تحرم مطاردتها بحجة أنها قد فازت بالقربى من الإله أنوبيس حارس القبور وحافظ الموتى من عبث الأشقياء والنباشين والمرشد لأرواحهم في الآخرة، ولأنها كانت إذا امتلأ بطنها بما تجد بجوار القبور من لحوم القربان لا تمس بأذى أحداً من سكان طيبة على الإطلاق.

وكان أقارب الموتى، إذا زاروا القبور فلم يجدوا بجانبها لحوم القربان، يطرون فرحاً ويتهللون بشراً لا اعتقادهم أن أكلها إنما هم أرواح موتاهم، فيبادرون بتقريب

غيرها وهكذا. وكان لا يعلم الحقيقة إلا الكهنة الذين توسلوا بينات أوى لجلب القرايين واتخذوها حارساً أميناً للقبور، فكانت تناهض النباشين كما يناهض الكلب الأمين من يريد الغدر بصاحبه.



أسلفنا أنه في تلك الليلة من ليالى صيف سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد كان السكون قد خيم على طيبة الأموات حين أتم الكهنة ترتيل أناشيدهم وعاد الحراس إلى مساكنهم، بعد أن جاسوا خلال الديار وطافوا بالقبور واطمأنت قلوبهم لغياب الدخيل. ولكن لم تمض بعد ذلك ساعة حتى سمع من شمال المقبرة هدير كلب من كلاب الليل لم يلبث أن انضم إليه ثان وثالث ورابع وتضاعف العواء، فهب رئيس الحرس من مرقده ونادى برجاله هلموا نستطلع الخبر. وبعد أن عين مصدر النباح أمرهم بالمسارعة إليه، فساروا. وكانوا كلما دنوا من المكان علا الهرير فمازالوا يقتربون حتى وصلوا إلى ربوة رأوا من أعلاها جهة الضوضاء فانقضوا كالأسود الكاسرة وسارعوا إليها فوجدوا الكلاب النابحة على مقربة من أعمدة هيكل سيتى الأول بن رعمسيس الثانى صاحب البطش والقوة، القابض في ذلك الوقت على زمام الأحكام في مصر.



وكان القمر قد علا على الأفق وأنفذ أشعته اللجينية إلى جميع المطارح فأنارت قمة ذلك الهيكل المنجد، وتراءى للأعين وقتذاك جمع حاشد من العبيد وقوفاً بجوار جدران الوثيقة وبأيديهم المشاعل يتصاعد منها الدخان كثيفاً، وخله وميض النار. وكان رجل قصير القامة بدين الجسم مزركش الثياب مهيب المنظر يدق بمقبض

سوطه باب الهيكل، وطائفة من الحشم والخدم حوله، وعلى مقربة منها محفة مرفوعة على الأعناق وفيها امرأة، ثم مركبة يجرها اثنان من الجياد الصافنات تحمل عادة هيفاء القد بارزة النهدي، وإلى جانبها رجل تبدو عليه آيات المجد والشرف، وقد التزموا الصمت جميعاً بينما كان الواقف بباب الهيكل يطرقه بمقبض سوطه فيردد الجوصدى طرقاته الشديدة.

وكان الوقوف متجهين جميعاً صوب باب الهيكل المقدس، لا يستطيع أحد أن يميزهم بعضهم عن بعض لاضطراب الضوء. فلما أطلّ بواب الهيكل من الكوة التي تعلو الباب تمكن بضوء القمر والمشاعل من معرفة أن الطارقين من أصحاب المراتب الشريفة والأقدار العالية، وأنهم ربما كانوا من أعضاء الأسرة المالكة، فسأل الطارق عما يريد. فرفع هذا رأسه رويداً رويداً، وقال بصوت جهورى فزع الواقفون منه وانتقضت لسماعه المرأة التي في المحفة: حتى متى ننتظر بالباب أيها الكلب الكسول.. انزل أولاً وافتح الباب ثم تكلم.. وإذا لم يكن ضوء المشاعل كافياً لتستوضح من نحن، فسيكتب لسان هذا السوط أسماءنا على ظهره فتعلم كيف تستقبل الأمراء.

فهبط الرجل وتبرطم متلعثماً بكلمات لا يفهم معناها والتفتت السيدة التي في المركبة إلى رفيقها الطارق على الباب وقالت له بصوت خافت: أنسيت يا (بعاكر) أنك بمصر وأنت لا تخاطب متوحشى الشازوس (١) بل كهنة يجب لهم الاحترام، لاسيما وأننا جئنا إلى هنا في طلب معونتهم ونجدتهم؟.. لقد تواترت شكايات الناس من غلظ كبدك وخشونة طبعك وكان لزاماً— إذا كانت الإساءة ديدنك— أن تعدل عنها هنيهة

(١) قبائل شرق مصر، وكانوا معروفين وقتئذ بالسلب وقطع الطرقات.

حتى نقضى الحاجة التي لاجلها طرقتنا هذا الباب.

فاهت الأميرة بهذه الكلمات بصوت كان له في قلب بعاكر أشد الوقع، فانحنى أمامها إشعاراً بالطاعة والخضوع، ولكن عقارب الغيظ دبّت إلى قلبه فرفع بالسوط يده وألهب به أحد الحبشان الواقفين إلى جانبه، فتلوى جسمه تلوى الثعبان ولم يسمع أحد له أنيناً لعلمه بطباع مولاه وأنه لو أن أو شكاً لأشبعه ضرباً وأوسعهما وكرباً.

وما فتح باب الهيكل حتى برز منه كاهن في مقتبل العمر تدل هيئته على الرفعة وسمو المكانة واستفسر من القوم عن سبب حضورهم إلى هذا المكان أثناء العبادة. فتحفز بعاكر للكلام، ولكن ابنة الملك خشيت أن يبتدر الكاهن بغليظ اللفظ فقالت: أنا (بنت أنات) كريمة رعمسيس وهذه الجالسة في المحفة (نيفرت) قرينة (مينا) الراسخ في الحسب والنسب وأحد أعيان المقربين من والدي.. وقد كنت سائرة في هذا الجمع بالوادي الممتد غربى المقبرة أتفقد الأعمال، وفي العودة صدمت مركبتى فتاة رائعة الحسن كانت تحمل ورداً نضيراً يشبه خديها فانكفأت على الأرض وأصيبت بجرح أخشى منه الخطر على حياتها.. ولقد عنيت نيفرت بأمرها فضممت جراحها ثم نقلناها إلى بيت أبيها (بينم)، من عمال المقابر الذين يشقون جثث الموتى ليحنطوها.

سأل الكاهن: وهل دخلت داره الحقيرة أيتها الأميرة؟

فأجابت: لقد كان هذا واجباً تفرضه على مقتضيات الحال.. ولست أجهل أن من يدخل ديار هذه الطائفة يدنس نفسه ولكن..

فنهضت نيفرت من محفتها وقالت: قد تطهر بنت أنات من الدنس على يدك أو

على يد أحد كهان هذا الهيكل.. أما ذاك الرجل فيبقى طول حياته تعساً منحوساً ، إذ قد لا تشفى ابنته من جرحها الخطير فيبقى بقية أيامه في لهف عليها وشقاء.

قال الحاجب (بنبيزا) من رجال كتشريفات الأميرة وخاصة المقربين منها: تبينت في طليعة الأمر أن غشيان دار المحنط يلحق الدنس بداخلها، فلما أبصرت بنت أُنات مصرة على دخول هذا الوكر اللعين الملوث بالأدناس بذلت في نصحتها كل مجهود ألا تدخل وأشرت عليها بالاعتصام على نقل الفتاة إليه وإتحاف أهلها بهدية ملكية سنوية تكشف عنهم الغمة، فأبت إلا أن تنفذ إرادتها. قالت بنت أُنات بصوت يكاد لا يسمع: الحمد للآلهة على ما قدرته وقضت به. ثم تحولت إلى الكاهن وقالت: أيها الأب الجليل.. لقد علمت قضاء الآلهة وما جبلت عليه من الشغف بمساعدة الفقراء والمنكوبين، وما أنذى قد يمت إليك راجية مبتهلة. فرفع الكاهن يده اليمنى وقال: أحسنت أيتها الأميرة صنعا، وثقى بأن هاتور^(١) هي التي بثت في قلبك الحنون عواطف الرفق وأودعته آيات الحقيقة. وبعد أن سكت هنية قال: لاشك أنك جئت إلى هنا في طلب طبيب لعلاج الجريحة. أجابت: نعم. فقال: سألتمس من رئيس الكهنة أن يكلف طبيباً ماهراً بمداواة الجراح، ولكنني أجهل مكان بيت المحنط فأين هو؟ قالت: بحرى بيوت حتاسو^(٢) وعلى مقربة من.. على أننى سأترك هنا أحد رجال حاشيتي ليرشد الطبيب إلى دار الجريحة. ثم التفتت إلى بعاكر وقالت: أرغب الوقوف على حالة الجريحة قبل شروق الشمس، فلا تنس ذلك يا بعاكر.

(١) هاتور هي ايزيس في حالة تصويرها تصويراً محسوساً، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنها إلهة الأنوار السماوية والحاملة لقرص الشمس بين قرني أحد الأبقار، وكانوا يلقبونها بذات الوجه الساطع الذي تنبعث منه أشعة مسرات الحياة وأفراحها.

(٢) كانت وصية على ثانی فراعنة مصر، وهي من ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

فتقدم بعاكر نحوها في احترام وخشوع مستفسراً أمرها، فقالت: أكلفك بمرافقة الطبيب الذى يعين لعلاج الفتاة وإرشاده إلى دار أبيها ومن الهين -على ما أعتقد- قيامك بهذه المهمة، فقد سبق لك أن جست خلال أحياء طيبة الأموات، ولا تنس أنك شريكى شيما لحق الفتاة من الأذى. قالت هذا ثم تحولت نحو الكاهن فائلة: أما أنت فسأشرح لك أسباب الحادث الذى أحزن فؤادى وأقلق راحتى.. كان بعاكر كثير المفاخرة والمباهاة بأصالة جياده الشامية زاعماً أنها أسرع من جيادى المصرية فأنكرت عليه حكمه الذى إليه ذهب وطلبته إلى المسابقة لاقتناعه بفساد هذا الحكم، فلما أجابنى إلى طلبى كان ما كان مما أثار الأحران والأشجان. قال رئيس التشريفات: الحمد لأمون أن لم يتسفلح الخطب ويعم الكرب، وأن وقف المصاب بعد جرح الفتاة عند تحطيم مركبة بعاكر وإصابة جواده الشامى بجرح بالغ. قالت الأميرة: سوف يهتم الطبيب بتضميد جراح الجواد بعد ذهابه إلى بيت بينم.. وهل تدرى يابنبيزا، أن هذى أول مرة سرتنى فيها اشتغال الملك أبى بمحاربة الأقطار البعيدة؟ أجاب رئيس التشريفات: لو أن جلالته كان هنا للقينا منه ما لا نود. وبعد برهة انقضت فى سكون، صاحت بنت أنات ببعاکر سائلة: أين الأطباء.. أين الأطباء يا بعاكر؟ لقد عهدت إليك إرشادهم إلى دار الجريحة ومبادرتى بشرح حالها فجر الغد.

وما أشار بعاكر برأسه إشارة الطاعة، حتى أمرت بنت أنات ركبها بالمسير. وقبل أن يتحرك الركب دنا منها الكاهن وبسط على رأسها يديه ليبارك فيها، فما أتم صلواته الطيبات ودعواته المباركات حتى أخذ الركب يسير حثيثاً نحو ضفة النيل، وظل بعاكر واقفاً بين عبيدين يشيع نيفرت بنظرات الحسرة على فراقها.

وما برح يستشرفها ويمد بصره إليها حتى توارت خلف حجاب الظلام، فانشأ عندئذ يفكر في منزل بينم ويناجى نفسه سائلاً عن موقعه من طيبة الأموات. وكان رئيس الحراس وأعوانه الذين استدرجهم نباح الكلاب إلى هذا المكان وقوفاً صقوفاً فسألهم عن بيت المحنط أجاب الرئيس: وماذا تريد منه؟ فقال بصوت المستبد المتجبر: وما شأنك يا هذا حتى تستفهم عنه؟ فأخذ الرئيس يحد البصر إلى رجاله محملاً فيهم حملقة الغاضب الساخر وقال: هلموا ننحدر من الشمال إلى الجهة التي زایلناها.

فتصلف بعاصر متغيظاً مما أبداه الرجل من قلة الاكتراث بأمره وإغفاله القيام بمفروض الاحترام له، وصاح بالحراس: أن قفوا فيأني قائد طليعة الملك. ةقال رئيس الحرس: إذا كنت تريد بيت بينم فاطلبه من الطريق التي جئت منها.. إلى الأمام أيها الجنود!

ما كاد رئيس الحرس يفوه بآخر كلمة حتى طرق الأسماع ضحك أغرب فيه الضاحكون على وجه أخجل بعاصر حتى هوى سوطه من يده دون أن يشعر، فالتقطعه العبد الحبشى الذى ضرب به منذ برهة واقتفى أثر مولاه الذى كان قد سبق إلى الهيكل لتبين أسباب الضحك و التنكيل بالضحاكين.

وكان حارس أبواب الهيكل - الذى أبدى رئيس الحراس أمامه ضروب الجراءة والتبجح - ملما بسر الضحك، فتقدم رويداً نحو الباب المفضى إلى صدر الهيكل مستتراً بالظلام. وبعد أن طرقة مراراً بعصاه الطويلة صاح: يا أولاد (ست) يا صيد المشنقة وقنص جهنم هلموا ابرحوا هذا المكان من غير توان. فانقطع الضحك فوراً وما هي إلا فترة من الزمن حتى انساب سرب من الأطفال يتبعهم ذلك الشيخ بعكازه

ثم دخلوا المكان الاول من أحد النوافذ، فعاد الشيخ الحارس ممسكا بأذن صبي نيفت أعوامه على الثلاثة عشر وقال له ولزملائه: سوف أخبر أستاذكم بقبیح فعلكم وذمیم خلقكم، أيها الجراد المنتشر.. أيها الخفافيش القذرة الضاریة.. أيها الوحوش.. أيها النسل الشقی والذرية الشريرة!

وبیان الحادث أن أطفال المدرسة رأوا باب الحبس الذى حبسوا به مفتوحاً فافلتوا منه وانطلقوا يضحكون ويلعبون ويسخرون من الشيخ حارس الأبواب فقبض على أكبرهم سنأ، وهو ذلك الصبى وأخذ يعرك أذنيه بین إبهامیه وسبابتیة. وما رضى أن یخلى سبیله إلا بعد أن أمسك الغلام بلحیتة مستمیحاً منه العفو، واعدأ إياه بالنبيذ الذى ترسله إليه والدته كل أسبوع. ولكنه قال له وهو یجرى واضعاً يديه على أذنيه من شدة ما نابهما من الألم: لست أغضى على فعالكم الذمیمة وحیلکم الكریهة، أيها التلاميذ. كلا وإنكم لتجهلون حقیقتی.. لقد انتويت ألا أشكوكم إلى الأستاذ، بل إلى الآلهة.. أما نبيذك أنت أيها الغلام، فخليق بك أن تقر به إلى مقامهم الأسنى لیصفحوا عن زلتك ويتجاوزوا عن خطیئتك.

الفصل الثانى

بنطاق والشاعر

كان الهيكل الذى برح الكاهن فناءه لاستدعاء الطبيب وظل يعاكر ينتظره فيه حتى يعود هو بيت سیتی الذى لا يعدله فى انفساح الجوانب وترامى الأركان غير هيكل تحتمس الثالث الذى أقام أمينوقيمس الثالث عند مدخله تمثالين عظيمين يسمى أحدهما ممون، وكان بيت سیتی بناء ممرداً وصرحاً منجداً بلغ من الاحتفال بتنميته ما لم يجاره فيه هيكل من هياكل طيبة الأموات. وقد بدأ بوضع أساسه رعمسيس الأول لما اغتصب صولجان الملك وجلس على عرشه. وأتم بناءه من بعده سیتی الأول وإليه نسب. وكانت تقام فيه الصلاة على أرواح الموتى من الأسرة المالكة والأسر العريقة فى المجد والحسب وتعقد به الحفلات علانية، إجلالاً لألهة السماء السفلى.

ولقد أجرى الملك عليه الأرزاق الواهرة وخصص لمعهده الدينى الكبير والمدارس الصغرى التابعة له المرتبات الجزيلة، وعنى بإنشاء هذا المعهد ومدارسه على مثال معهدى عين شمس ومنفيس ومدارسهما، ليتوافر الطباق فى منافسته إياهما فى ميادين العلوم والمعارف، رجاء أن تتفوق طيبة عاصمة مصر العليا وقتئذ على مدائن مصر السفلى التى كانت لذلك العهد مركز دائرة العلوم ومنبع أنوار المعارف.

وكانت مدارس بيت سیتی تمتاز على نظيراتها^(١) بالمعهد الدينى العالى الذى كان

(١) إن البيان الآتى عن نظام مدارس مصر القديمة مستخرج بأكمله من أوراق مؤرخة من عهد رعمسيس وخلفه الملك منفتح.

يتلقى فيه نجباء الطلاب علوم الدين والطب والحقوق والرياضة والفلك والنحو وغيرها، على علماء برزوا في هذه الفنون واشتهروا فيها بالبراعة والنبوغ. وكانت تجري الأرزاق لذلك عليهم من فيوض المكارم الملكية، إذ كانوا يأكلون ويشربون وينفقون على حساب الملك.

وكان لأولئك الطلبة -إذا أحرزوا درجة عالم فقيه أو كاتب مجيد- أن يستعينوا بمعلوماتهم على كسب معاشهم. وقد أنشئت لهم بالمدرسة دار عظيمة للكتب تحتوي آلاف المصنفات النفيسة، يتصل بها معمل لتحضير ورق البردى. وكانت إدارة المدارس الملحقة بذلك المعهد تناط ببعضهم من أن إلى أن.

وكان عدد تلاميذ كل مدرسة من المدارس الابتدائية التابعة لمعهد بيت سیتی لايتجاوز المائة، يشترط في قبولهم بها أن يكونوا من أبناء الوطن الأحرار، لا فرق بين غنى وفقير أو عزيز وحقير، وكانوا يقيمون بها ليل نهار على أن يدفع أهلهم أو أولياء أمرهم مالا معيناً في مقابل ما يتناولونه من الغذاء، وإلا أرسلوا إليهم من بيوتهم في مواعيد موقوتة مايقوم بأودهم من الطعام والشراب. وكان لتلاميذ الداخلية من أبناء العظماء والأعيان مكان خاص بهم يكونون فيه تحت رقابة الكهنة وعنايتهم، ويدفعون في مقابل تعليمهم علوم الدين والدنيا المبالغ الفادحة. وقد رُبي رعمسيس الثانى بن سیتی الأول في هذه المدرسة.

وكانت برامج المدارس الابتدائية وأنظمتها تتطلب من التلاميذ الالتفات إلى الدرس والمثابرة على تفهمه، فإذا خالفوا هذه الأنظمة ولم يراعوا العمل بنصوصها عوقبوا ضرباً بالعصى، وهي العقوبة الشائعة وقتئذ بالمدارس كما يثبت المثل المصرى القديم : «إن أذان التلاميذ في ظهورهم.. فهم لا يسمعون إلا إذا ضربوا».

وكان لا ينقل التلميذ من مدرسة ابتدائية إلى مدرسة عليا إلا بعد اختبار دقيق يكرم فيه ويعظم شأنه. وكان للتلميذ الناجح أن يختار من بين أساتذته الأقدمين أستاذاً يستمر في التلقى عليه، حتى ينبغ في العلم الذي انصرف إلى تحصيله، ويلازمه ملازمة الظل للشبح ويبقى خاضعاً لأمره. وبعد انقضاء سنوات في الدرس والبحث والتحقيق والتقرير يمتحن فيما حصله من العلوم أمام العموم لينال مرتبة فقيه أو ليرشح لمناصب الحكومة.

وكان هناك فيما عدا هذه المدارس مدارس الفنون والصناعة، كان الطلاب يتلقون فيها العلوم المؤهلة لتخريج مهندسي العمارات والنقاشين والمصورين. وكان نظام التعليم فيها عتبه في الأولى، أى أنه كان للتلميذ أن يختار المعلم الذى يأمل بالتلقى عليه الوصول إلى ذروة التقدم والنجاح.

وكان عدد الأساتذة في المدارس كلها ثمانمائة أستاذ، تخرجوا جميعاً من بيت سیتی. وكانوا ينقسمون إلى خمس درجات ويرجعون في أمورهم إلى ثلاثة رؤساء يعرفون بالأنبياء، أشرفهم مرتبة وأرقاهم درجة في العلوم والفنون رئيس كهنة بيت سیتی الذين كان يتجاوز عددهم في طيبة الأموات الوفاً كثيرة.

أما بيت سیتی فكان بناء وطيد الجدران شامخ الأركان، يصل الإنسان إليه من نهج قويم أخذ من ضفة النيل إلى باب السياج المحيط به. فإذا دخل من هذا الباب وجد نفسه في فناء فسيح يحيط به من الجهات الأربع صفان متوازيان من الأعمدة الضخمة، يقابل كل عمود من صف نظيره من الآخر. وشهد أمامه تجاه الباب باباً آخر توفر المهندسون على الاحتفال بتنسيقه والمبالغة في تنميته، وإلى جانبه هرمان ناقصان زادا في حسن النظام وبهجة المنظر. ويؤدى الباب إلى فناء آخر يشبه الأول

حجماً وشكلاً، إلا أنه ليس فيه سوى صف واحد من الأعمدة بالواجهة المقابلة للمدخل الذى أوردنا وصفه.

وكان بيت سیتی وراء طائفة من منازل كبيرة مكعبة الشكل مشيدة بالأجر النىء المتخذ من طمى النيل ومجصصة بالجير. وقد زينت بالصور والنقوش الهيروغليفية وأعدت لإقامة الكهنة والمدرسين. وكان نظامها الهندسى من الداخل واحداً، إذ كانت تتألف من فناء تحف به ممشاة من الخشب تؤدي إلى حجرات الأساتذة وتتوسطه نافورة ينبط منها الماء على الدوام فى حوض تحيط به شجيرات الأزهار وتنصرف المياه منه فى مسارب متعددة حتى لا تبقى فيه أسنة. وكان الطلاب يقيمون بالطبقة العليا من تلك المساكن ويتلقون الدرس فى فناء غير الذى وصفناه، جلوساً على حصر مبسوطة فوق الثرى.

أما دار كبير الأنبياء الثلاثة ورئيس كهنة بيت سیتی، فكانت على مسافة مائة خطوة من واجهته الخلفية تكفه من الجانبين أشجار باسقة ظليلة. وكان القصاد يعرفونه من بعيد بما يخفق من الأعلام الكثيرة حول سطوحه. وكان الأنبياء لا يقصدون إليه إلا لإدلاء المفروض عليهم من الواجب نحو النبى الأكبر ثم ينصرفون إلى طيبة الأحياء حيث يسكنون مع أسرهم فى منازل خصت بهم.



نعود الآن إلى ذكر ما وقع عقب انصراف الأميرة بنت أنات فى موكبها الحافل إلى ضفة النيل ودخول بعاكر بيت سیتی للبحث عن الضاحكين الذين ظن أنهم يهزأون به.

ألقت الضجة الهائلة التى حدثت عقب حضور الأميرة وانصرافها - فى وقت جرت

العادة بأن يكون من أوقات السكون- الذعر في روع الكهنة والعلماء والطلاب، فخرجوا من دورهم هائمين استطلاعاً للحقيقة وصاروا في حالتهم هذه أشبه بالنمل إذا دهمتهم مصيبة فخرجوا من مساكنهم، ثم أخذوا يجتمعون زرافات حول الهيكل ويتساءلون عن هذا النبأ ويذهبون مذاهب شتى في تفسيره ، فمن قائل إن رسالة ملكية وصلت إلى رئيس الكهنة، ومن قائل إن المحنطين وفاتحى جثث الموتى انقضوا على بنت أنات وأصابوها بأذى.

وكان بين الطلاب الواقفين غلام ممن هربوا من السجن، فقال للقوم: إني ملم بحقيقة الواقعة وهى أن بعاصر رئيس طلائع الملك أدخل في بيت سيتى رغم أنفه ليحسن الكتابة. أراد التلميذ بهذا الكلام التشهير ببعاكر والسخرية منه، لأنه كان في طفولته من طلاب بيت سيتى وكان معروفاً بين أقرانه بكثرة الأغلط النحوية في كتابته. وله في ذلك حوادث ماثورة تضحك الثكلى. وقد بقيت شائعة على ألسنتهم يلقنها طلاب الفرق العليا لمن يأتون بعدهم وهكذا. فلما سمع الحاضرون ذلك أغربوا في الضحك وصفقوا سروراً واستحساناً.

وعزّ على القوم الاهتداء إلى الحقيقة. فلما حضر أحد الكهان قال لهم إنه رأى بعاصر بفناء الهيكل غير أنه لم يدرك سبب حضوره في هذا الوقت، فاعتقدوا صدق مارواه الغلام الساخر، وإن لم تكن علاقة هناك بين مركزه السامى في معية الملك وبين ما يعزونه إليه من الجهل بالقواعد النحوية وتصريف الكلام.

ولما كثر الهرج في الطريق -لاختلاط الطلاب وعدوهم ورواحهم وتساؤلهم ومزاحهم- هبّ (أمينى) رئيس الكهنة من مكانه ليقف على سر هذا الضجيج.

وكان أمينى هذا ابن (نبكت) من عائلة عريقة في الحسب . وقد نال منصبه عن

كفاءة واستحقاق، فامتد نفوذه الدينى إلى مدارس الكهنة فى جميع أنحاء القطر. وكان إذا شجر خلاف أو حدثت شبهة فى أمر يتعلق بالعلم أو الدين وذهب كل فريق مذهباً! استعانوا بمعارفه الواسعة على حل عويصات المسائل ورضخوا لحكمه وأخذوا به قضية مسلمة.

وكان الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وانفراج مذاهبهم يعدونه المثل لروح الكهنوت، فكان إذا جهر بفكرة تصدم أفكارهم أو رأى يعارض - ولو فى الظاهر - آراءهم فى العلم والدين امتثلوا لحكمه فيها وأقروا له بالطاعة، لما وقر فى نفوسهم من الاعتقاد بانصراف أقواله وأعماله إلى غايات تخفى على مداركهم، ولا سيما أن التجارب العديدة دلتهم على وجوب حسن الظن به.

وكان الملك يبالغ فى توقيره وكثيراً ما كان يصدق النعم عليه ويخصه برعايته ويستميله إلى تقلد منصب الحافظ الأمين لخدمته، فلا يلقى منه إلا إغراضاً مفضلاً البقاء فى منصبه الدينى الذى كان يباشر أعماله الدقيقة مطلق اليدين فى كل شىء إلا ما تقيدهما فيه القوانين الرسمية. وكانت نفسه تعاف مظاهر العظمة الباطلة وتجنح إلى التواضع والانجماع عن الناس. وكان لا يهرب مخالفة أوامر البيت الأعظم (١) مادامت غير متفقة مع أفكاره وآرائه.

وكان أمينى من أحرص الناس على رعاية النظام فى معيشته لا يصرفه عنها صارف مهماً جل، فكان يخص من كل عشرة أيام ثمانية بفروض وظيفته ويومين بالإشراف على شؤون أسرته. وكان أخصاؤه وأقرب الناس إليه يجهلون أى يوم من

(١) البيت الأعظم أو الباب العالى هو قصر الملك، وكان يسمى باللسان المصرى القديم برايا، ومنه اشتقت لفظة «قرعون» مع تحريف كبير فى اللفظ.

تلك الأيام يعبر فيه النيل إلى طيبة الأحياء ليقضى بعض ساعات الفراغ بين عشيرته وذوى قرباه.

وكان لا يستغرق نومه أكثر من أربع ساعات في اليوم قبيل الظهر أو بعده في غرفه مظلمة لا تصل إليها ضوءاء المارة ولا ضجيج الطلاب. وكان لا يغمض الطرف في أثناء الليل، لأن طراوة الجو والسكون الذي يشمل فيه الكائنات كانا يبتان في نفسه القدرة على العمل، من تصنيف ومطالعة وبحث ومراقبة لحركات الأجرام السماوية وكان من أحرص الناس على رعاية الأصول الدينية والطقوس الرسمية من وضوء وطهارة وصوم وجز لشعر الرأس.

وكان في الخمسين من عمره، طويل القامة، قوى الأساطين دون بدانة، وضخم كغيره من أهل الشرق إذا ناهزوا هذه السن، واضح الجبين، جميل الطلعة، تبدو من شفطيه الرقيقتين ابتسامة مستمرة، واسع العينين، تدل عيناه على عصمة النفس من الانفعال بعوامل الشهوات. وكان مطرق الرأس على الدوام، فإذا أحب أن ينظر أو يتكلم رفعه ببطء مقلباً عينيه ببطء كذلك.

وقد تغزل بنطاؤز نابغة بيت سیتی في النظم في عينيه فشبههما بجنود أحسن قائدها قيادتها في ميدان القتال ثم تركها تلتمس الراحة حتى إذا عاودها النشاط ووجدت ما فقدته من قوة هبت إلى القتال بعزم جديد وإقدام يكفل لها الانتصار في ميدان الفخار.



لما سمع رئيس الكهنة ضجيج الطلاب عندما أقبلت بنت أنات على الهيكل وعادت منه، برح حجرته لاستطلاع الخبر. وكانت هذه الحجرة من أوسع حجرات الهيكل

وأحسنها شكلاً، إذ كان النصف الأسفل من جدرانها إلى ما يوازي ارتفاع القامة مكسواً بالفضائر الخزفية وما بقى منها مزيناً بالصور والنقوش العجيبة. وكان لا يوجد بها من المتاع غير مائدة كبيرة وسريير للاضطجاع يعلوه متكأ من سن الفيل بشكل الهلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراسى عديدة وخزانة تحتوى أوانى معدن وقدوراً من صلصال، وأخرى تحتوى قناني وقوارير زجاج. وهذا فيما عدا العلب المختلفة الأشكال والأقمار وصدف البحر بأنواعه. يضىء هذا كله ثلاثة مصابيح تشبه الطيور في صورتها ويمد فتيلتها بالضوء ما تحتويه من زيت الخروع.

وكان، لباس أميني ثوباً من التيل سابلا إلى كاحل القدم ناصع البياض كثير الثنيات، عليه وشاح ذو أهداب مرسله محيط بخاصرته ومعقود من الأمام في نقطة ينسدل منها طرفاه إلى ما يوازي الركبتين، متماسك الأجزاء بحمائل مزركشة بالذهب. وكان بعنقه عقد لؤلؤى وأحجار كريمة منضودة على مثال فرعين متعانقين من سعف النخل، وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز.

فلما نهض - وهو بهذا اللباس - من كرسيه المفرغة قوائمه على مثال مخالب الأسد أشار إلى عبد قاعد القرفصاء بجوار الحائط، فأدرك العبد ما أمره به مولاه فقام من فورهِ وأقبل مسرعاً نحوه ووضع على رأسه جمجمة صناعية ألصقت بها شعور متجعدة ومرسله من حولها إلى الكتفين^(١)، ثم تناول فروة فهد، رأسه ومخالبه من الذهب الخالص وأفرغها على كتفيه. وتقدم بعد ذلك عبد آخر يحمل مرأة من المعدن الثقيل فترأى أميني فيها وسوى جمته ثم قدم إليه عبد ثالث محجن (١) كان وجهاء قدماء المصريين يحملون فوق رؤوسهم شعوراً مستعارة، ولا يزال بعض هذه الشعور محفوظاً في دور التحف.

الرئاسة الكهنوتية، ودخل في أثناء ذلك كاهن أخبر الرئيس بحضور الشاعر بنطاؤور.

أذن أميني للشاعر بالدخول فدخل ودنا منه وجثا أمامه على ركبتيه ثم تناول يده ولثمها. فقال أميني: قم يا بنى فإن في حضورك ما يكفيني مؤونة الخروج في مثل هذه الساعة للوقوف على سر هياج الطلاب حول الهيكل بما لم يعهد مثله في سالف الأيام فهل وقفت على بعض هذا السر؟ أجاب بنطاؤور: لم يقع ما يخالف العادة أيها الأب المبجل، وكل ما في الأمر أن الأميرة بنت أنات جاءت الهيكل في طلب أحد الأطباء. قال أميني: وهل بها أذى من مرض أو غيره؟ أجاب: كلا، فإن صحتها على خير ما يرام غير أنها كانت تسابق بعاكر بجيادها الصافنات في واد ضيق فصدمت مركبتها ابنة المحنط بينم، ولما كانت نفسها مجبولة على الرحمة فقد نقلت الجريحة إلى بيت والدها. قال أميني: وهل غشيت الأميرة هذا المكان المدنس؟ أجاب بنطاؤور: نعم غشيته. قال أميني: وأظنها جاءت الآن تطلب تطهيرها من شوائب الدنس. أجاب بنطاؤور: نعم ، لأجل هذا أتت. ولقد رأيت صواباً أن أقابل ملتمسها بالقبول، لأن عاطفة الرفق ببني الإنسان هي التي دفعتها في مأزق المخالفة لطقوسنا الدينية، ولأنه لا يصح - في اعتقادي - اعتبار الشفقة إثماً واصطناع المعروف نقصاً.. وهذا الإله رع الذى يجوب السماوات العلى في زورقه الذهبى ألا يرسل أشعته الشمسية إلى أكواخ الفقراء كما يرسلها إلى قصور الفراعنة ودور الأغنياء؟ فلماذا تكون بيوت هؤلاء طاهرة وأكواخ أولئك مدنسة؟ وإذا كان قلب الإنسان يفيض بالشفقة والحنان أفلا يجدر به أن يشمل الفقراء والبائسين بالعطف والإحسان؟.. وأى إحسان أفضل عند الله زلفى من مواساة جريح طريح الفراش لايملك من وسائل العناية ما يحفظ به حياته؟

قال أميني: أنت يا بنطاؤر تتكلم بلسان الشاعر الذي خدعته لطافة العواطف، لا بلسان الكاهن الذي سما إلى أشرف درجات العقل والحكمة واستحق بهذا الفوز الساطع أن أسميه أخى وأن أعتبره خدنى وظهيرى! اعلم أن أعمالنا وتجاربنا لا تُوجد معدوماً ولا تحُدث في هذا الكون شيئاً غير الذى كان، وأن هذه الأعمال والتجارب ترشد إلى وجوب المحافظة على تقاليد السلف الصالح. ولقد سمعتك منذ أسبوعين تعظم في صلواتك علم أحوال الغابرين وتسال الله تأييدك بها وإمانتك على حفظها، فكيف تغيرت أحوالك وتقلبت أطوارك؟ ألا تدرى أن من العلم ما يشبه النار، إذا حصله من يحسن تدبيره والتصرف فيه أفاده المزايا الجليلة، وإنا تناولته يد الطفل - والشعب يظل طفلاً دائماً - شبّ بسببها حريق هائل يأتى على كل ما أولدته القرائح في الأزمان الغابرة من جلائل الأعمال ومحامد الخصال؟ إنا معشر المحيطين بأسرار الدين نستطيع - متى أردنا - أن نوسع نطاق معارفنا ومعلوماتنا بالتجارب نقوم بها داخل الهيكل حيث لا غريب ولا رقيب، وذلك حرصاً على عقائد العامة والسذج الذين يخدمهم حب التقليد أن تتزعزع فيحيدون عن جادة الصواب. ولقد عاهدتنا يا هذا بقسم غليظ أن تحافظ على هذا المبدأ وأن لا تخيس بعهدك، فلم جئت الآن تحنث بيمينك وتهتك حرمة الواجب الذى فرضت على نفسك القيام به، وهو المحافظة على تقاليد الآباء والأجداد ودعوة الخاصة والكافة إلى السير عليها؟ اعلم يا بنى أن الأحوال الآن ليست مثلها فيما غبر من الزمان. ففي عهد الملوك السالفين كانت جذوة النار التى ذكرتها لك على سبيل المجاز مضطربة ببن جدران نحاس يمر الشعب بها فلا يدرى حقيقتها. ولقد رأيت اليوم ثلثة في هذه الجدران أخشى أن يحمل العامة حب الاطلاع على النظر منها إلى ما في الداخل أو أنه إذا سطعت منها أنوار الحقيقة فبهرت أبصارهم وفتنت عقولهم أذاعوا أسرار ما ولاكت

الاسنة أخبارها وسقطت في درك البدهيات العادية التي ألفتها الأفهام.

وهنا بع صوت أميني كمن ينقل بتأثير وجداني شديد، وشخص بعينه في بنطاؤور وظل ثابتاً هكذا مدة من الزمن استأنف بعدها الحديث فقال: إنا نستنزل اللعنات على كل كاهن يوسع تلك التلمة، ونحكم عليه بالطرد والنفى، ونعاقب بهذه العقوبة كل كاهن يراجع عن سد أية ثغرة تحدث في أركان الدين جهد الإمكان.

فما سمع بنطاؤور هذا الكلام حتى علت وجهه حمرة الخجل وصاح بصوت الفازع: أبت!.. أبت!.. قدنا منه أميني ووضع يديه على كتفيه.

وكان الرجلان متماثلين في اعتدال القوام وتناسب الأعضاء حتى لكانهما من نبتة واحدة، غير أنهما مع تشابههما في الجثمان كان الاختلاف بينهما واضحاً في الوجدان. ذلك لأن أميني كان مستحكم الشكيمة قاسى الطبع قوى الإرادة ثابت العزم قادراً على قمع النفس بعكس بنطاؤور الذى كانت أعماله وأقواله تستمد مما جبلت عليه نفسه من عواطف الحنان وميول الخير والإحسان. وكان مما تهواه نفسه اللقاء بفقر بائس أو حزين يائس فيسرى الهموم بإسعاف العانى وفك كربته وتسلية الحزين والتأسى على مصيبيته.

وكان بنطاؤور إذا فكر أو تكلم نمت عيناه وشفثاه على دخيلة نفسه وما ينتابها من الريب والشكوك. ولقد لاح من هيئته - لما استقرت في سمعه كلمات التعزير والتفريع التي وجهها إليه رئيس الكهنة - أن بعض تلك العواطف كانت تحفزها لمعارضته ومناقشته الحساب فيما أنذره به. غير أنه كان لسمو مركز الرجل وشرف رتبته من الأثر في نفسه ما لم يجد معه بدا من الرضوخ لأمره، فأثر ملازمة الصمت على كلام ربما أدى إلى توسيع هوة الخلاف فمضاعفة التعنيف،

والاعتساف. وكان جسمه -لكظمه الغيظ في نفسه- كالقدر تغلى فوق النار، إذ أخذته هزة شعر بها أميني حينما وضع كفيه على كتفيه.

وإذ أحس رئيس الكهنة بأثر هذا العامل الوجداني قال له بصوت تخالطه الرحمة والشدة: نعم كان لا مفر لى من تعنيفك وعقابك. ثم أخذ يمين بنطاؤر وتراجع إلى الوراء قائلاً: إنى لمغتبط بما هيأته الظروف من ضرورة توقيع العقاب عليك، مع أننى أحبك وأريد لك الخير وأوليك الاحترام الذى أنت له أهل بما جمعت نفسك من صفات عالية وإرادة تذلل بها الصعوبات.. واعلم أن عادة الزراع قد جرت بإغفال الحشائش الرديئة لكى يستطيعوا -إذا نمت- استئصالها من جذورها.. وأنت والحمد لله لم تكن من فصيلة هذه الحشائش بل أنت شجرة مباركة غرست فى أطيب مغرس، إلا أن الغارس فاته أن يتعهدا بالرى ويسوق إليها ما تحتاجه من مواد النماء لتبقى ملتفة الأفنان وارفة الظلال فتلاقي مغبة الغفلة باقتضاب الأغصان الزائدة، ويلوح لى على وجهك أثر التذمر من الشدة التى أعاملك بها، ولكن ألا تجعل لنفسك من نفسك حكماً لترى مقدار ما احتوت الجهالة عليه منك حتى صدتكَ عن السعادة، وأن شيطان الغرور زين لك قبيح العمل فأضلك عن سواء السبيل وأن رعونة الشباب قد استحوزت عليك فصرفتكَ عن الرشد؛ لعلك رأيت أن ليس فى الأمر من بأس! ولكن أنسيت أن ذنبك يعد بذنبين وأنت تستحق عليه عقوبتين؟ إن ابنة الملك التى ينبغى أن تكون لغيرها من رجال الشعب ونسائه قدوة حسنة قد تلوثت بحمأة الخطيئة إذ دخلت بيت بينم، فإذا جاريناك على اعتقادك أن الاتصال بالمدنسين لا يشوب بالدنس أصحاب المراتب السامية والأقدار الشريفة، فماذا تكون العاقبة؟ إن القوانين التى سنها السلف الصالح يذهب بسلمانها على النفوس احتقار الأهالى لها، إذ يعتقدون أن المحنطين أناسى مثلنا وأن

الأوامر الماثورة بالفرار منهم كما يفر السليم من الأجر لغو وباطل.. ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد! إذ لا مناص لهم من النظر في المسائل الدينية الأخرى فتتبدد غيوم الريب والشكوك ويذهب كل واحد في تأويلها إلى ما يطابق مصلحته فتكثر البدع وينتلم ركن الدين ويكون الفشل والتفريق والعياذ بالله.. ولكأنك اليوم تروم بفعلك فتح باب للأعداء يلجون منه إلى باحة ديننا القويم ثم يتسورون أسواره الضخمة المتينة ليهدموها بمعاول الحقد والضغينة...

ألا تعلم يا بنى أن طقوسنا الدينية أصبحت كمركة على منحدر ينتهي إلى هاوية سحيقة، القرار، وأنه لا يعوقها عن التدهور فيها إلا ما استندت إليه عجلاتها من الأحجار التي إذا رفع طفل أحدها هوت إلى قاع الهاوية وذهبت حطاماً؟

لنفرض أن الأميرة هي هذا الطفل وأن المركبة يوقفها في مكانها رغيف خبز بدلا من حجر وأنها تحمل أباك وأمك وبعض أهلك الأقربين، أفتود أن تتناول هذا الرغيف لتتحف به جائعاً التصق بطنه بظهره من فرط الطوى ثم تدع أهلك الأعداء يهونون في الهاوية التي لا قرار لها؟.. إنى لا أظنك تحير جواباً على هذا السؤال وليس عندي حاجة شك في أن الأميرة ستقصد غداً دار بينم. فعليك أن تنتظرها عنده لتخبرها بالمسارعة إلينا حتى نطهرها من أقدار الدنس، أما أنت فقد أعفيتك من كل عقاب سوى ما قضيت به عليك من قبل.. أن الله أجزل لك من هبات العقل والفهم ما تستطيع به الصعود إلى نرى الحكمة وتصون به إيمانك، فكيف يفتنك الشيطان بغروره وكيف لا تلزم سبل التقوى والرشاد ليحبك الله والعباد؟

ولما أتم أمينى نصيحته، أمر بنطاؤور باصطحاب الأطباء إلى بيت بينم لعلاج الجريحة، ثم سأله: هل في الهيكل من يعرف هذا البيت؟ أجاب بنطاؤور: إن ابنة الملك

أمرت بعاكر قائد الطليعة بالبقاء هنا ليرشد الأطباء إليه. فقال رئيس الكهنة باسمًا:
وهل يناط بمثل قائد طليعة الملك الاهتمام بابنة رجل يشق بطون الموتى ويحنطها؟..
فرفع بنطاؤر رأسه عندئذ رويداً رويداً وقال متنفساً الصعداء: وهل يناط ببنطاؤر
بن البسناني الحقير توبيخ ابنة الملك؟.. فقال أميني: ما دمت يا بنطاؤر خادماً للرب
ومنتظماً في سلك الكهنوت فلا يحق لك أن تنظر في التفاوت بين درجات الجناة
والخاطئين. إن بنت أنات مهما تكن من سموق المجد وكرم المحتد لا محيص من
مساواتها بالفقيرة المعدمة متى كان الغرض من تقيعها التحذير من السقوط في
مهاوى الخطيئة. فأحنى بنطاؤر رأسه امتثالاً ثم خرج، بينما كان أميني يناجى
نفسه بقوله: لقد وصل كلامي إلى قرارة نفسه فأثر فيها، غير أنه ما برح متمادياً
في غيه ومصرأ على بساطله. ثم سكت وأخذ يمشى سهلاً بخطوات واسعة سريعة
وقال: إن لهذا الشاب مستقبلاً مجيداً يكون له فيه شأن خطير.. إنه لا تنقصه مزية
من مزايا العلم وشدة العارضة ودقة الشعور، ولقد استمال القلوب إليه حتى قلبى
الذى كأنه قد من صخر. على أنه يجب أن يجمع إلى هذه المزايا خصلة الطمع
والطموح إلى المعالي، فلنبادر إلى إضرام نارها في قلبه، فإن في ذلك خيراً لنا وله.

الفصل الثالث

ما كان منذ ٣٠٠٠ سنة في غرفة الطبيب ورأسه

امتثل بنطاور لأمر أميني فاستدعى بعاكر الذي كان ينتظر بالفناء حتى عيل صبره. وبعد أن أدخله عليه عاد ليقابل الأطباء ويسألهم معالجة الجريحة. وكان رهط من كهان بيت سیتی يزاولون الطب^(١) وكان من يريد منهم بعد إتمام الدراسة في هذا البيت إحراز رتبة كاهن أو درجة النبوغ في الطب يقصد إلى (عين شمس) حيث كانت توجد أقدم وأكبر مدرسة طبية في الديار المصرية، فيتلقى فنون الطب فيها حتى ينال درجة (رئيس) فيها كلها أو في واحد منها كالجراحة أو أمراض العيون، ثم يرجع إلى طيبة ليعين إما في قصر الملك أو يندرج في سلك الأساتذة فيما برز فيه أو يزاول معالجة المرضى في الفرع الذي نبغ فيه، ويمهر في ذلك حتى يمتد صيته في الآفاق وتخرق شهرته السبع الطبايق. وكان الأطباء يقطنون طيبة الأحياء مع خضوعهم للنظام الكهنوتي، بمعنى أنه إذا مست الحاجة إلى طبيب لا يطلبه أحد رأساً من منزله بل من هيكل سیتی، يفاوض في هذا الطلب رئيس الأطباء. وعليه في هذه الحالة أن يقدم إليه اسم المريض ويصف أعراض مرضه فيرشدده عندئذ إلى الطبيب المنقطع لعلاج مرضه.

وكان الأطباء كالكهنة يستمدون أرزاقهم من الأملاك الموقوفة على الهياكل، والضرائب المفروضة برسمهم على الأهلين، والنذور التي يقدمها هؤلاء إلى الآلهة.

(١) إن الفوائد والمعلومات الواردة في هذا الفصل مستخرجة من أوراق البردي المستكشفة قبل سنة ١٨٨٢، ومنها الورقة رقم ١ المحفوظة بمتحف برلين والورقة الهيروغليفية المحفوظة بمتحف لوندرة، وتاريخ هذه الأوراق من عهد الأسرة الثامنة عشرة.. أي في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد أيدت مضمانيها أقوال هيروت وديودوروس الصقلي المؤرخين الشهيرين.

ومن ثم كانوا لا يقبلون من أحد جزاء مقابل علاجهم إياه، لأن المريض كان إذا شفى من مرض أفاض بالندور والهدايا الكثيرة على الهيكل الذى ينتسب إليه الطبيب. وكان من العقائد الراسخة بأذهان العامة أن الشفاء من المرض يتوقف على الندور والقرايين أكثر منه على مهارة الطبيب.

ومن الحقائق المقررة فى التاريخ أن قدماء المصريين بلغوا فى المعارف الطبية شأواً بعيداً وغاية لا تُدانى، ولكن لما كان الأطباء من رجال الدين فقد اضطروا إلى اتخاذ الأعمال الروحانية كالرقى والتعاويذ من وسائل العلاج حتى انتهى الأمر بالأهلين إلى نسبة الشفاء إليها لا إلى الحقائق العلمية الثابتة. وكان بيت سیتی أطباء كثيرون تنوعت معارفهم وتباينت خصالهم وتفاوتت درجاتهم، فاختار بنطاؤور من بينهم لعلاج الفتاة التى صدمتها مركبة بنت أنات صديقه (نيسشت) حفيد الطبيب المشهور فى تلك الأزمان بهذا الاسم. وكان (نيسشت) هذا أصدق أقران بنطاؤور بالمدرسة وأشدهم ميلا إليه ووفاء له، وكان من أمره أنه شغف منذ نعومة الأظفار بممارسة العلوم الطبية. فلما غادر بيت سیتی إلى مدرسة عين شمس للتخصص والنبوغ فى علومها أثر فن الجراحة فاستقصى فيه البحث حتى أخذ بأطرافه واستقرت قواعده كلها فى ذهنه.

وكانت النية معقودة على تعيينه أستاذاً لعلم التشريح فى تلك المدرسة الجامعة وإنما عدل عنها للعثمة فى لسانه تحول دون إحرازه هذا المنصب العلمى الرفيع الذى طالما تاق إليه العلماء الفطاحل فلم تتحقق أمانيتهم. وكان أبواه وأقاربه فى حزن وتوجد ويأس من تسنمه غارب ذلك المنصب بسبب تلك العاهة الممقوتة. أما هو فكان منشراح الصدر قرير العين بها؛ إذ وجد أنها خير نصير له على العزلة والتفرغ للأبحاث العلمية والانصباب على التحقيقات التى يرجى أن تفضى به إلى استكشاف

أسرار الحياة العنصرية وأن يقضى فيها وقته، بينما تذهب أوقات أقرانه ببدأ في الترنم بالأناشيد والأغاني الكهنوتية.

وكان أساتذته يحثونه على موالاة البحث والتنقيب ليقفوا منهما على الحقائق العلمية الغامضة في فن التشريح. ولقد كان يخالفهم فيما يعتقدونه من تأثير الوسائل الروحانية كالسحر والرقى والندور في شفاء الأمراض أو عدم شفاؤها ويأبى التسليم بأن بين القواعد العلمية المؤيدة بالتجارب وبينها علاقة ما، إلا أنه كان لا يجهر بهذه الآراء ولا يقضى إلى أحد بها لما فيها من مخالفة المبادئ المتبعة، ولكونه لو أقدم على هذا الفعل لعوقب بالطرد من الهيكل بتهمة الابتداع والإلحاد. على أنه لم يكن هناك ما يحمله على الجهر بآرائه، إذ كان يرى في كتمانها خير الذرائع للانفراد بمزاياها والاستئثار بلذة الوقوف على أسرارها. وقد بلغ منه حب الكتمان والميل إلى العزلة أنه كان إذا دعاه داعٍ إلى شرح تجاربه العلمية الدقيقة في محفل حافل بالعلماء والفضلاء شعر بانقباض في صدره ونأى عنهم بجانبه اعتقاداً منه أن الأولى به قضاء وقته منقياً عن الحقائق العلمية التي وهب لها حياته.

قلنا إن بنطاؤراً اختار هذا الطبيب لعلاج الفتاة ثقة منه بكفاءته ولأنه من خاصة أصدقائه ولأنه كثيراً ما صحبه وهو يرتاد الغابات ويجوب الفلوات ويجوس خلال الجبال والصخور للبحث عن الأعشاب الغريبة والحشرات النادرة، والتقط معه الكثير منها فأعجب بذكائه ونشاطه وخبرته.

ولقد كان بنطاؤراً يشعر في هذه الجولات بلذة بالغة ويجنى منها فوائد جمة، إذ كان يرى ما لم تكن عيناه قد وقعت عليه قبلاً من الكائنات ويقف على الحقائق العلمية المرتبطة بها. وكان نبسشت لشدة شغفه بالبحث في هذه الحقائق يستقيم

لسانه وتزول عنه اللعثة فيعبر عن مراده بأفصح بيان وأحسن أسلوب. وكانت المودة بينه وبين بنطاور وثيقة العرى، إذ كان يجد فيه ما ينقصه من الصفات الفاضلة كدقة الشعور والقدرة على إبراز المكنون من الأفكار، في قالب النثر تارة وطوراً في قالب الأشعار.

أما بنطاور فكان من أصحاب المدارك السامية والكفايات العالية والقدرة التي لا يرب فيها على حل المشاكل وفهم عويصات المسائل، إلا أنه كان كالتلميذ لاستاذه إذا قيست معارفه في العلوم بمعارف صديقه، وكان له على هذا الأخير دلال كبير ونفوذ قوى، إذ كان نبسشت لا يصدر إلا عن رأيه ولا يعمل إلا بنصائحه، ضارباً عرض الحائط بأراء زملائه في عمله ونصائحهم، ما ذلك إلا لأنهم كانوا في مناظراتهم العلمية يركنون إلى مجرد النقل غثاً أو سميناً ولا يقيسون الأمور بأشباهاها ولا يحكمون البصر والبصيرة فيها، بخلاف بنطاور فإنه كان لا يقيد حكمه بقاعدة مأثورة ولا بمبدأ منقول إلا إذا سبرهما بثاقب نظره ووزنهما بصائب رأيه.

وكانت غرفة نبسشت التي يتفرغ فيها لأبحاثه العلمية وتجاربه الفنية تحت مخزن الحبوب من هيكل سیتی، في معزل عن الأماكن الأهلة بساكنيها. فلما أن غشيها بنطاور ليكلف صديقه بمعالجة الفتاة الجريحة أخذ يتعثر في أذياله كلما تقدم خطوة إلى الامام، لأنها كانت محشوة بما لا عداد له من الأعشاب الخضراء والجافة والأقفاص المختلفة الأحجام من سعف النخل والأنية المتباينة حجماً وشكلاً، المغطاة بأوراق مثقوبة تحتوى حيوانات وحشرات شتى كاليربوع

والحرياء والهامة والضفدعة والأفعى والجعران وما شابهها. وكان بوسط الغرفة مائدة خشب عليها دواة عظم وجملة مدى من حجر الصوان وأخرى من نحاس، وبأحد أركانها حصيرة وامتكا خشبي، وهو المكان الذي كان نبسشت ينام فيه.

ولما سمع نبسشت وقع أقدام بقطاؤر دون أن يراه أخفى ما بيده تحت المائدة وتخطب في أمره وحر حيرة التلميذ الذي يفاجاه أستاذه لاعبا. وكانت بيده سكين ذات مقبض من الساسم (الأبنوس) فأخفاها في طيات ثوبه ثم وقف ويدها على صدره في انتظار المقبل.

وكان بالغرفة مصباح ضعيف الضوء، فلما دخل بنطاؤر أدرك سر الخوف الذي وقع في روع صديقه وأيقن أنه يرجع إلى ارتكابه محظورا. وحين تحقق نبسشت أن الزائر بنطاؤر اطمأن قلبه وهدأ روعه فصاح به: أما كان ينبغي ألا تزعجني في هذه الساعة؟ ثم دس يده تحت المائدة وأخذ ما كان ألقاه فإذا هو أرنب حى مثبت على لوحة من الخشب، وقد فتح بطنه حتى بدا القلب منه.

عندئذ استأنف فحص أعضائه وانصرف إلى ذلك كأن لم يكن بالغرفة سواء. فأخذ بنطاؤر يتمعن حركاته، وإنه لكذلك إذ فاجأه الشاعر بوضع يده على كتفه قائلا: كان لزاماً عليك يا أخى - وقد عمدت إلى مخالفة الواجب والقانون - إغلاق الباب حتى لا يراك أحد.

فاضطرب نبسشت حتى كاد يتقطع نياط قلبه من الهلع وأجاب متلعثما: هم.. هم.. هم.. أ..أ.. أخذوا مزلاج البيا.. يا ب حين د..د.. دخلوا منذ أيام وأنا.. أ.. أشرح يد بتاحميس.. ميس المزو..ر.

فقال بنطاؤور: وجثة هذا المسكين تنقصها إذن اليد اليمنى؟ قال نبسشت: وهل تقيس.. تقيس.. عيده هذه اليد في الآخرة..؟ قال بنطاؤور: لكن هل وضعت بالأقل في قبرها تماثيل شيتي؟^(١)

قال نبسشت: ليس هذا إلا.. حمقاً .. و.. شعوزة.

قال بنطاؤور: خذ حذرك يا نبسشت أنت تمضي في طريق الإباحة متخبطاً وتنتهك حرمة الدين. أما دريت أن من يعذب حيواناً ولو لغرض حميد يلق في الآخرة مثل هذا العذاب؟ يخيل لي أنك تنتحل لنفسك عذراً فتقول بجوار تعذيب الحيوان متى كان القصد خدمة العلم واستكشاف الحقائق النافعة للإنسان.

قال نبسشت: أو تعتقد أنت بصدق ما تقول؟

فابتسم بنطاؤور وسكت، ثم حدق في الأرنب مناجياً نفسه: عجباً كيف يبقى هذا الحيوان المسكين حياً مع أنه لو أصاب إنساناً ما أصابه من العذاب ما بقي لحظة على قيد الحياة؟ إن الإنسان ضعيفة أعضاؤه ولا يحتمل ما يقاسيه الحيوان!

فهز نبسشت كتفيه وقال: قد يكون ما تقوله صواباً.

قال بنطاؤور: أعتقد أنك موقن بصواب قولي.

قال نبسشت: ومن أين لي علم ما إذا كان القوم قد حظروا على فحص يد مزور لأقف على كنه حركتها.

قال بنطاؤور: تذكر يا صديقي ما أوردته كتبنا المقدسة من توقف سلامة الروح على صحة البدن. فأخذ نبسشت يحد النظر في بنطاؤور ويقول: ليست الروح مما (١) كانت توضع هذه التماثيل مع الموتى لمساعدتهم على أداء أعمال الحياة الأخرى وهي تحمل في يدها إما فأساً أو محرناً وعلى ظهرها كيس البذور، وقد جاء في الفصل السادس من كتاب الموتى بيان مزايا التماثيل وفوائدها.

أعانى البحث فيه، فتصرف أنت في أرواح العباد كما تهوى ودعنى أبحث أجسامهم،
حتى إذا أصيب أحدهم برض أو بكسر أقمت منه المعوج وأصلحت الفاسد.

قال بنطاؤور: الحمد لتوت (١) أن لم تعارضنى فى عرفانك تقويم أعضاء الإنسان
وإصلاح فاسدها.

قال نبسشت: الكمال لله وحده.. إنى لمقرّ بعجزى ومعترف بأنى لم أبلغ فى ضبط
يدى، وهى تحرك المبضع مبلغ المثال الذى يُطلب منه العمل فى الظلام.

قال بنطاؤور: كلا، فأنت نداءً (كيزو) الذى فاق الأقران فى إتقان التصوير بالهيكل
وهو أعمى.

قال نبسشت: قل ما شئت، وكل ما أعرفه فى نفسى أننى لست بين إجادة العمل
وعدمها فى حد الوسط، فإما أجيده للدرجة القصوى أو لا أجيده مطلقاً.

قال بنطاؤور: إنا نرغب منك الإجادة فيه وما جئتك الآن إلا مختبراً.

قال نبسشت: وهل بك علة؟

أجاب بنطاؤور: الحمد لأيزيس التى أودعتنى قوة اقتلع بها النخل من أصوله،
وإنما جئت لأدعوك إلى علاج جريحة، فإن الأميرة بنت أنات كانت..

فقاطعه نبسشت بقوله: أليس للأسرة المألقة طبيب؟

قال بنطاؤور: دعنى حتى أتم كلامى.. كانت الأميرة بنت أنات فى مركبتها إذ

(١) توت إله العلم والطب فى اعتقاد قدماء المصريين الذين كانوا يمثلونه برأس طير اللقلق المعروف
ويقولون إن الإله (رع) أخرجه من العدم كالشعاع المنبعث والضوء المتألق لكى يكون له مصباحاً
يهديه فى الظلمات إلى مكامن الأعداء، وقد صار بعد ذلك إله القمر الذى يدير الأمور بالحكمة
ويقسمها بأشباهها كما أن القمر يدير المواقيت ويحدد الأزمان، ثم إله الآداب والعلوم والفنون
وكان يسميه المصريون تيشوت.. أى الكبير مرتين، أما اليونان فكانوا يسمونه جسيس.. أى
الكبير ثلاث مرات.

صدمت فتاة فأصابتها بجرح بالغ.

قال نبسشت: وهل الفتاة بالمدينة أو بالمقبرة هنا؟

أجاب بنطاؤور: هنا وهي ابنة أحد المحنطين. فصاح نبسشت ابنة محنط.. ولم لم تتحبنى من قبل بهذه البشرى؟ ثم ألقى بالأرنب وأدوات الجراحة تحت المائدة.

أما بنطاؤور فبهت لابتهاج صديقه وقال: لعلك تعلل نفسك باستكشاف سر غريب عند أولئك المدنسين.

قال نبسشت: الأمر في هذا يرجع إلى، وقد عولت على عيادة الجريحة الآن وما اسم والدها؟ أجاب بنطاؤور: اسمه بينم.

قال نبسشت: ولكنى أخشى ألا أوفق معه لإدراك غايتى ونيل أمنيتى.

وعلى أثر هذه المحادثة أخذ قنينة محكمة السدّ وتحيل لفتحها. ثم غمس فيها قلماً كقلم المصور، وبعد أن أخرجه أدناه من أنف الأرنب فمات من فورهِ، لأن السائل الذى فى القنينة كان الاستركنين وهو سم قاتل. ثم ألقى به فى صندوق وقال لصاحبه: هلم بنا إلى حيث تريد.

قال بنطاؤور: ولكن ينبغى ألا تخرج بهذا الثوب الملوث.

فتنبه نبسشت إلى أنه لم يغير ثياب العمل ففتح خزانة الملابس واختار منها ثوباً أخذ يفرغه على جسمه وبنطاؤور على مقربة منه، فشهد أنه لم يخلع الثوب القذر وأن تحت هذا الثوب ثياباً آخر، فأمسك بيده ضاحكاً، فأمعن نبسشت فيه النظر مستغرباً وسأل عن سبب الضحك فأجابته: كيف تفرغ الثوب التنظيف على ثياب قذرة أصبحت تشبه فيها البصلة بتعدد طبقاتها؟

فضحك نبسشت وقال: الآن أدركت سبب اشتداد الحرارة فى جسمى.. أرجو

منك إذا أن تبرح هذا المكان حتى أخلع هذه الثياب وتستأذن لي من أميني بالخروج من الهيكل.

قال بنطاؤور: لا فائدة في الاستئذان مادام أنه أمرني بندب طبيب لمعالجة الجريحة في بيت بينم.

قال نبسشت: وهل علم أن الفتاة ابنة محنط الموتى؟
أجاب: نعم.

قال نبسشت: لا بد لي من علاجها أيضاً بالرقى والتعاويذ، لهذا أرجو منك أن تستأذن النبي جاجابو في أن يصحبني الشيخ (تيتا) لترتيل الرقى والتعاويذ التي لا قبل لي كما تعلم على تلاوة حرف منها للعثمة لسانى.

قال بنطاؤور: الأفضل أن يصحبك كاهن شاب بدلا من ذاك الشيخ الأعمى.

قال نبسشت: إنى مع كراحتى لهذا الشيخ أرى أنه لا بد لي منه لفصاحة لسانه.

قال بنطاؤور: حقا إنه لجهورى الصوت فصيح اللسان، ولقد سمعته منذ أيام يرتل التعاويذ لأحد المرضى ويحصى البلع الذى أخذه في مقابل أجرته.

قال نبسشت: إذا صحبنى إلى بيت بينم فإنما يصحبني رغم أنه ييغض الفقراء ويفضل أن يضع يده في هذا الإناء الممتلئ بالعقارب على غشيان دورهم وتناول طعامهم، ومع هذا فلك أن تعده بأننى سأعطيه ما في خابيتى من النبيذ لعله يجىء عن طيب خاطر.. أما أنا فلا أسيغ هذا الشراب في الحر الشديد لأنه يكدر صفاء نظرى.. ثم أين يسكن بينم، أبجنوب المقبرة أم بشمالها؟

أجاب بنطاؤور: أظنه يسكن بالشمال، على أن بعاصر ما زال هنا وهو المأمور بإرشادك إلى بيت الفتاة..

قال نبسشت باسماء: إن هذه الليلة غريبة الشأن.. وما هو طالعها في التقويم يا ترى؟ (١).. غريبة جداً هذه الليلة ، يسألوننى فيها معالجة ابنة محنط كما أعالج أميرة، ويذهبون بى إلى بيت أبيها أنا الطبيب الوضيع الحقير في ركب كركب فرعون، ولكن ليبنى ما خلعت ثيابى.

قال بنطاؤور: الحرارة في هذه الليلة شديدة.

قال نبسشت: لست أخشى الحرارة بل بعاصر الذى اشتهر بأطواره الشاذة فقد كنت منذ يومين أعالج شاباً ضربه فكسر ترقوته، ويا ليبنى كنت أحد جياذ الأميرة بنت أنات لأدوس بسنابكى هذا الوحش الضارى لا تلك الفتاة البريئة.

فضحك بنطاؤور وقال: وأنا أيضاً أتمنى ذلك. ثم انصرف قاصداً جاجابو ثانى أنبياء هيكل سيتى ورئيس أطبائه ليستأذنه في أن يرافق نبسشت الشيخ تيتا مرتل التعاويذ والرقى.

(١) وجد أتم تقويم مصرى في الورقة الرابعة من مجموعة أوراق البردى المعروفة باسم (سالييه) وهو يحتوى بيان طالع كل يوم في السنة من سعادة ونحس، وفي كثير من الهياكل تقاويم آخر خاصة بالأعياد والاحتفالات الدينية، وأكثر هذه التقاويم شرحاً وتفصيلاً هو الذى في هيكل مدينة أبو، وقد نشره دوميشن العالم الألماني.

الفصل الرابع

أين يتناجى الكهان في أحوال بني الإنسان

علم بنطاؤور أن جاجابو كان يتناول الطعام في مأدبة شائقة أعدت احتفاءً بعالمين من علماء خينو^(١) صدر الأمر بنقلهما إلى بيت سیتی، إكراماً لهما وترفعاً لمقامهما. وقد مدت المائدة بإحدى ساحات الهيكل تحيط بها أعمدة مزخرفة بالألوان الزاهية والصور الجميلة وتضيئها مصابيح لا حصر لعددها. وكان لفيف الكهان جلوساً حول المائدة على صفيين متوازيين وأمامهم من ألوان الطعام الشهى أفخاذ الغزلان وشواء الأوز والبط^(٢) والقرنبيط والهليون والفطير والحلويات والأنبذة المعتقة التي ملأت بها دنان الهيكل.

وكان الخدم يجيئون بهذه المأكولات صنفاً صنفاً من مائدة أخرى رتبت عليها الأطعمة بأسلوب حسن ونظام متقن ويطوفون بالمدام على المدعوين فيسكبونها في أقداحهم حتى تفيض من حافاتهما. وكانوا عقب الفراغ من كل صنف يقدمون لهم آنية من نحاس أصفر يغسلون فيها أيديهم ومناديل من النيل الناعم لتنشيفها. فلما فرغ القوم من الطعام أخذوا يشمون الورود والرياحين التي وُزعت عليهم في باقات منسقة تنسيقاً بديعاً تحفزهم رائحتها الزكية إلى المحادثة في شؤون شتى والمناقشة

(١) خينو مدينة كانت على شاطئ النيل بقرب حدود النوبة، وكان بها مدرسة لتخريج الكهنة، وموقعها محدود الآن بالقرب من جبل السلسلة.

(٢) كانت الغزلان في ذلك العهد من الحيوانات الداجنة، وترى الآن مرسومة على الآثار إما حية في الحدائق أو مذبوحة في حوانيت الجزائرين، ووصف هذه الوليمة مأخوذة من صور الولايم الكثرية المرسومة في المقابر.

في موضوعات مفيدة. ومما زاد في طلاوة حديثهم تشابه ثيابهم وتوافق شاراتهم الكهنوتية، لأنهم كانوا من كهنة بيت سیتی وكبار موظفيه وليس بينهم أجنبي يتعرف أسرارهم أو يتسرق أخبارهم.

وكان جاجابو-الذي نديه أمنيى لرئاسة الحفلة- في صدر المائة، متكلفا في أوضاعه العظمة والرفعة يتحرى بهما ستر عيوبه الجثمانية التي لا تتفق مع الرئاسة، فإنه كان قصير القامة كبير الهامة أصلع الرأس غليظ البدن غليظ الخدين. وكان كلما عرته دهشة أو أحس بانفعال برقت أسرته ولعت عيناه واضطربت شفتاه الدالتان بغلظهما على غريزته الشهوية. وكان بالقرب منه كرسى خالى هو كرسى أمنيى، وإلى جانبه يمنة ويسرة كاهنا خينو اللذان برسمهما أدبت المأدبة، ويليهما باقى المدعوين جالسین بحسب ترتيب الأعمال ، الأكبر فالكبير فالصغير فالأصغر، عملا بأنظمة الهيكل وقوانينه.

وتكلم في أثناء المحادثة (توان) أكبر الكاهنين المحتفل بهما وهو الذي كانت مصنفاة في الإنشاء تدرس بالمدارس (١) فقال: أيها العلماء المحترمون! لايسعنا أن نقابل الشرف الذى أسبغتم علينا نعمته بدعوتنا إلى الانتظام فى عقدكم إلا بما يستحق من جزيل الشكر وجميل الثناء والحمد. فإننا بوجودنا فى هذا المكان المقدس نفوز بالزلفى من فرعون الذى نسال له طول البقاء ودوام الصحة والهناء.. ولقد تخرج من مدارس خينو عدد غير قليل من أساطين العلم وفتاحله، ولكن الحقيقة التى لاريب فيها.. الحقيقة التى ننادى بها على ملأ منكم هى أن المعاصرين من خريجها لم يبلغوا- وما هم ببالغى- شأؤ زملائهم خريجى بيت سیتی الذين سما بهم-شأن هذا البيت- إلى ذروة المجد الخالد، وأصبحت مدارس هليوبوليس ومنفيس بلزائه فى الدرك الأسفل. ولقد عاهدت نفسى -رغم قصورى وضعتى-

(١) أدى البحث فى الآثار القديمة إلى العثور على بعض جمل إنشائية لهذا الكاتب الشهر.

ن أويدها بروح الإلهام الذى نستنشق رياه العبق فى هذا المقام، واستجلاء مجالى العلوم والمعارف لانتهاج الطريق القويم، والحث على الاقتداء بمحاسن أعمالكم والتخلق بمكارم أخلاقكم، فلقد أنست فيكم ما يشجعنى على الاجتهاد للوصول إلى المأمول. وإنى أختم كلماتى بتوجيه عبارات الثناء إلى أمينى عميد الكهان، الذى ذاع له صيت بحسن السيرة وسعة العلم الذى جنى ثماره القاصى والدانى، وإن أنس لا أنسى واجب التنويه بالعالمين الشهيرين جاجابو و(مريابو) اللذين رددت الأفاق ذكرهما. ثم قام المحتفل به الثانى وقال: من ذا الذى أريد أن أخصه منكم بمدحى وثنائى لأنه نظم أحسن الأناشيد يمجدها الإله آمون؟.. أين شاعركم هذا فخر الشعراء، ومن هو بينكم حتى استمتع برؤيته واغترف من فضله؟ فأشار جاجابو إلى كرسى خال بأخر المائدة وقال: هو صاحب هذا الكرسى وهو أصغر الكهنة سنا وأزهرهم مستقبلا وأرفعهم شأنًا. قال تـوان: لقد سرت أشعاره مسرى الأمثال وحفظها الكبير منا والصغير.

قال كبير المنجمين^(١): لا ريب أن الألهة أجزلوا له العطاء وأفاضوا عليه المواهب، إلا أننى أنست منه استبداداً بالرأى أزعج خاطرى وانحرفاً عن المذهب أقلق بالى، وقد أودع أشعاره التى لا مجال للطعن فى صحة أوزانها وانسجام قوافيها سوانح تخالف قواعد الدين المقدس وأركانه الثابتة. وفى النشيد الذى ألمحتم إليه الآن أفكار كان يجب عليه التبصر قبل ابتكاره إياها، إذ يخشى أن تفضى إلى كشف أسرار مذاهبنا وإذاعتها على السنة العامة، مع أنه أقسم ألا يعرضها للشكوك والريب بقول أو فعل. وإنى أضرب لك مثلاً على ذلك بعض مقاطع ذلك النشيد، فإنه وإن تكن منسجمة اللفظ سامية المعنى يخشى أن يستفحل فى المستقبل ضرر تداولها، ما دنا (١) منجمو قدماء المصريين الذين كانوا يستكشفون الطوالع بساعة الميلاد، وكانت وظيفتهم من المراتب الـهـنوتية.

نستعذب التغنى بها ويحفظها العامة والخاصة من الشعب افتتاناً بمعانيها الرائعة
وعباراتها الطلية.. وإذا كان من تلك المقاطع مثل قوله:

«هو الواحد الدائم القهار الجبار، المنفرد بالخلق والايجاد، المبدع لجميع
المخلوقات لا على مثال، المحيط علمه بجميع الأسرار».

« من تأمل بعين الفكر في مظاهر الكائنات، وأمعن بنور بصيرته فيما احتوته من
سواطع البراهين وبواهر الآيات، شهد موجدتها في كل صورها ومعانيها بلا حلول،
واستدل بها على أنه الواحد الأحد الذى يحول ولايزول» (١).

أفلم يكن من الواجب منع التغنى بمثل هذا النشيد خصوصاً في عهد أماط
الأجانب فيه عن وجوههم نقاب الحياء، فاشترأبت أعناقهم لاستطلاع الأسرار
الدينية؟ قال حافظ الخزينة: قلت صواباً، فقد أطلع أمينى هذا الشاب على الأسرار
الكبرى قبل أن ينضج عقله ويستعد لإدراك كنهها. قال جاجابو وكان يفتخر
بانتساب بنطاؤر اليه: إن أمينى لم يطلعه على تلك الأسرار إلا إجابة لطلبى كأستاذ
له، وإنما الواجب على عشيرتنا الافتخار بهذا الشاعر الذى زهبت له في الأفاق شهرة
كبيرة.. أما الشعب فلا خوف على عقيدته من عادية الشكوك لاستظهاره أشعار
بنطاؤر، فقد رأيت أن الناس كلما ترنموا بمنظوماته ترنحوا طرباً لجودة مبانيها
وسمو معانيها مع جهلهم بحقيقة ما ترمى إليه من الحقائق والأسرار.. وما من
مرة تغنوا بها في عيد الدرجات حتى سكروا بسلاسة عباراتها ولطف إشاراتها. قال
رئيس المنجمين: لا عجب إذا رأيتك ماضياً في تمجيد هذا الشاعر، فإنما هو برعايتك

(١) هذه الأشعار من النشيد الذى نظمته بنطاؤر في تمجيد الإله، وقد وُجد مكتوب على ورق
البردى المحفوظ الآن بالمتحف المصرى وترجمه غريبو وسترن

يستظل ويكنف عنايتك يلسوز وبعري محبتك إياه يستمسك، وإنما أنت ترضى منه ما لا ترضاه من غيره وتغفر له من باطله وشاذ أعماله ما لا تغفره لسواه. أما أنا فما برحت موقناً أن أناشيده نزغات شيطان رجيم، وأنها تجور بحافظها ومرتلها عن قصد السبيل، وأخاف أن تصبح الشرارة التي نستصغرها الآن معظم النار إذا لم نتلاف الأمر بالحكمة والروية. فاضطربت شفتا جاجابو وقال: لا تأخذنكم ريبة في أمر تلميذي، فسيكافح العدو بعزم شديد، ويحسن البلاء في الذود عن مصالحنا بقوة تفل الحديد، ويستدل لأجل الدين كل شقى عنيد، ويعمل ما تعمل الشمس ذات الجناحين بالظالمين وكل خارج متمرّد على الدين.. فلم تحاولون الآن أن تقصوا جناحيه وتحرموه أن يدرج بقدميه؟ إن زئير الأسد لأشد من مواء الهر، وأشعة الشمس لا تتبعث بضوئها المتألق من مصباح ضعيف. فدعوا بنطاؤر بحاله إذا شئتم ألا ينطبق عليكم مثل من أصابه ألم في ضرس فخلعه وخلع معه الأضراس الصحيحة. قال الأكبر من عالمي خينو: لقد شعرنا نحن أيضاً بدنو الأعداء وتدخل الغرباء فوجهنا الشطر السليم منا إلى الجنوب تحاميا من تطرق الفساد إليه فلم تنفع الحيلة إذ عم الفساد وجرف سيله الناس فمضوا في ظلمات الجهل متخبطين، لا يفرقون بين حق وباطل ولا بين طهر ودنس.. وإنما الدنس من عمل تيقون إله الشر والظلام.. قال رئيس المنجمين وقد اضطرت في قلبه جذوة التعصب: يحاط الأجنبي هنا بصنوف الرعاية وتبذل في مرضاته أساليب الإدارة، فيتدخل في الأخلاق والعادات تدخل الرمال التي تسفيها رياح الصحراء في أخشاب البيوت، وكثيراً ما ذهب به التدخل إلى غشيان المنازل والهياكل حتى لكأنكم ترون الآن على عرش خليفة (رع) واحداً من سلالة.. وكان أمني داخلا ساعتئذ من المكان الذي مدت فيه مائدة الطعام وسمع كلام رئيس المنجمين فقاطعه بقوله: صه أيها الجريء

المتهجم، لا يفه لسانك بهذه الألفاظ البذيئة في حق مليكننا الشرعى الذى آل إليه قضيب (رع) رمز التملك بطريق الوراثة. فسكت رئيس المنجمين وأحنى رأسه إشعاراً بالطاعة. وكان الحاضرون قد وقفوا جميعاً تعظيماً لأمينى وردوا على تحيته بأجمل منها ثم جلس وقال لجاجابو: مالى أراك فى غضب لا يليق بحلم الكهان وتؤدتهم، وما الذى حصل فى هذا المجتمع بينكم حتى اضطربت موازين عقولكم ونفوسكم؟ أجاب جاجابو: كنا نتحدث بأمر الأجانب الذين نسلوا إلى مصر من كل جانب وانتشروا فيها انتشار الجراد وأحرزوا من القوة والسلطان ما يأتون معه كل يوم بضرب من ضروب البدع فى العادات والأخلاق، ولجاناً بسببه إلى الأخذ بمقاومتهم وصد تيارهم الجارف دفعاً لضررهم ومنعاً لفسادهم. قال أمينى: ستروننى فى طليعة المحاربين لتلك الطغمة الشريرة التى جلبت معنا إلينا المصائب، وإنى لأخشى أن تتسع خروق الفساد بعد ما تواردت من جهة الشمال أخبار يسوء سماعها الأحياء ويسر الأعداء. سأل الحاضرون بصوت واحد: وماذا جرى.. هل انهزمت جنودنا؟ أجاب أمينى: كلا.. لا يزال الظفر حليفاً، ولكن سهام المنون أصابت أكباد ألوف الجند فى ساحة القتال فاضطر المليك رعمسيس إلى طلب النجدة، وقد تسلمت من بعاكر قائد طليعته كتاباً منه وآخر من صديق لى فى ركابه يتضمن أولهما الأمر بحشد ٥٠ ألف مقاتل. ولما كانت طبقات المجندين قد خرجت كلها للقتال فلا مفر لنا اليوم من حشد ذلك المدد من المزارعين والصناع، وهم قوام الهياكل وعمادها.

ما استقرت هذه الكلمات فى مسامع الحاضرين حتى بدت عليهم آيات الاستياء والتذمر. فضرب رئيس المنجمين الأرض بقدمه حانقاً ودمدم الكاهن مريابو بكلمات لم يفهم معناها. أما جاجابو فقد سأل رئيس الكهنة بقوله: وماذا اعترمت؟ أجاب

أميني: اعتزمت تنفيذ أمر الملك، وسأجمع هنا كهنة هياكل طيبة للتشاور في هذا الأمر الخطير. وعليكم أن تبتهلوا إلى الله أن يضيء بصيرتكم بنور السداد ويؤيد آراءكم بالحق! فإذا بحثنا في المسألة واستقر رأينا على شيء فيها قدمنا إلى الوالي وألزمناه قبوله. ثم سكت هنيهة وقال: أيكم حضر الصلاة التي أقامها الوالي أخيراً؟ أجاب رئيس المنجمين: لقد حضرتها. قال أميني: تعال عندي بعد الوليمة. ثم أرسل نظره نحو واليه وقال: لم غاب شاعرنا عن هذه الحفلة البهية؟ وما أتم هذا السؤال حتى دخل بنطاؤر مسلماً على الحاضرين وتقدم نحو أميني في طاعة وخشوع وسأله أن يأذن لتيتا الأعمى بمراجعة نبششت المكلف بعلاج الجريحة، فأجابه إلى طلبه ثم قال: ليبادر القوم بالذهاب، فلا يزال بعاكر بباب الهيكل وقد عيل صبره انتظاراً.

ما غاب بنطاؤر عن الأنظار حتى خاطب أكبر الكاهنين أميني بقوله: أيها الأب المبجل.. لقد وافق منظر بنطاؤر سابق ظني به واعتقادي فيه الكفاية العالية وما أشبهه بإله الشمس وما أوفر الدلائل على أنه من سلالة كريمة وأصل عريق في الشرف والمجد. قال أميني: ليس أيوه إلا من فقراء الفلاحين في الأرض الموقوفة على الهيكل، ومع هذا فقد كان موفقاً حينما بعث بولده إلى المدرسة وتوليت بنفسى تثقيف عقله وتهذيب طباعه حتى صار من نوابغ العصر في مصر. (١) قال الكاهن: وما وظيفته بالهيكل؟. أجاب جاجايو: تدريس النحو والبيان لطلاب الفرق العليا، دع أنه من الثقات في علم الفلك ورصد الكواكب وله خبرة واسعة بتفسير الأحلام.

(١) يدل المكتوب في أوراق البردي على أن المصريين لم يكونوا منقسمين إلى طبقات بحسب درجاتهم في الهيئة الاجتماعية، وأن أحقر الناس كان يصل إلى أسمى المراتب في الكهنوت والحكومة بعلمه وكفاءته.

وفى هذه الأثناء كان بنطاؤر قد عاد فسأله جاجابو: إلى أين يذهب بعاكر مع جراحنا الأبكم وزميله الأعمى؟ أجاب: إلى بيت بينم لعلاج الفتاة الجريحة، أما بعاكر فقد أنست منه غلظة الأخلاق توجب البعد عنه والنفور منه. قال أمينى: لعله متذمر مسا ناطته به بنت أنات، وإذا صدقت فى حدسى هذا فلا عجب أن ساء خلقه. قال كبير من الكهان: إن أبا بعاكر الذى برح المدرسة منذ سنوات كان لين الجانب سمح الأخلاق، أما هو فلا يزال وحشى الطبع ردىء الخلق. قال أمينى: كان والده من أعيان رجال مصر المعروفين بسعة العلم وأصالة الرأى ومكارم الأخلاق. قال الكاهن: إذا فقد ورث طباعه الفاسدة من أمه. قال أمينى: كلا إن والدته من اللائى اشتهرن بالعفة والصون وكرم المحتد. قال بنطاؤر: وهل من القواعد المقررة أن يكون الولد شبه أبيه؟ أنظروا إلى الثيران المقدسة، أ يوجد من بينها ثور يحاكى أباه شكلا أو لونا؟ قال جاجابو ضاحكا: يستخلص من قولك أنه لو كان أبو بعاكر العجل أبيض لما استحق ابنه أن يوضع بزربية أحد الفلاحين. قال بنطاؤر: إن خلقه الآن ما برح كما كان بالمدرسة ولذلك كنا نسميه الحمار المتوحش. وكان زملاؤه بالرغم من صلابه جسمه لا يدعون فرصة تمر إلا وعاكسوه وتحرشوا به. قال أمينى: حقا إن الأطفال يجهلون الشفقة والحنان ويحكمون على الأشياء بظواهرها ولا يكلفون أنفسهم مؤونة البحث فى أسبابها، فكثيراً ما رأينا طلبة المدارس لا يميزون بين البليد منهم والكسول ولا بين الملتفت المنصرف إلى درسه واللاهى المنقطع عنه السفائف، فتراهم يتخذون الأول كالثانى هدفاً لنكاتهم ومزحهم.. ولو دروا أن البلادة عيب غريزى ليس فى قدرة مخلوق إصلاحه مهما أوتى من حول وحيلة لما ازدروا بصاحبها وحقروه فى أعين العموم. ولو كان بعاكر فى أثناء وجوده بالمدرسة على شىء من لين الجانب ودمائة الطبع لما صار مضغة فى أفواه أقرانه

ووسيلة يصرفون بها الهموم عن قلوبهم. ثم التفت أمنيى إلى كاهنى خينو وقال: الذى أراه هو أن يرخى العنان للطلبة وأن لا يحجر عليهم فى شىء من تصرفاتهم على شرط مراقبتهم عن قرب حتى لا ينحرفوا عن جادة الاعتدال بالوقوع فى أحد الطرفين الإفراط أو التفريط. ذلك لأن منع الشبان من الاسترسال فيما تدعوهم إليه حدة المزاج وحمية الشباب من المزح والمطايبة يعطل أهم الآلات المساعدة لهم على فهم دروسهم، فإن من دلائل صحة النفس والعقل انشراح الصدر وسرور القلب. وهاتان الحالتان مرتبطتان كارتباط صحة البدن بالرياضة الجسمانية، وأرى أنه لا أدعى إلى توازن الانفعالات النفسية فى طور الشباب ولا أبعث على اعتدالها من قضاء بعض الوقت فى مزاح ولعب لتنشيط النفس من عناء الجد، فتستأنفه بعزيمة صادقة وهمة لا تقف دونها صعوبة. ولقد صدق من قال: «إن التلميذ أحسن أستاذ للتلميذ».

قال مريابو: غير أن بعاكر ما استفاد من أقرانه فائدة، لأنهم كانوا ينفضون من حوله ويتحرزون من مخالطته لما رأوه فى طباعه من الغلظة والجفوة والصلف فمقتوه وجانبوه. قال أمنيى: لا شك أنه كان طالباً تعساً، بل أشقى الطلاب الذين وكلت تربيتهم إلى، لتكلفه العظمة والكبرياء وبعده عن سذاجة التلمذة التى تتوقف عليها سعادة الحياة المدرسية، حتى إنه ليبدو - وهو فى عنفوان شبابه - كأنه شيخ حنكته التجارب. ولعل الخالق جل جلاله قد سلب فؤاده نعمة التسامح الذى لا لذة ولا هناء فى الحياة بدونه، فلقد كان يرى فى ممازحة أقرانه إياه جنونا وفى مداعتهم له اضطهاداً ومشاكسة. وبعيد عن الشك أن والده أساء إليه إذ قابل هذا الخلق منه بالتسامح فلم يحضه على الأخذ بمكارم الأخلاق وبالحسنى فى معاملة الناس. ولعله كان وقتئذ يعتقد أنه إذا تلظى ابنه بنار الغضب وهاج هائج علواً وتجبراً

وتغشمرأ هابه الناس وترشح لرتبة (موهار) الجيش المصرى. قال أحد كاهنى خينو: «معت الكثيرين ينوهون باسم الموهار ويمجدون فعاله ولكنى مازلت أجهل حدود وظيفته. قال جاجابو: وظيفة الموهار إرشاد الجيش ببلاد الأعداء والسير فى طليعته بشرذمة من الجند لاستطلاع أحوال الأرض من سهولة وحزونة وما يكون بها من الجبال والأودية وعيون الماء والمدائن والقرى ثم تدوين ذلك كله فى تقرير يومى يشرح فيه ما عنّ له من الملاحظات وإرساله بعد ذلك إلى قائد الجيش الذى لا يتحرك إلى الأمام إلا إذا بنى أوامره وتعليماته على ما دوّن فى ذلك التقرير اليومى»^(١) قال كاهن خينو: يُستخلص من هذا البيان أن الموهار كما يكون بارعا فى حمل اليراع ينبغى أن يكونه فى حمل السيف وإرواء ظبائه بدماء الأعداء. قال أمينى: نعم، فقد كان والد بعاكر كاتباً بليغاً وبطلا مقداما وكانت تقاريره السريعة الدلالة على المراد -مع قصر عبارتها- تصور لقارئها تصويراً محسوساً حالة البلاد التى سيخترقها الجيش حتى لكأنه يشهد بباصرته وهادها ونجادها من قمة جبل شاهق، وهو أول من لقب بالموهار أى البطل الشجاع. وكان الملك يكرمه ويحترمه ويستنصحه مستمداً بأرائه السديدة. قال عالم خينو: إنأ فهو سليل بيت راسخ فى الشرف. أجاب رئيس المنجمين: كيف لا وهو فرع شجرة أصلها ثابت فى الأرض؟ بل هو فى أسرته الكريمة شهابها الساطع وبدرها الطالع.. كان والده البطل (أسا) الذى أسبغ الملوك عليه حلل الشرف والمجد وأفاضوا على أسرته العطاء وسنوا لأفرادها الجوائز

(١) يؤخذ من أوراق البردى المحفوظة بمتحف لوندرة أن وظيفة الموهار عند المصريين تشبه وظيفة وزير الحربىة فى العصر الحاضر، غير أن الفرق بينهما هو أن الموهار المصرى كان يصدر التعليمات العسكرية بناء على خبرته الشخصية، بخلاف وزراء الحرب الآن فإنهم يصدرون التعليمات إلى الجيش من الغرفة المخصصة لهم فى قصر وزارة الحربىة.

والصلوات، حتى إن الملك (هورام - هب) لحم نسبه بهذا الشهم إذ زوج منه ابنة اخته فأصبح بذلك نظير والى طيبة يل قسيمه في حق الترشيح لعرش الملك، غير أن رعمسيس الأول جد الملك الحالي حرم تلك الأسرة المؤتلة المجد هذا الحق بالقوة والغصب.. فقاطعه أميني قائلاً: زت كلامك يا هذا، فإن رعمسيس الأول الذى تصفه بالغاصب إنما هو جد ولى أمرنا الملك الحاكم الآن وفي عروقه يجرى الدم الملكى المنبعث فيها من والدته سليلة الإله (رع). قال رئيس المنجمين: وهذا الدم ألا يجرى أيضاً في عروق الوالى؟ أجاب أمينى : اعلم أن رعمسيس الثانى هو ملكنا وصاحب الأمر والنهى فينا، وسيبقى كذلك ما شاءت الربوبية. ويبدو لى أنك وان اشتعل رأسك شيئاً فقد نسيت أن كلم التحريض على الثورة أشبه ما يكون بشرر النار الذى تحمله الرياح - حيث يشاء القدر - هتاكل الشرارة الواحدة مدينة بأسرها. ثم التفت إلى بقية الكهان وقال لهم: أما أنتم معشر الأصدقاء فكلوا مريضاً واشربوا هنيئاً ولا تتناولوا سيرة الملك بكلمة ولا تجادلوا في أمره القاضى بحشد المدد وإعداد العدد، أما أنت يا بنطاؤر فعليك في بكرة الغد يتنفيذ أمرى بما عهدته فيك من مروءة وهمة. ثم انصرف بعد أن ودع الحاضرين . وما أغلق الباب خلفه حتى قال أكبر عالمى خينو: إن ما اتصل بى من الأخبار عن رعمسيس طلائع الملك وما يقوم به من جلائل الأعمال لما يستوجب العجب والفخر.. فهل هو حقيقة على ما يذكر به من سعة التدبير وبعد النظر في العواقب؟.. ثم كيف يفوز بهذا القسط الوافى من الخصال الفاضلة وقد كان في المدرسة معروفاً بالغباوة وعصيان الأوامر؟ أجاب رئيس المنجمين: لا محل للسؤال، فلسوف يجرف الاضطراب منصب الموهار كما جرف منصب الإمارة وعرش الملك. قال عالم خينو: وكيف تندثر هذه المناصب العليا مادام أصحابها يتقلدونها؟ أجاب جاجابو: الدهر خؤون لا يؤمن، إذا صافاك يوماً بقضاء مرادك

انقلب عليك أعواما وعاملك بغير ما تشتهي. وما نراه الآن ينطبق عليه المثل السائر:
«العنب لا يعز على ولد صاحب الكرم» وقول البعض: «يكفى لولد البواب أن ينادى
مرة ليفتح له الباب».

قال أحد الكهان ممن لزموا الصمت دفاعا عن بعاكر: لقد أخلص هذا الرجل
للملك فأدى له بمثابرة وهمة وإقدام خدمات جليلة، دع شهرته بالتقوى وإيتاء
المعروف فإنه لا يصرفه عنهما صارف أبداً. أما كان في عهد طفولته يشتري بكل ما
يتحفه به أهله من نفقة الجيب القرابين الكثيرة ويقدمها إلى الآلهة بينما كان زملاؤه
ينفقون مالهم في الملاهى وما لا يفيد إلا الضرر جسما وعقلا؛ أظن ألا أحد يملك مثل
ما عنده من الأحبة والتمائم والتماثيل المقدسة أو يقيم ما أقامه أخيراً من الحفلات
الفخمة تذكراً لوفاة والده، وجملة القول عندي أنه قدوة الشبان وناطقة هذا الزمان.
قال حافظ الخزينة: نحن لا ننكر عليه هذه الخلال الكريمة لإخلاصه لوالده المتوفى
حديثاً فضيلة نادرة المثال. قال جاجابو: ما تلك الخلال الكريمة إلا ثمرة مجاهدته
لتقليد أبيه كى يقال عنه ومن يشابهه أباه فما ظلم، على أنى لا أجد من جوامع الشبه
بينهما إلا مقدار ما تشبه الأوزة البجعة والبومة النسر. ولو أنكم عرضتم على
أنظاركم أحوال الاثنين لوجدتم أن كرامة الأب وعزة نفسه صلف في الابن وتغشم،
وأن قسوة الأول التى كان يلطفها العدل والرفق استبداد في الثانى وعسف جائر،
وأن مثابرة ذاك تصلب وعناد في هذا. إلا أن يصح مع هذا أن تكون ثروته التى
تنتفع بها خزينة الهيكل شقيقاً له لدى حافظها الذى كان ينبغى عليه تفضيل الثمر
المتناثر حول جذع النخلة اليابسة على الأثمار الدانية القطوف في أنضر الأشجار
وأينعها. هذا ومازلت أعتقد أنه مهما قرب من القرابين وصرف في سبيلها من الملايين
فالآلهة لا تلتفت إليها ولا تشملها بالرعاية من أجلها، ولو كنت تدرى أن هذا الشاب

قد انتفخت أوداجه أذى وشراً واتخذت الشياطين جسمه وكرا فلم يبق فيه حيز ذرة
للإله (رع) لما أطريته إلى هذا الحد . قال رئيس المنجمين: وهل سبرت غور قلبه
ووقفت على مكنون سره لتحكم بأنه لهذا الاطراء غير أهل؟ قال جاجابو: سبرته
وعرفت سره كما سبرت هذا القدر الذي ارتشف منه النبيذ المعتق.. سبرته وعرفته
لأننى خبير بأحواله منذ خمسة عشر عاماً، عليم بأن قلبه متفرح بقروح الغايات
والشهوات وبأنه لاحظ له في الشفاء منها، ولكن أى ضرر من الاستفادة بما يجزله
لنا من العطاء؟ ولئن يكن ماله غير حلال فكثيراً ما يعالج الطبيب جريحه بمر العلقم
أو بوضع السم في الدسم. قال رئيس المنجمين: أكلامك هذا عن ضغينة كامنة في
صدرك على ذلك الشهم الهمام؟ فاضطربت شفتا جاجابو وضرب صدره بيده
وقال: الضغينة.. الضغينة.. نعم هى عاطفة امتلأ بها هذا الصندوق العتيق.. اصغ
لقولى أنت يا رئيس المنجمين وأنتم معشر السامعين واقربوا منى جميعاً لتتلقوا هذا
الدرس عنى.. إن للضغينة نوعين ضغينة الإنسان على الإنسان، وقد وفقت والحمد
لله لقهرها والتغلب عليها بعدما ذقت مرارتها أعواماً استنبطت من الخبرة فيها أن
أشد الميول الفاسدة ضرراً بالمرء حقدّه على أخيه. لأنه إذا كان حب الكسل يستفز
النفس إلى النشاط والعمل فإن المضى مع الضغائن يكون كالنار المدمرة والسيل
الجارف. والضغينة إذا غشيت القلب حالت بينه وبين أنوار الحقائق الساطعة
وأضلته السبيل في ظلمات الغرور. لذا كانت الألوهية تعفو عن جميع الخطايا إلا
خطية الحقد التى تذهب بكل حسن جميل . أما ضغينة النوع الثانى فقد بارك فيها
الآلهة الذين ابتهل إليهم ليل نهار ألا يمحو أثرها من قلبى، وحدها كراهة الشر
والكذب والظلمة. وإنى لأسائل الآلهة أن ينتقموا منى إن كنت أبغض بعاكر نجل
صديقى وأن يلقوا بقلبى فى غياهب الظلمة فريسة للشياطين إذا خالط نفسى نفور

من ذلك الشاب المدنس الذى ظن أن يستميل الآلهة إليه أو يكسب محبتهم بما يقدمه إليهم من النبيذ والحيوان وساوهم على السعادة كما يساوهم المرء على رداء يلبسه أو دابة يركبها. لقد امتلأ قواد ذلك الخبيث بالشرور والأحقاد فلا عجب إذا رفضت الأرواح العلوية قرابينه ورفضتها أنت يا رئيس المنجمين كما ترفض بقدمك إناء يشمل اعقارب والأفاعى. ولقد شهدته يصلى ميتهلاً إلى الله، وما صلواته إلا رياء ونفاقاً أراد بها الظهور بلباس التقوى والورع حتى يسهل عليه الفتك بشاب في قلبه منه ترة وسخيمة لا ليتحلى بمكارم الأخلاق ويسترضى بعبادته الملك الخلاق.

قال رئيس المنجمين: ألم تتضمن صلوات الأقدمين توسلاً للآلهة أن يقهروا أعداءنا ويلقوهم تحت أقدامنا؟ ومع هذا فكثيراً ما سمعت بعاصر يستنزل الرحمت على الموتى من آله وأقاربه. قال جاجابو: لقد وقفت على أسرار الكهنوت فكيف غاب عنك أن المراد بالأعداء في تلك الدعوات شياطين الظلام والأمم الأجنبية التى تضمصر لمصر السوء؟ قال سبتاح رئيس المنجمين: ولد بعاصر في ساعة نحس إذ لم تغدق عليه الإلهة هاتور نعمة السرور التى يسمو لإحرازها الشبان، لأنه لما شرع في الاقتران بفنائة كان متدلهاً في حبتها جاء مينا حارس ركاب الملك فأخذها منه نصيباً وتزوج منها، فكيف بعد هذا يهون إقناعه بالعدول عن مخاصمة من سلبه أنفوس نخر عنده؟ قال أحد كاهنى خينو: وكيف أمكن مينا أن يحل رباط الخطبة وهى في شريعتنا عروة وثقى لا انفصام لها؟^(١).

قال رئيس المنجمين: كان بعاصر قد شغف حبا بنيفرت ابنة خالته راتوتى أجمل

(١) جاء في قطعة من رواية شنيو المكتوبة على ورقة بردى محفوظة بالمتحف المصرى ما يأتى «اليسست الشريعة هى التى تربط الزوج بالزوجة».

غادات طيبة فخطبها من ألقها، ثم حدث أن توفي والده في الحرب وسأل الملك قبل وفاته أن يعين ابنه بعاكر خلفاً له. فلما تولى هذا المنصب وجاء بجثة والده إلى القطر المصرى حيث دفنها عاد أدراجه إلى آسيا للقيام بأعباء وظيفته في الجيش. وفي أثناء ذلك لاحظ له فرصة فبادر إلى طيبة لاستجلاء محيا خطيبته غير أنه ما كاد يصل إلى (ثانيس) مدينة رعمسيس حتى نمى إليه خبر زفافها على مينا أحد ضباط حاشية الملك، فهاج وماج وزأر وزمجر. وغير خاف أن الأسف على مفقود يزداد بنسبة قيمته، وقد كانت نيفرت في عين بعاكر أجمل نساء الأرض، فكيف لا يكشف بالعداوة والبغضاء خصمه الذي قضى على أمانيه مالم يكن الدم الجارى في عروقه دم ضف ع لا دم إنسان.. وهل يلام عندئذ إذا قرب للآلهة مئات البقر ليصبوا على عدوه مينا جام غضبهم وسخطهم؟ قال جاجابو: إنه لخطأ بين أن تقبل هذه القرابين مادمت واقفا على سر الغرض المقصود بها وعارفاً بكنهها. ولاريب أننى لو كنت من أهل هذا الهيكل لامتنتعت عن عبادة الآلهة فيه لأن كهانه يحققون أمانى امرىء طفح فؤاده بالشور، في مقابل مال ينقدم إياه، ومع هذا فإن الإله القادر المدبر لشؤون هذا العالم بما سنه من النواميس الأبدية الخالدة لن يتقبل قربان بعاكر وإنما يلقى به إلى شياطين الشر ليذيقهم مرارة طعمه. أما أنت فلا لوم عليك ولا تثريب لأنك بصفتك الحافظ لخزينة الهيكل لا يهكم في الحقيقة شىء سوى أن تمتلىء الحظائر بحيوانات القرابين، وإنما لا تنس أن (سيت) إذا رآك راضياً عن توارد القرابين ووفرتها طار فرحا وعرك يديه الحمراوين^(١) إشارة إلى الاغتباط والسور. ولقد

(١) سيت هو إله الشر المثل لاضطراب العناصر وعدم التآلف في طبيعة الكون. ويقول قدماء المصريين إنه كان أحمر اللون.. دلالة على الشر والفساد، وكانوا يعتقدون أن ذوى الشعور الحمراء من الأشرار المفسدين.

دنس بعاكر حظيرة هذا الهيكل المقدس بما استنزله على مينا من اللعنات والضربات والطاعون والأسقام والموت، وبالغ في تدنيسه إياه بدعائه إلى الله أن يرمى نيقرت بالعمق فلا تلد ذكراً ولا أنثى يكون لها ولزوجها زينة الحياة الدنيا، وأن يملأ قلبها بالغموم والأكدار. قال رئيس المنجمين: إن الآلهة تقبلت دعواته فلقد مضى على زواجهما أربع سنوات لم يتمتع مينا في خلالها بمعاشرة زوجته سوى أسابيع قليلة لاشتغاله بالحروب ثم هى لم تلد إلى الآن، ولست أدرى لماذا لا تشفق بعد ذلك على بعاكر مع علمك بميله إلى تعضيدنا بماله؟ قال جاجابو بصوت خافت: إنى أريد الاستفادة بماله كما استفاد به رئيس الكهنة الذى تتساوى عنده الوسائط ما أدت إلى الغرض المقصود. ألم تأمرنا الآلهة بسلوك طريق الشر للوصول إلى الخير. مع بقاء كل شىء على حاله فلا يسمى الشر خيراً ولا القبيح جميلاً.. إنى أنصح إليكم أن تستنزفوا أموال بعاكر على أن تعاملوه بحسب أقواله وأفعاله حتى لا تتهموا بالحد عن محجة الصواب. دعوا مواشيه تدخل الحظائر برسم القرابين وأمواله تتراكم بخزينة الهيكل، ولكن لا تدنسوا قلوبكم باعتقاد أن الآلهة تتقبلها.. ثم لا بد من إرشاد ذلك الشاب المفتون إلى الصواب، إذ من واجباتنا جميعاً غرس بذور الخير والطاعة فى النفوس التى يعهد إلينا تهذيبها. قال بنطاؤر: ما أوسع رحمتك من شدتك وعدلك فى رحمتك! قال جاجابو وقد نهض متحفزاً للانصراف: لقد كشفت لكم عن قروح ذلك الرجل فعليكم بعلاجها واعلموا أن إطراءكم إياه يزيد هذه القروح استنهاراً ويذهب بالأمل فى شفائها. أما إذا ذكرتموه بعيوبه فلعله يهتدى لإصلاحها. وإن لم ترق هذه النصيحة فى نظركم فاعلموا أننى سأجىء إلى هنا وبيدى مدينة القرابين فأطرح المريض أرضاً وأشرح جسمه تشريحاً يقيه شر السقوط فى مهوأة الخطيئة. وكان رئيس المنجمين فى خلال هذا الحديث يهز كتفيه

ويبتسم. فلما انصرف جاجابو التفت إلى عالمي خينو وقال: لقد سمعتما الآن كلامه الذي اعتدت سماع مثله، وكان الأولى له أن يكشف به صغار الطلاب لا كبار الكهنة. نعم، إن قوله يدل على سلامة الطوية وشرف الغاية، غير أنه لا يتناسب مع الموضوع ولا يطابق حقيقة الواقع.. إذ بينما هو يحض على التمسك بتلك المبادئ نسمع الرئيس أميني يقول في كل الأوقات «إن الوسائل تبرر الغايات».. أى أنه إذا توقف السلام العام على تضليل مئات الناس عن سبيل الحق والصواب، فهذا التضليل جائز مادام أنه يؤدي إلى غاية شريفة ويرمى إلى غرض نبيل.

الفصل الخامس

كيف أيقن بنطاؤُر أن الأميرة رقيقة الإحساس والشعور

أدبرت جيوش الظلام فرشقتها الشمس من كنانة أشعتها بالسهام، ووالت رمى النبال حتى تكسرت النصال على النصال، وهبّ نسيم الصباح معطراً بأنفس الأرواح، وانعكس شعاع الشمس على الرمال وصخور الجبال، فتلألأت كالماء إذا سامنته الأضواء، وآبت الأسود إلى أوجارها وهبت الطيور من أوكارها، وانتشر الرجال في الحقول يسقون الأرض ويلقون فيها البذور ويجرون إليها الماء وتحلق تلك الطيور فوقهم في السماء، وتزاحم المرسى بزوارق الزوار وسفن التجار مشحونة بصنوف البضاعة من حاصلات ومصنوعات ، وأخذ النوتية يتلمسون ظلال الأشجار أو يجلسون تحت جدار، في انتظار الزوار الذين يقصدون الهياكل والمقابر زرفات وشتى، وأوى أحد المتسبين إلى شجرة جميز يبيع في ظلها إلى الغادين والرائحين بعض الأغذية والمسكرات، فأحاط به النوتية وأخلاق الهمج يشترون منه تارة ويتضاربون مع بعضهم أخرى، حتى إذا انحطت قواهم وخارت عزائمهم عادوا إلى السفائن فناموا على سطوحها في حر الهجير مستظلين بأكماتهم أو بالأكواخ الصغيرة المتخذة من سعف النخيل.

وكان الناظر يرى بقرب هذا المكان أفواجا من العبيد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون من الصناديق المملوءة بالقرابين المصدرة إلى الهياكل من أصحاب النذور، وإلى جانبهم جماعات أخرى منهم يسحبون بالحبال صناديق ملئت بالأحجار المنحوتة ووضعت على اسطوانات خشب، كان جماعة من المسخرين في نقل هذه

يفخران بمنظرهما الجميل أو بياهيان بسمو قدر الأميرة بنت أنات كريمة
رعمسيس التي كانت تسوسهما، فبغمزة واحدة توقفهما أو تمر بهما إلى يمنة أو
يسرة حسب إرداتها.

وكان رجلان يركضان وراء هذه العجلة يحمل كل منهما مروحة كبيرة من
ريش النعام الناصع البياض ليحجب بها أشعة الشمس عن مولاته ويتبعهما ثمانية
رجال يحملون على الأعناق محفة استوت فيها نيفرت زوجة مينا تتبادل مع الأميرة
ما رق وطاب من الحديث. وكانت هسى وبنت أنات على جمال نادر وحسن وأفر غير
أنهما كانتا تختلفان عن بعضهما بصفات ومميزات خاصة تزيدانهما ظرفاً ولطفاً.
أما نيفرت فقد اجتمعت فيها محاسن الجمال المصرى بمميزات الجاذبة للقلب
الخالبة للب من امتشاق قد ونحول خصر ولين عطاف ووضاحة حاجبين وسواد
شعر ودعجة عينين. وكانت بنت أنات تناهز التاسعة عشرة من عمرها وكانت أرق
من نيفرت بشرة وأنقى منها لونا وكانت تنم عيناها على قريحة وقادة وذكاء نادر
وشعور لطيف كما كان أنفها الأقرنى يدل على أنها من سلالة سام^(١) وكان يحيط
بشعرها المرسل إلى كتفيها من نقطة انسداله منديل حرير معلم بالأبيض والأزرق
يستتر مكان العقدة منه بخاتم ذهب بصورة ثعبان على رأسه تاج مرصع بالنيليم^(٢)
وكان شعر فودها الأيسر مرسلا بشكل غديرة تتخللها أسلاك الذهب إلى ما يوازي

(١) توجد جملة صور لرعمسيس الثانى أجملها وأتقنها الصور الموجودة في متحف تورين
بإيطاليا، ويظهر منها أن أنفه الأقرنى وأشبهه شىء بمنقار النسور وأقرب في الشبهه أيضا بأنف نابليون
الأول.

(٢) كان الثعبان عند قدماء المصريين رمزاً على الملك والسلطة يمثل ما لها من الحق في الإعدام
والعفو، كما أن الثعبان إذا لم يلدغ لا يقتل، وكان فراعنة مصر يزينون تيجانهم بصورة الثعبان
والنيليم هو الياقوت الأزرق.

شحمة الأذن وعود قدها اللدن ملتفاً برداء من الحرير القانى الدقيق النسج مثبتة عليه بنطاق من الذهب حمائل مزركشة. وكان حول جيدها الاسطوانى عقد من اللؤلؤ والأحجار الكريمة يداعب نهديها البارزين فى كل زفرة وشهيق.

وكان يتبع الأميرة ضابط من الأشراف وثلاث محفات، فى كل محفة اثنان من ضباط البلاط الفرعونى واثنان عشر عبداً يتلوهم حملة القضبان فثلاثون جندياً مرتدين بأردية قصيرة وعلى رؤوسهم المناديل وفى أيديهم اليمنى خناجر كبيرة وفى اليسرى سعف النخل رمزاً إلى مهتهم السلمية وتتدلى السيوف بحمائلها إلى مؤازرة القدم. وكان يحف بهذا الزى العظيم مئات من الأبقار الناهدات يحملن على رؤوسهن جرّات الماء يوافين بها من يصيبهم الظمأ من العساكر ورجال الحاشية. وكن يجارين الجياد الصافنات وتلك القدور فوق رؤوسهن لا تميل يمنة ولا يسرة ولا تتداعى إلى السقوط.

وكان رجال بطانة الأميرة يستظلون بظلال يحملها خدم يركضون خلفهم، وكانوا يتحدثون بلغو الحديث، وكانت الأميرة تعطف على جيادها لأن الذباب كان لا يفتّر عن لسعها كما كان يتبع العسكر وحملة المحفات والظلات. وكانت البنات الحاملات جرار الماء يجارين تلك الجياد ويسابقنها على حصباء تتلظى بأشعة الشمس حتى كادت قلوبهن تتمزق وأعصابهن المتوترة تنقطع لشدة ما نالها من الإعياء ولا راحم لهن، إذ كان الجميع بين لاهٍ بحديث أو مشفق على حيوان أو متزلف للأميرة بعبارة مدح أو استحسان. ومازال الركب سائراً حتى وصل إلى منعرج طريق قريب من مدخل الوادى الذى فيه مقبرة الأسرة الملكية المنقرضة، فأشارت الأميرة بوقوف الركب فوقف. وما هى إلا هنيهة حتى علا فى الأفق غبار

انكشف عن الموهار بعاكر في عجلة يجرها جوادان أدهمان من جياذ الشام كان الدم والزبد يتساقطان من لجاميهما بعد إذ قطعنا المسافات الشاسعة خبيماً على أحجار صلدة، وما أن أدرك الركب حتى هبط من عجلته منفثلاً نحو الأميرة فبعد أن حياها بتحية الاحترام قال لها: في هذا الوادى دار أولئك الذين ستشملهم الأميرة بنعمة الزيارة، فهل تأذن لى بإرشادها إليها؟ قالت الأميرة: الأفضل يا بعاكر أن نذهب إليها على الأقدام ليرتاح رجال الركب ونساؤه. فانحنى بعاكر إشارة الطاعة، أما هى فوثبت من عربتها وثبة الغزال بعد أن أسلمت أعنة الجياذ إلى أحد أتباعها وتلتها في النزول من المحفات نيفرت والوصيفات، وتسلى حاملو الظلات والجنود إلى ناحية وقفوا فيها شاخصين فى الأميرة يرتقبون أوامرها، فأمرتهم بملازمة أماكنهم وأن لا يصحبها سوى بعاكر ونيفرت.

ثم جدت فى السير على حصباء تتلهب حرارة وأدركت أن نيفرت لن تستطيع مسابقتها فخفضت من غلواء سيرها. وما بلغت إلى آخر الطريق حتى وقف بعاكر بغتة. وكان وقوفه تجاه سور هبطت عليه نسور تجردت رؤوسها من الريش ولزمت السكون بحيث يخيل معه للناظر من هيئتها أنها جامدة باردة. فاقبل نحوها ثم جثم أمامها إعظاماً لها لأنها درجت فى هذه البقعة باسم الآلهة التى كان سكان طيبة يعتقدون أنها الحامية لحمى مدينتهم فاقترنت به بنت أنات ونيفرت.

وأشار بعاكر بسبابته بعد ذلك إلى كوخين مبنين بالأجر وطمى النيل قائلاً: ذلكما كوخوا والد الفتاة الجريحة. فانطلقت بنت أنات نحوهما واجفة الفؤاد مضطربة القلب مزلزلة القدم وتبعها بعاكر حتى إذا بلغت الحائل القائم دون الكوخين طرق أذنيها أنين مستطيل ويث متقطع، وسمعت نيفرت هذا الأنين

فأخذها الروع وترامت على بنت أنات ثم وقفنا تحدان البصر في بعضهما لشدة ما نالهما وليبتئا كذلك وقتاً قالت الأميرة للموهار بعده: هيا اسبقنا إلى المكان. فصدع بأمرها وقال متبسماً: ألا يحسن أن ندعو إلينا هذا الرجل لنقى أنفسنا الدنس بالوقوف ببابه؟ وكانت نيفرت تحدق في بنت أنات بعين المبتهل الراجى ألا تدخل. فقالت: الأميرة بصوت تدل نبراته على السادة والإمارة: لست أخشى الدنس ولا أتقيه، فهلما بنا ندخل. ولم يكن الموهار برح مكانه فقال: أتريدين أن تستنزلي على نفسك غضب الآلهة. غير أن الأميرة كانت في أثناء هذا الحديث اجتازت الحائل وأشارت إلى نيفرت باقتفائها فبسطت هذه ذراعيها استنكاراً وضرعت إلى مولاتها أن تحجم عن فعلها. فضحكت هذه وهزت كتفيها استخفافاً ثم لم تكن إلا صرة الحالب حتى دخلت وجار الحانوتى وغابت عن النظر فوجدت به معزتين وحماراً ودجاجاً يفحص الأرض.

ولقد أزعج الأميرة هول ما رأت، لأنها اعتادت رؤية المناظر السارة والمشاهد البديعة. على أن انزعاجها لم يك تقرأ أو ترفعاً بل شفقة وحناناً على أرباب ذلك المسكن الحقيق، وأخذ منها العطف بحيث ودت أن لو تنكرت بزى الشحاذين واطمار الفقراء حتى لا يتتبه الحانوتى وآله إلى قياس الفرق بين حالهم وحالها وحتى لا يترأى لأنظارهم ضعة قدرهم وسفالة مقامهم في الاجتماع الإنساني، فتكون كالملك المتجبر الذى يتعمد الجلوس إلى مائدة رصّ فوقها شهى الطعام ورائق المدام ثم يعرض عليها أفراد رعيته وقد عضهم الجوع بناابه.

وكانت كلما جالت بنظرها في أنحاء الوجار وضح لها الفارق العظيم بين ما تعودته من المناظر الفخمة وبين ما تشهده فيه من آثار الضعة والفاقة، وشعرت

بقلبها الحنون تحفزه الآلام. وكلما طرق أذنيها أنين الفتاة الذى يستمطر من العيون
الدمع الهتون ،ضاق صدرها واحتواها اليأس لعلمها أنها سبب شقاء هذه الفتاة
وعذاب ألبها.

وقد تمنى الأميرة أن لو تعود إلى مكانها وتخلص من هذا المنظر المؤلم لولا أنها
بلغت إلى نقطة لا تحمد معها العودة. ولهذا ظلت ثابتة في مكانها تجيل الطرف
حواليها في دلالات الآلام وبراهين الأحزان. وكانت كلما أمعنت النظر ازدادت يقيناً
بعجزها عن تخفيف مصاب القوم بالتأسى والسلوان، وأدركت أن سلطتها
الملوكانية ظل زائل وأن الهدايا الفاخرة التى أتت بها لاسترضاء الجريحة وألبها زهو
باطل. لذا رجعت على نفسها باللائمة إذ قالت: ليت كان مجيئى هنا في مظاهر
الخشوع والابتهاال لا في مجالى الأبهة والجلال.

أما وجر آل الفتاة فكان لاينفذ الضوء فيه إلا من كوة صغيرة في سقفه الواطيء
ومن باب ضيق. فلما وصلت الأميرة إلى الباب رأت وسط الوجار عجوزاً قوست
الأعوام ظهرها وكسا الشيب رأسها، تلبس ثوباً أزرق من القطن مشقوقاً من الأمام
بحيث يبدو منه صدرها وقد وشم بشكل نجمة منبعثة الأشعة. وكانت تفترش
الثرى وتضم فتاة إليها يظهر من تناسب أعضائها أنها هيفاء القد ومن بياض
وجهها وقدميها الممتدتين نحو الباب أنها من الفتيات اللائى سباهن الجيش المصرى
في حربه مع أقوام الشمال. وكان بالقرب منها شيخ طاعن في السن يتحسس بيده
هاتين القدمين مدمماً بكلمات متقطعة لايفهمها السامع ولو داناه.

أما الجريحة التى كانت خشنة الثوب الذى كان لا يستر غير عورتها وجزءاً من
جسمها فكانت في وضعها السالف وانطباق جفنها قليلاً أشبه بالطفل إذا استهوته

الأحلام فاستعذب المنام، لولا أن شفيتها كانتا من أن إلى آخر تتشنجان تشنجاً يدل على شدة ألمها وزوال لذة أحلامها.

وكان شعرها النحاسى اللون المرسل بين كتفيها مرصعاً بورود ذهب بنضرتها الحزن الشديد على ما نزل بصاحببتها من الجراح فى صدرها ونهدها على أثر مرور عجلة الأميرة فوقها. أما بنت أنات فقد لفت نظرها هذا المنظر المؤثر ومضت فى تيار الأفكار بينما كان نيسشت يجس نبضها ويعد ضرباته، وخلفه تيتا الأعمى يرتل التعاويذ والرقى. وكان من أن إلى آخر يفتح حقيبة العقاقير الطبية فيتناول منها سائلاً يقطره على الجرح ليسكن من الألم.

وكان بجانب الجدار نسوة متفاوتات فى العمر تقاطرن من كل فج وحذب حين بلغهن خبر المصاب لتعزية آل الجريحة فاسترسلن فى البكاء حتى أحرقت الدموع مآقيهن وحزت فى جلاب خدودهن، وكانت كل منهن تقوم تلو الأخرى لتجىء بماء فى إناء من صلصال ليغسل الطبيب به الجرح الفاجر. فكان كلما صب شيئاً منه على صدر الجريحة، رجفت أعضائها وتفتحت عيناها وأرسلت منهن إلى واحد من الواقفين حولها نظرات تنم على مقدار ما عراها من الدهشة المقترنة بالاحترام له والارتياح لرؤيته. ولم يكن بنطاؤر بحيث ينتبه من غفلته إذ كان متطامناً إلى جدار يرتقب وصول الأميرة، ولكن اتفق أن تلاقى نظرها بنظره فلم يتمالك أن بسط يديه ضارعاً إلى الله أن يسبغ عليها حلة الشفاء. ثم عاد فأطرق برأسه وانصرف إلى ما كان فيه كما لو كان ارتقابه حضور الأميرة الأمر الوحيد الذى يجول بخاطره. وكان مجيء بنطاؤر إلى هذا المكان فى شارة الكهان وشوارهم الأبيض ليؤدى ما كلفه به أمينى من إنذار الأميرة، أى أنها إذا تخطت عتبة بيت بينم إلى داخله فقد

استهدفت نفسها لعقوبة القانون الدينى، وهى استحالة تطهيرها مما يلحقها من الدنس ما لم تلتمس من الكهان الصفح عنها. وكان كلما تدبر ما عهد أمينى إليه به من تعزير الأميرة لأنها أتت أمراً يعده من أشرف الفعال وأوجبها للحمد والتمجيد أحس بعبء تلك المهمة على عاتقه ومخالفتها لاعتقاده.

ولقد أسلفنا أن مخالطة بنطاؤر لنبششت أثرت في حاله فوسعت نطاق عقله وطهرته من أوضار الاعتقادات الباطلة وفتقت ذهنه لخواطر وأفكار لو جهر بها في حضرة زملائه لما تردد الرئيس أمينى في تسفيه رأيه ومعاملته معاملة اللحدين باعتبار أن تلك الخواطر والأفكار إن هى إلا نزغات شيطان رجيم ووساوس تدعو إلى الثورة والانقلاب.

ومع هذا برح بنطاؤر شديد التمسك بالخيالات وفساد الاعتقادات لمحض المسايرة والمجاراة احتفاظاً بمركزه في الكهنوت وحتى لا تفوته فرصة الصعود إلى أشرف الرتب. ولا جرم فقد كان المصريون يعتبرون الكاهن أنه ذكراً من التاجر والفلاح وأسمى قدراً من الجندى فكان لذلك لا مندوحة له عن العمل بحسب أصول الدين، وإن يكن في ذاته لا يسلم بصحة الأسباب التى أفضت إلى وضعها.

ومن أخص ما كان بنطاؤر يتظاهر بالتسليم به من أصول الدين وقواعده اعتبار المحنطين قوماً مغضوباً عليهم، وأن من مظاهر هذا الغضب قضاء الدهر عليهم بمزاولة هذه الصناعة، وأن المحنط لا يملك لنفسه الحق في اتخاذ حرفة سواها يزاولها، لأنه لا يجوز له - بمقتضى تلك الأصول والقواعد - التملص من عمل يضطره إلى أدائه حكم الوراثة عن أبيه وجده، ولسوف يؤديه من بعده رضوخاً لهذا الحكم أبناؤه وأحفاده ومن بعدهم من الأجيال. وكان الكهان يعللون

هذا القضاء المبرم بأن المحنط إنما يكفر بمزاولته حرفته الوضيعة عن سيئات وخطيئات زلت فيها قدمه قبل حياته الحاضرة باعتبار أن روحه حلت سابقاً في أحد الأجسام ثم فارقت ساعة وفاته تلتمس الحياة الأخرى، غير أنها طردت منها لما ارتكبت من الآثام الكبار وقضى عليها بالحلول في جسم جنين من أجنة طبقة المحنطين السافلة اللعينة لتحاكم عقب الوفاة أمام قضاء العالم السفلي.

وما تخطى بنطاؤُر باب بيت المحنط حتى أحس باضطراب وتقزز في نفسه، ولا سيما إذ تذكر تلك النظرية الطولية وفتح لها باب إيمانه. وكان الشيخ الهرم يخالسه النظر فقال له معترضاً في دهشة: هاك أحد ذوى الثياب البيضاء.. أفيجوز أن تحول المصيبة الدنس فتجعله طهراً؟ فسكت بنطاؤُر ولبث الشيخ يدلك قدمى الفتاة بلطف، عملاً بإشارة الطبيب. وكانت حركة يده منتظمة في ذهابها وجيئتها انتظام عجلة الناعورة في دورانها إذا طردت القوة المحركة لها.

أما بنطاؤُر فقد تخيل في أمره حين سمع كلام الشيخ وأخذ يسائل نفسه: ما مراد هذا الرجل بقوله إن المصيبة تمحو الدنس؟ هل المحو خاصية من خواصها، أم هو صفة طارئة عليها؟ نعم إن النار تطهر المعادن من الخبث وتنقيها، والرياح تقشع السحب وتقصيها، ولكن لمَ لا يصح تطهير الإنسان من دنس لصق به ولم يقض عليه بالبقاء طول عمره متمرغاً في حماته؟ ثم التفت إلى المحنط فأنس منه هشاشة تذكر معها ما كان بين والده وهذا الرجل من قرائن الشبه، فهاجت هذه الذكرى من نفسه طائفة من حوادث الماضى الدفينة فيها. ومدَّ نظره بعد ذلك إلى العجوز امرأة الشيخ فتبين في وجهها إمارات القلق والحزن، ورأها تنتفض من أنٍ إلى أنٍ انتفاض عصفور بلله القطر أو تنكبَّ على الفتاة كلما ضعف نفسها أو اشتد خفقان قلبها،

فخشع لهول ما رأى ووجم، وخيل له أن باباً موصداً انفتح أمامه على مصراعيه فترأت له حوادث الماضي كأنما قد صورها مصور بارع وبدا له شبح شخصه لما انتابته وهو صغير أعراض الحمى التي أنهكت قواه وأكلت منه وشربت ولاح له مثال أمه تحوطه بصنوف العناية وتشمله بمظاهر العطف والرعاية وتلزم فراشه ليل نهار ثم استخلص من مجموعة هذه المرائى المروعة ما حقق له أنها كانت قدوة النساء في العطف على الأبناء. ولكنه لم يلبث بعد مقارنته إياها بالعجوز في الشفقة والحنان - هذه عليه، وتلك على ابنتها- أن ظهر له بون ما بينهما في ذلك وأن حنان والدته عليه ما هو إلا قسوة إذا قيس بحنان العجوز.

وما انتهى بنطاؤر من هذه المقارنة حتى أخذ يناجى نفسه بقوله: إن الحب الطاهر واحد لا يتعدد وكل لا يتجزأ لأنه مستمد من حب ايزيس لهوروس.. أى من حب الأم ولدها. وإذا كان ولع العجوز بالفتاة حقيقة لا مرء فيها، فينبغى أن يكون هذا الولع مشتقاً من ذلك الحب الربانى وطاهراً مثله من الدنس، وإذا كان مصدر الطاهر الطهارة فلا محل لما زعمه الزاعمون من دنس المحنطين والتصاق هذا الدنس بمخالطهم أو الداخلين في بيوتهم.. تلك هى الحقيقة البيضاء التى لا تحتاج فى تفهمها إلى عناء.. وإذا قلنا إن القدرة الربانية بثت فى اللبؤة الحنان على جروها وأودعت الكركدن الرفق بصغاره- وكلاهما يستمد روحه من الشيطان- أفلم يك أدنى إلى الصواب أن يكون الإنسان أشفق على بنيه وذرائه من الحيوان؟

رفعت العجوز رأسها رويداً رويداً عن جسم الفتاة بعد أن ظلت بضع ساعات منكبة عليها لأن الرجاء فى نجاتها من الخطر المحقق بها قد عاودها لما تحققت من دلائل مثولها للشفاء، وتهلل وجهها فرحاً وأنشأت بعد إذ استقرت مطمئنة فى

مكانها تبشر الطبيب وزوجها بهذه البشرى. وكان لا يزال زوجها يدلك قدمي الفتاة بيده اليسرى فبسطها مع اليد اليمنى ليحمد الله على هذه النعمة واقتدت العجوز به في القيام بمفروض الحمد.

وحانت من بنطاؤر التفاتة نحو العجوز فرأى آثار الورع بادية على وجهها وراعه منها مشاركتها زوجها في التوجه الكلي إلى الربوبية فكانا يمثلان في وضعيهما أنتد معنى التجرد عن المحسوسات والصيوجوارحهما إلى على الذات، ولم خالطه ريبة في شدة شغف المرأة بحب الفتاة ومرّت بخاطره ذكرى ممات أخته الوحيدة حينما ترامت أمه عليها والدموع تنحدر من مآقيها، وكيف كان والده يضرب الأرض بقدميه جزعاً ويأساً وينزع شعر رأسه وجداً وحزنناً، وقال: أعظم بورع هذا الرجل وأكرم بحنان امرأته، وإن أعجب فعجب منهما تلك المسارعة إلى حمد المذم على ما أولاه من النعم.

منذ هذه الأونة دبّ إلى قلب بنطاؤر دبيب الشك في صحة ما يؤمن به من المبادئ الدينية فأخذ يقارن بين الإنسان والحيوان، إذ قال: تحب الضباع صغارها ولكن الحيوان لا يضارع الإنسان فيما رصد نفسه له من استطلاع الحقائق الربانية وتسئم ذرى الكمالات الأدبية المجردة من كدورة المادة. وبعد صمت قليل قال: لاعقل للحيوان يفكر به ولا يرجى أن يدبره عقل ما دامت الربوبية الأبدية البقاء.. ذلك لأن الحيوان متجرد من آثار الحياة العقلية، بل من بعض مظاهر الحياة الجثمانية نفسها حتى التبسم، وهو من أيسر هذه المظاهر. فالحيوان من هذا الوجه يشبه الطفل في أول عهد وجوده من جهة أنه لا يتوافر فيه أثناءه سوى القوى الحيوية التي هي روح الحيوان. ولكن لا يمر بالطفل زمن ينفذ فيه شعاع الروح

الديوية. أى الإدراك العام الهادى للنفس فى ظلمات الحياة حتى تبدو مظهره فى أول ابتسامة تتحرك بها شفتاه. وليست هذه الابتسامة أقل فى صفاتها سطوعاً من نور الحق الذى منه تنبعث وإليه ترتد. ولقد شهدت فتاة المحنط تبتسم كذلك الطفل وككل مولود حملته أمه ووضعته، فلر كانت مدنسة ولم يفرق بينها والمخلوقات فارق لما شاركتهم فى الابتسام الذى هو أول مظاهر الإدراك الحيوى.

مضى بنطاؤر فى تيار هذه الهواجس وعرض على ذهنه ما خطر له من أسباب المقارنة والقياس حتى تملكته نفسه الشفقة على تلك الفتاة فجثا على ركبتيه ضارعاً إلى من بيده ملكوت كل شىء وعنده مفاتيح الغيب أن يصلح الأحوال ويحسن المآل. وكان دعاؤه منبعثاً من قلب سليم وصاعداً إلى ذلك الخالق المبدع الذى كانت تحرم الأسرار الكهنوتية عليه الجهر باسمه الأقدس لا إلى الآلهة الكثيرة التى يغالى الشعب فى تمجيدها لإدراكه إياها بالحس وسهولة استطلاع حقيقتها مع ضعف عقله وقصر نظره. وما آمن بنطاؤر بهذه العقيدة حتى توجه إلى بارئ النسم مبتهلاً أن يأخذ بناصر عشيرة المحنطين التى ضربت عليها الذلة والمسكنة وكادت تنقرض بالحرمان المهلك، وأن ينتشلها من الحضيض الذى تنكست فيه منذ قرون، وأن يمدّه بروح من عنده ليهتدى فى طريق الحياة إلى جادة الحق والصواب، وأن يوفقه لتبديد سحب الشكوك التى غشيت بصيرته ليتم ما عهد به أداؤه على ما ينبغى من الحكمة والسداد.

وما أتم الدعاء حتى وقف فى مكانه الأول فشيخته الفتاة بلفتة من لفتاتها. وكان كأنه قد نشط من عقال الخمول وزوده إيمانه الجديد عزمًا لم يعهده قبلاً فأخذ يفكر فيما لا بد له من موافاة الأميرة به عند لقائه بها وكان يعرفها قبلاً إذ رآها مرارا

في الحفلات الدينية التي تقام عادة بطيبة الأموات. ولطالما أعجب بحسنها وافتتن بجمالها كغيره ممن كانوا يشيعونها بنظرات الحب ولواعج الغرام كلما مرت في زيارتها العظيم، غير أن هذه المعرفة لم تتعد حدود الاستشراق إليها من بعيد، فأصبح بنطاؤرها في افتتانه بها كمن يفتن بالكواكب في لائلها ويتطلبها بإمعان النظر فيها وهو يعلم أنها منيعة المرام بعيدة المنال.

أخذ بنطاؤها بعد هذا يجيل النظر في أركان الوكر المظلم وقد غص بالناس وتساءل: كيف يباح لبنت أنات ورجال حاشيتها العديدين الدخول فيه؟ ثم تخيل قدمها في ركبتها الحفيل ودنوها من باب الوكر الذي ضربت عليه الذلة والفاقة والمصاب حاملة تاجها الملكي، وبدا له كأن رجال حاشيتها - بما عهد فيهم من الخشونة والغلظة - يدفعون النساء اللاتي جئن لعزاء المحنط وزوجته على مصيبتها ويقصونهن عن ممر ركبتها حتى لا يقع نظرها الكريم عليهم وهن في أطمارهن الرثة وشارتهن المحزنة فيقشعر جسمها وينقبض قلبها أو يعاملون الطبيب وصاحبه بالامتهان، ثم استجمع في مخيلته ما يعقب ذلك من الهرج واختلال النظام وما يبديه صويحبات الأميرة من علامات التقزز والترفع كسد الأنف بأطراف الأنامل أو الأمر بنتحية الشيخ وزوجه عن طريق الأميرة. وربما اضطررا أن يطرحا الفتاة أرضاً بينما هما يضمنانها إلى صدريهما للمبادرة باستقبالها وتقبيل الأرض بين يديها، وتمثلت له بنت أنات بعد ذلك نائفة عليهما حلقات من الفضة أو الذهب على سبيل التصدق وإظهار الرضاء بينما يجتمع النسوة اللاتي تفرقن ويصحن صيحات الفرح والسرور. وتراءى له عقب ذلك كله تألف الركب ثانياً للعودة بالأميرة ولكأنه كان يسمع بعض رجال حاشيتها وهم يقولون: بارك الإله في ابنة الشمس وأدام لها الشرف والكرامة تلقاء ما أبدته من

آيات الشفقة والإحسان، ثم يبعد الموكب حتى يختفى مرآه عن العيان.

وما تمثل لينطاؤر هذا المنظر حتى اشتد به الغضب والتبرم لأنه صاغ من هذا الخيال حقيقة، فوقف إلى جانب باب كوخ الجريحة تأهباً للذود عنه وللحيلولة دون دخول الأميرة فيه إذا فاهت بما لا يرضيه من الكلام. غير أنه لم يلبث بعد هنيهة أن حاسب نفسه حساباً عسيراً إذ قال: قد تكون عاطفة الشفقة والرحمة حفزتها لهذه الزيارة.. ولكن لا.. ما جاءت الأميرة إلى هنا والدافع لها هذا الوازع النفساني الشريف! بل كل ما في الأمر أن قصر الملك أبيها أصبح يبعده عنه خالياً من بواعث اللهو والانشراح وما يدعو إلى قطع حبال الوقت في الهناءة والاعتباط فجاءت في قضها وقضيضها لتتخلص من سأم الإقامة وملل الوحدة. ولعلها ناجت نفسها بقولها إن قضاء ساعة في زيارة هذه الأسرة الحقيمة خير من الاستقرار في مكان لا ينشرح فيه الصدر باستجلاء مختلف المناظر البهجة فضلاً عما تتداوله الألسنة عندئذ من عبارات الإطراء فيها والتنويه بذكرها لأنها مع سمو مكانها وعلو قدرها قد تفضلت منة وكرماً منها بتفقد أحوال الرعية بما جبلت عليه من شرف الخصال وكرم السجية. ثم أطرق هنيهة بدت عليه فيها لوائح الغضب لأن وسواسه كان يحدثه بما أتته بنت أنات من الرذيلة بتلبسها بهذا الخلق.. وأية رذيلة أوجب في نظره لانتقاص القدر من الازدهاء بالباطل والتباهي بما يربأ بسجايها الكريمة أن تنتكس في حضوضه. وكان يحس إذ ذاك بتزاحم ألفاظ اللوم والتأنيب على لسانه الذي كاد ينطق بها غير حاسب حساباً لمكانة الأميرة، اعتقاداً منه بأنه فيما مر بخاطره من الأفكار لم يجر عن قصد السبيل في حكمه عليها. وأنه لفي هواجسه هذه إذ سمع جلبة خيل مقبلة ووقع حوافرها على الصخور فأنصت باهتاً. وما هي إلا برهة من الزمن حتى توردت بنت أنات إليه من ملتوى الوادي في هيئة هيئة وزى

عظيم ومرت من باب الوجار الحقير مرور الطيف وجلست إلى جانب الجريحة فلم يعرفها أحد من الحاضرين وفي مقدمتهم نبسشت وصاحبه تيتا. على أنهم هموا جميعاً بالوقوف فأشارت إليهم بالبقاء في مقاعدهم ففعلوا، ثم أمعنت النظر في الجريحة بعين يخامرها الحنان والعطف ومدت يدها إليها ونظرت بعد ذلك للعجوز قائلة: ما أجمل هذه الفتاة! فهزت العجوز رأسها تصديقاً على هذا الإعجاب. أما الفتاة فقد افتر نغرها بابتسامة دلت على سرورها بما سمعته من الثناء على جمالها وودت أن لو كان في قدرتها التشكر للأميرة والثناء على صنيعها الحسن. وأدركت بنت أنات ذلك منها فكفتها مؤونة هذا العناء بأن وضعت على صدرها بلطف ورفق وردة زاهية نضيرة مما زينت به غدائرها. وكان الشيخ لا يزال دائباً على ذلك قدمى الفتاة فنظر إلى الأميرة وقال لها: جزتك هاتور خيراً على صنيعك الحسن الذى طوق أعناقنا بالمنن وزادتك جمالا على جمالك. فقالت الأميرة: أرجو منك يا أبت أن تصفح عنى فقد وقع هذا المصاب رغم إرداتى. فنهض الرجل واقفاً وقال: أنت بنت أنات؟ فأطرقت برأسها وأجابت: نعم أنا. فقدحت عيناه شرر الغيظ وقال: هيا ابرحى هذا المكان وإلا تدنست نفسك مدى الأزمان. قالت: لن أبرحه حتى تغفر لى ذنبى وتستريحى. قال: ما فرط منك كان رغما عنك.. ألا تدرين أن سنابك خيلك قد تدنست إذ داست هذه النهدة؟ ثم رفع الغطاء عن صدر الجريحة فإذا بجرح غائر ينزف بالدم فأشار إليه ثم قال: هذه أول وردة رصعت يدك بها صدر ابنتى.. أما الوردة الثانية وهى هده.. وكان قد تناول الوردة التى وضعتها بنت أنات على الغطاء وهمّ بإلقائها خارج الكوخ، فأمسك بنطاؤر بيده وقال له بصوت متخلخل: مكانك!.. ألا تبصر بعقلك الضعيف وقلبك المتقرح بالأحزان الوردة الثالثة التى جاءت الأميرة لتهديكها وهى وردة العطف والإحسان؟ إن الأميرة على سمو قدرها ورفعة منزلتها قد

تنازلت بالحضور إلى هذا المكان لا لتسترضيك بالمال بل لتوليك كل ما تملك من أدب
وخشوع عطفاً عليك والتماساً للمغفرة منك. ومن تهبط ابنة رعمسيس من علاها
لزيارته وتفقد حالته حقّ عليه الخضوع لها بلا مرءاء، ولو كان أمير الأمراء. وإذا
كانت الآلهة تقدست أسماؤهم وتعالى أقدارهم قد تقبلوا من بنت أنات استغفارها
من ذنوبها، فلم لا تسامحها أنت أيضاً ولو لتكفر عن نفسك السيئة التي حملت
وزرها بحكم الوراثة وستلقيه على عواهن أبنائك من بعدك على تعاقب الأجيال؟

فأطرق الشيخ برأسه ثم رفعها بعد إذ سكنت عاصفة غضبه وقال لبنطاؤر: إن
يدك أيها الكاهن شديدة قاسية وكلامك أشد إيلاماً من طعنات الرماح.. لم تتعمد
هذه السيدة الفاتنة الحسن - حينما أرسلت لجيادها العنان - إلحاق الأذى بحفيدتى
هذه لا ابنتى كما تقولون. ولو أنها كانت زوجك أو زوج هذا الطبيب، بل لو أنها
كانت ابنة تلك العجوز التى تلتمس قوتها من فضلات القرابين لذهبت من الصفح
عنها إلى مقاسمتها ما هى فيه من بؤس وشقاء ساقهما إليها القدر المحتوم والقضاء
الذى لا مفر منه. فما وقع من الأميرة كان عفواً لا قصداً، واضطراً لا اختياراً..
وإنما شأنها فى ذلك شأنى حيث حرمت الطهارة وحرمانى إياها لم يكن جزاء ما
قدمت يدي من شر، إذ هو ثمرة ما قدر علىّ مذ كنت فى المهد صبياً لا أملك لنفسي
نفعاً ولا ضرراً. وبعد فقد كان حتماً على مثلى - وهذا مكانه فى المجتمع أن يحمل على
عاقته وقر ذلك المصائب أو يتناسى ما أدركه من الشقاء وإن توافرت أسباب
تدعونى إلى الزهد فى هذه الحياة بل إلى القنوط منها. أأست أرى كبار الناس
وصغارهم يفرون منى إذا التقوا بى فى الطريق حذر التلوث بلوث الدنس، بل

جام الأحران والغموم، فإنى أشكو بئى من إمعانه فى العسف بى والإساءة إلى إذ اغتصب أولادى السبعة وساقهم إلى ميدان القتال لىذوقوا الويال والنكال. ومما زادنى مضضا أن ابنته أصابت ابنة أصغرهم سنا بجرح بالغ لىس له دواء ولا ىرعى منه الشفاء. وقد كانت لىاتى - فى هذا الوكر الحقىر - كشعاع الشمس ىبعث اللىة فى الوجود. أما أولادى السبعة فقد مات منهم ثلاثة بالجوع والعطش فى أعمال إىصال النىل بالبحر الأحمر^(١) وقتل ثلاثة فى حرب الحبشة، أما السابع وهو الكوكب الساطع فى سماء لىاتى فوسواسى ىحدثنى بأنه لا منجاة له من برائن وحوش الشمال.

ما استقرت هذه الكلمة فى أذنى العجوز حتى هاجتها ذكرى أبنائها فأخذت تولول وتبعها النسوة اللائى جئن لتعزيتها وتخفیف مصىبتها، فانتبهت الفتاة مروعة وسألت : مَنْ تبكىن؟ أجابت العجوز: نبكى والدك یا رىحانة القلب وثمره الفؤاد. فأسفرت ثنايا الفتاة عن ابتسامة الطفل الذى ىكتم أهله حقيقة ما ىسأل عنه وقالت: والدى فى طيبة الآن، وقد رأيت به فقبلنى وقال إنه وصل إليها بحصته من الغنائم وأنه سىقىم هنا فلا ىعود إلى ميدان القتال. ثم أتحنفى بطفة من الذهب الخالص كانت منوطة بثوبى وقتما دهمتنى العجلة ومرت على صدرى وهامى

(١) كانت تسمى هذه الأعمال باللسان المصرى القدىم (تینات) أعنى النقب أو الحفر، وهى تطابق موقع قناة السويس فى جزء منه، وقد جاء وصفها على الجدار الخارجى المواجه للشمال من هیکل الكرنك فى الصعيد، وىؤخذ منه تطابق جزء عظیم من قناة السويس وترعة الإسماعيلية اللىلین مع تلك الترعة القدىمة .

خذيها لتشتري بها قربانا للآلهة ونبيذاً لجدى وكحلا وغصن مصطكى لك (١) فقد مضى زمن طويل عليك ولم تتكحلي.

وكان بينم يصغى لحديث الفتاة، فلما انتهت منه بسط يديه حامدا الله ومثنيا عليه. ثم رأى بنطاؤر العجوز ولسانها يلهج بالحمد والثناء وتشارك بعلمها في هذا الدعاء ودموع السرور تساقط من مآقيها. إلا أن الشيخ لم يلبث أن ارتاع، إذ ذهب إلى أن الفتاة قد شبه لها أبوها في صورة إنسان يماثله أو أنها رأت في المنام ما قصته على الأسماع، ولكن من أين يأتى الالتباس أو الوهم وقد رأى الحلقة معقودة بثيابها؟! فحلّ العقدة واستخلص الحلقة منها، والتقطتها بنت أنات بعد إذ سقطت من بين أصابعه وقدمتها إليه، بل بعد أن قالت له هذه الأميرة: قد كان قدومى عليك اليوم عنوان سعادة ومقدمة خير، فقد كنت يائسا من بقاء ابنك على قيد الحياة فجاءتك البشرى بوجوده قريبا منك، وكنت قانطا من شفاء ابنته وها هي بعنايته تعالى مقبلة عليه. وما كادت تتم كلامها حتى دنا بينم منها حبوا وأمعن فيها النظر مغرورقة عيناه بالدموع ثم قال مبتهلا: مولاتى.. تجاوزى عن خطيئتى كما تجاوزت عن ذنبك. أجابت: إننى شاكرة لك حسن صنيعك، ثم التفتت إلى نبسشت وأوصته أن يعنى بأمر المريضة، ودنت من الفتاة فقبلتها بين عينيها وتركت إلى جانبها دملج ذهب مصفى، وبرحت المكان بعد أن أمرت بنطاؤر باقتفاء أثرها.

(١) يسمى الكحل باللغة المصرية القديمة (مستم) وقد كان شيوعه في مصر نقلا عن أهالى آسيا. أما أعواد شجر المصطكى فكان يستعملها قدماء المصريين في تنظيف الأسنان، وكانت لهم طرق لصناعة الحبوب من الأفاوية المعطرة للفم، ولا تزال هذه الطرق مبينة في أوراق البردى التى استكشفتها ايبرس.

الفصل السادس

تنازع العشق والسحر

كان بعاصر ونيفرت في خلال ما مر من الحوادث ينتظران أوبة الأميرة من بيت بينم، وكانت الشمس أنثذ في سمت الرأس ترسل سهام أشعتها النارية إلى الصخور الصلدة والتلال الجرداء القائمة إلى جانبي المضيق فتنعكس منها حرارة كالسعير تكاد تزق الأرواح. ولم يك في تلك الأرجاء مكان ظليل يأويان إليه ويتقيان به هذه الحرارة المحرقة، فأمرت الأميرة حاملي الظللات بالوقوف حيث توجد العجلة والمحفات.

ولقد انقضى زمن طويل وهما بهذا المكان لا تنيس شفثاهما بكلمة إلى أن عرا نيفرت الضجر وتولاها الملل، فرفعت عينيها المتلوزتين نحو بعاصر وقالت: لقد طال غياب بنت أنات ببيت المدنسين وأحرق جسمي حر الهجير فما العمل؟ قال بعاصر: لا بد لنا من انتظارها هنا على كل حال. ثم ابتعد عنها قليلا وصعد في صخرة يترامى النظر من قمته إلى مدى سحيق. وبعد أن سرح النظر حوله دنا من نيفرت وقال: لقد اهتديت إلى مكان يقينا أشعة الشمس. فلما عرفت نيفرت موقعه هزت رأسها منكرة توافق الظل فيه فتلامست الحل والجواهر التي رصعت بها رأسها فُسَمعت لها وسوسا لطيفة تشبه حفيف الأشجار، ثم لبثت في مكانها، فقال بعاصر: إن سخت^(١) قد هاجتها في السماء عوامل الغضب فرشقتنا بسهامها النافذة، فهلمى بنا إلى ذلك المكان نتقيا ظللاله، وإن يكن غير جدير بالمقام. فتنفست نيفرت الصعداء ثم اقتفت (١) سخت الهة كان يمثلها المصريون برأس لبؤة أو مرة يعلوها قرص الشمس أو الثعبان، وكانوا يسمونها رع، وكان إذا علا رأسها الثعبان دلت على شدة حرارة الشمس أو على شدة الهيام والشغف.

أثر بعاكر وهو يقصد صخرتين قائمتين يفصل بينهما مضيق ألقى قمة إحداهما على قاعه من الظل ما لا يتجاوز مساحته بضع الأقدام المربعة، فلما انتهى إليه رفع بعاكر حجراً مكعباً وأرساه على هذا المكان بعد قتل ما علق به من العقارب ثم غطاه بمنديل وأشار إلى نيفرت بالجلوس عليه قائلاً: ها أنت الآن في مأمن من حرارة الشمس ولظى الظهيرة!

لما جلست نيفرت أخذت تحرق في الموهار نظرها بعين يخامرها القلق والغضب، وكان لا ينفك عن التنقل أمامها جيئة وذهاباً، فلم تتمالك أن قالت له: الزم مكانك يا هذا وخلصك من الغدو والرواح، فوقف بعاكر مولياً ظهره إليها وأخذ يطيل النظر في الطريق المؤدية إلى بيت بينم، فقالت نيفرت: أما عندك قصة تقصها؟ فنحوّل الموهار نحوها وقال: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. ثم استأنف السير ذهاباً وجيئة كالضواري إذا حبست في القفص. فقالت: إنى عالمة بدخيلة صدرك، وما ران على قلبك من الحقد لفشلك في الزواج بي.. ولكننى لا أجد لحقدك سبباً فقد كنا -حينما خطبتنى والدتك- أطفالاً لا نعقل. وكثيراً ما كنت أبتهج إذا سمعتها تقول عنى إننى امرأتك الصغيرة. وكنت أود لو تحققت في المستقبل أمنيتهما إذ من يأبى من السيدات أن تكون صاحبة الأمر والنهى في قصورك الباذخة وبساتينك النضرة وخيراتك الوافرة التى كانت فخر آبائك وأجدادك؟ فضحك بعاكر مزديراً بهذا القول: فحنقت نيفرت لاستهتاره ولكنها كظمت حنقها وتظاهرت باللين والاعتدال في القول، حتى لا يركب بعاكر متن الشطط معها في خطابها فقالت: نعم، إنى أنست منك غضباً على وإعراضاً عنى، ولكن مهما يكن غضبك أيجوز لك أن تفسر قولى بإفتتاني بثروتك وطموحى لأموالك؟ إنى أكرر لك ما قلته الآن وهو أننى كنت شديدة الاحترام لك والعطف عليك، وحسبى شاهداً على ذلك مقاسمتى إياك همومك

وأحزانك حينما كنت تشكو بئك إلى وتتوجع من تضيق والدك عليك وإساءة زملائك إليك، فلما توفي والدك سافرت إلى آسيا.. فقاطعتها بعاكر ساخرأ بقوله:.. ففسخت عقد الخطبة ونسيت موائق المودة وتزوجت بمينا ملازم ركاب الملك.. إنى بكل ذلك عليم يا نيفرت فلا حاجة بك إلى تكراره. قالت نيفرت: يسوؤنى جداً يا ابن خالتي أن تكون واجداً علينا وأن تعرض والدتك عنا وتتنحى عن مخالطتنا، ولكن هلا عذرت وأنت أدري بحال المرء إذا تيمه العشق وسلب قلبه وأخذ لبه؟ قال بعاكر وقد وقف أمامها مواجهة واضعاً يديه على صدره: نعم أنا بكل ذلك عليم ولكن ألا تدرين أنت أيضاً أنى كلما فكرت فيك شعرت بأن ناراً تتأجج بين جوانحي، بل إن جحيما تلظى في كل جسمي؟ وما كاد يتم كلامه حتى شخصت عيناه وبع صوته وقال: لعلنى نسيت أن منصب مينا لدى الملك يصرف الأنظار نحوه أكثر منها نحوي من منصبى بعيداً عن جلالته.. ووالدتك.. فقاطعته نيفرت بصوت مرتفع: لم تكن والدتى هى التى اختارت.. ولا هى التى أشارت بتفضيله عليك وإنما أنا التى اخترته، إذ رأيت يوماً يقود عجلة الملك فبدأ لى كأنه إله الشمس وقد حانت منه التفاتة إلى فرمانى من لحظه بسهم أصاب فؤادى. وحدث بعد ذلك أننا التقينا يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك فبهرنى منظره الشائق فى شارته الجميلة وخيل لى أن الإلهة هاتور قد نسجت حولى نسيجاً لحمته وسداه أشعة الشمس العسجدية، فأفضى إلى بما فى قرارة نفسه.. إذ قال إنه يشعر من حبى بمثل ما أشعر من حبه، فلما خطبني إلى أهلي بعد ذلك أبت والدتى أن تزوجني منه فاعتراني هم كثير لا يعدله غير ما كنت أتمناه أن أكون قرينة له، وعراه هو أيضاً وجد شديد لم ينفع معه التأسى، فصار لا يهنأ له طعام ولا شراب ولا يهدأ له خاطر، ولحظ جلالة الملك تغيراً فى حاله فسأله عن سبب حزنه ووجومه، إذ كان كما تعلم يحبه ويجل قدره، فكاشفه بسرره وأوقفه

على حقيقة أمره، فتلطف به وواساه وتفضل كرمًا منه وإحسانًا بطلبى من والدتى التى لم يسعها -والطالب هو سيد البلاد ووليها- إلا أن تسارع بالطاعة، وإنى أؤكد لك بأن نعيم الأبرار فى عالى^(١) ليس بالشىء المذكور إذا قيس بما أوتيناه من السعادة والهناءة أنا ومينا، حتى لقد طوّح بنا الظن يوماً أننا صرنا فى عداد الآلهة.

وكانت عينا نيفرت شاخصتين فى السماء فلما وصلت إلى هذا الحد من الحديث حدقت النظر فى بعاكر وقالت: ولكننا ما لبثنا على ذلك أياماً معدودة حتى تكدر صفونا بهجوم قبائل الخيتاس^(٢) على وطننا فاضطر رعمسيس إلى قتالهم ولزم مينا ركابه فى ميدان القتال، ولم يكن قضى معى من الأيام إلا خمسة عشر، ثم.. فقاطعها بعاكر بصوت مضطرب: ثم أجاب الآلهة دعائى وتقبلوا رجائى إذ فرقوا بينك وذلك الذى سلب هنائى وسبب شقائى، واضرموا فى قلبك نار الشوق إليه. وإذا ظننت أنك أتيتنى بنبأ جديد فقد أخطأ ظنك، لأنه إذا تمتع مينا بمحاسنك الفتانة خمسة عشر يوماً فقد ذهب إلى حرب يصرع فى ميدانها عشرات الألوف من الشجعان. فتبرمت نيفرت بهذا الكلام وصاحت: كلا فلسوف يؤوب بالسلامة وتقرّ عيني برؤيته. قال بعاكر: جائز أن يعود، ولكن ألا تعلمين أن أيدى الخيتاس قاسية وأن سيوفهم ماضية وأن جبال لبنان تحلق فى سمائها ألوف النسور ولايستحيل أن تكون محومة على جثته الآن تمزقها كما مزق قلبى وتسلبه روحه كما سلب لبي؟ وكان وقع هذا الكلام فى نفس نيفرت أشد إيلاماً من طعن الحسام فلم تتمالك أن

(١) عالى باللغة المصرية القديمة مسكن الأبرار فى الجنة، وقد جاء فى كتاب الاموات أنهم يقيمون فيه بالقرب من مياه جارية ويفرسون ويحصدون.

(٢) الخيتاس هم الأراميون الذين كانوا مع شعوب آسيا الغربية يحتلون صعيد مصر فى عصر رعمسيس الثانى.

وقفت واتجهت نحو بيت بينم، غير أنها لما تولاهما من الهلع بسبب ذلك الكلام خانتها القوى فسقطت في مكانها ثم عالجت الكلام فلم تستطع بل شعرت بضيق في صدرها وخفقان في قلبها، حتى لم تعد تعي شيئاً مما يحدث حولها. وكان بعاكر يحدد فيها النظر وهو جامد في مكانه لا يواسيها بكلمة تخفف من آلامها، ذلك لأن قلبه كان أشبه بإحدى شجرات الجنوب تطرح الثمار الرطبة والثمار الجافة معاً في وقت واحد أو في بعض أيام السنة التي يطلع القمر فيها على الأفق والشمس ساطعة الضياء، أعنى أنه كان يتراوح بين طرفي العشق والضعينة تراوحه بين الأمل في الظفر بأمنيته واليأس منها. وكانت دموع نيفرت مازالت تهطل مدراراً، فإذا شهدها بعاكر تنحدر على خديها هدأ روعه واطمأن قلبه وزال ما به من الاضطراب وانطفأت النار المتضربة بين جوانحه، إذ كان يشبهها بالطل إذا كسا الأزهار أكسبها البرودة وذهب بما فيها من جفاف. ولكنه مع ما أبداه من جفاء الطبع وغلظ الكبد وهو في هذا الموقف الذي تحن فيه العواطف وتتلاشى دقائق الأحقاد كان لا يلبث - كلما خالسهما النظر - أن يزداد هيماً بها ويحس بتأثير محاسنها أفعال في قلبه المستهام منه عن ذى قبل، فيقف عليها نظراته لا يصرفها صارف عن شخصها المحبوب، ويهم بالتماس رضائها عنه وتقديم كل ثروته إليها في مقابل كلمة صفح يسمعها من فيها أو قبلة يضعها على ثغرها المنضد بأسنان لؤلؤية لا نظير لها نظاماً وإشراقاً.

وبعد ساعة أفاقت نيفرت من غشيتها فكفكت الدمع ونظرت إلى بعاكر ساخرة مستهترة وقالت بصوت خافت: لقد جف لساني من العطش، فهات لي ماء. أجب: إن ميعاد حضور الأميرة قد دنا، فكيف العمل؟ قالت: لقد انحلت قوائى بما أصابنى من العطش الشديد. ثم تناثرت الدموع على خديها فهز بعاكر كتفيه ثم هروا مسرعاً

نحو الوادى القريب حيث مقابر أجداده لإحضار الماء. وكان عارفا بمنعطفاته ومضائفه لكثرة ما تردد على المقبرة في الليالى المقمرة للصلاة على أرواح الموتى. وكان بوده أن يأتى بالماء من بيت بينم إلا أنه تذكر أن هنالك مغارة تأوى إليها عجوز شمطاء ففضل أن يأتى بالماء من عندها وانصرف مغذاً السير، رجاء أن يسترضى نيفرت بمروءته. وكانت تبدو لناظره وهو يجرى باكية متوجعة فيذوب عطفاً عليها ويزداد هياماً بها، وإن يكن من جهة أخرى يبغضها أشد البغض لما تبديه نحوه من الصد المتلف والهجران القاتل.

وكان باب المغارة الذى يحفظ العجوز من سطوات بنات أوى واللوص الذين يتسللون خلال الديار فى جنح الظلام مفتوحاً. وكانت جالسة تحت ظلة من الخرق البالية مثبتة الأطراف بقوائم خشب يستعان بها على حزم أعواد النباتات. وكان بالقرب منها هراً أسود ينشق الرائحة الذافرة التى تسطع من رؤوس الغريبان والبوم التى طرحتها العجوز بعد أن استخرجت عيونها. وكان بجوار الباب طائران من الجوارح يغشاهما الدخان الكثيف المتصاعد من نار وقودها حطب بعض النباتات، فلما دنا بعاكر من هذا الباب نسى هواجسه ولاسيما حينما سمع العجوز تسأل بصوت خشن: هل غلى الشمع الذى على النار؟ ثم سمع برطمة من الداخل لم يفهم معناها وإنما فهمتها العجوز لقربها من مصدرها حيث قالت جواباً على قائلها: ضعى عليه عين قرد^(١) وريش أوز وخرقة بالية من ثوب معلم ثم حرّكى هذا

(١) إن بعض الكلمات التى تروى هنا على لسان العجوز وتحضيراتها السحرية مستنبطة من ورقة البردى المعروفة بالورقة السحرية المحفوظة إلى الآن فى أحد المتاحف. وبقية الكلمات والتحضيرات مأخوذة من ورقة سحرية أخرى تعرف باسم ورقة هاريس- المترجم لها- وتاريخها مطابق لتاريخ وقائع هذه الرواية، ومن ورقتين غير السابقتين تسمى إحداهما بورقة ليد والثانية بورقة برلين، وهذه الأخيرة باللغة اليونانية.

المخلوط رويداً رويداً حتى إذا امتزج بعضه ببعض اطفئى النار ثم خذى الجرة واملئها ماء.. وما أتمت هذا الكلام حتى برزت من المغارة أمة سواده بلغ ردفها من النحول مبلغاً يخيل للناظر معه أنهما هيكل عظم مطلياً بالقار. وكانت تستر عورتها بخرقة بالية فسد لونها فتناولت إناء من صلصال وضعت على شعر رأسها المتجدد وسارت في طريق مقابلة للتي جاء بعاصر منها. أما العجوز فكانت نحيفة الجسم محدودة الظهر، قد أكل الدهر عليها وشرب، فلما وقع نظرها على بعاصر نهضت للقائه بعد أن عصبت رأسها بمنديل حرير معلم وألقت على الأرض حصيرة لإخفاء رؤوس الغربان واليوم التي كانت تتصاعد منها رائحة كريهة ثم عادت إلى مزاوله عملها كأنها لم تبصر بأحد ولم تجاوب على نداء بعاصر إياها بصوته الجهورى، فرأى أن يدنو منها أكثر مما فعل فمدت إليه نظرها وقالت: إنى أحمد سعيك أيها الزائر الشريف ، فلقد وافيتنا يحف بك يوم سعادة ويوم نور، وزرتنا فاسبغت علينا حلة المجد والفخر. فألقى بعاصر إليها بحلقة فضية^(١) وقال لها: قفى على قدميك واتنى بماء نقى في إناء نظيف. فالتقطت العجوز الحلقة الفضية، وبعد أن حدقت النظر فيها طويلاً قالت: هذا هو اللجين الخالص! هذا هو المعدن الكريم! ولكنه دون ثمن مائى السحرى العجيب الفعل الغريب التأثير. قال بعاصر: لا تكثرى من الهدى أيتها العجوز وعليك بإحضار الماء فوراً. ثم رمى إليها بحلقة ثانية فقالت: إنك طلق اليمين! إنك ندى الكفين! لذا أريد أن أطلعك على جميع الأسرار وأفتح لك مغالق الأبواب. والذهب الوضاح لها خير مفتاح.. لقد طلبت منى بقيمة الحلقتين ماء ولكن لم تقل لى ما هو الماء، فإن عندى منه أصنافاً عدة منها ماء إذا تناولته صانك من فتكات الحيوانات الضارية، وماء يساعدك على استئزال النجوم من أفلاكها،

(١) كانت المعاملات عند قدماء المصريين بحلقات من الفضة والذهب.

وماء يوقفك على أسرار الطرقات المجهولة وهو أليق بك وأعلق بوظيفتك، وماء يعينك على تحصيل العلم والتميز بين العدو والصديق وبين الغث والسمين، وماء تعرف به متى يموت أعداؤك، وماء يخفيك عن الأنظار، وماء تزيل به الأصبع السادس من رجلك اليسرى. قال بعاكر: يظهر من كلامك أنك تعرفيننى أيتها العجوز؟ قالت: كيف لا ، ولى عين ترى الغيوب وتستطلع ما فى القلوب، ويد حذقت تجهيز المياه النافعة للكبار والصغار. قال: إن هذا إلا من أساطير الدجالين وحيل المشعوذين. ثم أخذ بمقبض سوطه وقال للساحرة: هيا اسرعى فإن السيدة التى لأجلها.. فقاطعتة قائلة: لمّ لم تقل من بادىء الأمر أنك تريد ماء لسيدة؟.. ولقد كان فى إمكانى معرفة قصدك لولا أن كل الذين اعتادوا طلب الماء السحرى النافع فى استهواء أفئدة النساء أمراء وأعيان من نوى الأسنان وليس فيهم من هو مثلك فى ريعان العمر وعنفوان الشباب.

اختفت العجوز هنيهة ثم عادت وببيدها إناء اسطوانى الشكل دفعته إلى بعاكر قائلة: دونك الشراب الذى تطلبه وطريقة استعماله أن تشوب نصفه بماء وتعطيه من تحب استهواءها إليك فإذا لم يأت بالغرض المقصود فوافها بالنصف الثانى، إذ لا بد من حصول الفائدة على ما يوافق الأمل. وأعلم أنه لا خوف من هذا الشرب حتى على الطفل الصغير. أما الشيخ الذى قعد به عجز الشيخوخة وخمولها فهانه إذا تناوله تدب فيه روح النشاط والهمة. وإن تكن فى ريب من صدق قولى فهأنذى أشرب منه قبلك. ثم رفعت القدر إلى فمها كمن يتجرع شرابا وقالت: أرايت بعد أنه لم يلحقنى سوء؟ وما شربته الآن أمامك كافٍ لثلى، ولو تجاوزته لعرضت قلبى لخطر الوقوع فى شرك هواك، وأنا عجوز شمطاء.. فعليك إذا بهذا الماء يا بنى فإن لم يوافق تأثيره حسن ظنك به يكن ما دفعته لى من المال غير رابٍ على ثمنه، وإن وافقه

فقد حقت عليك مكافأتى بثلاث حلقات من الذهب الإبريز. وإننى لموقنة من قضائك
لى بهذه الجائزة.

قالت ذلك وبعاكر مصغٍ إليها لا تنبس شفتاه بكلمة، فلما أمسكت عن الكلام
جذب الإناء منها فى عنف وشدة ووضع فى قطرميز فضة ثم ألقى للساحرة بثلاث
حلقات فضة بعد أن سألها إناء مملوءاً بماء النيل. فهرولت الساحرة إلى داخل
المغارة قائلة: ما لى أراه عجلاً ملولاً؟ لقد سألنى أعرفه وهو ما لا خلاف فيه، ولكن
لا أدرى من هى معشوقته.. أهى وردة الصغيرة ابنة المحنط القريب منا، أم غيرها؟
فإن تكن هى فله العذر فى هيامه بها إلا أنها الآن طريحة الفراش وقد لايرجى لها
البقاء بعد الحطمة التى أصابتها.. وبعد فلا مناص لى من تعرف الخبر.. أما أنا فلو
كنت فى مقتبل العمر لما مال قلبى إلى هذا الرجل.. وإن أعجب فعجب أن ينال بغيته
بغير ما يبديه من الصبر وقوة الاحتمال ويبسط يده به من وفير المال.

طافت هذه الهواجس بخاطر العجوز وهى تملأ بماء النيل المصفى جرة من
الخزف البراق، فلما انتهت غطت فوهتها بورقة غار رسم عليها قلبان مترابطان
بسبعة خطوط متوازية، ثم خرجت فتناول بعاكر منها الإناء وأمعن النظر فى الورقة
فقالَت الساحرة: فى هذه الورقة سر ارتباط القلوب كما ترى ثلاثة للرجل، وأربعة
للمرأة، وسبعة لمن لا يتجزأ شعاع شاشاش شارشال اشاشا (١).. وأخذت بعدئذ
تردد هذه الرقى الشيطانية فلم يلتفت بعاكر إليها، بل عاد من حيث أتى قاصداً
مكان نيفرت. وقبل أن يدركه بقليل وضع الجرة على حجر مستوٍ ثم أخرج من
القطرميز إناء الماء السحري بيد راجفة وقلب خافق فخيل له أن هاتفاً يصوت به: ها

(١) هذه الألفاظ مستخرجة كما هى من الورقة السحرية الموجودة فى برلين.

استهواء الفتيات وسلب الباب الغانيات.. وهب أننى عمدت إلى إصابة هذا الغرض، فلم لا يقال إن الآلهة وأرواح الموتى من أهلى قد رأفت بى فتقبلت منى ما قدمته إليها من القرابين ومهدت لتحقيق أملى وإجابة سؤلى، فهدت خطواتى إلى مغارة العجوز التى أرشدتنى بباعث من نفسها إلى الشراب السحرى الذى يلين القلوب الصلدة ويجذب الميول المستعصية؟

كان بعاكر معروفاً فى أصحابه بشدة العزم وقوة الشكيمة وارتقاب الفرص للوثبة عليها عند سنوحها. وكان إذا قال فعل وإذا فعل أصاب الغرض، غير مفرق بين السهل من الأمور والصعب الذى يستدعى إعمال الروية فى معالجته حتى يجىء وفق المراد، إلا أن هذه الهمة لم تكن لحدة فهمه أو سعة حيلته أو بعد نظره فى المصائر، بل هى ثمرة من ثمار المصادفة العمياء.

وكانت عادته أن يحمل قلادة ثبتت فيها التمايم المختلفة الأشكال والأحجام لاعتقاده بما لها من الخصائص النافعة والفعل العجيب الذى بثه فيها الكهان ببركة دعواتهم الصالحات مقابل ما كان يدفعه إليهم من وافر المال ويتحفظ به من جزيل الخيرات. وكان يحتفظ دائماً بأشياء ثلاثة: حجر اللازورد وتمثال وخاتم. أما الحجر فكان معلقاً بسلسلة ذهب منوطة بنطاقه، وفائدته عنده أنه إذا ألقاه على الأرض فواجه السماء وجهه المنقوش دل ذلك على نيل المطالب وتحقيق الأمانى والعكس بالعكس. أما التمثال فكان يمثل صورة الإله أفيرون برأس ابن أوى، وهو هادى الضالين ومرشد المسافرين وفائدته عنده أنه إذا التمس الهداية إلى طريق ألقاه على الأرض أيضاً فحيث ينصرف رأسه يذهب راشداً على خط مستقيم، فلا

ينشب أن يصل إلى الغاية المقصودة. أما الخاتم فقد ورثه من أبيه وبالغ في صيانته لما يحتويه من أسرار القوة والبأس، لأنه كان فيما مضى للملك تحتمس الثالث الذى دخل عداد الآلهة، فأمر بوضعه على أقدم قبر لأوزيريس بهيكل أبيدوس^(١) ليستمد منه القوة، وقد أهداه قبل وفاته إلى أحد أجداد بعاكر. وكان فص هذا الخاتم منقوشاً بثلاثة رموز مقدسة وثلاثة غير مقدسة، وفائدته أنه إذا ودَّ أن يتعرف ما سيقع له من ضرر أو نفع مسَّ الفص بطرف خنجره، فإذا أصاب رمزاً مقدساً دل ذلك فى اعتقاده على أن والده الذى حلَّ فى نفس أوزيريس راضٍ عن مشروعه فيبادر إلى تنفيذه، وإذا مس رمزاً غير مقدس عدل عن عزمه وانتظر ما يرشده هذا الرضاء إليه فى الظروف الملائمة.

يبدو مما تقدم أن همة بعاكر فى قضاء مصالحه وتنفيذ مشاريعه كانت ثمرة رضوخه المطلق وطاعته العمياء لما تخبره به المصادفة الناطقة بلسان ذلك الخاتم. وكان من عاداته أحياناً أن يضمه إلى صدره وينتظر ريثما يلتقى بأحد فى طريقه، فإذا مر من اليمين أفاد ذلك موافقة والده إياه على عمله أو من شماله أفاد العكس. وعلى هذه القاعدة بنى بعاكر أعماله وتصرفاته كافة، فكان لا يعمل عملاً ولا يقول قولاً إلا إذا وافق عليه الموتى من آله. ولقد اتخذ أباه وأخاه الأكبر المتوفى فى ريعان الشباب رائدين له فى طريقه يدلانه على سبيل الخير ويعدلان به عن مهاوى الشر ويمحضانه النصح، فكان يعمل بما يأمرانه به وينتهى عما ينهيانه عنه. وقد وقر فى

(١) كان قدماء المصريين يعتقدون أن تيفون إله الشر قتل الإله أوزيريس وقطع جسمه أربع عشرة قطعة ثم القاهما فى جهات بعيدة من القطر المصرى، فلما رأت ايزيس زوجة أوزيريس ذلك شيدت قبراً جميلاً على كل قطعة. وأقدس هذه القبور قبر أبيدوس، وكان وجوه المصريين يوصون قبل وفاتهم بدفن جثثهم بجوار هذا القبر التماساً لبركته.

نفسه أنه إذا استمد بروح والده أو روح أخيه ليستشيرهما في أمر خطير وعمل
بنصيحتهما وفق للنجاح والخير، وإذا خالف مشورتهما أهدقت به المصائب من كل
جانب. وقد علمته التجارب أن لتلكما الروحين من المزايا ما تفضل إحداهما به
الأخرى، وإنما العمدة على العادة فإذا اعتاد من إحداهما الموافقة على ما تأذن به
الثانية استمد بها دون هذه والعكس بالعكس.

وكان بعاصر يرى أنه بالسير على هذا المنهج وعدم الحيد عنه يفوز برضى الآلهة
ويكون حظياً عندهم. فقد استقر في خلدته أن أرواح الموتى تتحد بعد ثبوت براءتها
بروح الكون وتشارك في تدبير شؤونه مع الأرواح الأخرى. وهذا ما استحته على
تقديم القرابين الكثيرة إليها بمدفن آله وفي هياكل العبادة، ولاسيما في هيكل سيتي
الذي يمجده كهانه ويكرمهم ويعمل بنصائحهم ويبالغ في الشكر لهم والثناء عليهم.
وكان يعتقد أنه إذا سار على هذه الخطة اتصلت روحه بالربوبية فتجل عن مناظرة
الكائنات السفلية، فانتفخت أوداجه لذلك كبراً وعتواً وتاه على الأشباه والنظراء،
اعتماداً على الإيثار الوهمي الذي خيل له أن الآلهة قد ميزته به على أفراد الأمة
المصرية، في مقابل تفانيه في محبتهم ودأبه على تقديم القرابين إلى هياكلهم. أما
أساتذة بعاصر من كهنة هيكل سيتي فكانوا يقومون المعوج من خلقه ويرشدونه إلى
الطريق الأقوم، غير أنهم كانوا يتحرزون من تصحيح غلطاته ويمدون في طغيانه
استيقاء لما كان يسديهم إياه من جزيل النعم ويوالي هياكلهم به من وفير الخيرات.

ولما استقر في نفس بعاصر الاعتقاد بأنه مشدود الأزر بالقوى الخفية ومكثو
على الدوام بعين العناية الصمدانية انفض من حوله الأصدقاء وبان عن معاشرته
الرفقاء، فكان لا يرى إلا وحيداً في ميادين القتال بل وفي طرقات طيبة. ولقد بالغ في

البعد عن الناس والنفور منهم حتى وصموه بالكبرياء ولم يعترفوا له بغير فضيلة واحدة وهي العزم وقوة الإرادة. وقد أفضى به اعتقاده بتناسخ أرواح الموتى وتدخلها في شؤون الأحياء من قرابتها إلى الزعم بأنها كانت تبعث من قبورها فيراها رأى العين ويخاطبها في شؤونه ويستعين بها على قضاء حاجاته. وكان كلما فكر في هذا الاعتقاد هاجت شجونه وثارت نفسه وتراءت له صورة مينا، فلا يلبث أن تدب في صدره عوامل الضغينة والحقد فيكثر من الصلوات للآلهة والتزلف إلى الكهنة ليعجلوا بموت هذا الخصم اللدود والمناظر العنيد .

قلنا إن بعاكر وضع على الحجر الإناء الذي تسلمه من العجوز الساحرة لتطفئ نيفرت بمائه نار ظمئها.. فلما تحقق استوائه في وضعه ولم يخش عليه الانقلاب، تناول الماء السحري بيد راجفة. وكان الشغف بنيفرت قد بلغ منه حدا نسى معه كمين حقه عليها وتذكر حينما همّ بصب الماء السحري في الإناء نصوص القوانين الدينية على السحر وأنه من الآثام التي يعاقب مرتكبها بالاعدام، فتخيل في أمره وتراجع مستطار اللب روعاً وفزعاً، غير أنه لم ينشب أن تزود من غرامه الشديد قوة وإقداماً فعاد إلى موقفه الأول، ولكن مروع العينين متزعج الضمير ولبث فيه جامداً لا يتحرك. ثم تذكر الخاتم ووجوب الرجوع إلى ارشاداته، لاسيما وهو في موقفه الحرج، فما هي إلا طرفة العين حتى أبرزه من جيبه ومسّ وجهه بسن السيف فلم تصب رمزاً ما من الرموز المقدسة التي تفشت فيه، وهو الدلالة على وجوب العدول عما انتواه من أمر. ولو كان لهذا الأمر علاقة بغير نيفرت وحبها لما تردد طبعاً في العدول عنه، إلا أن تدله في عشقها كان قد ملك من قياده وأفقده الصواب فلم يعبأ بدلالة الخاتم، فعمد إلى استشارته بطريقة أخرى إذ ضمه إلى صدره ونطق باسم (أوزريس) ثم انتظر ريثما يسنح له إنسان أو حيوان حتى إذا

مرّ عن يمينه دل ذلك على رضاء والده عنه وموافقته على ما انتواه، أو عن يساره دل ذلك على العكس فينصرف عن نيته. وما هي إلا إناخة راكب حتى لاح له خلف الجبل طائران صفقا بجناحيهما وحلقا في الجو فترة من الزمن ثم مرا عن يساره ولم يمرأ عن يمينه كما كان يود ، فكاد ينشق غيظا وهمّ بإراقة الماء السحري على الأرض لولا أن شيطان الجنوب كان يتعقبه في كل حركة فأذكى في قلبه نار الحب، فما لبث أن تذكر نيفرت ساحرة لبه وسالبة فؤاده، فخارت عزيمته وتلاشت قوته ولكنه عمد إلى إناء الماء السحري فسكب نصف ما يحتويه منه في الإناء الذي على الحجر واتجه به نحو نيفرت ليقدمه إليها فإذا بها مقبلة عليه فأخذته متلهفة وتجرعت كل ما فيه عباً. ثم تنفست الصعداء قائلة: أشكر لك يا بعاكر ما خولتني من النعمة وقلدتني من المنة، فقد شفيت بهذا الماء الزلال غليلي وشرحت صدري، ولكن خبرني ما الذي مرّ على رأسك من البلايا حتى رأيتك مضطرب الحركة ممتقع اللون؟.. ألما قاسيته من العناء وتكلفته من المكروه لأجل؟ ثم صعدت فيه بصرها ومدت نحوه يدها فتناولها وقبلها بشغف ولهف. عندئذ افتر ثغر نيفرت عن ابتسامه ملكت على بعاكر مشاعره ثم قالت: حسبك هذا وكفى يا بعاكر، فقد برحت الأميرة بيت بينم ولا بد لنا من التأهب لاستقبالها، ولا تنس على كل حال ما وجهته إلى منذ ساعة من القول المؤلم والتنديد القارص.. نعم، لست بمنكرة أننى أثرت في صدرك الغيظ الذي حملك على أن ترمينى بسهامهما، إلا أننى أود أن أراك فيما أنت الآن عليه من السكون وطمأنينة النفس وأن تعمل مجداً لإصلاح ذات اليمين بين والدتك ووالدتي. ثم أومات إليه بسبابتها كمن يتوعد غيره بسوء العاقبة إذا لم يبادر بالطاعة. قالت هذا ورمته بسهم من لحظها أصمى فؤاده وزاده غراماً واقتتانا.

أخذت نيفرت سمتها بعد ذلك إلى بيت بينم تاركة بعاكر من خلفها يضغط صدره

بكفيه معالجا بهذه الحركة تخفيف خفقان قلبه ومناجياً نفسه بقوله: لاريب في أنها آيلة إلى وأنى قابض على ناصيتها في آخر الأمر بفضل هذا الماء العجيب.. بورك فيك أيتها القوة السماوية! وكان من عادات بعاكر المألوفة وعباراته المأثورة أنه إذا ظفر بأمنية أو خيل له انه سيظفر بها تهلل فرحاً وكرر تلك الجملة (بورك فيك أيتها القوة السماوية). ولقد انطلق لسانه بها في هذا المقام إشارة إلى أن الأمر الذى عالجه واستعصى عليه فيما مضى قد تمهدت له السبل وزالت من أمامه العقبات، فهو يشكر القوة السماوية التى تذلل الصعاب وتفتح موصد الأبواب.

على أنه لم يستطع البقاء في مكانه بل أخذ يتتبع مواطىء أقدام نيفرت بعد أن احتفظ بالإناء في نطاقه لكى يروى بمائه غلتها إذا عطشت ثانياً، وهو بذلك قد عمل بنصيحة الساحرة تلك العجوز الفاجرة. إلا أنه لم ينشب أن أحس بوازع نفسى يذم إليه رأيه ويقبح فعله وينحى عليه بصنوف التوبيخ والتقريع مذكراً إياه بواجب الاستقامة وفضل الصدق والأمانة. ولكنه لم يعبأ بصوت الوازع ولا نداء الضمير، بل تمادى في غيه وسجل عناده واستحفافه بهز الكتفين وتحريك اليدين، فعل المتبرم من سماع نصيحة لا تطابق هواه. وعلى الجملة كان كالسكير الذى كلما ألقى في روعه الرهبة من عواقب إدمان الشراب انحط على دنان الخمر يعب من مشمولها عباً.

وكان بعاكر لا يستطيع أن يكشف نيفرت بغيظه من مينا ولا يجهر بعزمه أنه فاعل خذا وكذا للفتك به، بل كان يكل إلى (القوة السماوية) العناية بتصريف الحوادث على ما يوافق شهواته. أما الآن فقد استقل بإرادته واستأثر بحريته وأصبح في غنى عن الاستمداد بتلك القوة أو الاعتماد عليها، ثم شطح في الإلحاد

والكفر بما حبيب إليه ارتكاب ما طالما اعتقد منافاته للإرادة الربانية، وكثيراً ما كان يتقى السقوط في المحرمات بما كان يظهره من التقى والصلاح والدأب على تقديم القرابين للآلهة والموتى في الهياكل والمقابر.

وحدث في هذه الأثناء أن خرجت الساحرة من المغارة وتتبع آثار بعاكر لترقب حركاته وتعرف من هي المرأة التي من أجلها جاء في طلب الماء السحري، فلما دنت منه توارت خلف صخر وقالت: هو بعينه الرجل السداسى أصابع الرجل اليسرى.. أراه يتكلف الوقار والرصانة حتى ليخيل لناظره أنه وارث آسا حقاً في هذا العصر. أما نيفرت وبعاكل فقد التقيا ببنت أنات وبنطاور في جوف الوادى، وكانت الأميرة قد لظمت الصمت عقب خروجها من وجار المحنط. فما غاب هذا الوجار عن نظرها حتى وضعت يدها على صدرها وترددت أنفاسها دراكاً، كأن خطراً يتهدها أو كأن حركتى الزفير والشهيق قد اختل نظامهما بتأثير الفزع من الخطر الدايم، ثم عادتا إلى سابق عهدهما من التواتر المنتظم. وقبل لقائهما بنيفرت صوبت البصر في بنطاور ثم أطرقت قائلة: إن ما شهدته الآن لعجب عجاب. فلم يجاوب بنطاور على قولها مجتزئاً بحركة من رأسه تفيد معنى الموافقة عليه. ولم تكن بنت أنات أمعنت فيه النظر ولا تثبتت من ملامحه إلا عندما برح بيت المحنط فإنها أخذت ترمقة بعين الإعجاب وسألته: أنت الكاهن الذى طهرنى أمس من الدنس بعد زيارتى الأولى لبيت بينم؟ أجاب: نعم أنا الذى طهرك. قالت: ما عرفتك الآن إلا بنبرات صوتك. وإنى أشكر لك صنيعتك معى لأننى اتخذتك لنفسى -مذ شجعتنى على العمل بسوحى الضمير- قدوة صالحة فى الاعتقاد، فعدت إلى هنا مرة أخرى بالرغم مما نصحنى به الناصحون. وإنى لأتوسم فىك القدرة على الدفاع عنى، إذا استطال أحد فى كرامتى على مسمع منك. قال بنطاور: إنى إن بكرت إلى هنا فما هو إلا لأبلغك أنك ما زلت على

دنسك. قالت وقد عرتها دهشة شديدة: إذن لقد رجعت فيما كاشفتنى به من عقيدتك؟ قال: كل ما عندى أننى موكل بتنفيذ الأوامر العليا التى تفرض علينا القوانين: تقديسها.. وإذا لم تتدنس بنت أنات بلمس المدنسين فمن ذا الذى يتدنس؟ قالت: أتوسم فى هذا الرجل شرف النفس واستقامة الطبع رغم ما يتبادر إلى الذهن عند رؤيته من خمول الجاه وضعة القدر، ولكننى إذا أخطأت فى ظنى ولم أصب شاكلة الصواب بحدسى فإننى التمس من الآلهة التسعة أن يقلبوا عثرتى ويصفحوا عن زلتى. وعلى كل حال فلا يسعنى أن أصفه بغير صفات الورع والكرم وعزة النفس مادامت هى الصفات التى يتحلى بحلاها، ولكنك أنت أنت الذى كان بالامس يزعم القدرة بكلمة على التطهير من الدنس مالى أراك الآن تعامل المحنط كما يعامل السفلة والأوشاب؟ أجاب: يرجع ما شهدته من انحرافى عن خطى الأولى أن عظيما من رجال الدين أمرنى -وأمره ضربة لازب- بالمحافظة على الأصول والتقاليد، إذ قال لى إن سلسلة هذه التقاليد قد سطا عليها مبرد الشكوك والبدع، وإنما إن لم نأخذ حذرنا فلا مفر من انقطاع السلسلة وسقوطها بصلصلة تصم الأذان وتلقى الهلع فى القلوب. قالت: معنى هذا أنك تحسبنى مدنسة حتى الآن لا لأننى أخطأت بدخولى فى بيت المدنسين بل لمجرد العمل بالنواميس الوضعية والتقاليد القديمة.. وبعد، فأجبنى إن كنت مازلت على ما عهدته فيك من الصراحة والإخلاص والنزاهة والميل إلى مجانية الاعتقادات الباطلة.. أجبنى فإن فى جوابك راحتى وهنأتى أو تعبى وشقاوتى. فتنفس بنطاؤر الصعداء إذ شعر بضيق فى صدره دلّ على أن الشكوك أخذت تنتاب إيمانه ثم قال بصوت خافت أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً: أنت تزجين بى فى مأزق لا مخرج لى منه إذا صارحتك بما يدور بخلى من أفكار وآراء خلىق بى محوها من ذهنى وإزالة أثرها من عقيدتى. غير أنى أوثر

مخالفة الأوامر على معارضة الحقيقة وحجبها وإنما هي بنت الشمس التي أسموك باسمها (بنت أنات).. أوترها مصارحاً إياك بأننى لا أدرى أكان المحنط مدنساً لذنب اجترمه أبائوه فيما غير أم غير مدنس. لأن مركزى فى الكهنوت لا يؤهلنى للحكم فى أمر من الخطورة بمكان ما نراه الآن. إن كل ما أطلعت عليه من أحوال الرجل ويجوز لى الحكم عليه بمقتضاه أنه من ذوى الميول الشريفة والعواطف العالية التى تجعلهم أسرع ما يكون تأثراً بالعوامل الطارئة كما تتأثرين أنت وتأثر أنا ويتأثر غيرنا على حد سواء. أرى لهذا أن ما شهدناه بأعيننا وأحسست به قلوبنا فيما قضيناه من الوقت بذلك الوكر لا يلصق بنا ذرة من الدنس، بل ربما طهر قلوبنا من أدران الشكوك والريب. وإذا أخطأت الصواب فى هذا الاعتقاد فىنى أضرع إلى الآلهة الكثيرة الأسماء أن تقيل عثرتى وتصفح عن زلتى فإنها هى التى أوجدت المحنط من العدم كما أحدثتنا منه كذلك، معتقداً بوجود القوة الربانية الوحيدة التى تصعد إلى عرشها الأسمى آيات حمدى وثنائى فى البكور والأصال ، وبأن الكون وما حواه من بدائع المخلوقات وغرائب الكائنات ومن أحياء وناميات وجامدات ومن فرح وكدر صنع الله عز وجل الذى أتقن كل شىء.

وكان بنطاؤر فى هذه الأثناء يصعد نظره فى السماء، فلما انتهى من المصارحة السابقة أطرق برأسه، فاشتبك نظره بنظر بنت أنات يتشعب قرحاً وسروراً، فصافحته بلهف، فلثم بنطاؤر طرف ثوبها شكرياً لهذا العطف الملكى والرعاية العالية، فقالت له بلهجة شديدة: خل هذا عنك واعفنى منه إذ الأوفق أن تضع يدك بيدي لتعمنى بركاتك فإنك رجل صادق وبالحق ناطق، وشاركنى فى الضراعة إلى الآلهة أن يطهروا أولئك المساكين من الدنس فإنه لا شىء فى الكون على سعة أرجائه وتباعد أطرافه أجمل من أن يرى المرء نظيره على الفطرة التى فطره الله عليها وألا

يوصم بوصمة عار يزعم الزاعمون أنها سرت إلى الأبناء من أصلاب الجدود
والآباء. ثم أجالت النظر فيما حوالها فرأت بعاصر ونيفرت مقبلين من بعيد، فقالت:
إنهما ينتظراننا في أشعة الشمس المحرقة فلنذهب إليهما. ثم سارت يتبعها الكاهن،
فلم تمض في الطريق قليلاً حتى دارت على عقبها لتسأل بنطاؤور عن اسمه، فلما
ذكره لها قالت: كيف .. آنت إذن شاعر بيت سیتی؟ أجابها: هكذا يقولون.

وقفت بنت أنات عندئذ باهتة وصوبت فيه النظر كما يفعل من يستثبت شخصاً
لقيه لأول مرة بالطريق عقب تعرفه عليه، ثم قالت: لقد فزت يا بنطاؤور من نعم
الآلهة بالنصيب الأجل، وإنى أراك قد بلغت الغاية من الرأي الصائب وبعد النظر في
العواقب، وأجد فيك من قوة البيان وسماحة البديهة وفصاحة اللهجة ما تصوّر به
للأنظار دقيق الأفكار، لذا أريد أن اتخذك أصدق خليل وأرشد دليل. فاحمر وجه
بنطاؤور حياء وقال بصوت خافت، بينما كان بعاصر ونيفرت يتقدمان حثيثاً
نحوهما: كنت إلى هذا اليوم من حياتي لا أرى حول عقيدتي إلا الشك والتردد، أما
الآن فقد انجلت الريب وحل محلها اليقين بنوره اللامع وشعاعه الساطع.

الفصل السابع

خبيبة آمال

انتهت بنت أنات مع رجال حاشيتها - بعد ستره من الزمن - إلى بيت سیتی. وكان أحد رماحة الركب قد سبق إليه لإخطار رئيس الكهنة بقرب وصولها، فاستعد للقائها مع الكهان وما هي إلا دقائق معدودة حتى أقبل الركب تتقدمه الأميرة في مركبتها ومن خلفها بنطاؤر وبعاکر في محفة واحدة.

وكان الباب الكبير للهیکل مفتوحاً بحيث يرى النظارة من دونه ما يليه من فناء المذبح المبلط بالنهاء الصقيل تحيط به ثلاثة صفوف متوازية من الأعمدة الضخمة الراسية القواعد على أوطد الأساس وأمتنها فيبهرهم تناسق النقوش التي غطيت بها الجدران والأفاريز والأعمدة وتيجانها، وما جمعت من جمال التنميق وحسن البرقشة والتزويق، وفي وسط ذلك الفناء مذبح القرابين تحيط به المباخر المعدة لإحراق كرات الريفی (١) تسطع منها الروائح العطرية فتملاً بأريجها رحب المكان وتستدرج من يشمها إلى الإغفاء برهة من الزمان.

وكان بصحبة رئيس المنجمين مائة كاهن افرغت على أبدانهم ثياب ناصعة البياض واصطفوا على شكل هلال منتظم الاحدياب، استعداداً لاستقبال الأميرة بما يناسب معاليها الخطيرة، وكانوا لا يفترون عن ترديد الأناشيد بصوت يملأ القلب

(١) الريفی بخور كان شائعاً في مصر، ولصناعته طرق مختلفة في أوراق البردى التي اكتشفها ايرس، وفي كتابات ديوسقوريدس وبلوتارك وجالينوس وغيرهم، وقد ركب الصيدلي فوجت في برلين بخور الريفی نقلاً عن تلك الكتابات فوجد أن أحسنها ما أورد شرح تركيبه ديوسقوريدس، وهو يتركب من النبيذ وغب كورانت والأسفالت والمصطكى والعسل واللادن.

أسى وحسرة، فاحتشد أخلاط الناس خلف تماثيل أبى الهول المواجه بعضها بعضاً على صفين متوازيين يفصلهما طريق يمر منه الزائرون بين ضفة النيل وباب الهيكل. ولقد لبثوا ساكنين ساكتين لا يتساءلون عن نبأ هذا الاحتفال العظيم، لاعتيادهم شهود أمثاله في كل آن ولأنهم لا يهتمهم منه سوى إثارة الأشجان بما يسمعون من شجى الألحان. وبعد قليل لاحت بنت أنات في ركبتها المنيف فلما دنت من هذا الجمع الحفيل رنت إلى جلالتها الأحداق وامتدت نحوها الأعناق وانطلق الكهنة يتغنون معاً «السلام على ابنة رعمسيس. العبادة لابنة الشمس بنت أنات». ثم أعادوا السلام على بدئه فكانت الآفاق تردد صداه أونة بعد أخرى. وظلوا كذلك حتى اجتازت الطريق المرصوف المحفوف من جانبيه بالتماثيل، ووقفت مركبتها تجاه باب الهيكل فركع الكهنة ركعة الاجلال وحياما المنجم الأعظم بالتحية اللائقة بهذا المقام. ثم ولى ظهره إليها وتحفز للدخول فاقتفت الأميرة أثره، ولكنها لم تمض بضع خطوات حتى اندفعت أصوات الكهان بما يصم الأذان من الألحان، فوقففت في مكانها باهتة متخيلة إلا أنها لم تلبث أن استأنفت المسير فما كادت تخطو خطوة حتى التقت بأمينى عند عتبة الهيكل الأعظم مرتدياً ثيابه الكهنوتية التى ورد وصفها في فصل سابق ومد إليها المحجن^(١) كأنه همّ بأن يلكزها به وقال لها بصوت يلقى في النفس الروح: إن وجود صاحبة العفة وربة التقوى وتاج الصون ابنة رعمسيس في هذا الهيكل الأقدس لمن أجمل الإشارات إلى هطول البركات ووفور الخيرات، ولكن التقاليد الدينية صريحة النصوص في وجوب إغلاق أبواب بيوت الآلهة في وجوه الذين يلحقهم الدنس وتمسهم شوائب الرجس، لا فرق في هذا بين العبد الحقير والأمير الخطير. فاستحلفك يا بنت أنات باسم القوة السماوية التى

(١) عصا الكهنوت

تستمدين منها وجودك الذاتي لتقولين لى الصدق فيما أنا سائلك عنه.. أنت طاهرة
أم مازلت ملوثة بأدناس المحنطين؟

قال هذا ووقف تجاه الأميرة يحد فيها بصره فأحفظها هذا القول وغازها وكسر
بالها فاحمر وجهها وطفق نهذاها الرمانيان يصعدان ويهبطان استنكاراً لمعاملة لا
تليق بمكانتها واستقر في خلدتها أن الكاهن الأعظم دبر لها مكيدة للوضع من
كرامتها فوطنت النفس على مفاجأته بما لم يكن في حسابه من القول المقذع، ثم
أنشأت تتكلم، فحدق أمنيى فيها بعين الإرهاب والتهديد وتربد وجهه تربدأ تغيرت
به بهجته وتنكرت بشاشته فأمسكت عن الكلام. إلا أن هيبة منظره لم ترعها إذ
تجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن
يرى بنت أنات لا تقيم له وزنا ولا ترعى له حرمة واحتدمت في نفسه نار الغيظ
وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردى من خلال بشرته الصافية
الأديم. إلا أنه رأى أن يكظم هذا الغيظ ويأخذ بالأناة في الأمر فأعاد السؤال الأول في
صيغة لطيفة الديباجة ظاهرة المعنى فقال: أعيد عليك سؤال الآلهة الذين أنايونى
عنهم في بيتهم هذا بمجيبك إلى هنا تبغين التطهر من الدنس الذى تلوث به جثمانك
وروحك؟ أجابت بصوت جهير: سوف أجابك على هذا السؤال. قال: إذا جاوب
والدك عليه فإنما يجاوب الآلهة فقط، وإنى لأمرك يا بنت أنات أن تبرحى هذا المكان
المقدس الذى تلوث بأقذار وجودك به. فارتاعت بنت أنات لهذا الكلام وقالت:
هاأنذى ماضية فى سبيلى، ثم دنت دنوة من الياب فإذا بها تبصر بنطاؤر واقفاً
مبهوتاً ومرتاعاً، لأن ما سمعه من أقوالها - وإن وافق اعتقاده - ليس من الهنات
الهيئات، لاسيما وأن لأمينيى من بسطة الجاه والنفوذ وقوة البطش ما تعنو له جباه
الجبابرة. ولقد خرقت الأميرة بثبات جأشها وقوة حجتها سياج هذا النفوذ

فوضعت من قدر أمني في نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصته وأعوانه.

ولهذا ظل حينما انكفأت إلى قصرها يشيعها بنظره فيبصر بها وهي توميء إلى بنطاؤر إيماءة لم يدرك معناها. وكان هذا الشاعر يحلق بفكره أنثذ في جوّ الخيال فانبهته الإيماءة من غفلته، فأخذ يرشقها بنظرات تشف عما في فؤاده من الهيام ، فأيقن أمني أن بين الاثنين سراً لا يفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق. فارتعد غيضاً وصوت بنت أنات أن تقف وأن تصغى إليه، ففعلت ناظرة إياه بعين المستفهم عن سبب استرجاعه إياها، وهي ماضية في طريقها. فقال: أنت، يا بنت أنات تظاهرين الآلهة بالعداوة والتعدى . والمتبادر إلى الفهم أنه لم يزين لك هذه الغواية ويتركك في هذه العماية إلا حليف لك هو الآن بمرأى منك ومسمع. لهذا أنذرك أيتها الفتاة الجامحة في الضلالة بأن الآلهة لا تتجاوز عن ذنبك إلا إذا رجعت إليهم بحسن التوبة. ثم صعد نظره في بنطاؤر وأوماً إليه بسباته قائلاً: أما أنت أيها الكاهن الذي تمادى في البهتان وخضع لوساوس الشيطان فعبثاً تطمح إلى استدرار غيوث المكارم الربانية والفوز بالمغفرة الإلهية، فلقد أصررت على الباطل والبهتان ونكثت العهود وحنثت في الإيمان. ومع أن الآلهة قد أجزلت لك المواهب وأغدقت لك العطاء، من نكاه متوقد وخاطر سريع، فسنعاملك بالحرمان من هذا العهد ونبعدك إلى أقصى مكان، مشيعاً بالخزى واللعنة من كل إنسان.

فرفعت بنت أنات رأسها وصوبت نظرها إلى أمني وصعدته فيه ثم التفتت إلى بنطاؤر وكان راقفاً تجاهها فرأته ساكن الجأش مطمئن النفس، وقد أخذ يتقدم نحوها بقدم ثابتة. ففهمت أنه يبغى تبرئة نفسه مما عزاه الكاهن الأعظم إليه

وخشيت أن تفرط منه كلمة تخشى عاقبتها أو تزل قدمه في هفوة يعسر عليه النهوض منها، فتقدمت نحو أميني وابتدرته بقولها: إننى وحدي الجانية على نفسى بما تعمدته من الدخول في وجار المدنسين. ولا يد لهذا البريء الساحة من كل ذنب، الطاهر النفس من كل عيب فيما اجترحته من الآثام.. كلا بل إنه أكثر من نصحى أن أتجنب الدنس فلم تبلغنى العظة، وزجرنى فلم يعمل الزجر في نفسى. وهأنذى قد جئتك مستمحة العفو، فأقلنى من عثرتى وامح ما بى من الرجس الذى حال دون دخولى في هذا المكان الأقدس.

لم تتم الأميرة هذه الكلم حتى تهلل وجه أميني بشراً وسروراً وشملها بمظاهر عطفه، إذ بارك فيها بإمرار يده على رأسها، ثم سار بها في داخل الهيكل حتى وصل إلى قدس الأقداس حيث غمس شعرها الفاحم في الزيوت التسعة، بينما كانت رائحة البخور تسطع من حولها. وأذن لها بعد ذلك بالعودة إلى قصر الملك أبيها ذاكراً لها أنها لم تبرأ تماماً من الخطيئة وأنه لسوف يرشدها إلى ما يجب اداؤه من الصلوات وتقديمه من القرابين لتخلص خلوصاً تاماً من شوائب الدنس، ووعدها بأن يرفع هذا الأمر إلى مقام الآلهة حتى إذا تلقى أوامره في بادئ إبلاغها إليها. وقعت هذه الحوادث والكهنة عاكفون على ترديد الأناشيد والناس في خارج الهيكل يذهبون مذاهب شتى في تأويل أسباب هذا الاحتفال، وينتظرون خروج الأميرة للوقوف على جلية الخبر، لاسيما وأن الشمس كانت في تظليلها وأن الساعة قد أذفت للرحيل من مواطن الأموات. ومما جرى على لسان بعض من كان يهتمهم استراق الأخبار أن جماعة الكهان ضربوا على بنت أنات اللعنة والحرمان لزيارتها وردة التى فاقت فتيات طيبة بالحسن والجمال.

وكان سواد أولئك الذين يتنسمون الأخبار من العامة وأفناء الناس كالصناع والمحنطين، فلما وقفوا عليها هاجوا وماجوا وانقسموا شيعاً وأحزاباً وتخاذلوا كتخاذلهم الذى أفضى فى عهد استيلاء الأجانب على بلادهم إلى التناحر، ثم انحروا باللائمة على الكهنة لاستبدادهم وعسفهم فى مناصبهم التى تستدعى ملايين الناس والرفق بهم وانتقلوا من ذلك إلى الطعن فى القوانين والتقاليد الماثورة، ذاهبين إلى أنها تخالف ضرورات العصر ورموا القائمين عليها بالظلم والإجحاف.

وكان فى المتظاهرين جندى باسل لعبت الخمر بعقله فتناول حجراًرمى به باب الهيكل، ففعل الأطفال فعلته وتحفز الرجال للقتال. وكانت الحمية قد دبت فى نفوسهم بتحريض النساء اللاتى ساءهن الاستهانة بمقام الأميرة. وكان الكهان دائبين فى أثناء ذلك على ترديد الأناشيد الدينية، ولكن علت صيحات المتظاهرين على أصواتهم فلم يعد أحد يسمعها. وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى انشقت الأبواب وبرز منها أمينى بملابسه المحلاة بالوشى متناقل الخطوات متهادياً فى مشيته تحف به الهيبة والوقار. وجاء فى أثره عشرون كاهناً يحملون الرموز المقدسة والتماثيل الإلهية فلم يلبث السكون أن نشر جناحيه على المتظاهرين. فتابوا على الفور إلى السكينة ولزموا حدود الأدب، فوقف أمينى وقال بصوت جهير: لم تفسدون علينا الأمور وتمنعوننا من إقامة الصلوات؟ فما فاه بهذا السؤال حتى طرقت المسامع ضجة دلت على اختلاف السامعين فى الإجابة عليه والإعراب عن مكنون ضمائرهم إذ أصر البعض على وجوب المضى فى المظاهرة، وفاه بالفاظ الوعيد والتهديد وارتاع البعض الآخر لمنظر الكهان فصلى مع المصلين عملاً بأوامر الدين. وكان اسم بنت أنات يسمع خلال ذلك ألوفاً من المرات، فلما انتهى القوم من ضوضائهم صاح بهم أمينى: تراجعوا يا قوم عن مواقفكم وتتحوا عن أماكنكم

لبنت أنات سلفية الملوك العظام! فلقد قصدت الأميرة هذا المقام الأقدس لتسجد أمام الآلهة ملتزمة منهم ما فاتها من الطهارة بخروجها على القوانين والتقاليد... فطوبى للأتقياء المتمسكين بعروة الدين وسحراً للأشقياء الكافرين! اسجدوا أيها الناس ثم أبسطوا أكف الابتهاال إلى المولى المتعال أن يهطل عليكم غيوث العفو عن سيئاتكم ويبارك فيكم وفي أولادكم من بعدكم. وأمر بعد هذه الخطبة القصيرة أن يقدموا إليه آلة الخشخشة المقدسة^(١) فلما تناولها وأما بها إلى السماء فانطلق الكهان يترنمون بنشيد ديني استهوى السامعين فاطرقوا بالرؤوس صامتين، فقال أميني: إن القوة الإلهية باركت فيكم فاهرعوا إلى منازلكم وافسحوا للأميرة المكان لتعود إلى قصرها في أقرب أن. قال هذا ودخل الهيكل فأخذ الحراس يفرقون الجموع في طريق أقيمت على عطفية التماثيل واعتلت بنت أنات مركبتها، فقال لها أميني وقد اجتازت عتبة الباب: اعلمي يا بنت أنات أن القصور الباذخة التي شادها والدك على أجمل الأنماط إنما قامت على أعناق أفراد الأمة المصرية. فإذا فككت عرى التقاليد القديمة التي تربط هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض فلا مناص من التخازل والتدابير وكلاهما مفض إلى تداعى تلك الجدران وسقوط تلك الأركان.

قال هذا ثم توارى عن الأنظار فأخذت بنت أنات تسوى أعنة الجياد. وإنها لذلك إذ لمحت بنطاؤر مستنداً إلى عمود الباب يرشقها بنظرات الهائم الولهان، فألقت السوط الذي بيدها، كما لو سقط منها بلا عمد وأرادت بهذه الحركة لفت نظره واستنفاره لالتقاطه ورفعها إليها، غير أنه لم يكن التفت إلى هذه الحيلة^(١) آلة انخشخشة كانت شائعة عند قدماء المصريين في حفلاتهم الدينية وهي على مثال اللعبة المعروفة بالشخشيخة الشائعة الاستعمال بين أطفال العصر الحاضر، غير أن هذه تختلف عن القديمة في كيفية التركيب، وإن اتحدت معها في الغاية المقصودة من حيث إحداث الصوت المعهود فيها.

فأشارت إلى أحد الاتباع فالتقط السوط وقدمه إليها وتحرك الركب رويداً رويداً حتى غاب عن العيان.

أما بنطاؤره فكان لا يزال مشرد الفكر، وقد لبث في مكانه كمن أخذته الصيحة حتى طرقت سمعه رنين الطبل النحاسي المؤذن باجتماع الطلاب لتلقى الدروس، حينئذ اعتدل في وقفته ومراً بيده على قلبه وجبهته كمن يقوم من نومه وقد نسي ما رآه من لذيذ الأحلام فأخذ يستجمع شتاتها من هناك وثمّ . ثم هرولاً قاصداً فناء الهيكل المعد للتدريس فوجد الطلاب متريعين به بعضهم لصق بعض، في شكل حلقة كاملة ستاهبين لتلقى درس البيان على أستاذهم بنطاؤره المشار إليه بالبنان. فلما وقف في بهرة الحلقة لينثر عليهم درر لفظه لحقه عىّ وحصر، لأن عقله لم يكن في هذه الآونة حاضراً بل طائراً وراء قلبه الذي سلّبه بنت أنات بجمالها الباهر وشبابها النضير الزاهر. ولقد كان في هيامه بها غافلاً عن بون ما بينه وبينها حسباً ونسباً، ولو لم يغفل عن إدراك هذا الفرق لما طوح بنفسه في هذا التيار، ولكنه كان من جهة أخرى يعتقد أنه من كرم المحتد وطيب العنصر بحيث يجيز لنفسه الطموح إلى الرتب الشريفة والمقامات العالية، وأن يكون في طليعة العظماء بل من صفوة الأمراء. وكان هذا الاعتقاد يزداد رسوخاً في نفسه كلما فكر في بنت أنات وتمثل وجهها الجميل وقدما الأثيل وود لو تكون له أجنحة فيطير إليها ليقصر محبته عليها.

تلك كانت حالة بنطاؤره عندما تأهب لإلقاء درس البيان على الطلاب، ولكنه لم ينشب أن أدرك من امتداد أعناقهم إليه وتحويم أنظارهم عليه أنه في غير موطن

العشق والهيام. فبادر بنشر ملف من ورق البردى قدمه إليه (أنا) أمهر تلاميذه. وكان في اليوم السالف قد وعدهم بتفسير ما تضمنه من الحقائق الفلسفية، وما إليها من الحكم البالغة التي تقصر عن إدراكها أفهامهم، فطامن إلى الجدار وأطال التأمل في السورق فلم يستطع فهم شيء مما احتواه، إذ أشكلت عليه الحروف واستعجت الكلمات فلم تتيسر له تلاوتها. ولطالما أجهد الذاكرة ليلاً بماهية الدرس الذي وعد بتفسيره فلم يحضره شيء من حوادث الماضي وظل متحيراً ساعة كان الطلبة في أثنائها يتغامزون ويتهامسون لتبين سر ما أصاب أستاذهم من العي والاستغلاق حتى تعذر عليه الكلام، على خلاف ما يعهدونه فيه من ذلاقة اللسان وفصاحة البيان. ولاح لأننا أن أستاذنا يضغط على ورق البردى ضغطاً كاد يفتت أجزاءه وكان لا يستطيع إنباهه إلى ذلك خيفة أن يكون متفرغاً لاستجماع شتات موضوع الدرس في ذهنه فيكون تدخله داعية لنفور شوارذ الموضوع واستغلاقه عليه، ولهذا أمسك عن الكلام. ووقع نظر بنطاؤر أنثذ على اسم الملك منقوشاً في الجدار المقابل له ومشفوعاً بكلمتي (الإله الرحيم) فتذكر الموضوع في الحال وانصرف إلى تلاميذه متهلل الوجه بشراً واغتباطاً وقال لهم: بم تعرفون الرحمة الإلهية؟ قفوا جميعاً على أقدامكم، وليسرد كل منكم سوانح فكره في هذا الموضوع. فقام الطلاب جميعاً وأخذوا يشرحون- بعضهم تلو بعض- ما عن لهم من الآراء والأفكار، فمنهم من أصاب الشاكلة فأحسن وأجاد ومنهم من أخطأها فخلط وهذى أما أنا التلميذ الأول فقد استرسل في وصف الخليفة بكلمات رشيقة ومعاني دقيقة، وسرد ما حوته من غرائب المخلوقات وعجائب الكائنات الحية

والنامية والجامدة، وانتقل من هذا الوصف البديع إلى بيان العلاقة بين الألوهية والخلقية على اختلاف مناشئها وتعدد مظاهرها، وأنها تشير إلى رحمة أمون ورع وفتاح^(١) وشفقة بقية الآلهة.

وكان بنطاؤر ينصت لأقوال تلميذه معجباً بها واتخذها تكأة له في تفسير درسه فشرح ما جال بخاطره من الأفكار وسنح له من الآراء . وأفاض في ذلك بكلام سهل المخرج مطرد السياق، حتى خلب الأسماع وبهر العقول . وقد أبان عزة شأن الخليفة وما حوته من بدائع الكائنات واتحاد الجسم بالقوى العقلية، وذهب في هذا الباب كل مذهب إلى أن قال في ختام الدرس: «إن الأرض التي هبطناها بقضاء الله قدره لنمشى في مناكبها ونأكل من رزقها أحسن مقام للإنسان في الحياة الدنيا، وهي بما حوته من الكائنات الحية والنامية والجامدة دليل على وجود الإله القادر المبدع، وأن في كل كائن أثراً واضحاً ثابتاً يثبت استمداده الحياة من إمداد ذي الوجود السرمدى وسعة رحمته تعالى، وأنه موجود في كل مكان، فأينما صرف

(١) أمون إله طيبة، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنهم لم يطردهوا العمالقة من وادي النيل إلا بمعونته. وقد أضافوا صورته إلى صورة (رع) إله هيلوبوليس فاتحدت فيه بذلك صفات كل الآلهة. ولذا جردوا طبيعته من شوائب المادة ونسبوا إليه الصفات الروحانية فقررت الأسرة الرعمسية تلقين طلبة المدارس بأنه العقل المدبر لكل شيء في العالم، وأنه في آن واحد زوج والدته ووالد نفسه وابن نفسه وأنه المودع للروح والعقل في الكائنات الحية، وأنه الدرة الخفية القابضة على ميزان العقل والمجزى على الحسنه والسيئة- أما فتاح فكان في اعتقادهم الإله القديم الواضع لمبدأ الخليفة والقائم بتنظيمها، وكان يحيط به دائماً السنيمو السبعة أى المهندسون المكلفون بتنفيذ إرادته، وكان يلقب بصاحب الحقيقة وخالق عنصر الضوء وخالق الثلج والفتاح له، لأنه فلق الثلج فخرجت منه الشمس والقمر. وكانت مدينة منفيس مقر عبادته.

الإنسان وجهه وجده وكان دليله ورائده». واسترسل مخاطباً الطلبة بعد ذلك إذ قال : «فابحثوا إذن عنه أيها الطلبة، فإذا اهتديتم إليه فخرّوا له سجداً وكونوا لنعمته من الشاكرين. ولا تقصروا شكركم له على ما برأ من مخلوقات، بل اشكروا له عز وجل ما أولاكم به من نعمة القدرة على إدراك كنهها ومعرفة حقائقها بما خصكم به من العقل والتمييز. وإنما أنتم الآن تجاه أكمة عالية فاصعدوا فيها حتى إذا تسنمتم ذراها العالية فسرحوا الطرف فيما حواليكم إلى أقصى مرامى النظر تجدوا الشمس في الأصيل وقد أضمرت أشعتها الأفاق بلهب من العقيق. ثم ارمقوا هذه الأفاق إذا نضّ النهار جيده فسترونها وقد اكتست بطليسان أصفر وارقبوا الكواكب الساطعة والنجوم الثاقبة في فحمة الليل الهادئ، وقد خطت على بساط اللازوردى أفلاكها الأهليلجية المنتظمة التي لا تكف عن مواصلة السير فيها منذ الأزل، وابصروا بالطفل في مهده والأزهار وقد تفتقت عنها الأكامم بأطراف الأغصان، وتأملوا كيف تحنو الأم على وليدها وكيف تتكلل الأزهار بالندى، تجدوا لكل من هذه المظاهر الرائعة حدّاً يقف عنه ولن يتجاوزه إلى ما بعده. أما الرحمة الإلهية فكالأفاق لا حد لها على الإطلاق، وكالبحار بعيدة القرار، لكن أدر يتم أين يسطع شذا هذه الرحمة وعلى من تغدق المواهب اللدنية؟ الرحمة والمواهب هذه إنما تفيض على قلوبكم إذا طهر عنصرها وشرف جوهرها وامتألت بالحب، لأن القلب المحب الرحيم مرآة تتجلى الطبيعة فيها بأحسن ديباجة وأظهر رونق، فلولا القلب لما ابتسم ثغر الطفل في مهده ولا تفتحت الورد في أكمامها بل لولاه لتضعضت أركان الأيمان وكدر صفاء العواطف والوجدان وانحلت عرى التقوى والإحسان، ولما

نزعت النفوس إلى الإله الواجب الوجود ولجأت إلى حظيرة قدسه تخلصاً من أقدار المادة وظلمات العوالم السفلى. هو الإله الذى تعجز الألسنة عن وصف ذاته وتجار الأفهام في معرفة كنهه وتحديد صفاته. هو الإله الذى لا إله إلا هو، هو الإله الذى إليه تضرع الآلهة التسعة العظمى وتبسط الأكف إلى مقامه الأسنى كما يمدّ المستجدي يده التماس البرّ من المنعم الجزيل الإحسان».

وما أتم بنطاؤره هذا البيان حتى طرق الأذان دوى الطبل النحاسى المؤذن بختام الدرس فأمسك عن الكلام. ولبت الطلاب سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذهم الروع واعترتهم الدهشة لطلاوة الدرس وحلاوة ما تضمنه من الأفكار، فتركهم تحت هذا التأثير اللطيف وقصد إلى حديقة الهيكل في طلب الراحة والعزلة. إلا أنه ما كاد يبلغ إلى باب الهيكل حتى أحسّ بيد قد هوت على كتفه فتأمل فإذا بها يد أمينى الذى أراد بهذه الحركة أن يستوقفه ، فلما وقف باهتاً قال له: لقد خلبت يا بنطاؤره ألباب الطلبة ببيانتك وجذبت قلوبهم بفصاحة لسانك! فكان لهذه الملاحظة في نفس بنطاؤره تأثير الثلج في المحموم إذا وضع على صدره لأنه كان عالماً بأساليب الكاهن الأعظم في التوبيخ وأنه يصبه عادة في قالب التحبيذ والمدح وهو إنما يريد به التأنيب والقدح. وعلى هذه الطريقة واصل حديثه إذ قال: الحق أحق بأن يتبع.. لقد كنت ثملاً بخمرة العشق والهيام فوقفت بين التلاميذ لتلقى عليهم الدرس فنسيت ما كان يجب أن تتصدى له بحكم وظيفتك ففتحت أبواباً كان ينبغي أن تبقى مغلقة وجهرت من الحقائق الفلسفية والدينية بما لا يصح أن تهبط به إلى مدارك طلبة العلوم الأولية! وهل ذهب عنك أنك أقسمت بالإيمان المغلظة أن تحرص على الأسرار، فكيف بذلتها الآن على ملاء من الصغار؟ وعرضت سلعتها في سوق الابتذال يرمقها

الخاصة والعامّة على السواء، وهى فخر الكهنة وشرفهم وشارتهم القدسية التى ليس لغيرهم أن يطمح إلى التحلى بها؟. أجاب بنطاؤور: لقد وقع تعزيرك من نفسى موقع السيف المرهف من العنق، ولكن رب ملوم لا ذنب له. قال أمينى: ليت هذا السيف قد بلغ منك إلى ما بين الجنين ليستأصل من قلبك جذور الفساد التى أخذت منه مغرساً عميقاً.. إنك وإن تكن فى فتاء السن فليست أشبهك بالعود اللدن الذى يسهل تقويمه أو الشجرة المباركة التى تؤتى أكلها كل حين، بل أشبهك بالعود اليابس. المعوج والشجرة الفجة الثمر التى يفتّر الأطفال بنضرتها فإدا تسابقوا إلى اقتطاف ثمرها ذاقوا منه السم الزعاف.. ومع كل هذه الهنات رضيت أنا وجاجابو ببقائك فى هذا الهيكل ولم نذهب إلى ما ذهب إليه باقى الكهنة الذين استرابوا بدمتك وقرروا مقاطعتك والبعد عنك. وكان مما زادنا ثقة بك أنك أقسمت بالإيمان المغلظة ألا تكاشف أحداً بأسرارنا، ولكننا لم ننشب أن رأيناك جامحاً فى غوايتك ومعرضاً عنا بجانبك ومقبلاً على احترام ما يخالف حسن ظننا فىك، فإنك ما كدت تتم الدراسة وتندرج فى صفوف الكهنة والأساتذة حتى مددت يدك فهتكت أستار الأسرار وطوحت بنفسك فى تيار الزندقة والإلحاد. قال بنطاؤور: كفى لوما وتعنيفاً! إنك أن تحسب صنعى جهلاً فخير لى الجموح فى غوايتى واللجاج فى ضلالتى، ونعمت الضلالة إذا وافقت الحقيقة وطابقت العدالة. قال الكاهن الأعظم: صه أيها الزنديق الزائف عن محجة الطريق! ألا تعلم أن العدل لا يُلتمس إلا من القانون، والقانون يحرم إفشاء السر المكنون؟ لقد فهمت الآن الحقيقة، فما تعنى بها يا أشقى الخليقة؟ قال بنطاؤور: الحقيقة التى انطلق بها لسانى هى التى لم يجرؤ أحد من قبل

على الجهر بها بعد استجلاء مظاهرها.. إنى لم أر وراء ستار الأسرار ما يدل على اشتقاق الروح من الذات الخفية المدبرة لشؤون البرية ولا على قيامها بجزء من الحكمة الألهية. ومتى بدت هذه الحقيقة في الإنسان بمظهرها الجلي.. فقاطعه أمنيى بقوله: نعم! نعم! إنه ليهون على مثلك يا بنطاؤر أن تسمى نزعات نفسك الأمانة بالسوء بمظهر الإمدادات السماوية والحكمة الألهية!! قال بنطاؤر: ألا يحيط علم هذا الإله الذى وسع كل شىء بإرادته الغالبة وقوته القاهرة اللتين تستمد منهما إرادتك وقوتك كسائر الناس سواء بسواء؟ قال أمنيى وقد روعه ما طرق سمعه: إن يفهم عامة الناس معاني هذه الأقوال فلا عجب إذا مدّوا إليك الأعناق وقصدوا إليك من سائر الآفاق، وأقام كل منهم في نفسه عرشاً لعقيدة خاصة يكل إليها الهيمنة على إرادته وتصرفاته ثم يزعم أن الإله يوحى إليه بما يجب عليه من قول أو فعل! وإنى لأرى -وملء فؤادى الأسف- أن القوانين قد لعبت بها الأغراض وهتكت حرمتها الغايات وعصف الجهل بما احتوته من أصول العدل. قال بنطاؤر: أنا واحد من قليلين اطلعوا على الحقيقة فاهتدوا بهديها واستضاءوا بضوئها الذى لاح للعامّة فبهر أبصارهم وخب عقولهم. قال أمنيى: وبه بهرت أبصار تلاميذنا إذ أرسلت أشعته إليهم فنفذت إلى قلوبهم! قال بنطاؤر: نعم، هكذا فعلت لأجعلهم أهلاً لصون الأسرار من عبث الأغيار. قال أمنيى: وهل تثق بهم لو أفضيت إليهم بأسرار قلبك التمل بخمرة العشق؟ قال بنطاؤر: دعنا من هذا الكلام يا أمنيى. قال الكاهن الأعظم: طاعتك لى فرض محتوم عليك لأننى أستاذك وإلى يرجع حق عقابك على مخالفتك أصولاً كان يجب أن تلو على شهوات النفس. ألا تدري أن من الواجب على من

يحيط بالأسرار الدينية أن يرضخ للدين ويعمل بأوامره ونواهيهِ، فلم تهمل القيام بهذا الواجب المقدس؟ أما وليتك الود الخالص مذ كنت طفلاً إلى أن بان عذارك؟ ألم استودعك أمانىّ التي مازلت أعتقد أنها في حرز حريز؟ خذ للسفر عدتك ولا تطلعن عليك شمس الغد إلا وأنت أخذ سبيلك إلى هيكل (حاتاسو) ، فإن ما تعمدت الزلل به من فاحش الأغلاظ والتخبط فيه من واضح البهتان قد استوجب عزك من مناصب التدريس السامية ونقلك إلى رئاسة كهان ذلك الهيكل، وأرجو أن تكسبك التجارب فيه حكمة فيعلو مقامك بين العدو والصديق. وعليك بلقائى قبل بزوغ كوكب سوتيس^(١) لأزودك النصائح اللازمة، ثم إنى أسألك الاستمداد بعون الله على أداء مهمتك والتوجه إليه تعالى في قضاء حاجتك، وأن تصعد كل يوم إلى سطح الهيكل للسلام على الشمس عند بزوعها. وسأضرع إلى مجيب الدعاء أن ينقش في صدرك أصول الدين ويرشدك إلى الحق بنور اليقين....

ما فاه أمنيى بهذه الأوامر والزواجر حتى انكفاً عائداً إلى مخدعه وأخذ يتمشى فيه سبهلاً ليسكن اضطرابه ويسرى الهم عن نفسه. وكان بالقرب منه منضدة صغيرة عليها مرآة من الصلب المصقول، فتناولها بعد أن تراءى فيها هنيهة طرحها في مكانها، وقد تريد وجهه كأنه تحقق من دمامة صورته وقبح هيئته. ولعله علل ذلك بتسلط الغضب والحدة عليه وبتواتر المباغطات في ذلك اليوم، حتى لقد زعزعت ثقته بالرجال وحملته على إساءة الظن بهم في كل حال.

(١) هو الشعري اليمانية أو كوكب الكلب، وكان يسمى عند قدماء المصريين بكوكب ايزيس المقدس، وكانوا يتخذونه قاعدة للحساب الفلكي لأن مجراه في فلكه يعدل السنة الشمسية الفلكية.

ومما برح به وزاده هموما وأتراحا أن تلك الثقة أدت به إلى الزلل والسقوط في مهاوى الخطأ والخلل، حينما عامل بالجفاء والشدة ابنة رعمسيس رغم ما كان كهنة طيبة ينبهونه إليه من كرم سجاياها وطهارة ذيلها وشدة رفقاها بالفقراء والباشرين. وكان يراجع نفسه بهواجس كثيرة لتسويغ خطته منها أن مخالفة بنت أنات لقواعد الدين وزيفها بذلك عن الطريق القويم فرصة أتاحتها المصادفة لتأييد نفوذه وتوطيد شوكته فإنه اضطرها إلى المثول بين يديه في موقف الاستكانة والذلة وكل ما أخذته على نفسه مسارعتة إلى تطبيق العقوبة عليها وأنه كان خليقاً به أن ينظرها إلى حين. ولكنه لم يلبث أن التمس لنفسه المعاذير بقوله إن الذي حمله على الظهور بمظهر الشدة هو الخوف على الكاهن بنطاؤر أن تزل به القدم وأن يقع بعد في مهواة الندم، ثم التبرم بتماديها في العصيان وتبجحها أمامه بالباطل والبهتان.

وكان الكاهن الأعظم حينما أمر بنطاؤر بتعزيز بنت أنات على ماسولته نفسها لها من انتهاك الحرمات يريد استفزازه إلى صعود درج المعالي بمعاملة أمراء الأرض وعظماؤها كعامة الناس، إذ كان يعتقد أن نظام الهيئة الاجتماعية يتوقف على بقاء أزمة الحكم في قبضة الطائفة الكهنوتية. وكان لإصابة هذا الغرض يرشح الأكفاء من رجاله للمناصب الدينية التي تكون المعاملات فيها دائرة مع سراة الأمة وأعضاء أسرتها الملكية، ليلقوا الروح في قلوبهم ويقعوا موقع الاحترام في نفوسهم. ثم أطرق هنيهة وقال متابعاً حديثه الأول لنفسه: نعم لابد من البلوغ إلى هذه الغاية التي ليس من وراثها مذهب لذى همة، ولا مفر منه حتى لا يرفع العظماء والأمراء عقيرتهم على الكهنة وحتى لا يكونوا في معاملتهم إياهم بالصلف والخيلاء أزهى من الديكة.

أما بنطاؤر فلا حق له في أن يصبو إلى هذه الغاية الجليلة والمقصد الشريف، لأنه مازال في عنفوان الشباب، ولو شب على هذه المبادئ لانتقشت في صحيفة صدره ولست أنسى عجزه فيما مضى عن مقاومة الشهوات النفسية وقصوره عن مغالبة النزعات الغرامية، ولكنه إذا أقام في هيكل حاتاسو وترأس فيه على رهط من الكهان والمبخرين ورجال القرابين تولدت في نفسه محبة الرئاسة فينبذ وراءه ظهريا ما ينتحله الآن من رقة الحاشية وعطف الفؤاد ويتعذر على الغانيات استهواء قلبه برشاقة القدود وورد الخدود. وأهم من هذا أنه -وهو في مركزه الجديد- سيروض نفسه على الطاعة لاسيما إذا دفعت نزعات الحسد والشر أحد الكهان إلى رفع لواء العصيان، فإنه يحس وقتئذ بما يحق لكل رئيس على مرؤوسيه من واجب الطاعة. وربما اضطر إلى التذرع بسلاح الشدة والعنف لإظهار كلمته وتحصين نفسه ومركزه من حملات العصاة ومباغطات المتمردين فيكون منهم معه مثل ما كان منه معي حينما استظهر بالمعصية على الطاعة وبالفرقة عن الجماعة فلقد قضت سنة هذا الكون: (أن من شبَّ على العصيان كان مآله إلى الاستبداد والطغيان). ولقد لاح لي من فعال هذا الشاعر أن فؤاده الشفاف الخالص من شوائب الغرض قد افتتن بحب بنت أنات وحقا فإنني لا أرى بمصر غادة -ولو فازت من الجمال الفاتن بأوني نصيب- لا يذوب قلبها هيأما ببنتاؤر الذي يشبه بحسن ذاته وكمال صفاته (رع هرماكيس) وتذتثر من فيه درر الفاظ تيشوتى^(١). أما الآن وقد بعدت الدار وشط المزار فقد أصبح مستحيلا على بنت أنات أن تخامر شاعرنا بلحاظها الفاتنات.

(١) هو توث هرمس (انظر كتاب ماسبيرو في تاريخ أمم الشرق القديم صفحة ٤٨ من الطبعة الثانية).

قال هذا وأسرع في مشيته وباعد في خطوته، وظل هكذا زمنا ثم قال: ما أغرب هذا الاتفاق! لقد دخل هذا المعهد فتیان امتازا بحدة الذكاء وصفاء القريحة وفاقا الأقران في ميادين المساجلة والامتحان كما تفوق ذرى النخل حشائش الأرض، فشملتهما بعنايتي وقصرت عليهما رعايتي ووددت يوما أن يكونا لى خليفتي من بعدى، غير أنهما ارتكبا من الأعمال ما خيب فيهما الآمال. أما الأول وهو ميسو (١) فقد ولى الأدبار واقتدى به الثانى وهو بنطاؤر ولم يخش هذا العار! ما سبب ذلك يا ترى؟ أسأت إليهما؟.. أم ذا جزاء عطفى عليهما ورفعى من شأنهما؟ ألم يجدا فيما عهدته بهما من الأعمال ما يؤيد مذهبهما ويكفل لهما تحقيق الآمال؟ لقد ران على قلبيهما الزهو والغرور فظنا أنهما أرفع عباد الله شأنأ وأسماهم مكانأ، وجرد كلاهما من نفسه عالما التمسا فيه رضى الأهواء والشهوات والمضى فى تيار المصالح الذاتية والغايت.. ظلأ أنهما إن تخلفا عن الناس لحقت بهما الإهانة والضعفة وتبددت أمانيهما التى تعبدت قلبيهما بالوهم الفاسد والخيالات المستحيلة، فشعرا بلذة لم تلبث أن تلاها غم وانقباض.. إلا أن مكانتى فى الهيئة الاجتماعية لتدعونى إلى الثبات والاستمرار فى مخالطة الناس حتى يهتدوا بهديى ويعشوا على نور معارفى الدينية، وأن أكون لهم كالماء الدافق من ينابيع جبل لبنان، يقطع المسافات الطويلة فى مساربه وقنواته، فإذا ما خالطت مياه الأنهار الكبرى أكسبتها لونها وطعمها.

أمسك أمينى هنا عن مناجاة نفسه بهذه الهواجس واستدعى كاتب الهيكل،

(١) اسم موسى عليه السلام، الذى كان معاصرا رعمسيس الثانى. وفى عهد خلفه كان خروج العبرانيين من مصر.

وهو أحد الكهنة الملقين بالأباء المقدسين، وقال له: اكتب رسالة إلى الكهان جميعاً أن
أقيموا الصلوات لتطهير بنت أنات مما لوثها من الدنس بخروجها عن أفق أوامر
الدين ونواهيهِ.. إنما .. ناولنى القلم والقرطاس والمحبرة، فإننى أفضل تحرير هذا
المنشور بنفسى. فوافاه الكاتب بأدوات التحرير والتحبير، ثم تراجع إلى أحد أركان
المخدع، بينما كان أمينى يخاطب نفسه بقوله: إن السطور التى سيرقشها يراعى
الآن ستكون عنوان حرب عوان يشيب لهولها الولدان!!

الفصل الثامن

عادات داخلية وأحوال منزلية

طلع بدر السماء على طيبة الأحياء، فبهر الناظر بسنائه الباهر، وكشف ما امتازت به من الحركة والحياة على طيبة الأموات. هنا لما مالت الشمس إلى المغيب وانتهى الكهنة من ترديد أناشيد المساء، ضرب السكون فسطاطه ونشر الهدوء أعلامه. وهناك كان بدء الحركة والانتقال، لأنه بمغيب الشمس زالت الحرارة الشديدة وأعقبها البرودة، فخرج الأهلون زرافات ووحداناً للرياضة وترويح النفوس. فمنهم من سار في الطرقات ومنهم من سعد إلى ذرى المنارات وسطوح المنازل لاستنشاق النسيم. وكان الكثيرون منهم يتهافتون على المنتديات العامة لابتغاء النبيذ والجعة وعصير الفواكه، ويتزاحمون حول الخطباء والشعراء ليستمعوا منهم ذكرى حوادث الماضين أو يطوفون حول المغنين، فيراقونهم في أداء أغانيهم بالنفخ في المزمار والنقر على الدفّ الصنجي الإطار.

وكان قصر الملك شامخ العلوّ جنوبي هيكل آمون بوسط حديقة غناء حفت بها منازل العظماء من بطانة الملك وحاشيته، وبينها قصر وطيد الأركان سامى الجدران رحب الفناء تناطح نروته السماء. شاد بعاكر هذا القصر بعد وفاة أبيه ليحل فيه عندما يتزوج بنيفرت ريحانة فؤاده ومالكة قياده. وإلى الشرق من هذا القصر المنيف بيت فسيح الساحة متناثي الأطراف، إلا أنه عتيق البناء هو البيت الذى ورثه مينا عن أبيه ولم يباشر فيه إصلاحاً بل تركه على حالته تخليداً لذكرى الأجداد، وأسكن به نيفرت ووالدتها (راتوتى). ولقد أقام به معهما أياما قضت عليه وظيفته من بعدها بمغادرته لملازمة ركاب الملك الهمام في حروبه مع أهل الشام.

وكان بكل باب من أبواب تلك القصور الشامخة والدور الفسيحة البانخة، أفواج من الحاشية والغاشية والمصطنعين يتناجى بعضهم ويتباحث آخرون واقفين يترقبون قدوم سادتهم ومواليهم. وكان باب قصر بعاكر يلفت الأنظار برسومه البديعة ونقوشه الأنيقة الدالة على المغالاة في البذخ والافراط في الترف. وكان مما يميزه عن غيره من المباني الحافلة أدقال جىء بها من جبال لبنان وغرست أمامه لرفع الأعلام^(١). وكان الداخل فيه يصل إلى ساحة متباعدة الحواشى مرصوفة بحجر النهاء يحيط بها إيوان مظلل بظلة تحملها أساطين خشب على صفوف متوازية. وكانت هذه الساحة مخصصة لسكنى العبيد والخدم وبها مواقف للخيل وأماكن لادخار المئونة الشهرية لسكان القصر. وإزاء المدخل العام باب يؤدي بالداخل إلى حديقة غناء غُرست بها أشجار الفواكه والأزهار صفوفاً الوفاً وبزرت البقول والخضروات في مربعات متساوية متواليية يحف بها من الأطراف أشجار النخل والجميز والتين والرمان والياسمين الذى كانت تعبق رائحته أرجاء

(١) هذا الوصف مأخوذ من رسوم منازل الأمراء وبساتينهم على جدران قبور تل العمارنة، وقد نقلها ليسيوس بشكلها في الجزء الثالث من كتابه المسمى بأثار مصر والحيشة، وكانت الحدائق نادرة في عهد قدماء المصريين لدلالاتها على بذخ صاحبها وترقه واتساع ثروته. وجاء في ورقة البردى الرابعة المحفوظة بمتحف القاهرة ما يشير إلى ذلك وهو: «لقد اشترت أرضاً يثمر فيها الرى واحطت حديقتك بالأسوار العالية وغرست أشجار الجميز حول منزلك الرفيع الذرى وكللت رأسك بالأزهار ولكن لا بد من يوم تزهد فيه نفسك هذه الخيرات وتشعر فيه بالسامة والملال من الحياة» وهو يقابل في معناه قول الشاعر العربى:

أيا من عاش في الدنيا طويلا	وأفنى العمر في قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى	وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفسوا	أليس مصير ذلك للزوال

والادقال جمع دقل الساريات

البتسان فينشرح لها الصدر ويرتاح الفكر.

وكانت (ستخم) والدة بعاكر تتولى بنفسها في هذه الحديقة أعمال المتعهدين بخدمتها من رى وحرث وغرس، فتأمرهم بغرس نبات نادر أو بملء البركة بالماء الذى كان يصل إليها في مسربين يتواصل انحداره فيهما من ناعورتين يديرهما ثوران صباح مساء، فينقضى النهار وهما لا يفتران عن اغتراف الماء من النيل حتى إذا ما انصبّ في البركة تشعب منها إلى أنحاء الحديقة في مئات من المسارب والقنوات ليروى ألوف الأشجار التى تتدلى منها الفواكه والثمار.

وفي الجهة الشرقية من الحديقة حجرات شيدت بعضها إلى جانب بعض، طبقة واحدة أو بضع طبقات، ولكل منها طنف ومستشرفات تحملها أعمدة خشب رفيعة، ويشرف الواقف فيها على الحديقة. وكان بعاكر يقيم في تلك الحجرات مع أهله وقرابته. وكان بجوارها بناء على شكل زاوية قائمة أعد لحفظ الأنبذة والثمار وصيانة الأقمشة والمنسوجات والجلود والأشعار والأوبار، وبناء آخر متين الجدران يحتوى ما ادخره جدود بعاكر واقتناه هو من النفائس القيمة كالسبائك من المعدنين الكريمين الذهب والفضة وتمائيل الحيوانات والأوانى الظريفة الشكل واللازورد والأحجار الكريمة، إلى غير هذا من التحف التى يقصر عن وصفها اللسان. وكان بوسط الحديقة مقصورة زُينت بالنقوش الأنيقة التى تلفت الأنظار وتستهوئ الخواطر والأفكار، ومصلاة نقشت في جدرانها صور الآلهة ونصبت تماثيل آباء بعاكر تحيط بها لفائف التحنيط وكلها بصورة أوزريس وإن اشبهت وجوهها وجوه أصحابها وملامحها ملامحهم المميزة لذواتهم. وكان الجناح الأيسر من القدر ينبعث إليه الضياء من جميع الأرجاء، ولكنه خُص بالعبيد والأسرى، تقع

الأنظار عليهم فيه مجتمعين مثنى وثلاث ورباع أو مضجعين على رقع من حصير
سعف النخل وقد اتزروا بمأزر من القطن.

وكان إلى جانبي الباب مصابيح ترسل أشعتها الباهتة الضعيفة فتضيء رجالا
جلسوا متربعين إلى مائدة واطئة يتناولون ما طاب لهم من الطعام، ويبدو من كمودة
بشرتهم أن الشمس لوحتهم بلفحاتها ودمغتهم بحر هجيرها. وكان طعامهم خبزاً
وشواء غزال. فكانوا يتتابونه تارة ويتعاطون تارة أخرى شراباً أصفر اللون يقدمه
إليهم خدم في أكواب من صلصال مدهون بطلاء براق. أولئك الرجال هم موظفو
القصر والقائمون بإدارة شؤونه. وكان يتصدر رئيسهم المائدة فقبض على فخذ
الشواء واقتطع منه قطعة قدمها إلى قيم البساتين قائلاً له وهو يشير إلى أحد العبيد:
لقد كُتت يدي من ضرب هذا العبد لأنه كلما تقدم عليه هنا العهد ازداد عناداً وكسلاً.
أجاب القيم: لقد تبينت منه هذه العيوب وأنا أتفقد الأشجار، إذ رأيت النخل مجرداً
من سعفه بما جعله أشبه بالطيور وقد نتف ريشها.^(١) قال ناظر الخيل: يجب علينا
الاقتداء بمولانا، فإنه يتخذ عصيه من الساسم الذي لصلايته يعيش مائة سنة. قال
ناظر الماشية الموكل بماشية القرابين: هذه العصى تعيش أكثر من عظام الجسم، فلو
اقتدينا بمولانا فلا يكون بين خدمة القصر غير الأكتع والأعمى والأعرج وأرباب
العاهات. قال الرئيس: أتذكر المسكين الذي كسر له مولانا ترقوته بضربة من تلك
العصا، وهو الآن طريح الفراش يئن من شدة الألم؟ إنى كدر شديد لهذا

(١) شهد كتاب قدماء الرومان واليونان بميل المصريين إلى المزاح، وأن أحدهم ربما أنفق ثروته
على قصيدة مجون أو هجو لينشرها على الجمهور، يؤيد ذلك الصور والرموز النقوشة في آثار
مدينة أبو والمرسومة في ورقة بردى محفوظة بمتحف ثورين، وقد أثير البحث على فصل من
كتاب فلافيوس فويسكوس الروماني يشبه فيه الشعب المصرى بالفرنسيين.

الحادث، لأن الرجل كان من أمهر صانعى الحصر عندنا، والحق يقال إن والد مولانا كان أرفق منه بأتباعه، إذ كان إذا ضرب أحدهم لا تأخذه مثل هذه القسوة، فسمع الحاضرون صوت متكلم قد تورى عن الأنظار يقول بصوت مجونى: يظهر أنك جربت ضربه. فالتفتوا جميعاً إلى مصدر الصوت وضحكوا ضحكاً عالياً إذ علموا أن الزائر رجل قصير القامة لا يكاد يعدل ارتفاعه ارتفاع طفل فى الخامسة من العمر. وكان بمدينة طيبة كثيرون من أمثاله، لأن قدماء المصريين من نوى اليسار والوجهة اعتادوا أن يكون من بين المقربين منهم أو المصطنعين لهم أقزام كذلك الزائر يقضون الأوقات معهم فى المازحة والتماجن. وكان هذا القزم المسمى (نيمو) من أتباع نيفرت، وقد امتاز على أمثاله فى طيبة بحدة اللسان والتفنن فى التنكيت حتى كان لا يفاجىء قوماً فى مجلسهم إلا استقبلوه بالإيناس والبشاشة.

فلما برز نيمو إلى موظفى قصر بعاصر وهم جلوس إلى المائدة وخاطبهم بذلك، أغربوا فى الضحك ونشطوا لقدمه. وحينما أمسكوا عن الضحك قال: امنحونى موضعاً ضيقاً بينكم، ولعل زيارتى إياكم فى هذا الوقت لا تثقل عليكم فإن الجعة التى تحتسونها والشواء الذى تتذوقونه لن يحل بهما مكروه إن شاركتكم فيها، فإنكم جميعاً تعلمون أن معدتى لا يتجاوز حجمها حجم رأس الذبابة. قال رئيس الطهاة: نعلم ذلك جميعاً ولكن ما قولك فيما يحتويه كبدك من الصفراء اللعينة التى تزيد بوفرتها على صفراء فرس البحر. أجاب نيمو ضاحكاً: إن صفراء كبدى تغلى وتفور إذا حركها بمغرفة جهله طاه غبىً مثلك.. وعلى أى حال فسأجلس بينكم بأذنكم.. قال الرئيس: أهلا بك وسهلاً.. ما أخبار اليوم وبمن أتيت؟ أجاب: أتيت بنفسى قال الرئيس: إن يكن هذا كل ما أتيت به فهو قليل. قال نيمو: أجل لأنى لا أطمح إلى مقارنة نفسى بكم.. والآن وقد وصل بنا المزاح والتماجن إلى هذا الحد

فلندعهما جانباً ولننتكلم في غيرهما من الشؤون الهامة.. إن السيدة راتوتى والدة مولاتى نيفرت والوالى الذى جاء الآن لزيارتها وجها بى إلى هنا للاستفهام منكم أحضر مولاكم بعاكم أم لم يحضر. فلقد كان مع الأميرة بنت أنات ونيفرت بالمقبرة. ولما لم تعد مولاتى إلى الآن اشتد بنا القلق والخوف عليها لأن الليل كما ترون قد ضرب بأوراقه. قال الرئيس بعد أن رفع نظره إلى السماء: حقا لقد كاد القمر يتكبد السماء مع أن مولانا حفظه الله وعدنا بالعودة قبل غروب الشمس. قال رئيس الطهاة: وقد أعددت له الطعام فى الموعد المعتاد فإذا لم يحضر الآن اضطررت لإعداده مرة أخرى. قال الرئيس: إن تأخر مولانا فهو لا بد فى ركاب الأميرة بنت أنات. قال نيمو: كيف- وقد مضى الهزيع الأول من الليل- لا تعود سيدتى نيفرت؟ قال ناظر البساتين باسماء: على مَ دارت الحادثة اليوم يا ترى بين بعاكم ونيفرت؟... وهل صحيح ما أكده لى أتباعها من أنهما لم ينبسا بكلمة واحدة؟ قال أحد الحضور: لا لوم على مولانا إذا عامل بالجفاء والصد امرأة رضىته بعلا ثم ألقى بنفسها فى أحضان سواه.. إنى كلما تذكرت الساعة التى نمتى إلى سيدى فيها خبر عدول نيفرت عن الاقتران به أشعر بالحر والبرد يتناوبان جسمى بتأثيرهما المتلف. قال نيمو: ولم تهتم بهذا الأمر إذا كنت تشعر بالحر فى الشتاء وبالبرد فى الصيف؟.. أتتمنى من نعم الله وآلائه فوق هذا؟ قال المتولى سياسة الخيل: لا تظنوا المشكلة قد انحلت، فبعاكم رجل دفين الحقد شديد إوغار الصدر لا يستلها منه شىء حتى الشدائد، فمهما تئن عناية الملك به ورفع إياه إلى أشرف الرتب فلا بد من يوم يحاسبه فيه مولانا على غدره وقبيح فعله. قال نيمو: ان راتوتى لا تحفل بهذه السفاسف ولا تصرف هممتها إلا إلى قبض ما لدينا صهرها من خير المال. ومع هذا فقد اتجهت فى العهد الأخير ميولها إلى إعادة صلوات الود بينها وبين أسرة بعاكم، وظفرت

بموافقة الوالى على سعيها، لأن من أحب الأمور إليه أن يرى البيتين مرتبطين بعرى الألفة الوثيقة والاتحاد الأكيد. ثم التفت إلى الرئيس قائلاً: اسعفنى بقطعة من أطايب شوائك فإن معدتى خاوية على عروشها. قال رئيس الطهارة: أظن يا نيمو أن الخزانة التى تحفظ مولاتك فيها أموال مينا أصبحت كمعدتك خاوية على عروشها؟ أجاب القزم: أجل هى كعقلك خاوية على عروشها. ثم التفت إلى الرئيس وأحد الخدم فطلب من الأول معالجته بقطعة ثانية من الشواء ومن الثانى كوب شراب. قال متولى سياسة الخيل: أما قلت الآن أن حجم معدتك كراس الذبابة، فلم أراك تبتلع اللحم الآن كتماسيح أراضى شدّ؟^(١) ولكن لا غرو فقد جئت فى عصر انقلب كل شىء فيه على عقبه وتحول إلى ضده حتى أصبح الإنسان بحجم الذبابة وأصبحت الذبابة بحجم الإنسان. قال نيمو بإسما مع استمراره فى الأكل: أود أن يكون وعاء جسمى أوسع مما هو وأغلظ بشرط ألا يبلغ غلظ أخلاقك وشدة حرصك المانعين لك من معالجتى بقطعة ثالثة من الشواء.. إلى سريعاً يا هذا بقطعة من ضلع الغزال الذى بيد الرئيس حتى أبتهل إلى زيفا^(٢) أن تغدق عليه الخيرات وتشمله بالبركات. قال الرئيس: خذ أيها المسعور.. إلا أنى أنصح لك أن ترخى نطاق ثوبك حتى لا تتعطل حركة معدتك.. ولقد كنت أود أن أخص نفسى بهذه القطعة الشهية ولكنى أعطيكها اعترافاً بدقة حاسة الشم فىك. قال نيمو: لم لا تكون حاسة الشم دقيقة عندى؟ أما دريت أن أنف المرء ميزان تمييزه بين الجيد والردىء؟ قال قيم البساتين: أو هذا من الممكنات؟ قال الرئيس: هات من كلامك الذى يشبه الدر إذا ما انتثر عسى أن يلهيك

(١) أراة شى شد هى الفيوم الآن، وبها هيكل الإله «سبك»، الذى تربى فيه التماسيح وتحلى بالذهب والفضة.

(٢) زيفا إلهة الخصب والخير والبركة عند قدماء المصريين.

الكلام عن تناول الطعام. قال نيمو: أما دريت أن باستطاعة المرء أن يتكلم ويأكل كما ترانى أفعل الآن؟.. إن الأنف الأحذب الشبيه بمنقار النسر آية علو الهمة وسمو الشأن.. انظر إلى فرعون وأسرته الكريمة تجد أنوفهم مصبوبة في هذا القالب وهى غير أنف الوالى فإنه أقنى معتدل كأنف تمثال آمون الدال على الاستقامة وإرادة الخير. ولقد اختص من هذه الفضائل بالنصيب الأوفى واشتهر بالاعتدال في جميع الأعمال، فلا هو بالمختال الفخور ولا الوضيع المتسفل، بل هو على ما ينبغي أن يكون ذو المروءة والهمة. وإنى لأراه أجدر بالتريع في دست الملك من سواه. قال رئيس الطهارة: إذا كانت مبايعة الملوك بالأنوف فعلى الدنيا العفاء.. على أن أنف رعمسيس إذا كُن كمنقار النسر في الأحدياب فإننى أفضله على سواه.. وبعد فما قولك في أنف سيدتك نيفرت؟ قال نيمو: أنف دقيق لطيف يفعل بمؤثرات خاطرهما الشريف وإنك لبرى مارنه يهتز اهتزاز كؤوس الزهر إذا ما حركها نسيم الفجر. قال رئيس الطهارة: وما رأيك في أنف بعاكرا؟ قال نيمو: أنف أقطس عظيم واسع الخياشيم.. إذا دنا صاحبه من خصمه في معركة وأثار (ست) العثير انبثت فيه ذراته فاهتاج غيظاً وحرماً.. أنف ترتبط به أحوال بعاكرا وأطواره إلى حد لا أعد مبالغاً فيه إذا قلت: «إنه ليس في بعاكرا بل إن بعاكرا فيه»، أنف يكفى النظر إليه لاستكناه سر هذه الخطوط الزرقاء التى سطرت بها جلودكم.. أنف مستمد من أنف ستخم شقيقة سيدتى راتوتى.. أنف مكور مرن المارن.. فقاطعه مقدم الخدم بقوله: نحن يا بذيء اللسان دعوناك إلى لحم الغزال لا إلى القيل والقال.. أمسك عن كلامك أمسك وإلا جذبتك من طوقك وأسقطت كواكب السماء على قتبك! قال نيمو رابط الجأش: هذه خير فرصة لاستخرج من قتبى ما يقع فيه من الكواكب لأتحفك منها بما يقوم بحق مكافأتك على ما أطعمتني من أكلتك.. لقد وصل بعاكرا في عجلته

فاستودعكم الله أيها الصحب وأوصيكم، إن جاءكم أنف محدوب كأنف النسر وساقكم إلى ميدان الحمام في بلاد الشام، أن تذكروا ما قاله نيمو القصير لكم، فإنه بأسرار الرجال بصير وبمزايا أنوفهم خبير.

كانت عجلة بعاكر قد اجتازت الباب خلال ذلك بقرقعة رددتها جوانب القصر، فهبت الئلاب من أوجارها وأخذت تهز أذنانها وتهر هرير الفرخ نلقاء سيدها وصاحبها، وتراكم الخدم من أماكنهم فأحاطوا بالعجلة لتلقى أوامر سيدهم، فأمسك سائس الخيل بأعنة جواديهها، ووقف مقدم الخدم تجاهها لخدمة مولاه عند نزوله منها، وتسرب رئيس الطهارة إلى ناحية المطبخ لإعداد الطعام وتفرق الباقون ليؤدي كل منهم عمله. أما بعاكر فنزل عن العجلة قاصداً إلى الحديقة فما كاد يصل إلى بابها حتى طرق سمعه دوى الطبل النحاسى الذى كان يدق في هيكل آمون وصدى أصوات الكهنة الذين كانوا يرتلون الأناشيد الدينية، فوقف فجأة ونظر إلى السماء هنيهة ثم قال لمن حوله: ها قد طلع كوكب سوتيس. قال هذا ثم خرّ ساجداً واضعاً جبهته في كفيه، فاقتدى به أتباعه في مظاهر التقوى والصلاح.

عُرف كهنة قدماء المصريين بترصد الفرص السانحة لتأييد شوكتهم بين العامة، فكانوا إذا لاحت ظاهرة سماوية كبرق أو رعد أو غيم ألقوا في نفوس العامة من الاعتقادات الدينية بشأن الحوادث العلوية ما يخولون لأنفسهم به حق الإشراف على أعمالهم السرية والجهرية، وبلغ من نفوذهم لذلك أن المصريين كانوا- إذا فاض النيل، يقولون إن لفيضانه سراً إلهيا لا يحيط به غير الكهان، وأن الواجب عليهم مقابلة هذه النعمة بالحمد والشكران. ولهذا كانوا في مدة الفيضان يقيمون الأعياد ويسرون المواكب ويترنمون بالأغاني الدينية ويقربون القرابين، وغير هذا مما يدل

على استقرار ذلك الاعتقاد في نفوسهم وانتقاشه على صفحات صدورهم.

لبث بعاكر وخدمه جاثين على ركبهم فترة من الزمن، منصرفة أنظارهم إلى كوكب سوتيس المقدس، منصتين بالخشوع والرهبة إلى الأناشيد الدينية التي كان يترنم الكهنة بها في هيكل آمون. فلما انقطع الصوت نهض بعاكر فترأى له شبح رجل عارى الجسد مستنداً إلى جدار قريب منه، فأشار إلى الخدم أن ينهضوا ثم أمرهم بالاتجاه صوب هذا الشبح. فلما دنوا منه قال لرئيسهم: أجب هذا الرجل مائة جلدة لتخلفه عن أداء الصلاة وعصيانه أوامر الآلهة. قال الرئيس: مولاي هذا الرجل إنما هو صانع الحصر وقد وصاه الطبيب بالراحة والإخلاء إلى السكون. وهو لا يستطيع أن يحرك ذراعه لشدة ما يشعر به من الألم، وقد ضربه مولاي بعصاه. قال بعاكر بصوت جهير: لقد استحق العقوبة لسوء أدبه وفرط تقصيره. ثم ولى عنه بكتفه ودخل الحديقة حيث أمر حافظ المون والأغذية بتوزيع كمية وافرة من الجعة على الخدم. ثم قصد حجرة والدته. وكانت جالسة بدهليز منمق بالأزهار المتسلقة تداعب طفلة في الحول الثاني من عمرها، وهى ابنة ولدها الأصغر، فسلم عليها باحترام فاستقبلته بوجه باش وثغر باسم. وكان بالقرب منها كلاب صغيرة، فلما أن دخل أخذت هذه الجراء تثب عليه فرحاً به، فأسكتها ثم التفت إلى الطفلة وشرع يداعبها فبكت وصوتت صارخة فنأى عنها بجانبه قائلاً: إنها لفتاة سيئة الخلق رديئة الطبع. قالت ستخم: إنى أداعبها منذ ساعة فلم تجفل منى كما جفلت منك، وما ذلك إلا لأنها ترانى على الدوام، أما أنت فلست مثلى حتى تميل إليك. قال بعاكر: قد يكون هذا التعليل حقاً، ولكن أليس بعجيب ونادر أن تنفر الطفلة منى في حين تميل هذه الكلاب إلى وتستانس بى؟ قالت ستخم: لا عجب وأنت جاهل بأساليب ملاطفة الأطفال. قال بعاكر: إذا كنت ملمة بهذه الأساليب فهل

بإسكاتها، فقد ملا صراخها أركان القصر.. واعلمى أنى أرغب فى مكاشفتك بأمر خطير. فإلاطفت ستخم حفيدتها حتى أسكتتها ثم بعثت بها إلى حجرة أخرى مع بعض الخدم، وددت بعد ذلك من بعاكر وأخذت تلاطفه بأمرار يدها على خده قائلة: لو كانت هذه الطفلة ابنتك لأقبلت عليك لتثبت لك بحركاتها البعيدة عن التصنع أن أجزل هبة وهب بها الإنسان ولد تقرّ به العين وتطيب النفس. أجااب: فهمت الآن ما الغرض الذى ترمين إليه، دعى هذا الموضوع.. موضوع الزواج لنتداول فى حادث جمل جنت خصيصاً لمشورتك فيه. قالت: تكلم. قال: إننى منذ يوم النحس الذى انقبض فيه قلبك لم أوجه إلى نيفرت كلمة إلا فى هذا النهار. ولقد رأيت بعد هذا الهجر الطويل أنه خلبق بنا نسيان ما فات وتجديد ما كان بيننا وبين خالتى من قديم الصلات.

تحولت ستخم نحو ولدها، وقد هش وجهها وافتر ثغرها وترقرت بالعبرات عيناها، وقالت: لقد أثلجت صدرى وأجلبت كرى حتى أكاد لا أصدق ما تقول. قال: لقد راق لى وصل ما انقطع بين البيتين، فقد كفانا ما فات من خصومات وحزازات. قالت: صدقت يا بنى فقد طال الأمد، ولكل شىء حد.

ثم أطرق برأسه ملياً. فجاش بخاطر والدته أن تدعوه إلى الدنو منها والاطمئنان إلى صدرها ولكنها لم تفعل حرصاً على راحتها واكتفت بأن تناولت يده فجعلتها بين كفيها وطفقت تناجى نفسها بقولها: لقد حدثنى وسواسى بأن ختام هذا اليوم سيكون على ما نشتهى لأننى رأيت الليلة الماضية فيما يرى النائم كأن أباك تقمص فى جسم أوزريس وأننى كنت فى طريقى إلى الهيكل فإذا ببقرة ناصع بياضها تمشى على مقربة منى ومن ورائها موكب عرس، ورأيت كأن ثور الإله آمون المقدس يأكل

فطير الحنطة. فالتفت بعافر إليها وقال: إن رؤياك هذه لبشرى خير ويمن وبركة. قالت: هلم نقوم إذن بمفروض الشكر والحمد لآلهة على هذه الآلاء المتتابعة ونقضى، حق الطاعة الواجبة لهم. ولنقصد في صبيحة الغد إلى منزل أختى راتوتى لنتصافى ونتصافح ونغضى على مافات من الأغلط والزلات ونوثق فيما بيننا الروابط والعلاقات.. وبعد أفلم نكن ابنتى أب واحد وأم واحدة؟.. إن نظام الكون يتوقف على توثيق الرابطة بين أفراد الأسرة الواحدة، ولن يتطرق الخراب إلى العائلات إلا بما ينبت فيها من الخلاف والمنازعات، في حين أن تمكين الروابط بين أفراد الأسرة الواحدة داع إلى إعلاء شأنها وتخليد ذكرها... لقد مات ما فات، واعلم يا بنى أن بطييه غادات في الجمال بارعات يضارعن نيفرت في حسنها إن لم يفقن عليها. ولايذهب عن بالك أن الأعيان وذوى المقامات الرفيعة إليك طامحون وفي مصاهرتك طامعون. فوقف بعافر وأخذ يسير في الحجرة مسبهلا، بينما كانت والدته تتم كلامها في هذا الموضوع إذ قالت: لا أجهل أننى لمست بهذا الكلام جراح قلبك، ولكن أما لهذه الجراح التئام بانقضاء الساعات وانطواء الأيام!.. إذا لم يكن مرور الليالى كافياً لشفائك من هذا الداء العضال فلايد أن تصبح يوماً هنىء البال.. ألم تك أوفر حظاً الآن من مينا وأسعد جداً؟ فعلى م جعلت له في صدرك دفين البغضاء والحدق؟.. أجل.. لا أنكر ما لنيفرت من الجمال الفاتن والقدر الشيق، ولكن ألا تدرى أنها ما برحت صغيرة السن عاجزة عن إدارة شؤون البيوت وللمعاشرة لا تحسن؟ ألا تدرى أننى قد بلغت من الكبر عتياً ، وقريباً يدرج جسمى الضئيل في لفائف التحنيط وأودع في القبور إلى يوم النشور، وأنتك إذا دعاك داعى الحرب إلى الشام لتطعن الأعداء بالحسام، فلا تلبث أن تقع في الحيرة حين لا تجد في منزلك من يديره؟ إن إدارة البيوت تستدعى التدبير الصائب والرأى الثاقب!.. أما قلت لك إن

جذك آسا كان يقول « إن البيت إذا استقامت أموره دلّ على حسن تدبير أهله وقيامهم بواجباتهم»؟.. إنى أبتهل لهاثور أن تلقى في أحضانك زوجة على ما يروم قلبى وتطمع إليه نفسى. فقبل بعاكر ما بين عينى والدته قائلاً: ليس في الإمكان أبداع مما كان.. تريدن يا والدتى أن يكون النساء مثلك في التدبير والإتقان؟ فتبسمت ستخم وقالت: أنت تطنب في مدحى وتنشر مناقبى مدهانة منك ورياء. ومع هذا فلا يخلو مدحك إياى من الصواب، فإن نساء اليوم اقتصرن على لبس الديباج المنسوج في فينقيا، وجاوزن القصد في التبرج والتزين واقتدين بنساء الشام في لهجتهن السريانية، وأبحن للخدم التصرف في شؤون منازلهن على ما تسوله لهم نفوسهم الخبيثة، في حين أن من أقدس واجبات المرأة صيانة البيت من عبث الخدم بالمراقبة المستمرة الحازمة. وأسوق لك مثلاً على ذلك.. أختى راتوتى وابنتها نيفرت.. فقطعها بعاكر قائلاً: ليست نيفرت كبنات هذا العصر، لأنك أحسنت تأديبها وما فرطت في تهذيبها. ولو أنها بقيت في بيتنا لكانت له كوكب سماء وتاج سعادة وهناء. فحدقت ستخم في ولدها بعين تخامرها الدهشة وقالت: نعم نعم هى غادة فاتنة إذا أصمت قلب عاشقها بسهام لحاظها أغضى على هفواتها وأقالها من عثراتها، وهل نسيت أننى كثيراً ما غضبت عليها لتواتر شكواك من معاملتها إياك بالصد والهجران؟. ولكن حيث قد أسبلت ستار التفاضى على الماضى فإنى أسامحها وزوجها مينا وأتجاوز عما ارتكباه من الأعمال التى أدت بك إلى اضطراب البال.

ما كادت لفظة (مينا) تدوى في أذن بعاكرحتى تبرد وجهه وتغضنت جبهته وقال بصوت جهير: نسامحه!.. نتفاضى عن سيئاته! هو.. كلا، بل ليهلك كما يهلك السفلة الطغام في الصحارى والقفار ولتمزق جثته الضوارى، فلا يوارىها التراب مدى الأحقاب. فسترت ستخم ووجها بكفيها ثم قبضت على التميمة المعلقة بعنقها

وقالت بصوت خافت: إن في صوتك ما يلقي الفزع في القلوب ولا يعلم مقدار ما روعنى إلا علام الغيوب.. أعلم أنك على وغر في الصدر دفين من زوج نيفرت. أعلم ذلك منذ شهدت على وسادتك السهام السبعة التى كتبت عليها «ليهلك مينا» وقد ظهر لي منها أنك اقتديت بأهل سوريا في هذه الحيلة التى يظنون أنهم بها على أعدائهم يتغلبون.. أيها الآلهة أغيثونى من رؤية هذا الوجه العبوس الباسر.. حذار حذار يا بعاكر، فإنك بتلك الفعال المقوتة تغاضب الآلهة وتعارض قضاءها المبرم. لقد رببتك أنا والدة على احترام الآلهة وتعظيمهم فلم لا تكل إليهم شؤونك وتدعهم يعاقبون الباغين بما بغوا والمعتدين بما اعتدوا؟ أما علمت يا بنى أن أوزريس يسلب الذين يتخذون ولياً ونصيراً من دونه ما أولاهم من النعم ويصب على رؤوسهم جام العذاب والنقم؟

قال بعاكر: أو تجهلين أننى بمثابة على تقديم القرابين قد خصتنى الآلهة بالفوز على المعتدين.. أو تجهلين أن مينا إذ غصبنى خطيبتى قد أصبح من اللصوص الأشرار وهو لم يخجل حتى الآن من هذا العار. وكيف تريدان بعد هذا العناد ألا أسلط عليه روح الشر والفساد؟ إذا كان بقلبك يا والدتى ذرة من حبي فلا تسمعينى اسم هذا الشيطان الرجيم والعدو الأثيم. فهزت ستخم رأسها قائلة: أتدرى فى أى طريق نحن مسوقون؟ إن حرب الشام لا يد لها من نهاية بعد شهور وأيام فيعود مينا إلى طيبة فى معية الملك رعمسيس ويتبدل الصلح الذى نرتع فيه الآن بأشد الأحقاد والأضغان.. ولست أرى لهذا الفتق رتقاً إلا بإصغائك لنصيحتى وعملك بمشورتى، ألا وهى التزوج بامرأة جديرة بمثلك. قال بعاكر: لاتذكرى الزواج.. إذ لا حاجة لي به الآن ولا تتعجلي فالعجلة من الشيطان. لقد اعتزمت السفر بعد أيام إلى بلاد الشام، أفتريدان إذا تزوجت أن أقتدى بمينا فى فعله الذميم فاترك

زوجتي كالأرمل لا أنيس لها ولا عشيرة ؟ ثم لماذا أراك شديدة الرغبة في زواجي ؟
أما كفك أن أخي متزوج وأنه يقيم وزوجه عندك ؟ ألا تكفي معاشرتهما إياك لترويح
نفسك وتسرية هموم الوحدة عن قلبك ؟ أجابت : يعلم الله مقدار حبيّ لهما وشغفي
بهما وأولادهما . ولكن أنسيت أن أخاك هوروس أصغر سنّاً منك وإنك أنت وحدك
الوارث لما تركه أبوك من المال . وهذه ابنة أخيك التي أبكيتها الآن قد جمعت من
الظرف والحسن ما يسر الخواطر ويقر النواظر ، إلا أن عنايتي بها لن تحرمني لذة
السرور بالقيام على تربية ولد ترزق به ليرجع في المستقبل إليه أمر الأسرة ،
وليكون الوصلة بين أصولها وفروعها . ثم لا تنس يا بني وصية أبيك لك فإنها
وصية مقدسة يطلب من مثلك احترامها وعدم الحيد عنها . أفلا تذكر أنه سرّ
بطلبك لابنة خالتك وتضاعف سروره حينما علم أن سلسلة أسا لن تنقطع
حلقاتها وأنه لا بدّ من بقاء هذه الحلقات متصلة بهذا الاقتران طول المدى ؟ أما الآن
وقد تزوجت من غيرك وأثرته عليك فليس ثمة ما يحملك على ألا تتخذ بديلاً منها
تحقيقاً للمقاصد الأبوية الشريفة قال بعاصر : إذا أكتلأ رجائي المرمى ولم تحقق
الأيام أمنيتي فليس ذا الذنب اقترفته .. دعيني أودعك يا أمي لتأخذي من النوم
حاجتك فقد إرتفعت الكواكب حتى كادت تبلغ سورت الرأس وإني أسألك إذا
توجهت في صحوة الغد لزيارة أختك - أن تؤكدي لها بأن بيتي ما برح مفتوحاً لها
على السعة والرحب . وقد غاب عني أن أوافيك بخبر خطير ، وهو أن قيم منزل خالتي
قد عرض على قيم منزلنا أن يبيعه قطعاً من البقر ، ولست أدري لهذا سبباً لا سيما
وأن الماشية اللازمة لفلاحة أراضي مينا قليلة العدد ، قالت : أنت تعلم أن بيد خالتك
الآن زمام أملاك صهرها وأنها في عوز دائم لأموال تنفقها في التزيين والتجمل حتى
لا تضاهيها امرأة من نساء طيبة كلهن في زخرف الثياب وتآلق الحسن ولمعان

الزهرة، ولا تزاحمها على استهواء الأعيان والعظماء إلى التردد على قصرها المنيف وفي مقدمتهم. وإلى هذه المدينة. ثم لا تنس أن ابنها لا يشق غبارها في الإسراف والتبذير، فلا عجب بعد كل هذا إذا كانت كل أن في حاجة إلى الأصفر الرنان.

فهز بعاصر كتفيه مستنكفاً من سماع هذا القول وانصرف إلى مخدع نومه. وكان هذا المخدع خالياً من كل أثر يدل على التأنق وحب الرفه والنعيم، إذ كانت جدرانها مجصصة بالجير ومجردة من الرسوم والنقوش ما خلا بعض كتابات تحيط بالنوافذ والأبواب وتتضمن طائفة من الأمثال والقواعد الدينية. وكان بصدر المخدع سرير يمثل أسداً رابضاً وعليه فروة أسدة سوداء، وعند رأسه متكأ من خشب الساسم مجلل بنقوش وكتابات كثيرة وإلى جانبه كرسي قصير القوائم من هذا الخشب يتخذ من يريد النوم سلماً يصعد فيه إليه. وكانت تحيط به أسلاب من الأسلحة ومجمرة سياط والسهام السبعة التي كتب عليها «ليهلك ميناء». وكانت هذه الثياب مثبتة بالجدار بحيث تتقاطع في جزء منه كتبت عليه حكمة في الحث على إغاثة الملهوف ومواساة الفقراء وتقدهم بالمطعم والمشرب والملبس ومعاملة الكبير والصغير بالعدل والمواساة.

وكان عند رأس السرير مخبأ مغطى بستار من ديباج أحمر وبالقرب من زواياه الأربع أعمدة تحمل تيجانها تماثيل تمثل ثلاثة منها صورة الآلهة آمون وموت وخون، والرابعة صورة والد بعاصر، وإلى جانب كل منها مذبح لتقديم القرابين وتجاويف لوضع المواد العطرية وخزانات مدهونة بألوان زاهية تحتوي أمتعة نفيسة خاصة ببعاكر من ملابس وكتب وتماثيل وتمائم وجواهر، ومنضدة بوسط المخدع حولها جملة من الكراسي الواطئة.

وكانت تضىء الحجرة مصابيح عديدة، فلما أن دخل بعاكر فيها وثب فيها كلب هائل فاغراً فاه، لم يلبث أن عرفه وأخذ يحوم حوله ويثب فرحاً به، فأخذ بعاكر برأسه بين كفيه وقبله وكان شكله بحيث يدل على الذكاء والهمة. وكان إلى جانب السرير عبد طاعن في السن بدين الخلقة وأنى الذراعين مدمج المفاصل، فدفعه بعاكر بقدمه قائلاً: لقد اشتد بى الجوع فانهض لتهييء مائدة الطعام. فقام العبد متثاقلاً وخرج لتنفيذ أمر مولاه وظل بعاكر وحده فتذكر الماء السحري فاستخرجه من القطرميز المعلق بنطاقه وأخذ يتأمل فيه معجباً ثم وضعه في صندوق خشب به قناني كثيرة تحتوى الزيوت العطرية الخاصة بالقربان. وكان من عادة بعاكر في كل مساء أن يملأ بهذه السوائل العطرية التجاويف المنقورة في المذابح ويجثو على ركبتيه أمام الآلهة ويستغرق في الصلاة زمناً. إلا أنه صرف عنهم في هذه الليلة نظره وشخص في تمثال والده زمناً أخذ بعده يقبل قدميه بخشوع واحترام قائلاً: لا بد لي يا أبت من قضاء لبانتك والرضوخ لإرادتك، فإن الغادة الحسناء التى تخيرتها لتكون قرينة ولدك سوف يُعقد له عليها. وأخذ بعد هذا يجوب أقطار الحجرة مقلقل الشخص مروع العين منزعج الضمير، لأنه كان يعرض على نظره حوادث الأمس فتتفعل نفسه بما طرأ عليها فيه من المؤثرات.

ثم وقف أمام الآلهة يرمقها بعين الاستهتار والاحتقار والتوى بعيداً عنها بجنيه منصرفاً نحو جهة أخرى، فنظر السهام السبعة فافتت ثغره باسمها وتهلل وجهه بشراً وترنحت أعطافه سروراً وطرباً وقال: لا بد لي من هذه من الإجهاد عليه. ولقد كان في أول أمره كالغريب الحائر يتخذ لنفسه دليلاً يرشده إلى سواء السبيل، فإذا لم تعد له به حاجة أغضى عنه ولم يبال به وأعرض عنه احتقاراً حتى يعدل بنفسه عن ملازمته.

وكان الكلب يتابع مولاه بنظره في حركاته فلما سمعه يقول « لا بد ليدي هذه من الإجهاز عليه، خيل له أنه يناديه، فأسرع نحوه ووثب عليه مراراً فلم يسع بعاكر إلا أن زجره وقال: لقد اعتدت أيها الكلب مطاردة الضباع في الصحراء واقتناصها قبل أن تصيها رمية الرامى، وهذا فضيلة فيك يجوز لى أن أحرزها إذا لم تسعفنى الآلهة بمددها وتشد أزرى بقهر خصمى اللدود. ثم صعد نظره في تمثال أبيه قائلاً: وأنت يا أبت لم لا تشد أزرى وتشرح صدرى.. ألا تعلم أننى بحاجة إلى معونتك ودوم رعايتك؟ ثم أمسك عن الكلام لأن العبيد كانوا دخلوا في الحجرة يحملون على رؤوسهم صحاف الطعام، فقال بعاكر: ألم أنبهكم مراراً إلى تهيئة لون واحد دسم ومحرض لشهوة الأكل، فلم جئتم إذن بهذه الأصناف الكثيرة، ثم أين النبيذ؟ أجاب أحد العبيد وهو متمدداً إلى جانب السرير: لم نأت به لأن مولانا لم يعتقد تعاطيه. قال بعاكر: لكن أود احتساء كأس أو كأسين منه في هذا المساء. كلا، بل عجل بخابية من نبيذ راسم العتيق.^(١) فأخذ العبيد يتأمل بعضهم في وجوه بعض ثم سارعوا إلى تنفيذ الأمر، وقال أحدهم وقت انصرافهم لأحد رفقته: جرت العادة أن يأكل مولانا كالأسد الأسيد ويشرب كالذباب ولكنه اليوم.. فقاطعه صاحبه قائلاً: صن لسانك عن الزلل واسرع بنا إلى صحن الدار لنحسو الكؤوس ونزيل البؤوس، فقد أمر مولانا بتوزيع الجعة على جميع الخدم لأنه على ما يظهر قد فاز اليوم بمامل أو وافاه نبأ ميمون.

كان لوقائع اليوم الماضى تأثير عميق في عقيدة بعاكر أفضى إلى انقلاب عظيم في عاداته. فإنه بعد إذ كان يبغيض الشراب ويتجنب المخالطة ويرفض الدعوة إلى

(١) راقم بلدة بجوار هرم سقارة المدرج بالقرب من مقابر منفيس كانت شهيرة بزراعة الكروم وعصير النبيذ الذى ورد ذكره في كثير من أوراق البردى.

الولائم تخلصاً من تعاطى المسكرات، مال في هذه الليلة إلى الانفراد ليحسو من الشراب كأساً بعد كأس. ولقد ظل يتجرع حتى ثقلت رأسه وحجبت بصره غشاوة، فقام يتلمس سريره حتى إذا اهتدى إليه رفع الستار المسدول على المخبأ فاستخرج منه تمثالاً من الحجر للإلهة هاتور مصنوعاً على مثال صورة نيفرت ومبرقشاً بأبهج الألوان، لأن رعمسيس كان قد أمر أحد مهرة المثالين بصنع تمثال لها يشبه نيفرت. فلما تم صنعه بذل بعاكر مبلغاً طائلاً من المال للحصول على صورة منه طبق الأصل، وهى التى ما كاد يخرجها من المخبأ حتى أجال طرفه في أنحاء المخدع لاتقاء الرقباء. فلما اطمأن خاطره وضع تمثال نيفرت أمامه وألقى بنفسه عليه وأخذ يقبل ثغرها الجامد البارد، ثم ترامى على السرير بدون أن يخلع ثيابه أو يطفىء السراج فنام نوماً ثقيلاً.

غير أن بعاكر لم يذوق لذة النوم في الجنج الأخير من الليل إذ فاجأته الأحلام المزعجة، فأخذ يصيح صياحاً عالياً قام ذلك العبد فزعاً بسببه، وطفق الكلب يهرّ هريراً مستطيلاً حتى هبّ بعاكر من نومه وتنبه من رقدته وأخذ يتلفت يمنة ويسرة، مكدّاً فكره في تذكر الأحلام التى أزعجته ليعرضها على أحد المنجمين. وبينما هو كذلك إذا بأصوات الكهنة- الذين أزاخوا عن أعينهم غشاء الهجود ونهضوا لاستقبال الشمس بأناشيدهم الدينية في هيكل آمون- قد استأذنت على سمعه، فلزم الصمت برهة خشوعاً ورهبة وأحس انفعالا في القلب اعتقد معه أن الآلهة تنعى عليه سوء سووكه، فخلا إلى نفسه وأخذ يحاسبها حساباً عسيراً ورمائها بسوء النية وفساد السريرة وألى آلية أن يترك السحر والسحار ويكل أموره إلى الأقدار.

قصد بعد ذلك إلى الحمام وبينما كان يحرك فيه الماء الفاتر الممزوج بأزكى الروائح العطرية تذكر نيفرت وتأثير الماء السحري في فؤادها ودهش لترده في

إعطائها إياه، ولعبت بنفسه الهواجس وساورته الأمانى التى تحجب عن البصيرة نور الحق والصواب وتزين الباطل بالتمويه الزائل، فجمع فى غوايته ومضى فى تيار عمائته حتى اعتقد فى الظلام الحالك أنه اسطع الأنوار وفى شوك القتاد أنه أنضر الأزهار. غير أنه شعر بالعشق، وقد أخذ عليه مشاعره، فكبر عليه أن يعجز عن مقاومته فبذل فى هذا السبيل كل جهوده. ولكنه لم يلبث أن وقع فى براثنه ورضخ لجائر حكمه فكان من شأنه—وقد نزلت به هذه الضائقة—ما يدعو إلى تشبيهه بمن تنزع به أمنية الربح إلى قطع أجواز الفلوات وجوب القفار، حتى إذا فاجأته العواصف وحاول الخلاص من شر ما تسفيه الرياح الهوجاء انهالت عليه وطمرته كما ينهال الثرى ويطمر جثث الموتى. غير أن الصبح ما كاد ينبجج وما كادت تطلع الشمس من خلف الروابي، حتى عاوده البشر وانشرح الصدر فلبس ثيابه المزركشة وجلس برهة يجيل فكره فى حادثات اليوم الماضى فازدرى بما كان ضميره يعيبه عايه ويسوقه ساعة الاستحمام من العظات إليه، وقال إنه لقادر على مكافحة الآلهة ومقاطعتهم وتحقيق مقاصده دون أن يفزع إليهم. وتطوح فى الإلحاد حتى أنكروا عليهم القوة والقدرة والسداد .

الفصل التاسع

أخبار شؤم من الشام ويوم بؤس من أنكد الأيام

كانت الشمس في سمت الرأس ترسل أشعتها إلى مدينة طيبة وترشقها من كنانة حرارتها بسهام حادة النصال، وكان المار بالطريق المستقيم المؤدى إلى قصر رمسيس تصيبه لفحاتها فيحس أنه أصبح ناراً تلتظى. وجرت العادة أن يكون هذا الطريق إذا توهجت الودائق معطلا من الأنيس والطارق. غير أنه كان في ذلك اليوم يموج بأفواج من الناس يتدافعون فيه بالمناكب بين راجل وفار وراكب، وكانت جماعات من العبيد يحملون على متونهم قرب الجلد يطرون منها رشاش الماء على الأرض لتسكين ثورة العثير وتلطيف حرارة الهجير، ومع هذا فقد كان الغبار يتطاير كالشرار فيغشى الرائحين والغادين الذين انقلبوا من جميع الأقطار لاستطلاع الأخبار التي وردت من ديار الشام. وكان كلما ذاع خبر بين المتزاحمين سرى بينهم سريان ريح الجنوب، إذ كانوا يهتمون به على السواء لتأثيره فيهم جميعاً باليأس تارة وطوراً بالرجاء.

وبيان ذلك أنه ما تمزق ستار الليل وأسفر من خلاله وجه الصبح الوضىء حتى وصل إلى طيبة من المعسكر المصرى ببلاد الشام ثلاثة برد يحملون خرائط مملوءة كتباً ومراسلات تتضمن أنباء القتال وما يكون قد أحرزه من الفوز أبناء مصر الأشبال^(١). وكانت جماهير الأهلين تنتظر وصولهم بصبر يخالطه الرجاء تارة واليأس أخرى، فكانوا - وقد أصبحوا نهياً للظنون والهواجس - كمن يرقب (١) كان المصريون يميلون إلى انشاء الرسائل ولهم ذوق مشهور فيها، وهم أول من أحدث البريد ورتب السعاة وكانوا يسمونه «فاتسعات»، وقد أفاض المؤرخ ماسبيرو في هذا الموضوع في كتابه الموسوم «إنشاء الرسائل عند المصريين في عهد الفراعنة».

المزن إذا لاحت تلى أفق السماء فلما أن تهطل أراضيه غيثاً منبتاً أو صيباً فيه ظلمات ورعد وبرق.

وأغلب ما ورد من الكتب والمراسلات كان يحمل خبر السوء بقتل زوج أو شقيق أو جرح ابن أو صديق. وكانت تلوح على وجوه بعض المزدحمين عندئذ علامات السرور والبشر لأنهم - وقد وصلت البرد وتخلصوا من مرارة الانتظار والصبر - جعلوا لا يحفلون بما تكون الكتب الواردة إليهم قد احتوته من أخبار الشؤم، لأن المرء فطر على التعلّة برجاء الخير والتباعد عن مظان الضير.

وكان الناس يخفون سراعاً إلى ساحة قصر الوالى ويحومون حول الأعوان المنوط بهم فرز المكاتب وترتيبها لتوزيعها، الخاص منها على من وردت بأسمائهم وعناوينهم وتلاوة العام على ملا الحاضرين. وكانت الرسائل العامة عبارة عن بيانات بأسماء القتلى والجرحى في مواطن القتال، وكان الأعوان إذا شرعوا في القراءة تطاولت إليهم الأعناق ورمقتهم الأحداق، لأن المستريب أشد الناس ألماً بما يداخله من الريبة في أمر يمسه بذاته أو أحداً من أهله. وكان السامعون - إذا تليت عليهم تلك الرسائل - يعالجون الخلاص من هذا العذاب بإنصاتهم إليها واستكشافهم جانب سرها ليزيحوا الريبة عن ضمائرهم، سواء أكانت الأخبار الواردة صادقة أم كاذبة. وكثيراً ما كان اهتمامهم باستطلاع الضار منها أعظم منه باستطلاع السار. ألا ترى رسل السوء يجدون السير في أسفارهم وينشطون إلى إذاعة الأخبار السيئة، كما لو كانت مدعاة لإنشراح الصدور وتفريج الكروب؟

وكان يقصر الوالى (أنى) القريب من قصر فرعون أماكن خاصة بأولئك الكتبة والأعوان يتصل، بعضها ببعض على هيئة إيوان مستطيل إلى جانبه فناء ينتهى إلى

غرفة كبيرة جُعلت للفصل بين الناس في خصوماتهم. وكان الوالى يتصدرها متربعاً في دست الحكم لإقامة الرزن بالقسط. وكان الموكلون بإدخال الخصوم عليه- وهم من الحرُس- واقفين بالأبواب وبأيديهم المحاجن الطويلة يلقون بها الرهبة في قلوب المتقاضين.

وكان منظر القوم بعد تلاوة الأخبار موجباً للدهشة والاعتبار، ودالا على انقلاب الأمور وتغير الأطوار. فإن المتعقبين للأنباء بعد إذ كانوا سواء في اليأس والرجاء تعاكست أحوالهم وتناقضت أشكالهم فما كادت الكتب العامة تتلى على مسامعهم حتى أخذ البعض يصيح بصيحات السرور والطرب لتأكدهم سلامة أقاربهم في الجيش من كل عطب، وطفق البعض الآخر يعول ويبكى لنعى قريب أو قتل حبيب. وكان النفر الأول تبدو على وجوه رجاله نضرة السرور والبشر لعلمهم أن لهم حصّة في أسلاب العدو، أما الرهط الثانى فكانت قلوبهم تقطر حزناً وتنال منهم الآلام فجالت الدموع في عيونهم ثم هطلت كالطر المذار.

وكان الناظر يرى غير هؤلاء وأولئك جموعاً من النساء يحثن التراب على رؤوسهن ويخمشن الوجوه بأطفارهن، نائحات صائحات يشققن الثياب مولوات: وا زواجه! وا ولداه! وا ابتاه! وكان الشيوخ الذين وافتهم أبناء البريد بالبأساء يكتفون بإمرار أيديهم على لحاهم البيضاء. أما الأيامى فكان يتعلقن بأذيال الأعوان والكتاب يتوسلن إليهم أن يعيدوا تلاوة الأسماء إذ كن يعلنن بالأمانى أنفسهن بأنهم يكونون قد أخطأوا فطمئنن خواطرهن لإصلاح الخطأ وتهدأ نفوسهن بزوال الريبة، وإلا استسلمن إلى مظاهر الحزن وعلاماته المحسوسة من لطم وخمش وحثو تراب، وغيره مما كان قداماء المصريين لا يستحيون من صدم الابصار به على

ملا من الناس في قوارع الطرقات وأعطافها.

وكان نيمو يغدو- خلال هذه الحوادث- ويروح بين جموع المزدحمين مستثبناً في وجه كل فريق ، كما لو نيط به استطلاع أسرارهم واستقراء ضمائرهم أو كما لو نكأته هذه المناظر المحزنة وألمت قلبه فحفزت نفسه للعطف عليهم والرفق بهم. وكان يخص باهتمامه الجموع التي يكثر فيها النواح والعويل، فاتفق أن دنا من امرأة مثرية تنسكب العبرات من عينيها كوابل المطر، إذ عال من صبرها ونال من جلدها نبأ وفاة زوجها في آخر واقعة فقال لها: إذا استطعت أن تقرئي السطور المنقوشة بين أفاريز هذا البناء وتميزي حروفها من خلال الدموع المنحدرة على خديك فلا بد أن يدعشك معناها... إن تلك السطور تحتوى اسم رعمسيس مشفوعا بالألقاب السامية والنعوت العالية! أفتعرفين أية هذه الصفات تستدعى الاهتمام أو الالتفات؟.. هي التي ذكر فيها أنه «واهب الحياة ومفيض النعم»، نعم.. إنه بلا خلاف واهب الحياة ومفيض النعم، بل بارئء النسب وموجد الكائنات من العدم.. ولا عجب، فليس بعزيز على من يميت الأبناء والأزواج في ميدان القتال أن يحيى بموتهم الثكالى ويقيم الأطفال!

فظلت المرأة كالمنزول بها دهشة من ذلاقة لسانه وفصاحة بيانه، وما همت بمجاوبته حتى رأته متعلقاً بأذيال شيخ قوس ظهره الهرم ولاحت عليه إمارات الضعف والسقم، وسمعتة يقول له: أراى أحد في طيبة كلها شاباً يماثل ابنك في بارع الجمال ونادر الخصال، قبل أن تغتاله يد المنون في ساحة القتال؟ كلا.. لو كنت أباه لخلقت لكل من أبنائى الباقين عاهة لا يصلحون بسببها للجندية التي هي أصل كل بلية.. فعليك إذن يا أبت بهذه الحيلة فإنها لجلاء الكرب عنك خير وسيلة. ثم اعلم أن

بلاد الشام قد أصبحت للشبان المصريين الضريح العام. وأنه ليبدو لي أن رعمسيس تعهد لنسور لبنان بتغذيتها مدى السنين بأجسام المصريين، لأنها أجسام سليمة ومن الأمراض عقيمة.

وكان الشيخ قبل أن يجاذبه نيمو أطراف الحديث راضياً بالقضاء الذى نزل مفضياً عما به قد حل، فلما سمع هذا الكلام هاج منه الشجن وتولت عليه الإحن، فشبك أصابع يديه ووكفت الدموع من عينيه. ثم انتقل من البكاء إلى الأنين والرثاء، فلما شهد نيمو منه هذا الانفعال لفت نظره إلى الوالى وقال: لو كان هذا الشهم الهمام قابضاً على أزمة الأحكام فى هذه الأيام، لما سيق ابنك إلى ميدان الفناء حيث يتبدد جسمه أشلاء، بل لما وجد فى وادى النيل كله من اليتامى والشحاذين والأيامى من ضاق بهم رحب القضاء وارتفع أنينهم إلى عنان المساء. الحمد لله على أن ماء النيل لا يزال حلو المذاق، ولكن دوام الحال على هذا المثال يجعل هذا الماء العذب أجاجاً كماء بحر الشمال لإنحدار دموع المنكوبين فيه على التوالي.

وما سمع الوالى هذه الكلمات حتى ترك منصة الحكم وأخذ يتعمل من الحركات والإشارات ما أراد الإيهام به أنه متأثر من الحالة الحاضرة فى البلاد وما يقع من الحيف بالعباد، فاستقر فى خلد الحاضرين أنه مشاركتهم فى أحزانهم فطفقوا يعولون حتى دوت أصواتهم فى أركان المكان وطرقت أذان كل إنسان، وبهت لها سائر أولئك الذين كانوا يملأون رحب الطريق الموصل إلى القصر منتظرين نوبة دخولهم على الوالى لاستطلاع الأحوال.

وشرع الحراس فى الآن نفسه يخرجون الناس من غرفة المجلس كى يحل محلهم غيرهم ممن لم يسمعوا أسماء القتلى والجرحى، فأخذ الكتاب ينادون بها وعاد

الوالى إلى منصة الأحكام.

وكانت تجمعه وفرعون لحمة القرابة، وكان معروفا بالعلم وكرم الأخلاق وشدة الطموح إلى الملك، ولكنه كان يكتم أصحابه هذا الطموح ويتظاهر بالقبول بمنصبه وبما له من الحظوة عند فرعون. وكان رعمسيس الأول جد رعمسيس الثانى من أسرة سامية استوطنت مصر بعد نزوح عرب الرعاة^(١) وامتازت بالشهامة فى قتالهم، على عهد تحتمس وأمينوفيس. ولكنه استعان فيما بعد بأمواله الكثيرة على إسقاط العائلة المالكة واغتصاب الملك منها ودبر لذلك مختلف الوسائل والحيل.

ولما وفى رعمسيس الأول أراد ابنه سيسى الأول أن يوثق أركان عرشه فاقترن بتائى حفيدة أمينوفيس الثالث فرزق منها برعمسيس الثانى الذى لم يعارضه أحد فى ملكه على مصر، لأن قوانين البلاد فى ذلك العهد كانت تجيز للنثى أن تتولى الملك وتحكم فى الناس ولذا اعتبر المصريون أن الحكم انتقل من والدته إليه فتابوا إلى الدعوة والسكون.

على أن سيسى كان قبل موته قد أصدر أمراً عالياً للأمة بمشاركتة ابنه فى الحكم^(٢) فانقطعت بذلك أسباب الفتن التى كان فى قدرة الناقمين والمتبرمين أن يضرمو نارها بعله أن سيسى الأول لم يكن من الأسرة المصرية القديمة. وكان أنى (١) عرب الرعاة أو الهكسوس أقوام تواردوا على مصر من جهة الشرق مع أقوام من آسيا كانوا يهاجرون إليها فاستولوا على وادى النيل وحكموا فيه ٥٠٠ عام، وقد اضطرت الأسرة الفرعونية المالكة وقتئذ أن تلجىء إلى النيل الأعلى ولكنها دأبت على مقاتلة الهكسوس حتى طردتهم من مصر واستأصلت شافتهم.

(٢) شارك رعمسيس الثانى والده فى الملك منذ ساعة ميلاده وتوجد فى هيكل أبيدوس (العراية المدفونة) نقوش فسرها مارييت وماسيرو بأن الملك رعمسيس كان يفتخر فيها بقوله «إنه كان ملكا وهو فى البيضة»، ورعمسيس هذا هو الذى كان يسميه اليونان سيزوستريس ويسمى على الآثار القديمة باسم (جيزورا)، وقد اعتاد اليونان فى كلامهم على رعمسيس أن يخلطوا أعمال والده سيسى الأول بأعماله.

ابن أخ تائي أصغر سنًا من رعمسيس فرباه والد هذا في هيكل سيتى وعامله معاملة الأب الرحيم لولده البار، فأظله برعايته وحاطه بعنايته، بينما كان من جهة أخرى يشتمت شمل الأسرة المالكة المغلوبة على أمرها ويصادر أملاك أفرادها ويقصدهم إلى أبعد الآفاق.

ولقد أثبت (أنى) رغم ذلك صدق ولائه للملك سيتى وابنه رعمسيس. وكثيراً ما كان بعض أخصاء فرعون يتزلقون إليه بالسعاية في حق أنى ويحذرونه عاقبة الثقة به والركون إليه بقولهم إنه من سلالة الأسرة البائدة وأنه طامح للملك ويسعى جهده للاستيلاء عليه، فكان رعمسيس لا يفتح أذنه لوشاياتهم بل كان - كلما ازداد تـ ذيرهم إياه- يغمره بنعمه ويفيض عليه غيوث كرمه، إذ ما فائدة أنى من انتمائه إلى الألوية وانتسابه إلى سلالة رع، بل ما فائدة قوله إن رعمسيس لا يلتحم بهذه السلالة إلا من ناحية الأم فقط.. ألم يكن رعمسيس قابضاً فعلاً على زمام الأحكام ومتصرفاً برقاب الأنام وبيده صولجان الفراعنة العظام؟ ألم يرزق بثلاثة عشر ولداً حسبته وكفى أن يخلد أحدهم ذكراه ويكفل بقاء الملك في أسرته إلى ما شاء الله؟

كل هذه الأسباب حدث برعمسيس قبل شروعه في حرب الشام إلى تنصيبه والياً على طيبة لما بينهما من لحمة القرابة ولأنه قام في بلاد كوش^(١) بأعمال جليلة جعلته مكيناً عند فرعون وأثيراً بثقته، فكان خليقاً بتقلد ذلك المنصب الرفيع.

وقد جرت العادة أن من يكن حاد الطبع عجولاً ملولاً يسكن تأثره ويهدأ روعه تجاه صاحب السكون والتؤدة، بل ينظر إليه بعين الإجلال والاحترام ويرضخ لما يبيديه من الآراء أو يقرره من الأحكام. وكان أنى ممن عُرفوا بالرصانة والجلد عند

(١) بلاد كوش هي الحبشة

نزول الملمات، وألف رعمسيس فيه هذه الفضائل مراراً فخصه من دون رجال بطانته وأساطين حكومته بذلك المنصب الخطير مفضلاً إياه على كل أمير.

وما كان لأحد أن يجرؤ على اتهام أنى بالطمع في دست الملك أو يصمه بدس الدسائس ونصب الشراك لتحقيق هذا المراد، لأنه كان مشهوراً بالعفة وعزة النفس والتصون عن الدنيا، لاسيما وأن رعمسيس لما عرض عليه النيابة عنه في الحكم مدة غيابه أبى ولجّ في الإباء، إلا أن الملك تمكن من اقناعه بأنه لا مفر له من القبول، فلما قبل كان هذا عنده غاية المأمول. وليس من حرج عليه فيما فعل مادام يعتقد أن عامة الناس وخاصة البطانة الملكية لا يتهمون بالتطلع لتلك الغاية العزيزة والتشوف لذلك المرام البعيد، فهم يعلمون أنه لم يتزوج ولم يكن له ولد وأن من جعل وكده تقلد الرئاسة أو الاستيلاء على الملك فإنما تخدعه بوارق الطمع بحفظ العرش للأعقاب من ذريته تخليداً لذكراه وإحياء لسمعته.

وفي ذلك اليوم المشهود تقدم إلى أنى- وهو في مجلسه- فلاح يشكو إليه ما أصابه من الأذى بهجوم الجند على أرضه ومصادرتهم ماشيته ومحصوله، فتلطف به وواساه ووعده بالنظر في دعواه، فانصرف الرجل قرير العين معللاً النفس ببيلوغ المرام، وفي غضون الجلسة ذكره الكاتب بما وعد من الأمر بتعيين المحقق فاجاب: السواجب على أفراد الأمة المصرية التكاتف على دفع النفقات الحربية وسدّ حاجة الجند من ميرة ونخيرة وعلوفة لما في التقصير في أداء هذا الواجب من تعريض الجند للمعاطب. فشكوى الرجل باطلة ومن حلية الحق عاطلة.

تقدم إليه بعد الفلاح مأمور أسوان من أعمال مصر الجنوبية، فطلب إليه التصديق على صرف مبلغ من المال لصيانة شواطئ النيل من طغيان المياه، فاستمع الوالى لقوله مبتسم الثغر طلق المحيا ثم قال: إن نفقات الحرب استهلكت الميزانية

حتى لم تبق فيها بقية تقى بإنجاز تلك الأعمال النافعة.. على أننى سوف أوافيك بجانب من مالى الخاص حتى لا تتعطل المصلحة العامة. ثم ودعه ورجا منه أن يبلغ إلى سكان أسوان تحيته. وما غادر المأمور المجلس مبتهجاً بما لقيه من الحفاوة والإكرام حتى أمر أنى له بمبلغ جسيم. وكان أنى أثناء إصفائه لما يُطرح عليه من الشكاوى يتعمل الحزن إيهاما للشاكين بأنه يحس الأهم ويشاطرهم أحزانهم ليخفف وطأتها الشديدة عن كواهلهم.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب حينما طرق أسمع الملتفين بالكتابة صراخ فاستغاثة فنحيب، فلم يكن إلا مرور الطيف حتى تحولوا نحو مصدر الصياح واشربت أعناقهم لاستطلاع الخبر، بعد إذ كانوا منكسى الرؤوس حزناً وأسى. وأخذ الحراس يفرقون الحشود التى توردت على ذلك المكان فعلا صياحها وازداد أنينها حتى تجاربت الآفاق بدوى أصواتها. وسأقت فصيلة الجنود الليلية الصارخ الأول إلى السجن وألقته فى غيابه وأنفذ السوالى من عنده رسولا لاستجلاء الحقيقة، فعاد معه إليه ضابط الحرس ليخبره بأن قزم الأميرة راتوتى ما برح منذ ساعات يخترق صفوف الناس ليحرضهم على الثورة. قال أنى: إذا كان ما تقول مطابقاً للواقع فعجل بالقبض عليه وزجه فى السجن. ثم التفت إلى بعض خاصته موعزاً إليه أن يأتى له بذلك الرجل سراً مع تطفيل الشمس.

وكان المحتشدون قد لمحوا الكاهن الأعظم فى ملابسه الكهنوتية يحف به لفيف الكهان، فوقفوا صفوفاً الوفاً على عطفى الطريق وركعوا إعظاماً وإجلالا، فمرّ بينهم مباركا فيهم وداعيا لهم. وما أبصر به السوالى حتى سارع إليه لاستقباله فى مظاهر الخضوع والخشوع، ثم صحبه إلى صدر المجلس وما كاد أمينى يستقر فيه حتى قال له: أيتأتى أن يكون المستحيل ممكنا.. وهل يجوز أن ينتظم رجال الدين فى سلك الجند؟ أجاب أنى: لا بد من أبطال للظفر بالأعداء الأندال. قال أمينى: ولا بد أيضاً من

العمال لأداء ما تستدعيه الحياة من الأعمال. قال، الوالى: قضت إرادة الملك بحشد فلاحى الهيكل وتوجيههم إلى محاصد الأرواح قبل أوان البذار. ولا مفر لنا من الخضوع لإرادته، فما نحن إلا عبيد جلالته نعمل بإشارته. قال أمينى: تالله إنى لأراك أطيب منه مغرسا وأكرم محتداً وأولى على كل حال بالاستواء على أريكة الملك.. وبعد فهل يحسن بك تعطيل الزراعة وإلقاء الناس فى خطر المجاعة؟.. أما كان حقيقا بك أن توسع منها النطاق بل أن تفتح لها أبواب الصحراء لتبلغ إلى أقصى الآفاق؟^(١). فتجاهل أنى ما ترمى إليه هذه الكلمات من المغازى والمعانى وقال: إن أرضنا لا تبقى كلها فى حرمان من الزرع فإنه لا بد لرعسيس من الانتصار على عدوه بما يصل إليه من الامداد. قال أمينى: وأى الآلهة يسعفه بالمعونة والمدد وقد جعل وكده إغلاق الهياكل وتعطيل الشعائر؟ قال أنى: لا تجزع يا أبت فعما قريب ينال الانتصار ويعود إلينا مكللا بالغار، فيجزل لكم العطاء ويضاعف القربان دفعا لغضب الآلهة واستنزالا للرحمة والغفران. ولا مرء فى قرب ودسول أنباء الانتصار، فقد جاءنى من جلالته كتاب يذكر فيه اعتمازه عقد الصلح متى تم له الفوز فى المعركة المقبلة، وهل انتهى إليك ما تواطأت الراوية به من اعتمازه الاقتران بابنة (حيثسار) ملك الخيتاس؟ ثم حدّد بصره إلى أمينى باسمها وقال: فما رأيك فى هذا الموضوع؟ أجب: رأى أن رعسيس مازال يعتقد أنه غصن الدوحة الفرعونية وخلصه الجنس المصرى، مع أننا لو تقصينا الحقيقة لأيقنا أن ليس فيه من المصرية إلا ما استمدّه من أمه عمته التى لولاها لما خلص له هذا الملك الواسع المصون بوحدته من كل مساس إن شاء الله.

(١) قال نابليون الأول ما يوافق هذا المعنى «إذا حسنت الإدارة فى مصر واستقامت فإن خصب النيل يتناول أراضى الصحراء ويجعلها قابلة للزرع وإذا ساءت الإدارة فيها أو غلت الصحراء فى الأراضى الخصبة حتى تبلغ ضفاف النيل».

قال الوالى: إن يخطأ فى زعمه فقد أصاب فى انتسابه إلى الدم الملكى المستمد من دم إله الشمس. قال أمينى: نعم لقد أصاب.. إلا أن هذا الدم يجرى فى عروقه مشوباً بمختلف العناصر، أما دمك فملكى صريح لا يشوبه شوب. فأشار إليه الوالى أن يصمت، ثم سارّه فى أذنه: صن لسانك واعلم أنا لم تكن فى خلوة. قال أمينى: ليس فى هذا الجمع الحاشد من يفهم مغزاة حديثنا، على أن ما جهر به من الأقوال تداولته ألسنة الأطفال. قال أنى: وماذا يكون المصير إذا اتصل بالملك أنك تحض الناس على المروق من طاعته؟ أجب: إذا اتصل ذلك به فسيعلم أنه مما يخالف أصول السياسة والعدل الافتئات على حق من له وحده النظر فيما إذا كان دمه ملكياً صرفاً مستمداً من إله الشمس أم لا، وإن أعجب فعجب أن يظل رعمسيس فى منصة روع!. قال أنى: أتودّ عدم إطاعة الأوامر، فقد قلت لك إننى عبد الأمر. قال أمينى: كيف لمثلئ أن يخلع الطاعة للملك البلاد والمتصرف فى رقاب العباد؟ غير أنى لا أبت الآن فى أمر قبل انعقاد مجلس الكهان الذى يرجع إليه حق النظر فى مطالب رعمسيس والبت فيها بالرفض أو بالقبول. قال أنى: إن الاستشارة تفضى إلى التأخير فى تعبئة الرجال وإرسالهم إلى ميدان القتال، وأنت عليم بأن الحاجة ماسة إليهم إذ هى الحرب متعطشة للدماء وإرواء ما بها من لهب الظماء. قال أمينى: إذا كان للحرب ملك مقدام، فللصلح غيره ممن يحيون السلام.

أمسك أمينى عن الكلام فوضع أنى محجن الكهنوت كما يضعه أمام تماثيل الآلهة ثم تقدم إلى صدر الغرفة فتبعه الوالى باسماء وقال: أما عندك حديث طريف؟ أجب: بلى، فقد سقطت بنت أنات أمس فى وهدة الخطيئة فأمرت بإقامة الصلاة فى الهياكل وتقريب القرابين لتطهيرها من لوثها. فأطرق الوالى ملياً ثم قال: إذا كان الغد بكرت إلى بيت سيتى وأرى أن تؤجل الصلاة إلى أجل غير مسمى، فوعده أمينى بإجابة طلبه ثم انصرف، وبرح أنى قاعة الجلسات عائداً إلى القصر.

فلما وصل إليه وجد به ملفات تبادر إلى ذهنه أنها تحتوي أخباراً خطيرة فطرحها جانباً وتناول غيرها مما كان يعلم أنه لا أهمية له وأنشأ يتلوه. وكان إلى جانبه عبد يتسلم منه كل ورقة تليت ليلقى بها في أتون نار بينما كان أحد الكتبة يسطر ما يمليه الوالي عليه من المذكرات رداً على ما قرأه. فلما أتى على آخرها صرف الكاتب وتناول رسالة وردت إليه من فرعون عنوانها هكذا «إلى أخى أنى» فأيقن أنه لا صلة لها بأعمال الحكومة بل بشأن خاص فعجل بفض ختامها فإذا فيها ما يأتى:

« بعثت إليك بخط الكتبة طائفة من الرسائل ماسة بشؤون مصر إذ أعربت فيها عن عطفى الدائم على أمتى المصرية، وأفصححت عن رغبتى في إنهاء الحرب قريباً، واليوم أكتب إليك بخطى هذه الرسالة أو أفيك فيها بأسرار ليس لسواك أن يطلع عليها. ولقد تعلم أن روح الألوهية السارية في جسدى طالما حقزت لسانى للنطق بإحدى كلمتى (نعم) أو (لا) تنفيذاً لمشروع أو عدولاً عنه، وموافقة على اقتراح أو رفضاً له. وإذا قد سألتنى الاقتران بابنتى المحبوبة بنت أنات فلن أكون فرعون مصر ان لفتت عليك وكتمتك أنى ما انتهيت من تلاوة كتابك حتى انطلق لسانى بلفظة (لا).

« ولا يرك هذا الأمر وقد وردت دائماً منى على ما تحب ، فإن له سبباً حرياً بالاعتبار. ذلك أنى استطلعت النجوم واستشرت أحشاء الموتى في موافقة هذا القران أو مخالفته فأجمعت الطوالع على رفض طلبك. وقد كان مما يتحرج له صدرى أن أفاجئك بهذا الرفض، وأنت منى بالمكان الأثير بل وأنت الذى يسرى في عروقه من الدم الملكى مثل ما يسرى منه في دمي، بل ما هو أظهر منه وأنقى كما أكده لى صديق ما برج يحذرنى منك ومن الثقة بك لطمعك في عرش الملك.

«وإذا كنت قد خست بعهدى لك فليس لرهبة منك، فلن أكون ابن سيتى إن أثر

الخوف في إرادتى أو ضعضع من همتى. وكل ما في الأمر أن طلبك جعلنى في موقف اضطررنى إلى رعاية ما أبداه لى صديق حميم من حق الولاء، وإلا فمن غيرك أهل لبنت أنات وجدير به الطموح إلى أبعد الغايات، وهل يكون كفوًا لها إلا الطامح لاغتصاب زمام الحكم على مصر والاستيلاء على مايتبعها من الولايات؟ فعليك بالاستيثاق إذن من رضاها فإن مالأتك على طلبك ورضيتك لها بعلا فحبا وكرامة، ولا مناص في هذه الحالة من إقامة الأعراس يوم عودتى من بلاد الخيتاس. ولا يذهب عنى أنك من فتاء السن بما يضمن السعادة لزوجك وأن ابنتى العزيزة ستجد من خبرتك وحكمتك سياجا واقيا. ولك أن تخبرها بموافقتى على رغبتك وإنى لابتهل إلى هاتور أن تفتح لك قلبها وتسلم إليك مقاليدها إن شاءت أن تكون بعلا لها، فإن إرادتها حكم يخضع كلانا له صاغراً».

كان أنى في أثناء مطالعته هذا الكتاب يتردد وجهه ويتبين فيه الضجر والتنكر. وكان يقف تارة ويمشى مسبهلا تارة أخرى أو يستند خائر العزيمة إلى أحد أساطين الغرفة ضاربا في بيداء الفكر والهواجس، فلما جاء على آخره تعبست جبهته وهمّ بالتلاوة مرة أخرى فما كاد يتمها حتى صاح: «هذا دواء مر ممزوج بالعسل فهل خامر لبّ فرعون أننى امرأة؟^(١)» ثم لزم الصمت هنيهة وقال: فهمت الآن كيف يجمع المرء- إذ اتجه إليه أحد بطلب- بين الرفض والقبول وكيف يردده بالخيبة بعبارة ظاهرها إجابة المأمول. يالرعسيس في دهائه وحيلته!... يتعمل مظاهرتى على تحقيق أمنيتى وهو أدرى بأطوار ابنته وأنها كأخواتها في السن لا تود الزواج من مثلى، وقد ناهز الأربعين ولو اقترن من قبل لرزق بمثلها!.. ثم

(١) جاء في قراطيس البردى الطبية المحتوية شرح صناعة الحبوب الطبية أنها كانت تعطى للنساء ممزوجة بالعسل وللرجال كما هى

يكلفنى الخضوع لحكمها بعلة أنه سيعمل بإرادتها، وما هى إلا فتاة غير مسؤولة
عن تصرفاتها!!

خامرت هذه الهواجس أنى زمناً لم يتمالك بعده من أن يطرح على الأرض كتاب
رعمسيس فيلتقطه العبد ويعيده إلى مكانه. ومن أن يلقي كرة معدن في طست فضة
فيتقدم إليه بعض الأعوان ويأمرهم بإحضار القزم نيمو. وكان الوالى- وقد كاد
مقراض اليأس يأكل خيوط أماله- مضطرباً ثائراً على رعمسيس لما يتصنعه من
الرفق به. وهو فى أقاصى الشام. وكان يرى فى سلوكه معه ما ينطبق عليه المثل « إذا
أهداك عدوك وردة فليس لتشم رائحتها بل ليؤذيك شوكتها».

أقبل نيمو خلال ذلك فترامى على قدمى أنى فأمر هذا أعوانه بالانصراف من
حوله، فلما انصرفوا أذن له بالمشول بين يديه وقال له: قضت الضرورة بإلقائك فى
السجن اليوم. قال نيمو: شكراً لمولاي على هذه النعمة فإنه سيمد بها فى عمرى.
فسأل أنى: وكيف يطول بها عمرك؟ أجاب: ذلك لأن ساعات السجن تعادل الأشهر
والسنين. قال أنى: خلك من هذا المجنون والهراء فإنه لا يليق سمعهما إلا بالنساء..
ولولا أن راتوتى هى التى حرضتك على هذه الفعلة لقتلتك شرّ قتلة أو بعثت بك إلى
الليمان حيث تُضرب وتهان. قال نيمو: وكيف ترضى لى بالليمان ويدي الصغيرة لا
تنقل شيئاً أكبر من الفرزان.. ولئن أكن قصير اليدين فلسانى يتجاوز فى الطول
ذراعين، وهو إذا انطلق انساب كالأفعوان أو جرى كالسيل فى الوديان، فتارة يغمر
المزارع الناضرة وطوراً ينكشف عن الأراضى الغامرة. قال أنى: إن سيالك مهما
تدفق بالماء فمن الممكن إحاطته بالجسور وهو بهذه الوسيلة لا يجور. قال نيمو:
مولاي أدرى بأننى لا أتعدى الحد خشية الوقوع فى الضد، وكل ما أتيت من الأعمال
أننى أطاعت الناس على حقيقة الأحوال، وكشفت لهم الستار عن سبب ما عراهم من
الأحزان والأكدار، ووصفت لهم وسائل العلاج ومن هو الطبيب الذى هم إليه فى

أشد الاحتياج. قال أنى: ولكن ما قولك إذا كان هذا الطبيب لم يكلفك بهذه المهمة؟ ومع هذا فقد أحسنت إذ بفعالك على كفاءتك قد برهنت ولأنت من يعول عليه في الأحوال الخطيرة والمهمات الكبيرة فكن حكيماً فطناً ومدبراً لبقاً، واعلم أنى قد احتاج إليك وأعول في بعض شؤونى عليك، فالزم الآن بيت سيدتك حتى استقدمك وسارع إليه في الحال وسلمها هذا الكتاب الوارد برسمها مقروناً بأزكى التحية. قال نيمو: سلام على أنى بن الشمس.. وبعد فهل عندك كتاب آخر لسيدتى نيفرت؟ أجاب: لم يرد كتاب من مينا، ولكن علمت أنه على ما يرام فانهب على عجل وصن لسائك من الخطأ والخلل.

توارى نيمو عن الأنظار ونهض أنى إلى غرفة مُدت له فيها مائدة حوت شهى الطعام ولذيذ المدام. ولكنه لم يتعاط منها لاشتغاله ببنت أنات وما ستتلقى به طلبه من رفض أو قبول. وبعد هيئته أمر بالعبيد فحضروا وأخذوا يسوون شعره ويفرغون عليه ملابسه فلما انتهوا تناول المرأة وتراءى لنفسه فيها ثم ركب عجلته قاصداً إلى بنت أنات. وكان في أثناء سيره يزين له ابليس أنه صار قرين بنت أنات وخليفة رعمسيس .

الفصل العاشر

قلة مال واضطراب بال

كان الناظر إلى قصرى مينا وبعاكر من نقطة متساوية البعد عنهما لا يفرق بينهما في تنضيد بناء ولا في احتفال تنميق. ولكن كان أولهما أقدم عهداً من الثانى وأقل منه حظوة بالعناية والتعهد، إذ كانت نقوشه الجميلة تندثر وأركانه المدعمة تتداعى إلى السقوط وحديقته الغناء يذهب ببهجتها الإهمال بحيث كان يكفى النظر إلى عدم تناسق أشجارها وانطماس مجاري الماء فيها للحكم بأن أصحابها اغفلوا العناية بها لضرورة ماسة من الضرورات.

وكانت الحديقة كلها في هذا الحال من الإهمال على اتساع أرجائها وتباعد أطرافها، اللهم إلا الطريق الموصل إلى مسكن راتوتى ونيفرت فقد كانت تحف به أشجار باسقة ذات ثمار يانعة.

وكانت حجرة راتوتى مؤتنة بأجمل الأثاث وأحسن الرياش ومنمقة بما يبهر الأبصار ويحير الأفكار من عجائب الصناعة ونوادر الاختراع، فمن مناضد الساسم الملتوية القوائم على شكل حلزوني يذكر الناظر بالثعبان في تلويه، وأرائك يعلوها الفراش الوثير من المخمل والاستبرق وأصص أزهار يعبق أريجها في الأرجاء وأكواب للشراب وخزانات قام بتكفيتها على أبداع النقوش أحذق الصناع وصحاف مرمرية يسطع منها شذا السوائل العطرية وطنافس سميكة طرية بثت في كل مكان، وما إلى ذلك كله من بواعث الراحة ووسائل الرفه والنعيم اللذين تصبو إليهما نفس كل إنسان، وإذا كانت ربة البيت قد تعمدت إغفال ترتيب هذا الأثاث

الفاخر على قاعدة التشابه والتناظر فقد زاد هذا الإهمال في حسن الرونق والجمال.
في هذه الحجرة الباهرة الجاذبة بحسنها للناظر كانت نيفرت مضطجعة على
إحدى الأرائك تلاعب بأناملها هرة بيضاء دون أن تنبس شفتها بكلمة، بينما كانت
إحدى الجوارى أمامها تروح لها بمروحة كبيرة لتلطيف الهواء إذ كان اليوم شديد
وقع الشمس محتدم الهاجرة، وكانت والدتها تودع ستخم وبعاكر وكانا قد حضرا
لزيارتها ثم انصرفا.

مضت أربع سنوات لم تطأ قدم بعاكر ووالدته عتبة بيت راتوتى لما كان
مستحكما بينهما وبينها من النفور والجفاء على أثر تزويج نيفرت من مينا. وقد
أبدت ستخم خلال زيارتها ما يدل على زوال الجفاء وحلول المودة والصفاء رعاية
لحرمة القرابة وصلة الرحم، فلما توارى الزائران عن العيان خلف أشجار الرمان
التي كانت أزهارها القانية كالنار المتأججة أقبلت راتوتى على ابنتها وسألتها: أو
يخطر هذا ببالي؟، أو يظن أحد أن يقيم بعاكر على حبك إلى الآن؟ فاحمر وجه نيفرت
حياء وأخذت تضرب الهرة البيضاء بمروحتها ضرباً خفيفاً متداركاً، ثم تنفست
الصعداء وقالت بصوت العاتب: دعيني يا والدتى الآن من هذا الكلام.

كانت راتوتى معتدلة القوام أملود الساقين ريا المعاصم متجانسة الأعضاء.
كانت معروفة في طيبة بجمالها الفتان ومحاسنها الغضة وبالتفنن في التجميل
والتزين والميل إلى التبرح بالأزياء الجديدة حتى كُنَّ في ذلك لا يأخذن إلا عنها ولا
يقلدن غيرها في حسن الشارة وتنسيق الزينة وخلاعة المشية ولطف الحركات.
وكانت يوم زارتها ستخم تحمل مطرفاً مسهما من الخز يزيدا التبخر فيه بقوامها
اللدن رقة ورشاقة. وكانت عاداتها ألا تتكلف في التجميل ولا تتحرى شيئاً من أسباب

التصنع والتعلم إذ كانت لا تهوى التحلى بالعقود والدمالج والجواهر التى تصبو إليها نساء مصر عامة، بل كانت تجد خير معاض عنها فى تنميق الأزهار الطبيعية على جسمها ووضع أكليل ذهب مصفى على رأسها يحيط بغدائرها المنضمة صغيرة واحدة مرسله إلى كتفها بما يدل على قصد الإهمال مبالغة فى التبرج والدلال.

وما كان لراتوتى مال تالد ولا طارف، وما امتلكت أرضاً للزراعة ولا دوراً للسكنى. لهذا وذاك لجأت إلى مينا وعاشت فى بيته مع نيفرت لتدير أملاكه وتتعهد شؤونها بالمراقبة. ولم يكن لها ملاذ-قبل هذا القران- سوى دار أختها ستخم لأنها كانت تزوجت من أخيها (١) وعاشرته زمناً أثلف فيه كل ما أفاضته عليه الأسرة المالكة من الهبات وما ورثه من وافر المال فى شهوات النفس وملاذها، فلما توفى لم تجد ما ترثه عنه فلاذت مع ابنها وابنتها باختها ستخم التى استقبلتها بصدر رحيب ووجه منترق وتنازلت لها عن دارها لتتخذها مثابة لها ولتستغل من إيراداتها ما تنفقه فى بعض شؤونها ثم عهدت بالموهار زوجها القيام بتربية شقيق نيفرت، وكان فتى حلو الطلعة كثير الازدهاء بنفسه ميالا إلى دنايا الأمور وسفاسفها.

وكانت راتوتى لا تشعر بأعباء هذه المنن المترادفة على عواهنها، إذ كانت- بما جبلت عليه من الكبرياء والأنفة والاعتداد بذاتها- تعتقد أن ما تفيضه أختها عليها من المكرمات وتطوق به جيدها من المنن ليس إلا فرضاً محتوماً عليها وواجباً يطلب منها أدائه، بل ديناً تقوم بوفائه نحوها، وأن ليس فى ذلك ما يحط بالقدر أو يذهب بالجاه وحسن الذكر.

(١) كان زواج الأخ شائعا عند قدماء المصريين، وقد نقل البطالسة عنهم هذه العادة التى كان يمجها المقدونيون. ولهذا انتحلوا حينما تزوج بطليموس فيلادلف بشقيقته أرسينوه سببا لهذا الزواج.. وهو اقتران الزهرة بزحل فى الحسابات الفلكية وقتئذ.

وكان مما يخرج صدر راتوتى أن يُسمعها ذو الحجى من معارفها عبارات الحض على وجوب قيامها بتأديب ابنها وتثقيف عقله ليعتمد على نفسه متى نزل في معترك الحياة، لأنها كانت لفرط حبها إياه لا تود أن تسمع فيه لوما ولا عدلا، ولو كان القصد منهما مجرد الإرشاد والنصح. وكانت لا يستولى عليها الحياء إلا إذا ضرب لها زوج اختها الأمثال بالمسرفين السفهاء وحذرها من التبخير وصور لها ما يستتبعه من ذل الفقر، فإنها كانت تمسك عن الكلام أو تتهم أختها بالزهو وحب الفخر وأنها لذلك وحده تكرم مثواها، لا لرعاية حق القرابة أو الحرص على صلة الرحم وأنه أصبح من ثم لا يحق لأحد مطالبتها بأن تقابل بالشكر والثناء صنيعاً مشوباً بالرياء. وقد جاء كفرانها بالنعمة على هذا الوجه مصداقاً لحقيقة ثابتة يتضمنها المثلان السائران «التحدث بالجميل حمل ثقيل» و «لا يقابل صاحب الإحسان إلا بالجود والكران»

وكانت راتوتى لشدة عوزها ترتقب الفرص لتنفذ غبار الفقر عن نفسها، فما أقبل مينا عليها في طلب يد نيفرت حتى أجابته فوراً بالقبول، إذ كان في مسارعته إلى ترجيحه على ابن اختها ما يغنيها عن الاعتماد على أقاربها في سد عوزها ورتق فتوقها ويطابق إرادة رعمسيس الذى كثيراً ما أعرب عن رغبته في إتمام هذا القران.

ولما تم الزفاف أقامت راتوتى مع نيفرت بدارها الجديدة، ولكن لم تمض أيام حتى شب ضرام الحرب بين مصر والشام فرحل مينا في جيش الملك لقتالهم، فتم لراتوتى ما كانت تتمناه من الاستئثار بالرقابة على أملاكه الواسعة وتسديد ديونها الخاصة من إيراداتها والتصرف في الباقي على مشتهاها . وقد ابتسم لها على الجملة ثغر الأمانى وأتت لها تلك النعمة الجزيلة من وراء الآمال، إذ أصبحت وفي

قدرتها بذل جزيل المال فيما تميل إليه من التجميل بالمخمل الموشى والجواهر النفيسة فتستدرك- في بجموحة ما أسنى لها من الرزق وأرغد عليها من العيش - ما فاتها من مظاهر الترف والنعيم في أيام الحرمان إذ كانت عالة على غيرها .

ولم تقتصر على نفسها في الإسراف من أموال مينا، بل أغدقت على ابنها من هذه الخيرات ما استطاع به الظهور أمام الجمهور بمظاهر العظمة فاقتنى المركبات الجميلة والخيول المطهمة ونظم بمساعي والدته في سلك ضباط البطانة الفرعونية. أما نيفرت فلم تدع راتوتى واسطة إلا اتخذتها لإرضائها بقضاء مشتهياتها، فأصبحت من رفعة القدر وسمو المكانة بحيث تناظر في الترف والبذخ أميرات الأقطار الآسيوية.

وكان أنى يقيم في أثناء الحرب بقصر فرعون فأصبح بذلك جاراً لراتوتى فاغتنمت هذه فرصة الجوار لاستدراجه للتردد عليها، حتى انتهى الأمر به إلى الهيام بها واستشعر بضرورة لقائها كلما أمكنته الفرصة. وكثيراً ما كانت هذه المقابلات تفضى إلى محادثات تتحرى راتوتى خلالها استفزازه إلى الطمع في عرش الملك. ولولا أنه كان واقفاً على صلتها بالأسرة المالكة السالفة وأنها حُرمت مثله الحقوق الملكية لما اختلف إليها للأنس بحديثها.

وهى التى حرضته في أحاديثها على خطبة الأميرة بنت أنات دهاء منها ومكرأ، فقد كانت على يقين ثابت أن فرعون سيرفض طلبه فيحنق عليه فتستدرجه بوسائل الإغراء إلى العمل بما ترسه له من الخطط وتضعه من القواعد المطابقة لمآربها والمحقة لآمانها.

وكان نيموآلة مطواعة في يدها يؤدي بالهمة والنشاط والأمانة كل ما توعز به

إليه، مع أنها لم تكاشفه بشيء من أسرارها ولكنه سرعان ما كان يتبين مرادها قبل أن ينطلق لسانها بكلمة أو تندفع يدها بحركة، فكان كمن يقرأ في وجهها ما ينفعل به قلبها من المؤثرات. وكانت عاداتها إذا أرادت معاقبته على أمر أن تضربه بالمروحة ضرباً يكاد يكون لمسا. وقد بدرت منه كلمة اليوم الغابر عاقبته عليها بهذه العقوبة، لأنه قال في خلال حديث له « لو سمي فرعون مصر بأنى بدلا من رعمسيس لأصبحت راتوتى إلهة لا ملكة » فارتاعت لهذه الكلمة ونظرت إليه بعين المستفهم فقال: نعم لأنها حينئذ تكون منه بمنزلة المرشدة المشيرة لا الجارية الأسيرة.

وفي مساء ذلك اليوم لم تنتبه راتوتى إلى ما بدا من الاحمرار في وجه نيفرت بسبب ما سمعته من زمها في بعاكر لأن نظرها كان منصرفاً نحو باب البستان ترتقب عودة نيمو، فلما عيل صبرها قالت: أين نيمو يا ترى؟ لا شك في وصول رسائل إلينا اليوم من معسكر الجيش بالشام. فتنفست نيفرت الصعداء قائلة: لقد مضى زمن طويل ولم يصل كتاب من مينا. ثم تهللت فرحاً وصاحت: ها قد حضر قيم دارنا. فالتفتت راتوتى إليه وقد دخل الحجر من باب عرشت عليه أغصان الأشجار وسألته عما يريد. فأجاب: إن التاجر (عبشا) قد لجّ في طلب ثمن المركبة السورية وأقمشة الخز. فأمرته راتوتى ببيع الغلال وتسديد ما عليها له من المال. فقال: البيع غير جائز ونحن لم ندفع حتى الآن الضرائب المفروضة للهيكل. ثم إننا سلمنا للمتعهدين بتوريد اللوازم من هذه الغلال ما لم يبق بعده إلا ما يفى بمؤونة البيت والبذار. قالت: بع بعض الثيران، وادفع له المطلوب من الأثمان. قال: وكيف العمل وقد بعنا منذ أيام إلى الموهار قطيعاً برمته فلم يبق إلا ما إذا بعناه أصبحنا لا ندرى كيف تدور النواعير والطواحين؟ وهل نسيت يا مولاتى أنه لا بد لنا من

استبقائها للبنها وزبدها وجبنها ولتخذ من روثها ناراً للاصطلاء بها عند الحاجة^(١)؛ فأمسكت راتوتى هنيهة عن الكلام ثم قالت: اذهب إلى هرمونتيس وقل لمباشر جياذ مينا أن يبعث إلينا بعشرة منها. قال: لقد كلمته في هذا الأمر فأكد لي أن مينا حذره من التفريط في جواد واحد من جياذه إلا ما يلزم لجر مركبة نيفرت. قالت راتوتى: يجب أن تطيعوا أمرى وهأنذه منتظرة وصول الجياذ غداً. قال: إن مباشر الجياذ رجل عنيد. فقاطعتة قائلة: فليعلم هو ولتعلم أنت أنني صاحبة الأمر والنهى في هذه الدار، فعليك بإحضار الجياذ هنا بالرغم من أوامر مينا. وكانت نيفرت قد وقفت لئلا هذه المناقشة على قدميها، فلما سمعت الكلمات الأخيرة من حديث والدتها قالت: كلا، بل يجب أن تكون أوامر زوجى هى التى يتحتم تنفيذها، وإذن فلا يبرح جواد واحد مربطه. وإذا كنتم في حاجة إلى مال تسدون به ديونكم فهاكم الدمالج التى أهدانيها الملك أنزعها من معصمى لتنفقوها في هذا السبيل أو في غيره، وإن تكن قيمتها تعدل عشرين جواداً، وإذا فرطت فيها فلن أفرط في جواد واحد لزوجى. فتناول القيم الدمالج وأخذ يجيل فيها نظره فاحصاً ناقداً فإذا بها مرصعة بالأحجار الكريمة والجواهر النادرة. ثم أرسل إلى راتوتى نظرة المستفهم فهزت كتفها إشارة الرضى المصحوب بعدم الاكتراث وقالت: فليبقها عبثاً عنده حتى تصل إلينا حصة مينا في الغنائم التى نرجو وصولها قريباً فنوفيه كل حقه. ثم تحولت نحو ابنتها وقالت: لقد مضى عام يا عزيزتى لم يرسل مينا إلينا في خلاله شيئاً يذكر. وانصرف القيم بعد ذلك، فطرحت نيفرت نفسها على فراشها كما كانت وقالت بصوت خافت: لقد كنت أعتقد أننا في غنى ويسر. قالت راتوتى: كان في

(١) كانت مصر كما لاتزال إلى اليوم محرومة من الغابات ، ولذا كان قدماء المصريين يتخذون نارهم من روث المواشى بعد تجفيفها كما يفعل الفلاحون الآن.

الوسع أن نصل إلى درجة لا تسامى من الثروة وسعة العيش، إلا أنه لما جرى في عروقنا من الدم الملكي أصبحنا تجاه واجبات ينبغي أدائها. ولا يذهب عنك أن الأنظار متجهة إليك من أقاصى التخوم لأنك زوج بطل الأبطال في الجيش. فلا يسمعن أحد أنه أهمل شأنك أو لم يتعهدك بما يحفظ مكانتك في نظر الجمهور.. يالله. لم غاب نيمو حتى الآن؟ قالت نيفرت: إنى أسمع وقع أقدام في صحن الدار فلعل الوالى حضر لزيارتنا. فصوبت راتوتى نظرها إلى البستان فإذا بخادم مقبلا نحوهما، فلما داناهاما أنبأهما بوصول بنت أنات في موكبها الفخم ودخولها من باب الدار مع شقيقها راميرى.

فتركت نيفرت مضجعا مسارعة هي ووالدتها إلى لقاء الأميرة وأخيها. وما كادت تلمحها حتى دنت من بنت أنات وحاولت لثم ثوبها إجلالا لمقامها فتنحت الأميرة وقالت باسمه: حذار يا نيفرت أن يسرى الدنس منى إليك، فإن الكهنة لم يطهرونى بعد. قال الأمير راميرى: أنت طاهرة رغم أنوفهم ونقية كعين رع.

كان الأمير فتى يعدّ من العمر سبعة عشر عاما، كان من طلبة هيكل سيتى وأوشك أن يتم دروسه ويتخرج. فقالت شقيقته هازلة وصارفة كلامها إلى نيفرت وراتوتى: سابلغ الكاهن الأعظم خبر هروب هذا البرذون الذى أبى إلا مرافقتى هنا.. ولست أستطيع بيان حبه لقريتك يا نيفرت، فإنه يعتبره فريد العصر في الشجاعة وآية مصر في فنون الحرب، وهو الذى ألحّ علىّ في زيارتك، والحمد لله أننا جئنا نحمل إليك أخبار اليمن والخير. فخفق قلب نيفرت خفقانا شديداً وضعت يدها بسببه على قلبها سائلة: وهل هذه الأخبار عن ميناء؟ أجابت: نعم يا صديقتى فإن والدى الملك بعث إلينا برسالة يخصه فيها بالمدح والثناء ويصف ما أبداه من ضروب البسالة

وأساليب النكاية بالأعداء. ولقد ذكر أنه سيخايره فيما يريد أخذه من غنائم العدو
وأسلابه.

فنظرت نيفرت إلى والدتها وقد تهلل وجهها بشراً وأشرق بهجة وسروراً. أما
راتوتى فتنفست تنفس المكروب الذى انفرجت غمته وانفك عنه العناء ولاحظت بنت
أناث منهما ذلك فربتت بكفها خد نيفرت، تلتفهاً بها وعطفاً عليها. ثم خلت براتوتى
وتمشت معها حتى وصلتا إلى الحديقة، وكان مما قالتها لها إنها تحترمها احترامها
لوالدتها، وأنها لذلك جاءت تستمد رأيها فى أمر خطير طالبة منها تحرى الصدق
والإخلاص فى نصحتها. ثم سارتها بما اعتزمه الوالى من خطبتها، إذ قالت: لقد
أخبرنى الملك والدى بأن الوالى طامح للتزوج منى وأنه يشير على بالقبول مكافأة له
على صدقه وأمانته للعرش، وإنما أحب أن أنبهك إلى أن إشارته لم تكن حكماً لأنه
خيرنى بين الرفض والقبول. سألت راتوتى: وماذا رأيت؟ أجابت بنت أناث: رأيت
أنه لا مناص لى من رفض طلبه. سألت: وكيف ذلك؟ أجابت: نعم لا بد من الرفض،
وهو السبيل الوحيد الذى ليس فى قدرة مخلوق أن يلزمنى الحديد عنه. قالت راتوتى:
حيث إنك كنت مصرّة على الرفض وتقولين الآن إنه ليس لأحد أن يلزمك الحديد عنه
فأنت فى غنى عن نصيحة مثل. قالت بنت أناث: إن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون
إلزامى القبول ولئن جئت اليوم لاستطلاع رأيك فما هو إلا لعلمى بأنك صديقة أنى
وأن فى قدرتك انباهه بإشارة خفية إلى ضرورة رجوعه عن عزمه ليكفى نفسه
مؤونة الرفض الصريح فى وجهه، وهو رجل جدير بالاحترام والاجلال، وأود بعد
هذا الا يعلم ما دار بيننا من الحديث لكيلا يتبين له منى - إذا التقينا فى يوم من
الايام - ما يدل على معرفتى بما بذله من السعى للاقتران بى. فأطرقت راتوتى
رأسها ثم قالت: نعم، إن الوالى يختلف إلينا من أن إلى أن ويتجاذب معنا أطراف

الحديث ولكننى لست أدرى إن كنت أستطيع مفاتحته في مثل هذا الأمر الخطير. سألت بنت أنات باسمه: ألم تكن مسائل الزواج من اختصاص السيدات؟ أجابت راتوتى: نعم، ولكن زواج الاميرة من المسائل المرتبطة بأعمال الحكومة، ومع هذا فلا بد لي من أن أطلعك على حقيقة أنى.. إن الرجل رفيع القدر ملحوظ المنزلة.. فإذا ارتضيت به بعلا فسوف ترين منه المبادرة إلى إجابة مطالبك والخضوع لرغائبك والعمل بما ترسمين له.

ثار في بنت أنات ناثر الأنفة والكبرياء إذ سمعت هذا الكلام وقالت بصوت جهير: أتظنين يا راتوتى أنه مما يليق بكرامتى التماس السعادة الزوجية في رجل سهل القيادة لين العريكة مطواع لأمرى، رعاية لمكانة والدتى أو والدى من كرم المحتد وبسطة الملك ومطلق التصرف في هذه البلاد؟ كلا.. إننى أربأ بنفسى عن هذه الدنيا، ولقد تبينت من كلامك أنك مازلت جاهلة حقيقة أمرى مع أنك تعلمين أن الخدم والحشم والضباط يتسابقون إلى تلبية ندائى وتنفيذ أمرى، وأننى لا أمرّ بطريق حتى يتزاحم الناس للركوع أمامى إجلالا لمقامى، بل إن منهم من يفتخر بلثم قدمى.. ولقد قابلت بالرفض الصريح طلب عشرين ذاتاً كانوا يصبون إلى الاقتران بى.. وما كان الرفض لأننى كنت أخشى أن يحط الزواج من مكانتى أو يذهب بشيء من مهابتى وكرامتى، بل لأننى كنت أحس بسمو مقامى عليهم. إن ما أصبو إليه أن يكون بعلى أسمى منى همة وأمضى عزيمة وأقوى إرادة وأن أكون له تابعة ولقدمى في مواطن قدمه واضعة، وأن ألس بيدي عجزى عن مداناته في المواهب الفطرية التى خص الله بها من قضت حكمته بأن تكون له القوامة على الزوجة.

كانت راتوتى تسمع هذا الحديث وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة

الاستخفاف، فما انتهت منه بنت أنات حتى قالت لها: إذا صح أن الله قد خلق في العصور الخالية بعلا توافرت فيه هذه الصفات الفاضلة فلا أخالك تعثرين عليه، مهما يكن بحثك الآن عن بعل مثله، وإذا كنت لاتزالين مصرة على موالاة البحث عن هذا البعل الذى بترأى لك فى الخيال فتقى بأن شعورك ستبقى مضفورة (١) حتى تشيب ناصيتك ويبيض فؤداك.. ثم أطرقت قليلا وقالت: ها قد حضر أخوك مع نيفرت. فسألتها: أفتتعهدين ببذل ما فى طاقتك لحمل أنى على العدول عن نيته؟ أجابت: إننى قيد أمرك. وحدقت بنظرها فى الأميرة وقالت: كان أمينى رئيس بيت سيتى- وهو فى نضرة شبابه- كالرجل الذى تصفينه. ثم التقت إلى راميرى قائلة: أما أنت يا ابن رعمسيس .. أنت الذى ينمو بين الأشجار التى ستتفياً البلاد بظلمها يوماً ما خبرنى أى أصدقائك يفوقهم شرف خصال وحدة نكاه وشدة عارضة وثبات عزم؟ أجاب: نحن كافة كأسنان المشط فى هذه الفضائل. قالت: لم تصب بإجابتك المرمى.. إننى أسألك أتعرف ببيت سيتى شاباً امتاز على الطلبة والأسانذة بحدة الفهم والنبوغ فى العلم بحيث يشبه سنورو (٢) أو تحتمس أو أمينى؟ أجاب: كيف لا أعرف؟ سألته: ومن هو؟ أجاب: إنما هو الشاعر بنطاؤر.

لم يستأذن هذا الاسم على سمع بنت أنات حتى احمر وجهها حياء واستشعرت بقلبها يخفق خفقاناً شديداً بينما كان أخوها يتابع حديثه مع راتوتى قائلاً: لقد فاق هذا الشاعر سائر الأقران برجاحة العقل ورقة العاطفة وشرف النفس، فإذا تكلم خُيل لسامعه أنه ينطق بلسان الآلهة ويعرب عما فى ضميرهم. وكنا قبل التلقى عليه يأخذنا النعاس أثناء الدرس، بخلافنا وقد تتلمذنا له فإننا فى كل يوم يسحرنا ببيانه

(١) كان من عادة الإبار وقتئذ ضفر شعورهن إلى أن يتزوجن.

(٢) سنورو مؤسس الأسرة المالكة وكان مشهوراً بالفضائل والصفات العالية.

ويخلب عقولنا بفصاحة لسانه، ولعلك رأيته رأى العين يا بنت أنات، فقد كان معك في بيت بينم المحنط وملازماً لك في فناء الهيكل حينما أعلن الكاهن الأعظم أميني تلوثك بالدنس، ولاحظت ما لوجهه المشرق من الشبه بمحاسن وجه (موت) إله الحرب، وهو جمال إذا استطلعته الأنظار انطبع في القلوب. ولقد سحرنا أمس، عقب رحيلك من الهيكل بسحر بيانه وملك أفئدتنا بفصاحة لسانه، وأضرم فينا نار الشوق إلى استجلاء الحقائق الدينية وأفادنا من زاخر علمه بما يستهان في سبيله كل تليد وطارف. ومازلت حتى الساعة أحس بتلك النار المقدسة تنبث في جوارحي وتلتهب بين جوانحي.. ولقد آسفنا فراقه صبيحة هذا اليوم إذ قرر أميني نفيه من الهيكل دون أن يسوغ هذا القرار بسبب، إلا أننا وقفنا على الحقيقة لأن لنا أعيناً ترى وأذاناً تسمع.. السبب أنه لم يعاملك بالشدة والعنف بل أطاع أمرك وعاملك باللطف.. ولما كان بعده عنا خسارة لا تعوض علينا فقد اتفقنا على المطالبة بإعادته، ونعتقد أن طلبنا لن يقابل بالرفض فقد وقع اختيارنا على أننا التلميذ الأول لتحرير الاحتجاج الذي سنوقعه جميعاً بامضاءاتنا. وإن كنا نخشى أن تنزل صواعق غضبه بمن يجازف برفع الاحتجاج إليه فقد عقدنا النية على تقديمها معاً لنتحمل جميعاً عاقبة عملتنا، فإذا ألفينا مصرًا على اقصائه إلى شاسع الأقطار. فلا بد لنا من الشكوى إلى آبائنا ولست أرى أن أميني يمتنع عن إجابة مطالبهم ما دامت تتعلق بمستقبل أبنائهم.

قالت راتوتى: هذه حركة عصيان صادرة عن نزق الشبان، حذار يا بنى من أميني وأعوانه، فإنهم لا يحبون المزاح والمهازلة ولا يحتملون البحث والمجادلة. قال راميرى ضاحكاً: ونحن أيضاً نحب الاستقامة والجِد، وعندى أنه إذا أصر على إبعاد بنطاؤر فلا بد لي من ترك بيت سیتی لاتمام دراستی فی عین شمس، وإنی لوائق أن

جميع رفاقي سيحذون حذوي ويقتدون بي.. والآن هلمى معى يا بنت أنات فلا بد
لى من العودة إلى الصومعة قبل مغيب الشمس، أما أنت يا راتوتى فاعذرينى ولا
تعذرينى إذا قلت الصومعة، فقد اعتدنا - نحن معشر الطلبة- أن نطلق هذا الاسم
على المدرسة. ثم التفت إلى الباب وقال: ها قد جاء القزم نيمو.

استأذن راميرى وبنت أنات من راتوتى بالانصراف، فخرجتا من باب البستان
وما ابتعدتا عنه قليلا حتى صافحت الأميرة أخاها بشغف وقالت: إن طلبكم من
أمينى حق صراح، فاعملوا بجدّ على تحصيله واتركوا المزاح.

الفصل الحادى عشر

يحتاج الإنسان إلى أصغر منه في غالب الأحيان

ما ابتعدت بنت أنات قليلا عن بيت مينا، حتى دخل نيمو في البستان يحمل كتاباً مختوماً، فلما مثل أمام راتوتى ونيفرت قدمه إليهما ثم قصّ عليهما حوادث اليوم الماضى بلهجة لم يسعهما معها إلا الإغراب في الضحك. غير أن راتوتى تصنعت الجدّ فأخذت تعيب عليه تصرفه وتنحى باللوم عليه ولكنها لم تلبث أن اطنبت في مدحه لما يبيديه من الحذق والذكاء، وأمعنت النظر في الكتاب فقالت بصوت خافت: لعل في هذا الكتاب بشرى تنشرح لها الصدور! قالت نيفرت: فضى ختامه فعسى أن أرى فيه شيئاً عنه (أى مينا). ففضت راتوتى ختامه ومرت به مرأً سريعاً. وما جاءت على آخره حتى طفقت تساهيها وتداعبها قائلة: الراجح عندى أن أخاك كتب إلى مينا لأنى لا أجد هنا كلمة بخطه.

فتأملت نيفرت في الكتاب لا لتقرأه بل لتستوضح فيه خط مينا. وكانت كغيرها من نساء مصر في ذلك العصر تلم بالقراءة والكتابة، وكان يلذ لها أن ترى خطه المتموج الأسطر لأنه كان على نقيض خطها الجميل الواضح الحروف المستقيم الأسطر، فلما لم تر لخط زوجها أثراً فيه انسكبت عبراتها حتى أثرت في جلباب خدها. وقالت بصوت متهدج: حيث إن الكتاب خالٍ مما يتعلق بى، فلا حاجة لى بوجودى في هذا المكان. فرضتها راتوتى وهدأت خاطرها بقولها: أما سمعت ما كتبه أخوك؟ فهزت نيفرت كتفيها كمن ينفذ عن كاهله حملاً ثقيلاً ثم برحت المكان دون أن تنبس شفتاها بكلمة.

قلنا إن راتوتى كانت تتقلب فى نعم صهرها مينا وتمرح فى خيراته، وكانت مع هذا لا تميل إليه بل تخصص بميلها وإيثارها ولدها الذى اشتهر بين رففته بالنزق والخفة وتوافرت فيه خصال والده من العكوف على مجالسة النساء ومداعبتهن، والنزوع إلى المظاهر الباطلة. وقد كتب هذا الكتاب إلى والدته يستحثها فيه على إقراضه مبلغاً باهظاً من أموال مينا التى تتصرف فيها على ما تشتهى. وكانت عادته -إذا حرر كتاباً- الإقلال بالاعتصار على بضعة أسطر لعجزه عن الإسهاب فى التسطير وقلة بضاعته فى التحرير، ولكنه استرسل فى كتابه هذه المرة لأن الموضوع كان مما يستدعى الرلحاح والإسهاب وكانت كلما فكّت طلاس مخطه وحلت أغاز عبارته وانتقلت من سطر إلى سطر امتقع لونها وانقبض صدرها فطرحت ورقة البردى جانباً وسترت وجهها بكفيها. وقد ظلت فى هذا الاضطراب النفسى بينما كان نيمو جالساً القرفصاء أمامها يرشقها بنظراته وينتقد حركاتها ويتابع إشاراتها. وقد بدا على وجهه ما خامر نفسه من الدهشة حينما رأى من سيدته مالم يألفه منها قبلاً، وشهداها- وقد وردت على آخر الرسالة- تثب من موضعها وثبة ارتاع لها قلبه، وتصرخ صراخاً استطار منه لبه وتتطامن بجبهتها بعد ذلك إلى جذع نخلة قريبة ملازمة الصمت والسكون العميقين. تجاه هذا المنظر الرهيب، لم يسع نيمو إلا أن يدنو منها قليلاً قليلاً وأن يكب بوجهه على قدميها يغمرها بالقبل سائلاً: مولاتى! مولاتى! ما الذى نزل بك، وأى سوء أصابك؟ فحاولت راتوتى أن تصلح من قواها الخائرة وتجمع من عزيمتها التى بددها ذلك الجزع الشديد وودت أن لو تجاوبه، لولا أن شفيتها اللتين بدلتا من لونهما العقيقى لوناً أصفراً لم تطاوعاها إذ ظلتا متلاصقتين متلاصقتين. وكل ما انبعث منها من آيات الحياة ودلائلها أن صعّدت فى السماء عينيها ثم ارتجفت أعضاؤها رجفة المحموم. ولما أن يش نيمو من سماع

الجواب على سؤاله وهى بهذه الحال أعاد كرة السؤال بصوت جهير: مولاتى!
مولاتى! ما الذى نزل بك وأى سوء أصابك.. وهل تأذنين لى بأن أنطلق فى طلب
نيفرت؟ فأشارت إليه ألا يفعل ثم تلعثم لسانها بهاتين الكلمتين: السفلة!..
الأوغاد!..

وترادفت أنفاسها بسرعة غريبة عقب نطقها بهاتين الكلمتين واحمر لون
وجنتيها وعينيها وعمدت إلى ورقة البردى المتضمنة رسالة ابنها فداستها بقدميها،
ثم أخذت الدموع تفيض من عينيها وتنحدر على خديها وعراها من الجزع ما
ضاعف ارتياح نيمو وهلعه لاسيما وأنه لم ير سيدته من قبل فى مثل ما غشيها من
الخواطر الرديئة وتمكن منها من المشقة والعناء. وقد كادت تقف ضربات قلبه من
الخوف عليها حتى طوّح به إلى اعتقاد أنها أشرفت على الموت. فما وسعه إلا أن صاح
مراراً: واسيدته!.. واراتوتيتها!.. أجابته عندئذ بصوت متهدج وقد لاحت على
ثغرها تباشير الابتسام: ويك لم تنادينى بهذا الصوت المزعج وتنتطق باسمى الذى
تدنس بالعار والشنار؟.. لقد قضينا النهار فى سرور وابتهاج فما أقبل المساء حتى
قضت ساعة نحس منه بأن يختم بالغموم والأتراح. وقد جاء فى الأمثال أن الواجب
على المرء إفشاء الفرح وكتم الترح، وهو خطأ صوابه عكسه إذ الواجب كتمان
السرور عن البشر والآلهة معاً لأنهم جميعاً من الحسدة الأشرار! قال نيمو: سمعت
منك الآن كلمة (العار) ولم أسمع كلمة (الموت)، وفيما تلقنت من مبادئك وتلقيت من
تعاليمك أنه لا يأس مع الحياة والقدرة على مجالدة الحوادث ومنازلة الأقدار.
فارتاحت راتوتى لسماع هذه الموعدة التى قوّت عزميتها وبدّلت من يأسها رجاء.
ثم قالت لنيمو: عهدتك حازقاً لبقاً أميناً.. فهل لك أن ترشدنى إلى طريق الصواب
والسلامة وأن تجعل ما بيننا سرّاً لا تبوح به لأحد ولو كان الإله آمون؟ فحذق نيمو

فيها ببصره وقال: أنا ما زلت على ما تعهدين في من الإخلاص في النصح والحرص على السر. قالت: حسناً.. وإلا فلا نلبث أن نسمع الصبية في الطرقات يتحدثون بما حل بنا من النكبات، وإذا درى الناس بمضمون الكتاب فلن يجوز إيقاف نيفرت على شيء منه. ثم نظرت في اتجاه الباب وقالت: أسمع وقع أقدام زائر لعله الوالى أنى.. فعليك يا نيمو بمقابلته والاعتذار لى عنده بمرض الزمنى الفراش وحرمنى لقاء الزائرين، وحذرّ الخدم من الإذن لأحد بالدخول على.

خرج نيمو لتنفيذ هذا الأمر ثم عاد فألقى سيدته في قلق شديد، فلما نظرتة قالت له: اصغ يا نيمو لما أنكره لك من الحوادث المحزنة. سأبدأ بأخفها وقعاً على النفس ثم أتدرج إلى ما ترتعد منه الفرائص وتنقبض له القلوب.. لقد أغدق الملك رعمسيس على مينا الصلات وأجزل له العطايا والهبات، إذ جعل لكل قائد من قواد الجيش سهماً معلوماً ونصيياً محدوداً. ولكنه استثناه فترك له الخيار في أخذ ما تطمح نفسه إليه منها إيثاراً له عليهم.. فقاطعها نيمو قائلًا: هذه علامات خير وبشائر بركة ويمن، فلم إذن هذا الحزن؟ قالت: حقاً إن الخبر في ذاته لمن دلائل اليمن والإقبال إلا أن مينا لم يفكر في زوجته ولم يتفضل عليها بسؤال، بل إنه تنحى عن حصته في الغنائم مقابل استثنائه بفتاة جميلة هي بنت ملك الدنائم.. اختارها مينا جزاء له على بسالته في الميدان وسار بها معجباً إلى الصيوان. قال نيمو متلعثماً: لاريب عندي في أن هذا الامر الشائن يثير الأحقاد ويوقظ الضغائن. قالت راتوتى: إن نيفرت سيئة الحظ بلا مرء، إذ كان هذا جزاء ما أظهرته من الولاء. سال نيمو بصوت الاكتئاب والحزن: وأين بقية الحديث؟ أجابت: لقد كنت أود السكوت عليها ولكن لا مندوحة لى عن الكلام.. أنت تعلم أن ابني مع طيشه وسوء تدبيره وقصر نظره في مصائر الأمور يحبنى ويحب أخته حباً جمًّا.. وقد بدر منى لحظى العائر

أننى حادثته فيما نحن فيه من شدة العوز إلى المال، لا أقصد - علمت الالهة-سوى
حضه على الاقتصاد والتقتير خوفاً من وخامة العاقبة وسوء المصير. وكانت الأنباء
قد نقلت إلينا ما ارتكبه مينا من تلك الجريمة ، فلما رأى منه ابنى صده وانصرافه
عنا أحب إسعافنا بما يخلصنا من مخالف الحاجة، وكانت حصته من الغنائم لا تقي
وحدها بقضاء حاجاتنا فلاعب أصحابه عليها أملاً في كسب مبلغ طائل من المال
نسد به ديوننا فخرها جميعاً وها هو قد عاد إلينا خاوي الوفاض، ثم عاوده
الأمل في الربح إذا هو استأنف اللعب فلاعبهم على مبلغ جسيم، كلا.. بل على شيء
ثمين كان يبتغى به تفريج ضائقتنا وسد عوزنا.. وهل تدرى أى شيء هو يا نيمو؟
تابوت أبيه ويا للحسرة!^(١) فكانت صفقته فيه خاسرة مثلها في الغنيمة.. وقد عاد
إلينا كسير خاطر كاسف البال احتواه اليأس وسدّت في وجهه المسالك، وغير خاف
عليك أن من أصول المقامرة إذا لم يدفع المقامر ما خسره بعد انقضاء ثلاثة أشهر
صار عرضة للتعزير والتشهير، لأنه مضطر بحكم هذه الأصول إلى نبش القبر
واستخراج التابوت وتسليمه إلى الرابح، فنعيش ما بقى من حياتنا موصومين
بوصمة عار لا تمحى.

وما أتمت راتوتى هذه الكلمات حتى انسكبت من مآقيها العبرات، فقال نيمو:
وكيف يرضى ابنك لنفسه أن يكون مقامراً ومزوراً؟ إن في هذا الأمر ما يوجب
الأحزان ويضاعف الأشجان. ولكن لا تياسى .. فما مقدار ما عليك من المال؟ أجابت
(١) ذكر المؤرخ هيرودت أن أزشين أحد ملوك الأسرة الرابعة كان أول من أذن برهن توابيت
الأجداد وجعلها الضمانة القصوى لدفع الحقوق فمن لم يوف ديونه بعد هذا الرهن كان نصيبه
عقب موته الحرمان من الدفن في القبور فتلقى جثته إلى بنات آوى نهشها وتناولت هذه العقوبة
أحفاده.

ثلاثون تالاناً بابلياً^(١) فارتاع نيمو وصاح: ومن ذا الذى يجازف بهذا القدر من المال فى مقابل رهن لقيمة له؟ أجابت: هو (أوتيف) بن السيدة (هاتور) وقد خسر بمدينة طيبة فى ليلة واحدة كل ما تركه له أبوه من المال. قال: إن مثله لايهم ولاشك حقاله على الغير ولو كان حبة قمح.. ثم أين أنت من مينا؟ أجابت: لا أظنه بعد ما أتاه من الأعمال يبتز من أوتيف شيئاً من المال. ولقد نصحنى ولدى أن استنجد بالوالى فى هذه الأزمة والملمة المدلهمة. قال بعد أن هز كتفيه: الرجوع إلى الوالى فى هذه الأحوال جهل بحسن التدبير وقصور عن النظر فى مصائر الأمور. قالت: نعم إنى أعرف أحواله الداخلية ولكن ألا ترى أن شهرته ومركزه.. فقاطعها قائلاً: سيدتى لا تضحى المستقبل بالحال ولا تعللى النفس بسراب الآمال، نعم يحق لك أن تلتسى منه المعونة والإسعاف اعتماداً على قيامك بتدليل ما يحول من المصاعب بينه وبين بلوغ المرام من استلام زمام الأحكام، وإنما أخشى أن تفقدى دالك عليه ونفوذك عنده متى استشف من سعيك التعويل عليه فى استرداد ثروتك، وأنت أدرى الناس بثروته وأنه منغمس فى الديون لناصيته. قالت: أعلم ذلك جيداً. قال: لاغربة إذا علمت فداحة ديونه فإنه لم يصرفها إلا فى سبيل استرضائك وقضاء شهواتك وأهوائك. ولعلك لا تنسين الحفلات الباهرة التى كلفته من الأموال مالاً يطاق الاحتمال، والمبالغ التى أتحف بها كهنة منفيس بصفته حارس العجل أبيس^(٢) والهدايا الفاخرة التى أتحف بها قواد الجيوش المصرية الظافرة، فى بلاد الحبشان

(١) يوازى التلان البابلى ٢٢٥ جنيهاً تقريباً.

(٢) لما مات العجل أبيس فى عهد بطليموس سوطر الأول المنطقى صرف الحارس المكلف بحراسته على تشييع جنازته جميع المبالغ المخصصة لهذا الغرض واقترض من الملك عليها ٥٠ تالاناً (أى ١١٢٥٠ جنيهاً تقريباً)، وقال ديودورس الصقلى إن حراس أبيس كانوا ينفقون على تشييع جنازة هذا العجل نحو ١٠٠ تالان أى ٢٢٥٠٠ جنيهاً.

وكم وكم غير ذلك مما لا يعيه الجنان.. إن صادق الرأي عندي ألا تعتمدى على الوالى فى قضاء حاجتك. وكفى الرجل ما فيه من الضيق وخلو الكف والعجز عن إجابة مطالب العيون التى بعثها إلى معية الملك وبتها فى كل مكان لتنتقل له الأخبار، وهو ما أدى به أخيراً إلى اقتراض ما يلزمه من المال من خزائن الأقاليم.. فانتظرى حتى يقبض على صولجان الملك لتطلبى منه ما تحبين وهو يبادر إلى إجابة مطالبك وتحقيق رغباتك.

أخذ بصر راتوتى ينهب وجه نيمو لما أدهشها من نجابته إذ قالت له: أراك خبرت الناس واستنبطت حقيقة أحوالهم. قال: نعم، ولخبرتى بهم رجوت منك ألا تواجهيه فى طلب مال والإساءة بك المآل.. ثم لا بد لك من التروي فى أمر ولدك وما ينبغى من السعى لرد شرفه إليه. قالت: وشرف زوجى! وشرفى! أه لو علمت بما ملأ قلبى من الأحزان والآلام! الشرف كلمة يعرفها الأرقاء بمبناها دون معناها ويدرك الأحرار ما انطوت عليه من الأسرار.. أنتم معشر الأرقاء إن ضربكم أحد ضرباً مبرحاً فإنما يكفيكم تضميد جروحكم ومعاناة آلامها.. أما نحن فإن رفع السبابة نحونا قصد التشهير بنا يعمل فى قلوبنا ما لاتعمل السهام المسمومة النصال.. أيها الآلهة المخلدون! من ينتشلى من الهاوية التى فى دركها تنكست.. من يقذنى من بلائى وإخفاقى فى رجائى!

ثم سترت وجهها بكفيها فنظر نيمو بعين العطف إليها وقال: أتذكرين -سيدتى- حجر الماس الذى سقط يوماً من خاتم نيفرت وكم قضينا من الزمن فى البحث عنه حتى يثسنا من وجوده، وكيف أنى فى اليوم التالى بينما كنت أمشى صدمت قدمائى جسماً صلباً فالتفت إليه فإذا به ذلك الحجر الكريم؟.. إذا كان ما لا تهتدى العين إليه قد وجدته القدم أفتستبعدين على نيمو- وهو أحقر عبيدك وأجهلهم بمعنى كلمة

الشرف- أن توفقه محاسن الصدف لحيلة ربما غابت عن خاطر سيدته الواسعة العقل الشريفة ،الأصل؟.. قالت: ماذا جرى لك.. هل خولط في عقلك؟ أجاب: عقل والحمد للآلهة في سلامة واستقامة، وما بلغنى من زيارة أختك لك ومصالحتها إياك.. أصحيح هو؟ أجابت: جاءت لتصافحني ورضيت عنها. قال: وأي مانع من أن تسألها حاجتك.. إنها وقد صافحتك لن تتأخر عن إسعافك بالمال، لأن العدوأة إذا خدمت نارها كالجرح إذا اندمل لا يبد في لمسه من الحذر والاحتراس حتى لا يفتح فيسيل منه الدم، ولا تستكبرى السؤال في مثل هذه الأحوال، فإنك إنما تسألين أختاً يههما أمرك ويعنيها شأنك. قالت: ولكن ثروتها ليست واسعة إلى حد تستطيع معه مساعدتي بما يقنعني.. وجميع ما في بستانها ملك لأبنائها. سألها: وهل حضر معها بعاكر هنا؟ أجابت: نعم ولكن بالاحاح من والدته لأنه كما تعرف يكمن الحقد لمينا. قال: وما رأيك إذا دعتة نيفرت إلى الحضور؟

ما سمعت ر:توتى هذا الطلب حتى كاد إهابها يتمزق من الغيظ ونهضت واقفة وقد تبادر إليها أنها أخطأت بالاسترسال في مكاشفة تابعها بأسرارها، فلم يسعه عندئذ إلا أن تناول ذيل ثوبها بالقبلات مستعطفاً وقال معتذراً: أتريد سيدتي أن أطرح أسرار هذه المحادثة في زاوية النسيان أو أعمل الفكر في انتشال ابنها من هاوية الخسران؟ فترددت راتوتى ثم قالت: دعنى الآن وشأني فليست أود استشارتك في أمر مادامت الآلهة ستلهمنى الصواب فيما أنا إليه منصرفة. سأل: وهل سيدتي في حاجة إلى خدمتي غداً؟ أجابت: إننى في غنى عنك. قال: إذن تأذنين لى بالتوجه إلى المقبرة لتقديم الزربان. قالت: لك ذلك إن أردته. ثم دخلت المنزل وبيدها الكتاب الذى صبّ عليها الهموم والأوصاب. وظل نيمو في مكانه نهباً للهواجس ثم أخذ يناجى نفسه: «هم يخشون العار والمقت ويتمنون بسببهما الموت، ولكن ما هذا الشرف

الذى لا كتة ألسنتهم ومضغته أفواهم ولم يولد أحد متحليا بوشاحه؟.. إن الناس
طرأ يدرجون بعد مماتهم فى الأكفان وكانوا من الشرف مع هذا فى حرمان.. وغاية
الأمر عندى أن الأغنياء من نوى البطالة والجهالة ينتحلون الشرف ويتخذونه على
أنفسهم دلالة، وهم فى هذا الادعاء كالحبشان الذين يطلقون رؤوسهم بشحم
الضان، فتقلب سحتهم وتتغير هيئتهم، ثم هم بهذه العادة يفخرون وعنها
لا يعدلون، وأفضل عندهم أن تقطع منهم الأذان من أن يتركوا هذا الدهان ، وعلى أى
حال فلا بد من استشارة والدتى فى كل أمر ندى شأن، فإنها أكثر خبرة من الكهان».

الفصل الثانى عشر

استشارة الساحرة الغادرة الماكرة

ما ولى الليل بركنه وأضاء الصبح بنوره حتى شوهد نيمو ممتطياً حماراً أبيض اللون يعدو به نحو المقابر كيلا يدركه القيظ إذا تعالى النهار. وكان عارفا بمنعرجات الطرق وتشعباتها فى هذه الجهة فلم يسلك النهج الواسع الذى يطرقه كل الناس، بل اتجه صوب الجبل الذى يعترض بين المقابر وسهول النيل.

وكان يرى أمامه صخوراً عالية فى شكل نصف دائرة ترتسم على سفوحها الصلدة معابد ضخمة شادتها الملكة حاتاسو التى نصبت وصية على اثنين من ملوك الأسرة البائدة. فلما دنا منها نيمو جعلها إلى يمينه وسار فى طريق منحدر تراءت له المدافن منه تتخللها المنازل والهيكل والتماثيل، ونظر فيما يلى ذلك كله نهر النيل ينساب نحو الشمال كأنه سبيكة مصهورة من اللجين، ولفت نظره الغسق الأحمر رائداً لاشعة الشمس وقد انطبعت على لونه الأرجوانى منازل طيبة وهياكلها بمنظرها الشائق وارتفاعها الشاهق.

كان بصر نيمو شاخصاً فى هذا المنظر البديع، إلا أنه كان لا يميز جمال تصويره وحسن تأثيره لأنه . وهو على متن الحمار- كان هائماً فى أودية الأفكار غير ناظر إلى ما يعترى دابته من التعب لصعوبة المرتقيات ووعورة المنحدرات. وبينما هو سائر فى مسلك ضيق بوسط الجبال إذ سمع همس إنسان يجد فى أثره حتى أدركه ، فتبادلا السلام وظل الاثنان سائرين حتى بلغا إلى منعطف يتسع عنده الطريق، فانفتل نيمو إلى أحد عنطفيه إذ لحظ أن السائر معه أحد الكهنة المحترمين وقال له:

عليك يا أبت بالسير أمامي لأنك بقدملك الاثننتن أسرع من حمارى بأرجله الأربع!.
قال الكاهن، وكان نبسشت صدق بنطاؤر: حسناً فعلت.. إنى أغدو فى التماس علاج
أحد المرضى.

هنا برزت الشمس من حجابها وتجردت من جلبابها، فأفلت الشفق الأرجوانى
مولياً الأديار خيفة أن تفتك به جيوش النهار، وطرق الأذان نشيد الكهان، فانكب
نيمو من متن حمارة لصلاة الصباح واقتدى نبسشت به ووقف كلاهما نظره على
إله الشمس (فتاح)، وكان نيمو شاخص البصر إلى الشرق. أما نبسشت فبينما كان
باسطاً يديه بالدعاء ومصعداً نظره فى السماء، إذ حانت منه التفاته إلى اليسار فرأى
صدفة من أصناف البحار وقد تجمدت كالأحجار.. فمد يده إليها واستولى عليها
ونفض بعد ذلك واقفاً فاقتدى به نيمو ولأثره اقتفى، ثم قال: ما أطف هذا الصباح!
أرى فيه أن الكهان الذين سمعنا نشيدهم الآن قد انتبهوا من نومهم قبل الساعة
المحدودة لقيامهم. فابتسم نبسشت وقال: نعم، ولعلك أت من المقبرة، ومن جاء بك
إلى هذا الطريق الوعر المحفوف بالصخر؟ أجاب: جئت بنفسى، ولكن أتأذن لى
بسؤالك عن فقراء السكان الذين يقصد إليهم طبيب بيت سبتى فى مثل هذا الآن؟ قال
نبسشت: إن للفتاة التى نيط بى علاجها أبا فقيراً، أما هى فمرضها خطير. فحدق
نيمو فى النظر وقال: لا بد أنها الفتاة التى دهمتها مركبة الأميرة، وكيف حالها الآن؟
أجاب: متماثلة إلى الشفاء وعسى أن تحقق الآلهة فى نجاتها الرجاء. قال نيمو: حمداً
للآلهة على هذه المنن وشكراً لهم على انكشاف المحن.

جدّ نبسشت بعد ذلك فى المسير، فلما بلغ من الجبل إلى ذروته انحط منحدرًا إلى
سفحه حيث يوجد وجرار المحنط بينم، فلما هبطه تولى علاج الجريحة. أما نيمو
فواصل السير حتى وصل إلى مغارة أمه نيخت الساحرة التى علمت بعاكر كيف
يستهوئ النساء بالقدرح المملوء بالماء.

وكانت هذه العجوز الشمطاء والداهية الدهياء بباب المغارة جالسة القرفصاء، وإلى جانبها لوح خشب جعلت بطرفيه عارضتين متصلتين بعدة لوابب إذا دارت اقتربتا أو ابتعدنا. وكان بين العارضتين طفل ممدوداً وقد لامست رأسه إحداهما والأخرى أخمصى قدميه. وكانت العجوز اللعين تستعين بهذه الآلة على تعطيل نمو الأطفال بمنع أعضائهم من الوصول إلى مداها الطبيعي، ليصيروا على مر الأعوام أقزاماً كابنها نيمو تبيعهم الأمراء والمثريين بالمال الجزيل، ليقطعوا بالتماجن والتلمح معهم ساعات الفراغ. وما طرقت أذن العجوز وقع قدمي نيمو وهو مقبل عليها حتى أسرعت برفع اللوح وطرحه بآخر المغارة وقالت للطفل: لا تتحرك وإلا أثخنت فيك ضرباً وأمعنت أذية أو شددت وثاقتك فلا تعود تستطيع في اللوحة حراكاً. قال الطفل: دعيني ولا تربطيني، ولك أن أظل مطروحاً على اللوحة بإرادتي. فصاحت به: كلا.. ثم شدت رباطه وهو يبكي ويستغيث، إلا أنها تكلفت العطف عليه وقالت: إذا لزمتم، الصمت ناولتك فطيرة بالعسل وأذنت لك في ملاعبة الدجاج.

فسكت الطفل ولاحت في عينيه بارقة السرور والاعتباط، ولكنه تعلق بأذيال العجوز وقال بصوت خافت: سأسكت سكوت الجرذان حتى لا يعلم أحد أني بهذا المكان، ولكن أود أن تأذني لي بالذهاب إلى وردة لأعطيها الفطيرة الموعودة. قالت: وردة طريحة الفراش فلا حاجة لك بالغدو إليها. قال الطفل وقد اغرورقت عيناه بالدموع: أتمنى لو أعطيتها الفطيرة. فأخذت العجوز تداعبه وتسليه ثم مدت شفيتها لتقبله بين عينيه ولكنها سرعان ما تحولت عنه قائلة بصوت مزعج: أمرتك ألا تتكلم فالزم شأنك وسأرى إذا كان لك أن تزور وردة أو لا تزورها. ثم ألقت على وجه الطفل كيساً من القماش السميك وعادت إلى الباب. فلما أبصرت بنيمو تلقته بمظاهر الاشتياق وأكرمته بشيء من الخبز واللبن والعسل ثم طمأنته على وردة إذ

أنه يكثر من ذكرها وسألته عن سبب حضوره وعما إذا كانت سيدته هي التي أرسلته في حاجة تريد قضاءها أم أنه جاء من تلقاء نفسه. ثم ذكرت له أن جماعة الأمراء ولفيف الأعيان والعظماء اعتادوا ألا يزوروا الفقراء ولا أعتاب منازل البؤساء: لغرض يرمقون إليه، وسألته عمّ يود منها الآن؟ أجاب: لست أريد شيئاً ولكن.. قالت ضاحكة: ولكنك جئت إلى هنا بإيعاز غيرك لا بمحض إرادتك فالنتيجة إذن واحدة، لأن الذى يطلب أمراً برسم الغير كمن يلتمسه لنفسه. قال: يدل كلامك على ثبات عقلك، حضور ذهنك وأنه لم يتغير منذ زيارتى الأخيرة لك. وهذا الأمر يسرنى ولا شك ملاحظته لأنى في حاجة لنصائحك الرشيدة وآرائك السديدة. قالت: إنى أقدم لك نصائحى بثمن بخس، فقل لى ماذا جرى.

فقص نيمو عليها في اختصار وصراحة كل ما اتفق لسيدته راتوتى وذكر لها ما أوشك أن يلحق بابنها من العار والفضيحة لرهنه جثة أبيه. فهزت رأسها وتركته يسترسل في حديثه فما أتى على آخره حتى حدقت فيه النظر وقالت: وهل مازلت تعتقد! كان رنغ أنى إلى عرش رعمسيس، أى استبدال الباشق من اليازى؟ قال: كيف لا وجيش الحبشة معاضد لنا وزمرة الكهنة متذمرون من الأحكام ومستعدون جميعاً لخلع ربة الطاعة ومبايعة أنى اعتماداً على نسبه المتصل بدم رع؟ قالت: يبدو من كلامك أنكم أعدتم للكفاح عدته. قال: لا ريب، وأنت تعلمين أن الكلاب الكثيرة مهما تبطىء في العدو تدرك الغزال وتفتك به. قالت: ولكن رعمسيس أسد أسيد لا يستطيع إخضاعه ولو كبل بالحديد، وأنتم إنما تجازفون بأنفسكم وتلقون بها في الهلاك. قال: نعم إننا نجازف وما مجازفتنا إلا بقدر سمو غايتنا، وستقرن مساعينا إن شاء الله بالنجاح. قالت: من ينشد النجاح فليتوقع الفشل،

ومع هذا فافعلوا ما بدا لكم فإنه لا يهمنى من يسوق أبناءها إلى مواطن القتال ويخطف المشية من الرجال، ثم قل لي ماذا تريد مني؟ قال: جئتكم بمحض إرادتي لتوقفيني على ما تصون راتوتي به شرف ابنها وأسرتها. فوقفت العجوز واستندت إلى عكازها وقالت بعد أن أطالت النظر في نيمو كمن يحاول استطلاع سر كمين في صدره واستقراء مضمرة فكره: مالي أراك أيها السقط الحقير كثير الاهتمام بأولئك العظماء؟ أجاب: إن سيدتي راتوتي من أكرم السيدات سجية وأعزهن نفساً، فإذا أصبحت في ثروء؛ لا ثقة بها فلا بد أن يصيني وإياك سهم منها.

فهزت نيخت رأسها استنكاراً وقالت: ربما أعطتك رغيف خبز وتصدقت عليّ بفتات رغيف آخر.. الظاهر لي أن في الأمر سرّاً غير ما أفضيت إليّ، فإنني أنفذ ببصيرتي إلى ما يكنه فؤادك وببصرى إلى أحشاء الغربان التي أشق بطونها.. إنك لمن ثقلت عليهم البطالة فدبروا التدابير واستنبطوا الحيل للتدخل فيما لا يعينهم حتى ينفوا عنهم معرة الكسل والفراغ من العمل. ليتك كنت يا بنى أطول منك بعشرين ابهاماً فقط، إذن لنظمتك في سلك الكهانة ولصعدت فيها إلى أسمى مكانة، وعشت حتى تعلق بالمشنقة فيقول ناظروك «علو في الحياة وفي الممات».

ثم ضحكت نلهراً لبطن فعرض نيمو شفته غيظاً وقال: لو كنت أرسلتني إلى المدرسة ولم أكن قصير القامة ولا ابن ساحرة لدبرت للكبراء أنواع التدابير وقابلتهم بمثل ما يقابلونني به من التحقير، لأنهم - وإن علت أقدارهم - لن يدركوا شأوي في الذكاء وسعة الحيلة ولن يستطيعوا أن يلتسموا لأنفسهم مخرجا من المأزق إذا زجتهم فيها حوادث الدهر أو اندفعوا في تيار التهور، أما أنا فإنني ألبس لكل حال لبوسها وأروغ روغان الثعالب وأعمل عمل من حنكته التجارب. قالت: إذا

كنت كما تدعى بهذه المهارة فلم جئت للاستشارة؟ قال: لا بأس بها في هذا الزمان لأنها البصر لمن ليس له عينان، ثم لا يذهب عنك يا والدتي أنك ملزمة بمساعدتي. سألته باسمه: ملزمة! ولماذا؟ أجاب: ملزمة لأنك السبب في قصر قامتي. قالت: ولكنني بهذا الفعل فتحت لك أبواب الرزق وجعلتك في غنى عن الناس. فهز نيمو رأسه قائلاً: لا أنكر هذه النعمة التي تفيد كل من يولد فقيراً مثل ولكنك زدت على تقصير قامتي أن أفسدت منى خلقى وطبيعتى. ثم أطرق رأسه ووضع يده على قلبه كمن يحاول تسكين خفقان ألم به. فدنن العجوز منه وقالت في رفق: ماذا جرى يا ولدي؟ لقد كنت أظنك في حالة سارة ببيت مينا! فانسكبت الدموع من عينيه وقال: أمازلت على اعتقادك أنني لم أكن سىء الحظ منكود الطالع؟ لقد أطلعتنى على مستقبل أمرى فأيقنته كما يوقن المرء حقيقة ذاته إذا تراءى في المرأة، ولا تنسى أنك أنت التي علمتني أساليب المكر والدهاء حتى أقوم بالمهام الدنيئة الموكولة إلى عهدتى.. تذكرى جيداً... أنسيت أنك بعنتى للقيم على خزائن رعمسيس بمبلغ زهيد من المال، فأهدانى إلى صهره والد مينا؟ وها قد مضى على هذا الحادث خمسة عشر عاماً وكنت وقتئذ صبياً دون البلوغ ومتفوقاً على أندادى في حدة الذهن وخفة الروح ورشاقة الحركات. فلما انتقلت إلى البيت الجديد اتخذونى العوبة لمينا فكان يشدنى في عجلنه الصغيرة بعد أن يزوق جسمى ورأسى بالأشرطة والريش ثم يأمرنى بالركض فإذا تولانى التعب فخفضت السير أهوى بسوطه على جسمى الضئيل لأنشط. وكانت بالمنزل فتاة حنّت لها جوارحى وهي ابنة البواب، فكنت لا أمضى أمامها جأراً المجلة إلا وتغرب في الضحك لشذوذ ملابسى، وكان لسان السوط متدلياً على أذنى يندرنى بالعقوبة إذا توانيت في الركض أو اعترانى الكلال، وكان العرق يتصبب من جبيني والدم يتقطر من قلبى الجريح.

فلما توفي والد مينا دخل مينا بيت سیتی للتعلم وتخصصت بخدمة زوجة الملاحظ الذي طردته راتوتی إلى بلدة هرمونتیس، فأصبحت في شقاء ونكد، لأن بنات المنزل يتخذننی وسیلة للهوهن ومجونهن، إذ كن يضعننی في مهد صغير ويلزمننی البقاء فيه بلا حراك مع غمض العينين حتى أبدو لهن كمن يكون في سبات عمیق ویسترسلن بعد ذلك في ضروب المزح والمماجنة بينما كانت تنتاب قلبي عوامل الحقد والضغينة تارة وأسباب العشق والهيام أخرى. وكنت إذا مللت الاستقرار في هذا الوضع والتمست الراحة بالالتفات أو التحرك ألهين ظهري ضرباً بالعصى، وحدث أن تملكني الغضب يوماً من هذه المعاملة القاسية إذ ضربتني إحداهن ضرباً مبرحاً أسال دمی، فأخذني مينا وقد اشتد بي الغضب إلى مستودع الحبوب وعلقني من نطاقی بمسماز مثبت بالسقف وتركني معلقاً هكذا في الفضاء أياماً معدودة، قاسيت خلالها من البلاء والحنة مالا أنساه أبد الدهر، فقد تكاثرت على الفئران وأخذت تعضني بأسنانها الحادة وأنا لا أستطيع مقاومة لما عراني من الضعف والجوع. وهذه هي آثار العضم ما برحت ظاهرة في ذراعی بلونها الأبيض، فإذا زالت منها بمرور الأيام فلن تنمحي من قلبي أبداً أبداً.. وبعد أن عانيت صنوف العذاب خلصني مينا من مخالب الموت بعد أن اعتذر بأنه نسيني!

ولما تم اقتران مينا بنيفرت دعا إلى السكنى في بيته والدتها راتوتی فجعلتني هذه في خدمتها. وقد أخلصت الولاء لها حتى تبينت مني الصدق في القول والإخلاص في النصح وأيقنت أنها لا غنى لها عني فحملني ذلك على إرادة الخير لها والجاه والعزة. ولا خلاف في أنا إذا استوى أنى على عرش الملك فسأكون وإياها المديرين لسياسته. كانت العجوز في خلال هذا الحديث واقفة وملازمة الصمت. أما نيمو فقد اشتد

سعير العيظ الكامن في صدره لمينا فأخذ يرغى ويزبد ويقوم ويقعد، حتى إذا أتم كلامه جلست العجوز على كرسي من الخشب وأخذت تنتف ريش هدهد قائلة: لقد فهمت الآن مرادك، إنك تريد الانتقام من خصومك لتصعد - في أمان من مكرهم- إلى أسنى المراتب وتلتمس منى العضد والنصير. اجلس يا بنى واشرب هذه القدر المملوءة لبنا ليهدأ خاطرک ويسكن روعك واسمع ما سألقيه عليك من النصائح الرشيدة لا أبتغى منك جزاء ولا شكورا.. أما راتوتى فلا أرى لها خلاصا من العار الذى لبس ابنها إلا بالأصفر الوضاح وهو موفور بعتبة دارها، فما عليها إلا أن تخطو خطوات لتحصل منه على ما تشتهى.. وبعد أفلم يكن الموهار بعاصر ابن شقيقتها؟ أجاب نيمو: نعم. قالت: إن نيفرت الجميلة ابنة راتوتى وزوجة سيدك مينا قد اتصل بى أن رجلا من الأعيان يحاول اجتذابها إليه. قال: لعلك تريدين بهذا الرجل بعاصر إذ هو السابق إلى خطبتها فلم تشأ الاقتران به مؤثرة عليه مولاي مينا. قالت: لقد حضر بعاصر عندي أول من أمس واشترى منى ماء سحريا ، وإن كنت شديدة الرغبة في استطلاع قصده من شراء هذا الماء فقد اقتنيت أثره من حيث أراه ولا يرانى، فنظرته يقدم الماء إلى امرأة ذات جمال فائق علمت فيما بعد أنها نيفرت. سأل: وهل شربت الماء السحري؟ أجابت: نعم.. شربت ولكنه لا يؤثر فتिला في فؤادها، إذ هو مزيج من ماء وخل وعصارة لفت، وأرى أن في قدرة نيفرت - لتزيد بعاصر افتتاناً بجمالها الساحر- اقتراض ما يلزمها من المال لتسد به ديون أخيها وتكشف العار منه وعن والدتها. قال: ولكن راتوتى عزيزة النفس حمية الأنف، إذ سبق لى أن عرضت عليها هذا الاقتراح فوبختنى وطردتنى. قالت: إذا كانت لا تحب أن تواجه نيفرت، بعاصر في هذا الطلب فلتذهب بنفسها. أما أنت فعليك أن تقابل بعاصر وتعلله بأمنية ميل نيفرت إليه وهيامها به ثم تنفض له جملة حال أهلها وما

أصبحوا فيه من الذلّة والمسكنة فإن رفض طلبك فأفهمه أنك واقف على سرّ مسألة الماء السحري. ففكر نيمو قليلا ثم التفت إلى العجوز وقال: هذا هو التدبير الصائب والرأى الثاقب. قالت: كنت بادئ ذى بدء أرى أن مساعيك ربما لا تقترن بالنجاح ولكننى تأكدت العكس الآن، واعتقادی أنه يجب على راتوتى أن تشكر لنجلها مقامرته على جثّة أبيه. قال: أتقصدين بهذا الكلام أن يشكر لراتوتى من لم يقفوا على حقيقة الواقع من جمهور الناس بذلها المال في سبيل المحافظة على شرف اسم.. قالت: نعم هو هذا والعلم أنك إن تقنع بعاكر بحب نيفرت له وإعطاء راتوتى ما تطمع فيه من مال فعقدة الأشكال تنحل.. وعندئذ تتحرك عوامل الانتقام في صدر بعاكر فتحفره ليقضاء على مينا كي يخلو له الجوّ فيقترب بنيفرت وبذا ينتقم في الآن نفسه ممن أذاقنا مرّ العذاب. وقد يحدث أن يصاب رعمسيس برمية سهم تورده موارد الحثوف. فيخلفه الوالى أنى على عرش الملك فتتم السعادة وتنال راتوتى ما كانت تتمناه وزيادة. قال: لاريب في أنك مصدر التدبير الصائب ومستودع الحكمة وصدق النظر في العواقب. قالت: إنى على ثقة من أنك ستبسط لسيدتيك راتوتى ونيفرت وللوالى هذه التدابير الحكيمة منتحلا لنفسك فخار ابتكارها، ولكن لا يذهب عنك أنك إنما تتبع نصيحتى وتعمل بمشورتي وأن لى وحدى فضل الابتكار الذى سيقيلك من العثار. على أنه لا يمضى الغد حتى تنكر هذا الفضل الساطع وتدرجه في طى الذبان كما لا ينقضى اليوم بعده حتى تعتقد أنك بأشعة عقول 'الآلهة التسعة تستنير ومن فيبوض حكمتهم وصادق إلهامهم تستمد القدرة على القيام بجلال الأعمال.. وهذا، سا أنا به واثقة ولكن لا يغرب عن بالك أنه لا بد لهذه النصائح من ثمن، فإنما أعبش من ثمن نصيحة أقدمها أو رأى أشير به أو اقتراح ابتكره.. أما أنت فلك من قصرك ما يكفل لك أرغد العيش وأسنى الرزق كما يعيش غيرك بحذقه في

الصناعة أو جلده على أعمال الزراعة. وإذا التقيت ببيعاكر وألقيت في روعه أن نيفرت تحبه حباً جماً فبادر بمقابلة الوالى أنى وخبره بأن في صدرى سرّاً مكنوناً يستطيع به استدلال بيعاكر، وهو سرّ لا أبوح به إلا بثمن معلوم على شروط معينة. قال: ليس دون اخباره بمراذك عائق، ولكن ما الثمن الذى تطلبين؟ قالت: ثمنا زهيداً وهو وصية يكتبها بإعفائى من ضرائب الكهان والهيكل لأقضى ما بقى من عمرى فيما أشتهى ولأبنتى قبراً يليق بى بعد وفاتى. قال: أرجح ألا يوافقك الوالى على الطلب الأول لأنه يتجنب في سياسته ما يمس بسلطة الكهنة، ميلا منه إلى مداراتهم ومحاسنتهم. قالت: .. ولأنه يخالف أوامر رعمسيس أيضاً. على أننى لا أكلفه أمراً جديداً فقد سبق أن زودنى رعمسيس وصية من هذا الطراز لقاء نجاحى في علاج جواده المحبوب، ولكن النار أكلتها فيما أكلت من متاعى حين صدر الأمر بإحراق بيتى الحقير لاتهامى بالسحر وبأن ما لدى من الأدوات من عمل الشيطان، أما القبر فلا حاجة لى به الآن بعكس الوصية فإنه لا مناص لى منها بعد قليل من الزمان. قال: لا تجزعى فلا بد لنا من الحصول على المأمول، وسأقصد إلى المقابر لتفقد القرابين ولأعلم هل قدمت في الوقت المعين، فإذا لم تشتد وقدرات القيظ ضحى هذا النهار فسأسلك هذا الطريق لأعود وردة وأزور جدها بينم وأبقى ساعة عنده.

الفصل الثالث عشر

العواطف الكريمة في القلوب الرحيمة

كان نيمو يحدث أمه الساحرة حينما أخذ رجلان يغرسان أمام بيت المحنط أوتاداً طويلة نيطت بأطرافها خرق بالية. هذان الرجلان هما بينم وابنه الجندي الذي عاد حديثاً من الشام. وكان الشيخ يعزره لهذيه وثرثرته ويطلب الصمت منه حتى لا يروعا صوته الجهورى. فلما قضيا عملهما وضعا تحت الظلة المركبة من تلك الخرق والأوتاد شيئاً من قش القمح جلسا عليه ولبثا زمنا يحددان البصر في مدخل البيت حيث كان نبسشت ينتظر بذهاب الصبر انتباه الجريحة من نومها لمباشرة علاجها.

ولقد سأل الطبيب جدّ الفتاة عن الجندي الجالس إلى جانبه، وهو شاب طويل شاحب اللون غزير شعر اللحية، فأجاب: هو ابني، وقد ورد من الشام منذ أيام. سأل: لعله والد وردة. فهز الجندي رأسه علامة الإيجاب ثم قال بصوت خافت: إن بعض الناس لا يسلمون بأنى والدها لكونها بيضاء البشرة بينما لوني أقرب إلى السواد، ولكن فليعلموا أن أمها أجنبية أورثتها لونها الأبيض المشرب بالحمرة. ولقد كنت لشغفى بحسنها الفتان أخشى أن تمس جسمها اللطيف أنامل فقضى القضاء أن تمر العجلة على صدرها الناصع. وإن تعجب فعجب أن تبقى على قيد الحياة مع قوة الصدمة وما عانت من شديد الآلام! عندئذ دنا بينم من الطبيب وقال مشيراً إليه: لولا عناية هذا الأب المحترم لما عاشت ابنتنا، فجزاه الله خيراً تلقاء ما أجزله لنا من النعمة. فأبرز الجندي من نطاقه كيساً محشواً بالنقود وضرب عليه بيده قائلاً: إنا وقد غنمنا الأموال الكثيرة من سوريا نستطيع أن نوفي الطبيب أجرته ونشترى

عجلاً نقدمه قرباناً للآلهة. قال الطبيب: خير لك الاقتصار على تقديم مثال للعجل من عجين^(١) وكفى به شهيداً على اعترافك بصنعة الآلهة وصدق نياتك نحوهم. وما يبقى بالكيس بعد ذلك فسلمه إلى أبيك يقضى به حاجة ابنتك من غذاء ودواء.

فأخرج الجندي الكيس وأخذ يرمى به بين كفيه طرداً وعكساً كمن يعبث بأكرة اللعب قائلاً: إنه ثقيل ومحشو بالمال فياليتنى أنفقت ما فيه مع الإخوان في معاقره بنت الدنان.. وحيث إنى أخطأت هذه الفرصة فخذها يا والدى لتتفقه في العناية بوالدى وابنتى وردة. وفيما كان الشيخ يبسط يده لتسلم الكيس ويقبضها متردداً، إذا بالجندي قد رفع يده إلى جبهته كمن يتذكر أمراً غاب عنه ففتح الكيس قائلاً: دعنى يا أبت أخذ من المبلغ سبع أو ثمانى حلقات فإنى في هذا اليوم- وأنا على موعد مع بعض الخلان للهو والطرب بأحد مجامع الجند- يجب أن أتزود اليسير من المال. وما أخذه من الكيس الآن إن هو إلا نفقتى الليلة وما يتبقى بعده فإنى في غنى عنه، فأشار نبسشت إشارة الموافقة على هذه القسمة وتلقى الجندي هذا الاستدسان بالشكر وقال له: وأرجو منك أيها الأب المحترم أن تولى الجريحة بعنايتك حتى يلتئم جرحها فقد مللت تقديم القرابين وليس عندى من المال ما أنفقه في هذا السبيل، وأعلم أنى ما برحت متين القوى واثى الذراعين فإذا كنت بحاجة إلى من يساعدك على أعدائك فإنى مستعد لدفع أذاهم عنك ولو بلغوا العشرين عدا.. حياة بحياة.. أنت أنقذت من الموت حياة ابنتى وأنا أبذل في سبيل الدفاع عنك مهجتى.

(١) كان فقراء المصريين ممن لا يقدرّون على تقديم القرابين من الحيوانات الحية كالعجول والخنازير يصنعون ما يشبهها شكلاً من العجين ثم يقدمونه إلى الهياكل بعد انضاجه. وتحتوى الآثار القديمة رسوماً عديدة تمثل تقديم هذه الحيوانات إلى الآلهة في المعابد والمقابر.

قال هذا وتناول مدية كبيرة طفق يجرح بها ذراعه فيسيل الدم منها على حجر قريب من نبسشت، ثم قال: هذا هو برهان شكرى لك واعترافى بصنيعتك، وأود أن تعلم أنى قد أصبحت بعد ذلك أتبع لك من ظلك، فمر بما أنت أمر فحياتى فداء لك. قال الطبيب متلعثما: إننى رجل صلح وسلام لا رجل حرب وحسام، وحسبى هذا الثوب الكهنوتى الأبيض ضمينا بدفع شرور الأعداء اللئام.. والآن هل انتبهت مريضتنا من النوم يا ترى؟ ثم قام ودخل فى وجار المحنط فوقع نظره على وردة مطمئنة إلى جدتها، فلما تراءى لها حدقت فيه النظر بعينيها الزرقاوين. فقالت جدتها للطبيب: إن وردة تشتهى الخروج وقد نامت نوما طويلا هادئا. فجس نبسشت نبضها وفحص جرحها، وكانوا قد وضعوا عليه أوراقا خضراء، فقال وقد بدت على وجهه علامات الفرخ والاستبشار: من أعطاكم هذه الأوراق الطبية؟ فلم تحر جده وردة جواباً، فقالت وردة بتؤدة وسكون: وافتنا بها نيخت الساكنة هناك بالمغارة السوداء. قال نبسشت على عجل: نيخت الساحرة؟ لا بأس مع ذلك من بقاء هذه الأوراق فى موضعها، فإنها لا تضر إذا لم تنفع. قالت العجوز: وقد تذوقت نيخت أيضاً الشراب الذى جهزته لوردة فمدحته بقولها إنه جالب للشفاء. قال: حسن كل هذا وخير منه نقل الجريحة إلى خارج البيت لاستنشاق الهواء الطلق والتخلص من هذا الجو الثقيل فإنه لا تحتمله الرئتان. قالت وردة: إن تخرجونى من هذا المكان نحسنا تفعلوا.. أيها الطبيب إننى مبهجة بحضورك اليوم دون صاحبك الذى يعذبنى بصياحه حينما يتلو التعازيم والرقى.

قال لبسشت: لعلك تريدين الأعمى تيتا، أما أنا فقد اعتزمت ألا أسحبه فطيبى نفساً وقرى عيناً، غير أن الكاهن الذى كان يهدىء ثائرة جدك يوم زارتك الأميرة بنت أنات سيحضر ليعودك اليوم. وهو رجل صادق النية حسن السريرة.. فواجب

عليك.. فقاطعته قائلة: إذن سيحضر بنطاؤور؟ أجب: نعم قبل ساعة الظهر.. ومن أين عرفت اسمه؟ أجابت من زمن مضى. فنظر إليها الطبيب مندهشاً وقال: أمسكى! لا تتكلمي إنى أرى خديك قد علاهما الاحمرار وأخشى أن تعاودك الحمى.. والآن وقد جهزنا لك ظلة أمام الباب فلا بد من حملك إليها. قالت: أمهلنى من فضلك! يا جدتى أرجو منك تسوية شعرى الذى ما عدت لكثرته أطيق حمله. وما فاهت بهذه الكلمات حتى تناولت شعرها بملء يديها وشطرتة غديرتين وأخذت تنقيه من القش الذى اختلط به للمسته الأرض. قال الطبيب: الزمى السكون والسكوت يا وردة، وتجنبى كل ما يسبب لجسمك الاضطراب. قالت: أشعر بثقل هذا الشعر على رأسى. ثم رجت من جدتها أن تساعدها على تسويته، فدنت العجوز وأخذت ترجله بمشط غليظ من القرن فلما نقته من الشوائب جعلته ضفيرتين متساويتين أرسلتهما إلى كتفيها. وكان نبسشت يرى أن حركتها-وهى لاتزال مريضة - قد تقضى إلى الخطر. وكان يود أن ينبه إلى ذلك من حولها من النساء فلم يطاوعه لسانه على الكلام ، لما اعتراه من الدهشة حينما نظر إلى وردة فى روعة جمالها فافتتن بها قلبه وطار لبه.

أما وردة فلم تكن ملتفتة إليه حينما انتهت هذه العواطف، لأنها طلبت من جدتها أن توافيها بالمرأة فناولتها العجوز قطعة فخار مدهونة بطلاء لامع فترأت الفتاة فيها بعد أن جعلتها مقابل الضوء ولبثت برهة تتأمل فى ذاتها ثم قالت: مضى زمن طويل لم أشم فيه أريج الأزهار. فقالت لها: عليك بالصبر يا ابنتى. ثم عمدت إلى إناء فانتشلت منه الوردة التى كانت بنت أنات وضعتها على صدرها حينما سقطت لوجهها وأغمى عليها وقدمتها إليها، فما مستها بأناملها حتى تساقطت أوراقها الذابلة منتثرة حولها، فسارع الطبيب إلى التقاطها ورقة ورقة وقدمها إليها. فنظرت

إليه مبتسمة وقالت: أشكر لك صنيعتك، وأخبرك أنني كهذه الزهرة أسمى وردة وأحب الورد والنسيم العليل، فهل تخرجوا بى من هذا المكان؟ فأشار نبسشت إلى بينم أن يستعين بابننه على نقل الفتاة وأن يترفقا بها في ذلك، فصدعا بأمره ووضعها بالمكان المعد لها تحت الظلة وكان الجندي ترتعد فرائصه وتضطرب يداه المدمجتا المفاصل وهو يحمل ابنته خوفا عليها من أن ينتابها ألم، فلما تم وضعها بذلك المكان بدت عليه علامات الغبطة والارتياح، إذ لم يقع ما كان يخشاه. أما هي فتلفتت يمنة ويسرة حتى وقف بصرها على بعض الأشجار فقالت: ما أنضر هذه الأشجار وما أصفى أديم السماء! يظهر لى أن جدى قد عنى بريها وتشذبيها. وما هى الحمائم قد هبطت من الجو وأخذت تطلق حولى فأنتنى ببعض حبات القمح يا جدتى لتلتقطها في حضرتى فتضاعف بذلك مسرتى.

أخذت هذه الحمائم المطوقة الناعمة الريش تحوم حول وردة وتتسابق إلى التقاط ما كانت تلقيه يدها السخية من الحبوب. وكثيراً ما كانت تمسك الحبة لها بشفتيها فتتحط الواحدة منها عليها لتخطفها من بينهما بسرعة ولطف. وكان نبسشت يجيل النظر في هذا المنظر البديع فيروعه حسنه وتترامى الآفاق أمامه إلى أبعد مدى فيستشف منها ما يهديه إلى الاعتقاد بوجود عضو في بحبوحة صدره يفعل بمؤثرات طالما غاب عنه إدراك كنهها، ثم استوى جالساً على الرمل وأخذ يفحص الثرى بطرف قضيب فحماً تجلى عن صورة وردة زاهية بسوقها وأوراقها.

وكان السكون ضارباً فسطاطه على تلك الأرجاء، فأوت الحمائم إلى الظلة، وما هى إلا برهة اشتد فيها نباح كلب بينم إيذاناً بقدم قادم حتى طمح بصر وردة إلى

الطريق وصاحت قائلة: جدتي! ها قد أقبل الكاهن بنطاؤُر. سألت: ومن أخبرك بمجيئه؟ أجابت: إنى موقنة ما أخبرتك به. وما هو إلا مرّ الطيف حتى طرق الأذان صوت قائل يقول: «السلام والبركة عليكم.. كيف حال مريضتنا اليوم؟». وكان بنطاؤُر صاحب الصوت، فشرح نبسشت له حالتها، فدنا بنطاؤُر منها متهلل الوجه. وكان يحمل طاقة أزهار ساطعة الأرج أخذها من مذبح الإلهة هاتور التي جعله أمينى في اليوم السابق كاهنا لهيكلها فقدمها إلى الفتاة، وقد علت رجهه حمرة الخجل، وقال لها: إن الإلهة العظيمة التي توليت خدمة هيكلها بعثت إليك هذه الزهور النضيرة، وهى لاشك ستمنحك الشفاء والعافية من فيض مكارمها الضافية، فتشبهى بها إذن وتحلى بخصالها الشريفة من طهر وعفاف ورقة وانعطاف، ليكون لك من النفوذ ما لها. وكما أن أشعتها الساطعة تبديد المتكاثف من الظلمات على أفق الكائنات، ينبغى أن تكونى لهذا البيت الصغير سراجاً وهاجاً وبدراً منيراً. وكما أنها ما وطئت من الأرض مكاناً إلا ونمت فيه الأزهار الطيبة الشذى، فلا بد لك من التحلى بمطرف العفاف والصون لتتفجر ينابيع الحب الطاهر الصادق من مواطىء قدميك^(١)، وإنى استنزل عليك بركاتها واستهطل خيراتها ونفحاتها.

قال ذلك وأخذ يجيل النظر فى والدها وجدها ثم تحفز للانصراف فإذا بصوت استغاثة ارتفع من خلال أعواد الذرة المزروعة على مقربة من المكان الذى ما كادت تردد جوانبه هذا الصوت حتى تجلى لأنظار الحاضرين شبح غلام صغير رافعاً يده إلى أعلى ما استطاع، وفيها فطيرة يظهر من تقوس جزء من أطرافها أن كلباً دهمه فقضمها، وأن هذا هو علة ارتفاع صوته بالاستغاثة. فما رآه الحاضرون وتبين (١) كان أهالى دندرة يسمون هاتور بالإلهة ذات الأقدام الذهبية، وهى تقابل أفروديت إلهة الجمال عند اليونان.

لبيّن أنه الطفل الذي تعذبه العجوز بوضعه في الأداة الخشبية ليكون من الأقسام حتى سأله: ما خبرك يا (شراعو)؟ ومن جاء بك إلى هنا؟، أجاب والدموع تنحدر من عينيه: جئت بهذه الفطيرة لوردة، فقد وصلنى خبر مرضها. وأنا أيضاً مريض فقربه المحنط منه وقبّله بين عينيه قائلاً: لك أن تهدي ما شئت إلى وردة. فتهلل وجه شراعو بشراً وطلاقة ثم اتجه مسرعاً نحو وردة وقال لها بعد أن جثا أمامها على ركبتيه: إليك هذه الفطيرة.. فإنها لذيذة الطعم سكرية المذاق.. وسأهدى إليك أمثالها كلما سمحت لى نيخت بذلك. قالت: أشكر لك يا شراعو هذه الرعاية. ثم قبّلت بين عينيه، ونظرت إلى بنطاؤور قائلة: هذا الطفل المسكين قد مضت عليه أسابيع ولا طعام يقتات به سوى جذور البردى^(١) والذيلوفر الأزرق^(٢)، ومع هذا فإنه يجيئنى اليوم بالفطيرة التى أهدتها جدتى أمس إلى العجوز نيخت.

فاحمر وجه الطفل حياء ثم قال متلعثماً: لم أقدم إليك إلا نصف الفطيرة ولكن ثقى أنى لم أذق طعمها، لأن كلبكم هو الذى أكل النصف الآخر بعد أن دهمنى وأنا مستتر بأعواد الذرة انتظر انصراف الأجانب من بين يديك لأستطيع تقديمها إليك . وقد أراد بالأجانب بنطاؤور ونبسشت، قال ذلك وانصرف عائداً: فأمسك بنطاؤور به ورفع بين يديه ليقبّله بين عينيه وقال الطبيب له: بارك الله فيك أيها المسكين

(١) قال هيرودت وديودورس الصقلى وبليناس المؤرخون إن المصريين كانوا يأكلون جذور شجر البردى وسوقها بعد تجفيفها على النار.

(٢) كان المصريون يسحقون نوى الذيلوفر الأزرق الذى يشبه الخشخاش ويتخذون منه خبزاً غليظاً يأكله فريق منهم (انظر تاريخ هيرودت). ويؤخذ من أقوال المؤرخين ومما هو مسطور على الآثار أن البردى والذيلوفر الأزرق كانا من النباتات الشائعة الزراعة في مصر، وكانا يصلحان لغذاء الفقراء. وأكد ديودورس أن الرجل يغذى ابنه من هذين النباتين حتى يبلغ العشرين من عمره فلا يكلفه سوى عشرين درهماً أى ٧٣ قرشاً.

وجزأك خير الجزاء على حرمانك نفسك التمتع بما تشتهي. نعم إنك لن تصير من
المثريين إذا دأبت على الخلق الكريم، ولكن قلبك سيصبح كنزاً يحوى نفائس
الخصال ومحاسن الشيم، فألصق شراعو صدره بصدر بنطاؤر ووضعه وجهه بين
كفيه كالرجل الكبير يداعب الطفل الصغير وأغرورقت عيناه ثم انحدرت دموعه على
صدر بنطاؤر الذى لم يسعه إلا أن أنزله إلى الأرض وتركه يركض حثيثاً فى الوادى
نحو مغارة العجوز الساحرة، فما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى وقف بغتة إذ
كانت اشمس فى كبد السماء. فحدثته نفسه بأنه إن ذهب إلى المغارة وضعتة
الساحرة على خشبة التعذيب، فاستحسن أن يتعدها إلى حيث مئات العمال
يشغلون بإنشاء قبر للملك رعمسيس وأن يقضى فى التفرج عليهم بضع ساعات ثم
يعود فيذوق آلام العذاب.

وكان على مقربة من هذا البناء الضخم كوخ من سعف النخل اعتاد النقاش
الشهير (بتاؤ) أن يقضى فيه ساعات الفراغ من العمل لالتماس الراحة، وكان هذا
النقاش أصم، إلا أن شهرته بإتقان فن النقش انتشرت فى الآفاق فأصبح فى عداد
كبار الرجال الذين تشد إليهم الرحال، فهو الذى نقش الكتابات والرسوم
الهيروغليفية على المباني البانخة التى شادها الملك سيتى الأول فى أبيدوس وطيبة
وأبداع، تنميق قبر هذا الملك الجليل القدر وابتكر الرسوم الجميلة الممثلة لوقائع
الحروب ومناظر الأعياد والحفلات على جدار قبر رعمسيس الثانى.

ما بلغ شراعى إلى هذا المكان حتى أخذ يدخل الكوخ ويخرج منه ويكرر ذلك حتى
لا يشعر به بتاؤ. وكان فى كل مرة يجيل النظر فى أعماله ممعنا، ففاجأه هذا النقاش
ذات يوم وهو يصنع من الطين تماثيل بأشكال الرجال والحيوانات، فأخذ بعض

هذه التماثيل وأمعن فيها النظر ثم أعادها إليه باسماء بسمه الاستحسان. ومنذ هذا اليوم تأكدت روابط المودة بينهما واشتد ميلهما لبعضهما إلى بعض، فكان شراعو يتردد عليه كل يوم ويجتهد في تقليد الأعمال الدقيقة التي يتماها بتاؤ في الهيكل. وكان هذا النقاش يمسك عادة عن محادثته، وإنما كان إذا لاح له نقص في عمله أصلحه له أو أتمه ثم سلمه إليه مبتسما ومستحسنا. وكان إذا لم يحضر شراعو كعادته شعر بتاؤ بانقباض في صدره وقلق في خاطره لما كان يحسه من الارتياح لوجوده عنده ساعة يتلقى عنه فيها علم ما لم يعلم من ضروب النقش والتصوير. وكان بتاؤ يقدم إليه كله ' حضر قطعة من الطين الصالح لصناعة التماثيل، فيأخذها بعه إلى مغارة العجوز ويرتقب، انصرافها عنه ليصنع من التماثيل أنواعاً شتى وأشكالاً متباينة. وكان اشتغاله بها ينسيه ما يلقاه من العذاب في آلة تقصير القوام ليكون من الأقرام.

الفصل الرابع عشر

لا تحرك الشعبان إذا نام.. ولا الكاهن إذا تناول الطعام

برح بنطاؤر بيت المحنط وسار مفكراً في طريق الصحراء المؤدى إلى الهيكل الذى يتولى إدارته، وكان يضرب أخماساً في أسداس ويتوقع الاحتكاك بصعوبات جمّة في سبيل إدارة هذا الهيكل^(١) الذى شادته حاتاسو^(٢) للإلهة هاتور. وكان للكهان القائمين عليه امتيازات خاصة يتناقلونها بالوراثة، من أهمها أنهم يرشحون للرياسة واحداً منهم. وكان رئيسهم السابق (رونى) في نزاع الموت فرأى أمينى صاحب الحق في الإشراف على كهنة هذا الهيكل أن يعين بنطاؤر رئيساً عليهم بدون أن يستشيرهم في أمره، فكبر عليهم هذا التصرف وأصرروا على مناوأة الرئيس الجديد، وعقدوا عليها نياتهم إلى حد أنه لما تسلم مقاليد الرئاسة لم يلق منهم غير الإهانة والتحقير. وقد زادوا على ذلك أن استظهروا بمعصيته على طاعته وبياطلهم على حقه لاسيما وقد أنسوا منه الصلابة في الحق والميل إلى الإصلاح. وكان من المفاصد الشائعة بينهم والمنغرزة في طباعهم التهاون في العمل والركون إلى البطالة والكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لا يؤدون صلاة الصبح المفروضة لفتح إله الشمس، ففضى بنطاؤر لرتق هذه الفتوق بأن

(١) لا يزال هذا الهيكل موجوداً إلى الآن بشكله الأول دون أن يعتوره خلل. وقد أورد دوميشن في كتابه الموسوم (دوننمة ملكة مصرية) أهم رسوم هذا الهيكل ونقوشه. وجاء في كتاب لبيوس شرح ضاف هذا الأثر القديم.

(٢) حاتاسو هي ابنة تحتمس الأول وقد تزوجت بأخيها تحتمس الثانى وعينت وصية لأخيها تحتمس الثالث، وقد اشتهرت بسمو الهمة ومضاء العزيمة. وفي عهدا أنشئت أعمال كثيرة عادت على جميع الأهل بالمنافع العامة. وقد أمرت أن يصورها النقاشون بلباس الرجل ولحيته.

بيكر صغيرو السن منهم بترتيل الأناشيد لينبهوا كبارهم إلى قضاء حق الواجب عليهم. وكانوا فيما عدا ذلك يتجرون بالتحف النادرة التي تهدي لها تور فأصدر أوامره الصارم بالحرص عليها وحفظها وعدم التصرف فيها، كما حال أيضاً دون احتكاكهم بالنساء اللائى يحضرن من أقاصى القطر أسراباً متتالية وشتاتاً لزيارة هذا الهيكل والتبرك بصاحبته المعبودة ذات المناقب العديدة.

وكان بنطاؤور قويم الخلق عفاً النفس شغوفاً بالترتيب والنظام شديد الوطأة على أهل الكسل مبعضاً للبهتان والكذب. فلما عُن كاهناً أعظم لهيكل حاتاسو ورأى فى رجاله نقيض هذه الصفات الفاضلة على خط مستقيم انتوى إصلاح حالهم وتقويم المعوج من أمورهم وإيقاظهم من غفلتهم واستفزازهم إلى إحراز قصب السبق فى ميدان الكد والعمل ، لعلمه أنه لو نفض أولئك الكهنة غبار الدعة والسكون وقاموا بواجباتهم وأدوا أعمالهم الموكولة إليهم لنفعوا العامة وأصابوا الغرض الذى لاجله انتظموا فى سلك الكهنوت، وهو تخفيف ويلات المنكوبين وإيتاء الصدقة للفقراء والمساكين.

وما مر عليه اليوم الأول فى رياسة كهنة ذلك الهيكل حتى تبين طباعهم واستبطن أخلاقهم وعاداتهم، بما تبجحوا أمامه به من الغطرسة والزهو والتهيه وتعمدوه من الإغضاء والإهمال فى حق امرأة ذليلة جاءت تشكو بثها من زوج عاملها بالحرمان والهجر وأخرى فى عنقوان الشباب غرراً بها مغرر حتى أخرجها من عصمة ربها وثالثة تندب سوء حظها لما أصابها من العقم ورابعة انزعج خاطرها على ولدها وفلسذة كبدها فجاءت تلتمس طمأنينة النفس وخامسة من الأيامى طلبت أن تطفئ لوعتها بالعزاء الجميل والسلوان. فقد رأى أن أولئك

الكهان بدلا من أدائهم مفروض الواجب يببالغون في احتقار تلك النسوة أو يهتمون بابتزاز المال منهن أو يعهدون إليهن ببيع الهدايا والتحف النفيسة المقدمة للإلهة هاتور ويختصون أنفسهم بأثمانها.

وكان بنطاؤُر قد دنا من الهيكل ، وملء رأسه الأفكار والهواجس، فحانت منه إليه التفاتة صوّرت له هذا المعبد في شكل أنيق ومنظر بهيج، إذ كان عبارة عن أربع بنايات تبدو لعين الناظر متصلة بمنحدر الصخور التي تناطح قممها السحاب ارتفاعا وعلى حافات سطوحها تماثيل كبيرة من النسور تمثل الإله حورس وتشير إلى الاعتقاد في الإله الحق الذي يحيى العظام وهى رميم ويبث في الاغصان الجافة ماء النضرة والحياة.

وكانت كل بناية من البنايات الأربع عبارة عن بهو فسيح الجوانب تستوى سقفه على اثنين وعشرين عموداً^(١) وتتغطى جدرانه بنقوش تخلد ذكرى عهد الملكة حاتاسو وما امتاز به من رغد العيش واستقرار الأمن وعزة الجانب وامتداد السلطن، ومن إنفاذ الدونمة المصرية إلى بلاد العرب لفتحها^(٢)، وبيان ما قامت به من جليل الأعمال كجلبها من عجائب الشرق وتحفه كل نادر ومستغرب وأنواع سكانه وحيوانه ومساكنه وصنوف أسماك البحر الأحمر^(٣). أما البنايتان الثالثة

(١) هذه الأعمدة مزلعة، وقد صنعت في الأصل لتزيين قبور العائلة الثانية عشرة، تم استعمالها ملوك العائلتين السابعة عشرة والثامنة عشرة في مبانيهم الدينية والمدنية.

(٢) نقل مارييت باشا من نقوش أعمدة هيكل الكرنك أسماء الشعوب الذين قهرهم الملك تحتمس الثالث، ولاسيما في الحملة البحرية التي وصل المصريون فيها إلى شواطئ أفريقيا الشرقية أى أراضي بلاد الصومال.

(٣) وصفها الدكتور دونتز وصفا دقيقا في كتاب له وأورد رسمها بدقة كذلك .

والرابعة فمؤلفتان من غرف أبوابها من الحجر الأصيل. وقد تم بناؤهما في أيام حاتاسو وأخويها تحتمس الثانى وتحتمس الثالث. وهما قريبتان من البنائتين الأولى والثانية وكانتا خاصتين بالتطهير وعبادة التماثيل الممثلة للإلهة هاتور وبتقديم القرابين لروح الملكة حاتاسو، وبإحداهما مكان الكاهن المنوط به تلقى الاعتراف ممن يحرزون فضل الدخول لأداء فروض العبادة فيهما. أما البقرة المقدسة فكان لها مكان خاص إلى يمين الداخل في المعبد.

فلما وصل بنطاؤر إلى المدخل الأكبر للبنية الأولى من هيكل حاتاسو شهد منظراً أزعجه وأثار غضبه. ذلك أن امرأة كانت تستأذن في الدخول إلى مكان الصلاة لاستئزال الرحمات بصالح الدعوات على زوجها المريض، فانفتل إليها البواب وكان رجلا بدين الجثة قبيح السحنة فدعها عن الباب بعنف ونهرها وقال لها مستهزئاً ومشيراً بأصبعه إلى الكتابة المنقوشة عليه: انظرى هذه الكتابة، فقد جاء فيها أنه لا يتجاوز عتبة هذا الهيكل إلا من كان طاهراً من الدنس. والتطهير لا يكون إلا بالبخور. قالت المرأة المسكينة ملحفة في الطلب: حرك مبخرتك وخذ هذه الحلقة الفضية في مقابل صنيعتك، واعلم أننى لا أملك سواها. صاح الكاهن مغضباً: هذه الحلقة الفضة! أتريدين بها أن تهبط الآلهة من علوة مجدها وسامى مكانتها لتقضى حاجة بنفسك؟ أما علمت أن حبوب (الانتا) الصالحة للتطهير تساوى من الثمن عشرة أمثال ما تعطيننى من المال؟.. قالت المرأة. قلت لك إننى لا أملك غير هذه الحلقة لأن زوجى الذى جئت لاستئزال الرحمات عليه مريض ولا يستطيع العمل لأحقوق بسد مطالبك الأمل، دع أن أولادى.. فقاطعها بقوله: أتريدين أن تسمى أولادك على حساب الآلهة؟.. اعطنى ثلاث حلقات، وإلا أقتلت دونك هذا الباب. قالت المرأة باكياً: كن رحيماً بى.. لا أدرى ما أصنع إذا لم ترض هاتور عن زوجى العليل

وتمنحه رعايتها. قال الكاهن: أوتظنين أن إلهتنا سترسل إليه الأطباء لمعالجته؟ أو ما علمت أن لديها من الأعمال ما يصرفها عن العناية بالمرضى الذين يموتون جوعاً؟.. اعلمى أن ليس من مناقبها شفاء المرضى، فيحسن بك إذن أن تقابلي (أمحوتب) و(خون) صاحب المشروعات أو (تيشوتى) المنوط بها مساعدة المرضى^(١) وإلا فلسنا ممن يبيعون الأدوية والعقاقير. قالت وقد أخذتها العبرة: إن أقصى مرادى التعزى على مصابى وتخفيف آلامى وأوصابى. فتبسم البواب وأطال النظرة فى المرأة، وكانت على جملة من الحسن وريعان الشباب، فقال: أتريدين التعزى على مصابك وتخفيف آلامك وأوصابك؟ إن التعزبة التى تريدين بضاعة لا تكلفك شيئاً من المال.

فما استأذنت هذه الكلمات على سمع المرأة حتى اصفر وجهها ودفعت البواب بعنف عنها. وكان قد أخذ بتلابيبها وشهد بنطاؤر فعله الذميم فثار فيه الغضب ولم تكن إلا طرفة العين حتى توسطهما، فاندھشاً لظهوره على حين غرة ورفع هو يده ليبارك فى الزوجة الحزينة التى جثت أمامه على ركبتها وقال: إن الإلهة هاتور تأذن لمن يستغيث بها ويبتهل إليها أن يدنو منها. واعلمى أيتها المرأة أنك طاهرة ولك أن تدخلى معبدها. فنهضت المرأة واقفة ثم انطلقت مهرولة إلى ناحية الباب بينما كان

(١) أمحوتب بن فتاح، وكان قدماء اليونان يسمونه أسكليبيوس، وكانت مدينة منفيس مقر عبادته، وكان يمثل جالساً وبیده كتاب وعليه ما يغطى رأسه، وتوجد جملة من تماثيله فى برلين ومتحف اللوفر ومتحف الجيزة، ويملك القس هامرون الروسى تماثلاً جميلاً له أما خون فأحد معبودات طيبة الثلاثة، وقد أرسل تماثله إلى أسيا فى عهد العاطلة العشرين لينقذ من الشيطان ابنة أحد ملوكها، وجاء فى كتاب «الأثر الجليل لقدماء وادى النيل» بيان هذه الحادثة بالتفصيل (صفحات ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥)

بنطاؤر يلتفت إلى البواب ويوبخه على فعله بقوله: أبعث هذا تخدمون الإلهة هاتور؟.. أبعث هذا تخففون ويلات المنكوبين وتتصدقون على بنى الإنسان بالبر والإحسان؟.. أنت معزول عن عملك فاعطني مفاتيح الباب، وبكر من غدك إلى المرعى لحراسة أوز الإلهة هاتور.

فترامى البواب على قدمى بنطاؤر باكيا منتحباً ، فلم ينثن عن عزمه ولم يرث لحاله بل ولى عنه بكتفيه وصعد ببطء إلى المكان المعد لإقامته بأعلى البناية الرابعة. وكان كلما التقى بطائفة من الكهان أعرضوا عنه إما بغض الطرف أو الالتفات إلى ناحية أخرى، ذلك لأنهم تألبوا عليه وتحزبوا ضده لاعتبارهم إياه دخيلاً فيهم. فلما وصل إلى حجرته المفروشة بأحسن الأثاث وأفخر الرياش، خلع ملابسه ولبس الحلة الكهنوتية. ثم أخذ يفكر في مركزه الشاذ إزاء أولئك الكهان ويقيس حاضره بغابره ويبين مقدار الفرق بينهما، فاستنتج من المقارنة أن حكم أمينى عليه بالنقل إلى هذا المكان كان حكماً صارماً، لأنه كان في بيت سیتی مرموق المنزلة ومحترماً من الأساتذة والطلاب. أما في هذا الهيكل فقد أصبح بين نارين: الضجر والضعف، لأنه كان إذا سار في فناء هيكل سیتی هرع إليه الطلاب من كل فج ومكان وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر وأخذ يطارحهم الحديث في العلوم والمعارف فيزداد بهذه المطارحة رسوخاً في العلم وسعة في الاطلاع والفهم .

وكان يناجى نفسه بقوله « إن الإنسان ميال بطبعه إلى كل جديد طلى إلا أنه يتعذر عليه التنحي عن العادات التي شب عليها». ثم سرح الطرف في حوادث اليومين الماضيين فمثلت له بنت أنات بشكل أخذت حقائقه تبدو بما استهوى فؤاده وملك قياده. وكان قلبه في هذه الأثناء مترادف الخفقان شديد التأثر والانفعال، كما

كان عقله محلّقاً في سماء التأمّلات الخيالية، فتذكر ما قالته الأميرة من اعتزامها سلوك منهجه واقتفاء أثره وتساءل عمّ إذا كان أهلاً لأن يكون لها مرشداً ودليلاً. ثم انتقل من هذه الذكرى إلى ما كان من إفشائه الأسرار الدينية وانكاره الطقوس والعادات الكهنوتية، ولكنه راجع نفسه بالتساؤل عن الذنب الذي جناه إذا كان الغرض الذي رمى إليه بإذاعة الأسرار جلاء المبهم من الحقائق وسلخ الأنوار؟ وأية إساءة تعاب على الإنسان إذا اعتقد بحقيقة يراها في كفة الرجحان؟ ثم استرسل في هذه التصورات استرسالاً حمله على اعتزام الثبات في عقيدته ومداومة السير في طريقته، فلما هدأ باله وسكن روعه خرج إلى سطح الهيكل مرتاح الضمير مصراً على دعوة الكهان إلى تأييد الحق وإزهاق الباطل، وأخذ يتناجى بقوله.. « ما هو الجنس البشري؟ إن أمهاتنا تلدننا فنقبل على هذا العالم ورائدنا الآلام والاسقام، وندبر عنه تاركين خلفنا الأحزان والأكدار.. أفلا يكون من الواجب المحتوم علينا- ونحن بين المهدي واللحد- أن نقوم بتسكين الآلام ومعالجة الأسقام وإزاحة الأتراح؟ وإذا رأينا دموعاً تنهمل فلم لا نبادر بتسليّة الباكين وإيداع الفرح والرجاء في قلوب العانين حتى يكفكفوا الدموع المنحدرة على خدودهم؟ إن هذا هو الواجب، وأداؤه علينا ضريبة لازب».

لم يلتق بنطاؤر بأحد في طريقه لأن الكهان كانوا قد احتفوا بالبواب ليسمعوا منه ما اتفق له مع رئيسهم على الباب وليتدبروا الوسائل لنكايته، فلما شهدهم ملتئميين تقدم نحوهم بقدم ثابتة وقال: لقد عزلت هذا الرجل عن خدمة الهيكل، إذ في بقائه بيننا العار الفاضح والوصمة التي لا تمحى أبداً الدهر. قال البواب بصوت المتبجح بعد أن تصفح وجوه الكهان بما يدل على ما بينهم من الاتفاق والتأمر: سأبرح على الفور هذا المقام قاصداً الكاهن الأعظم أميني لأسأله أيجوز للمدنيين الدخول في

الهيكل الطاهر المقدس. ثم دنا من الباب فاعترضه بنطاؤر قائلًا: ستبقى هنا اليوم والغد وبعد الغد والمدة التي أريدها، فإذا لم تسنح فرصة للعفو عنك فلا بد من صرفك لحراسة الأوز. فأرسل البواب إلى الكهان نظرة المستفهم الحائر فبهتوا جميعاً ولم تبد من أحدهم حركة كأنهم الخشب المسندة أو التماثيل الجامدة. وإذا رأى بنطاؤر ذلك منهم قال للبواب : عد إلى مكانك. فلم يسعه إلا إطاعة الأمر. فأغلق بنطاؤر الهيكل وسلم مفتاحه إلى بعض الخدم قائلًا له: لقد جعلتك في حراسة الباب بدلا من هذا الرجل، وكن عيناً عليه حتى لا يفر من هذا المكان ولا قضيت عليك مثله بحراسة الأوز.

ثم التفت إلى الكهنة وقال: أنتم ترون أيها الأصدقاء أن الهيكل قد غص بالعابدين وأنهم متجهون إلى الإله بقلوبهم، يستندون ببركاته بصلواتهم ، فاهرعوا إلى أداء واجباتكم الدينية. أما أنا فسأذهب إلى غرفة الاعتراف لسماع بث الشاكين وتفريج هموم المنكوبين.

فتفرق الكهان شتاتاً في كل مكان، وصعد بنطاؤر في الدرج قاصداً إلى محل الاعتراف الذي كانت صورة حاتاسو مرسومة على جداره تستدر لبن الحياة الأبدية من ضرع بقرة هاتور. وما كاد يصل إليه ويسدل على بابه الستار حتى جاءه النيكور (فريق من الكهان) فأخبره بوصول سيده تبدو عليها أمارات الحسب والجاه، وأنها تلتمس الدخول إلى محل الاعتراف وأنها وأتباعها متنكرون بحيث لا يستطيع التعرف عليهم أحد، ثم قدّم إليه العلامة الرمزية التي أطلع الكاهن الأعظم هذه السيدة عليها لتستطيع بواستطها الدخول في الهياكل المقدسة. فوقف بنطاؤر خلف الستار ولبث ينتظر الزائرة وهو في قلق عظيم مع أن أمينه كثيراً ما كان يعهد

إليه وهو في بيت سیتی استقبال الأميرات والأمراء العظام لتفسير ما يرونه من الأحلام.

ولم تكن إلا جولة خاطر حتى أقبلت سيدة رشيقة القوام سارت مندفة نحو غرفة الاعتراف ولزمت الصمت، ثم جثت على ركبتها أمام المعبودة هاتور في وضع يدل على الطاعة والخشوع. أما بنطاؤر الذي كان وقتئذ خلف الستار، فقد بسط يديه بالدعاء إلى فاطر السماء أن يؤيده بروح منه ويثبته على الطهر والنزاهة. وما أتم دعاءه حتى رفعت السيدة رأسها فخير للناظر أنهما سواء في التجرد عن المحسوسات الكونية والتوجه بقلبيهما إلى المقاصد العلوية، ووقفت السيدة بعد ذلك حاسرة النقاب عن وجهها فإذا هي بنت أنات جاء بها إلى هيكل المعبودة هاتور قلق تسلط على الفؤاد فسلبها لذة الرقاد، وقد خاطبت المعبودة بقولها: يا ملكة السموات يا زاهية الطلعة يا صاحبة الأسماء العديدة.. المعبودة هاتور.. أنت المطلعة على أسرار السعادة والشقاء والأفراح والأتراح، أنت التي أحاط علمك بحوادث الحال والاستقبال، اقتربى من ابنتك واهدى عقلها الحائر إلى قصد السبيل والمثل الأعلى للحق والصواب. إنى أكرم ابنة لأكرم أب في هذه الديار، بل أقرب الناس عند المقارنة إلى مكانة الربوبية. دعانى هذا الوالد الكريم إلى الاقتران برجل لا يهواه فؤادى ولا تحن إليه جوارحى، ولم يكن طلبه هذا لزاماً إذ خولنى حق الرفض والقبول وكانت محاسن الاتفاق قد ساقته إلى طريقي رجل اخر، إن يكن وضيع الأصل خامل الذكر فهو رفيع الهمة رحيم القلب متوقد القريحة..

وكان بنطاؤر منصرفاً عنها بتلاوة الدعاء، فلما بلغت من المناجاة إلى هذا الحد وأدرك أنه هو انقصود بها، أخذ يفكر أيجوز له البقاء في مخبأه لاستقصاء ما يمكنه صدرها من الأسرار أو البروز من خلف الستار حتى لا تفوه بعد الذى أبدته بما لا

تود إطلاع الغير عليه، فأثر البقاء قليلا حتى تنطق باسمه أجمل أميرة وأشرف امرأة في الأمة المصرية، غير أنه هتف به هاتف يقول له «خذ حذرک يا هذا، ولا تدع تلك التي أوليتها خالص حبك تفوه بكلمة تفضى بها إلى الاستحياء منك إن فهمت أنك كنت أذننا لمناجاتها من وراء ستار» فاتبع نصيحة الهاتف إذ بادر في الحال بفتح الستار والتقدم نحو بنت أنات بقدّم الحزم والثبات.

ما وقف نظر الأميرة عليه حتى عراها وله فتراجعت إلى الخلف قائلة: يا لله.. من أنت؟ ومن أين أنصبت علي؟ أنت بنطاؤور أم إله من آلهة هذا الهيكل؟ أجب: كلا بل أنا بنطاؤور.. أنا المحب لخير الناس وبرهم على ما بي من ضعف وعجز.. أنا الراجي منك البقاء في هذا المكان حيث لا أثر للمخاوف والأحزان.. افتحى قلبك للإلهة هاتور وثقى أننى سأقضى حياتى كلها في الدعاء لك واستمطار غيوث الرعاية الربانية عليك. وكان بنطاؤور يتناولها بنظره وينصرف إليها بلبه وفؤاده، وإنه لكذلك إذ حانت منه التفاتة إلى باب السر، لمكان الاعتراف فذهب مهرولا نحوه كما لو توقع خطراً على نفسه، فصوتت به بنت أنات فأقبل عليها متباطيء فقالت: لا أريد وأنا ابنة رعمسيس الجهر بحقيقة ذاتى ولا المطالبة بالمفروض من احترامى، وإنما باعتبار كونى الفتاة بنت أنات أخبرك بأننى لم أتوقع رؤيتك في هذا المكان بدلا من الشيخ رونى الذى جئت أساره في أمرى وأفضى إليه بما في صدرى. وحيث إنه من هنا قد مضى فدعنى أتم صلواتى وأوجه إلى الإلهة دعواتى.

ثم جثت على ركبتها وخرج بنطاؤور، فلما أتمت الصلاة برحت المعبد. وكان قد طرق أذنيها دوى شديد وجلبة عظيمة من ناحية الجنوب فأطلت من الشرفة لاستطلاع السبب، فسمعت أفواج الشبان ينادون: ليحيا بنطاؤور! ولم يكن إلا مرّ الطيف حتى أقبل الشاعر مسرعا ووقف إلى جنب بنت أنات، فما بصرت به جموع

المتظاهرين حتى ضاعفوا الهتاف قائلين: بورك في بنطاؤور! يقوى بنطاؤور! هو مولانا
وسيدنا! عد إلى بيت سيّتي! ليسقط الظالمون! ليهلك المعتدون!

وكان راميرى شقيق بنت أنات في طليعة الطلبة المتظاهرين الذين لم يكن
احتشادهم نتيجة اتفاق سابق بل جاء من طريق المصادفة، لأنهم ما كادوا يقفون
على خبر نفى أستاذهم من لسان الأمير حتى تسللوا من الهيكل بعضهم في أثر بعض
وتركوا الدرس بتحريضه وإغرائه ثم تدفقوا بقضهم وقضيضهم إلى فناء الهيكل
للقيام بتلك المظاهرة الولائية الدالة على مكانة بنطاؤور من نفوسهم. ولما وصلوا قبال
الشرفة أشار راميرى إلى أخته إشارة الفرح بالانتصار والفوز، ووقف الشاب أنانا
أمام زملائه الطلاب فألقى خطبة فصيحة العبارة بليغة المعانى أبان فيها أنه ورفاقه
قد عقدوا النية على مغادرة بيت سيّتي إذا لم يبلغ أمينى أمره الأول القاضى بإبعاد
أستاذهم وحرمانهم الاستفادة بثمار معارفه اليانعة. قال هذا بذلاقة لسان لم
تتمالك معها بنت أنات من أن تصفق بيدها على اليد الأخرى إعجابا واستحساناً. أما
بنطاؤور فقد كان وجهه يتردد ويكفهر حينما أوشك أنانا أن يتم خطبته، فلما أتمها
نشب يعنفه على مروقه عن الطاعة الواجبة للكاهن الأعظم، وذمم إليه وإلى زملائه
عدم الأخذ بالتؤدة والحيطه في الأمر وقال: إنه لجدير بى أن أحزن إذا كان ما لقنتمكم
إياه من الدروس لم يثمر إلا تشجيعكم على مخالفة النظام واحتقار القوانين. إن
القصور الشاهقة والدور الرفيعة الذرى كانت مساقط رؤوسكم، فإن أنتم لم
تشبوا على الطاعة فبم تسودون غيركم وتحكمون؟ عجلوا الأوبة إلى مدرستكم فإن
ترددتم فإنى مرغمكم على ذلك بقوة الحراس، ولا يذهبن عليكم أن مظاهرتكم إياى
بالميل لى على هذا الوجه لن تتفق مع سموّ مكانتكم، كلا بل ولا تطابق الأصول التى
نقشتها في صفحات صدوركم.

لم يجرؤ المتظاهرون أن يردوا بكلمة على هذا الاعتراض ، ولكنهم تداولوا ملياً فانحط رأيهم على العودة إلى المدرسة، وقد وخز الندم ضمائرهم. أما بنت أنات فقد مدت نظرها إلى راميرى وهو يهز كتفيه ضجراً وتبرماً فاغضت عنه الطرف ثم التفتت إلى بنطاؤور وقد تنازعتها عاملان: الخجل والاحترام. وفيما هى ترشقه بنظراتها إذا بالوادي وقد امتلاً ضجيجاً وعجيجاً، ولاح من بعيد غبار كثيف وطرق الأذان سهيل الخيل ووقع حوافرها وفرقة المركبات التى تجرها، وانجلت الجلبة عن قوم وقفوا أمام الهيكل فإذا بهم سبتاح رئيس المنجمين ونفر من الحراس يحفون به.

نزل سبتاح عن مركبته وعلامات الغضب باادية على وجهه وأخذ يعنف الطلبة الهاربين من المدرسة بأشد الالفاظ وقعاً فى النفس. وبعد أن أمر أعوانه بسوقهم إلى هيكل سيتى، دخل المعبد فاستقبله الكهان بمظاهر الاحترام والإجلال وأنشأوا يعرضون عليه شكاياتهم فأصغى إليهم وتلطف بهم. وبالرغم مما ناله من الإعياء والتعب صعّد مسرعاً فى درج الهيكل فالتقى فى طريقه ببنت أنات، وما كاد يقع نظرها عليه حتى أسدلت النقاب ومرت بجواره. وكانت موقنة أن بقاءها فى الهيكل قد يفضى إلى تأويل أسبابه على غير ما تحب ، إلا أنها لم تعبأ فى بادىء الأمر بسبتاح بل صعّدت فيه النظر، والغيط محتدم فى صدره. فلما وقف على خبرها أحنى رأسه أمامها إجلالا دون أن يبارك فيها. ثم استأنف الصعود فالتقى بينطاؤور فأمره بإخراج المصلين على الفور من المعبد، فنفّذ أمره فانتشر السكون بأرجائه، وإنما اتفق أن وقع حادث جليل لم يقع مثله بساحة المعبد منذ أنشئ وأقيمت فيه صلاة للمعبودة هاتور.

ذلك أن سبتاح كان خصماً لدوداً لبنطاؤر، وكان كثيراً ما ينتقد الكاهن الأعظم لإبقائه إياه في سلك الكهنة ناعياً عليه أنه زلزل أركان الدين ووضّع جدران التقاليد القديمة التي كان في مبدأ أمره من أول المتمسكين بها والمتعلقين بأهدابها. ونسب اضطراب الطلاب في هذا اليوم إلى ما يكون قد بثّه من الدسائس ، فما كاد يقع نظره على بنطاؤر حتى أنحى عليه باللائمة ولم يراع له كرامة إذ قال: لقد ألقيت بأبنائنا في مهاوى الوبال وأغرّيت بنت أنات بالتمادي في الضلال ولا أدري كيف أجزت لنفسك الاتفاق معها على التلاقى بهذا المكان الأقدس مع تلوّثها بالدنس؟ وكيف زدت الطين بلة بأن جعلت موعدك بلقائها في معبد الإلهة هاتور البريئة من العيوب والنقائص؟.

إذا كان الثناء يبذل من ضعف القلوب قوة بما يبثه فيها من الثقة ويحييه من ميت الأمل فإن اللوم الجائر يكون في طريق القوى الثابت الجنان كالحجر الذي تزل فيه أقدام الشجعان. فإنه ما كادت ترن في أذن بنطاؤر عبارات التأنيب التي وجهها سبتاح إليه حتى هاج غضبه وقال: إن ما رشقه به من سهام التنديد والتبكيك لم يكن على شيء من الحق والعدل، بل هو مما لا يليق بمثله منزلة وسنا وشهرة أن يلفظه. وقد اقتصر على هذه الملاحظة دفعاً لسوء العاقبة إذا هو مضى مسترسلاً في إحاض التهم التي وجهها إليه، ثم ولى بجانبه عن سبتاح فجأة فتعلق هذا الشيخ بأذياله وأمسك بتلابيبه وصاح بكهان الهيكل فهرعوا إليه وسألهم عن سيرة بنطاؤر فتطابقت شهاداتهم على ما يؤيد إدانته قائلين: إنه لم يكتف بفتح باب الهيكل على مصراعيه لبنت أنات، بل أدخل فيه امرأة أخرى ملوثة بالدنس مثلها، وزج بالبواب في السجن لأنه أقام الحجة عليه إزاء هذا الخروج على الأنظمة الكهنوتية.

أم رئيس المنجمين بإطلاق سراح هذا السجين فاهتاج بنطاؤور لذلك واحتج، لا لأنه استطاع أن يدحض التهم المسندة إليه، بل لأنه المسؤول وحده عن إدارة شؤون الهيكل، ثم طلب إلى رئيس المنجمين -وقد تهدج صوته- الخروج من المعبد، فأبرز له سبتاح خاتم أمينى الذى يثبت نيابته عنه فى إدارة الأعمال الكهنوتية أثناء غيابه وقال إنه بمقتضى السلطة المخولة له قد قرر عزله من منصبه الكهنوتى وأمره فى الآن نفسه ألا يبرح الهيكل إلا بإذن، وقصد بعدئذ هيكل سبتى ليرفع إلى الكاهن الأعظم نتيجة المهمة التى عهدا إليه. أما بنطاؤور فمذ وقع بصره على الخاتم أحنى رأسه احتراماً وطاعة وانتقل من فوره إلى الغرفة التى اجتمع فيها بنت أنات. وكان يحس اضطراباً فى ضميره وخفقاناً بقلبه وأنه فى متنازع العواطف المتناقضة والأفكار المتباينة، واختلط عليه حتى صور له أنه يرى الكهان وهم يسخرون منه ويحقرونه والبواب وقد تجاوز فى مخاطبته حدود الأدب، إذ أخذ يرشقه باللفظ البذىء ويعيب عليه صرامته فى معاملته ويذكره بما تم لأهل الهيكل من الغلبة عليه فى كيدهم له. وقد كان فى سماعه لهذه الأقوال يرعد وينتفض كما لو أتى ذنباً يسجل عليه العار ويقبحه فى الأنظار.

ولكنه ما لبث أن هدا روعه شيئاً فشيئاً بعدما برح الغرفة ونصد إلى أحد مستشرفات الهيكل. فإن شعاعاً من الأمل انبعث إلى فؤاده فصبره على تجرع الغصة وقواه على كظم الغيظ. ولقد حانت منه، وهو واقف، التفاته إلى ما يلى نهر النيل من ناحية الشرق فأبصر قصر الملك رعمسيس مسقط رأس بنت أنات ومعهد أنسها، فدبت فيه روح الهمة وتضاءل أمامه بأس أعدائه حتى تلاشى، وتضخمت فى نظره خساستهم وضعة قدرهم فازدرى بهم وترفع عن مناواتهم، ولكنه لم

يذهب عليه أنه أصبح محفوراً بخصوص ألماء وأن قد حانت الساعة للنضال
والمقارعة في ميدان النزال.

الفصل الخامس عشر

ربما أرشد الكبيرَ صغيرٌ .. وقاد ذا العينين ضريير

كانت الشمس مؤذنة بالمغيب حينما وقفت الأنظار على مركبة يجرها اثنان من الجياد الصافنات، تجرى في النهج المؤدى إلى هيكل حاتاسو، يتبعها كلب كبير الجثة يلهث بلسانه. وكان بعاكر يقود هذه المركبة ويتبعها العبد الحبشى الذى سبقت الإشارة إليه في بعض الفصول المتقدمة، فما دنت من جدران الهيكل حتى طرق الأذان صوت يصيح صاحبه مناديا « يا بعاكر! ». فاتأد بعاكر في سبره لاستجلاء الخير، وبينما هر يتلفت يمنة ويسرة كالمرتاب في أمره إذا برجل قصير القامة يهرول مقبلا من مخبأ اختبأ فيه كما لو كان يتوقع مروره واللقاء به. فما وقع نظر بعاكر عليه حتى عرف أنه القزم نيمو، فقال له: أمثلك من يعترضننى في طريقى.. ما تريد إذن منى؟ .. فأطرق نيمو رأسه إعظاماً وإجلالا وقال: إنى أبتهل إليك بما عز عندك أن تأخذنى إلى طيبة متى عدت من قضاء ما لأجله قد جئت. قال بعاكر: ألم تكن قزم مينا؟ أجاب: كلا، إنما أنا خادم نيفرت قرينته المهجورة المنسية.. وإذا رفعت إليك هذا الملمس فما هو إلا لأن قدمى الصغيرتين لا تستطيعان أن تقطعا هذا الطريق الطويل الكثير الرمل والعثير، بخلاف جيادك الصافنات فإن أقدامها تنهيه نهياً. قال بعاكر: دونك والركوب معى! ولم جئت ماشياً إلى هذا المكان؟ أجاب: ما جئت ماشياً بل راكباً حماراً فأصابه مس من الشيطان فهوى إلى الأرض بلا حراك. والراجع أن بنات أوى ستجعل اليوم منه غذاءها فتكون أوفر منا حظاً. قال بعاكر: المتبادر من كلامك أن الخير عند سيدتك غير موفور. قال نيمو: أما الخير فلا يزال عندنا منه

بعض الرغفان، وأما الماء فالنيل طافح به، وأما اللحم فمن عادة النساء والأقزام ألا يميلوا إليه. ولقد تشكلت آخر بقرة بقيت في حوزتنا بشكل جديد إذ صار لحمها جامداً وكان طريا، فلم يفهم بعاكر معنى هذه النكته، فالتفت إلى نيمو بعين المستفهم فقال هذا له، وقد تبين سبب حيرته: نعم، إنها بيعت فاكتسبت شكل النقود، والنقود جامدة. على أن النقود أوشكت أن تنفد من عندنا فتضطر إلى التغذى بالطين والماء وأوراق النخل. أما أنا فلا يهمنى أحضر الطعام أم غاب لأن معدة القزم صغيرة يملؤها الشيء اليسير، بخلاف مولاتي المسكينة الرقيقة الحواشى.. عندئذ أهوى بعاكر بسوطه على غاربي جواده حتى ألهما فأخذا يثبان ويجمحان، وعجز عن إنزالهما وكبح جماحهما إلا بما بذل من الحيلة والسياسة وما إليهما من مختلف الوسائل. واطلع على حقيقة الأمر العبد الحبشى فقال لمولاه ربما أودى بحياتهما ضريك بهذه القسوة، ومن الخسار أن نفقد هذين الجوادين الكريمين. فتبرم بعاكر بهذا الكلام وقال: وهل يسألك أحد ثمنهما إذا ماتا؟ ثم التفت إلى نيمو وقال متأثراً: وكيف يهمل مينا شؤون بيته فيتركه بلا مؤنثه من الطعام؟ أجاب نيمو: لأنه يكره نيفرت قرينته وقد طلب إليه الملك بعد الفوز الأخير أن يختار ما تصبو إليه نفسه من الغنائم فانتخب من بين السبايا من راقه جمالهن وسار بهن إلى صيوانه. ولا أعلم كيف أقدم على هذا الفعل وليس في نساء مصر من يدانى نيفرت في حسنها الفاتن. سأله: أتحبها يا نيمو؟ أجاب: كيف لا وهي أعز عندي من إنسان عيني.

كانت المركبة في أثناء الحديث قد بلغت إلى باب المعبد فألقى بعاكر بأزمة الجياد إلى العبد الحبشى ثم نزل عنها وأشار إلى نيمو بالانتظار فيها حتى يعود. وسأل بعاكر البواب في الدخول لمقابلة رئيس الكهان ثم وضع بضع حلقات من النقود في يده فأخذ الرجل يطوف بالبخور حول بعاكر وفتح الباب قائلاً: عسى أن تجده

بالقسم الثالث من الهيكل، ولكنه لم يكن الآن رئيسنا. سألت بعاكر: وكيف وهو المعروف في هيكل سيثى بأنه الكاهن الأكبر لهذا المعبد؟ فهز البواب كتفيه مبتسماً وقال متهكماً: قد يريد الإنسان رأس النخلة فيجد في البلوغ إليها بعض العناء ثم لا يلبث- إن سقط- أن يصل إلى أسفلها بأسرع مما وصل إلى أعلاها، والحجر الثقيل رفعه عسير وحطه يسير. قال هذا وصحب بعاكر إلى مكان بنطاؤور. فما وقع عليه نظر الشاعر حتى عرفه وسأله عمّ جاء به إليه. فأجاب: إنه جاء في استفسار حلم رآه.. وقبل أن يقص رؤياه عليه قال إنه لا يسأله التفسير بالمجان بل إنه اعتزم أن يرسل في مقابلة هدية فاخرة إلى الإلهة هاتور، إذا جاء التفسير مطابقاً لمشتهاه. سألت بنطاؤور: وما كنت تفعل لو جاء على غير مرادك؟ أجب: اكتفى منها برأس من الضأن. قال هذا دون أن يفهم المراد من سؤال بنطاؤور، لأنه كان اعتاد في تقديم القرابين والهدايا إلى الآلهة أن يجعلها بحسب أهمية التفسير ومطابقتها لمشتهاه، وكان من جهة أخرى يجهل أن بنطاؤور لا يكثر لما يقدمه الزوار من الهدايا والقرابين. ولقد تذكر بنطاؤور ساعتئذ ما سمعه من الكاهن جاجابو وهو يزن الموهار ويبيد رأيه فيما اتصف به من الجهالة والضعف والاعتزاز، فأحب أن يختبره ليقبس حكمه عليه بحكم ذلك الكاهن فسأله: وإذا فسرت رؤياك بما لا يكون طيباً ولا خبيثاً، فماذا أنت فاعل؟ أجب: أقدم غزالاً وأربعاً من الأوز. سألت بصوت شديد: وماذا تفعل إن امتنعت عن قضاء حاجتك ورأيت أنه لا يليق بشرف الكاهن الإتجار بوظيفته، وتعريضها للتحقير والامتهان، وقلت لك إنه لا يجوز له قبول هدية في مقابل ما هو مكلف به من قضاء مصالح الناس؟.. إنى أعرفك مذ كنت معنا تلميذاً بالمدرسة وأريد تعريفك الآن بأن من الأشياء مالا يصلح للشراء ولا للبيع، مهما تكن ثروة المشتري من مال طائل تليد وطارف.

فتراجع الموهار إلى السوراء مبهوراً، إذ لم يسبق له أن رأى من كاهن مثل هذا الشمم وهذا الإباء. ولم يجر جواباً على كلامه، فاستأنف بنطاؤراً حديثه قائلاً: لم أكن هنا إلا عبداً خاضعاً وخادماً حقيراً للإلهة هاتور، وقد بدا لي من وجهك أن صدرك ممتلئ بالغضب والحقد على وأنت على وشك المضي فيما جبلت عليه من الشدة والعنف. ولكن فلتعلم أن القدرة الربانية لم تبعث إلينا بالأحلام في المنام لتعليل النفس بفرح أو لصيانتها من همّ وترح، وإنما هي وسيلة تمهد للنفس السكون والطمأنينة بالتوكل على الإله في حالة الهم والترح وبالشكر له والثناء عليه في حالة السرور والفرح. والسدى أراه وأذهب إليه هو أن يكون بكأؤنا وضحكنا مرآة ما وصلت إليه نفوسنا من درجات الكمال، ومن ثم أرفض رفضاً قاطعاً تفسير رؤياك، على أن لك أن تعود إلى هنا مرة أخرى صفر اليدين من الهدايا والهبات وممتلئ القلب بالصدق والخشوع، فأسأل المولى عندئذ أن يفيض على من نوره ما اهتدى به إلى تأويل الرؤيا بما يدعو إلى التفاؤل بالخير ولو كانت مما يدعو إلى التفاؤل بالشر، وأرجو منك بعد هذا أن تتركني وشأني وأن تبرح الهيكل. فحرق بعاكر الأرم غيظاً ولكنه غلب على نفسه فكظم غيظه وانصرف مدمماً بقوله: لو لم تعد إلى الصواب بنفسك لعاقبتك على تبجحك ووقاحتك، ومع هذا فلسوف أريك كيف يكون تأثير الثروة ولو كانت آتية من طريق الميراث. أما بنطاؤراً فقد قال في نفسه: هذا عدو آخر ولكن من غير طراز أولئك الأعداء!

كان نيمو في خلال محادثة بعاكر وبنطاؤراً، قد استدرج البواب إلى الايغال معه في مناجاة افضى هذا إليه أثناءها بكل ما وقع من الحوادث في المعبد صبيحة اليوم، فلما خرج بعاكر وركب العجلة كاد نيمو يتميز من الغيظ لأنه لم يركب معه فجذبته العبد الحبشى من ناصيته ورفعته حتى ألقاه بالقرب من قدمي مولاه حينما كان

يزمجر قائلاً: هذا الحقير! هذا الوغد الدنيء! هذا الكلب لسوف يرى! لقد علمت أن اسمه بنطاؤر! فلما سمع نيمو اسم الشاعر قال لبعاك: يظهر أنهم عينوا لرياسة هذا المعبد لصاً يقال له بنطاؤر كان ببنت سیتی ثم نُفى منه لقبح سيرته وسوء سمعته. ومن أفعاله الشائنة أنه حرّض طلاب المدارس العليا على العصيان وادخل في هذا المعبد نساء بالدنس ملوثات. وقد نقل لى البواب الآن أن رئيس المنجمين فاجأه اليوم مع بنت أنات فعزله عن وظيفته الكهنوتية. فبهت بعاکر وقال متعجباً: مع بنت أنات!.. وسكت هنيهة ثم قال: نعم مع بنت أنات، وهو الذى لا بد قد قضى معها فى بيت المحنط تلك الساعات وقتما كنت أحداث نيفرت وأجلب الماء إليها من مغارة الساحرة. قال نيمو: إنى لا أتمنى أن أكون فى موقف بنطاؤر لأنه إذا كان رعمسيس بعيداً عن هذا المكان فإن أنى قريب منه. ولست بمنكر أن أنى بطيء الحركة فاتر الهمة، ولكنى أعتقد أنه لا يود أن تدرج تلك الحمامة من عشه أو تفلت من يده. فرمق بعاکر القزم بعين الحيرة، إذ لم يدرك المراد بهذا الكلام، فقال نيمو الماكر وقد تبين سبب حيرته: إن السوالى أنى التمس من رعمسيس أن يزوجه من ابنته فلم يجاوبه سلباً، لأنه حفظه الله ممن يحبون البسط والانشراح بإقامة الأفراح. ولعلك تعلم ذلك أكثر مما يعلمه غيرك. سأل بعاکر: أنا.. أجاب نيمو: ومن غيرك؟.. وهل ذهب عليك أن مليكنا هو الذى أكره راتوتى على تزويج فتاتها من مينا.. لقد أفضت إلى بهذه الحقيقة وهى على ما أعتقد لا تنكرها إن حادثتها فى موضوعها. فهز بعاکر رأسه استنكاراً، ولكن القزم استرسل فى الحديث بصوت المقتنع بصدق ما يقوله إذ قال: ومع هذا فقد كان من أحب الأمانى إلى راتوتى أن تكون زوجاً لابنتها، وإنما قضت الإرادة الفرعونية بتزويجها من غيرك. والسبب فى ذلك على ما أيقنته أنك لم تكن محمود السيرة فى الباب العالى بدليل ما يعييه رعمسيس عليك ويذكرك على

الدوام به مما لا يرضيك سماعه، ولا يدهشك علمى بهذه الأسرار فإنما أنا أشبه بالفأر المختبئ وراء الستار يرى كل شئء ويسمعه دون أن يراه أو يسمعه أحد.

هنا أوقف بعاكر مركبته ونزل عنها وأشار إلى نيمو بالنزول بعده، فلما صدع بأمره دعاه إلى مسابرة حتى يبلغا النهر ليستطيع أن يسمع منه كل ما يعلمه منذرا إياه بأنه إن تبين له كذبه تركه فريسة للكلاب تمزق جسده شر ممزق. قال نيمو: أعتقد أنك على فعل ما تقول أقدر منك على قول ما لا تفعل، غير أنى أرجو منك أن تمشى الهويئا فقد ابتدأ التعب ينال من قدمي.. وبعد ففى وسعك أن تستقصى من راتوتى ما وقع من الحوادث بينها وبين رعمسيس، وأنا ضمنين بأنها لن تتراجع عن الجهر لك بأن فرعون أكرهها على تزويج نيفرت من مينا. وما أشقى حظ سيدتى المسكينة التى أمنت بأكاذيب ذلك الأحمق وأباطيله فكان نصيبها أن تواصل الليل بالنهار فى الأحزان والأكدار. ولطالما مررنا أنا وراتوتى أمام منزلك فكانت إذا رآته حددت إليه نظرها وتنفست الصعداء وأخذت نفسها بالتعزيز والتعنيف لسقوط عزها وامتهان كرامتها ولأنها أوشكت أن تضطر إلى السكنى مع أمة الأمم^(١) النازلة فى البلاد الواطية، لأن الأشراف والعظماء سيفرون منها ومن ابنتها فرار السليم من الأجر.. ويحق لمثلك فى الواقع أن يهنئ نفسه لأنك لم تخلط حظك بحظنا، وإلا لمسك بعض ما مسنا.. هذا ولا مناص لى من ملازمة سيدتى الفاتنة للعقول بجمالها إذ ينبغى لى كما شاطرتها أيام الفرج والرخاء أن أشاطرها أيضا

(١) الأمم قوم من أبناء سام كانوا فى عهد حوادث هذه الرواية يقطنون الجانب الشرقى من الوجه البحرى. راجع كتاب (المصريون وكتاب موسى) لجورج ايبرس مؤلف هذه الرواية والفصل الخاص بالساميين فى مصر من كتاب (تاريخ مصر) تأليف بروكش. وذكر ماسيرو أن لفظة أمو أو (بى-أمو) انقلبت فيما بعد بتواتر الاستعمال (بياميت).

أيام الشدة والضيق. فقطاعه بعاصر: لم تكثر من الألغاز والأحاجي، وما معنى هذا الهذر والهذيان اللذين لا أساس لهما ولا أركان.. أفتخشي أذى إن أنت أفصحت وللحقيقة أوضحت؟..

أخذ نيمو عندئذ يقص عليه ما اتفق لأخى نيفرت من مقامرته على جثة أبيه وخسارته إياها وأنه أصبح مثقلاً بالديون وأن راتوتى ونيفرت أصبحتا من ذلك في غم شديد لانثلام شرفهما وسقوط جاههما وتلوث صحف تاريخهما على مدى الأيام. ثم سكت هنيهة واستأنف الحديث بصوت المتوجع: ولكن لا بد لهذا الداء من دواء إذ مازال بالإمكان انقاذهما من وهدة الذل والامتهان.. إنى أرى زوج نيفرت يبعثر ماله التلبد والطارف وما انضم إليه أخيراً من حصّة وافية في غنائم الحرب دون أن يفكر في زوجته. وليس في قدرة راتوتى أن ترتق هذه الفتوق لأنها إن دعت الناس إلى معاونتها انفضوا من حولها وتفرقوا ببدأ كالدجاج الذى تهوله رؤية النسر منقضا عليه من السماء. سأل بعاصر: ما مبلغ الدين؟ أجاب: الدين فادح ولا أدرى في هذه الأيام التى عمّ العسر فيها وطمّ حتى أصاب الناس جميعاً كيف تدفع سيدتى عنها العار بتسديده للدائنين. ولقد أنست من نيفرت العزم البات على هجر زوجها والبعد عن مخالطته، بعد إذ عهدت منه الكذب والتراخي في أداء حقوقها المفروضة شرعاً عليه، ولعلها الآن لهذا السبب تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه. فتصفح بعاصر وجه نيمو تصفحاً ينم عن ارتياحه في صدق أقواله وتنبه نيمو لذلك فابتدره بقوله: نعم تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه، لأنها ما برحت - منذ التقيت بها في المقبرة - تذكر اسمك وتحدث بأمرك. وكثيراً ما أفاضت في مدحك وذكر مناقبك وإيثارك الجد على المطايبه والمهازلة. وهذه المزاي لم تتوافر قط في

زوجها الذى عهدت فيه الخفة والنزق. ولقد بدا لى منها ما أيد عندى الظن فى أنها وقعت فى شرك حيك. فأحس بعاكر حينما سمع هذه الكلمات قشعريرة اختلجت بشدة تأثيرها أعضاؤه فمشى مغدًا فاضطر نيمو إلى الرجاء منه ثانية أن يتند فى سيره ويتباطأ، فأجابه بعاكر إلى طلبه وظل الاثنان يسيران الهوينى حتى بلغا إلى ضفة النيل دون أن يلتقيا بأحد، إذ كان السكون سائداً على جميع الأرجاء. وكان زورق بعاكر المزخرف بأبدع النقوش والرسوم راسياً عند الضفة ليستقله لى عودته إلى طيبة، فنزل إليه مع نيمو والحشم والمركبة وجواديهما وجلس فى غرفة بمقدمه وإلى جانبه نيمو. فلما استقرا فى مكانيهما، قال بعاكر لنيمو بصوت خافت: أنا من قرابة راتوتى.. كنا فى خصام ثم تصالحننا أخيراً، فلم لم تقصد إلى فى قضاء حاجتها وتفريج كربتها؟.. أجاب: لصلفها وعزة نفسها وتجاफीها عن كل ما يحط من قدرها.. ولاعجب مادام الدم الذى يجرى فى عروقها هو عين دمك. ولقد سمعتها ذات يوم تقول إنها تفضل الموت مع أبنائها على أن تبذل ماء وجهها فى التماس النجدة من رجل تعتقد أنها أساءت إليه. وقد اتبعت فى ذلك المثل القائل « لا تطلب الإحسان ممن أسأته». قال بعاكر: يؤخذ من قولك أنها فكرت فى الاستمداد بمعونتى؟ أجاب: نعم فكرت فى ذلك من بادىء الأمر، وإن ترد أن أبوح لك بالأسرار كلها فإنى أؤكد لك أنها لم تشك لحظة فى كرمك وسعة جنابك وما رأيت منها إلا الاحترام لاسمك والتعظيم من شأنك، فإن ساعدتنا الأقدار وأصيب مينا بسهم فى الحرب أو غيرها يصمى فؤاده فإنها ستعد نفسها ولاريب سعيدة بأن تضع ابنتها العزيزة بين يديك، وأعتقد أن نيفرت لن تنسى ذكرى رفيق الطفولة والحبيب منذ نعومة الأظفار، بدليل أننا حينما عدنا ذاك المساء من مدينة الأموات وقبل أن يُفتح الخطاب الوارد من ميدان القتال كانت ملآنة منك^(١). ولقد اخبرتنى خادمتها بأنها

(١) كان قدماء المصريين يقولون فلان ملآن منك أى ممتلئ بحيك، وباللغة المصرية القديمة (يه).

سمعتها تهذى باسمك أثناء نومها. فأطرق بعاكر برأسه وقال: إن هذا لمن أعجب العجب!.. في الليلة التي ذكرتها رأيت فيما يرى النائم أن نيفرت برزت من خدرها تتهادى في أحسن مظهر وأجمل رواء، وقد أبى كاهن الهيكل ذاك الجبان الوقح أن يفسره لى. قال نيمو: إنه لرجل مجنون.. ومفسرو الأحلام هنا كثيرون، وإنى لمن أوسعهم خبرة بتفسيرها، وقد ذهبت لى بذلك شهرة يعرفها الجمهور وفي مقدمتهم أتباعك، نسلهم إن لم تكن من المصدقين. وكثيرا ما جاءت الوقائع مؤيدة لصدقى في التأويل. فقص إذن على ما رأيته في المنام. فأنشأ بعاكر يرسم بمقبض سوطه على البسط خطوطاً ملتوية متعرجة ثم قال: رأيت أننى كنت على مقربة من النيل وأنى أرى الماء راكدا والسماء صافية الأديم، فلمحت نيفرت بالصفة الأخرى تناديني باسمى، فأشرت إليها بأصبعى فهرولت نحوى جرياً على وجه الماء، كما لو كانت تجرى في السهل. فلما تداننت حتى صارت منى على قيد شبرين مددت إليها يدي لتمسك بها، فما هو إلا مرّ الطيف حتى غاصت إلى قرار الماء واختفت عن الأنظار. عندئذ لم أتمالك أن ألقيت بنفسى إلى الماء ونزلت فيه هابطاً فإذا بى قد أدركتها وأخذتها في ذراعى، غير أنى لم ألبث أن شهدت صورتها الجميلة تتلاشى قليلاً قليلاً، كما يتلاشى برد جبال سوريا إذا جعل في قبضة اليد وتأثر بحرارتها فاستحال إلى ماء، ورأيت شعرها الفاحم وقد انقلب لونه إلى أبيض ناصع ناعم كزهر الزنبق، وعينيها وقد انبعثت منهما سمكتان اختفتا في عجاج الماء، وشفتيها وقد أصبحتا فرعى مرجان هوياء إلى قاع النهر، وجسمها وقد تشكل بشكل تمساح رأسه كراس مينا، وقد أخذ هذا التمساح يرشقنى بنظرات الأزدراء ويبتسم ابتسامة التهكم. ولذلك استولى الغضب على فلم يسعنى إلا أن جردت سيفى وانقضضت على ذلك الوحش الهائل الخلقة. ولقد أحسست أسنانه الحادة تنفذ في

جسمى فمكنت السيف من حلقه فجرى دمي ودمه ممتزجين كالسيل فاصطبغ
بهما ماء النيل. وكانت المناجزة بيننا شديدة مديدة قمت عقبها من النوم مرعوبا
يتصعب جسمى بالعرق الغزير وترتعد فرائصى ويتركنى صوابى.

وما انتهى بعاكر من قص رؤياه حتى تنفس الصعداء، وبدا لمن يراه أن هذا المنام
الذى ألقى راحته وأحرج صدره قد تجدد في ذاكرته فأثر في نفسه تأثيرا وحرك في
قلبه لواعج العشق والغرام. وكان نيمو يمعن فيه النظر فلزم الصمت دقائق
معدودة حالها بعاكر بقدر عددها سنوات، ولكنه قال متثاقلا في الكلام: حقا إنه
لحلم من أغرب الأحلام ، ولكن ليس من العسير تفسيره على العارفين بأسرار
التأويل. إن رؤياك تفيد في القرب منك ولكن يحسن ألا ترى الوصول إليها سهلا..
إذ لا بد أن تحبط امالك وتتحلل كما تتحلل دقائق البرد إذا تأثرت بحرارة اليد إن لم
تقض قضاءك الأخير على التمساح الحارس للأمنية التى تريد الظفر بها.

وما انتهى من تفسيره إلى هذا الحد حتى وصل الزورق إلى الضفة النهر ورسا إلى
جانبه، فوقف بعاكر وقال: ها قد وصلنا. قال نيمو متفائلا خيرا: نعم وصلنا إلى
الغرض المطلوب ويا حبذا لو اجتزنا الآن القنطرة الضيقة التى بين هذا المرسى
والساحل. فلما اجتازها كلاهما قال نيمو لبعاکر: إنى أشكر لك إكرامك إياى
وحفاوتك بى. وإذا كنت ترى أنى كفو لقضاء حاجة لك فمرنى بما تشاء. قال
بعاکر: تعال هنا. ثم جذبه إليه ووقف معه في ظل شجرة ، وكانت الشمس على وشك
الغروب فسأله: ما معنى قولك هذه القنطرة الضيقة واجتيازها.. أنت تستخدم
المجاز كثيرا في كلامك ولهذا يغيب عنى معناه. فأطرق نيمو ملياً ثم صعد نظره في
بعاکر وقال: أتود أن أصرحك على شرط ألا يؤلمك كلامى؟ قال بعاكر تكلم ولا

تخف. أجب: التمساح في رؤياك هو مينا فابدأ بحذفه من الوجود لتجتاز القنطرة وتظفر بمرادك.. فإن تتبع نصيحتى تصبح نيفرت في قبضة يدك. فأشار بعاكر إشارة أراد بها إفهام نيمو أنه سمع قوله وعقد النية على تنفيذه. ولكى يوقن حسن طالعهِ وصدق فآله، خصوصاً وقد أفضى بعزمه إلى غيره وقف بحيث يصير الهلال إلى يمينه تيمناً واستبشاراً. أما نيمو فنظر إليه حين بدرت من بعاكر هذه الحركة وقال له: تحرز يا هذا من أن تتلاشى نيفرت قبل أن تقضى منها أرباً كما تلاشت في المنام، واجهد نفسك بانتشالها هسى والدتها من هدة العار، لأن في دخولهما دارك وقد تلوثتا به سبة لك باقية في الأعقاب. وكان بعاكر مطرقاً رأسه يفكر، فختم القزم حديثه بقوله: أتأذن لى في أن أرف إلى سيدتى بشرى ما انتويته من نجدتها وانتشالها من هدتها.. أأفعل ذلك؟.. إن تأمر بذلك فقد جاءت العاقبة طبق مرامك لأن من ينفق المال عن سعة ليرى من يحبها يهن عليه بذله جميعاً لصيانة شرفها وصيتها.

الفصل السادس عشر

ما وقع من الحوادث والأحوال لأحد الأبطال

أذنت الشمس بالمغيب قلبست مدينة الأموات جلباب النوم والتمست الراحة من عناء اليوم، وطلع القمر من ثنيات وادى المقابر الملكية ساطعا بأشعته اللجينية، وارتسمت ظلال الصخور والجبال على صفحات الرمال، ومد السكون على الأفاق أوسع الأوراق، وسبحت طيور الليل في الأجواء فشاكت في طيرانها أسلاك حرير سوداء يلاعبها الهواء، ونشر البوم أجنحته وتنقل من جدار إلى جدار لينذر المتشائمين بالويل والدمار، وراغت بنات آوى بين القبور بسكون وسكوت تتحرى ما سيق لها من الرزق والقوت، غير أن ذلك السكون لم يكن مستمر الاتصال بل كانت تتخلله ضجة مغالبة الضباع والرثال.

على أن سكان ذلك الوادى لم يتمتعوا جميعا بلذة الرقاد، إذ شوهدت أشعة ضوء منبعثة من مغارة نيخت الساحرة وميض نار أمام بيت بينم كانت تذكيها جدة وردة- من وقت إلى آخر- بأقراص الروث المجففة. وكان يعيشون إلى هذه النار رجلا ن أخذوا يتأملان أشعتها المدنسة الضوء، وقد بهتها أشعة القمر الزاهية الطاهرة الضياء. وكان والد وردة عاكفا على سلخ كبش ذبحه، فقال له بينم: أسمع الأفاق تدوى بعواء بنات آوى. ثم أفرغ على كتفيه رداء ممزقا من القطن ليقيهما رطوبة الجو. فقال نبسشت: متى انتهيت من السلخ فألق إليها الأمعاء. أما الفخذان والظهر فاجعل منها شواء لذيذا وانتزع القلب بلطف أيها الجندي.. أى نعم هكذا. فما وقع نظر نبسشت على القلب حتى تناوله وعنى بفحصه. وكان بينم يرقب

حركاته مضطرب الخاطر منزعج الفؤاد فسارَه بقوله: وعدتك أن تعمل ما تشتهي
ولكنك الآن تطلب منى محالا. فرد الطبيب عليه قائلاً: المحال! المحال! ما سبب هذا
'المحال؟ لقد قضيت عمرك تشق جثث الموتى بدار التحنيط التي أجزتك بالدخول
فيها والخروج منها على هواك. ولا بد أثناء قيامك بعملك أن تكون الآنية (١) معك،
فعندئذ لا يبقى إلا أن تضع هذا القلب في إناء منها ثم تبدّله بقلب إنسان ولا خوف
عليك أن يراك أحد أو يشي بحقك. واعلم أنه سواء عندى أقمت بهذه المهمة غداً أم بعد
غد فإن لك اختيار أنسب الوقت لقضاء حاجتى. وما على ابنك إلا أن يشتري كل يوم
كبشاً أذفع إليه ثمنه من مالى فتأخذ قلبه بعد ذبحه تبدّله بقلب إنسان وهكذا حتى
أوفق للنجاح فى عملى.. وهل تستريب بعد ذلك فى أن حفيدتك العزيزة ستحزن بفضل
هذا الغذاء الصحة والشفاء.. هيا.. هيا.. لا تخف. قال الشيخ: لست أجزع من
الخطر بل من سلب الموتى عضواً عليه قوام حياتهم فى الآخرة. إنى قد عشت فى
الدنس والفاقة سنوات طويلة، فبم أجاب يوم الحساب إن سئلت؟ ولا يذهب عليك
أنى مازلت طامحا إلى المقام فى (عالو) وفى زورق الشمس استدراكا لما فاتنى من
ملاذ الدنيا، ولست أدرى كيف تريد أن يحرم مثل سعادة الآخرة قضاء للبانك
وتحقيقاً لأمنيتك!؟

قال الطبيب: أنت عاجز- ولك العذر- عن فهم المراد من طلبى، وإدراك ما أرمى
إليه بالحصول على ذلك القلب. ولكن ثق بأنك إذا جئتنى به ستشاركنى فى فضل
(١) يريد بها آنية الاموات التى تتخذ من الطين أو الحجر لتحنيط أحشاء الموتى فيها. وكانوا
يعتقدون أن هذه الآنية الأربعة مشمولة برعاية شياطين الموتى المسماة أمست ونابى ويومنترد
وييسنود، وكان لكل واحد منها غطاء يمثل مقبضه شكل الشيطانة التى يعزى إليها أى رأس
إنسان ورأس قرد ورأس ابن أوى ورأس كلب

عمل جليل جزيل النفع للناس. وما كان إلحافى عليك أن تنجز طلبى لغرض ذاتى أو شهوة تار فى النفس ثائرها بل لمقصد خيرى سيعم نفعه الناس جميعاً ولست -والحمد لله- ممن تطيب نفوسهم إلى الفراغ المفسد للطباع حتى أصبح تواقاً إلى قضاء المنافع الذاتية والتماس الشهوات النفسية.. أما ما اعترضت به من خوفك على سلامة روحك فى الحياة الأخرى فكل ما أسألك أن توقنه أنه لا خوف عليها وأنه لا داعى لحزنك واسترابتك.. وحسبك أن تعلم أنى من طائفة الكهان، وبالتالى من أدرى الناس بما إذا كان عليك فيما أدعوك إلى فعله تبعة فأقيلك من العثار بها، وإن لم يكن فيه تبعة فأحضك كل الحض على القيام به، لاسيما إذا قُصد به الخير والإحسان والنفع العام. على أنه إذا سألك قضاة الموت فى الآخرة عن أخذك قلب الموتى من الأوانى المعدة لتحنيطها وراموا محاسبتك على هذا الفعل فلك أن تجاوب بأننى أنا الذى أمرك به والذى أخذ تبعته على نفسه. فأطرق الشيخ رأسه مفكراً حائراً، فلما شهد الطبيب ذلك منه قال: لك تلقاء مبادرتك بقضاء حاجتى أن أضع الأحجبة على جثتك بعد وفاتك، وسأكتب برسلك منذ اليوم كتاب الخروج (١) وأضعه تحت اللفائف والأكفان التى سيدرج فيها جسمك فتساوى فى هذا الامتياز بالأمراء والعظماء ولا تكون لهم عليك ميزة، وبذا يتوافر فيك من القوة ما تصد به الشياطين إذا حادوا بك عن الصراط السوى، دع أنك ستستطيع بفضل تأثيره الدخول فى معهد الاحكام الزوجى الذى توزع فيه المثوبة والعقوبة على فاعلى الخير والشر فتستمتع بالحياة الأبدية بين الأخيار والأبرار فى عليين. قال الشيخ متنهداً: ولكن ربما خففت سرقتى لقلوب الموتى فى موازينى وضاعفت ذنوبى. فأطرق

(١) توجد الفصول المستخرجة من كتاب الموتى مع المومياوات أو تحت اللفائف وفى طيات الأكفان.

نبتشت هنيهة ثم قال: إذا أخذ الخوف منك والحذر هذا المأخذ فإنى مزودك منذ الآن كتابة أعترف لك فيها بأننى أنا الذى أمرك بالسرقة ولك أن تجعل هذه الكتابة فى قطعة قماش وتضعها على صدرك لتدفن معك متى انقضى أجلك، وإذا سألتك تيشوتى المنوط بها أمر الدفاع والمرافعة عن الروح أمام أوزريس وقضاة الموت (١) فقدم إليها هذا الكتاب ومتى قرأته بصوتها الجمهورى فإن القضاة سيحكمون ببراءة ساحتك.

قال الشيخ: من أين لى علم مضمون الكتاب إذا كنت أجهل القراءة والكتابة؟ أجاب نبتشت: أقسم لك بالآلهة التسعة أننى لكاتب فى الورقة ما ذكرته لك وهو أننى أمرتك بنزع قلب أحد الموتى وأنه إن يستتبع هذا العمل تبعه فإنما تقع على لا عليك. قال الشيخ: لا بأس الآن.. هات الكتابة. فبدأ الطبيب أولا بمسح العرق الذى كان يتقطر من جبهته ثم مد يده إلى بينم وقال له: غدا تكون الكتابة بين يديك واعلم أنى سأبأشر علاج حفيدتك حتى يتم شفاؤها.

وكان والد وردة مازال عاكفا على سلخ الكبش الذى ذبحه فلم يفهم مادار من الحديث بين والده وبنسشت، فلما اتم هذا العمل انفذ قضيبا فى فخذ الكبش ووضع

(١) يحتوى الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من كتاب الموتى رسم مجلس العدل الذى يحاكم فيه الفارون من الحياة، وقد مثل فيه أوزريس جالسا تحت ظلة مستديرة وإلى جانبه اثنتان وأربعون قانسيا وأمام أوزريس قرد برأس كلب وهو حيوان توت المقدس الذى يقيم الوزن ويضع على إحدى كفتيه قلب الميت وعلى الأخرى صورة الهة الحقيقة التى ترشد الروح إلى دار الأحكام، ويحرق توت صورة الحكم فتقيم الروح الدليل على أنها لم ترتكب ٤٢ جرما توجب حرمانها، فإذا سلم القضاة بزعمها سميت مياشروا (أى الحقيقة المتكلمة) وجعلت فى عداد السعداء والأبرار ويرد إليها قلبها فتتمو فى حياة جديدة وتصر شبيهة بالآلهة.

فوق النار فامتلاً الجو برائحة الدهن المحترق ونفذت هذه الرائحة في خياشيم بنات أوى، فأخذت تتوارد تباعاً من كل فج مهتدية بحاسة الشم إلى مكان الشواء. ونسى الشيخ ثقل المسؤولية على عاتقه مذرّمق بعينه الشواء، لأنه لم يكن ذاق اللحم منذ عام. وكان نبسشت يرسل إليه وإلى ابنه وقرينته نظرات الحنان والعطف وهم يفترسون اللحم كالوحوش ويتعرقونه بشرائه ولاسيما والد وردة الذى كانت تبدو عليه علامات الغبطة لازدراده ذلك الطعام الشهى. وقد كان سريعاً فى اللحم والقضم والمضغ والابتلاع والتمطيق بشكل تربد له وجه الطبيب وتقززت منه نفسه فتحوّلت رأفته على القوم اشمئزازاً منهم، وحدث نفسه بأنهم حيوانات مفترسة ولكنها ذات ضمائر وقلوب. وأنهم يقدرّون على الخلاص من عالم المحسوسات إلا أنه أنس منهم الطموح إلى السعادة الأبدية فى العالم الباقى.. ولا يبعد أن يتحقق متمناهم دون غيرهم من الناس. وقد رأى الجندى الطبيب تضطرب شفته إذ كان يناجى نفسه، فصاح به قائلاً: ألك فى قطعة لحم من هذا؟ ثم انتزع بأسنانه نسيرة مما بيده وقدمها إليه، فتراجع نبسشت إلى الخلف وقد غثت نفسه حينما شهد بعينى رأسه أسنان الرجل مصبوغة من الدم بلون أحمر داكن، وقارن بين وجهه الدميم ووجه وردة الساجية الطرف الوضاعة الجبين، فلم يتمالك أن سأل العسكرى: أنت صدقا والد وردة؟ فضرب الرجل صدره بيديه وقال: لاريب فى أنى والدها صدقا كما لاريب فى أن سىتى والد رعمسيس. وما أتى الرجلان على الكبش قضمًا وازدراداً حتى همّا بمسح أيديهما بخبز رقيق ابتلعاه بعد. وكان سؤال نبسشت لايزال يدوى فى أذن الجندى فتنفس الصعداء وقال متمماً إجابته: أم الفتاة أجنبية وليست بمصرية، وقد ولدت هذه الأيكة البيضاء فى عش الغراب الأسود. سأل الطبيب: وما هو وطن امرأتك؟ أجاب: لا علم لى بوطنها. سأل: كيف.. أولم

تسألها عن أصلها ووطنها لما تزوجت بها؟ أجاب: سألتها، ولكن من أين كان لها أن تجاوب؟ إن شأنها غريب وتاريخها طويل. قال: أرجو منك أن تقص هذا التاريخ على لأقطع بسماعه الوقت وأسلى خاطر فالليل طويل والفؤاد جريح، ولكن تريث قبل البدء بالكلام حتى أتعهد المريضة وأتفقد أحوالها. ثم دخل وجار المحنط وأكب على فراش القش والقصل الذى كانت وردة مطروحة عليه. فلما تأكد من نومها وانتظام حركة أنفاسها عاد إلى الجندى وجلس إلى جانبه وأخذ بينم يرقب القمر فاغراً فاه فأنشأ ابنه يقص حديث امرأته حيث قال: «مأقصه عليك من الوقائع يرجع إلى عهد سیتی الأول وأوائل حكم رعمسيس. وكنت ببلاد الشمال مع الجيش الذى سير إليها لتحصين مدينة رعمسيس الشهيرة باسم (زوان). وكان تحت إمرتى ستة من الأمو العبرانيين الذين اضطهدهم رعمسيس وكبلهم بقيود الاستعباد. وكان فى العمال جملة من أبناء العظماء والمثريين لم يسألهم أحد حينما سيقوا إلى العمل عن أصلهم ولا عن ثروتهم. ولم تكن أعمال التحصين وحفر ترعة الاتصال بين النيل والبحر الأحمر قد تمت، فسخر رعمسيس أولئك الناس الذين هم سلالة أعدائنا بشرق مصر فى إتمامها، وماذكرت تلك الأيام إلا وعرتنى هذه السرور وأخذتني نشوة الفرحة لما أمضيته من أوقات الهناء والصفاء فى أراضى (غوشن) المعروفة بخصبها وجودة تربتها وحسن مناخها ووفرة خيراتها من حبوب وبقول وأسماك وطيور.

« وكان بين الستة الرجال الذين تحت قيادتى رجلان كان أهلهما ببالغون فى الرفق بهما والعناية بأمرهما، إذ كان لا ينقضى يوم إلا ويتحفاى فيه بحلقات الفضة حتى لا أقسو فى معاملته. على أن محبة المرء ولده وذوى قرابته أمر طبيعى ولا يختلف اثنان فى أن العبرانيين فاقوا فيه على غيرهم من أمم الأرض فوقاً عظيماً.

وكان المقرر علينا أن نورد كل يوم عدداً معيناً من الآجر، فإذا احتدم حر الهاجرة ساعدتهم على العمل فكانت أصنع منه في ساعة واحدة قدر ما يصنعونه جميعاً في ثلاث ساعات، ما ذلك إلا لو شوق عضلي ومتانة قوتي، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كنت فيه أقرب عهداً بعنفوان الشباب وقوة الساعدين مني الآن.

وفيما كنت قائماً بالعمل على ما يرام، إذ صدرت الأوامر باستدعائي إلى طيبة لاكون من مراقبي أسرى الحرب الذين تقرر تسخيرهم في تشييد هيكل (أمون). وكان لدي من المال الشيء الوفير ففكرت في الزواج. وكنت قد أقصيت النساء المصريات عن نظري ومحوتهن من صحيفة صدرى، إذ لم يكن لي بد من التزوج من إحدى بنات المحنطين. وكثيراً ما كنت أتمنى على الله المنى أن يتقضى من هذه الطائفة اللعينة، فاتجه خاطري نحو بنات البلاد الواطية من أقوام (الأمو) و(الشازو) الشهيرات بالجمال الفاتن. وكانت السبايا اللاتي أتى بهن الجيش معروضات للبيع، فلم يرق أكثرهن لعيني، وأما الباقيات فكانت أثمانهن غالية بالقياس إلى جمالهن الباهر. وكانت نقودي تنطلق من كيسى انطلاق الماء من الإبريق لكثرة ما كنت أنفقه في الملاهى والملاذ، ومشاهدة الراقصات في حى الأجنيبات.

واتفق لي عندئذ حادث اتجهت بسببه معيشتي على نظامها المألوف عندي إلى غاية غير التي كانت منصرفه إليها. ذلك أن جمّاً غفيراً من أسرى الحرب جىء به إلى طيبة والحفلات فيها قائمة بعيد (أمون شم) فأقيمت سوق كبرى بالقرب من الأسكلة كان ضمن ما يباع فيها عدد عظيم من السبايا. وكانت البارعات منهن في الجمال يبعن بثمن فاحش، فلم أنس من نفسى القدرة على اشتراء إحداهن. وفي ذات يوم جىء بامرأة عمياء وأخرى خرساء رشيقة القوام، وكانت العمياء بدينة الجسم

ملساء البشرة فاشتراها صاحب حانة وهى لاتزال عنده حتى اليوم تطحن الحبوب على الرحى. أما الخرساء فكانت تحمل طفلا على ذراعيها، وكان من يحاول استطلاع الخفى من أمرها يتعذر عليه تقدير عمرها أو تعيين منزلتها جمالا أو قبحا، إذ كان يبدو للناظر أن سحابة تحول بين عينيه وحقيقة وجهها. وكل ما كان يستطيع أن يبديه من الرأى فيها أنه لم يكن بينها والموت إلا ساعات معدودة، وكذا ابنها فقد اعتراه من النحول ما كان يخيل للرائى معه أنه صار فى عداد الموتى. وكان شعرها يشبه الجمر لونا كما كان وجهها يشبه الثلج بياضا، إلا أنه كان خلواً من كل أثر للجمال، وإن تكن القلوب تحن إليه والأنظار تحوم عليه. وكانت شرايينها الزرقاء فى ذراعيها المكشوفتين ترى من خلال بشرتها الشفافة وأديمها الصافى، ولولا اضطرارها إلى حمل طفلها لاساقت يداها إلى الجنين كما لو سلبتا نعمة الحياة. وكان يخيل لى أن النسيم إذا هبّ لابد أن يكتسح المرأة والطفل ويسفيهما كما تسفى الرياح الرمل. ولقد طالما صاح المنادى بملء فيه لترغيب الناس فى شرائها فلم يقدم أحد على اقتناء هذا الشبح الخامد الجامد الذى هو أقرب إلى خيال الموتى منه إلى أشباح الأحياء. وما كان أثقل عبئها لو ماتت ، إذن لكلفت صاحبها ما لا قبل له عليه لكى يوارى جثتها.

« ثم مرّت بالدلال فترة من الزمن لم يكفّ فيها عن الصياح دون أن يلقى لندائه أذانا واعية، وعيل صبره واشتمله اليأس فتناول سوطا وأهوى به على جسم المرأة المسكينة لتتحرك فتوقظ فى الحاضرين الرغبات النائمة وتنبه الميول الساكنة، فتلوت أعضاؤها لشدة ألم الضربة وضمت طفلها إلى صدرها وسرحت النظر حواليتها دون أن تنبس شفتها بكلمة، كأنها كانت تلتمس لنفسها ناصراً ومغيثاً من هذا البلاء. وقد وقع نظرها آنئذ على فاضطرب ضميرى وحدث بقلبي ما لم أعهده فيه قبلا من

التأثير الشديد ورأيت عينيها تلمعان على صورة استهوت فؤادى إليها وألقتنى في حباثل حبهما، فقلت للدلال: إنى راغب في شراء هذه الخرساء بكل ما معى من مال. وكان في وسعى اشتراؤها بثمن بخس دراهم معدودة، لولا أننى كنت أجهل الحساب. فلما سمع زملائى هذا الكلام سخروا بى وتهكموا علىّ وأكثروا من لومى به له بل دفعت النود التى استولى عليها بائع السبايا بلهف بعد أن وتعنيفى، فلم آ هز كتفيه، وأخذت أنا المرأة والطفل وقصدت بهما إلى شاطيء النيل حيث استأجرت زورقا ووصلنا إلى الضفة الأخرى. وهناك اكترت مركبة وضعت المرأة والطفل عليها كما أضع الحجر الصلد لاحراك به وذهبت بهما إلى أهلى.

« وما وقع نظرى والدتى عليها حتى هزت رأسها، أما والدى فالتفت إلى معنأ النظر ليعلم إن كان بى مرض أو مس من الجنون، لأننى اخترت امرأة لا تصلح لشىء، غير أنهما لم يسخرأ بى ولم يوجها لوما إلىّ كما فعل أصحابى، بل أخذأ بتحضير فراش لها. أما أنا فقد اجتهدت الليالى التالية في بناء هذا المكان الذى تراه الآن أنقاضا مكدسة بعد أن كان عامراً بالسعادة والهناء. على أن والدتى لم تلبث أن شغفت بالطفل حبا، لما رأته عليه من ملامح الجمال والحسن. أما أنا فعدلت عن التردد على حى الأجانب حيث تقام الملاهى وتنفق الأموال ضياعاً في سبيلها فاقترضت مالاً اشترت به رأساً من المعز وقضيت به حاجات البيت. وكانت المرأة مع يكهما تسمع الكلام ولكنها لم تكن تفهم بلغتنا. وأرى أن أكثر الكهان رسوخا في العلم كان يعجز عن تفسير ما ترسمه حركاتها من آيات شكر صنيعتى معها، وما كانت ترغب في شىء أو تعرب عن أمر إلا وكنت أعرفه بمجرد التحديق في عينيها، فهما كانا جنانها ولسانها. وفي أول ما عشنا معاً كانت تنفد منى جملة الصبر وتضيق الدنيا في وجهى إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها

الضعف، أو قمت منزعجا من نومى على بكاء الطفل فكانت تكفى النظرة الواحدة منها لإراحة خاطرى ومحو آثار الكراهية من قلبى وإيداع الرحمة والحنان فى فؤادى، بحيث كان يخيل لى أن ذلك البكاء غناء يلذ للأذن وعى نغماته المطربة. وكان (بينو) وهو هذا الطفل يبكى أكثر مما اعتاد الأطفال أمثاله فى العمر، ومع هذا فكنت أراه جميلا وأرى غيره من الأطفال قبيحا رذيلا. وكانت أصابعه صغيرة ناصعة البياض، فحدث يوما أن أكثر من الصياح فانكبت عليه لأرفعه عن الأرض فقبض على لحيتى، فسرنى فعله سرورا يفوق الوصف. ومنذ هذا العهد كان سلوانه الوحيد القبض على لحيتى والعبث بها، وأدركت والسدته بسكوتى عنه أننى مغتبط بفعله ومحظوظ بمزاحه. وكنت إذا اشترت شيئا من الحلوى أو أية حاجة يتفكك بها كبيضة أو زهرة أو فطيرة كانت تأخذ الولد بين ذراعيها وترفعه حتى تلمس يده لحيتى. وكنا قضينا فى هذه الحال أشهراً متتابعة كسبت المرأة فى خلالها من القوة والصحة ما استطاعت به بذل هذا المجهود. وكان عمرها وقتما اشتريتها لا يتجاوز العشرين عاماً. ولم أكن عرفت اسمها فكنا نطلق عليها اسم «المرأة». وبعد ثمانية أشهر هلالية من مخالطتى إياها توفى الطفل بينو فبكيته مع أمه بكاء مرأاً وطرحت نفسى على جثته وأخذت أصيح: لقد قضى الأمر وحم القدر وصارت هذه الأصابع الرقيقة اللطيفة لا ترتفع إلى لحيتى ولا تلامس خدى وجبهتى. وبعد انتهاء دفنه وقعت المرأة فى تبائل المرض فعنيت بأمرها والسدتى حتى استقامت صحتها وتحسنت أحوالها. وكنت أعاملها معاملة السوالد الرؤوف ابنته البارة، وكان شأنها يعظم كل يوم ن نظرى بتوافر أسباب الرقة والدلال فى ذاتها، حتى إنها كثيراً ما همّت بإظهار عطفها على وميلها إلى ولكنها كانت تجد من شيطان عينيها ما يقدها عن بلوغ القصد ونيل الوطر. ولما وقع جمالها من قلبى هذا الموقع ازداد شغفى بها

وحرصى عليها. فحجبتها عن الأنظار رجاء التزوج بها. وكانت يداها من الرقة واللين بحيث لا تمكنانها من مباشرة الأعمال المنزلية حتى حلب الماعز وغيره مما كانت تقوم به والدتى خير قيام، إلا أنها لم تضع وقتها عبثاً بل كانت كثيرة الاهتمام بالتطريز وتشبيك أسلاك الخيط على شكل يحاكي فى رقتة نسيج العنكبوت. وكانت والدتى تشتري لها بأثمان ما تنسجه على هذا المثال كل ما تحتاج إليه أو تحب اقتناؤه من عطر أو أزهار. وكانت إذا جن الظلام وغادر الزوار مدينة الموتى تتراض فى الوادى وتمعن النظر فى بدر السماء. ففى ليلة من لىالى الشتاء كنت عائداً إلى المنزل بعد هذه من اليل فسمعت الآفاق تردد عواء بنات أوى على مقربة من مغارة الساحرة نىخت، فهتمت على الفور تواصل عواء هذه الحيوانات أنها قد دهمت إنسانا وافترسته. وكنت ساعة وصولى إلى المنزل لم أجد المرأة ببابه كما عودتنى الانتظار عنده، فانتقبض قلبى وضاق صدرى إذ همت أن تلك الضوارى افترستها وأنها لخرسها لم تستطع التماس النجدة بالاستغاثة. وقد شعرت كأنما قد خولط فى عقلى فأخذت الوند المربوطة به المعزة وجذوة نار وسارعت إلى منبعث الصوت حيث وجدت بنات أوى متكالبه على المرأة فأجليتها عنها، ثم عدت بها بين ذراعى مغشياً عليها. وقد ساعدتنى والدتى على إفاقتها ثم انصرفت فلما انقردنا بالفت فى ملاطفتها ومواساتها ومزجت دمعى بدمعها وحسبت نفسى سعيداً باستخلاصها من مخالب تلك الحيوانات الضارية. وتزوجت منها عقب الحادثة، ففى ختام العام الثالث من تاريخ شراى إياها وضعت لى أنثى سميتها (وردة) وهى التى طلبت تسميتها بهذا الاسم بإشارتها إلى زهر الورد فأدركننا مرادها.

« وقد توقيت المرأة عقب الوضع ببسىر، ولارىب فى أنه إذا دعانى داعى المنون ومثلت بين يدى أوزرىس فجعلنى فى عداد السعداء والأبرار فلابد لى من السؤال

عنها، فإن أجابنى حارس الأبواب بأنه لا وجود لها فقد هانت على مغادرة هذه الدنيا للحظوة بها واستجلاء محياها الزاهر النضير، ولو كان مقامها في السعير، فسأله الطبيب نبسشت: ألم يطلعك أحد على اسمها؟ فوارى العسكرى وجهه بكفيه وأكثر من الانتحاب والعويل حتى صار لا يعى شيئاً مما يسمع. فقال الشيخ بينم: لا بد أن تلك المرأة كانت ابنة أحد من الأعيان أو ملك من ملوك هذا الزمان فقد وجدنا في ثيابها مصوغاً من ذهب مرصعاً بالأحجار الكريمة ومنقوشاً بحروف عجيبة تدل على أنه من أندر التحف وأغلاها قيمة، ولهذا حرصت عليه زوجتى حرصها على إنسان عينها لتسلمه إلى ورده في السن التي يبلغ المرء فيها رشده.

الفصل السابع عشر

انقلاب المناقشة الفلسفية الدينية إلى مناجاة غرامية

في فجر اليوم التالي برح نبسشت بيت المحنط بعد إذ أيقن أن المريضة تماثلت للشفاء وأن لا خطر عليها من جراحها، ومضى في طريقه إلى هيكل حاتاسو تعصف به الهواجس. وكان يرجو أن يلتقى بصديقه بنطاؤر ليستمد من معلوماته الدينية ما يستطيع أن يلفق به التعهد الذي وعد بينم أن يجريه له مقابل ما سيتحفه به- كلما لاحت له الفرصة- من قلوب الموتى. وكانت الشمس في ساعة وصوله إلى ذلك المعبد المقدس قد سطع نورها بتمزق حجاب السحاب دونها فعمل نفسه بأمنية تشنيف الأذان بسماع ترنيم الكهان نشيد الصباح تكريماً لإله الشمس فتاح. ثم اندفع نحو الباب فألفى البواب قد أخذته سنة من النوم، فأيقظه وسأله عن رئيس الهيكل. فأجاب متثابراً: توفى الليلة. فهلع قلب الطبيب لسماع هذا النعى وسأل غير مصدق: ما تقول! من ذا الذي مات؟. أجاب: رئيسنا الشيخ روني، ذلك الرجل الشهم. فاطمأنت نفس نبسشت وأنبهه إلى أنه إنما يسأل عن بنطاؤر. سأل: كيف .. أتكون من بيت سيتى ولا تعلم أنه عزل عن وظيفته؟.. أما علمت أن الآباء المحترمين كهان هذا المعبد أبوا مشاركته في إحياء مولد (رع) بنشيدته المعلوم؟.. لعله يترنم الآن وحده بهذا النشيد في أعلا المنار فاهرع إليه أو عليك بالانتظار.

صعد الطبيب في السلم مسرعاً، فلما شاهده بعض الكهنة أخذوا يترنمون بالأناشيد الدينية فلم يلو لهم عنقه، بل أمعن صاعداً حتى التقى بصديقه على سطح

الهيكل متفرغا للتحريير والتحبير ووقف منه على ما اتفق له من الحوادث فصاح قائلا: إنك باستسلامك إلى كهان هيكل سیتی قد وضعت الثقة في غير موضعها وعرضت كرامتك للامتهان وشرف نفسك وعلو همتك للتهمة والتظنى بين رجال معبد حاتاسو الذين عجنت ضمائرهم بماء الخسة والدناءة. وقد كنت أتوقع هذه الحوادث ويحدثنى بها وسواسى حينما أطلعوك على الأسرار الدينية. ومن كان فى مثل عقليتنا وثقافتنا لا مخرج له من المأزق إلا بأحد أمرين: إما الكذب وإما السكوت. قال بنطاؤر: لم توفق للحق فى قولك، فإننا نعلم أن الألوهية واحدة لا تتعدد سواء أسميناها بالكل^(١) أم بغلاف الكون^(٢) أم بـ (رع). إلا أننا معشر الكهان نعرف أن مدلول الرمز رع غير ما يعتقد العامة، إذ نقول إن الكون هو مظهر الألوهية الصحيحة وأن ألوف الالوف من الحادثات التى وقعت وتقع فى كل زمان ومكان ليست إلا مظهرا محسوسا وحجة بالغة على أن مقدوراتها لا تحصى وعظمتها ومعلوماتها لا تتناهى، وأنه لا أول لوجودها ولا آخر لأبديتها، وأنها

(١) تطلق الكتب المصرية المقدسة على الألوهية اسم الواحد أو الأحد. وقد ورد تفسير مذهب مقارنة الألوهية بالكون فى النقوش المشهودة على جدران مداخل قبور الملوك بطيبة وهو يحتوى مدح (رع) والاستغائنة بمظاهره الأصلية البالغ عددها ٧٥ مظهرا. وقد شرح ذلك المذهب والتعاليم الدينية السرية المتعلقة به عند قدماء المصريين العلامة (أرنست لافيل) فى كتابه (الأغاني والدعوات الشمسية)، وتتضمن نصوص كتاب الموتى فى الفصل المعنون «نشيد الشمس» المحفوظ بمتحف الجيزة وترجمه غرييو واسترن ونقوش توأبيت وجدران هيكل بطليموس وكتاب «أيزيس وأوزريس» لبلوتارك وكتاب «أسرار المصريين» تأليف جامبليك وخطبة هرمس تريماجست فى الروح البشرية التفاصيل الأساسية التى غذى بها موضوع الفصل السابع عشر من هذه الرواية.

(٢) غلاف الكون معناه باللسان المصرى القديم (تب تم)، وهذه التسمية هى منشأ الاعتقاد بأن شكل العالم كدائرة فى وسطها نقطة.

منزهة عن أن يحدها زمان، ومقدسة عن أن يحيط بها مكان.. فقاطعه نبسشت:
أرغب إليك الاسترسال في موضوع الكلية ولا عليك منى. قال بنطاؤر: لست أخشى
أحداً حتى أكتم الأسرار في أعماق قرار، وما أنا بضان بها إلا على من أعتقد فيهم
العجز عن إدراك الحقائق واستقراء كنهها، وهل أكذب إن قلت إنى أتكلم بدلا من
قولى إن لسانى يتكلم أو إن قررت أن بصرك يرى في حين أن بصيرتك هى التى ترى
بوسيلة هى أداة العين؟ إنا إذا تلالأت على صفحات الوجود أشعة الأنوار الإلهية
فبهرت الأبصار وحيرت في كبرياء ذاتها العقول والأفكار لا تلبث السننتنا أن تلهج
بالثناء عليها لما أولتنا من النعم وأفاضته علينا من غيوث الكرم.. إن رع أسطع
مظهر من مظاهرها المحسوسة، فإذا راق لى الاعتبار بمشهد المزروعات النضيرة
والثمار اليانعة والأزهار الدانية القطوف فىنى لا ألبث أن أدعو من حولى من
المؤمنين إلى القيام بمفروض الحمد لرينوث إلهة المحصولات.. أعنى الصفة الإلهية
الموكل إليها إنداء النبات وتكوين سنابله وإبلاغه إلى النضج الذى يجعله صالحا
لغذاء الإنسان، دام حمدنا وجل ثناؤها وتعالى ذكرها، وإذا تأملت فى القوة المخصبة
فى هذا النهر الذى عز على الباحثين الاهتداء إلى ينبوعه علت همتى إلى أداء واجب
الشكر لمن أمطر علينا سحائب فضله ألا وهو الإله الواحد الذى غرس الأشجار
وشق الأنهار وجنى الثمار، هو الإله (هابى الخفى) كثرت آلاؤه وجلت نعمائه..
ولتطمح أحداقنا إلى اللامع العلوى بل إلى ما يسبح فيه من كرة الزمهرير ولننعم
النظر فى هذه النباتات، وقد زهت فى ثوبها السندسى ولنبعث الطرف كرة إلى النيل
المفخم فإننا لا ننسب أن نرى فى كل ما أبدع وصنع وفطر وقدر، وفى كل ثنية من
ثنيات هذه الموجودات وطية من طيات هذه الكائنات دليلا على أنه الإله الظاهر بآياته

الباطن بذاته.. هو الذى أنشأنا من العدم إبداعا وجعل كل مافي العالم تحت قدرته
وتسخيره واستخلفنا على الأرض دون مخلوقاته وأثرنا بإلهامه لنذكر حقيقته
ونعلم السر وما خفى من كنه نفوسنا. قال نبسشت: إنا معشر الكهان غير مباح لنا
أن نكاشف الشئ من أسرار معلوماتنا القدسية بأكثر مما يعطى الطبيب مريضه
من كسر الخبز المرطبة بحساء اللحم، لكيلا تعوق هضمه إذا أكلها. قال بنطاؤور: إنما
الواجب علينا أن نخفف الأشربة القوية بشيء من الماء. إذ لايجوز مثلا أن تعطى
الطفل مالا تقوى عليه سوى معدة الجندي. وبعد، ففوة الإدراك فى الشعب لا
تتجاوزها فى الطافل الرضيع. ولقد كان الحكماء والفلاسفة فيما انقرض من الدهر
يكسون الحقائق الجلية بثوب الرموز والكنائيات ثم يصنفون من أوضاعهم
قصصاً وأساطير تدنيها من أذهان العامة دون أن تنال من كرامتها، ولكن مهما
يسترها من ذلك الكساء ويخفها من هذه الأساطير لا بد لشعاعها الباهر من السطوع
ولسرها الخفى من الشيوخ. سأل نبسشت.. السطوع.. الشيوخ.. وماذا كان إذن
الغرض من الكساء؟ أجاب بنطاؤور: أظننت أن أفناء الناس يستطيعون النظر إلى
الحقيقة مجردة من لباسها^(١) دون أن يردوا موارد اليأس ويلم بهم البأس. سأل:
وهل لمثل أن يراها، بل هل منا من هو متصف بالصدق المحض ليعترف بأن الحقيقة
لم تنحدر قط به إلى غيابة الهموم والأحزان؟ ألسنا نعلم أيها الصديق أن أحوال
البشر لا تراها العين فى صورتها الصحيحة وقالبها الحقيقى، بل يرى هذه الصورة

(١) يوجد على تمثال نيث ببلدة (صا) نقوش هذه ترجمتها «أنا القديم فى الأزل والموجود فى الحال
إلى أبد الأباد لا يستطيع أحد من المخلوقات أن يدرك كنه حقيقتى أو يرفع جانباً من ستارها» وقد
ورد ذلك أيضاً فى كتاب ايزيس وأوزريس لبلوتاوك.

منعكسة في مرآة الأهواء النفسية.. إنى مثلاً أرى أسود ما أظنه أسود وأبيض ما أخاله أبيض ولكنى أسمى دائماً إلى استقصاء الحقيقة الكفيلة بإدراك الأشياء على وجهها الصحيح وفي قالبها الذى صُبت فيه وأروض نفسى على اعتياد ألا يكون لأرائى الشخصية دخل في تحديد أشكال القوالب ولا في تقرير الحقائق. وأنت مثلى تجرى وراء تمحيص حقائق الأشياء بالنشاط وصدق العزيمة، غير أن الأفكار سرعان ما تتحول حقائقها في نفسك. ذلك لأن في قلبك عمالاً لا تدركهم الأبصار همته منصرفاً إلى تقويم المعوج وإصلاح الفاسد وتحسين القبيح والتبديل من كل شىء بضده. وما هو إلا لأنك شاعر يمضى به الخيال في تيار الوهم، وما هو إلا لأننى ممن يجدون في البحث عن الحقيقة يلتقطونها حيث يجدونها، تدركها أبصارهم وتلمسها أصابعهم. قال بنطأور: طموحك إلى الحقيقة لما يضاعف لك احترامى ويرفعك إلى أسنى المراتب وأشرفها، غير أنك عليم بأننى ما طاردت في حياتى ولن أطارد إلا الحقيقة الشاردة، فهى مطمحي وضالتي في كل زمان ومكان. قال نبسشت: أحل إنى لذلك موقن ولكن ما أشبهنا الآن ونحن نجرى في طريقين متوازيين بفرسى الرهان في الميدان، نبقى - مادام الجرى - متوازيين لا نتلاقى أبداً وجهاً لوجه مع وحدة الغاية التى نسعى لإدركها، وهى حل مختلف الأحاجى والمعميات العلمية والأدبية. ولقد يجول بخاطرك أنك تستطيع التمييز بين صحيح الأشكال وفاسدها مع ما في قدرتنا من تعرف الصحيح منها. قال بنطأور: خليك بنا الاقتصار على الشكل الأجل الذى يوافق مشتھانا. صاح نبسشت: الأجل.. إذا كان السر العجيب الذى تسميه الألوهية جميلاً وينبغى أن تكون القوة المتولدة من تواتر تلاشيها وزوالها جميلة أيضاً فعلى الدنيا العفاء.. تقول إن الربوبية هى الكون

وأن الكون مظهر الربوبية وأنها دائمة أبداً لا تعطى ذرة من الرمل ولا شعاعاً من الضوء ولا نسيماً من الهواء إلا وتسترده وتؤلف منه وجودها، وتقول إنها خفية عن الأبصار وبينها وبين المدارك العامة ستار وأنها تعلم كنه ذاتها علمها بجميع المعلومات لا يعزب عنها مقدار ذرة في الأرض والسموات.. إذا سلمت لك بهذا القول جدلاً فلا أخالك تقصد بكلامك سوى القوة القاهرة التي لا مصدر لها إلا العمية والجزاف. قال نبسشت: إن ما تقوله لمن شر الكفر والإلحاد اللذين تقشعر منهما الأبدان.. أو ما دريت أننا بالعقل بلغنا إلى تعليل الكلية وعرفنا أنها فاعلة الأرواح والأشباح ومحركة الأفلاك المدبرات ومقررة الأرض وممهدها للحيوان والمعدن والنبات؟ سال نبسشت: لكن ما قولك في تطور الأشياء والكائنات وما يعترها من السقوط والنهوض والخفاء والظهور.. أفى هذه التقلبات ذرة من الحكمة والعقل وهى ترمى إلى غرض كائن وغاية معينة؟ إنك بإسناد العقل إلى الكلية العظمى تخدع نفسك بالباطيل التى أخشى أن تذهب بك إلى ادعاء المشابهة بينك وبين الألوهية لمجرد توافر المشابهة بين هذه والآلهة الرحيمة التى تمثلونها فى الهياكل تمثيلاً. أجاب بنطاؤر: المشابهة التى تحدثنى بها خيالية لا حقيقية وظنية لا قطعية، إذ لبيان الحقائق وتفهم الأسرار يجب إبرازها فى مظاهرها المحسوسة ليسهل إدراكها والاعتناع بها. ونحن لا نسمى الألوهية بالكلمة إلا إذا تجلت لعقيدتنا فى مظهر العلة المبدعة للكون الواهبة للعقول، وإنما كما ورد فى النصوص المقدسة القوة التى أحكمت صنع كل شىء وسببته فى شكله الذى عليه قوامه ولا يصلح إلا به، فالجعل^(١) الذى نذهب إلى أنه ولدها يذكرنا بالقوة الفكرية للكلمة الموجودة من العدم

(١) الجبران

كل شيء والمتجدة من ذاتها بذاتها على الدوام. ولقد جاء اختيار هذا الرمز حكيمًا لصلوحه من كل الوجوه، فأنت أدري بأن ليس للجعران أنثى وأنه يتولد من ذاته بذاته. قال نبيسشت متبسما: إن تكن القواعد التي تقيمون عليها أسراركم الدينية من طراز اختيار الجعل ابنا للألوهية لأنه لا يتناسل من أنثى فما أوهاما من قواعد وما أقربها إلى التداعي والانهيار. انقضت سنوات عديدة ولا رفيق لي في أبحاثي ودراستي سوى الجعل الذى وقفت على أسرار حياته ونظامه العضوى. وأقل ما عرفت من هذا النظام أن منه الذكر والأنثى كما هو من القروود والسناتير وبنى الإنسان. ولو أنى أمعنت النظر في قواعدك الدينية لما وجدت بدأ من التمييز بين أمرين: العنصر الطيب والعنصر الخبيث. فإذا تقرر هذا عندك فقد وجب أن تجاوبنى عن: الأسئلة الآتية: هل الكلية هى الألوهية؟ هل الكلية طيبة وليست بخبيثة كما جاء في تعاليم أجدادنا وتقاريرهم؟ هل هناك - فيما عدا الألوهية- ما يمكن وصفه بالكلية؟ وأين مكان الشر في هذه الأحوال؟

فتربد وجهه بنطاؤر غضباً وتذمرأ إذ ثقلت هذه الأسئلة على سمعه وقال: صاح إن كلامك ككلام صبية المكاتب ولكنى أرد عليه بأن كل موجود حسن ومعقول في ذاته إلا أن الإله الواحد الأحد القادر القهار ملهم الشرائع ومناهج الحق وواضع أساسها على قرار مكين هو الذى يعطى الزائل صفة الدوام بما يسوقه إليه من أسباب التجدد المستمر، فتراه يتشكل بمختلف الأشكال. فما نسميه الآن الشر أو المصيبة يرجع إلى سبب ربانى حسن في ذاته ومعقول في وسعنا إدراك غايته الحقيقية إذا ألهمنا الرشد والصواب على غير انتظار، إلا أننا تعودنا النظر إلى الأشياء من وجهها القبيح، لأنه لما كانت الروح الإنسانية يعيها النقص كان ديدنها

الانصراف إلى الوسائل لا إلى الغايات والنظر في الجزئيات لا في الكلّيات، فأصبحت أشبه ما يكون بالجهلاء الذين ينتقدون الموسيقار لأنه لا يجيد أداء لحن من الألحان مع أنه لم يفاجيء الأسماع بما يخالف القواعد الواجبة الابتاع إلا لتهيئة السامعين للتمييز بين الغث والسمين. وإنك لترى الطفل يسب الأشجار السامقة ويعيب أفنانها الباسقة لا لشئ إلا لعجزه عن اجتناء ثمارها اليانعة. وهو يجهل ما أودعته الطبيعة هذه الثمار من بذور لو غرست في الأرض لأنت بنبت نضير لا يلبث أن يصبح من أكبر الأشجار. على أن الشر الظاهري ليس هو الذريعة إلى السعادة الحقيقية كالموت ليس هو إلا عنوان حياة جديدة ورقدة يستريح المرء فيها بعد السهاد. وهذا ضياء الشمس في آفاق الغرب، ألا تلاحقه جنود الظلماء ليصبح في الغد متألق السناء؟

قال نبسشت ساخرًا: أعتقد كل ما تقول لأن كلامك - مع ما فيه مما تعافه النفس وتحتج عليه العواطف - لا يكتسب بمروره بين شفقتك الذهبيتين إلا رقة وانسجاماً فيتلقفه السمع وتسيغه المدارك، غير أن في قدرتي إدحاضه بالأدلة القاطعة والبراهين المقنعة فأثبتت مثلاً أن الشر هو الحاكم المطلق على الكون والمتصرف فيه بإرادته الجائرة وشهواته المتحكمة. حقا قد تغفل عنا عينه أحياناً فيدعنا نستمتع بشيء من السعادة والهناء، ولكن ما هذه السعادة إلا تعساً وشقاء بل صدقة كاذبة جرت على يد بخيل برحت به آلام الحياة. وما أراه الآن صواباً هو أن الحياة ثمرة الشهوات النفسية، وأنها مازالت في معترك دائم يذهب المغلوب فيه فريسة الغالب.

قال بنطاؤر: أنت لا تحس - إذن - جمال العوالم الخفية، بل لا يتطرق الخشوع والاعجاب إلى نفسك إذا تأملت في النواميس المدبرة لحركة الكائنات لا يعثورها تغيير ولا تبديل؟ قال الطبيب: الجمال الذي تشير إليه لم أنس من نفسى ارتياحاً

لرؤيته، ولعل سبب ذلك نقص في بعض مشاعري كان حقا عليها أن تلقى هذا الميل في روعى. على أن هذا لم يحل قط دون تمتيعى الطرف بالنظر فى الجمال الخفى كلما جاذبتنى أطراف الحديث فيه لأن براعتك فى تصويره على ذلك الوجه الرائع يكفينى مؤونة التنقير عنه والجرى وراءه، ومع هذا فإنى ممن يقدرون نواميس الطبيعة وهى قوام الكون وروحه المتشعة فى أرجائه حق قدرها، فأنت تطلق لفظة (تم) أى الأحذية على ما يفيد معنى المجموع أو الوحدة التى تتألف من تضام آلاف الأحاد بعضها إلى بعض وهو تخريج جميل يؤخذ منه أن ناموس الأعداد هو المهيمن على الكون إذ به يتيسر حساب المقاومات وتحديد مجموعة القوى المطردة والمنعكسة فى الطبيعة، ولكن ليس فى هذا الحساب ما يشير إلى جمال أو يدل على رحمة.

قاطعہ بنطاؤر: هذا القياس إنما هو نتيجة أبحاثك الغريبة. فإنك تواصل الليل بالنهار فى القتل والذبح لاستبطن أسرار الحياة وكان خليقاً بك أن ترمى إلى غايتك من طريق البحث فى الكائنات الحية المنتشرة على وجه الأرض. أفتح عينيك وتحراً بهما أسرار الحياة نفسها لا فى الموت، يكن لك عن مثل غنى للشعور بجمال العالم. واعلم أن الألوهية التى إليها ترفع صلواتك وتوجه دعواتك لا حول لها ولا قوة. قال نبسشت : أنا لا أصلى ولا أدعو لأن النواميس المدبرة لهذا الكون والمسيطرة على حركته لاتشعر بصلواتى ودعواتى. ثم من ذا الذى أخبرك بأنى لست ببالح مرادى من استكشاف أصول المخلوقات واستبطن أسرار الكائنات؟ ألم أكن الآن أكثر وقوفاً منك على سر حياة الجعل؟ لقد قضيت على حياة حيوانات لا حصر لعددها واستقصيت بالبحث حقائق أنظمتها العضوية وأطوار نموها منذ ساعة ميلادها إلى حين موتها.. وجائز أن يكون هذا العمل قد طمس فى قلبى معالم التفكير فى الجمال،

ولكن ثق بأن البحث في أسباب الولادة والوجود كالبحث في أسباب الموت والعدم كثيراً ما يفضى إلى حبوط الآمال وتثبيط الهمم.

حقد بنطاؤور في الطبيب بعين المستفهم، فاستأنف هذا حديثه قائلاً: أرى مر .
الأفضل لتفهيمك مرادى الاستعانة بالأمثال والتشابهية. أنظر إلى هذا النبيذ ألم يكن عطرى الرائحة شفاف المادة، ومع هذا فلم يستخرج إلا بعصره من قطوف العنب دهساً بالأقدام الملوثة بالتراب؟ ثم انظر إلى هذه السنابل التى تنوء بحمل ما تحتويه من الحبوب كيف تلمع كالعسجد مع أنها لو وضعت بين شقى الرحى لاستحالت إلى دقيق أبيض كالثلج ذى رائحة زكية تتحراها الخياشيم، ومع هذا فقد أخرجته حبة وضعت فى الأرض فتعفت فيها بما سيق إليها من الماء ومواد النماء، ولطالما سمعتك تعجب بالردهة الكبرى فى هيكل آمون^(١) الذى سيبقى مدى الدهر المثل الأعلى لمناة التجديد وحسن التنضيد، هذه الردهة شهدت البنائين يرفعون منها القوائم ويلقون الأساس بعينى رأسى. وكانت الأحجار مبعثرة حولها شذر مذر، يتطاير العثير بينها إلى عنان السماء فيسد مسالك التنفس ويعمى الأبصار، وكان أغلب العمال يمرتون بحر الشمس وتفتك بهم الحميات الحاصدة للأرواح، فلو أنى كنت شاعراً مثلك لصورت هذه المناظر القبيحة فى صورة ينبو عنها النظر وتشمئز منها النفس ولما قلت عنها قط إنها جميلة دون أن أقف على أسباب حدوثها، ومع هذا فيكفينا البحث الآن فى الحياة والقوة الخفية المسببة للوجود أو العدم.

(١) بدىء بناء هذا الهيكل فى عهد رعمسيس الأول وتم فى عهد سبتى الأول ورعمسيس الثانى، ولا يوجد على سطح الأرض بناء يضاويه فى الفخامة والدقة والمتانة لاسيما القاعة الكبرى منه التى كانت محمولة على ١٣٤ عموداً ضخماً منقوشة بأبدع وأدق نقش.

قال بنطاؤور: ما كنت حتى الآن أدري أنك ترمى من أبحاثك إلى غاية معينة. وليتك كنت تفرغت لدراسة علمى النجوم والمواقيت لأسالك إن كان لما يطرأ على الحيوان والنبات من التطورات ارتباط بقانون ثابت أو كمية معينة أو اتساع محدود كحركات الكواكب. قال بنسشت: ما أبداع هذا السؤال وأجمله.. ألا تكون اليد القوية القديرة التى نثرت هذه الكواكب فى الفضاء وجعلتها تجرى فى أفلاكها قادرة أيضاً على تقدير طيران العصفور واحصاء خفقان قلب الإنسان.. قال بنطاؤور متبسما: ها قد طرقتنا باب العضلة معضلة القلب، وهل بذلت من المساعى ما يبلغك إلى الغاية المطلوبة؟ قال بنسشت: من المرجو أن أحصل غداً على ما أطمح إلى معرفته. وإنى أرى فى دوائك مداين أحمر وأسود، أفتسمح لى بقرطاس لأدون فيه ما خطر بالبال من الخواطر والأفكار؟ أجاب بنطاؤور: خذ ولكن خبرنى قبل أن تكتب. قال بنسشت: لا تسألنى شيئاً مادمت لا تستحسن مشروعى، وربما جسر الكلام إلى الجدل والخصام. فأهوى بنطاؤور بيده على كتف صديقه وقال: إنى موقن أن الخلاف بيننا لن يخشى منه على ما يربطنا من المودة الوثيقة العرى. وهل لم يكن ما ثار بيننا حتى الآن من ثائرات الخلاف والتعارض فى الآراء ممتناً لعقدة هذه المودة بيننا؟ قال بنسشت: كان ومازال كذلك مادام أنه لم يتعد الآراء إلى الأفعال. قال بنطاؤور: وهل مازلت باقياً على إصرارك على البحث فى قلب الإنسان؟ تفكر قليلاً يا أخى وصديقى من الناس كلهم وتأمل فيما أنت عليه الآن مقبل.. إن القلب يحتوى مبدأ الحياة وعنصرها الأول وهو العضو الربانى الذى يزيح لنا الستار عن العوالم الخفية التى تسبح فى أجوائها الأرواح. سأل بنسشت مغضباً: أوأنت واثق مما تقول؟ إن تكن واثقاً فهات برهانك، إذ من من الأطباء اجترأ حتى اليوم على تشريح القلب؟ أما

دريت أن الكهان إخواننا يحسبون القلب من أقدس أعضاء الجسم وأحقها بالصيانة والاحترام، ولو كان قلب أشقى الأنام؟ وإذا كنا بحضرة مريض وأخذنا الشك في حقيقة دائه وتولتنا الحيرة في تقرير دوائه، ثم أسقينا من بعض المركبات الدوائية جرعة لم يحصل له بها المرجو من الفائدة والمنفعة، أفلا يكون ضررها أكثر من نفعها؟ وهلا يجب أن تقع مسؤولية هذا الخطأ وهذا الاعتلال على من يسوقنا في طريق الغواية والضلال، ألم نكن الآن أشبه بعلماء النجوم الذين يطلب إليهم رصد الأفلاك من نافذة مغلقة؟ لقد رجوت وأنا بمدرسة عين شمس من الكاهن الأعظم (أور مارع حوتب) وهو من أساطين العلم وجبابرة الفكر وأركان المبادئ القويمة أن يأذن لي بتشريع قلب أحد الأمو فرفض طلبى بعله أن الإلهة (سخت) تقود إلى دار السعادة الأبدية والرضوان كل من اشتهر في حياته من الساميين^(١) بالفضائل ومكارم الأخلاق. ولقد أقيمت على مفض السرفض طويلا حتى عيل صبرى وعلمت أن وساوس القوم تحول بينى وتحقيق أمنيتى، وذلك لاعتقادهم أن استئصال قلب الحيوان يزوج بالعابث به مهواة الخطيئة. وهم يذهبون في ذلك إلى احتمال أن يكون هذا القلب سكناً لروح بشرية لا ذت به، لا يبعد أن تكون روح شخص من المحكوم عليهم فالزمت قبل التمتع باستجلاء وجه الأحذية أن تقضى العقوبة المفروضة عليها وتظهر نفسها من أدناس الخطايا وأرجاسها بالعيش زمنا في جسم حيوان دنىء، غير أن هذا الاعتقاد لم يقع عندى موقع القبول فقلت للكاهن الأعظم إنه لا بد

(١) تؤيد ذلك الكتابات التى نقشت في عهد سيقى الأول والرسوم التى تمثل الشعوب الأربعة وهى شعوب المصريين والساميين والليبيين والأوتوبيين

أن يكون جدى الطبيب نبسشت قد فحص هذا العضو قبل تأليفه رسالته المشهورة في القلب^(١) فأجاب بأن ما دوّنه جدى فيها لم يكن ثمرة فحصه وبحثه بل نتيجة الوحي والإلهام، ولهذا أصبح كتابه ضمن كتب توت المقدسة^(٢). ثم أخذ الكاهن الأعظم يلف بي ويكسر من حميتى ويلوينى عن متابعة البحث والتقصى قائلا: إن الأخلق بى مزاولة مالا يجلب من الأعمال قلق خاطر وتعب الضمير، وأن أنتظر ريثما تتجلى لى الحقائق عن طريق الإلهام الربانى.. وكنت آنئذ فى عنقوان الشباب ولى شعف بالبحث فى العقائد الدينية وميل إلى أداء الصلوات فى أوقاتها فلم أشأ مخالفته، إلا أنى كنت من جهة أخرى أحس نار الميل إلى البحث والتحقيق تتوقد فى قلبى فاجتهدت فى إخمادها وانقضى بعد ذلك أمد لاحظت بعقبه أن سحابة مظلمة قد غشيت عقلى نحالت بينى والحقيقة الساطعة، فعقدت النية عندئذ على البحث فى قلوب الحيوانات بأنواعها فبدأت بالطيور ثم ثنيت بالجرذان والأرانب فكنت بعد ذبحها أشق قلوبها وأمعن النظر فى قنوات الدم المتصلة به فلم يزدنى هذا علما، لأنه كان يجب لتقرير الصواب وتحقيق الحق فحص قلب الإنسان لا قلب الحيوان. قال بنطاؤور: عياداً بالله.. ماذا تقول؟ أتريد مغالبة الألوهية باستطلاع الأسرار الخفية؟ سأل نبسشت: أقرأت رسالة جدى فى القلب؟ أجاب الشاعر: تصفحتها لأننى كنت كلما قلبت فيها! النظر لا يقع على شىء سوى لفظة «القلب»، وأن القنرات الدموية المتشعبة فى الرأس واليدين والمعدة متصلة بالقلب لأنه المركز الذى يندفع الدم منه

(١) هذه الرسالة هى أهم قرطيس ايبرس وأعظمها فائدة. وقد نشرها المسيو انجلمن بمدينة ليسك.

(٢) كان يسميها قدماء اليونان كتب هرمس.

إليها. وقد فهمت منها أيضاً أن الحالات المختلفة التي تطرأ على النفس من غضب
وآلم واحتقار إلخ، تؤيد آراءه في القلب. قال الطبيب: نعم هذا هو موضوع الرسالة
وقد دارت بيننا المحادثة فيه وأرى أن جدي أصاب في كلامه عن الدم وعلاقته
بالمشاعر وما أخطأ. أما الإدراك فمركزه غير مركز القلب. ثم رفع يده إلى جبهته
وقال: هنا.. ولقد بحثت في مئات الرؤوس ونزعت أغشية جماجم الحيوانات وهى
حية^(١) ولكن دعنى أكتب قبل أن يجيء أحد فيزعجنا. ثم تناول اليراع فغمسه في
دواة المداد الأسود المتخذ من فحم البردى وكتب بالحروف الهيراطيقية الجميلة^(٢)
التذكرة: لتى وعد المحنط أن يزوده إياها. وقد ضمنها أنه هو الذى كلب هذا الشيخ
أن يوافيه بقلب إنسان وأنه يتحمل عنه تبعة هذا الجرم إن ثبتت إدانته أمام
أوزيريس وقضاة الأموات.

وما أتم كلامه حتى مد بنطاؤره يده لتناول الكتاب، فعجل نبسشت بأخفائه في
مخلاة صغيرة كان يحفظ فيها الأحجية التى علقتها والدته في رقبتة وهى تعالج

(١) جاء في قرطاس ايبرس الطبى ما يشير إلى فائدة معالجة العيون بنخاع الإنسان، وكان
نبروقلس أحد كبار العلماء في مدرسة الاسكندرية (رواق الحكمة) يستعمل في تدريس فن
التشريح أجسام المجرمين الذين صدر فيهم حكم الإعدام وهم على قيد الحياة، وكان يذهب إلى أن
مركز الروح في التجايف الأربعة للرأس.

(٢) كان للمصريين في عهد حوادث هذه الرواية كتابتان: الهيروغليفية، وكان غالب استعمالها في
النقوش المنقورة أو المرسومة على الآثار وكانت حروفها عبارة عن إشارات ورموز اتفاقيه، ثم
الهيراطيقية وهى خاصة بالتسطير على الورق، وفي القرن السابع بعد الميلاد كانت هذه الكتابة
شائعة الاستعمال في التجارة وسميت بالديموطيقية. ولاتزال الكتابتان مبدأ للكتابات القديمة
المقدسة أو الرسمية «انظر في هذا الموضوع مصنفات دوروجيه وبروكش وماسيرو وايبرس»

سهكرات الموت. وقال متنهداً: هكذا أفعل معك يا بنطاؤر، وإنى لأستودعك الله. فهاعرضه الشاعر ومنعه من مزايمة المكان ملحاً عليه في العدول عن نيته ومبينا له سوء مغبتها، فلم يعبأ الطبيب بقوله. وكان بنطاؤر ممسكا بيده يشدد عليها الضغط لئلا يتمكن من الإفلات، فقال بصوت المتسجير: ماذا.. لقد عصرت أصابعي عصراً ألمنى. قال بنطاؤر: عفواً يا صديقي، فإنك تعلم قوة يدي وعذراً فإنما شدة ضغطها على أصابعك بقدر مخالفة مشروعك للصواب والعقل. قال الطبيب ضاحكاً: نعم إن مشروعى مخالف للصواب والعقل، ولكن ألا تعلم أن بنا -معشر المصريين- ميلا إلى الجنون ومحبة للنزق والطيش فنبيع منازلنا وأراضينا ونضيع أموالنا في الملاذ والترف؟ قال الطبيب: إذا جازت إضاعة المنازل والأراضى وبعثرة الأموال فلا يجوز أن تعرض للهلاك حياة ربما كانت ينبوع سعادة وآمال كبار. قال نبسشت: أكرر لك يا صديقي أنى لا أسلم بأن يكون القلب مركز الإدراك.. ومع هذا فلا بد لى من متابعة البحث لتمحيص هذه الحقيقة. ولا يهمنى إذا مت أن أدفن بقلبي أو بقلب شاة. قال الشاعر: لا أقصد بالأحياء، لأنه إذا فضح سر الشيخ بينم وثبت أنه اعتاض عن قلب حيوان، بل أقصد الأحياء، لأنه إذا فضح سر الشيخ بينم وثبت أنه اعتاض عن القلوب بقلوب غيرها مرضاة لك فإنه يجر على نفسه عقوبة الإعدام، وعندئذ لا تكون أنقذت وردة من غائلة المرض إلا لتلقيها في هاوية الفاقة والأحزان.

فحملق نبسشت بعينه إذ لم يخطر بباله قط أن يؤذى جد وردة فكان فى هذه الأونة كالنائم الذى يهب من نومه فيكون أول من يلتقى به مخبراً بشؤم أو نذيراً بسوء ثم قال: انى أقاسم وردة وجدها بينم كل ما أملك. سأل الشاعر: ومن

يحييها ويدفع أذى الناس عنها؟ أجاب الطبيب: والدها الجندي. سأل الشاعر: وهل لرجل مثله - غليظ الطبع ديدنه السكر ليل نهار - أن يتعهد تلك الوردة النضيرة بما ينميها ويصون نضرتها؟ وإذا سافر إلى مكان سحيق للقيام بفروضه العسكرية فماذا يكون الحال والشأن؟ أجاب الطبيب متلعثماً: أما الرجل فشهم كريم وقد خبرته بنفسى، ولكن من ذا الذى يجروء على الإساءة إليها وجمالها رائع وحسنها كضوء القمر ساطع؟

فاه بهذه الكلمات واحمر وجهه حياء كما يحمر وجه الأوانس الخرد ثم استأنف الحديث فقال: لقد وافقتنى على أنها جميلة ولئن أكن عاجزاً عن الافصاح عما يجول بضميرى ووصف ما استحسنته من الصور والمرائى، فقد شعرت بأن ما قصر عنه لسانى قد تملك جنانى وأثار فى نفسى من العواصف وحرك من السواكن ما أسكرنى بخمرة الحب والهيام. وهذه أول مرة عطفت فيها على مريضة، ولكم قضيت من الوقت إلى جانبها ولا هم لي غير التأمل فى شعرها وتعداد أنفاسها بينما يقصد اناس إلى الهيكل فى طلبى لأعالج مرضاهم، وأخشى أن يدفعهم حب الاطلاع إلى الدخول فى غرفتى واستكشاف أسرار أبحاثى التشريحية، فقد نسيت هذه القاعة وما فيها منذ جئت إلى هنا لأن وردة الفاتنة بحسنها الغض قد جذبتنى إليها وكبلتنى بقيود حبها. ولو كنت كالعامية فى أوامهم لقلت إن بى مساً من الشيطان أو عقلة من السحر، ولكن الحقيقة غير ذلك لأن الميول البهيمية قد اضطرمت فى قلبى منذ رأيتها طريحة الفراش فتغلبت على عاطفة الطهر والعفاف التى مقرها الدماغ. ومنذ هذا الوقت الذى تجددت فيه الرغبة عندى فى استطلاع الأسرار الإلهية أيقنت

أن تلك الميول غالبية في نفسى على هذه العاطفة التى تقول أنت إن مصدرها الألوهية.
وكان قد بلغ التأثير من نبسشت أثناء حديثه ما لفت نظر بنطاؤر الذى حذق فيه
بعين تخامرها الحيرة والرفق ولبت الاثنان ساكتين فترة من الزمن تناول بنطاؤر
بعقبها يد صديقه وقال له: إننى أحس في نفسى انفعالا كالذى تشعر به ويجب عليك
ألا تجزع، فما الانفعال الذى يحس به كلانا إلا أثر من آثار الرفق الذى يعلو فوق
الشعور العادى، وإن يكن من نوعه. واعلم أن الذى حرك فيك الساكن ليس هو ما
تسميه الميول البهيمية وإنما هو سر ربانى كئناز يذكىها دوام تفكر فى ما يتأثر به
قلبك من العواطف الكريمة كالحب والأمل وغيرهما. ولقد ذكرت لك أن الخير من
أجل ما يتحلّى به سكان السماء من الصفات. فإذا كنت لا تزال على ما عهدته فىك من
الميل إلى الخير بفطرتك ومحض إرادتك فلا ريب فى أنك تتمنى أن لو تحولت البحار
إلى سعادة وهناء لتهدىها من تحب.. أفلا تشعر فى نفسك الآن بنزعة إلى تضحية كل
نفس عندك لإرضاء وردة ودفع الأذى عنها؟

لم يستطع نبسشت الإجابة عن هذا السؤال لما عراه من الدهش والذهول فأوماً
بالإيجاب. أما بنطاؤر فقد استأنف حديثه قائلاً: إذا كان الأمر كما ذكرت فلم لا
تخضع للتأثير الربانى الذى ألبسك الآن ثوب الدهول والحيرة ولم لا ترأف بوردة
وتحب الخير لها وتضحى فى سبيل هذا الحب الأمنية المستحيلية التى أزعجت
خاطرك وأقلقت بالك؟.. وكيف تبحث عن أسرار الحياة والروح دون أن ترى دلائلها
ومظاهرها العديدة فيما برأ الله من الكائنات التى جعلها لك كتاباً تقرأ فيه ما شئت
بدون تكلف عناء ولا شقاء؟.. أما فكرت فيما يصيب وردة لو حرمت جدها حارس

خدرها رحامى نمارها، وهى كما تقول أحب الناس إليك وأسماهم مكانة في نفسك؟ ألا ترى أن هذه لفتاة التى تفتن النساك بجمالها الساحر وحسنها الزاهر تصيح عرضة للسقوط فيما ينصبه لها من شبك المكاييد مئات الذين استعبدت نفوسهم النزعات الشهوانية فعكفوا على الملاذ والملاهى؟ وهل ترضى بما تزل فيه قدمك من الهفوات أن تكون سبب انضمامها إلى الراقصات فى حى الأجانب فتخلع ثوب العفاف والصون لتلقى به فى مهواة العار؟ بل أتود أن تقذف بتلك الوردة النضيرة من حالك لتعبت بها أقدام المارين؟ وهل يستوى عندك قلب الميت وروح وردة؟ أما لهذه الروح فى نظرك رجحان وفضل على هذا القلب؟ اتق الله وانصرف إلى بيتك ثم عد فى الغد إلى أنا صديقك الذى كان من أجل نعم الألوهية عليه علمه بجميع ما مر وما يمر بخاطرك ويحقق به قلبك ومشاطرته إياك ما ينتابك من الآلام. واعلم أن مكاشفتك إياي بسرك قد زاد عقدة المودة بيننا وثوقاً، فثق بإخلاصى واعتمد على محبتى فى كل حين.

ثم مد بنطاؤره يده إلى نبسثت فتلقاها هذا بين يديه ثم زايل المكان دون أن تنبس شفاته بكلمة واحدة وأخذ يسير رويداً رويداً غير متأثر بحرارة الشمس التى كانت ترسل أشعتها الحادة كالسهام النافذة إلى طريق مهجور يفضى بسالكة إلى الجبل ووادى المقابر الملكية ومنهما إلى دار المحنط بينم حيث رأى والد وردة جالساً إلى جانبها فدنا منه وسأله عن والده الشيخ فأجابه: انطلق إلى بيت التحنيط بعد أن كلفنى التذكير بالعهد الذى عاهدته عليه إذا وقع له ما لا يود من الحوادث. وكان مكفهر الوجه منزعج الضمير حينما انصرف عنا لأنه كان قد وضع قلب الشاة فى

مخلّاة يحملها وأسرع إلى ذلك البيت دون أن يخبرنا عن سبب أخذه إياه. وما هي ابنتى وردة تريد منك الجلوس إلى جانبها حتى يعود أبى أو تتم والدتى عملها. أما أنا فساذهب إلى هرمونتيس^(١) التى يعانى بها أسرى القتال ضروب الإهانة والإذلال.

(١) هى أرمنت الآن وكانت واقعة جنوبى طيبة على مسيرة يوم منها

الفصل الثامن عشر

هبات وعطايا سنوية.. لأغراض ذاتية

بينما كان نبسشت يتحدث إلى بنطاؤور ووالد وردة وقع من الحوادث في حديقة دار مينا ما يستحق أن يؤثر. فقد كانت راتوتى تروح وتغدو في ظل أشجارها وعلى وجهها من علامات الانزعاج والقلق ما يسهل على المتصفح أن يتبينه. وكانت كلما طفرت في سيرها بخطوة وثب خلفها هراً أبيض ظريف الشكل وثبة عنيفة وتعلق بذيل مطرفها الخز الذى كانت تميمس فيه دلالاتاً وزهواً، ثم التفت وراءه حيث كان القزم نيمو جالساً على عمود صغير يحمل تمثالاً من الفضة اضطرت راتوتى منذ أيام إلى بيعه لتسد عوزها بثمنه. وكان نيمو يحب الجلوس على ذلك العمود ليتمكن من مواجهة محدثه، لأنه كان إذا وقف على الأرض اضطرت إلى جعل رأسه في الوضع الذى يجعل رأسه فيه من يتصفح السماء ليدعو الله أن يفر عما تقدم من ذنبه.

تحولت راتوتى بغتة نحو نيمو وبعد أن هرولت إليه قالت له: إن تبين لى أن ما نقلته إلى من الكلام غير صحيح وأنتك خدعتنى فالويل ثم الويل لك! قال: إن ثبت عندك أنى خدعتك فلك أن تلقينى إلى النهر لتلتهمنى التماسيح. وعلى أى حال فسأحاول الوقوف على الطريق الذى سيتبعه بعاكر فى تقديم النقود إليك.. سألته: أو تقسم لى مرة أخرى أنك لم تذكر اسمى حينما طلبت إلى بعاكر أن يهم بإسعافنا وإخراجنا من مأزقنا؟ أجاب: أقسم لك بأيمان الأرض جميعاً أننى لم أذكر اسمك، أما الرجل فقد أنست منه ميلاً صادقاً إلى مساعدتك خيل لى معه أنه ربما استصغر ما سيعرضه عليك من أمواله الكثيرة فجعل تحت تصرفك مزارعه الواسعة وقصره

البانخ الشامخ في مقابل نظرة يستحلى بها طلعة نيفرت. فتنفست الصعداء وقال
ليت مينا كان يحبها كابن خالتها. قالت هذا واستأنفت السير رواحا وغدوًا. ود
نيمو لا يكف عن الشخوص في باب الحديقة، فوقفت راتوتى بغتة وقالت له بصو
مزعج: إنى أفضل بقاءها عزبة. فهبط نيمو من علوة مكانه قائلاً: لقد وقفت بالذ
مركبة لعلها مركبة الموهار، وما هذا الذى أسمعته إلا نباح كلبه الكبير. أفتأذنين
باستدعاء سيدتى نيفرت؟ قالت بصوت خافت: كلا.. ثم سقطت في كرسى قر
منها واستلقت على ظهرها كمن تخور قوته وتنفك مفاصله، فاخفى نيمو
الأشجار وأوغل بعاكر في الحديقة وقصد إلى مكان راتوتى بعد إذ وقع عليها به
فاستقبلته بجنان ثابت وجأش رابط وحيته بما لا يخرج عن المعتاد من مظاه
الحفاوة، وقالت له: تفضل اجلس فقد كنت على يقين من حضورك، وإنى لأرجو
تزول آثار البغضاء لتحل بيننا محلها المودة القديمة الوثيقة العرى.

وكان حضور بعاكر بنفسه ليعرض على خالته كل ما هى في حاجة إليه
الأموال لاستخلاص تابوت زوجها. وكان قبل أن يهّم بالحضور متردداً بين
يكلف والدته بهذه المهمة أو أن يؤديها بذاته فجنح بعد طول الموازنة بين الأمرين
ثانيهما ليظهر أمام خالته بمظهر الرفعة والثروة والاقتدار، وليجعلها تشعر ب
خسرت فيه زوجاً لابنتها متدلهاً في حبها مسرعاً إلى قضاء أوطارها واضعاً ت
إشارتها كل ما يملك من مال كثير وخير وفير. ثم خطر له بعد ذلك أن يبعث إ
بحاجتها من المال عن يد بعض الأرقاء كما يفعل الأمراء المغلوبون على أمرهم
أدوا الجزية صاغرین إلى الملوك القاهرين، فلم تقع هذه الفكرة عنده في م
الصواب بل رأى أن أبلغ ما يقيمه من الحجج على ثروته وقدرته أن يتختم بالذ

المرصع بالماس الذى أهدها الملك سیتی الأول إلى والده وأن يزين جیده ومعصمیه
بقلادة ودمالج من الذهب الإبريز المرصع بالأحجار الكريمة.

تحلى بعاكر بهذه المصوغات والجواهر فارتاح قلبه وانشرح صدره ثم نظر في
مرآة من الصلب الثقيل فحدّث نفسه بأن هذه المصوغات وحدها تفوق قيمتها ما
ورثه مينا عن والده من مال ونوال. وكانت الأمانى تخامر قلبه وتداعب فؤاده منذ
أن التقى في اليوم الماضى بنيمو الذى رسم له خطة الاستحواذ على نيفرت بانيا إياها
على إنقاذ والدتها من العار أولاً ثم الفتك بمينا، فأخذ وسواسه يحدثه بأن أكبر عون
له على بلوغ غايته ثلاثة أمور؛ قوته الوحشية التى يسميها الهمة والنشاط ودهاء
القرم نيمو والماء السحري الذى جهزته العجوز نيخت. فلما دخل في بيت راتوتى
ودنا منها في زى العظماء المتجبرين وهيئة من يود شراء شىء نفيس يأنس في نفسه
القدرة على دفع قيمته أضعافاً مضاعفة تلقته بمظاهر العلو والكبرياء. وكان في
بادئ الأمر يعتقد أنها بمجرد وقوع نظرها عليه ستلقى بنفسها على قدميه
مستميحة العفر عنها وملتمسة المعونة لها. ولقد سال عن نيفرت مراراً ورطب
لسانه بذكرها فلم تدعها والدتها إلى الحضور ليطفىء نار هيامه بتسريح النظر في
محاسنها الفتانة.

وكان بعاكر يمنى نفسه بأن خالته ستطارحه الحديث فيما يطابق هواجسه،
ولكن الزمن الطويل انقضى بينهما في أحاديث تافهة ضاق منها صدره وعيل صبره
فبغتها بقوله إنه وقف على ما وقع فيه ابنها من التفريط في حقوق والده فجاء
لإنقاذها من العار وإعلائها إلى قمة المجد والفخار. فشكرت له راتوتى هذا العطف
وقالت له إنه بهذا العمل المبرور والسعى المشكور إنما يصون كرامة أبناء خالته

وهم جميعا لا يزالون في عنفوان الشباب وغبضارة العمر. أما هي فلا تبغى شيئاً ما لنفسها بعد إذ قارب نجم عمرها الأفول ولم يعد لها من مطمع في الحياة. قال بعاكر: لست يا خالتي بالطاعة في السن كما تذكرين، فأنت من رونق الشباب وطراوة الحسن على قسط وافٍ وطلعتك لا تمل أبداً. قالت: الحمد لله إذ أمتعني بهذا الشباب النضير الذي لولاه لأصبحت الحياة عبئاً لا يطاق حلمه. قال: لعل إدارة هذه الاملاك المثقلة بالديون هي التي جلبت عليك الهموم. فأومأت راتوتى بإيماء الموافقة ثم قالت بصوت الحزن: لقد كنت أستطيع التغلب على هذه المصاعب لو لم أكن مضطرة إلى مواساة نيفرت التي أضناها الحزن وأصبحت بلا نصير ولا مجير. ولطالما تمنيت أن تكون لها بعلا، فأنت أليق الرجال بها وهي أليق النساء بك.. نعم وإنى لموقنة أنك لم تر في مدينة طيبة على سعتها وكثرة الفتيات فيها من يدانيها جمالا ورقة ودلالا.. وهي بلا شك جديره بأن يتهاك على عشقها الشبان.. وبعد أرأيت أنها تستحق من زوجها هذا الهجران المتلف والصد المؤلم.. بل أرأيت أنه كان لايجوز له أن يفضل عليها تلك الجارية التي أخذها إلى سرادقه ليحتظى بها حتى ذهب الاس إلى الظن بأنه طلق زوجته؟! أه إنى استشف من عينيك الآن ما يجول بخاطرك من الرغبة في معاتبتى وتحميل تبعة هذه الحالة الذميمة التي أثرت في نفسى بقدر ما أثر فيها البرهان الذى أقمته على حبك وصدق ولائك لنا وحسن استعدادك لتضحية ما تملك في سبيل إسعافنا وتفريج ضائقتنا.. لو أن نيفرت اقترنت بك لكان حظها اليوم موفوراً وحياتها هنيئة وعيشها رغداً ومكانتها في أوج العزة والشرف والصون.

ثم تناولت يد بعاكر ولزمت الصمت زمناً كان في خلاله يحرق فيها النظر فقالت:

لقد برزت اليوم لى فى مظهر المحسن العلىّ الهمة السريع النجدة وقابلت إساءتى لك بإحسان لا متجاوز بعده لذى مطمع. ولا عجب، فقد كان والدك شديد العطف علينا أنا وأبنائى. ولكثرة ما أغدق علىّ من نعمه ووافر كرمه كنت أطوع له من بنائه وأسرع مبادرة إلى تنفيذ أمره. أما والدتك -شقيقتى- فكانت أتحرى ما يرضيها ويسرها وأتجنب ما يسوءها. وهى لم تدخر جهداً ولم ترضنّ بمال فى تثقيف ذهن نيفرت وتربيتها على أقوم المبادئ لتكون فى يوم ما قرينة الشاب البطل الذى أقام الدليل على بسالته وإقدامه فى الحروب الأسيوية، وهو أنت يا بعاكر لا سواك.. ولكن جاء القدر هادماً لروح الأمانى إذ توفى والدك ففقدت فيه أقوى عضد ونصير و.. قاطعها بعاكر: إنى ملّم بتفاصيل هذه المسألة. قالت: لم أغلقت والدتك باب دارها فى وجهى وقطعت علاقتها بى قبل أن تطالعنى ببيان أسباب تلك الحوادث؟ بل لماذا كتمت علىّ أسماء من سعوا عندها فى حقى وبذروا بذور الضغينة فى صدرها ضدى حتى أثمرت ما نحن فيه من التقاطع والتنافر؟ ولمّ لم تفرض أنهم لم يفضوا عمداً إليها بحقيقة عذرى وبأن الملك هو الذى حتم علينا تزويج نيفرت من مينا، إذ قال إنه أعز عليه من ولده وأننى لما ذكرته بخطبتك إياها وبعدم قدرتى على فصم عروة هذه الخطبة لما يجمعنا من أوامر القرابة ولحمة النسب، قال مستبداً: إن تلك إرادتى التى لا مفر من تنفيذها. فهل كان فى وسعى والحالة هذه مخالفة أمر ملك الخافقين وابن الشمس؟.. ولقد قلت بمناسبة هذا الحادث إن الملوك يجحدون الجميل وينسون الفضل، إذ كم من الوقائع تعرّض فيها والدك للموت الأحمر باقتحامه صفوف الأعداء فى مواطن القتال، وكم أصيب بالجراح البالغة ذوداً عن حمى الوطن والملك فنسى رعمسيس هذه الفعال كلها وجعل نصيبك الحرمان من التمتع

بريحانة فؤادك وقررة عينك وأوقعنى أنا فى هاوية لا قرار لها من الهموم والاكدار.

وكان الدم قد صعد فى رأس بعاكر فاكتست وجنتاه بلونه تأثراً وانفعالا فاندفع يقول: وأنا.. وأنا أما خدمت الملك أيضاً كما خدمه والدى؟ أجابت: نعم خدمته ولكنه لم يكن يعرفك وقتذاك معرفة تامة، ولست أدرى لم يكرهك وينفر منك. فأرعد بعاكر لسماع هذه الكلمات من شدة الغضب وقال: ما تقولين؟ أجابت: لندع الكلام فى هذا الموضوع فإن رضاء الملوك وسخطهم كرضاء الإلهة وسخطهم أمر ليس منه مفراً، والعاقل من ينتفع بالأول ويحتمل الثانى بالأناة والصبر. قال: وكيف يجهر الملك بعدم ارتياحه منى ويتظاهر بالإعراض عنى؟ قالت: إنه بذلك يجحد فضلك لكى يستميل ميناً إليه ويحمل نيفرت على الرغبة فيه دونك. وكان جبين بعاكر فى خلال هذا الحديث يتصبب عرقاً بارداً، وكانت عيناه شاخصتين وفمه فاغراً. فلما طرقت سمعه الكلمات الأخيرة صاح: ثم ماذا قال فى حقى؟ فارتفعت راتوتى وتراجعت إلى الوراء، فأمسك بذراعيها وكرر قائلاً وقد ببح صوته: خبرينى ماذا قال فى حقى؟ فعاتبته على قسوته فى معاملتها وقالت: إليك عنى يا بعاكر.. إننى إن أمسك عن الإفضاء إليك بسرّ ما قاله فرعون فيك ليحمل نيفرت على كراهيتك فما هو إلا رفقاً بحالك وعطفاً عليك.. فخلّ إذن عن ذراعى واعلم أن التى ألتها بقوة يدك إنما هى خالتك. فلم يصغ بعاكر لقولها بل زاد ذراعها ضغطاً بأصابعه وكرر قوله: ماذا قال فرعون فى حقى؟ فصاحت راتوتى بملء فيها: حذار لنفسك يا بعاكر! إن من أفضح العار وأقبح الشنار عليك أن تعاملنى بالشدة، وإذا كنت لاتزال راغباً فى معرفة ما قاله فرعون فيك فهأكه: «لولا ما أعهدده فى والدته من العفاف والصون لقطعت بأنه لا يمتّ إلى والده بحسب ولم يلبس له جلدة، كما هو ظاهر من الفرق

بين سحتتيهما. فإنه لا يشبهه إلا بقدر ما يشبه البوم النسر» فما استقرت هذه الكلمات في أذن بعاكر حتى اصفرت شفثاه غيظاً ودمدم بعبارات الاستياء، ثم أطلق يد خالته وأخذ يمعن النظر فيها فاستأنفت حديثها قائلة: عندئذ حاولت أنا ونيفرت الدفاع عن كرامتك لإزالة ما علق بذهن فرعون من الأوهام فذهب عبتاً ما بذلناه من الجهود في هذا السبيل. على أنه لا محل لاغتمامك بافتراء فرعون الكذب في حقك فكفك فخرأ أن والدك كان من صفوة الأمة وعظماؤها. والراجح عندي أن فرعون لم يجهر بما جهر به إلا لحقد في نفسه، فإنه لم يذهب عليه بعد أننا من الأسرة الملكية القديمة وأن هذا الانتساب يمضه أشد الموض ويقلق باله. وكان خليقا به أن يأخذ حذره ويعمى علينا أمره، فليس هو ووالده سیتی إلا دخيلين في الملك لا يسقط إلى الملوك المتقدمين بحسب ولا يلتحم معهم بنسب، وكان أجدر منه بالحكم رجل نسبه صريح محفوظ وحقه في الاستواء على عرش الملك واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

سأل بعاكر: أتريدین بهذا الغمز الوالی أنى؟ قالت: بلی. ثم دنت منه وسارته بقولها: لست أكاتمك بنات صدری ولا أوارى عنك مضمون سرى، ولست بخائفة ولا وجلة إذا فعلت، لأنك كما تعلم ابن أختی وصهرى.. وأود أن تفهم أن ما أسیت له كل الأسى حتى طار الرقاد عن عينيك استفزنى إلى ممالاة الوالی أنى والعمل معه على تحقيق أمنيته في الملك. ولم يكن لى من هذه المناصرة بد إذ من واجب المرء إذا كرم أصله وزكا فرعه المسارعة إلى تلبية نداء الضمير إزاء ما يلقاه من ظلم ذلك الجائر رعمسيس وتجبره وتغشمه، وسلبه إياك خطيبتك على الوجه الذى أوغر صدرك وأنزل بقلبي الألم والحسرة على السعادة المفقودة.. ولا يغيب عنك أن دم حاتاسو

مازال يجرى في عروقى وأراني قادرة مثلها على الأخذ بيد الرجال في طريق الصواب. ولقد هبّت في فؤاد الوالى عواصف الأمانى والمطامع بعد أن كانت ساكنة فطوحت به في تيار الطموح إلى الأريكة المصونة المكشوفة بعيون الآلهة.. وهناك أمر ذو بال وهو أن الكهان الموكلين بخدمة القدرة الربانية قد أعوزتهم تلك الحال إلى الانحياز إلينا فوافقوا على مشروعنا واستعدوا لتلبية نداءنا في أوفق الأوقات وأنسب الفرص.

وهنا طرقت الأذان جلبة نفر مقبلين فأمسكت راتوتى عن الكلام وما هى إلا صرة الحالب حتى أقبل عليها أحد العبيد مهرولاً ليخبرها بوصول الوالى أنى وأنه بالباب . وكان لا يزال بعاصر واجماً كاسف البال مقلقل الضمير، فهمّ بالانصراف ، ولكن راتوتى قالت له: قف مكانك فإننى غادية إلى استقبال الوالى الذى ستسره- ولا شك- رؤيتك لما أعلمه من حبه واحترامه لك، كما كان يحب أباك من قبلك ويحتره . ومازالت راتوتى بعد ذلك مكانها ومضت قدماً في طريقها حتى برز نيمو من مخبأه ووقف أمام بعاصر سائلاً: أما رأيت أن الصواب فيما قلت لك؟ فلم يلتفت بعاصر إليه بل أقصاه عنه بقدمه، ثم أخذ يجوب أقطار الغرفة تتقاذفه الخواطر والهواجس. وقابلت راتوتى الوالى وسط الحديقة وكان يحمل قرطاساً من البردى ، فحياها من بعيد تحية المبتهج، فنظرت إليه باهتة متحيرة ثم سلمت عليه باسطة يديها إليه كما يحيى من يجلس على عرش مصر ويوضع التاج الثنائى على مفرقه^(١) ثم قالت: السلام عليك، هل قابلت الآلهة التسعة^(٢) وهل شهدت الالهة هاتور فيما

(١) التاج الثنائى هو تاج الوجهين البحرى والقبلى.

(٢) كان المصريون يمثلون آلهتهم ثلاثاً ثلاثاً وفي رواياتهم القديمة أن الآلهة التسعة العظمى كانت ذات يوم تسير مجتمعة فوجدت «بتال» وحيداً فريداً فخلقت له المرأة ليانس بها.

يرى النائم فقبَلتْها؟ إن هذا اليوم ليوم نور وسعادة من يتوسم فيه وجهك الزاهر
النضير يفز بالخير والهناءة والنعيم.

قال أنى: قلتِ حقاً، وإليك هذا الكتاب فاقرايه. فتناولت راتوتى قرطاس البردى
وقرأته ثم ردتته إلى أنى قائلة: إنه لخبر خطير، إذ يؤخذ منه أن الجيش الذى حشدته
قهر الحبشان وأسر عشرة آلاف من رجالهم سيصلون قريباً إلى طيبة مع أميرهم
والغنائم والأسلاب فحمداً لآلهة وشكراً على ما أظننا من فضلهم وأغنانا من
رغدهم. قال أنى: حمداً لهم أيضاً إذ حفظوا حياة القائد (ششك) أختى فى الرضاعة
وصديقى الحميم وردّوه إلى سالمنا غانما. ويلوح لى من بوادى هذا النجاح يا راتوتى
أن آمالنا ستقرن بالفلاح. قالت: هذا ما لا ريب فيه أيها الأمير. أما شعرت بالعناية
الإلهية وقد نفحتك بأنعمها وكلاّتك بعينها التى لا تأخذها سنة ولا نوم؟ أما علمت
أنك كلما سرت إلى جانبى خلعت أنك ابن رع وأن بوارق الشجاعة تنبعث من عيني
(منث) كما أن ثورك يفتر عن الابتسام كما تفتر عن الزهر الأكام، أو أنك (حورس)
وقد سر بالانتصار وكلل بتاج الفخار؟ قال: كلامك أيتها الصديقة كالشهد بل أعذب
منه مذاقاً، ولكننى ما زلت مصرّاً على رأىى من أنه ينبغى للمرء أن يحسب حساب
عدوه، ولا عليه إذا بالغ فى تعظيم شأنه وتحقير شأن نفسه ليكون له من هذا الوهم
منبهاً لوجوب التحرز والحذر واتخاذ ما يتقى به الخطر، وكثيراً ما اتفق لى أن
نجوت من الأخطار والمصاعب التى كنت أخشى منها سوء العواقب لحذرى
وتيقظى. قالت: لست بمعارضة فيما عنّ لك من الرأى، ولكن أبقى فى ذهنك أثر من
الريب فى أن السعادة مقرونة بالشقاء وأنها لا تأتى المرء إلا وهو لها تبع؟ قال: إنى
مشايح لرأيك فيما قلت، لأن حادثات الحياة تسير منثنى منثنى، فلكل سعادة مماثل

ولكل شقاء مشاكل. وهل أتاك حديث آخر من حوادث الفوز تخبريني به؟ أجابت باسمه: لا، لأن النسوة لا شأن لهن في الحروب، وإنما عرفن بالحذق واللباقة ولفظ الحيلة في حشد الجنود واستمالة القلوب إلى مشايعة الأحزاب، يشهد بذلك الحليف الذى ساقته لك المصادفة والذى لا يختل اثنان في بسالته وعلو همته. سألتها: ومن هو.. إله أم جيش؟ أجابت: لا هذا ولاذاك، وإنما بين بين.. هو يعاكر الذى حالفتنى على التفانى في نيل المرام وتحقيق الأمانى.

ثم أنشأت راتوتى تشرح ما جرى لها مع يعاكر وأنه ما برح متدلها في حب نيفرت فاستمع لحديثها ووعته منه أذن واعية. قال لها: لكنى عهدت هذا الشاب مخلصا لرعمسيس وسيعود قريبا إلى معسكره وإنى لأخشى أن تأخذ الناس ريبة في حقيقة الأغراض التى نرمى إليها فيسعى الخونة منهم بالوشاية في حقنا فلا يكون إلا ما نكره. والذى أراه أنك تستعجلين الحوادث وتستدنين المستقبل لتجنى ثمار المشروع الذى وضعنا لإنجازه الخطط، ولهذا أرى أو أوصيك بالتؤدة والاتئاد، فعندى أن ألف عدو يجاهرونى بعداوتهم خير من حليف واحد يعمل ضدى في الظلام. قالت: طب نفساً فبعاكر شاب أمين، وأنا واثقة من أمانته وإخلاصه. قال: ومن أين لك هذه الثقة دون أن يكون هناك ما يضمن لنا بقاءه على ولائنا واستحسانه لمشروعنا؟ أجابت: إنه سيمكنك من يده ويعطيك قياد نفسه، ذلك لأن القزم نيمو قد وقف على أسرار له إذا انزاح عنها الستار فسيكون جزاؤه عليها الإعدام. قال: إن كان الأمر كما تذكرين فلا بأس.. وهل قتل نفساً ليستحق هذا الجزاء؟ أجابت: لا.. وبما أن القزم نيمو قد أقسم ألا يفضى بجملة سره إلى غيرك فلك أن تثق به وتركن في مهام الأمور عليه. قال: قد يكون الصواب فيما رأيت إلا أن

نيمو طائش العقل خفيف الحلم لا يصح الركون إليه في معضلات المسائل، ونحن الآن معه كفارس الرهان يدفع بفرسه إلى الميدان غير مكترث بما إذا كان يجرى على بسيط من الأرض منجاب أو على أسنة الرماح، فإذا كبا الجواد ونفق اضطر أن يقطع بقية الشوط سيراً على الأقدام. قالت: لقد تلطفت في العبارة إذ كان ينبغي القول بأن تلك الأسنان تنفذ في جسم الفارس كما نفذت في جسم الجواد ويصرع الاثنان، ولكن هل ذهب عليك أنك إلى الربح والفوز أحوج منك إلى التعرض للخسارة والفشل وأن أحقر الناس تدفعه الغريزة إلى الحرص على ذاته والضم بحياته؟ ولا يغيب عنك أننى بمعاونتى إياك على إصابة غرضك لا أجرى وراء غاية، وإنما أنا امرأة أحبك كما تحب الأخت أخاها، دع أنك الآن تمثل من حقوق الأجداد ما انتهكته الأسرة القابضة على صولجان الحكم في هذه الأيام.

فمد أنى يده إليها وقال: أرجو أن تكون المفاوضة انتهت بينك وبينت أنات في موضوع الزواج. وهل لى يا ترى أن استبشر بسكوتك فأعده فألا حسناً على قضاء الوطر؟ لم تجاوبه راتوتى على هذا السؤال بل هزت الرأس ثم أطرقتة. أما أنى فقال: لقد مر ببالى أمس أن أعدل عنها للتزوج من غيرها إلا أننى أنس من نفسى ما يشجعنى على متابعة هذا الرأى، ولو أسعفتنى الإلهة هاتور بمددها وشملتنى برعايتها لفزت بما يتجاوز المامول. قال هذا وتقدم نحو الغرفة التى كان فيها بعاكر مروّع القلب منزعج الضمير، فلما توسطها نهض بعاكر واقفاً وأحنى رأسه إجلالاً واحتراماً فحياء أنى مصافحة، على وجه تستشعر منه دلائل الغطرسة والصلف والتجبر ملطفة بشيء من تعمل المودة ورفع الكلفة. ولما جلس بعاكر جاذبه الوالى الحديث فى شؤون جعل وكده فيها إظهار الميل إليه والعطف عليه والتذكير بما كان

بينه ووالده من لود القديم ولحمة القرابة. ومما قاله في مدحه: « لقد خصك الإله بالشجاعة التي تزول بها العقبات وتذلل الصعوبات وأرى أنه ينذر من يضارحك في الفضائل والسجايا من شبان هذا العصر، وقل من اعتمد عليه منهم تحت إدارتي فليس عجباً أن يكون من أعز أمانى مشاركتك إياى فى أعمالى، ولكن ما العمل وأنت لا غنى لرعسيس عنك بحكم منصبك عنده فإنه بحاجة إلى من يثق به من ذوى الإلمام الواسع بمختلف العلوم والفنون بل إلى رجل يجمع بين فضيلة الجندى الباسل والكاتب البارع والعالم النابغ. أما البسالة فأنت بلا خلاف القابض على زمامها وأما التحرير فلئن لم تكن فيه ممن يشار إليهم بالبنان لرداءة خطك وقصورك عن ابتكار المعانى فكثيراً ما عجزت يد عن تحريك اليراع وبرعت فى الخطران بالسيف على مثال يبهر الأبصار ويأخذ بالألباب. وحركة القلم على القرطاس تستعدى لين الأنامل ومرونة الأصابع بخلاف خطران السيف يتطلب من اليد الصلابة والقوة. وإذا انتقد الملك رعسيس تقاريرك وعابها وضرب بها عرض الحائط فلا لوم عليه ولا تثريب.

قال بعاكر: إن أخى (جورس) احذق منى فى فنون التحرير والتحرير وهو الذى يرافقنى فى رحلاتى وجولاتى. قال الوالى: لو أنى رئيسك لجعلت معك خمسة كتاب أو ستة لا كاتباً واحداً وعهدت إليك من جلائل الأعمال ما يستغرق كل أوقاتهم فى تحرير تقاريرك عنها، وأنت فى منصبك بحاجة إلى الرصانة والشجاعة وهما صفتان قلما اجتمعتا فى شخص واحد. أما الذين يدعون العلم بالكتابة والتحرير فكثيرون امتلأت بهم الهياكل. قال بعاكر: حق ما تقول. ثم سكت أنى برهة واستأنف الحديث. لا أدري لأى سبب لا يفتأ رعسيس يقارن بينك ووالدك فيقول فى كل حين

إن والدك الذى صار فى صفوف الأبرار والقضاة والعدلين كان فيما عدا ما تحلى به من الفضائل النادرة شجاعاً مقداماً وكاتباً أريباً، وقال غير هذا مما خيل لى معه أنه يريد الإساءة إلى سمعتك بالحط من قدرك، وهو ما يستدعى الأسف والحزن لأنك أحد أعضاء أسرتنا الشهيرة التى ذهب الحكم من يدها وبودى لو أتاحت لى الفرصة إيثارك بمنصب سامٍ جدير بفضلك وكفاءتك. وبعد، فهلا ترى أن الملك قد غض من جنابك وقصد إرهابك وإحراجك، إذ ما كدت تقيم بطيبة زمننا قصيراً هو بعض ما ينبغى لالتماس الراحة من عناء الحروب التى أبديت فيها من ضروب البسالة والإقدام ما هو جدير بالثناء حتى بعث فى تعجيل رحيلك إلى الشام. أما كان خليقاً به- وقد قمت بما لا يُعد من جلائل الأعمال- أن يدعك تتقلب زمننا فى بحبوحة نعمتك وتتمتع بلذة الانس بزوجتك. فبُهِت بعاكر دهشا وقال: لست بمتزوج على ما تعلم بل أعيش وحدى. قال أنى: وحدك! ولم لا تطلب من راتوتى أن تخطب لك أجمل بنات مصر؟ حقا إن التى لا تفتأ تترأى لنفسها فى المرأة أعرف الناس بمحاسن النساء.

قال هذا ثم حيا بعاكر بمثل ما تصنعه قبلا من العطف والمحبة ثم قال لراتوتى وهو يصافحها مودعا: أرسل المنديل إلى اليوم.. مع نيمو. ثم خرج إلى البستان وأوما إلى بعاكر من بعيد قائلا: سيتناول طعام العشاء عندى هذا المساء لفيف من الأصدقاء فهل لك فى تلبية دعوتى إياك إلى مائدتى؟ فأحنى بعاكر رأسه شاكراً له هذا الالتفات. ولما غاب الوالى عن نظره وخلا إلى نفسه تأمل ملياً فى موضوع المحادثة وأخذ يضرب أخماساً فى أسداس وشعر كأنه وقع فى أحبولة لا يدركها البصر، وعرض على رويته ما نقله الوالى إليه من ازدراء الملك به وتهكمه عليه

وتنقيصه من قدره بالقول المقذع وقوله إنه لم يبقه في منصبه المحفوف بالمكانة إلا لإكرام سيرة والده واعترافاً بما له من سالف الفضل في خدمته وكثر عليه أن تكون هذه منزلته من أمير البلاد مع أنه ضحى في سبيل الإخلاص له كل شؤونه الخاصة، إذ أهمل العناية بفلاحة أراضيه الواسعة وانصرف عن العيش في بجموحة الهناءة والنعيم مؤثراً احتمال المشاق في سبيل مرضاته. ومما فتت في عضده أن يفهم أنه سخر بخطه وإذشائه مع أنه البطل المقدم الذي طالما أربى العدو ببطولته وبسالته وأورده بطعنات سيفه موارد الحتف، وزاد على هذه الصفات الشريفة أن كتم أسرار منصبه فلم يرض بما عرضه الوالى عليه من تعيين طائفة من الكتبة لتدوين التقارير ضناً بأسرار الحكومة من الاقتضاح وأن تلوكتها ألسنتهم واستغنى باتخاذ أخاه عوناً له على تحرير تقاريره وإلزامه إياه ملازمته تحرزاً من شيوع الأسرار. وبالغ في الحذر إلى حد أنه بعد زواج هذا الأخ فرض عليه ملازمته ملازمة الظل للشبح وناط بوالدته القيام على شؤون زوجته وأبنائه. ولقد أقامه مقامه في الشام ريثما يقضى بطيبة ربحاً من الزمن ثم يعود فيسترد منه زمام أعماله.

قضى بعاكر فترة من الزمن تتقاذفه الهواجس والوساوس حتى نسى المكان الذى هو به ولم يشعر براتوتى إذ دخلت عليه وجلست إلى جانبه وأخذت تحديق نظرها فيه. وكانت عيناه أثناء ذلك شاخصتين في غير ما تدركه المشاعر ودون أن تستقر على شىء، لكثرة ما غلبت الهواجس نفسه حتى ملكتها. ولعله كان يتخيل الملك رعمسيس يسومه سوء العذاب ويمعن في التنكيل به وينكر عليه حقه وفضله، ويتنقل بعد ذلك من هذا الخيال إلى وجوب الانتقام من خصومه حرصاً على شرفه ومواساة لفؤاده المكوم. وكان يخيل له أن الظلام قد غشى نظره فلم يعد يرى

شيئاً ثم فكر في نيفرت وحاجته إلى الظفر بها وراجع بالفكر ما قدمه بسببها من القرابين إلى الآلهة فيضيق رجب الفضاء في نظره ويخفق قلبه بعاملى الحب والضغينة ويعتقد أن الآلهة عمدوا إلى أذاه وخيبوا مسعاه وقابلوا بالتفاضى عنه مظاهر عبادته وتقواه.

لم يبق له - وقد أساء الظن بالآلهة - إلا اعتماداه على نفسه وركونه إلى سداد رأيه وحسن تدبيره، ولكن كيف كان يستطيع تصريف أموره بمقتضى هذه القواعد الحكيمة إذا كانت الغيرة قد أنشبت في قلبه أظفارها وإذا كانت قد عبثت بأماله يد الخيبة فسلبته نعمة الطمأنينة وصار من نفسه في حرب عوان؟ ولم يسعه وهو من هذه الحالة في أشد الضيق والحرَج إلا أن يعتمد رأسه كمن يهب فزعا من نومه على أثر حلم مزعج رآه. ثم أجال النظر فيما حواليه فرأى أنه لم يكن وحده بالغرفة بل إن إلى جانبه بها خالته راتوتى فعاد إليه صوابه وتذكر ما أسره إليه نيمو وما دار بينه وخالته والوالى من المحادثات وما ذكرته هذه من قدرتها على حشد الرجال والتحكم في مشيئتهم بما تشتهى ثم قال: لعلها تعطف على وترأف بى فإنى لم أعد أجد نفسى قادراً على الإدراك والتصوير، بل ولا على العمل بما يوحى إلى ويلقى في روعى، واتجه بعدئذ نحوها قائلاً: قد اتفقنا على التحالف والتناصر. أجابته: أى نعم ضد رمسيس ومع أنى. قال: سأسافر إلى الشام بعد أيام، فعليك بالتفكير قبل سفرى فيما تودين أن أحضره لك منها. أما المال المطلوب لتسدي ديون ابنك فسيصلك مع تطفيل شمس اليوم. ثم أسمحين لى بالسلام على نيفرت؟ أجابت: نيفرت بالهيكل تؤدي فروض الصلاة. قال: إذن أحييها غداً. أجابت: بلا ريب، وأنها لتحسب نفسها سعيدة إذا قابلتك وشكرت لك معنى صنيعتك - قال: استودعك الله

يا راتوتى. قالت: لا تدعنى باسمى، وقل ياوالدتى. فلما ابتعد عنها أومأت بردائها
إيماءة الوداع مغتبطة بما يبشر به الحال من حسن المآل.

الفصل التاسع عشر

حيث يدور الكلام على زوج محظوظ.. لا من ذوى الأفهام

ما كاد يتوارى بعاكر خلف الأشجار المثقلة الأفنان بألوف الأزهار وصنوف الثمار حتى دقت راتوتى إطاراً معدنيا لم يلبث أن ملأ بدوى رنينه أركان الدار، فلم تكن إلا غمضة الطرف حتى برزت إحدى الجوارى وتقدمت إليها لتتلقى أوامرها، فسألتها راتوتى: هل عادت نيفرت من الهيكل؟ أجابت: عادت منه إلى الباب الصغير في محفتها. قالت راتوتى: إننى بانتظارها في هذا المكان. فانصرفت الجارية وما هى إلا لحظة حتى دخلت نيفرت وخاطبت أمها: أتسألين عنى يا والدتى؟ وبعد أن قبلتها طرحت نفسها على فراش وثير ثم التفتت إلى نيمو فأمرته بتحريك المذبة ليطرد عنها الذباب فدنا القزم منها وأخذ يحرك تجاه وجهها مذبة كبيرة من ريش النعام، فالتفتت إليه راتوتى وقالت له زاجرة: دعك من الترويح وانصرف على الفور فإن بيننا حديثاً لا ينبغى لمثلك أن يسمعه.

فهز نيمو كتفيه وهم بالانصراف. أما نيفرت فتأملت والصدتها بعين الذهول وقالت: دعيه يا والدتى فقد عال صبرى ازدحام الذباب حولى، وأما الحديث الذى أشرت إليه فنيمو مستودع أسرارنا وسيكون أحرص عليها منا. ثم مرت بيدها على رأس القزم كما تفعل عند ملاطفة الكلب الصغير والتفتت إلى الهر الأبيض فدعته بالنداء المألوف فأقبل نحوها مسرعاً. عندئذ قالت راتوتى: يا نيفرت إن ما أردت الإفضاء إليك به سر خطير أخشى إن تجاوزنا شاع وملأ الأسماع. قالت نيفرت: مازلت متمسكة برأى فإن كنت تريدن.. فأنشأت راتوتى تدللها وتواسيها كالطبيب إذا لاطف عليه بمظاهر الرفق والعطف، وقالت: فليبق نيمو هنا. فتهللت

نيفرت فرحا رقبكت رأس الهر ووضعت المذبة في يد نيمو ثم شكرت لوالدها مسارعتها إلى إجابة طلبها. وكانت راتوتى ترسل إلى نيفرت من حين إلى آخر نظرات الرفق والعطف، ثم دنت منها وأخذت تطيل التأمل فيها كما لو كانت تعجب بجمالها وقالت متنفسة الصعداء: كنت أريد أن أكتم عليك ما أردت إيراده من الأخبار المحزنة ولكن لم أجد مفراً من إبلاغها إليك، فدعى اللهو واللعب جانباً وأنصتى لقولى. قالت نيفرت: تكلمى يا أمى فإنى متجهة إليك بكل جوارحى ولا تخافى أمراً فلن تنال من نفسى الأخبار مهما احتوته من بواعث الأكدار. وعندى أنه مادام طالع مينا فى ربح السعادة فقد كفانى هذا الفوز وزيادة. أقول هذا لأن الهواتف جاءتنى بأنباء تفيد وفور الخيرات عنده فدعوت وصليت ابتهاجا بما نبأتنى به. وقد علمت فوق هذا أن الكتاب الذى أرسله أخى إليك لا يتضمن من الأنباء ما يشرح الصدر بدليل أننى شهدتك بعد تلاوته تهطل الدموع من عينيك ورأيت على وجهك علامات الغم والاكتئاب نهار أمس كله. قالت راتوتى: حقا فإن أخاك قد جر إلينا من الهموم ما لا قبل لأحد بحمله، وأتى من قبيح الفعال ما لطخ شرفنا بالعار. قالت نيفرت: وما الذى ارتكبه من الآثام؟ أجابت: خسر فى المقامرة مبلغاً طائلاً كان يرجو ربحه فقامر على جثة أبية رجاء الربح فكان نصيبه الخسران أيضاً. قالت نيفرت: ما أشنعه خيراً سيلصق بنا العار إذا لم نلتجىء إلى الملك ونستنجد بكرمه، ولقد عقدت النية على مكاتبته فى أمرنا وهو بلا شك لا يتوانى فى نجدتنا وإنقاذنا من ورطتنا، إكراماً لمينا. ورعمسيس من علو الهمة بحيث يأبى تعريض شرف أسرتنا للامتهان بسبب سقطة سقطها شاب طائش الفكر خفيف الحلم كأخى. نعم لا مفر لى من الكتابة إليه فى هذا الموضوع. قالت ذلك بعبارة تتم على وثوقها التام بنجاح سعيها. فلما سمعت راتوتى هذا البيان ساءها أن ابنتها لم تحفل بالكارثة كما كانت تنتظر وظهر عليها

الامتعاض، إلا أنها لم تلبث أن ذهب ما في نفسها من الغيظ وقالت في سكون وتؤدة:
إذن ما رأيك في نجدة ساقتها إلينا الأقدار على غير انتظار؟ قد وجدت الرحمة إلى قلب
بعاكر سبيلا فأقبل على انتشالنا من وهدة العار مدفوعاً إلى ذلك بصلة الرحم
وعاطفة الرفق التي مزجت دقائق قلبه. قالت نيفرت: بعاكر رجل كريم بلا ريب..
ألا تذكرين افتتاحه بي منذ صباه؟ لا يختلجني شك في أنه لم يعرض علينا معونته إلا
حبا فيّ، إذ ما زال هذا الحب متأججا في فؤاده. قالت هذا وأغربت في الضحك وجعلت
رأس الهر بين يديها وأخذت تشخص فيه بعينيها ثم أدنته من رأسها وقالت بصوت
الطفلة الصغيرة: أترى يا مأؤ^(١) كيف يخلص أصدقاء صاحبك الولاء لها ويقومون
حتى النهاية على حبها؟

كادت راتوتى حينما رأت من ابنتها هذه الخفة تتمزق غيظا فقالت: عجبا كيف
تكبين على اللعب واللهو بينما يجب عليك الأخذ بناصرى لأخلاص من هذا المأزق
ومحو ما لصق بنا من العار؟ إنه ليسوءنى أن أراك قليلة الاكتراث بما يرفع من
قدرنا بين الناس، ومع هذا فلست أدري على من تعتمدين وبمن تلوذين إذا كان
زوجك.. فما طرقت الكلمة الأخيرة أذن نيفرت حتى وثبت من مكانها وثبة الهر إذ
تلوح له الفريسة وأخذتها العبرة وكادت تقف ضربات قلبها من اليأس، فأسفت
راتوتى لمفاجأتها إياها بقول كان يجب عليها فيه التنقل من العتب اللطيف إلى اللوم
فالتعنيف، فخفضت من حدة لهجتها إذ قالت لها بصوت يخالطه الحنان: كنت منذ
برهة تفتخرين بأصدقائك لافتتانهم بك والتماسهم رضائك، وهو مالم يكن
بمستنكر عليك، فكفى أن ترشقى قلوب الشبان بسهم من كنانة لحظك لتأتى إليك

(١) اسم الهر باللغة المصرية القديمة

صاغرة منقادة. ولست أجهل حب مينا لك وتدله في عشقك، ولكن أما سمعت في الأمثال قولهم «الفراق عدو الحب» «والبعيد عن العين بعيد عن القلب» وأن زوجك.. فقاطعتها نيفرت للمرة الثانية وكان مارن أنفها يرتجف لما عراها من الغضب والاستنكار وقأنت: ما فعل مينا من المنكرات؟ قالت راتوتى بصوت تمازجه الشدة: لم يقم لك بواجب الأمانة والوفاء، بل هتك.. فلمعت عينا نيفرت غيظا فألقت الهر من يديها وهتبت من مكانها وقاطعت والدتها للمرة الثالثة قائلة: مينا.. أمثله من يخون العهد؟ قالت راتوتى بصوت التأكيد: نعم! فقد شرح أخوك في كتابه ما أتاه من قبيح الفعل وشائن التصرف، وذكر أنه لم يأخذ حصته من الغنيمة مالا أو متاعاً بل امرأة جميلة من السبايا يقال إنها ابنة ملك الدنائم، وهي الآن في سرادقه، فياله من دنىء خائن! قالت نيفرت وقد روعها هذا البلاغ وجالت في عينيها الدموع: يا له من دنىء خائن! ثم كررت هذا القدح مرتين ضاع من بعدهما وعبها وذهب رشدها.

ولقد تمكن الغضب من نفس نيفرت فغيرت من سحنتها وبدل من حسننها الفاتن بما يصورها للناظر كأنها تمثال يمثل شيطان الانتقام. إذ كانت عيناها تلمعان كالبرق حتى كادت تخرجان من الحجاجين وأنفاسها تترادف في حلقها زفيراً وشهيقاً بسرعة مضطربة وجسمها يرتجف ارتجاجاً. وقد أمسكت بيد نيمو وزجت به في غرفة فتحت بابها بعنف ثم أغلقت عليه وعادت إلى والدتها في حالة كانت فيها أشبه بالأسدة اضطراباً وضراوة منها بغادة هيفاء، وقالت بصوت مبجوح: تقولين عن زوجي إنه دنىء خائن! فهل هو دنىء خائن حقاً؟ اسحبي كلامك يا أمى اسحبيه وإلا فاصفر وجه راتوتى ولكنها عالجت التغلب على عواطفها والتروى في كلامها فقالت: يبدو لك من قولى ما يقرب من الشدة ولو أمعنت في الأمر نظرتك لأيقنت أن زوجك خان عهدك وترك ودك وفضحك بقبيح فعله وسوء تصرفه. قالت

نيفرت هازئة: هذا كذب لا أسمعه ولاسيما إذا كان مفترية ذلك الشاب المتشرد الذي قامر على جثة أبيه وشرف أسرته. أما زوجي مينا فأشارة منه تكفى لايراد مثله موارد العدم، وماذلك إلا لحسن سريرته واستقامة أحواله.. إنى إذا فرضت يا والدتى أن هذا العمود الذي ترينه أمامى عمود سراق مينا وأنك هو وأننى رأيتك تجذبين نحو هذا السراق امرأة فى نهاية الحسن، فلا يسعنى إلا تكذيب ما رأيتة رأى العين أو تأويله بأن بينك وتلك الغادة مناجاة فى أمر خطير. إذ لا أسلم بأن يدخل مينا فى سراقه ابنة ملك السدنائم لسبب يصدف به عن محبتى وينسيه واجب الولاء لى..كلا.. وما أخى إلا خائن مائن أراد بإفترائه بذر الشقاق بينى وزوجى لغاية فى نفسه. ولو قيل لى إن أوزريس يخون عهد ايزيس وتأكد لى هذا القول فلن اعتقد أن مينا يقتفى أثره ويسير على سنته، ولو حفت به مائة من الحسان تستميلة كل منهن إلى نفسها بسحرها الفاتن ولطفها الجاذب، بل أثق الوثوق كله أنه لن يفضلهن على ولن يتخذ إحداهن بديلة منى.

قالت راتوتى: أسلم جدلا بأن الحق فيما تقولين إلى جانبك، ولكن لم أراك تسفهين رأى مع أن لى من صدقه آيات دلالات وشواهد قائمات؟ قالت نيفرت وقد بدت عليها علامات الغضب: لست أعارض فكرك ولا أقبح رأيك وكل ما أريده منك الكف عن اغتيااب رجل أبى النفس زكى الخلق، أخذ على نفسه تسديد السديون الفادحة التى اقترضتها أنت وولدك وأنفقتها وإياه فيما ضر ولم يفد. وما خطر لى ببال قط أننا سنصير إلى حالة من الضيق والفقر يرثى بها الشامت. ولطالما فكرت فى هذه الحالة وسألت نفسى أين ذهبنا خيراتنا الوفيرة من زرع وضرع فلم أقف على سبب زوالها بعد أن نشأنا بها فى عيش ناعم رقيق الحواشى إلا حين علمت أن أخى السفية هو الذى بددها فى الميسر.. ولن أستحق أن أكون زوجة مينا الشريف النفس

إذا سمعت النمائم والوشايات في حقه وأنا تظلنى سقوف داره.. إن مسّ السماء
لأهون على من النزول إلى هذا الدرك.. أما إذا أقمت على رأيك فيه فليس هنا من
يستنزلك عنه، ولكن فلتعلمى منذ الآن أنه لا مفر لأحدانا نحن الاثنتين من مزايلة
هذه الدار على ألا تعود ثانياً إليها.

ما انتهت نيفرت إلى هذا الحد من كلامها حتى أخذتها العبرة وانحدرت الدموع
على خديها النصيرين وجثت على ركبتها أمام فراشها وأكبت بوجهها على الوسادة
واسترسلت في البكاء والنحيب، بينما كان قوامها اللدن يتلوى ويضطرب لشدة ما
غشى نفسها من التأثر. فلما رأت راتوتى هذه الحال جزعت فلم تستطع التفوه
بكلمة أو القيام بعمل لأنها لم تعهد من ابنتها مثل هذه الجرأة وأخذت تسائل نفسها
هل أخطأت أم أصابت فيما أفضى إلى هذا الحادث. ومع هذا فقد دنت من نيفرت
وضمنتها إلى صدرها وقالت بصوت المشفق: أيتها الفتاة القاسية القلب اصفحى عن
والدة أجدد بحنانك وبرك من سواها، ولا تضاعفى أحزانها. فوقفت نيفرت وبعد
أن لثمت يد والدتها انصرفت إلى حجرة أخرى تاركة إياها في خلوة شعرت معها كأن
يداً باردة انحصت على قلبها. وتذكرت في الوقت قول الوالى إن الإنسان لا يصيبه
الخير إلا من حيث يخشى الشر فرفعت يدها إلى جبهتها شبه المتفكر وظلت هكذا
هذهة عرضت فيها على ذاكرتها ما اشتهر عنها من التؤدة والإفدام والثبات
فطرحت جانباً عواطف الرفق والحنان التى كانت تحبب إليها التساهل مع ابنتها
وتضخمت في نخلرها عبارات اللوم التى وجهتها هذه إليها واشتد وقعها في نفسها
وتوسعت في تأويل معانيها توسعا تحول معه لطفها الوالدى إلى شدة ورفقها إلى
عنف، ثم أنشأت تحدث نفسها: ما العمل وقد ظهر لى أنها ما برحت مقيمة على وده
بالرغم من بعده، وتحقق عندى الآن أنها لا تضحى والدتها فحسب بل الكون كله في

سبيل الوفاء له؟ إن رعمسيس يحب مينا ويعضده ويتفقدته برعايته العالية، فإذا اطلعت نيفرت على ما دبرته من الوسائل وأحكمت عقده من الدسائس مع بعاكر فليس بعزيز عليها أن تمهد لهما سبيل الانتقام منا.. كنت حتى اليوم أكاشفها بأسرارى فتضرب بها عرض الحائط وأنسج شبك الحيل على مرأى منها فلا تبأى بها. أما الآن فإنها لا بد واعية لأقوالنا ومتعقبة لحركاتنا وسكناتنا وسيكون شأنها معنا شأن الأبكم الأصم الذى يزول عنه البكم والصمم فجأة بقوة فوق طاقة البشر فيسمع كل شىء ويتكلم بكل شىء. فلاكن منذ الآن على حذر! لم تبق نيفرت ابنتى المحبوبة بل خصمى المقوت ورقيبى العنيد!

ما لفظت رانوتى بهذه الكلمات وإنما كانت تناجى نفسها بها، وكانت إذ تناجت بها تشعر بخوف امتلاً به فؤادها ففتحت الغرفة التى كان بها نيمو وأمرته بتحضير المحفة لأنها اعتزمت التوجه إلى الهيكل وزيارة الجنود المصريين الأسرى الذين فك أسرههم وحضروا أخيراً من الشام، فقال نيمو: أنسيت يا مولاتى المنديل الذى طلب الوالى أن أحمله إليه؟ قالت: لم يرد أنى بالمنديل إلا انتحال سبب يحملنى على إنفاذك إليه. والحقيقة أنه لا يرغب فى غير الاطلاع على أخبار بعاكر والوقوف منك على أسراره وهو أمر عليك هين. قال نيمو: أود ألا يسألنى عن بعاكر لأننى لا أجروء على إفشاء سره، والأحسن عندى نسيها أو تناسيها. قالت: حقيقة إن ما وافيتنى به من الأخبار كافٍ بحاجة اليوم، فأنصرف من فورك إلى أنى وابذل معه قصارى الجهد كيلا يفلت بعاكر من يده، وأعتقد أننى لن أجحد معروفك الذى سأكافئك عليه بتحرير رقبتك من ربة الرق وإغداق الخير الكثير عليك، ولاسيما إذا تحققت الأمانى والآمال. فلثم نيمو طرف ثوبها وسأل: وما موضوع هذه المنى والآمال؟ أجابت: علمت ما يطمح أنى إليه ويتمنى الحصول عليه، أما ما أتمناه أنا

فشيء واحد ليس غير.سأل:وما هو؟ أجابت: أن يحل بعاكر من الملك محل مينا.
قال: إذن فأمانينا كلنا واحدة. ثم همّ بالخروج. فقالت راتوتى: نعم لا مناص من ذلك، وإلا فإن دامت الحال على هذا المثال وعاد مينا من ميدان القتال وألزمنا بعمل الحساب.. آه.. لا أود أن تفضى الحال بنا إلى هذا الأمر وإلا فقد لعقنا ما هو أمر من الصير.

الفصل المتمم للعشرين

مناجاة بالأسرار عند الراقصات بالإطار

برح نيمو دار الوالى وفيما هو فى طريقه إلى دار راتوتى إذا بطفل قد أقبل عليه وطلب إليه أن يصاحبه إلى حى الأجانب قائلًا إن امرأة تنتظره فيه، فتردد فى إجابته إلى طلبه. فلما بدا للطفل منه هذا التردد أبرز خاتما علم نيمو بمجرد الاطلاع عليه أنه خاتم الساحرة نيخت، وكانت قد جاءت إلى المدينة لقضاء حاجة لها فرغبت فى مشاهدته لمحدثته فى بعض الشؤون.

كان نيمو قد احتواه التعب وأعياءه النضب لضيق خطواته ولأنه لم يكن اعتاد السير طويلا على القدمين ولا استعاض من حمارة الذى نفق فى الطريق بحمار غيره يخفف عليه متاعب النقلة، ولا وجد بأسطبلات مينا دابة يركبها بعد أن باعت راتوتى كل ما كانت تحتويه من الدواب إلا ما رأته ضروريا لها ولابنتها. نعم، إن فى الأسواق وعلى قوارع الطرقات أولاداً يؤجرون حميرهم المسرجة^(١) بأثمان هيئة لمسافات معلومة أو لسحابة النهار كله، ولكنه لم يكن يحمل فلساً واحداً، وقد أنفق كل نقوده فى اقتناء ثياب جديدة يليق أن يمثل بها بين يدي الوالى. وكان جيبه لا يخلو عادة من المال، إذ كان مينا يلقى إليه كلما وقع نظره عليه حلقة فضة كما يلقى المرء بعض الحبوب إلى الطير. ولكنه لم يأسف على انقضاء ذلك العهد- عهد الرخاء والرفه والنعيم- بل فضل عليه ما يكابده من الفقر والشقاء إذا اقتربنا باحتياج الغير

(١) جاء فى الآثار القديمة ما يدل على أن اغنياء قدماء المصريين كانوا يحصون ضمن ما يمتلكونه من المواشى عدد ما عندهم من الحمير. وأورد لبسيوس فى كتابه (الجزء الثانى ص ١٢٦) صورة رجل جالس على كرسي معلق بين حمارين

إليه واعتمادهم في المشورة عليه، خصوصاً وقد أصبح من المطلعين على أسرار الحكومة والمتفوقين على كثير من العظماء والأثرياء الذين لا يمتازون على عامة الناس وأفنائهم إلا بالتجبر والزهو. دع أنه فوق هذا وذاك كان حظياً برعاية الوالى يجلس ليحدثه بأحوال بعاكر ووقائع عشقه لنيقرت ويصب حديثه في قالب يستفز السامع إلى الضحك. ولقد أفضى إليه بأحاديث أخر كان إذا همّ بالقائها يشبه صغار البط تندفع إلى الماء بحكم الفطرة أو العصفور إذا انطلق في الفضاء بعد أن عاش محبوساً في القفص منذ نفقت عنه البيضة.

ولقد أخذ يزن بميزان الفكر مشروعاته الخطيرة ويدير لنجاحها التدابير ويحسب لحوادث المستقبل ألف حساب فعدل عن بعضها إلى البعض الآخر وبدل من تدبير بغيرها لترجيحه نجاح هذه وفشل تلك. وأمعن في التفكير وأطال في الأخذ والرد حتى بلغ إلى المدينة وسمع ضوضاء المارة فأحسّ بجلالة قدره وأنه من ذوى الشأن الذين يفحصون أعمال الحكومة ويتدخلون في شؤونها. وكان في أثناء مسيره قد مرّ بهيكل استارته^(١) التي كان يعبدها أفراد الجالية الفينيقية في طيبة وبمعبد ست^(٢) ملتقى المؤمنين بديانة (بعل) دون أن يتلفت إلى ما كان ينبعث منه من صياح

(١) كانت الإلهة استارته التي عبدها الفينيقيون تمثل على الآثار بشكل يشبه شكل الإلهة سخت وهي في آثار إدفو ممثلة برأس أسدة تسوق عربية تجرها الخيول، وقد ورد اسمها في أوراق البردى التي كُتبت في عهد حوادث هذه الرواية مع اسم رعمسيس وجواده وكلبه المحبوبين عنده.

(٢) اتخذ أحد ملوك الرعاة المسمى أبابى أو أبا توبس ست إلهاله وتظاهر بأنه لا يعبد غيره في مصر. وسمى المصريون بعد ذلك بعلا إله الساميين باسم ست كما يظهر من نص المعاهدة المبرمة بين رعمسيس الثانى وقبائل الخيتاس فقد احتوت هذه المعاهدة التي وُجدت في الكرنك صحيفة منها فيها دعوات للإلهين ست واستارته وصحيفة ثانية لألهة مصر. وتوجد التفاصيل المتعلقة بالديانة الفينيقية في مؤلفات بليت وشاباس وبروكش وميير وجورج ايبرس.

الصائحين ووقع أقدام الراقصين ورنين الصنوج. وعبر بعد ذلك الميدان الفسيح الذى تحيط به مساكن الراقصات الأجنبية المزيينات الصدور بالحلى الأجنبية، وقد أقبل على مشاهدته أهل البطالة والكسل الذين كانوا ينفثون أموالهم فى هذه البؤرة ذات اليسار وذات اليمين وكانت تلك الراقصات يغلقن أبواب منازلهن الخشبية فى النهار التماساً للراحة من عناء الليل. وكانت بيوت المقامرة تبيت مفتوحة الأبواب فيُسمع منها قهقهة الضاحكين ومجون الممازحين وتشاتم المتنازحين، وكان همّ رجال الشرطة طول النهار الفصل بين المتخاصمين من المقامرين، وكانت الحانات غاصة بالسكارى يحسون الكؤوس تلو الكؤوس من غير حساب ولم يكن ليرى بينهم أحد من جماعات المحترفين بالحرف السدنيئة كالموسيقين المتنقلين والمشعوذين وأكلى النيران والمجان المطايين والمقلدين وحواة الثعابين والسحرة والنخاسين وغيرهم من المحترفين على اختلاف ملهم ونحلهم.

واعتاد نيمو رؤية هذه المناظر فلم يعبأ بها لاسيما وأنه كان ينفر من الملاهى الخشنة والمناظر المبتذلة ويعاف شرب النبيذ ويميل عن كل ما يجنح إليه الهمل والمتشردون بطباعهم الخسيسة من العشق الوقتى الذى لا يكلفهم جهداً فى استمالة المعشوق وغيره مما يكون عليهم فيه الغرم ولغيرهم الغنم. ولم يعبأ فى مروره أمام تلك البيوت المدنسة بما كانت الراقصات يرشقن به من عبارات التهكم والتحقير كما لم يصغ أيضاً إلى ما كان المتفرجون المعجبون بخلاعتن يصوبونه نحوه من سهام التبكيت ازدراء به وحطاً من أقداره، لأنه كان يعلم منهم العجز عن مجاراته فيهما. ولقد كان معروفاً فى طيبة كلها بالبراعة فيهما حتى أن قيم بيت بعاصر قال ذات يوم لبعض صحبه: «إذا كانت ألسنتنا عصياً، فإن لسان القزم نيمو سيف غضب ماضى الحد».

قصد نيمو إلى خباء كبير مخروطى الشكل فرقع ستره البالى وانساب فيه، وكان هذا الخباء مفروشا ببسط عتيقة جلست عليها غادات فاتنات أسبغن على قدودهن حلا مبرقشة بالالوان. وكانت إلى جانبهن عجوز شمطاء تلتخ أظافر أيديهن وأرجلهن بمعجون الحناء وتكحل عيونهن بالمستسم وتدمم^(١) خدودهن وتدهن شعورهن بالزيت المعطر. وكان الهواء فى الخباء ثقيلًا يكاد لثقله يحبس الأنفاس، وكانت البنات صامتات ساكنات لا يتحركن أحيانًا إلا لتناول أنية من الصلصال فيها الماء الزلال، أو ذر الكحل بين شفاههن المدممة. وكانت الدفوف وآلات العزف والطرب على مقربة من أركان الخباء، ومنها إطار ثبتت فيه صنوج فضة صغيرة، كانت هرة صاحبة الخباء وجراؤها تداعبها بأطراف مخالباها فتسمع لها وسوسة خفيفة تغرى تلك الحيوانات الأليفة بتحريكها. وكان تجاه باب الخباء شق تدخل منه وتخرج جارية حالكة السواد، تحيط برأسها كلما دخلت أو خرجت أسراب الذباب، فترفع ما فوق البسط البالية من الصحف المكسورة الحافات ممتلئة بفتات الخبز وقشور الرمان والثوم وغيره مما تركته الراقصات من المأكولات بعد أن اكتفين شبعًا وريًا.

أما العجوز نيخت التى كانت جالسة على صندوق مبرقش بالالوان الزاهية بجوار تلك الراقصات فقد أخرجت من طيات ثوبها صرة صغيرة ثم صاحت بالجارية وكانت تحرك يديها حولها لتذب الذباب عنها قائلة: خذى هذه الحبوب العطرية واحرقى منها ثلاثاً فيخرج الذباب حالا، ولى معرفة واسعة بطرد الجرادن من المنازل واستخراج الأفاعى والصلال من أوكارها ترفعنى درجات فوق الكهنة

(١) أى تطل خدودهن بالأحمر والأبيض

والأطباء. قالت إحدى الفتيات : دعينا من هذه الأرجاس فإنك منذ نطقت بالرقى على جسمى وأعطيتنى الشراب الذى يجعل المرأة رشيقة القوام لدنة العود أصابنى سعال شديد يكاد يمزق صدرى وينهك قواى إنهاكا يمنعنى عن الرقص. قالت العجوز: ولكن لا خلاف فى أن جسمك الآن ضامر وقوامك رشيق بعد إذ كنت بدينة الجسم لا تستطيعين لسمنتك وترهك حركة. أما نازل السعال الذى نزل بك فلسوف ينصرف عنك. قالت الجارية: نعم يزول بموتها كما مات غيرها من قبل.

فهزّت الساحرة كتفيها مستنكفة ثم وقفت فرأت نيمو مقبلا عليها وكانت الراقصات يعرفنه فالتفتت إليه إحداهن وقالت: به! به! يا نيمو، لقد نما جسمك فصار أضخم منه يوم زيارتك الأخيرة. فلفت قولها أنظار صويحباتها إليه وأخذت كل منهن تبث صيحة الدهول: هو! هو! فلما دنا نيمو من تلك الراقصة قال: وأنت أيضاً لقد كبرت وطال لسانك. فقالت له: ما أعظم خبتك وأقصر جسمك! قال: كيف يتفق عظم الخبث مع صغر الجسم؟ السلام عليك يا ربات الجمال.. لتساعدكن الإلهة (بيزا) على إتمام زينتك.. وأنت يا والدتى مبارك يومك وسعيد نهارك هأنذا جئت بناء على طلبك. أشارت العجوز إشارة الموافقة على أنها دعتة إلى الحضور ثم جذبته إلى صندرق كانت تجلس عليه وأفضت إليه بسر ثم قالت: يظهر أن التعب قد أضناك، فهل جئت ماشياً وحر الشمس محتدم؟ أجاب: نعم لأن حمارى نفق وما كان معى من المال مايكفى لشراء غيره أو تأجيريه. قالت مازحة: هذا بشير بسعادة جدك وحسن مستقبلك، وماذا ربحت بعد؟ أجاب: لقد انتشل بعاكر مولاتى من وهدة الإفلاس، وكنت منذ ساعة أفاوض الوالى آنسى فى موضوع طويل عريض. سألت . ماقال لك وما قلت له؟ أجاب: قال إنه سيعفك من الرسوم على أن تمهدى لتحقيق أمنيته وبلوغ مراده من بعاكر. قالت: أحب أن يأتى عندى ولو متنكراً. قال:

لا أكون جاهية في السياسة إن طلبت إليه ذلك، وهو رجل خؤوف شديد الحذر. قالت: أصبت لأن المرء إذا تشعبت مطالبه قلما يستطيع تحقيقها، بل كثيراً ما يحول أحدها دون انصراف أريحية المجسن إلى قبولها جميعاً.. ثم ماذا بعد هذا؟.. أجاب: لقد قهر الوالى بجيشه الأحباش الاثيوبيين، وها هو عائد إلى طيبة تتبعه الغنائم من أموال وأعلاق. قالت العجوز: هذه بشرى ما أحسنها ثم ماذا؟ قال نيمو: لقد شحذ بعاكر غرار سيفه وأرهب حده.. أما مولاي مينا فلست أوافيك من أخباره إلا بقدر ما معى من النقود. وأنت تعلمين أنى جئت إليك ماشياً.. قاطعته العجوز: ليسكن روعك وليهدأ بالك فلسوف تعود إلى مكانك ممتطيا حماراً. ثم أتحفته بحلقة فضة وسألته: أعاد بعاكر فالتقى بنيفرت؟ أجاب : اتفقت لهما حوادث عجيبة. ثم أنشأ يقص على أمه ما وقع بين نيفرت وراتوتى من الجفاء على أثر ما بدا لهذه من وفاء ابنتها لمينا مع بعده عنها. فأصغت العجوز إليه ثم أخذت تقول في نجواها: آه.. إن هذه الوقائع غريبة تدل على اشتراك طبقات الناس في الشعور، بحيث أن ما يقع في ظلال الاكواخ والأخبية يحدث مثله في سامخة القصور، وكل ما هنالك من الفرق أن الأم تشبه القردة التى يعذب بها صغارها فتستحل هذا العذاب وأن الزوجات يصغين إلى ما ينقل اليهن في حق أزواجهن من الوشايات ويقبلنه قضية مسلمة، ولكن الحال غير ذلك بالنسبة لسيدتيك، لقد فنيت راتوتى في محبة ذاتها وآثرت نفسها على ابنتها بدليل ما أخبرتنى به من مبالغتها في التجميل، حتى إنها لتنضد الأزهار في شعرها كلما برزت لحضون الأعياد العامة وتراعى التناسب والتجانس بين ألوانها وألوان ثيابها ولا يهولها أن تضحى كل غالٍ ورخيص في سبيل الغاية التى تجدّ لتحصيلها. ألم تحرض بعاكر على قتل مينا وهو زوج ابنتها نيفرت؟

قال نيمو: ليتك رأيت نيفرت وقد هاج هائجها على أمها، إذن تعتقدن أنها ليست

تلك الأيكة التي ألفنا منها السكون والرفق بل أسدة لا تدركها الأساد في ضراوتها وفروسياتها. قالت العجوز: لا غرابة مادامت هذه الغادة الفاتنة الحسن تحب زوجها مينا بقدر ما تحب أمها نفسها. ألم يقل الشعراء فيما نظموه من الشعر في مدحها «إنها ملآنة بزوجها» و«إنها لاتروم سواه»؟ قال نيمو: لقد شهدت نساء بلغ منهن التدله في العشق ما يتجاوز حدود العقل، لكن.. فقهقته العجوز ضحكا حتى استرعت أسماع الراقصات حولها ثم قالت: إلا أن من تحدثنى عنهن من النساء لم يسلكن مسلك نيفرت، وقل أن توجد في الألف واحدة تضاهيها إخلاصاً لزوجها وهياما به.. إن العشق داء عضال ليس في قدرة طبيب أن يستأصله من فؤاد كما لا قدرة له على استئصال جرثومة الكسل من نفس الفتاة التي تغفر فاما هناك للتناؤب. وباليات شيطان الداء يذهب بحياة المعشوق فيصبح العاشق إما تعساً ومغضوباً عليا، وإما سعيد الجد. ولقد كنت في شببتي ممن سطا عليهم سلطان العشق وما برحت حتى اليوم.... قاطعها نيمو: ما برحت كيف؟ قالت وقد تمددت في وضع من يلتمس تبديد الكسل عقب النهوض من النوم: لقد كان ذلك من ضروب الجنون، والجنون فنون.. إن المعشوق الذي ألمع إليه مات من عهد بعيد. وعلى فرض أنه مازال حياً فقد كان واجبا ان أبقى بحالتي الحاضرة لأن الرجال أشباه ونظائر وليس مينا بمستثنى منهم. سأل: لكن ألم يكن لشيطان الداء الذى ذكرته الآن نفوذ على بعاكر وسلطان؟ أجابت: ولم لا ، ولكن بعاكر اعتاد الاستمسك برأيه ولو أدت هذه الخصلة به، إلى الجنون.. ألم يقتحم الأخطار ويستسهل الصعب ليدرك المنى والأوطار؟ وعسى إذا استحوذ على نيفرت أن يكسر من حدته ويطفىء من نار غيرته. اتمد جريت في محادثتك شوطاً بعيداً فدعنى أذهب إلى السرادق الذى امتلأت بالذهب أكياس المتفرجين فيه على الراقصات، فلى كلام مع صاحبتة. سأل: وأى

شأن لك بها؟ أجابت: تعلم أن وردة ذات جمال يفتن النساء فأنا أريد مفاوضة تلك المرأة في مكافأتي إذا جئتها بالفتاة لتعلمها الرقص وتنظمها في سلك الرقصات.

فامتقع وجه نيمو جزعا وقال للعجوز: لا بد لك يا والدتي من العدول عن هذه النية. سألت: ولم تيار النقود يسيل من أيدي القادرين على شرائها. أجاب متلجلاً: لا أجزك شراءها. فضحكت العجوز بطناً لظهر وقالت: ما معنى هذا النهي. أتريد التشبه بنيغرت في دلالتها على أمها فتقفني تجاهك موقفها تجاهها.. أم تطمح إلى الاقتران بوردة؟ أجاب: نعم، فتلك غاية شريفة أرنو إليها ولقد وعدتني سيدتي راتوتى بفك رقبتى وإغداق الخيرات على إذا نجح مشروعنا وتحقق مأمولنا. وعندئذ لا أتردد في شراء وردة من جدها فاتخذها قرينة لي أعيش معها في هناء وورغد. ومتى تم القران أشيد داراً بجوار دار العدل للمرافعة عن المتقاضين فيها. إلا تذكرين الأقتب(سوك) الذى أقدم على هذا الفعل فأصبح من الأثرياء والأعيان، لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا في مركبة خاصة؟ قالت العجوز: حبذا الرأى، ولكن أما سمعت وردة حينما اعترتها الحمى لا يلهج لسانها بغير اسم الشاب الذى حضر من بيت سبتى لزيارتها؟ والمفهوم- بصرف النظر عن ورود اسمه على لسانها- أنها ترضى به بعلا وتؤثره على سواء لسمو مركزه ورفعته قدره، وليس ذاك الشاب إلا الشاعر بنطاؤر. صاح نيمو: بنطاؤر ذاك الذى يمشى الخيلاء ويلبس جلدة الموهار السابق لشدة شبهه به؟ حقا لمثله أن ينشد المعالى ويطمح إلى غايات المجد، ولكن فى الإمكان مع ذلك كسر شوكتة والحط من كبريائه وشموخه. قالت العجوز: نجح الله مسعاك فإنه أحب إلى أن تصبح وردة قرينة لك لما اتصفت به من الجمال البارع.. ومن يا ترى يعلم أصل.. فقاطعها نيمو: عم تسألين؟ أجابت أسأل عمن يعلم أصل والدتها فإنه لا خلاف عندى فى أنها أجنبية بدليل الخاتم النفيس الذى وجد معها

منقوشاً بحروف لم يستطع أحد حل رموزها. ورجائى أن نبذل عقب قرائك بوردة
الجهد فى ترجمة هذه النقوش بمعرفة أحد أسرى الحرب، والراجح عندى أنها من
أسرة طاهرة المنبت كريمة المحتد لما يبدو على وجه ابنتها من أمارات الشرف والمجد...
لم أراك تضحك يا نيمو، ألا تدرى أيها الغرّ أن الوفا من الأطفال عرضوا على فكنت
أعرف بالتأمل فى أقدامهم وبصرف النظر عن ملابسهم إن كانوا من أسر رفيعة أو
وضيعة؟ فإن شكل القدم يا بنى يدل على الأصل، وهناك سمات أخرى توصلنى إلى
معرفة. فاعلم ذلك ولا تهزأ وكل ما أتمناه أن تبقى وردة حيث هى الآن دون أن
يعرفها أحد لاساعدك على الاقتران بها. وعليك أن تنصرف الآن وأن توافقينى بما
يجد من الحوادث الخطيرة جهد الإمكان.

الفصل الحادى والعشرون

فيما دار من المحادثات بإحدى الشرفات

عاد نيمو إلى منزل مينا ممتطياً حماراً اكتره ببعض ما أتحفته به العجوز من النقود ، فلم يجد به دياراً ولا نافخ نار، لأن راتوتى كانت في أثناء غيابه قصدت إلى الهيكل ثم إلى المدينة. أما نيفرت فكانت خرجت لزيارة صديقتها بنت أنات.

وكان قصر فرعون أشبه بمدينة صغيرة منه بقصر على الذرى وثيق البناء منيع الأركان. وكان الجناح الخاص منه بالوالى أنى يشرف على الخلوات والمزارع، أما الجناح الخاص بسكنى فرعون وأسرته فكان يمتد على ضفة النيل ويبدو للنوتية والمسافرين بحراً في أحسن رونق^(١) ولم يكن البناء في ذاته متناسق الأوضاع ولا متجانس الأجزاء، إذ كان عبارة عن بنايات متفرقة في ثلاثة صفوف تفصل بعضها عن بعض أنهار تتدفق المياه فيها دوماً فيسمع لها خريير لطيف، وتتدفع في مجار أعدت لها تعلوها قناطر وطيدة البناء تيسيراً للمواصلات من ضفة إلى أخرى. وكان يحيط بتلك المباني الجلييلة أشجار باسقة ناضرة الأزهار يانعة الثمار تنحط على أغصانها الطيور فتجلو صدأ الهم بتغريدها من الصدور.

وكان يتخلل أسوار الحديقة على مسافات متفاوتة أبواب عالية يقف دونها الحراس من الجند مدججين بالأسلحة، ويلزمون مواقفهم فيها ليل نهار. وكان تجاه كل باب منها أدقال ساريات في الجو إلى علو سامق، فإذا كان فرعون في قصره

(١) يرى بعض المؤرخين أن الفراعنة كانوا يسكنون الهيكل وهو رأى تأكد بطلانه، إذ تبين بالبحث في الهياكل التي مازالت باقية على حالتها الأولى كهيكلى دندره وإدفو أنها كانت خاصة بإقامة شعائر الدين ليس إلا. أما الفراعنة فكانوا يسكنون بيوتاً واسعة مشيدة بمواد البناء الخفيفة في وسط حدائق كانوا يعنون عناية تامة بغرسها.

رُفعت عليها أعلام حمراء وزرقاء وإن لم يكن موجودا ثبتت بأطرافها العليا نصال حديد لجذب الصواعق إليها أو صرفها إلى ناحية أخرى^(١).

وكانت مقصورات الأميرات من هذا القصر الفسيح إلى يمين القسم المتوسط منه تظللها أشجار باسقة الأفنان وارفة الظلال فيها من كل فاكهة زوجان، وينطبع مرآها البديع في صفحات الماء المنساب تحت جدرانها انسياب الأفعوان. وكان يليها من الجهة الأخرى مخازن القصر ومستودعاته مترامة متراكمة، بعضها إلى جانب بعض. وتلى القسم المتوسط الخاص بالملك أبنية عديدة وتكنات واسعة للجند والضباط المنوط بهم حفظ القصر وصيانة ساكنيه من الأثمة المعتدين وإلى يسار التكنات منازل الحشم والخدم والعبيد وسائر الاتباع، على اختلاف وظائفهم وتباين أعمالهم.

وكان هذا القصر - بالرغم من غياب رعمسيس في حرب الخيتاس - مظهر حركة دائمة تُوقع في يقين الناظرين أن الملك ما برح مقيما به وموجوداً فيه، فقد كان مئات العمال في الحديقة دائبين على تعهد الأشجار بالتقليم والرئى وغيرهما من وجوه العناية بها، فإذا أتموا هذا العمل انكبوا على غرس أشجار جديدة أو حفر مسارب وقنوات عديدة لجر المياه إلى المواضع التي لم تكن وصلت إليها. وكان الجند في إحدى الساحات يتمرنون - بقيادة قوادهم - على أداء الحركات العسكرية فيبهرون الأبصار بلوامع أسلحتهم ويسحرون الألباب برشاقة حركاتهم، وكان الخدم في ساحة غيرها يدرّبون الخيول ويكبحون من جماحها. أما الأميرات فكانت حجراتهن أشبه بخلايا النحل، دوام حركة وطنين أصوات، إذ كان الواقفون بأبوابها من

(١) يشهد بذلك النقش الذي عثر عليه العالم دوميشن في هيكل دندره

ضباط وعبيد وموسيقيين وتجار وزوار لا يحصى عددهم.

وصلت نيفرت إلى باب القصر المفضى إلى حجرة بنت أنات فلم يتعرض لها أحد المتولين للحراسة بتفتيش محفتها، كما يجرى مع غيرها من الزوار، إذ اشتهر أمرها بينهم بأنها رفيقة الأميرة وصديقتها الحميمة. بل كانوا يسارعون إلى التنحى عن طريقها وإفساح المجال لها. وكانوا يطرقون رؤوسهم احتراماً لها وإكباراً. وقد أقبل عليها أحد الحجاب مهرولاً بداخل الحديقة لاستقبالها وصحبها إلى ديوان كبير الأمان الذى أحسن لقاءها وصحبها إلى مقصورة بنت أنات.

وكانت بنت أنات أنثى بحجرة والدتها، وهى عبارة عن بناية جميلة مؤلفة من طبقة واحدة جامعة أسباب النظام. وكانت مقصورة بنت أنات تشرف على النيل وبها نوافذ تفضى إلى شرفة يحيط بها حاجز نحاس دقيق تلتف بأجزائه فروع النباتات المتسلطة. فلما دخلت نيفرت على بنت أنات أمرت هذه بعض جواربها بإزاحة الستار المسدول على تلك النافذة. وكانت الشمس آخذة بالافول، والنسيم يحمل شذا عطور الأزهار والوقت من أوفى الأوقات لما اعتادته بنت فرعون من التأمل فى (رع) الذى أمسى باختفائه وراء ستار المغرب، فيما يلى القبور المنطبعة مواقعها على الأبق الغربى بحى الأموات متسربلاً بسربال (طوم)، تاركاً مصر من خلفه إلى الأصقاع الخفية من العالم السفلى، حيث مقام الأبرار والأخيار، ينيرهم بشعاعه الساطع اللامع فيبهر منهم الأبصار.

ولم يكن بمقصورة بنت أنات من وسائل الزينة والزخرف ما توافر منها فى حجرة نيفرت التى صرفت راتوتى ومينا عنايتهما فى فرشها بالبسط المطرزة الحواشى بالحريز اللازوردى تتخلله أسلاك الفضة، والكراسى المكسوة بالنسيج

الدقيق الوشى بأنامل الحبشيات توشية تُرى الناظر فيه صور اليلبور ناشرة
أجنتها فتخليها له مخترقة طبقات الجو سعداً، وزينتها بدميات الإلهة هاتور
المرصعة بأحجار الزمرد ترصيعاً تحار فيه الأبواب، وبالموائد الحاملة مختلف
التحف والطرف، فمن صناديق صغيرة صنعت من العاج أو حجر اليشب إلى أكواب
نُحتت في المرمر الناصع البياض، إلى غير هذا وذاك من الأغلاق والنفائس التي زادت
بهجة المكان فأصبح خليقاً بصاحبته ذات الحسن الفتان

أما مقصورة بنت أنسات فلم تكن بهذا التائق البالغ، بل كانت ببساطة
مفروشاتها وسناجة أثائها تتم على طباع صاحبتها وعاداتها وميولها. فقد كان
البهو الكبير مرتفع الأزج تخفق فيه الرياح ولم يكن فيه من آثار الزينة والتنميق إلا
ما كسيت الجدران به من مربعات الخزف المتعاقبة الأوضاع بحسب لونها، الأبيض
فالبنفسجى فالأبيض وهكذا، وبوسط كل مربع منها شبه النجمة من لون المربع
الأخر. وفيما يلي صفوف هذه المربعات بسط قماش أخضر من نسيج مدينة (صا)
يتدل من أطرافه ما يستر الكراسي والآثاث المحيطة بالغرفة التي كان تتوسطها
منضدة كبيرة صُفّت كراسي الخشب من حواليتها بكشل الدائرة.

وكانت مفروشات الغرف الأخرى المجاورة لهذا البهو كمفروشات جامعة بين
البساطة والحشمة، إذ لم يكن باركانها سوى أصص غرست فيها النباتات النادرة
وقوائم من خشب الساسم تحمل مباخر يتصاعد منها الدخان العطري، إلى غير ذلك
مما يشير إلى شغف الأميرة بالمناظر الطبيعية والتحف النادرة أكثر منها بما يغلب
فيه حب الترف على الذوق السليم.

وكانت حجرة نوم الأميرة تليق بإقامة أمير من المغرمين بمشاهد الطبيعة

ومناظرها البديعة، أو أميرة جمعت إلى الكمال ضروب الحسن والجمال. وما كان ميلها إلى البساطة عن عجز في الإنفاق فهي أميرة ابنة أمير يقبض على زمام أمة كبيرة بل عن إثارة للهواء والنور يتخللان حجرتها دون أن يعوقهما عائق من الزخرف الباطل. وكانت الستائر مضروبة على نوافذ غرفتها، وهي لم تعتد إسدالها إلا في حمارة القيظ فتكون خالفت بذلك نيفرت التي اعتادت أن تحكم غلق نوافذها.

تحفزت الأميرة للقاء صديقتها وكانت بباب المقصورة في موقف الخضوع والاحترام، فوقفت ولمست ذقنها بأطراف أناملها إشعاراً بعطفها عليها ورعايتها إياها كما كان يفعل قدماء المصريين. ثم قبلتها بين عينيه وقالت وهي باسمه الثغر: لقد أتيت اليوم لزيارتي وتفقد حالتى بلا دعوة منى، وهو ما تستحقين من أجله الشكر، لاسيما رأيت منذ سافر الجيش إلى ميدان القتال لم تتخطى لى عتبة. وفي هذا الدليل الناهض على هجرك وإطراحك إيسى في زوايا النسيان. فرفعت نيفرت إليها الطرف وأجالت النظر بعينين مغرورقتين بالدموع، فكانت نظراتها أبلغ في التعبير عن المراد من البيان باللسان وأدل على ما يخالط القلب من الهموم والأحزان. وقد اضطرت بنت أنات إلى قطع كلامها، وبعد هنيهة أمسكت بيديها وقالت: أتعلمين يا صديقتى أن لا مثيل لعينيك المتلوزتين وطرفك الساجى سوى عيون الآلهة التى إن رشقت الأرض بسهامها نبتت في مراميها الأزهار الجميلة؟ فاحمر وجه نيفرت خجلاً وقالت بصوت متهدج: أود أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها حتى الأبد فارتاح من شقائى وأخلص من ذلى وعنائى. ثم تساقطت الدموع على يديها كالآلء العقد إذا انفرطت، فجذبتها بنت أنات إليها جذبة عطف وحنان كمن يرفق بالطفل الصغير وقالت: ماذا وقع؟ فالتفت نيفرت بعين يخامرهما القلق إلى السيدات اللائى لزمناها حتى باب المقصورة، فأشارت إليهن بنت أنات بالانصراف كما أشارت به

إلى ضابط التشریفات. ولما استوثقت من انفرادها بصاحبها وأنه لا ثالث لهما أقبلت عليها قائلة: خبريني.. مدهاك من الأحزان التي غيرت معالم جمالك الفتان، خبريني كيلا أدخر وسعاً لتخفيف هذه الآلام. أجابت: من أين لمثل بلذة السرور والظفر بالمأرب إذا كنت أصبحت العوبة بأيدي الأجانب والأقارب.. قالت: لقد أنكرت هيتك وغابت عني معرفتك بما نالتة الآلام منك.. فأى مصاب دهاك وبغدره رماك؟ خبريني! فمن ذا الذي رآك قبل اليوم ولم يخل له أنك في منام تتمتعين بلذيذ الأحلام! أجابت: صدقت، فقد كنت حقاً غارقة في بحار الأحلام حتى أيقظني مينا، فلما تركني عدت إلى النوم، وها قد مضى على عامان وأنا في سبات عميق ولكن القوم أطاروا اليوم الذحاس من عيني فأصبحت ولا سبيل إلى الراحة والسكون.

وكانت بنت أنات في إصغائها لهذه الكلمات ترى قطرات الدمع منحدرة على خدي نيفرت فأشفقت عليها كما لو كانت من فلذات كبدها إذ أجلستها على الأريكة القريبة منها وقعدت هي أمامها تربتها بيديها وتلاطفها، ثم سألتها عن سبب ما دهاها وكدر صفاءها.

وكانت نيفرت- لما وقع لها من تلك الحوادث المزعجة- تغيرت معالمها فاكفهر وجهها وكمد لونها حتى لم يعد أحد ممن عاشوا في أفقها وخالطوها مخالطة قرابة أو مودة يتعرف عليها. ذلك لأنها وقد فوجئت بتلك الحادثات كانت تشبه من يخلق كفيفاً ثم تنفتح عيناه للضوء على غير انتظار منه فتؤثر أشعته في عينيه تأثيراً يؤلمها، ثم لا يلبث أن يتبين له أن الأشياء التي وقع عليها نظره تختلف شكلاً ورحماً ولونا وكيانا عما كان يخمنه لهما من الصور في عمايته، وتبدو له حقائق الأشياء في أقبح المظاهر وأبعدها عما كان يخيله لها من الحسن والاكتماء بغير الثوب الذي برزت له

فيه وساء بصره، فلا ينشب أن يتلمس بعينه منظرًا عليه مسحة من البهاء والحسن. وما أصدق انطباق هذا المثل على نيفرت! فإنها لم تجل النظر فيما يحيط بها من الكائنات إلا بعد إذ وقعت تلك الحادثات. وقد فكرت أنثذ فيما يمكن أن يفضى إليه الطريق الذى تسير فيه، ووجدت فى نفسها ذكرى ما وقع لها مع والدتها، ثم راجعت نفسها متسائلة: لم لا أستلم بيدي زمام بيت أنا صاحبه وسيدة من يأويه من الخدم والحشم، إذ أنه بيت زوجى؟ ثم سكتت هنيهة خُيل لها فيها أن هاتفاً يناجيهما جواباً على هذا السؤال: السبب أن هذا الزوج لم يبرَ فيك الكفاءة للتبصر والعمل. وكان مينا يقتصر فى نداءها بقوله: «ياوردتى»، وما كانت نيفرت فى الحقيقة إلا وردة زاهية يحسن بالمرء أن يطيل النظر فيها إعجاباً وسروراً، أو يستروح رائحتها الزكية. ولكن أىفى المرء أن يقضى حياته تأملاً فى الورد واستنشاق أريجها المعهود؟ ثم التفتت إلى بنت أُنات وقالت: لا ريب عندى أن والدتى تحبنى حباً جمًّا ولكن لا تمر بى خلجة شك فى أنها أساءت التصرف بأموال زوجى. ولقد كنت وهى تنفقها من غير حساب لاهية عنها لا يسأمنى إسرافها، بل لا أكاد أشعر به، وهأنذ أراها الآن تخاف مغبة عودة زوجى وتحسب لها ألف حساب. ومخافة امرئء تحمل الخائف عادة على كراهيته والنفور منه ثم على تقبيح فعله وتسوئة سيرته ولو لم يكن عليهما غبار. وعلى هذه القاعدة حقدت والدتى على مينا لأنها كانت تخشى عاقبة اطلاعه على تصرفها الضارِّ، فسلمت بكل ما نُقل إليها من الوشائيات فى حقه. وليس فيما يسنح للواشى من الفرص ما هو أوفق للسعاية والدس كغياب المقصود بالوشاية. اعتقدت والدتى بمفترياتهم التى رموا زوجى فيها بأنه خان أمانة الزواج إذ جعل فى سرادقه سبية من سبايا الحرب ذات جمال رائق وحسن فائق.. فهلا ترين أن هذه المزاعم تلفيق؟ إنى لا أريد مخاطبة والدتى

بعد الآن لما سببته لى من الأحزان وعملت عليه من سلب راحتى وسعادتى.. ألا ترين أنها- بإثارة الشكوك فى نفسى نحو مينا- أردت أن تسلبنى كل شىء حتى الهواء الذى أستنشقه والدم الذى يجرى فى عروقى وعليه مدار حياتى؟ أما علمت تلك الأم الخشنة الفؤاد الغليظة الكبد أن هيامى بزواجى هو سبب وجودى وعلّة كيانى فى هذه الدنيا؟

كانت بنت أنات تنصت إلى هذا الحديث فلم تقاطعها مرة حتى إذا أمسكت عنه قالت: تعالى بنا إلى الشرفة لأفضى إليك بما عن لى من الأفكار ومرّ بخاطرى من الهواجس. وأرجو أن يلهمنى توت الحقيقة ويهدينى إلى الصواب، فإن نصيحتى لك وأنا التى خبرت أحوالك وسبرت طباعك بما يجمعنا من روابط المودة أقل ما أفرضه لك على نفسى فى هذه الأونة.. يسندون إلى النزق والتهور وعدم التروى، ولكن لى أحياناً نظراً صائباً وحكماً جازماً فتقى بى أيتها الخلية الوفية وهيا بنا نسير الهويانا وإنى لخير معين لك على المسير.

وكانت خطرات النسيم تمر مرّاً خفيفاً على سطح الماء فتبعث فيه قشعريرة تستحيل إلى موجات صغيرة تتعاقب فى توازن وانتظام على القرطاس كأسطر الكتابة فى استوائها. وكانت المبانى الكبرى ومنازل الخاصة تنطبع صورها على وجه الماء، والزوارق الكثيرة تعود من مدينة الموتى مقلة المئات من الزوار، والنيل تتدفق مياهه نحو الشمال كالحسناء تسير فى جلال واختيال، والشرفة تطل على أبهج المناظر من نهر يتيه عجباً وحديقة أشجارها نواضر، وكان النظام مستكماً لا يسترىب العاقل فى أن المهندس المتقن الذى وضع رسم هذه الحديقة فى عهد الملكة حاتاسو قد أودعه من المبتكرات البديعة ما تعجز عن تنسيقه يد الطبيعة، فإن هذه

الحديقة التي تحسر اللب بجمال وضعها وحسن تنسيقها كانت إذا رؤيت من قمة لاحت له كالسجادة الفارسية في تشعب فروعها واشتباكها وانفصالها واتصالها. وكان من بين أشجارها ما جلب في السفن الكبيرة من بلاد اليونان وسواحل بلاد العرب وأنفقت في سبيله الأموال الباهظة. وهي لغرابة أشكالها وأنواعها تلفت النظر وتحير الفكر.

وكانت بالقرب من هذا المكان جزيرة أمون ذات الغابات المقدسة وفيما يليها على الضفة اليسرى من النيل مدينة الأموات بما احتوته من التماثيل المتراسة على صفين متوازيين بين النيل وتمثالي أمينوفيس الثالث الكبيرين ومداخل بيت سיתי وسطوح هيكل حاتاسو وأماكن جثث الموتى، إلى غير ذلك من المباني الخاصة التي ترى مبعثرة من بعيد على ثرى الناحية الغربية، وينطبع على الآفاق فيما يلي تلك المدينة خيال جبال (لوبييا) وقد شقت الأخاديد فيها لدفن جثث الموتى فازدادت تلك الجهة بسكونهم سكونا.

كانت بنت أنات ونيفرت تمعان النظر في هذا المشهد العجيب المؤثر مع تطفيل الشمس بعد أن تذبذب قرصها العسجدي فوق الأفق فترة من الزمن. وكانت السحب الخفيفة تجرى في بحبوحة الأثير غير بادية للأنظار، فلما غابت الشمس وانعكست الأشعة عليها برزت من خدرها مكتسية بألوان زاهية يخيل معها للرأى أن يد القدرة الربانية نثرت على بساط السماء حفنة من النيلم والعقيق والياقوت فجاءت في وضعها على تمام التناسب والنظام. ولما شهدت نيفرت وابنة فرعون كوكب الشمس وقد آذن بالأفول بادرتا بالجثو على ركبتيهما بحيث يحجب نظرهما عن رؤيته تلك النباتات المتسلقة المتلوية الفروع على حاجز الشرفة، وتفرغتا للصلاة

والعبادة. وكان النسيم يحمل إليهما صدى الأناشيد الدينية التي يرتلها الكهان في هذه الساعة على سطوح الهياكل، فتؤثر في السامعين تأثيراً يحرك فيهم عواطف التقى والورع. وما أتمتا الصلاة حتى كان الليل أرخى سدوله وخيم على الأفاق، لسرعة زوال الشفق في جهات مصر العليا بالنسبة للبلاد التي تليها شمالاً. وكان كل ما التقى ببصرهما من المرثى سحباً يشبه لونها الورد أخذت تختفى بعضها تلو بعض كما ازداد كوكب المساء علواً في الفضاء.

قال بنت أنات: إنسى أشعر بطمأنينة وطيب نفس عقب ما أديناه معاً من فروض الصلاة وأقمناه من شعائر العبادة فعسى أن تشعري بما شعرت به. فهزت نيفرت رأسها فدنّت بنت أنات منها. وبعد أن أجلستها مالت إليها لتكاشفها بما في صدرها وتمحضها النصيح إذ قالت: أرى يا نيفرت أن قلبك أصيب بجرح أرجو له سرعة الالتئام.. لقد صوروا لك الماضى في أشنع الصور وأوقعوا في فؤادك الرهبة من الحال والاستقبال، فدعيني أخلص لك القول وإن يكن فيه ما يؤلك.. وإن كنت مريضة وأنا الطبيب الذى يتوقف على علمه شفاؤك فهل تعى أذنك نصيحتى وهل تأتمرين بأمرى؟ أجابت نيفرت: كيف لا أصغى ولا أطيع وأنا رهن إشارتك وما مقادى إلا بيدك؟ قالت: تعلمين شغفى بممارسة الأعمال واعتقادى أنها أيسر عندي من الأقوال، ومع هذا يخيل لى أنى وقفت على حقيقة حالك وما يجول من الأفكار ببالك. أنت تحبين زوجك الذى أقصته عنك الحاجة إليه في قهر الأعداء، فلما غاب محياه عن نظرك أحسست بالآلام الوحيدة تنتاب فؤادك.. وهذا أمر طبيعى لا شك فيه ولا مراء.. ولكن ألا تدرين أن لى مثلك والدأ وإخوة في ميدان القتال يحاربون الأعداء إلى جانب زوجك، وأن والدتى قبضها الله إليه منذ زمن بعيد، وأن السيدة النبيلة التى وكل الملك إليها ملازمتى وتسليتى فى وحدتى قد لحقت بها فى السماء

فأصبحت مثلك ملقاة في زوايا النسيان والهجر.. سرحى الطرف في أرجاء هذا القصر أفتجدين به أحداً غيرى.. ألم أكن مثلك وحيدة، وأن الوحدة أثقل وطأة على نفسى منها على نفسك؟

قالت نيفرت: المرأة المهجورة هي التي تنتظر عبثاً عودة محبها الذى أطال أمد حرمانها استجلاء طلعتة. سألتها الأميرة: أوتعتقدين بحب مينا وصدق ولائه؟ فلم تحر نيفرت جواباً لما أخذها من الذهول والحيرة فرفعت يمينها إلى قلبها وأشارت بإشارة الإيجاب. قالت بنت أنات: ثقى أيتها الصديقة بأنك لسوف ترينه هنا فيسعدك القرب منه. قالت نيفرت بصوت منخفض: أود لو تتحقق هذه الأمنية. قالت الأميرة: مادام الرجاء ملء فؤاد المرء فلا يسوغ القول بأنه ملك زمام السعادة المستقبلية وجذبها من ناصيتها.. أثق بأنك لو خيرت بين الدخول في عداد الآلهة والتحلى بالمزايا لعديدة التي اختصوا بها وبين البقاء مع مينا لفضلت ثانى الأمرين، ولكن الا تملكين الآن مع بعده عنك كنزاً ثمينا هو تذكار السعادة الماضية والهناء السابق معه؟.. أناشدك المودة الا أنبأتنى ما هي السعادة التي أشعر بها لو تذكرت حوادثى الماضية وما هو الهناء الصحيح الذى أزعم أنى عشت في بحبوحته؟.. قالت نيفرت. إذا كنت لا تشعرين بالسعادة الآن ولا بذكراها في الماضى فما هو إلا لآنك سلمت من الحب وتأثيره الشديد في القلب.. أنت تشبهين البدر مجدا في السير غير حافل بما حوله من ساطع الكواكب ولا تعلمين ماهية السعادة في الحياة ولا سر ما يعتمورها من الشقاء. سألت بنت أنات: وأى شقاء تقصدين؟ أجابت نيفرت: أقصد به الآلام الانتظار في قلب تذكى (سخت) فيه ضرام النار.

هنا أمسكت بنت أنات عن الكلام واسلمت نفسها للخواطر والهواجس ثم رفعت

رأسها فجأة وبعد أن أجالت النظر في صديقتها قالت: لا صواب فيما تقولين يا نيفرت، فإنى أعرف الحب كما تعرفينه، وكل ما هنالك من الفرق بيننا أنك تنتظرين يوماً تتحلين فيه بحلية هى فى قبضة يدك، وليس بيدى شىء من الحلية التى يطمح فؤادى إلى التحل بها. وما هذه الحلية الثمينة بالنسبة لى إلا كلؤلؤة فى قاع البحر لا أراها ولا أستطيع اقتناءها. قالت نيفرت: إذن أنت تحبين! الحمد لهاتور أن أودعت قلبك الحنان والشفقة.. ولكن لم لا تأمر ابنة فرعون غواصاً خبيراً بالغوص على اللؤلؤة التى حازت إعجابها والمجىء بها إليها، بل لم لا تشيرين بطرف بنانك إلى تلك اللؤلؤة النفيسة فلا تلبث أن تطفو من قاع البحر على سطحه ثم تدفعها الأمواج فتلقوها عند قدميك؟

تبسمت بنت، أنات سروراً بهذه الاستعارات فعمدت إلى نيفرت وقبّلتها بين عينيها وقالت: لند ترمى بنا الحديث إلى موضوع نبه خاطرنا وأيقظك من سباتك. والله در أستاذى فى الموسيقى إذ كثيراً ما قال «إذا اتفق وتران وجسّ أحدهما إنسان اهتز له الثانى» والذى أراه أنه إذا داومت على الكلام فى هذا الموضوع حتى الصباح فستصغين إليه حتى يتم، ولكنى أود ألا يذهب الوهم بك إلى اعتقاد أن هذا هو ما حبيب إلى ترك الشرفة. وعليه فلتعِ قولى منك أذن واعية.. إننى الآن أعيش فى الوحدة والعزلة مثلك وأحب كما تحبين ولكنى لست بواثقة إن كان من أحبه يقابل حبى بمثله، ومع هذا فما يزال السرور اليفى والرجاء فى المستقبل حليفى، فبم تعللين ذلك؟ قالت نيفرت: ما أبعد مسافة الاختلاف بيننا! قالت الأميرة: نعم نحن الاثنتين على طرفى نقيض ميولا ونزعات، ولكن أغاب عنك أننا ما زلنا فى نضرة الشباب ومقتبل العمر وأننا نميل إلى الخير؟ لقد توفيت والدتى وأنا طفلة جاهلة فلم أجد من اعتمد عليه فى تقويم طبيعى وتنقيف عقلى، فشبيت بين أناس لا هم لهم إلا الخضوع

لأمرى والمبادرة إلى تلبية طلبى، فى حين أننى كنت إلى إرشادهم أحوج منى إلى امتثالهم. أما أنت فقد قامت والدتك على تربيتك وعنيت بتهذيبك ووجهت خطواتك فى سبيل الحياة الكثيرة المعائر، ولاعجب فليس فى الفتيات أحق منك بهذه الحياة الهنية والسعادة الرضية، حياة الشمس المنيرة التى تملأ الكون بأشعتها المحيية. إلا أنها مع هذه العناية البالغة لم تفكر قط فى أن تصد ميولك بعزيمة التحرز والاحتياط للمستقبل. فقد جنح فؤادك الخلى إلى مينا فأنفتحت لحيه أبوابه فاستقر فيه وتمكن منه بحيث لاتزحزحه عنه قوة بالغة ما بلغت. ولقد انقضت أربعة أعوام لم تظفرى فيها من قربه والتمتع بمخالطته إلا بأشهر معدودة.. لزمك والدتك فى هذه المدة ولم تفارقك فكنت تتخيلين أنها أخذت على عهدتها إدارة شؤون منزلك وأنها كفتك بذلك مؤونة التعب وأنسحت لك المجال للانكباب على أمر واحد وهوالتفكر فى حبيبك الذى طال غيابه عنك.. أعرف هذا يا نيفرت وإذا لم يتصل بعلمى من قبل فقد اتصل به من عهد قريب.. والذى فهمته أن كل ما وقع تحت مشاعرك فى العشرين شهر الماضية لا يرجع إلا إليه ولا ينحصر إلا فيه، ولا عليك من ذلك. إلا أنه خليك بك إمعان النظر وإطالة التأمل للاعتبار والاستبصار.. تأمل فى شجرة الورد تلك التى تسر الناظر وتشرح خاطر فهى لولا ما يتعهدا البستانى به دواماً من الرجب والتقليم والرى والتقويم لما نمت هذا النمو الذى اضطرنا إلى إغلاق النافذة وحجب الضوء عن النفاذ فى هذا المكان.. إليك يا عزيزتى هذا الرداء استرى به كتفك فقد نزل الندى ولم أتم حديثى معك بعد... إن الهيام بمينا قد ملأ قلبك وخطف لبك، وهو ما استعيز بالآلهة منه، فإن العشوق يشبه على ما أظن شجرة طيبة المغرس ممتدة الأفنان وارفة الظلال لا شجرة تنبت من أى بذر أودع أرضاً ما.. ولست بمنحية عليك بلوم ولا محيلة بتعزيز، لأن من تعرض لتهذيب خلقك وتنقيف طبعك فاته الالتفات إلى ما فطرت

عليه من هذه المراس وسرعة الجماع.. ولقد كنت مثلك أيام كان شعري مرسلًا إلى جبينى، إذ لم أطمع لأحد أمراً ولم أفعل إلا ما رسمته لى الأهواء الصبيانية بيد الطيش والنزق وإنما يميزنى عنك أننى لم انخدع بما كانت الأحلام تزينه لى من الأوهام، بل كنت أميل إلى الحقائق المحسوسة فشاركنت إخوتى فى العابهم التى كانوا يمرحون فيها ويهوشون، وعنيت بتربية الكلاب والخيل والطيور الجارحة حتى كان أهلى وذوو قرابتى وخلطائى ينعون على هذه الميول التى اختص بها الذكور دون الإناث. وكانوا كلما غالوا فى نعيمهم وتعبيرهم ضاعفوا فى نفسى الميل إلى التشبه بالرجال والاقتراء بهم فى جميع الأعمال.

ما استقرت، هذه الأقوال فى أذن نيفرت حتى هبت قائلة بصوت الاستنكار: أما أنا فلن أروم لنفسى ما رمت أنت لنفسك. قالت الأميرة: إن تنكرى على هذا الميل فما هو إلا لأنك زهرة جميلة ووردة نضيرة، أما أنا فما ناهزت الخامسة عشرة من العمر حتى شعرت بالسأم من الحرية التى كان مجالها منفتحاً أمامى بحكم مركزى، وزادنى سجعاً أن أكون على الدوام مظهراً لأداء الفروض الواجبة لى من مسارعة إلى قضاء مطالبى وتنفيذ لكل رغباتى، وما سبب تحولى فجأة عن هذه الأحوال إلا أن والدى دعانى منذ أربعة أعوام - أى قبل زواجك بقليل - إلى ملاعبته بالضامة^(١) وكان من أمهر الناس فى هذه اللعبة وأكثرهم تفوقاً فيها، فاتفق يوماً أن غلبته دفعتين، وبدا لى أنه كان يفكر فى أمر ذى بال ففرحت لفوزى عليه وقلت له بعد أن قبلت رأسه ويديه: عجيباً أن تقهر فتاة صغيرة الإله العظيم الجبار الذى صرع

^(١) يرى فى مدينة أبو رسم غريب يمثل رعمسيس الثالث لا رعمسيس الثانى يلعب هذه اللعبة مع ابنه

لأجانب وطرحهم عند قدميه^(١). فابتسم ثغره وقال: تغلب الإلهات الآلهة أحياناً... أولم تكن إلهة النصر عندنا امرأة وهى نبيخت^(٢). ثم انتقل من الهزل إلى الجد فقال: يقولون عنى إننى أحد الآلهة وهو وصف أراه غير مطابق للواقع، فإنى لم أشعر قط بزناد الربوبية يقدح فى قلبى إلا إذا قمت بعمل كبير ثواباً كان أم عقاباً^(٣) ففيم أشبه الآلهة إذن إلا فى القدرة والمثابرة على العمل.. وقعت هذه الكلمة من فؤادى وقوع البذور السليمة من المغرس الطيب إذ تنبتهت لما ينقضى من صفات الكمال، فلما سافر والدى وزوجك إلى حومة الوغى يتبعهما مائة ألف مقاتل عقدت النية على الاقتداء بهذا الوالد الرحيم فى القيام بجلال الأعمال لاستحق نعمة الانتساب إليه فاسكنت تلك المنازل التى ترينها وراء الأشجار هناك ثلاثمائة فتاة وأمرتهن بغزل الكتان ونسج اللفائف اللازمة لتضميد الجرحى. وهن يعملن بإدارتى وتحت رقابتى، وعهدت إلى طائفة من الغلمان وفريق من الشيوخ انتقاء الحشائش والنباتات الطبية من الجبال واصطناع العقاقير والمراهم منها، بناء على أوامر الأطباء وإرشاداتهم. وقد كفّ الطهارة فى مطابخ القصر عن تجهيز الأطعمة اللذيذة والمأكّل الشهية للمأدب الرسمية، إذ أمرتهم بتجفيف اللحوم للعساكر كي يتمكنوا من اجتياز الفلوات بلا كبير عناء، كما أمرت المتولى حفظ الأنبيذة بنقلها من دنان

(١) تكرر هذه الجملة عادة فى رواية حوادث الانتصار

(٢) كان اليونان يسمونها (إيلتيا) وتسمى أيضاً إلهة الجنوب المضادة لإلهة الشمال (بوتو)، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنها تطير فى صورة نسر كاسر أمام الجنود المصرية التى يقودها فرعون

(٣) إن الرموز التى تُرى بأيدى الفراعنة وبعض الآلهة فى النقوش والتماثيل هى المجن والكرواج، وهما إشارتان رمزيتان معناهما أن واجبات الملوك تنحصر فى المثوبة والعقوبة وفى العفو والقصاص.

الفخار إلى القرب الجلدية ثم يفرغها في قناني تسد فوهاتها بفدومات مدهونة بالقطران أو القار، صونا لها من تطرق الفساد إليها أثناء نقلها وتوزيعها على الجند لتروى زناد الحمية والغيرة في قلوبهم. كنت أتولى هذه الأعمال فوق اشتغالي بمراقبة البنائين فيما أمرت بتشبيده من الأبنية أو ترميمه أو توسيعه، وبهذه الطريقة تنقضى الأيام في صالح الأعمال، فحجبت الآلهة عنى الأحلام المرعبة ومنعتها من التحويم حولي بينما أذوق لذة المنام، بل كنت كلما طرحت نفسي على الفراش فاجأني النعاس وأظلني بجناحيه الهادئين فلا أنتبه إلا في الصباح. ما ذلك إلا لأنى رُضت نفسي عن أداء ما فرضته عليها من الفرائض ومارست الاقتداء بوالدى الذى كان كلما خُيلت لذهنه وتمثلت لخاطره سرته رؤيتى وافتخر ببنتوتى.. فهل لك يا نيفرت أن تشاركنى في العمل النافع ليذكرك مينا فيفتخر بك ويعظم قدرك؟!

لزمت نيفرت الصمت وأطرقت رأسها رويداً رويداً حتى لمس نهدي بنت أنات ثم عانقتها وأخذت تذرف من عينيها دموعاً غزيرة كالطفلة الصغيرة، وعالجت بعد ذلك الجلوس في مكانها الأول قائلة بصوت شبه المبتهل: نعم خذى بيدي إلى المدرسة.. إلى دار الصناعة، أرشديني إلى العمل النافع لأقوم بالفرض الواجب. قالت الأميرة وقدابتسم ثغرها: لقد كنتُ من قبل عالمة بأنه لا ينقصك إلا الاعتماد على يد صادقة أمينة تأخذ بك إلى الغايات الشريفة والمقاصد العالية، ولا تنحرف عن جادة الصدق. أما الآن، وقد وُفقت لهذه اليد وأرادت بك الآلهة خيراً، فلسوف تعالجين آلام الانتظار بمرهم الصبر وتعلت النفس. وعليك الآن أن ترجعى إلى والدتك، فقد أزف الليل وكاد يبذر بظلمائه جيش النهار، وأن تعامليها بما فرضته الآلهة عليك من

الاحترام. وسأحضر في الغد لأرجو منها أن تفوض أمرك إليّ، فهل رضيت يا حبيبتي أن تقوى في هذا القصر مقام صديقتي التي اختطفتها المنية من بين يديّ؟.. لا يمضى يومان حتى أكون أعددت لك هذا المكان لتشاطريني فيه من الأعمال ما سوف تشعرين بلذة إنجازه. وإنى لألتمس من الآلهة أن يباركوا في هذه المشاركة وأن يصدقوا عليها الخير والبركة.

الفصل الثانى والعشرون

زيارة للأموات.. وتعظيم للرفات

كان نبسشت في أثناء المحادثة بين نيفرت وبنت أنات جالساً تجاه بيت المحنط ينتظر عودته بنذهب الصبر، وقد تنازعته الهواجس كلقته عليه وشوقه إلى تعرف نتيجة المهمة التى عهدا إليه ولكن هذا القلق لم يلبث أن زال تجاه ما كان يعتقد من فائدة تلك المهمة للمجموع ، لما ينبى على تشريح القلب من بيان حقيقة وظيفته العضوية. وقد ظل هادىء الروح مطمئن الفؤاد فترة من الزمن عاوده من بعدها القلق بما ضاعف هواجسه وروع نفسه وقلق شخصه.

وكانت وردة طريحة الأرض على مرأى منه، تممرت به في ذلك الانتظار ساعات طويلة كان يجيل خلالها النظر في محاسنها الشائقة ويمتد النفس بآيات جمالها النادر ريفكر تارة في والدها الجندى الذى ذهب إلى بلدة هرمونتيس وطوراً في جدتها التى لم تستطع التخل بعد عن حرفة النذب والعويل على الموتى. فقد كانت -وهو غارق في تيار هذه الهواجس- ترسل شعرها الشعث حول جسمها وتكبح صدرها وجبهتها بالطين وتبعث في الفضاء صيحات الشجو والحزن في انسجام وترادف، مع نحو المائة من العجائز يستترن بذلك كوامن الأشجان في النفوس حزناً على الموتى الذين كانت تأتى بهم الزوارق إلى وادى المقابر ليدفنوا في بطونها أبد الأبدين.

وكانت وردة، والشمس آفلة، لا تزال ملقاة على ظهرها تحت النظلة التى أقيمت لتقيها حرارة الشمس. وكانت تبدو على وجهها الزاهر علامات السأم والضجر، وانفكت ضفائرها التى تخلتها قطع القش. فلما دنا منها الطبيب ليجس نبضها

ألوت عنه وجهها فانصرف عنها، ولكنه عندما غابت الشمس خلف الجبل اقترب منها وقال: لقد بدأنا نحس البرد أفتريديين أن أحملك إلى داخل الكوخ؟ أجابته بصوت الحانق: دعنى وشأنى وابتعد عنى، فمازلت أشعر بالحر وقد زال الألم المبرح وصرت أقدر على القيام والدخول وحدي. على أن جدى وجدتي لا يلبثان أن يصلا الآن إلى هذا المكان.

ماكاد يرن صدى هذه الكلمات فى أذن نبسشت حتى تراجع إلى الخلف وجلس على قفص الدجاج، وقال متلعثماً كعادته، إذ أخذته ثورة الغضب: أتحبين أن ابتعد عنك أكثر. من هذا؟ أجابت: ابتعد أو لا تبتعد فالشأن شأنك. قال: لا أرى فى لهجتك شيئاً من الرقة واللفظ. أجابت: لست أطيق شخوصك فى ودوام اتجاهك إلى مع شدة قلقى على جدى الذى رأيتة صبيحة اليوم على غير عادته، إذ كان يناجى نفسه بكلمات فهمت منها أنه يشكو من الشكوى من فداحة الثمن الذى تريد أن تتقاضاه لمعالجتي. وقد ردّد لسانه أنه سيموت، وسألنى ألا أنساه أبداً وألا أمحو صورته من صحيفة قلبى.. فأين هو الآن يا ترى، وماذا هو صانع؟.. لقد مضى ميعاد حضوره وأنا تائقة إلى رؤيته.

قالت وردة ذلك وأجهشت بالبكاء فانقبض صدر نبسشت ووخره ضميره حينما فكر فيما طلبه من الشيخ مقابل معالجته حفيدته.. وقد كان واقفاً على نصوص القانون وموقناً أنه إذا فوجيء بينم وهو يسرق قلب إنسان أو يستبدله بقلب حيوان فلا مفر له من العقوبة إعداماً بالسم.

وكان الليل قد أرخى سدوله، فكفّت وردة عن البكاء وقالت للطبيب: أظن أن جدى قصد إلى طيبة فى إقتراض المبلغ الجسيم الذى طلبته أجرة علاجك إياى. ولكن

لم يحمل نفسه هذا العناء وهذا الشقاء ولدينا الخاتم الذهبى الذى تفضلت علينا به الاميرة بنت أنات ونصف الغنيمة التى جاء والدى بها من الشام وما ربحتة جدتى من المال من مزاولة الندب والعويل فى العامين الماضيين؟. ألا يكفى كل هذا لدفع أجرة الطبيب؟..

فاهت وردة بهذه الكلمات بصوت المعنف الأسف الحزين، فلم يجر نبسشت جواباً بل لزم الصمت. ومن أين كان له أن يجاوب، وهو لو قال (نعم) لخالف الحقيقة التى يحترمها ويصون كرامتها وتعدى حدود واجباته التى تحرم عليه التماس مال فى مقابل عمله. ومع هذا فقد اقتضى ما هو أعلى منه وأعلى. عندئذ تجاوب فى أذنيه صدى نصيحة الشاعر بنطاؤر، محذراً إياه من الاجترار على سلب قلب الإنسان لتشريحه، فتضاعفت أشجانه وتراكت أحزانه واشتد الحرج على صدره وضافت الدنيا بما وسعت فى وجهه.

وقد سمع وهو فى هذه الحالة عواء بنات أوى، تردد صداه الآفاق فعمد إلى قضيب النار^(١) فأشعل به قطعة من القار، ثم لم تلبث الهواجس أن انتابته فأخذ يسائل نفسه عن وردة ومصيرها لو مات جدها وجدتها ولم يبق من يعنى بأمرها. ولزم الصمت برهة ثم قال مناجياً نفسه بأنه إذا لم يعد الشيخ بينم فسيطلب من المحنطس^(٢) قبوله فى طائفتهم. فإن أجابوه إلى طلبه- وهو ما لا يرتاب فيه بسبب ما اشتهر عنه من المهارة والحدق فى علم الطب- اقترن بوردة وكفاها مؤونة الحاجة.

(١) تتضمن الإشارة الهيروغليفية (سام) صورة قضيب خشب جاف إذا حك حكا شديداً بجسم آخر تطاير منه الشرر واشتعل.

(٢) كانت هذه الطائفة باقية فى عهد الامبراطورية الرومانية وتحتوى أوراق البردى المكتوبة باليونانية بيانات مفيدة عن انظمتها.

وظل هذا الخاطر يساوره حتى استمكن من نفسه وعقد النية عليه، وقال إنه بهذا القران يعيش في عزلة عن الناس لايهمه من شؤون الحياة إلا أن يتحرى رضاها ويتفرغ للبحث في تركيب القلب، بتثريحه قلوب من يكلف بتحنيط أجسامهم من الموتى. ولم يكن نبسشت طموحاً إلى المعالي ولا منصرفاً إلى التماس الرتب ولا طامعاً في اجتياز الثروة، ولهذا كان يعتقد أن ما سيعترضه من الشدائد والمحن في طريق الحياة سيمهد له نيل بغيته من أبحاثه الطبية التشريحية التي ما فتىء يشتغل بها ويفكر فيها ليل نهار.

وعدا هذا فبئس لم يكن ميالا إلى الوعظ الدينى ولا إلى العمل لإعادة المنشقين والخارجين إلى حظيرة الدين. دع أنه لم يكن من أصحاب الكبرياء الذين لا يبتغون من وراء أعمالهم إلا الظهور بالباطل على أهل أفقهم.. ولهذا كان يرى أن ابتهاج المرء بالحياة ينبغى أن يقوم على أمرين: مزاولته أعماله الشخصية، وقيامه على شؤون أسرته. ولقد قضى ثلاثة أيام في جوار وردة نسى فيها فروض الدين وواجبات الكهان، فلم يغير ثيابه ولم يسوّ شعر رأسه ولحيته، ولم يتوضأ بالماء. وكثيراً ما أحس كأنه أصبح من شذاذ الآفاق والمتوحشين أو من المحنطين الذين يضع الجمهور من أقدارهم ويرون أنهم من أفناء الناس وأحطهم قدراً في المجتمع الإنسانى، فكانت ترتاح نفسه لهذا الانحطاط وهذه الضعة مادام أنهما هما الوسيلة إلى وردة، تلك الحسناء التى ظلت طريحة الأرض أياماً شعثناء الشعر تبتث الشكوى من الألم الذى نبتها. ولقد سألته هذه الفتاة فجأة: ألا تسمع صوتاً يا طبيب؟ فأعار نبسشت بأنذه إلى مصدر الصوت فلذا به هريز كلاب ووقع أقدام على الصخر الصلد. وما كاد الظن في نفسه يتحول إلى يقين حتى ظهر له الشيخ بينم وامراته وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التى كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في

العودة منها. فتنفس الطبيب تنفس من زالت عن صدره العلة وصاحت وردة: لقد غبتما زمنا طويلا حتى أزعجنى الخوف. قالت العجوز: كيف واست وحدك؟ ثم دخلت الوجار لتهيئة الطعام بينما بينما يجثو على ركبتيه بالقرب من وردة لملاطفتها ومداعبتها. ولما نهض واقفا سلم نبسشت كيساً من القماش الخشن كان يحمله على كتفه وقال: القلب الذى طلبته ستجده فى هذا الكيس فخذهُ ثم رد الكيس إلى لأنه يحتوى جميع أدوات الجراحة وآلاتها مما أستعين به على صناعتى وأقضى بها حاجتى.

فدسّ نبسشت يده فى الكيس وأخرج منه القلب فوضعه فى علبة العقاقير الطبية. وقد كاد يطير فرحاً بفوزه فدنا من الشيخ وقال: خذ هذه الورقة المكتوبة وعلقها فى عنقك، فإذا فاجأتك المنون أجلا أو عاجلا فسأضع كتاب «خروج الأيام» فى لفافات الكفن الذى سيديرج فيه جسمك فتغدو ولا فرق بينك وبين الأمراء والملوك. وقد لا أقتصر على هذا الاحتياط للأجل فأرسل إليك عاجلا كل ما ورثته عن والدى من المال الذى ما برح أخى الخبير بالمعاملات الدنيوية يدفع لى أرباحه منذ عشر سنوات.

فتسلم بينم منه الورقة فلما أتم الطبيب كلامه- وكان يسمعه فى روية وسكون- قال له: أما أموالك فخلها لنفسك، ومتى شفيت وردة لا يدين أحدنا الآخر بشيء. قال الطبيب: هى الآن على وشك الشفاء، ولكن لم ترفض هديتى؟ أجاب: إنى إلى هذا اليوم من حياتى الطويلة لم أبذل ماء وجهى فى اقتراض مال أو التماس صدقة، أفتريدنى الآن- وقد قوس ظهرى الهرم- على فعل مالم أفعل فى الشباب. حياة بحياة. ذاك كان شرطنا الذى عليه اشترطنا. واعلم أن خزائن رعمسيس لن تعدل جزءاً مما وافيتك، به اليوم.

فأطرق نبسشت رأسه عجزاً عن الإجابة عن هذا القول، وبرزت العجوز من الوجار فوضعت على الأرض طبقاً من العدس وشيئاً من الفجل والبصل (١) ثم دخلت بوردة فيء. وعادت العجوز بعدئذ فرجت من الطبيب أن يتناول ذلك الطعام. فأجابها إلى رجائها لأنه لم يكن ذاق منذ أمس الدابر ما يحفظ به الرمق ويمسك النفس. فما العجوز فدخلت عندئذ الوجار، فقال نبسشت لبينم: وقلب من هذا الذي جئتنى به؟ ثم كيف انتزعته من بين جنبى صاحبه؟ أجاب بينم: خبرنى قبل كل شىء، لم أكرهتنى على ارتكاب هذه الجناية؟ قال نبسشت: سببه أنى أحب البحث في قلب الإنسان لتوقف على سر تركيبه لأننى متى وقفت على هذا السر استطعت معالجة القلوب العليلة. فوجم بينم لما انتابه من الهواجس ثم سأل: أوما تقول صحيح؟ أجاب الطبيب: نعم إنه كذلك. قال بينم: لقد ارتاح الآن ضميرى واطمان قلبى، ومما يزيدينى اطمئناناً أنى أراك تعالج الفقراء. قال نبسشت: أبذل فى علاجهم نفس العناية التى أعالج بها العظماء والأغنياء.. وهل لك أن تخبرنى الآن أين وجدت هذا القلب؟

التقى. بينم قطعة من الحجر الصلد وأخذ ينحتها بحذق ليتخذ منها مدية ماضية الحد، ثم شرع يحدث الطبيب بما يأتى: وجدت فى بيت المحنطين ثلاث جثث نيط بى عمل القطوع الثمانية المقررة فيها بالمدى الحجرية. ومفهوم أن الموتى إذا جردوا من ملابسهم وطُرحوا أمامى على المائدة الخشبية ولم يبق بهم حراك ولا أثر للحرارة يدل على كمون الحياة فيهم فقد تعذر على التفريق بين الأمير منهم والحقير، ذلك لأن

(١) هكذا كانت أطعمة المصريين فى الغالب، يثبت ذلك النقوش التى تمثل الفجل والبصل والثوم على الآثار القديمة. وقد أكد هيرودت (فى الجزء الثانى من كتابه) أن ثمن ما استنفده العمال الذين بنوا أهرام كيوبس فى الجيزة من هذه النباتات يبلغ بنقود عصرنا ٣٦٠ ألف جنيه مصرى.

جثة الشحذ اذ كجثة الكاهن الاعظم يعترئها الهمود والخمود فلا تبدو منها حركة. ولكنى كنت مع هذا عارفا بحقيقة الاجسام الثلاثة المطروحة امامى، فالجسم الضخم الاوسط كان لـ (رونى) نبنى هيكل حاتاسو لانى قبل مماته شهدته اكثر من مائة مرة وهو فى محفته المدجلة بالذهب. اما الجسمان اللذان الى جانبيه فكان احدهما لرجل مسكين من ناحتى الاحجار فى المقالع، والثانى لامرأة من حى الاجانب توفيت بالسل الرئوى.

فلما اتممت القطوع الثمانية فى الجثث الثلاث، بدأ الناس كالعادة يرمونى بالاحجار. فلما انتهوا من فعلهم استأنفت العمل مع زملائى فى تحضير باطن الجثة فوضعنا احشاء النبنى رونى فى اناء مرمر ناصع البياض، والقينا احشاء الرجل والمرأة فى بطنيهما. عندئذ انشأت أسائل نفسى: قلب مَنْ من الثلاثة اسرق، وبأيهم الحق هذه الخسارة الكبيرة؟ فاتجه خاطرى طبعاً فى بادئ الامر الى الرجل والمرأة الفقيرين، لان الفقراء كبش الفداء فى كل زمان ومكان، وسرعان مادنوت من جثة المرأة التى قضت حياتها فى الموبقات. الا اننى سمعت هاتفا - بل شيطاناً- يصوت بى: «لقد كانت هذه المرأة منكودة فى حلها وترحالها على ظهر سب،^(١) فلا تسلب قلبها فتسلبها معه نعمة السعادة والهناءة فى العالم الباقى». وما استقر نداء هذا الهاتف فى قرارة سمعى حتى تراجعت عن جثة المرأة وانصرفت الى جثة الحجار، فأول ما وقع بدمرى كان على يديه النحيفتين اللتين جعلهما إدمان العمل أقسى من يدى. وما كدت أصل إليها حتى سمعت ذلك الشيطان يودع أذنى مثل ذلك الكلام،

(١) سب إله الدهر والزمن، وكان قداماء المصريين يعتقدون فى دوام المادة وتجدهما بدون انقطاع، ولذلك كانوا يرمزون بإله الدهر (سب) للدلالة على الارض أيضاً.

فتقهقرت إلى الخلف فإذا أنا تجاه جثة النبي روني، وكان قد مات بالسكنة لتدفق الدم في رنتيه. وخيل لي أنني أراه ماراً أمامي في محفته الذهبية أو متفرغاً لاستقبال المدعوين إلى مأدبه الشائقة، وتذكرت ما تمتع به من نعيم الحياة الدنيا. وحينما رأيتني وحيداً بعيداً عن أعين الرقباء فما أسرع ما أخذت قلب الخروف الذي في مخلاتي وجعلته في مكان قلبه.. وقد أكون بهذا العمل أثقلت كاهلي بالذنوب، ولكني موقن أن له فيما سيعلق بجسمه من ألوف الأحبة والتمايم وما سيوضع في مكان القلب من الجعلان والكتابات المقدسة التي ترشده إلى الجهات الخفية خير معاض له عن قلبه. وبعد فما نسيت قسمك الذي أقسمت، فهل أنت له ذاكر؟

فمد نبسشت يده إلى الشيخ قائلاً: نعم خذ هذا الدواء وأعطه وردة على أربع دفعات، فإنها تشفى سريعاً. وسوف أعودها وأتفقد حالتها. أما أنت فأنصرف الآن لتلتمس الراحة بينما أقضى خارج الكوخ رداً من الزمن ثم أزياله قبل اختفاء كوكب ايزيس (١) لأن القوم في بيت سیتی ينتظرون عودتي.

لما خرج الشيخ في اليوم التالي من كوخه لم يجد الطبيب بل رأى في موضع النار خرقة ملوثة بالدم، ففهم على الفور أن نبسشت لم يطق الصبر فأنكب على تشريح قلب الكاهن روني والبحث فيه، فارتاع فؤاده وارتعدت فرائصه وبكته ضميره لانتزاعه هذا القلب من جوف صاحبه. ولبثت تنتابه الهموم حتى أشرقت الشمس في زورقها الذهبي، فجتاً على ركبتيه وأخذ يصل ويبتهل إليها أن تقى وردة وإياه شرور العالم، ثم همّ واقفاً رابط الجأش بالإيمان مطمئن القلب بما وعده إياه الطبيب. وبعد أن استأذن من زوجته ووردة بالانصراف تناول مديته الحجرية

(١) هو كوكب سوتيس أو الشعري اليمانية.

ومشبكته النحاسى (١) وانصرف قاصداً إلى دار التحنيط.

وكان هذا المكان سحيق البعد عن كوخ المحنط، إذ كان بسفح الجبل على مقربة من الصحراء جنوبى بيت سبتى. وكان قائماً على منبسط فسيح من الأرض تحيط به أسوار عالية بأحدها باب يواجه النيل، وكان خاصاً بدخول الجثث. أما المنوط بهم التحنيط والتلميح ونسج اللفائف وتحضير الماء فكان لهم باب آخر يدخلون منه ويخرجون وبداخل الأسوار بيت خشبى أعد للكهان يقضون فيه النهار لتلقى طلبات أهل الموتى والطاعنين في السن الذين يرغبون- قبل أن يدركهم الموت- في إعداد التوابيت التى ستودع أجسامهم.

وقتها وصل، بينم إلى هذا المكان كان نحو خمسين رجلاً وامرأة مزدحمين به، يقدمون إلى الكهنة تلك الطلبات أو يشترون ما يختارونه فيه من المصنوعات، فقد كان به عدد كبير من التوابيت المختلفة الأشكال والألوان المتفاوتة الدرجات من الساذج الرخيص الثمن الخالى من كل أثر للنقش إلى المنقوش بالألوان الزاهية البديعة، وغير هذا وذاك الشيء الكثير من اللفائف الدقيقة الناعمة أو الغليظة الخشنة مصفوفة على الرفارف لتتبينها الأنظار ويفرّها المشترون أدق فرار. وكانت اللفائف تُنسج في طيبة مبصومة بطوايع ألهاة النساجين الثلاث وهن (نيث) و(ايزيس) و(نفتيس).

وعدا هذا كله فقد كان معروضاً للبيع الشيء الكثير من التماثم والأحجية وأدوات الزينة للموتى كالعقود والجعلان والمناطق والمساند والمثلثات والحلقات

(١) أكد المؤرخ هيردوت أن قدماء المصريين كانوا يستخرجون نخاع الموتى من أنوفهم بمشبك نحاسى. ولاحظ انعام زرمك بالبحث في المومياءات المحفوظة بمتحف براغ أن غضروف الأنف منتزع منها وهو ما يؤيد قول هيرودت.

المكسورة والمدرجات الخشبية والمعدنية والصور الرمزية التي تناط بالمومياءات أو تُدرج في اللفائف المقدسة . وكان الناس يشترون غير ذلك قطعاً من الفخار مخروطية الشكل يصفونها حول الموتى لتكون حداً وأرقة بين كل مدفن أو قبر ومجاوره من المدافن والقبور الأخرى، كيلا يقوم نزاع بين الاسر في ملكية الاراضى التي أقيمت عليها هذه المدافن والقبور. وكانوا يشترون منه التماثيل الصغيرة الضرورية في تطهير ثرى المقابر وإبعاد أرواح الشياطين عنها، وكانت هذه التماثيل في صور أناسى تحمل أكتافها فؤوسا ومحاريث وأكياساً للبذور رمزاً إلى مساعدتها الموتى على القيام بأعباء الأعمال في الأخرى!

* * *

وكانت أرمة النبى رونى وقيم بيتها وأحد كبار الكهنة منصرفين إلى اختيار أجود التوابيت وأقخمها لجنّة فقيدهم، يساومون صاحبه على الثمن. وقد اشتروا مقداراً كبيراً من التماثيل والأحجبة المصنوعة من الأحجار النادرة كاليشب واللازورد. ونقشوا اسم الفقيد على قطع من شمع العسل وإلى جانبه أسماء زوجته وأولاده وذوى قرابته، وذكروا رتبة والوظائف التي تولاها ونقشوا ما لم يكن بد من نقشه في خشب التابوت وأوراق البردى.

أما النقوش التي كان يراد رسمها وحفرها في جدران القبر وقاعدة التمثال فقد أجل النظر فيها إلى يوم آخر لكثرتها وصعوبتها، ثم نيط بأحد كهنة بيت سیتی حصر ما تركه الفقيد من الثروة وفرز ما يخص الهياكل منها قبل توزيعها على مستحقة يها. وكانت العادة أن تبلغ هذه الحصّة مع النفقات - ما أنفق من المال على إنشاء القبر ونقائه - الشطر الأوفى من التركة (١).

(١) ذكر المؤرخ ديودورس أن عملية التحنيط من الدرجة الاولى كانت تكلف ما يوازي من عملة العصر الحاضر ٢١٣ جنيتها ومن الدرجة الثانية ٦٥ جنيتها.

وكانت أرملة روى بثياب الحداد معفرة الجبين بالتراب، وكانت في وجودها مع أتباعها بذاك المكان تساوم الكهان تارة على الأثمان وتقول لهم مستنكرة هازئة: إنها أثمان غالية، وتبكي تارة أخرى ثم تصرخ صرخة عالية تردد صداها الأودية. وكان الأهلون من الطبقة الوسطى لايساومون في الأثمان، بل يدفعونها في الحال كنتقدير الكهان. وكانت نفقات دفن رب الأسرة منهم تستغرق إيرادها أحياناً مدة عام، أما الفقراء فكان لا يكلف تكفين موتاهم إلا النذر اليسير من المال.

وكان العامة يرون في المكفين أنهم لم يكونوا أحطّ قدرأ من المحنطين بل أعلا منهم درجات، ولهذا كانوا يسيرون مرحا في الطرقات لا يخافون اضطهاد أحد بعكس المحنطين فقد كانوا إذا اجتروا على السير فيها جعلوا أنفسهم هدفا للإساءة غالباً وللهلاك أحياناً.

وكان المكان المعد لبينم وزملائه يؤدي إلى الغرف الخاصة بتلميح الجثث وتحنيطها ومخازن الأدوية والعقاقير. وكان إلى جانب هذه المخازن فناء فسيح تظله سقيفة من سعف النخل حجياً للأشعة الشمسية من النفاذ إليه، ويتوسطه حوض ممتلئ بمحلول النطرون فكانت توضع فيه الجثث زمناً ثم تُستخرج منه لتجفيفها في مكان تحت الأرض بتيار من الهواء الحار يسأط عليها بوسائل الصناعة.

وكان بجوار المكان الذي تباع به حاجات الموتى أسطر من بيوت خشبية صغيرة هي بيوت النساجين والنجارين والنقاشين. ويليهما على مسافة منها بناء ضخم فسيح جيد التنجيد بحجر النحت، يعلوه سقف محكم هو المكان المعد لتزيين المومياوات بالتدائم والأحجبة لمساعدة الموتى على النقلة الربانية في العالم الثاني. وكان لايجوز لأحد أن يستطلع ما يحدث به، إذ لم يكن مأذوناً لغير الكهان أن يدخله

(١) ذكر المؤرخ ديودورس أن عملية التحفيظ من الدرجة الأولى كانت تكلف من ما يوازي من عملة العصر الحاضر ٢١٢ جنيتها، ومن الدرجة الثانية ٦٠ جنيتها.

فاستقر في أذهان العامة من جراء ذلك وشاع بينهم أن هذا المكان معبد للآلهة يهبطونه كي يمهّدوا للموتى طريق الوصول إلى الآخرة ويرشدوهم إلى أصول الحياة المستأنفة فيها. وكان الناس في كل ساعة من الليل والنهار يسمعون من نوافذه وكواته المطلة على الطريق العام أصوات الكهان يترنمون بالأناشيد الدينية والصلوات الجنائزية، وقد تنكروا بما يسترون به وجوههم من وجوه صناعية تمثل آلهة السماء السفلى^(١) ولاسيما أنوبيس ذى الرأس الشبيه برأس ابن آوى. وكان يرونهم على أداء الصلوات وبث الدعوات غلمان تنكروا بوجه حورس. وكان عند رأس كل مومياء نائحة تنكرت بصورة نفتيس وأخرى لدى قدميها بصورة ايزيس. وكانوا يقربون إلى كل إله عضواً مبيناً من أعضاء الفقيد. وكان في التمام من الأمثال والعظات ما يراد به الحض على التقوى والورع. وكان كل عضو في كفن خاص به، كما كان لكل عقدة عقدت لتثبيت اللغائف مزية لا بد من توافرها حرصاً على راحة الميت والتماساً لسلامته في أخراه. وكان هذا المنظر العجيب - بما يضاف إليه من جلوس النائحات والنادبات في الأوضاع السابق بيانها وتضوع الروائح العطرية واشتداد الحرارة بالمكان - يؤثر في النظارة تأثيراً يصرفهم عن الحياة الدنيا بزینتها إلى الحياة الأخرى بمثوبتها وعقوبتها.

وكان هذا القسم من مدينة الأموات تسطع فيه دوما رائحة زيت الورد والمسك والنتر، فإذا هبت ریح الجنوب الغربی حملتها إلى مدينة طيبة على الضفة الیمنى من النيل، فإذا شمها الناس تخرجت صدورهم وتشاءموا، اعتقاداً منهم أن ریاح الصحراء تجف على أثرها كل خضراء وغضراء، وتضعضت بسببها قوى الإنسان، فضلاً عن أنها تدرج قوافل برمتها فيما تسفيه من الرمال.

* * *

(١) تدل على ذلك نقوش وكتابات عديدة ولاسيما ورقة البردى الثالثة المحفوظة بمتحف الجيزة، وكان للمصريين حذق خاص في صناعة الوجوه من الورق المطبوع. وترى هذه الوجوه على كثير من المومياءات ممثلة وجه الميت كما كان في حياته.

وكان بعض أهالى طيبة ممن جاءوا إلى سوق الأكفان والتوابيت يترقبون أهالى الموتى لتعزيتهم وتسرية الهموم عن أفئدتهم. وإنهم لذلك إذا بمفتش قرابين هيكل آمون، وقد احتواه الخوف واستمكن من قلبه إلى حدّ لم يحفل معه بما كان يقوم له الناس به من مظاهر الاحترام ولم يسلم على أرملة النبى روى التى كان يعرفها بالذات، بل كان كل همه أن يتوسط جموع الناس لينبئهم بحادث خطير وقع فى طيبة بالمكان المقدس أى هيكل آمون ملك الآلهة. فما كاد يستقر هذا النبأ فى أذانهم وتعيه صدورهم حتى اشرأبت إليه أعناقهم وحوّمت عليه أنظارهم تطلعا لمعرفة الواقع بحذافير ه، فنبأهم أن جناب الوالى قد ابتهج بظفر الجنود المصرية فى سلال الحيشة فوزع على حامية طيبة وحراس الهيكل مقداراً وافيا من الخمر فأدمن هؤلاء الشراب وأهملوا حراسة الباب فانسابت منه الذئاب^(١) إلى حظيرة الاكباش المقدسة^(٢) فافترست بعضها وتركت البعض الآخر. إلا أن الجند تنبهوا فى آخر الأمر للحادث، فلما ذهبوا بجملتهم لدفع السوء عنها رأوا أن الذئاب فتكت بالحمل الذى أهدها رعمسيس لآمون قبل تحرك ركابه لقتال الأعداء. وكان أرسله إلى بلدة منديس^(٣) فوا أسفاه على هذا الحيوان المبارك الشريف الذى اختص آمون نفسه به فاستودعه روحه الحياة الدنيا.^(٤) ولقد انتشر خبر الفاجعة بأرجاء طيبة بأسرع من البرق الخاطف ووقف عليه الخاص والعام. وبينما كان الناس طرّاً فى الحيرة متخبطين إذا برسول من مدينة منفيس يوافينا نبأ ضاعف الأحزان، ألا وهو موت العجل أبيس.

(١) كانت الذئاب بمصر كثير عددها، وقد أقام المصريون لها هيكلًا فى ليكوبوليس «أسيوط الآن». وكانوا يدفنونها بمظاهر الاحترام والتبجيل إذا ماتت. وفى هيروودت حكايات غريبة فى ذلك.
(٢) كان المصريون يقربون الاكباش والثيران للإله آمون
(٢) وجدت آثار هذه المدينة فى الدلتا بجوار بلدة المنصورة، وفسر العالم الأثرى بروكش أغلب ما شهده فيها من النقوش وهى تتضمن معتقدات القوم وقتئذ فى الكبش.
(٤) كان الكبش يسمى باللغة المصرية القديمة (با) وهو نفس الاسم الذى يطلق على الروح، وكان المصريون يعتقدون أن با أو الكبش هو الغلاف الحافظ لروح الإله رع فى الأرض.

ما كاد المفتش ينتهي من إعلان هذه الفواجع على ملا السامعين حتى صاحوا صيحات الجزع واليأس واندفعوا ينعرون ويشقّهون حتى التقت أضلاعهم فهرع الناس من كل فج وتواردوا من كل صوب إلى مكان الزحام، إذ ترك المحنطون والنساجون والنجارون والنقاشون والسقاءون أعمالهم لاستجلاء حقيقة الخبر وتبين أسباب الضرر، فما كادوا يقفون عليها حتى اندفعوا مع الآخرين في العويل والأنين وأخذوا يخمشون الوجوه وينزعون الشعور ويحثون التراب على الرؤوس، وظلوا كذلك مدة ساد بعقبها السكون فانصرف العمال لمزاولة الأعمال، إلا أنهم ما فتئوا أن سمعوا صدى أصوات بعيدة اتضح أنها منبعثة من طيبة فأيقنوا حلول المصائب ونزول الكوارث والنوائب.

وكان مفتش القرابين أشار فيما قال إلى أنه ينتظر أخباراً غير سارة عن الملك والجيش. ذلك لأنه لم يكن بد أن يشمل الحزن رعمسيس لموت الكبش الذى سُمى باسمه وأن يشجيه هذا الحادث أكثر من نعى العجل أبيس، وحسبه أن يكون موت الكبش دليلاً على شؤم طالعه ونكد حظه. قالت أرملة رونى: إن زوجى المرحوم أوزريس رونى قد توقع هذه الحوادث من قبل. ولو أن فى وسعى الكلام لانبأتكم بنبا يهد أركانكم ويثير أحزانكم. فتبسم مفتش القرابين لعلمه بولاء نبى هيكل حاتاسو للأسرة الملكية السابقة وقال: لربما تغشى سحب المحن والكوارث شمس الملك رعمسيس فتحجب ضياءها الساطع، ولكن أحداً من أعدائه لن يكون على قيد الحياة عند أفول هذه الشمس المتألقة الضياء.

ثم ودع الأرملة بفتور وذهب قاصداً إلى بيت الحائك لقضاء حاجته، واستوت هى فى محفتها التى كان يحملها الخدم بالباب ومضت لوجهها. وكان بينم فى هذه

الأثناء يشاطر زملاءه الحزن والبكاء جزعاً على موت الحيوانين المقدسين، وظل في نحيب وعويل حتى أثرت الدموع على خديه وبع صوته. وكان الوقت ظهراً فأحس الجوع يحفز أحشاه فجلس القرفصاء في غرفة التشريح الحالكة الظلام، لأن الشمس لا تنفذ أشعتها اللجينية إليها إلا من ثقب ضيق بالسقف، فتبدو للناظر كتيار ضوء تتلاطم فيه ربوات الجراثيم وذرات الهباء، وترسم على البلاط الرطب دائرة متساوية الأقطار يخالها الرائي صحيفة من اللجين. وكانت توابيت المومياءات مرصوفة بعضها إلى جانب بعض بطول الجدار، وجثث الموتى مطروحة على موايد كبيرة مغطاة بقماش خشن. وكان الناظر يرى من أن إلى آخر فأراً يخرج من ثقب بأسفل الجدار فيمر في الغرفة مرور الطيف، وعقارب تدب ببطء على مربعات البلاط لا تعلم أين وجهتها وفيمن تنفث سمها الزعاف.

لم يهلع قلب بينم لمنظر هذه الغرفة ولم يخف خوف الداخل فيها لأول مرة، لأن اعتياده التردد عليها بضع سنوات قد محا من فؤاده سورة الخوف. ولهذا تأهب مطمئناً لتناول الطعام فغطى ركبتيه بخرقه بالية وضع عليها ما هيأته زوجته له من الغذاء، وهو كسرة خبز وشيء من الملح ونبتة فحل ثم أبرز من كيسه قطعة لحم ملفوفة بورقة كرنب وهي جزء من فخذ غزال جاءت به نيخت الساحرة من طيبة هدية لوردة، فاحتفظت النساء للشيخ منها بتلك القطعة ووضعنها في مخلاته على غير علم منه. فلما وجدها أسي أن يرفعها إلى فمه اعتقاداً منه أنها من حق وردة حفيدته وأنه لا بد من حفظها لها. ولقد جعلها أمامه واقتصر على أكل الحبز والفجل غير أنه كان من حين إلى آخر يرسل إليها نظرة إعجاب كما لو كانت من نفائس الأغلاق أو نوادر التحف التي تثير في خاطر ذكرى أمر خضير. واتفق أن دنت منها ذبابة ففاجأها بضربة أودت بحياتها، وانتهى الأمر به - بعد تردد طويل - إلى

تذوقها. وكانت عيناه تجودان بالدموع كلما تذكر صنيعة وردة إذا جلس إلى الطعام من تنسيقها الأزهار والرياحين ووضعها إياها أمامه لتشرح صدره بمراها.

وإن ذاك حانت منه التفاتة إلى المائدة المعدة لجنث الموتى فارتعدت فرائصه وسقط في يده، إذ خُيل له أنه يرى بدلا من جثة رونى الملقى عليها جسم وردة فناجى نفسه بقوله: إن الطبيب الذى تولى علاجها وأنقذها من مخالب الموت لم يكلف نفسه هذا العناء طمعاً بالجزاء، وأنه لو كان طلب منه قلبه لا قلب غيره لتقاء عنايته بها لما تردد هنيهة في انتزاعه من بين جنبه ليعطيه إياه. حدثه وسواسه بذلك ولزم السكون فترة من الزمن استخرج من طيات ثوبه بعدها تعهد الطبيب نبسشت وبسط به يده مستشهداً السماء على براءته وطهارة ذمته. ثم طفق يصلى ويبتهل إلى الآلهة أن يغفروا له ما فرط من الذنوب ويتقبلوا رونى أمام مجلس العدل الإلهى فى الآخرة، وإن يكن قلبه انتزع من بين جنبه.

وهنا سُمعت فجأة جلبة تصم الآذان وطرقت مسامع بينم أصوات تلهج باسمه. ففيما هو يتحفظ لاستطلاع الخبر إذا بأحد الشرطة قد بدا له وأمره باقتفاء أثره. وكان بفناء غرفة المحنطين الممتلئة الجو بعبير الروائح الزكية ثلة رجال يتدافعون بالمناكب حول شىء وُضع فى إناء من حجر النهاء، فما وقع نظر بينم عليه حتى ارتعدت فرائصه إذ أيقن أنه قلب الكبش الذى بدله بقلب الكاهن رونى. وقد سأل رئيس الشرطة أهو الذى شرح جثة هذا النبى واستخرج منها القلب، فأجاب متلعثما بالإيجاب. سأل: هل القلب الذى بالإناء قلبه، فأجاب كالاول. وعلى أثر هذا الاستجواب القصير تفاوض رجال الشرطة مليا بينهم، ثم خرج أحدهم لاستدعاء رئيس المشرحين ومفتش القرايين فى هيكل آمون. وما أقبل به حتى سأل: وأين هو

القلب؟ فلا بد لي من معرفته ولو في الظلام الحالك.. إنى أفحص في اليوم الواحد المئات من قلوب الحيوانات فائتوني به سريعاً!.. أقسم بألهة السماء أنا قلب حيوان لا قلب إنسان. فأوما أحد الشرطة الحاضرين إلى بينم وقال معترضاً: إن هذا الرجل شق الجثة أمامنا بالأمس واستخرج القلب منها. قال كاهن آمون: إن هذا لعجب عجاب! وهل في لفرق بين قلبى الإنسان والحيوان شبهة أو ارتياب؟ أذبحتم هنا كبشاً؟. قال رئيس المشرحين: كلا، فإننا منذ عشرة أيام ممسكون عن أكل اللحوم احتفالاً بأعياد الوادى، فمن أين لنا أن ننحر بهذا المكان كبشاً أو أى حيوان؟. ثم إن مذابح الحيوانات بعيدة عن هنا لوقوعها بعد حى النساجين، فلا سبيل قطعاً لوصول قلب السمىوان إلينا. قال الكاهن: فى الأمر ما يستوجب العجب.. ولكن لا بد من الاحتفاظ بالقلب حتى يُعرض على الكاهن الأول بهيكل آمون ليحقق أمره، فربما كان إحدى المعجزات فى عصرنا هذا الذى امتاز بخوارق العادات. قال رئيس المشرحين: الأولى، عندى عرض هذا القلب على الكاهن الأكبر فى بيت سيتى. قال كاهن آمون: ها نحن ألاء طوع أمرك ورهن إشارتك فلنذهب!..

قصدهم مفتش القرابين ورئيس المشرحين إلى الوادى محمولين على الأعناق، كلاهما فى محفته الخاصة به ومن حوله أعوانه وغاشيته. وتلاهما على مقربة منهما أحد الشرطة فى هودج يحمله حماران ومعه صندوق عاج وضع فيه قلب الكبش المستخرج من جثة رونى. وكان بينم يتبعهم بنظره وهم يتوارون عنه خلف أشجار الأثل، ولا يصدت فى ذلك عينيه. وكان هذا الرجل من المطبوعين على التقوى والورع، فلما أيقن ما فى فعله من الشناعة وبخه الضمير وأظلمت الدنيا فى عينيه وأحاطت به الشكوك واحتوى فؤاده الهلع الشديد من سوء العاقبة، إذ كان أقل ما فيها شيوع الأباطيل والبدى بين الناس. وقد انتابته الهواجس بما أدى به إلى الاعتقاد بخطيئته

وأنه أهل للعقوبة عليها. وبرز له شبح الحقيقة- التي كان من أحرص الناس على مبادئها السامية البريئة- في هيئة المعرضة عنه احتقارا، الناحية عليه بأشد اللوم، فلم يأخذه بعدئذ شك في أن قاضى الموت سيحرمه الاندماج في هيئة مجلس الحقيقة والصدق، والانتظام في سلك العدول والمنصفين، وأنه أصبح على الجملة من المغضوب عليهم الضالين عن صراط الحق ومحجة السداد، وأن هذه العاقبة السوأى ستكون خاتمه حياة قضاها في الطاعة للآلهة والتوكل عليهم في أموره والثابرة على إقامة الصلوات اعترافا بفضلهم. فظل يسكب العبرات حتى شعر بطنين في أذنيه وسحابة تغطى عينيه وأحسّ الأرض تميد من تحته كما لو زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها أو نسفت حتى أخطأتها قدماه. ولما استأنف العمل كان لا يزال مضطرب الفؤاد لأنه عالج انتزاع مشط القدم في إحدى الجثث(١) فارتجفت يداه وارتعدت فرائصه وكاد يقع منها مبضع التشريح.

(١) بحث العالم كزمرك في جثتين محنطتين من جثث قدماء المصريين ومحفوظتين بمدينة براغ، فوجد مشط قدم إحداهما موضوعا بتجويف الصدر. وجاء بالفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الأموات شرح معنى هذه العادة وهو أن الغرض من نزع مشطى القدمين أن لا يدنس الإنسان بهما قاعة المحاكمة إذا استقدم بعد الوفاة للمثول بين يدي الإله أوزيريس

الفصل الثالث والعشرون

كيف استغلّ الكهّان قلب الضان

أصبحت مدينة طيبة وأهلها في ذهاب وإياب وحركة واضطراب لما فاجأهم من أخبار السوء. وسرت عدوى هذا الانزعاج إلى بيت سیتی الذي توالى عليه الحوادث وهاجمته الكوارث كما تهاجم الذئب قطيع غنم لا رعاة له ولا أرباب. ذلك لأن أمینی- رئیس كهنة هذا البيت- كان منذ ثلاثة أيام في طيبة، وكان تلاميذه ومرؤوسه ينتظرون أوبته بذهاب الصبر. وكان رئیس المنجمين تواقا إلى فضح ما وقع بين بنطاؤور وبنت أنات ومعاقبة المتمردين من الطلبة الذين نزعوا إلى الفتنة فبادر بحبس هؤلاء في صحن الهيكل لضيق مكان السجن عن احتوائهم جميعاً بعد إذ قضوا ليلتين بمستودع الغلال نائمين على حصر رقيقة. وقد هالهم وأقلق بالهم ما اتخذ قبلهم من التدابير الشديدة ووسائل القمع القاسية وحسبوا لمغبة عنادهم وتمردهم على أساتذتهم ألف حساب. وظهرت على كل منهم علامات الأسى والأسف بما يتفق مع مزاجه ويلائم فطرته، إلا رامیری- شقيق بنت أنات وزعيم تلك الاضطرابات- فإنه مع مشاركته زملاءه في ندمهم ومقاسمته إياهم العقوبة التي وقعت عليهم ظل ثابت الجنان رابط الجأش لم ترعه العقوبة على قسوتها كما راعتهم، بل نشط لتحريضهم على العصيان والتمرد، بينما كان الطالب أنانا الفائز بحظوة الالتفات من بنطاؤور معتمداً رأسه في إحدى زوايا المكان، مفكراً يشحذ رأيه بالتأمل في المصائر وتقدير العواقب ويلتمس لنفسه مخرجاً من هذا المأزق. ولقد شهده رامیری وهو مختل بنفسه فقصده إليه في خلوته وبغته بضربة خفيفة على

الكتف وقال له: لقد ركبنا متن الشطط ووقعنا في هوة الغلط، وكان هذا أمراً مقدوراً ما هجس لنا في ضمير ولا تحرك به خاطر، وما كان مقدوراً فهو لا محالة واقع. فلم تجعل للخوف مسرباً إلى فؤادك؟ .. إنى أراك وقد احترقت مآقيك من شدة البكاء فما داعية ذلك؟... كن يا صاحٍ ماضى العزيمة جلدأ في المحن، واعلم أنك الآن قد ناهزت السابعة عشرة من حياتك النشيطة وأنت بعد بضعة أشهر وأيام ستصبح من الكاتبين الكرام.

صعد أنانا بصره في راميرى، وبعد أن كفف الدمع قال: ألم أكن أنا الذى دبر هذه المؤامرة والذى ستقع تبعثها على عاتقه فيبادر أمنيى بطردى من الهيكل قبل أن أتم الدراسة وأنقلب إلى والدى المسكينة الحزينة التى تبتغى أن أكون لها سنداً وعماداً فيما بقى من حياتها، ضائع المستقبل مسربلاً بسربال الذل والخجل؟ قال راميرى مترفقاً ومواسياً: حقا أيها الرفيق الصديق لقد حبط تدبيرنا وساء مصيرنا وذهبت جهودنا هباء أو كطعنة في ماء، ومع هذا فلم نغد بنطاؤر وتلك عاقبة الغرور. قال أنانا: ليت الأمر وقف عند انعدام الفائدة بل إنه تعداه إلى الضرر ومعظم النار من مستصغر الشرر، وإن من دقيق الأمور ما يهيج به العظيم. فأمسك راميرى هنيهة ثم قال: ألا تدري يا أنانا أنه لا ضلع لك في المؤامرة وأن المدبر لها والمسؤول عنها هو أنا؟ فليطمئن إذن خاطرک وليهدأ بالك، فإنه لا ينبغى أن يؤخذ أمرؤ بجريرة غيره.. ولا مفر لى من مبادهة الكاهن الأعظم بهذه الحقيقة. وهو كما أعتقد سيجر ذيل الإغضاء على هفوات ابن رعمسيس أكثر منه عليها لو كان الذى سقط فيها من العامة أو أفناء الناس. قال أنانا: ولكن أنسيت أنه سيحصرنا في نطاق ضيق من تحقيقاته ويزج بنا في مأزق لا تجد معه مندوحة من الاعتراف بالحق والجهر

بالصدق؟ فاحمر وجه راميرى وصاح بصوت جهير: أسمع منى منذ عاشرتك وصرت من رفقتك سباً أو هجواً فى حق ابنة رع ذات الشعاع الساطع؟.. أناشدكم الحق أنتم معشر الرفقاء، أنت يا (انتيف) وأنت يا (نابى) وأنت يا (سانت) وأنتم كافة أيها الزملاء والأصدقاء، أناشدكم- بل أضرع إليكم- أن تقولوا من ذا الذى استفزكم للثورة والهيّاج، أنا أم أحد سواى؟ ومن ذا الذى نصحكم بالبحث عن بنطاؤر؟.. ألم يكن أنا الذى تهدد رئيس الكهان بالخروج من هيكل سيتى؟!.. ألم يكن أنا الذى حرّضكم على رفع لواء العصيان وامتشاق حسام التمرد على الأساتذة؟ لست أخالكم تنكرون هذه الحقائق الساطعة إذا حانت ساعة الاعتراف بها.. لقد ثبت لك الآن يا أنا أنى صاحب الشأن فى هذه المؤامرة، فإذا استاقونا للحكم علينا فيما وقع منا فدعونى فى المقدمة ولا يأت اسم أنا على ألسنتكم. فإن صدر الحكم علينا بالجزاء ضرباً بالمقارع أو إمساكاً عن الطعام فلا يتوان أحدكم عن إلقاء التبعة كلها علىّ.

قال ابن النبى الأول لهيكل أمون وقد أخذ من راميرى بإحدى يديه وتناول أنانا اليد الأخرى شكراً وامتناناً: ما أشرف نفسك وأعلى همتك وأصدق ولاءك!.. فاستخاض الأمير يديه منهما باسم الثغر وقال لأصحابه: الآن وقد تفقنا على ما سيكون فعلكم بالاتحاد قلباً وقالبا وحذار أن تحيدوا عن نصيحتى، وأقسم لكم بأنى ما دمت أدعى راميرى فلا مفر لى من مطالبة والذى بإخراجى من هذا الهيكل لأدخل هيكل (خينو) احتجاجاً على حرماننا التلمذة لبنطاؤر. قال أصغر التلاميذ المتمردين: لكن أنسيتم يا صحبى الكرام ما عزرننا به من وصفه إيانا بالأطفال المتمردين وإصااقه بنا تهمة الخفة والرعونة؟.. أجاب راميرى: ما قال فى هذه

الأوصاف إلا حقا، فإننا من نزق الشباب وغرة الحداثة لعلى شىء كثير، وليس يسعنى إلا أن أمجده وأشيد بذكره لوصفه إيانا بتلك الأوصاف. ولعلك ترتاب فى أمرى أيها الصديق فتتهمنى بالتحيز له.. لهذا أود أن تقف على ماهية رأى فى الموضوع. ثم التفت إلى أحد أقرانه- وهو يتكلم- التفاتة توخى فيها تقليد الكاهن الأعظم أمينى حينما بهمّ بالكلام وقال: بمّ يمتاز صاحب الهمة العالية والنفس الأبية على السوتة والأخلاق، إن لم يكن بالترفع عن الدنيا والسفاسف واجتناب المظاهر المبتذلة؟ الرجل الذى تلك سماته هو الذى يمرّ الكرام بما لايسمو به إلى أشرف الرتب وأعلاها، وينصرف عما يحيد به عن الصراط السوى.. ولقد تلقيت عن والدى هذا المبدأ الذى أثبتت صحته التجربة.. فإذا استقر هذا فى أخلاذكم، فلننظر الآن فيما إذا كان يسع بنطاؤر المعروف بعزة النفس ورقة الشعور أن يعمل معنا أكثر مما عمله. قال أنا: لا تعرب يا صديقى الأمير عما يشعر به وجدانى فلقد سلكننا- والحق يقال- مسلك الأطفال ولم نتبع خطة الرجال.. أردنا أن ننفع بنطاؤر فالحقنا به السوء والشور.. وما أتم حديثه حتى سمعت قرعة مركبة وقفت أمام الباب فصاح راميرى: ها قد قدم أمينى فتجلدوا واثبتوا ولا يذهب عنكم أنى المذنب وحدى. وإنى لوائق أنه متى أيقن ذلك لا يجرؤ على معاقبتى . وكل ما أتوقعه أنه سيعبس فى وجهى ويُعرض عنى، ولكن غضبه على سيكون سحابة صيف ثم تنتشع.

هبط أمينى من مركبته فقيل له فى الوقت إن رئيس المشرحين ومفتش القرايين بيغيان مفاوضته فى أمر خطير، فأجاب: لينتظرا بالحديقة وأين هو زعيم المنجمين؟.. وما أتم سؤاله حتى أقبل هذا الأخير مهرولا ليطلعه على ما وقع أثناء غيابه. وكان أمينى قد أحيط علمه بذلك وهو فى طيبة لأنه قبل مزايته للهيكل أمر بموافاته بتقرير

شامل لأحوال بيت سیتی. ولهذا قاطع رئيس المنجمين بقوله: لقد الممت بجميع هذه الحوادث التي لا يدعو وقوعها إلى الدهشة، ولا يعزب عن خاطر مع ما شب تلاميذى عليه من الميل إلى بنطاؤور والتعلق به إلى حد استفزهم لركوب متن الشطط. واتصل بعلمى غير هذا أنه التقى بالأميرة فى هیکل حاتاسو حين همت بدخوله قضاء لفروض الصلاة، وساعدها على تنفيذ مرادها وهو عالم بأنها لم تتطهر من الدنس بعد.. نعم إن هذه الحوادث وأشباهاها تستوجب اللوم والتعنيف ولا بد أن یجْزى مرتكبوها شر الجزاء.. ولكن فى غير هذه الأوان.. وثق بأن بنطاؤور لن یفلت من یدى قبل أن یذوق عذاب العقوبة، إلا أنى أطلب حضوره هنا لحاجة ماسة بحفلة عيد الوادى، وأود الآن الا یكاشفه أحد بدخيلة قلبه ولا بما یبطنه من العداة والکراهية له، فبلِّغ إلى جمیع الكهان إرادتى ولیعملوا على طاعتى وامتنال کلمتى.

حاول رئيس المنجمين عبثاً أن یقنع أمینى بالعدول عن نیتة مصوراً له دهشة الناس واستنكارهم إذا عامل الشاعر بالتسامح، فلم یتمالك الكاهن الأعظم أن تناول خاتم المهمة من رئيس المنجمين وعهد به إلى أحد صغار الكهان وأمره بالانصراف فوراً إلى هیکل حاتاسو للعودة ببنتاؤور إلى بيت سیتی. فلما رأى رئيس المنجمين ما حلَّ به من الخزى استجمع قواه الواهنة وقال: وأولئك الخائنون الأشقیاء أیبقرن فى منجاة من العقوبة والتادیب؟ أجاب أمینى: لسوف أعاملهم معاملة بنطاؤور. ومما لا ینفسح له مجال فهمى اعتبار ما ارتكبه أولئك الأطفال من مغادرتهم المکتب وهجرهم الدرس جریمة لا تغتفر. فخلِّ عنك هذا العناء ودع أولئك الأطفال فیما هو طبیعة سنهم من نزق الشباب، فإنه إذا لم یغض المریبى الطرف عن زلات كثيرة من زلاتهم فقد أساء وما أصاب. والواجب علیه أن یحیط بالأمور کلها کبائرها

وصفائرها، ولكن لا حاجة بأحد إلى العلم بأنه أحاط بها ووقف عليها. وأحرى الأمور بالتجاهل والتغاضى ما يبديه الأطفال من نزق الشباب والانحراف عن جادة الصواب. أنسيت أن ما يرتكبه الأطفال دليل على مايجنحون إليه بطبيعتهم في الاستقبال.. لقد عزمت على مؤاخذه طفل واحد بخطيئة زملائه جميعاً. ولولا أن هناك من الأسباب الخاصة ما يضطرني إلى إبعاده من الهيكل في غضون أعياد الوادى لأعفيته من العقوبة.

فسكت رئيس المنجمين مفحماً، لاسيما وقد رأى عينيه تقدحان بشرر الغضب وشفتيه مضطربتين بما ينم على ما انتاب نفسه من شديد التأثر. ولقد أدرك الكاهن الأعظم حقيقة ما خالج فؤاده فقال له: إنك لا تستطيع فهم مقاصدى ولسوف أكاشفك بها مساء اليوم متى عُقدت جمعية العارفين بالأسرار الدينية. إنا نتأهب الآن لتنفيذ جملة من المشاريع الخطيرة، فإنه لم يذهب عليك ما أصبح زملاؤنا كهان هيكل أمون فيه من الضعف والخور، وهذه فرصة متاحة لنا معشر الكهنة أصحاب الجلابيب البيضاء لنقدم الدليل دونهم إلى الآلهة على إخلاصنا وصدق نياتنا. وستجمعنا الأعياد وإياهم وجها لوجه فلا محيد لنا عن الاتحاد والتعاقد.

وسيعتلى بنطاؤر في الغد منبر الخطابة فيقرع الأسماع ببديع لفظه ويسحر الألباب ببلاغة وعظه. وإن من بين التلاميذ المتمردين من يمكن التعويل عليهم في النشيد لرخامة أصواتهم ولاسيما التلميذ أنانا. فدع عنك الاشتغال بأمر هؤلاء المغرورين.. ثم قل لي وهل كان راميرى بين الثائرين؟ أجاب رئيس المنجمين: نعم، وكان من أشد زعمائهم حماساً وتطرفاً. فالتفت أمنيى إلى الشيخ باسماء وقال ساخراً: لقد تجلت الأسرة الملكية بجلباب الشرف والفخار.. فبينما تنتهك كريمة الملك

حرمة القوانين وتضع من قدرنا في نظر العالمين، يثور أخوها راميرى علينا ويعصى ما ينبغي أن يُطاع من أوامرنا.. والواجب في هذه الحالة طرده من المدرسة وأقسامها؟ لم أرى بوجهك دلائل الخوف والوجل؟ أترى أن أبناء الملوك والسلاطين لا تسرى عليهم القوانين ولو كانوا خاطئين؟.. كن رابط الجأش هادئ البال فقد حان أوان العمل وفات زمن التواني والكسل.. ثم قل لي: أوافقكم نياً الحمل المقدس الذي كان رعمسيس أهده إلى الإله آمون بعد أن أسماه باسمه؟.. لبئس الفال النذير بخيبة الآمال.. قال رئيس المنجمين وقد بسط يديه إلى السماء قانطاً: نعم، جاءني هذا الخبر الذي ملأ أفئدتنا بالحزن والكدر، وقد نفق أيضاً العجل أبيض وفاضت منه النفس، فهن انتهى إليك هذا الخبر النحس؟ قال الكاهن مكتئباً: نعم، سعدت روحه الربانية إلى السماء للاستمتاع بالسعادة والهناء. وقد أصبحنا بموته تلقاء واجبات لا مفر من أدائها، وسيعترضنا في ممارسة هذه الواجبات ما لا حصر له من الصعوبات. ولكن ما الحيلة، ومثلنا من ينهض بالأعباء ويهون عليه العناء.. يجب علينا في ذلك الاحتفال الوقوف عند حسن ظن الناس بنا فنعرض على أنظارهم ما نخلب به عقولهم، ولا ننسى أن الوالى قد أجرى علينا باهظ المرتبات ووافر الأرزاق و... فقاطعته رئيس المنجمين قائلاً: يدرك القادرون من أصحابنا معنى الواجب عليهم، لا كما يدركه كهنة هيكل آمون، لأنهم بينما يادبون المآدب ويعاقرون بنت الدنان نقوم نحن بشعائر الأعياد في هذا الهيكل للملك الديان. فقال أمينى باسمنا: لكن ألم نعد الأمة مثلما أفادوها؟ وهل لم تكن الأمة أشد احتياجاً منهم إلينا؟ وإذا كانوا هم مرشديها في الحياة الدنيا، أفلم تكن نحن المرشدين إلى الطريق الأخرى؟ والحياة نور والموت ظلام، والحاجة إلى الدليل في الظلام أشد منها إليه في النور. أفلا

نستطيع بعد ذلك مناهضتهم ومقاومتهم؟ قال رئيس المنجمين: نستطيع مقاومتهم والغلبة عليهم مادمت أنت رئيسنا، وصاحب الكلمة النافذة فينا. التفت أمني هنا إلى الكاهن سبتاح والنبى جاجابو وكان مقبلا عليه، وقال بعد أن رشق ببصره رئيس المنجمين: ومادام أن بهذا البيت ضيوفا كراماً مثلكما. ثم قصد الثلاثة جهة الحديقة حيث كان ينتظر أمني الكهنة ومعهم القلب العجيب الذى وُجد بجثة روني.

فلما دنا من مكانهم حيا مفتش قرابين هيكل آمون بأحسن تحية ورمق رئيس الشرطة بعين الرعاية والعطف. وبعد أن اطلع على ما أودعاه تقريرهما من نتيجة بحثهما في الحادثة التى حضرا من أجلها، أمر بفتح الصندوق الذى سطعت منه السروائح العطرية، فتناول القلب منه بأنامله النحيلة وأمعن النظر فيه فترة من الزمن، ثم قال فى تأنٍ وسكون: إذا لم يكن هذا القلب قلب إنسان كما تقول أنت يا رئيس الشرطة ، بل قلب كبش وُجد فى حنايا ضلوع أوزيريس روني كما يقول به أخونا مفتش قرابين هيكل آمون، فقد أصبحنا تجاه معميات لا يقدر على حلها غير الربوبية صاحبة المعجزات. فاقتفوا إذن أثرى وطئوا مواقع قدمى حتى نصل إلى الساحة الكبرى وعليكم بدق الطبل النحاسى أربع مرات إيداناً باجتماع الإخوان للمداولة فى الأمر، فعسى أن نهتدى بمشكاة آرائهم إلى الصواب.

فطفق الحاضرون يدقون الطبل تنفيذاً لأوامر الكاهن الأعظم فرددت أركان الهيكل صداه، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تدافع نحو مصدر الصوت مسرعين جميع من كانوا به من أنبياء وآباء وغاشية وطلاب، ذلك لأن الطبل لا يُدق أربع مرات إلا لأمر جلال وشأن خطير. وكان نبسشت الذى اعتاد العزلة فى أيام الحفلات والمظاسرات فى مقدمة المتقاطرين شتاتاً وزرافات، واهماً أن النار قد شبت

في الهيكل وانداع لهيبتها إلى الأركان وتداعت له الجدران. فلما تكاملت جموعهم أوقفهم أميني في الأماكن المعينة لهم. ثم أنشأ يروى على مسامعهم الأمر المريب والحادث الغريب، وقال إنه اعتزم ازاءهما استيحاء الآلهة ليقف من وحيهم على جليلة الأمر. وكان الصندوق الصغير بين يديه، فوقف هنيهة في مقدمة المجتمعين ثم سايرهم نحو صدر الهيكل، فلما بلغ إليه توارى خلف الستار المقدس. وكانت جماهير الناس تزدهم أثناء ذلك في ساحات الهيكل وحواليه لاستقصاء الخبر واستطلاع نتيجة التجليات الإلهية والإلهامات الربانية التي استنزلها أميني على نفسه. وقد انقضت ساعة ولا من يسمع صوتاً أو يدرك همساً، وكل ما في الأمر أن دخان البخور كان يتصاعد من المجامر فينكاثف تحت الأزاج أو يتبدد في أجواز الفضاء. ثم برز أميني من وراء الستار مرتدياً أمساحه الكهنوتية الثمينة التي كانت تزيده فخامة وجلالا وأبهة وكمالا، يتقدمه كاهن يحمل بين يديه إناء من الذهب المرصع بالجواهر، وقد رفعه إلى ما فوق ليراه الحاضرون. وكان الكاهن الأعظم وهو يتهادى خلف هذا الكاهن متكئاً على المحجن لا ينفك عن النظر إلى الإناء والجثو بركبتيه من أن إلى أن. وكان الحاضرون، من كهنة وطلاب وغاشية - حينما برز من مخبأه - يخرّون إلى الأذقان سجداً. أما هو فقد واصل السير في أثناء ذلك إلى المذبح الذي كان الكاهن وضع عليه الإناء ثم وقف فوقه وقال بصوت جهير وعبارة تحرى فيها التفخيم في جلال وتؤدة ما يأتي:

«هلموا إلى السجود أيا معشر الحاضرين! وحى على الصلاة! حى على عبادة الإله! ما أخطأ مفتش قرابين هيكل آمون في قوله وما غوى وما نطق قط عن الهوى. فقد ثبت بالدليل المقنع والبرهان وتأييد بمشاهدة العيان، أن القلب الذي احتواه صدر

نبينا المحترم روني لمن قلوب الحملان. تجلت لي هذه الحقيقة بالإلهامات الربانية وأيقنته أنا بما أطربني من كلماتها اللدنية التي هي آية الآيات ومعجزة المعجزات.. خبرتني هذه الإلهامات بأن هناك على الضفة الأخرى من النيل، وفي هيكل آمون مزقت الذئاب الخاطفة أحشاء الكبش المقدس وفتكت به الفتك الوبيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لم تشأ الآلهة أن يلحق بهذا القلب شيء من الأدناس، فأودعته صدر أحد كبار الكهان ولا مساس. تلك هي المعجزة الكبرى وآية الآلهة العظمى ! تبشر بوقوع حادث جلال مريب في المستقبل القريب، وإن ذلك القلب الإلهي لما ضاق به جسم الكبش التمس الرحب من أجساد الأبرار، فنزل في صدر روني النبي مبارك المختار.. وسيبقى عندنا في هذا الإناء ليتبرك به المريض والمكروب فيذهب الأمراض ويجلو صدأ القلوب. فهللوا جميعاً إلى الصلاة والابتهاال، وحى على عبادة ذى الجلال، وأبصروا كرة ما تقذفه مجامر البخور من الدخان لتروا فيه ما سطر بحروف النار مما هو ظاهر للعيان. ثم انهضوا وقوفا على الأقدام وضعوا بينكم القلب الرباني تحيط به الصور المقدسة وتقدموا إلى الأمام لنطوف به أرجاء هذا الهيكل مترنمين بأناشيد الحمد والثناء، لباسط الأرض ورافع السماء. أما أنتم أفواج الرسل والغاشية، فاحملوا عصيكم وانتشروا بالأنحاء الدانية والقاصية، لتذيعوا في الأهلين، بشرى معجزة بيت سبتى القائم على أساس متين من عقائد الدين».

ما أتم الموكب طوافه بالهيكل وتفرق رجاله فوجاً إثر فوج حتى استأذن كاهن هيكل آمون في الانصراف بعد إذ قام بالتحية الكهنوتية وقال لأميني في فتور يشف عما يبذنه من الحقد : ولسوف يقابل كهنة هيكل آمون ما تزعم أنه وحى أوحى إليك

بما هو أهل له من التقدير. ومن الممكنات وقوع ما أعلنته من المعجزات ولكن سوف يقف جلالته الملك على سر وقوعها وطريقة إبلاغها للأهلين. قال أميني: إنما تمت المعجزة بإرادة الملك الواحد القهار. ثم أحنى رأسه واندس في أخلاط الناس الذين كانوا في ساحة الهيكل يتحدثون بما وقع من خوارق العادات وأعد للاحتفال من المعدات. واستدعى إليه بعد هذا في ساحة المدرسة التلاميذ المغضوب عليهم، فكان أول القادمين منهم سبتاح، فلما مثل بين يديه أخبره بوصول بنطاؤر، ثم عاد إلى أقرانه الذين كانت تصل من بعيد أصوات ضحكهم سروراً بهذا النبأ السعيد. وكان راميرى بن رعمسيس يمحضهم النصح وقتئذ فيما لو عوقبوا عليه بالجثو على الركب فوق حبات الحمص الجاف لعنوا قبل ذلك بإنضاجها حتى لا يشعروا بشدة إيلاهما. قال تلميذ آخر كانت بيده هليونة يضرب بها كتفه وهو مولٍ إليهم ظهره: الأحسن أن تستبدلوا من الحمص بالهليون. وهو مجون أراد به الإشارة إلى الضرب بالسوط أو الدرة. وبينما التلاميذ في هذا الهرج إذ طرق أسماعهم وقع أقدام أميني، فتابوا جميعاً إلى السكون والصمت. وليس هذا بغريب لأن أميني كان منظره يُشعر بالوقار والهيبة. فكان مجرد وجوده بين الطلاب - منصباً عليهم من حيث لا يعلمون - داعياً إلى وقوفهم عند حدود الأدب والنظر إليه بعين الإجلال والاحترام.

غير أنهم لم يلبثوا أن عرثهم الدهشة حينما شهدوا أميني يتقدم إليهم باسم الثغر منشراح الصدر محبباً عواطف ولائهم لبنطاؤر وتعلقهم به. إلا أنه أخذ عليهم في عطف ورفق التسرع في الولاء لهذا الرجل الفاضل الحكيم ووصف حركتهم هذه بأنها جاءت قبل. أو أنها، ثم تحوّل نحو راميرى وقال: هب أيها الأمير أن رعمسيس والدك الكريم أمر بنقل أحد قواد جيش الشام إلى جيش (روش) فتمرد جنده تدمراً

من مفارقتة، فماذا عسى أن يكون حكمك عليهم؟.. أيقظ لك في هذه الحالة تناول أمر الملك بالنقد والتجريح؟.. أظن لا.. ومع هذا فإنني أعفو عنكم وأغضى على سيئاتكم، لأن جرائكم كانت محمودة الأسباب شريفة المقاصد، وإكراما لمعجزة اليوم التي لم يُسمع بمثلها في سالف الحقب.. لكن لا يذهبن الغرور بكم إلى توهم أنكم أصبحتم في منجاة من العقاب، فإن تطبيق القانون على محرضي الطلاب وقائديهم إلى التمرد والاضطراب ليس عنه منصرف. فمن أغرى منكم أصحابه بانتهاك حرمة القوانين عليه أن يبرز من بينكم ويعترف بما قدمت يداه.

فبرز الأمير راميرى وأقبل نحوه خاضعاً خاشعاً وقال: أيها الأب المحترم! اعترف لك بأن ما أتيناها من الأعمال كان من غرور الأطفال ولم يكن من أخلاق الرجال.. لهذا نعرب لكم عن صادق الأسف والندم ونعطيكم موثقاً علينا بسلوك سبيل الرشاد والإقلاع منذ الآن عن هذا العناد. ومما يضاعف في نفسي الأسى والأسف أنى كنت الزعيم الذى أغرى رفاقه بالنزوع إلى الفساد والعصيان، وما حملنى على هذا الغرور إلا شدة تعلقى بالشاعر بنظائر الذى أحرز قصب السبق في كل ميدان. فبدت على وجه أُمينى علامات الغضب، إذ تبرد وجهه واكفهر ونمّ على ما في صدره من الحقد والشر. فقال بصوت جهير: ليس لطالب أن يوازن بين الأساتذة ويفضّل بعضهم على بعض، ولو رمى بذلك إلى إعلان فضله والإشادة بذكره. ولقد تصدّيت أنت ورفاقك إلى ما لم يكن من شأنكم الاشتغال به ودخلتم فيما لا يعنيتكم من الأمور، فقد صرتم إزاء المسئولية سواء. ثم سكت هينهة وقال: لو لم تكن ابن ملك مصر الذى يحكمها كما يحكم (رع) لأنزلت بك من العقاب على جرأتك ووقاحتك ما أنت له أهل، ولكنى رغبة في صون الطلاب من عدوى الاقتداء بك أرى من الصواب

معاقبة المذنب منهم بما يردعه عن غيه. قال راميرى: إنى مقر بذنبى وراضٍ بالعقاب واحتمال شديد العذاب مادام حكمك به مطابقاً للعدل والنظام. فرمقه أمنيى بعين الرفق، وكانت نفسه تحدثه بأن يتناول يده ويصافحه إعجاباً بصراحته ومروءته، غير أن العقاب الذى انتوى توقيعه عليه كان مما تفتق عنه احتياله لتحقيق أمانيه ونيل مطامعه. وما كان أمنيى بالرجل الذى يضحى بفائدة آجلة أو يضع العقبات لنفسه فى الطريق الذى آلى عليها اتباعه لاقتناص فرصة سانحة، لمجرد إمتاع العين بشهود شىء جميل أو الإعجاب به. لذلك عاد فقال لراميرى بصوت يشف عن صدق العزيمة: إذن سأنزل بك عقوبتى وهى الطرد منذ اليوم من بيت سىتى والحرمان من تلقى العلوم فيه. فامتقع لسون الأمير فرعاً واستنكاراً لصرامة العقاب ونسج الخوف على وجهه طبقة من الاكتئاب ولحظ أمنيى ذلك منه فقال بصوت لطيف: لا يذهبن الفرع بك إلى اعتقاد أنى طردتك من بيتنا. وكل ما فى الأمر هو أنى مع توديعى إياك مازلت حريصاً على محبتك حرص المرء على حدقة عينه. والآن وقد أمرتك بمزايلة بيت سىتى والبعد عنه فلا مناص من مفارقتك إيانا بأمر الملك الذى نسأل له البقاء والصحة والقوة. ولست أقف منك - ومكانتك معروفة للجميع - موقف من يؤثر عقوبة على غيرها أو يتخير أسهلها احتمالاً وأخفها وقعاً ليطبقتها عليك، فإن الواجب يقضى بتنفيذ القانون على مخالفه أيا كانوا.. والآن ناولنى يديك لأصافك.. وإنى لمبشرك بأنك ستكون فى يوم ما من الأبطال والشجعان المشار إليهم بالبنان. ام يقدم راميرى يده ولم يصافح الكاهن الأعظم لما وقع فيه من الدهش والاختبال، ولبث صامتاً واجماً حتى طلب أنى منه أن يصافحه بقوله: ما الذى أرى منك الآن مما يخالف قولك إنك راضٍ بعاقبة خطئك؟ ألا تعلم أن من أقدس

الواجبات على ابن فرعون البر بالوعد والإقامة على العهد؟.. هلم يا بنى! خذ عدتك لمزايلة هذا الهيكل المقدس قبل غروب الشمس. قال الكاهن الأعظم ذلك وولى عن الطلاب بظهره فبدت عليهم جميعاً علامات الجزع والحزن. وقد اجتاز صحن الهيكل فشيعة راميري بنظره حتى غاب عنه، وكان قد علا وجهه الاصفرار واضطربت شفته، ورأى أقرانه هذا الجزع فتركوه وشأنه وأمسكوا عن حديثه مكتفين بالنظر إليه في سكون وانكسار واستخزاء. ولحظ منهم ذلك فعمل على امتلاك مشاعره والأخذ بعنان عواطفه، ثم بسط يده لأنانا فلبقية أقرانه مصافحاً بعضهم تلو بعض وقال: هل أنا شقى عابث حتى يقضى عليّ بالطرد من الهيكل؟ سيحنق والذى عليّ بلا ريب إذا بلغ إليه هذا الخبر وذاع سره بين الناس وانتشر. قال أنانا: لعلك لم تنتبه إلى أنه بسط لك يده لمصافحتك فلويت عنه عنقك وهى بادرة غير حكيمة لا يصلحها ولايردها إلى مكانها من الصواب سوى المسارعة إليه لمصافحته والاعتذار له وطلب الصفح منه. قال راميري وقد غلب عليه العناد: كلا ثم كلا!.

وقبيل غروب الشمس غادر راميري بيت سیتی فبارك فيه أمينى وقال له معذراً عن شدته فى معاملته: ستعلم حينما تأخذ بزمام الحكم أن معاملتى إياك بالشدة لم تكن مما ينافى العدل والحق فى شىء.. ثم أذن لزملائه بمرافقته حتى ضفة النيل ووداعه عندها، أما بنطاؤر فسايره حتى باب الهيكل وزوده النصائح الحكيمة وشيعة بالطف العبارات وأرقها. وما استوى راميري فى زورقه الذهبى حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فقال له مربيه وكان جالساً إلى جانبه: لعل مولاي الأمير يكف عن البكاء. سأل راميري، وما تعنى بهذا الكلام؟ أجاب: أظننى لمحت دموعاً تتلألاً فى مآقيك. قال راميري وقد حاول أن يكظم ما به: إن ما لاح لك من

الدموع إنما هو دموع الفرح بترك هذا الهيكل الذى حلّ فيه الغضب مكان الحلم.
خلال الحديث بينهما كان الزورق قد بلغ إلى الضفة الأخرى، فهبط الأمير منه البر،
منشرح الصدر، ولم ينقل على الضفة بضع خطوات حتى التقى بشقيقته بنت أنات.

الفصل الرابع والعشرون

خيالات زائلة.. وأوهام باطلة

لا عجب أن نزلت بطيبة الأحياء الكوارث بعد ما وقع بطيبة الأموات ما روينا من الحوادث. فإن راتوتى استيقظت من نومها بعد أن أمضت الشطر الأكبر من ليلها، لا يلتقى لعينها جفن بجفن لما انتابها من القلق والحزن. ولقد دخلت نيفرت عليها بعد هدأة من الليل فاعتذرت عن تخلفها بما قطعت من الوقت الطويل في مناجاة الأميرة بنت أنات. ثم وضعت جبهتها على ثغر والدتها لتقبلها قبله المساء. وقصدت هذه بعد ذلك إلى حجرتها حيث كان نيمو يشعل المصابيح لإضاءتها، فمر بخاطر راتوتى وقتئذ ما أفشاه هذا القزم من أسرار بعاكر وتسلط الوالى عليه واتخاذ إياه آلة يتصرف فيه على ما يهوى، فأمرته بأن يكشف لها الستار عما خفى من الأسرار فأبى، ولكنها ألحت كثيراً فقال لها: إن بعاكر حفظ عنده ما بقى من الماء السحري الذى كانت نيفرت شربت نصفه الآخر على اعتقاد منها أنه ماء قراح. ولو أن نيمو كاشف راتوتى بهذا السر من قبل لطارت شظايا نفسها غضبا وسخطا، ولكنها استلت من قرارة نفسها ما كان كامنا فيها من الحقد، فلما وقفت على جلية الخبر قَبِحت فعل الموهار، ثم سألت نيمو عن الشراب السحري وقوة تأثيره في نفس شاربه فأجاب: أما تأثيره يا سيدتى فهو أشد ما يكون في الأفئدة، ولنحمد الإله على أن نيفرت لم تفرغ في جوفها سوى النصف منه.

اكتابت راتوتى ولبثت إلى ما بعد منتصف الليل لا تستقر على حال لما انتابها من الشجن، فكانت تغدو في حجرتها وتروح مفكرة في هيام بعاكر بابنتها وخيانة مينا موثق الرفاء لها، وفيما شهدته بعينها من تغير أحوال نيفرت في أقوالها وأفعالها.

وما اكحلت عبناها بالتهويم بعد هذا الأرق حتى فاجأتها الأحلام المزعجة
والخيالات المرعبة والمراثى المكدرة، وكان جزعها منها يشتد كلما توارد على
خاطرها ما شهدته من جفاء نيفرت وقسوتها عليها ومعاملتها إياها بما يدل على
تأصل جذور العقْد في نفسها.

وما لاح الصبح حتى قصدت إلى الهيكل ثم عادت فلم تجد ابنتها في المكان الذي
اعتادت تناول الطعام فيه معها. وكانت راتوتى شديدة الميل إلى العزلة في وقت
الصبح، فلما رأت أن ابنتها لم تستيقظ بعد من النوم استحسنت أن لا تنبها منه ثم
جلست إلى المائدة وحدها. ولكنها ما كادت تأخذ مجلسها حتى انتصبت واقفة
وأخذت تستر خبز الحنطة وأكواب النبيذ الفضية بقطعة من نسيج الكتان، وانطلقت
بعد ذلك نحو مخدع نيفرت فما كان أشد جزعها لما لم تجدها في سريرها ! ولقد ثابت
إلى السكنينة وهدأ بالها بعد ذلك فقصدت إلى الخدم تسألهم عن ساعة خروجها،
فأجابوها بأنها ذهبت إلى الهيكل قبل طلوع الفجر، فتتنفس الصعداء ثم عادت
وجلست تحت الظلة.

لم تمض ساعة بعد هذا الحادث حتى أقبل بعاكر يطأ مواقع قدميه اثنان من
أرقائه يحملان باقتين مرصعتين بالأزهار الزاهية الألوان، وخلفهما كلب هائل
الخلقة من كلاب والده. فتلقته راتوتى بمظاهر العطف والإيناس، إذ خرصت عليه
أن الماء السحري الذي وافاها نيمو بخبره قد جاء بالأثر المرجو منه، وهو حبه
لنيفرت حياً يتجاوز الظن ويحقق ما فوق المأمول. حقاً إنها تبينت أطواره ووقفت
على ميوه منذ كان طفلاً وعرفت عيوبه ونقائصه، ولكن استعانتته بذلك الماء على
استمالة نيفرت، مهدت عندها لحسن الظن فيه وأوقعت في وهمها أن له مع رذائله

الموقفة، ما يلفها من المناقب الكثيرة. دع أنها رأته فيه- بعدما تبين لها من هيامه الأكد بابتها- صدقاً مخلصاً لها ينصرها على أعدائها ويبدل مهجته في الذود عنها وكانت راتوتى تنظر إلى بعاصر محددة فيه البصر كما لو أرادت أن تقارن بفكرها بينه والده، فرأت أنها قد وقعت مما أرادته فيما لم يكن فى حسابها، ولم توفق لما كانت تحب استنتاجه من حسن الظن به وصدق الأمل فيه. وثبت عندها ما حملها على تفضيل والده عليه لاستثنائه دونه بالكثير من المناقب العالفة والصفات الفاضلة، فقد كان جميل الطلعة معتدل القوام حسن الشارة بعكس ابنه، فإنه مع قوة عضلاته ومثانة أساطينه كان قصير القامة يظنه الرائى إذا مشى كرة تتدرج. ومما أنبه راتوتى ولفت نظرها بصفة خاصة شكل يد بعاصر، رأته وهو يتحدث فى نطاقه عن شىء يظهر أنه كان أخفاه فيه من قبل. وقارنت بينها ويد الموهار السابق فرأت أن الفارق بينهما عظيم. لأن يد بعاصر كانت شئنة غليظة ينصرف النظر عنها لقبجها بخلاف يد والده فقد كانت تشبه يد المرأة فى حسننها وانفتال أصابعها، مع قوتها وصلابتها إذا امتشق الحسام وخطف به رؤوس الأعداء وأوردهم موارد الحمام. ولقد حيل لها وهو يفتش فى نطاقه أنها رأته قنينة صغيرة ربما كانت تحتوى ما أعده لابنتها من الماء السحرى، فعلا الاحمرار وجهها وارتعدت فرائسها ولحظ، حاصر منها هذا الاضطراب الذى احتار فى تعليه، فسألها فى _فق: أبك ألم، هذا الذى يزعجك؟ هل ورد إليك من رئيس اسطبلات مينا فى هرمونتيس نبأ لايسر؟ أجابت: كلا.. لا هذا ولا ذاك، ثم إنه لم يحضر بعد ولم يعرفنى بخبره. قال: لقيت هذا الرجل أمس فالتمس منى أن أدرجه فى سلك جنودى المسافرة قريباً إلى بلاد الشام. وقد استخلصت من الحديث معه أنه ناغم عليك لإكراهك إياه على بيع أفراس مينا، وهى الأفراس التى كنت حظياً باشترائها لأنها من أفضل الخيل، وعندى أنه

يريد اللقاء بمولاه لتحذيره منك.. ماذا عراك يا خالتي ولم امتقع لوتك.. ماذا دهاك؟ حاولت راتوتى أن تكظم ما كان مستكنا في صدرها من الغيظ وتصنعت الابتسام ثم قالت مغضبة: أظن ذلك الأبله أن بيت مينا لا يستقر له ركن ولا تقوم له عماد إلا ببقاء الجياد؟.. ثم أترضى أن تجعله في صحبتك وضمن غاشيتك ليحذر مينا منى ويحمسه ضدى؟ لم يكن مينا والحمد لله أعشى أو أعمى حتى يستعين بالناس على فتح عينيه. نطقت راتوتى بهذه الجملة بصوت خافت. فليث بعاكر في دهشة هنيهة من الزمن ثم قال: إذا أبطأت نيفرت ولم تعد فليس لى من الانصراف بد. قالت راتوتى: لا لا.. أرجو منك انتظارها فإنها لا تلبث أن تعود، لاسيما وهى لم تتناول طعام الفطور الذى بقى كما ترى- على مقربة منك- مؤلفا من نبيذ وخبز سميذ. على أننى سأدعك وحدك هنا حتى استعلم أعادت أم لا.

ما تحقق بعاكر من خلوته حتى اغتنم هذه الفرصة لقضاء وطره، فإنه عمد إلى المائدة التى عليها الخبز والنبيذ وأخرج من نطاقه القنينة التى تحتوى الماء السحرى، ثم بسط يده بها نحو السماء مستشهداً أباه أوزريس على ما هو فاعل وأفرغ مشمولها فى الكوب حتى كادت تفيض حافات بالشراب. وما كاد ينتهى من هذا الكوب حتى دخلت نيفرت ووالدتها فطمح بصره إلى الأولى وهى تتبختر فى تيه ودلال لم يعهد لهما مثيلاً من قبل. ولقد راعه حسنهما فلم يتمالك أن تناول باقة الأزهار وقدمها إليها وهو يتعثر فى أذياله خجلاً وتأثراً بعوامل الهيام فى قلبه. ومما ضاعف الانفعال فى نفسه مشاهدته نيفرت الجميلة مادة يدها إليه لمصافحته. فلما صافحها أشادت بذكره وغالت فى مدحه وحمدت له تفانيه فى محبتها وإخلاصه الميل إليها وإعطائه المواثيق بالمحافظة على عهده معها، فخيل لصاحبنا وقتذاك أن

هذا الانقلاب السريع هو نتيجة تأثير الماء السحري الذى يلين القلوب القاسية وينقش على صفحاتها آيات الحب والهيام.

وبعد المصافحة والسلام دنت نيفرت من المائدة لتناول طعام الفطور وأومات إلى بعاكر بالجلوس إلى جانبها. وكان هو وراتوتى يرقبان حركاتها ويعيران السمع يتعجب واستغربا إلى كلماتها، وقد انتظر أن تشرع فى عمل ما فأول ما أتته أن رفعت الكأس إلى فمها، ولكن لم تكد تلمس شفيتها حتى أعادتها إلى مكانها لما عراها من الخجل ، حينما لاحظ بعاكر عليها أنها تفطر فى غير الموعد المألوف ، فقالت له: لقد كنت تعودت الكسل فأحببت أن أخلع عنى شعاره وأمحو عاره، فقممت مبكرة من النوم لزيارة الهيكل صبيحة اليوم وأظنك لا تجهل المصاب الجلل الذى دهم الأفتدة بموت الحمل! فيالعظم هذا المصاب الذى أقلق رجال الكهنوت وسبحان الحى الذى لا يموت. على أنه بالرغم من هذه البلايا العظام قد استقبلنى المحترم (بك- ان - شونسو) وفسر لى ما قصصت عليه من الرؤيا فطابت نفسى لذلك وثلج به صدرى. قالت راتوتى عاتبة بلفظ تسبق إلى مخرجه الرقة والعذوبة: وكيف أقبلت على زيارة الهيكل دونى؟ أجابت: أنت عندى أعز على من نفسى، وأنت فرحى من الناس كلهم. وما تفردت بزيارة الهيكل إلا ضناً براحتك وحتى لا أزعجك من نومك. ثم قالت بعد أن أمسكت هنيهة: ومع هذا فإنك لم تسمحى لى قط بمصاحبتك فى جولاتك الكثيرة بمدينة طيبة ولا فى زيارتك لهاكلها الفخمة الضخمة.

قالت نيفرت ذلك ثم رفعت بأناملها كأس النبيذ وأخذت تجيل فيه النظر قائلة: أتدرى يا بعاكر. ما الرؤيا التى رأيتها فى نومى؟ إنها وحق ولائك لجديرة بالعجب والدهشة. فالح بعاكر أن تقصها عليه، فوضعت الكأس فى مكانها دون أن تمسها

شفتاها وقالت: إن لهذه الرؤيا مساساً بالشجرة التي تراها مغروسة هناك في الصندوق الكبير والتي أهدانيها من بلاد آسيا المرحوم والدك وأنا مازلت طفلة.. أطل فيها التأمل ترها قد صارت ممتدة الأفنان وارفة الظلال، لأننى ما برحت أتعهدا بما يكفل نماءها وصونها من الآفات. وهى واقعة الآن من نفسى موقعا اعتبرها معه الشجرة المباركة التى استأثرت بحبى وجدد حسن منظرها فى نفسى نكرى والدك، زوج خالتى. فلقيت هذه الكلمات عنده استحساناً لم يعبر عنه بأكثر من إيماءة الرضى والموافقة، غير أنها لم تلبث أن أمسكت عن الحديث إذ رأت خديه قد خالطتهما حمرة الخجل وسمعته يقول: لقد احتدم الحر أفلا تطيب نفسك إلى ارتشاف كأس نبيذ مشوب ببعض الماء؟ فتقبلت منه الكأس التى قدمها وما أصابت منها جرعة حتى أقصتها عن فيها وتقلصت شفتاها تقلصاً دلاً على ما عراها من الاشمئزاز والنفور، وإن سطعت بهجتها وازداد حسننها بهذه الحركة الفجائية. وكانت راتوتى جالسة من ورائها فألوت نيفرت إليها عنقها وقدمت لها الكأس قائلة: إن لى فى النبيذ شرطا من طعمه، ولقد أحسست الآن بمرارة فيه جفلت منها نفسى.. ولتوقنى ذلك فإليك الكأس تذوقى منها قطرة. فأخذت راتوتى الكأس من يد ابنتها ووضعت حافتها بين شفتيها متصنعة الشرب منها، دون أن تذوق شيئاً. وبدا فى وجهها من الأمارات ما نَمَّ على ميلها إلى الضحك مما مرَّ ببالها وهو أنه إذا شربت من هذا النبيذ الممزوج بالماء السحرى فلا يبعد أن تصبو إلى بعاكر وتهيم به، وهى تعلم أنه لا يريد عن نيفرت بديلا. وكانت عادتها إذا غلبها الضحك عجزت عن مقاومته وصون النفس منه. غير أنها رأت لتعزيز مكانتها وحفظ كرامتها فى نظر ابن أختها أن تملك نفسها وأن تحول بقوة إرادتها دون انبعاث الضحك منها فأعدت الكأس على الفور إلى ابنتها قائلة: كان ينبغى أن يكون هذا النبيذ أحل مذاقا

وأجود نوعا، على أن حموضته ترطب الجسم فيما يعانیه من الحر الشديد. قالت نيفرت: صدقت. ثم استوعبت الكأس بجرعة واحدة وعادت إلى قص رؤياها على بعاكر إذ قالت: رأيت أمامي هذه الشجرة، فيما يرى النائم، كما أراها الآن وهأنذه أستنشق رياها العطر، فدنوت منها. وفيما أنا معجبة بمنظرها المونق، إذا بالفسكين تمسكها أيد خفية قد لاحت لي في فضاء الجو وهي تهوى على أغصان الشجرة وأفنانها فتفتتها، وما زالت بها حتى سقطت على الأرض برمتها واجتثت من بعدها جذعها الضخم الذي كنت أحسب أن طعنات تلك السكاكين لن تعمل فيه. ولم يفزعني هول هذا المنظر، كلا، بل إنه أبهجنى بما كنت أشهده من لمعان الأسلحة وتطاير شظايا الأغصان، وهو ما خيل لي معه أنني أرى فوارة لا يكف الماء عن الانبثاق منها. وما تلاشت تلك الشجرة المباركة ولم يبق منها إلا الجذور المتأصلة في الأرض حتى أخذنى العجب، إذ شهدتها تنمو من جديد نمواً يقع تحت الحس. وقد تواصل هذا النمو حتى بلغت إلى حجمها الأصلي، فأخذت عندئذ جرة ملأتها بماء المستنقع ثم جئت فرويت به الجذور وقضيت ساعة في جلب الماء على هذا المثال حتى أجهدى التعب. غير أنه مما أثلج صدري وملاً بالغبطة والسرور قلبى أن رأيت الأغصان قد تكامل نموها واخضرت أعوادها، وأن طلعاً طلع انبثقت منه ورقة خضراء تلتها ساق لينة أخذت تنمو وتمتد وتتضخم حتى صارت جذعا كبيرا تفرعت منه أغصان صغيرة تحمل أوراقا ناضرة وأزهاراً زاهرة، بين ببضاء وزرقاء وحمراء. ولما تفتحت أكمام هذه الأزهار انحطت على أغصان الشجرة أطيار كثيرة أخذت تغرد تغريداً جميلاً وترنم بصوتها طويلاً، إلا أن ترجيع فؤادى لصدى هذا التغريد كان أجلى ووقعه في السمع أعذب وأحلى، ما هو إلا لأننى كنت سبب إنقاذ تلك الشجرة من مخالب الفناء واستمتاعها بنعمة الحياة والنماء.

قالت راتوتى: ما أحلى هذه الرؤيا!.. إنها تجدد فى نفسى ذكرى أيام طفولتك، إذ كنت تقضين الليل فى ابتكار القصص اللطيفة والنوادر المستلحة، ولكن خبرينى كيف فسر الكاهن لك هذه الرؤيا؟ قالت نيفرت: قال بصوت شبه اليقين إننى بعد الذى لقيته وألقاه من المحن سيبتسم لى ثغر الزمن وأدخل دوراً جديداً من السعادة أحظى بالحسنى فيه وزيادة. فهمت راتوتى بالوقوف للانصراف وقالت فى تكلف وتعلم: لا تنسى يا ابنتى أن أبا بعاكر هو الذى أهداك الشجرة التى رأيتها فى رؤياك. وقد أمن بعاكر على ذلك بقوله: لقد جاء بها والدى المرحوم من أقاصى الشرق. قالت نيفرت: فى هذا ما يزيدنى غبطة وانشراحاً لأنى كنت من والدك بالمكان الأثير، وقد أولانى من بره رعطفه أكثر مما يولى الوالد ولده منهما. وبعد فهل ما زلت تذكر اليوم الذى انقلب الزورق بنا فيه ونحن نحاول عبور المستنقع فخلصتنى من الغرق وعدت بى إلى الشاطئ مغشياً على؟ إن أنس لا أنسى فى حياتى ذلك اليوم الذى وقع نظرى فيه عليك- بعد أن أفقت من غشيتى- وأنت ترمقنى بنظرات الحنان والعطف. أه! ما وجدت فى حياتى مثلك رجلاً جمع إلى سمو الإدراك التحل بمكارم الأخلاق.

أثار هذا الكلام فى نفس بعاكر ذكرى تلك الساعة التى كان يحسب فيها أنه أحرز السعادة كلها بوجود نيفرت بين ذراعيه وتقبيله إياها قبلة الهيام الذى استمكن منذ الصغر من فؤاده وقال: صدقت، فقد كان والدى يحبك كأحب الناس إليه. قالت: إنه لما يبهجنى ويسرّى همى أن يتاح لى الكلام فيه بما يدعو إلى تمجيد سيرته والتحدث بفضائله. هذا ومما ألم قلبى وأمر عيشى أن أرى الرابط بين أسرتنا على غير ما يبغى لنا الصديق من الوثوق والتوفيق. ولكن الآن وقد انقشعت الغيوم وانقطعت أسباب الهموم وعرفت فىك ما كنت أنكره عليك قبلاً من أدب ولطف ورقة

وظرف، فإنى أحمد الإله على هذه النعمة كلما خطرت ببالي أيام الطفولة وتمثلت لناظري بمظهرها الحقيقي الذى ما علمت منه إلا الآن فقط أنك سبب هنائى، وهل أوثق دليلا على اتصال المودة بيننا من أن كلبك الأكبر (ديكر) لم ينسنى وأنه ما برح كعادته يحوم حولى ويدهننى ويتملق إلى؟ فنظر بعاكر إليها نظرة عطف وهيام وقال: نعم! نعم! قد كنت ومازلت فى شغاف قلبى. قالت: ما أجمل حديقتك وأنضر أزهارها وأينع أشجارها! إننى أعطيك عهد المحبة وميثاقها أن اتعهد باقتك النصيرة التى أهديتنيها اليوم بما يكفل بقاءها ناضرة مزدهرة أياما عدة.. ذلك لأنها تذكرنى - ما بقيت- ذلك العهد السعيد وما كنا نعلل أنفسنا به فيه من تعلات المنى والأحلام بمستقبل زاهر لا انقضاء له ولا انصرام.

قالت هذا ورفعت الباقة إلى شفيتها فلم يتمالك بعاكر وقد هزته عوامل الهيام أن ألقى بنفسه عليها وأخذ يلثم أناملها فرايتها منه هذه المفاجأة وعملت جهدها للخلاص من بين يديه ولكنه مد ذراعيه يبغى عناقها، وكان عندما لامس عودها اللدن قد ارتجفت يدها لشدة ما أحس به من السرور والغبطة. وإنه لكذلك إذا بجلبة بلغ صداها إلى أذنه فتسمع لها الاثنان، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أقبل نيمو مهرولا ليخبرها بوصول بنت أنات، ولم تمض لحظة بعد ذلك حتى لاحت راتوتى تتلوها ابنة رعمسيس.

أما بعاكر فرأى أن يركن إلى الفرار كيلا تجد نيفرت من الوقت مجالا للاستياء منه. وما اعتلى مركبته حتى سار بها متيامنا تارة ومتياسرا أخرى، كأنه ثمل بنشوة الخمر. ولعله اعتقد أن نيفرت أصبحت بتأثير الماء السحري، تدلهة في حبه فعقد النية على موافاتها بالذهب الكثير والخير الوفير. وفى منتصف الطريق ألوى عنان جياده نحو دار الوالى ليتلقى الأمر منه بالرحيل إلى الشام، ولسوف يعلم فيها أيهما سيحظى -- هو أم مينا -- بنعمة الرعاية من الآلهة العظام.

الفصل الخامس والعشرون

مذكرات الأمراء.. ومحادثات العمال الأجراء

بينما كان قلب نيفرت يتحفز من هول ما شهدته ولسانها يعجز عن الترحيب ببنت أنات والإكرام، كانت هذه الأميرة تحدث راتوتى فيما اعتزمته من اتخاذ ابنتها وصيفة لها وأخذها إياها إلى قصرها لتقييم فيه معها على الدوام. وقد وضح لراتوتى من أقوال الأميرة وإشاراتنا أنها لم تعد تميل إليها كما كانت قبل أن تبث لها نيفرت الشكوى منها. وخشيت أن يفضى هذا الجفاء إلى حرمانها الرعاية الملكية وساورتها من أجل ذلك الهموم والأحزان، وزادها همأ على همأ افتكارها فى فرأق ابنتها، فلم تتمالك من البكاء ثم جاوبت الأميرة: إنك يا مولاتى تريديننى على أن أنزع قلبى من بين جنبى، ولكن لاحيلة ولا حول إذ علينا الطاعة ولك الأمر والطول.

أومات بنت أنات بإيماءة الموافقة على هذا القول، واتخذت فى أثناءها أوضاع الشمم والكبرياء، غير أن نيفرت ما كادت تقف على موضوع المحادثة حتى ألقت بنفسها فى أحضان والدتها واسترسلت فى البكاء على وجه هيجت به بكاء بنت أنات، خصوصاً عندما تقدمت راتوتى نحوها وسلمت إليها نيفرت بعد أن قبلتها على جبينها قبلة الوداع، عندئذ صافحتها الأميرة وحيثها بأجمل تحية وظلت معها حتى فرغت من تسليم ما كان عندها لابنتها من الثياب وأدوات الزينة والتجمل إلى اتباعها. ولقد قالت نيفرت لوالدتها فى أثناء ذلك: لا تنسى الصندوق الذى يحتوى الأزهار المجففة والأحجية ودمى الآلهة، وسأحمل معى أيضاً الشجرة التى أهدانيها زوج خالتي. وكان الهر الأبيض فى خلال هذه الحوادث واقفا عند قدميها يعبث بباقة الورد التى جاء بعاكر بها وكانت سقطت من مكانها. فلما أحست نيفرت

فتاة في مقتبل العمر تناظر بقوامها اللدن أشجار الأثل مترنحة بخطرات النسيم. وكانت في بادئ الأمر تبدو الحقائق لها متضاربة يغشاها اللبس والاشتباه، ثم وضحت لها محجة الطريق فسارت فيه بقدم ثابتة وجأش رابط إلى الغاية التي ترمى إليها. ولذا ناجت نفسها بقولها: نعم، لقد تحسنت الأحوال وابتسم لي ثغر الزمان وانقادت الآمال، فلا بد لي من العمل بلا خوف ولا إمهال.

ووصل في هذه الأثناء أرقاء الملك فتولت راتوتى توزيع ما طلبته نيفرت برسهم عليهم وأمرت نيمو أن يدعو الوالى إلى مقابلتها في أمر ذى بال. فما مضى القزم قدما في سبيله حتى لاحت له طليعة ركاب أنى مقبلة على دار راتوتى، ولم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى كان الاثنان يروحان ويغدوان في الحديقة. وقد أخذت راتوتى تفضى إليه بما تم من «خطف» ابنتها نيفرت، وما عقدت النية عليه من تنفيذ المشروعات التي ابتكرتها بما دبرته من الوسائل الناجحة. قال أنى: لا عجب فقد عرفنا عنك من شهامة الرجال وثبات الأبطال ما لم تتحل به امرأة سواك. وثقى بأن تحريضك إياى اليوم لن يذهب عبثا، فالكاهن الأعظم على أهبة العمل لأول إشارة منى وكذا بعاكر الذى بدأ منذ اليوم بحشد جنوده والتحرك بها بعد غد إلى الشام عقب انتضاء الأعياد. سألت راتوتى: وهل حضر إليك بعاكر؟ أجب: نعم، حضر عقب خروجه من عندك، وكان خداه يتقدان ناراً ففهمت منه أنه لن يدع جهداً إلا بذله لإصابة غرضه وتحقيق أمنيته.

وفى غضون الحديث بلغ الاثنان إلى الظلة التي كان نيمو عاد إليها وتوارى خلف بعض الشجيرات ليرقب حركاتهما ويتسمع لحديثهما، وجلسا على مقربة من منضدة، وما استقر بهما المقام حتى سأل الوالى راتوتى إن كان نيمو كاشفها

بأسرار الساحرة، فتصنعت الجهل بهذا الأمر وتمادت في إنكاره على وجه اضطره إلى سرد مسألة الماء السحري، فلم يرق لها هذا القول بل خرج بها إلى ما لا يليق بمثلها في حنانها ورفقها من الغيظ والغضب. فأخذ الوالي يهدىء روعها ويلطف بها ذاهبا إلى أنه ربما كان الماء السحري الذي ورد ذكره على لسانه عديم التأثير. قالت راتوتى: وقفت الآن على سر ما تناول ابنتى من التغير والانقلاب، إذ لا بد أن يكون بعاكر صب الماء السحري في كأس نبيذها، فلما جعلت تشرب منها تحولت كرامتها إياه إلى محبة وذنورها منه إلى ميل وأخذت تحدثه بما كان يحب سماعه من ألفاظها العذبة وعباراتها الطلية، وكان لا بد لمن هذا شأنها أن تعتقد أن عاشقها الذى كان ممقوتا منها ومن أبغض الناس إليها أصبح محبوبا وأهلا للكرامة. وهو ما يستفاد منه أن الماء السحري كان له من صادق الفعل والأثر ما لم يخطر قط له ببال. سأل أنى: وهل لشراب أن يأتى بمثل هذا التأثير..؟ المرجح عندي أن تأثيره أشد ما يكون في الشباب. فإذا أصاب حدسى شاكلية الصواب فليست أفهم كيف تستفيد منه الساحرة تلك الأرياح الوافرة. إن الشباب وحده كفيل بيث العشق في القلوب. أه.. إلا ابت الشباب يعود يوما لأكون كبعاصر في فتاء السن وميعة الشباب.. لا تسخرى منى للأسفى على مافات، فإننى شيخ جعلت تعلتى الأمانى المستحيلة وأرجو منك أينها الصديقة أن تفسرى لى أمراً أشكل فهمه على، وهو أنى في عهد الشباب كنت من جمال الصورة بحيث كان النسوة يكبرن من شأنى ويلهجن بذكرى ويتسابقن إلى التماس رضائى. وقد اتخذتهن آلة لتنفيذ مشيئتى وقضاء حاجتى ولم استثن منهن واحدة حتى زوجتى التى لبت نداء ربها وهى في مقتبل العمر. وهأنذا اليوم أجاهد في سبيل الاقتران بأنسة لطيفة وخريدة عفيفة تكون من السن بالنسبة إلى كالابنة من والدها. ولقد اهتديت في آخر الأمر إلى طلبى وبلغت

والحمد للآلهة إلى غاييتي إذ طلبت الاقتران بأنسة من نشاط الشباب وحدة الذكاء بما كنت أرجو معه الاعتماد عليها والركون إليها، ولكنها وا أسفاه لم تجبني إلى طلبى دون أن أقف على سبب. وأغرب ما فى الأمر أنى ما برحت- منذ اتصل بى نبأ هذا الرفض - أشعر بقلق بالى واضطراب حالى، إلا أننى من الأمر قد عقدت النية على أن لا أقتدى ببعاكى فى شراء المياى السحرية لأستميل بها من نأت بجانبها عنى وقاطعتنى وهجرتنى.

سألت راتوتى: لعلك فاوضت بنت أنات فى الزواج. أجب: نعم فعلت، وقد رفضت فى وجهى وأخيلك لا تجهلين استيائى وحرزنى. سألت: ولأى سبب نبذتك .. ألسنت لها كفتاء؟ أجب: لأى سبب نبذتنى؟.. وهل بنت أنات بحاجة إلى تعليل أوامرها وهى على ما تعرفين من كرم المحتد ورفعة القدر والعيش فى ظل (ما) إلهة الصدق التى ترمقها على الدوام بعين رعايتها.. ما أسوأ حظى وأجل مصابى! إنى ما قارنت بينها وبينى حتى تضاءلت فى نظرى جلائل أعمالى وتصاغرت أمانى وأمالى. إن محن الحياة وتجاربها قد علمتنى الخشوع والاستكانة بالرغم من سريان دم تحتمس فى عروقى. إلا أنى ما زلت أرى الهوان والذلة عذابا.. لم أقض من حياتى يوما كنت فيه قانعا بحظى ولا مغتبطا بعملى، لأن المناصب التى توليتها كانت دونها قدرتى على الاضطلاع بها.. ترين من هذا أنى مقرر بعجزى وتجردى من حلية الكفايات، ولا يغرنك ابتسام ثغرى فإنى أتكلف السرور لا لقصد سوى إخفاء النار المستعرة فى فؤادى. وقد أصبحت اليوم لذلك غيرى بالأمس، إذ صار التصنع لى عادة مألوفة وطبيعة معروفة غيرت بهما معالم وجهى. ألم أكن مضطرا إلى خدمة ذلك الذى ما بلغ إلى نزوة السيادة والعز إلا من طريق أصلى الملكى.. إننى لأبغضه وأكمن له من الحقد فى قرارة نفسى مالا تستطيع أن تستله منها قوة. رعمسيس

يدعونى بيا أختى ولست أدري أهو صادق فى زعمه أم كاذب. رعمسيس الذى أخلفنى على ملكه فعملت جهدى لهدمه ومحوه.. لقد أصبحت حياتى سلسلة صيغت حلقاتها من مادة الكذب والزور والبهتان. قالت راتوتى: سوف ينقلب هذا الكذب صدقا متى أرادت الألهة أن يراك الناس على ما ينبغى أن تكون.. أى سيد هذه البلاد وولى أمرها. فتبسم أنى وقال: من اتفاق الخواطر أن تمنى الكاهن الأعظم هذه الأمنية بما عبرت به الآن عنها من اللفظ، لكن لا عجب فالكهان والنساء فى اتفاق الخواطر سواء.. وهل سلاح الفريقتين إلا واحد وهو سهام الكلام لا حد الحسام؟.. قالت راتوتى: لا أدري ما إذا كان ما تقول مدحا أم ذما. على أن قوة النساء والكهان لا يجهلها إنسان، وهما إذا تعاهدا على أمر وفيما بالعهد. قال أنى ضاحكا: أصبت! فإنه لم تنحدر دموع من عين لسرور أو حزن إلا وكان المسبب لها كاهنا أو امرأة. ولست ياراتوتى بهذا الكلام أطلب المزاح، فالمرأة هى السبب المحدث لتسعة أعشار ما ينزل بالناس من المصائب والحن. أسوق على ذلك مثلا مسألتنا الحاضرة.. ألسنت أنت سبب ما يتهيا لها الآن من المقدمات والمقومات، ولولاك لعدلت عن مطعمى فى عرش الملك منذ ساعات بزواجى بتلك الفتاة المعجبة بنفسها. قالت راتوتى: تريد بكلامك هذا إقامة الدليل على أن المرأة أصلب عوداً وأشد مراساً وأمضى عزماً من الرجال؟ إن يكن هذا ما تبغيه فهو الصواب الذى لا أعارضه ولا أتفيه، لأن المرأة إن زوجت من أحد سميت ربة البيت والرجل إن قوس ظهره الهرم أو انقطع عن العمل لعامة لزمته أو لمرض طال عهده لا يحل الفتية محله فى عمله ولا يدفعون الغوائل عنه فى شيخوخته وعجزه، بل الفتيات يقمن بهذا الواجب المقدس. ونحن معشر النسوة مازال يعيننا الشئ الكثير من النقص كضعف الجانب والنزق والشغف باستبطان كوامن الأسرار واستقراء أسباب الحوادث.. لذا أسألك عن عذر بنت أُنات فى

الامتناع عن قبورك بعلاً لها؟ أجاب أنى: أنت من أحوالها على علم كفيل بكشف الغطاء عن الأسرار والوقوف على دفائن الحقائق. ومع هذا فلقد التقيت بها عقب عودتها من الهيكل الذى كان يطهرها فيه من الدنس نبيه الشيخ الخاثر العزيمة، فإنها فى ذلك اليوم أقبلت على تنهائى فى مظاهر جمالها وعزتها وشممها فكان لذلك منها روعة شديدة فى نفسى جعلتنى استشعر بما تلاقى فى ذاتها الشريفة السنية من مزايا الإمارة وصفات الملكية وأحسست قلبى يخفق كما لو كنت فى العشرين من عمري. ولقد أخذت يومئذ تعرض على نظرى أزهارها الزاهية فحدثنى وسواسى بأنى ما طمحت إلى الاقتران بها إلا لنيل مطمع وتحقيق مآرب، ولكنها إذا لبّت ندائى وحقت رجائى فلا مناص لى من إخلاصى الولاء لرعمسيس والدها كصديق بل أخ وأن أكون عوناً له فى السراء والضراء. وحسبى هذا باعثاً على انحيازى إلى جانبه وانضوائى تحت لوائه، أما إذا لم تجنّبى إلى طلبى ولم تحقق أمنيتى برضاؤها عنى بعلاً لها، فلا مندوحة لى من إثارة حرب استرد بها حقوقى المغصوبة وامتيازاتى المنهوبة. ولقد رأيت فى يوم لقائى بها أن الفرصة مواتية، فكاشفتها بدخيلة نفسى، فما كان منها إلا أن قاطعتنى بقولها: أنت فى عشيرتك نجمهم الثاقب وبدرهم الطالع، ومن الشرف وعظيم الخطر فى أرفع منزلة، وأنت أنت الكفاء للاقتران بى ولكن.. فابتدرتها بالسؤال عن سر هذا الاستدراك. فقالت: لا تسل. ورجت منى الاقتصار على العلم بأن طلبى منها مرفوض قطعاً. فاستعطفتها كثيراً وابتهلت إليها طويلاً فقالت: لا تطل الحديث فيما لايجدى فإننى أحب غيرك. سألتها عن اسم من تحب، فأمسكت عن الجواب. وكنت آنئذ أحس بخفقان شديد فى قلبى واضطراب فى جسمى مصدرهما بلا شك الحب الذى استعبد نفسى واستأثر بلبى. قالت راتوتى: أراك غيوراً يا أنى، ولكن أتدرى على من؟ أجاب: كلا، ولهذا أحب أن تطلعينى على

الحقيقة، وثقى بأنى إن دخلت قصر بنت أنات حائراً متردداً غير مستقر على أمر، فقد خرجت منه والحزم رائدى والعزيمة فيما أنا ماضٍ فيه قائدى، ولا شك في أن الآلهة ستعاوننى على بلوغ المراد. ولقد قابلت في عودتى إلى بيتي الكاهن الأعظم أمينى والموهار فتعهد أحدهما بتنفيذ تدابيرنا في مصر والثانى في ديار الشام. وإذا كان الغد دخلت جيوشى العائدة من الحبشة مدينة طيبة بمظاهر الانتصار وأعددت لاستقبالها من الحفلات وأقامت من الأعياد ما لم يسبق له نظير في الأبهة والجلال.. وستشرك تلك الجنود غدا في الاحتفال بأعياد الوادى فترفع من شأنها وتبدى من حسنها ما يأخذ بالألباب ويقضى بالعجب العجاب. ومتى انتهت تلك الأعياد وانشرحت بها صدور العباد أنفذتها إلى الشمال لاحتلال حصون مدائن (تانيس) و(دفعنه) و (بيلوز) و(مجدول). ولا يغيب عنك أن رعمسيس قد أثار في صدور الكهان كوامن الأضغان، إذ نظم في سلك جيشه من اعتادوا من الأهلين موافاتهم بالندور والقرايين. فإذا أرسلت إليه بنصف الجيش وحجزت هنا الآخر ألقيت بينه وبينهم بذور الأضغان والحزازات فجئيت من ذلك تحقيق الأمانى.. وقد اعتزمت تسفير حامية منقيس- وهى على ما تعلمين من المظاهرة بالعداء لى- إلى بلاد النوبة لأتقى شرها وأمن خطرها. ولما كان سكان طيبة راضخين لأوامر الكهان عاملين دائماً به ايرسمونه لهم من الخطط فسيغتنم الكاهن الأعظم فرصة اجتماعهم في الغد للمقارنة بين الأسرة الملكية التى انتزعت من يدها أزمة الأحكام وبين الأسرة المالكة الآن. ولا يبرح عن بالك أنه طرد من الهيكل الأمير راميرى ابن رعمسيس. وهو لن يأذن لبنت أنات في شهود ما سيقام في الغد من الحفلات ، وبهذه المعاملة التى تحط من مقام الأسرة المالكة تثور خواطر الأهلين وتنفض القلوب من حول هذه الأسرة. ولنا في موت بعض الحيوانات المقدسة أخيراً خير معين على قضاء مآربنا، إذ

ما برحت النفوس تحت تأثير الأسف والحزن لهذا الحادث المكر، ومعناه أنها قابلة للانفعال بغيره من المؤثرات. ولا تنسى أن رعمسيس لن يستطيع الاخفاء على أمة الريتاس لتذمر جيشه من استطالة الحرب، وها قد كاد التذمر يتحول إلى تمرد ومروق عن الطاعة، فإن نجح في سعيه تحققت الآمال بلا معاناة قتال. ولكن لا مندوحة لنا في ذلك من الإسراع بالجزم والثبات على العزم.

قالت: لم أعد أراك الآن على ما ألفيته فيك من البطء والتوان.

قال: إنى إذا طلبت السرعة فما هو إلا لأنى لا أرى من الحكمة إعمال الروية في مثل ما نحن فيه.

قالت: وماذا تفعل لو درى الملك بما تدبره له من الدسائس؟

قال: هذا ما لا أحب النظر والروية فيه، خلافاً لعادتي. قالت: لا يسعنى إلا موافقتك على المبادرة والعجلة، ولكن لا مناص من إتخاذ الحيطة التى من أهم وسائلها الاستيثاق من وصول رسائلك إلى معسكر الملك فى الأسابيع السابقة على اليوم المضروب لإنفاذ مشروعنا.

قال: ها قد وافق خاطرك لثانى مرة خاطر الكاهن، وهو ما يدل على سداد رأى وصواب حكمى، فلقد أوصانى أمينى بما توصينى أنت به الآن، لأنه ما من كتاب يُرسل من خط الحصون الممتد بين (بيلوز) والبحر الأحمر إلا ويصدر بأمر الملك رعمسيس. وحيث كان الأمر كذلك فإنه لا يصل إلى فرعون من رسائل سوى التقارير التى تتضمن الشكوى من تعديات أهل الصحراء وسلبهم القوافل ومهاجمتهم حملة البريد والعساكر المنوطين بحراستهم.

قالت: إذا كان الأمر كما تقول، فماذا يمنعك من مراقبة موانىء البحر الأحمر

وملاحظة حركات الكتاب ومحرفى الرسائل، حتى إذا جلست على تخت الملك ميزت بين أوليائك وأعدائك؟.

قال: إن الحيلة التى تحضينى على اتخاذها تخرج موقفى، ولذا كان الأولى ألا أكلف نفسى استقراء أحوال من يخدمون أميرهم بالأمانة المطلوبة منهم.. ألا ترين أنه من المتعذر التماس المنفعة ممن لم يستحوذ على تمام الثقة أو استعباد من على شاكلته؟.. لا تخجلك يا صديقتى هذه الملاحظة فإننا قد ربطتنا ببعضنا أصرة القرابة ورابطة المصلحأ. وإذا كشفت لك عن ضميرى فليس فى ذلك ما يبعث على العجب .

قالت: أصبت ولست أطلب من الجزاء لنفسى ما يعدو أن تسترد أسرتنا الكريمة حقوقها الشرعية الموروثة وأن تجلس على عرش الملك من جديد.

قال أنى: لعلنا نوفق للنجاح فى مشروعنا، ولكن نجاحنا تعوزه السرعة مقرونة بالثبات وإلا.. أعينى ببصرك واسعفينى بتأييد نيفرت ابنتك على معرفة هوية عاشق بنت أنات. فارتعدت فرائص راتوتى لسماع هذا الكلام لأنها لم تأنس من أنى مجاوزة الحد فى الجرأة، ولكنها عملت السكون وأخذت تسرد أسماء أشرف شبان طيبة. وقالت: أفلا يكون حبيبها أخاها (ساموس)؟.. ولكنه بالمعسكر الآن..

ما بلغت هذه الكلمات إلى أذن نيمو وهو قابع فى مخبأه حتى برز منه مقبلاً على راتوتى وأقبل يبدو عليه من السكىنة والاطمئنان ما يوقع فى وهم الناظر أنه أت من الخارج وأنه يجهل ما دار من الحديث بينهما. ثم قال بعد السلام: أتأذنين لى بالكلام يا سيدتى؟ إن عندى من الأخبار ما يقضى بالعجب. قالت: هات ما عندك. قال نيمو: ذاع على السنة العامة أن الأميرة بنت أنات شغفت حباً بشاب من كهنة بيت سىتى. فما كاد نيمو يتم كلامه حتى تحركت فى أنى عوامل الغضب وقال: إنك لدنىء

وقح!.. وهل عندك من الدليل ما تعزز به دعواك؟ ان يكن عندك فاذا سلك
لسانك من قفاك. قال نيمو: لسانى ملك يمينك فافعل به ما بدا لك، بل قطعه إرباً إذا
لم يتأكد لك قولى.. بهذا تقضى القوانين والخضوع لها فرض واجب.. أتصل بك من
غير شك ما قرر، الكهان من تلوث بنت أنات بالدنس لدخولها بيت المحتط.. فى هذا
البيت دارت المحادثة الأولى بينها وذلك الكاهن. أما الثانية فكانت فى هيكل حاتاسو
حيث فاجأهما سبتاح رئيس المنجمين.

لزم أنى الصمت عاماً ثم سأل: ومن هو ذلك الكاهن؟

أجاب نيمو: فقير لا حسب له ولا نسب، وقد نظم فى سلك طلبة بيت سیتی رحمة
به فحذق العلوم واشتهر بالنبوغ والتفوق فيها، ولا سيما فى تأويل الأحلام
وقرض الشعر، أما اسمه فبنطاؤر. وهو شاب جميل الطلعة تلوح عليه علامات
الشرف والرفعة. ويقول الكثيرون إنه بوالد بعاكر أشبه من هذا به، أفنظرتة؟

أجاب الوالى وقد أحفظه هذا القول وغازله: نعم.

قالت راتوتى: إن ما رواه نيمو هو الصحيح، فقد رأيت بنت أنات قد علا وجهها
الاحمرار إذ حادتها شقيقها راميرى فى أمر احتوى ذكر الشاعر بنطاؤر، فلا ريب
أنها كانت تفكر فيه.

قال أنى: لسوف يبرح الخفاء وتحل العضلات. ثم خرج مهرولا.

ما اختفى أنى عن الأنظار حتى خاطبت راتوتى نفسها بصوت جهير: لقد نهض
الدليل اليوم على مضاء عزيمته وشدة عارضته ولكن صبراً، فلن تمضي أيام
معدودة حتى تدب عقارب الغيرة إلى فؤاده فيضطرب باله ويلجأ إلى ويعول فى
أموره على.

أما نيمو فقد انطلق راکضاً في أثر الوالى فأدركه بالقرب من أشجار التين وأطرق رأسه احتراماً وبادر مسلماً تكريماً وإعظماً، ثم قال بصوت خافت: أيهذا الأمير الماجد... إن لوالدى دراية تامة بأسرار ذات بال ليس لها بما كاشفتك به أى اتصال ، وإذا كان اللقلق^(١) المقدس لا يعوقه مانع عن خوض المستنقعات الراكدة لالتماس الحشرات المائية يتغذى بها كما لا يعترض الرجل الشريف ما يحول دون التقاطه الذهب الملقى في القمامة، أفلا تود أن تنتزل لسؤال العجوز عن تلك الأسرار دون أن تراها ولا تراك؟

قال أنى: قل ما في نفسك وأوجز.

قال نيمو: أدخل العجوز السجن، فإن أفادتك فائدة فيها خيرك ومصالحتك فأجزها بعض المال واطلق سراحها، وإن لم تفعل فأوجعها ضرباً حتى تكاشفك به لأنه سر غريب في بابه. فاعتلى أنى مركبته وقال لنيمو بعد إذ ألقى عليه بضع حلقات من الذهب: لسوف أنظر في هذا الأمر.

وكان الناس، يتواردون زرافات وشتى في الطرقات المؤدية إلى قصر الوالى حتى غصت بجموعهم. فلما رأى أنى ما هم فيه من هرج ومرج واختلاط واختباط ظن أنهم هبوا للثورة فسار بالمركبة سيراً وثيداً وأنفذ بعض الحراس ليوافوه بالخبر وينحوا الناس عن طريقه. فما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى عادوا وأخبروه أن لا اضطراب ولا ثورة ولا أخبار تثير الحزن، إنما هى مظاهر سرور أقامها الأهلون بمناسبة ما سارت به البشائر من ظهور معجزة بيت سیتی، وهى انتقال

(١) يسمى باللاتينية (أبيس ريليجيوزا)، وقد اختفى هذا الطير من مصر وكان منه بها نوعان كانا يقدمان قربانا للإله توت. وقال بلو تارك إنه بالنظر لفائدة هذا الطير في إبادة الحشرات المضرّة أقام المصريون الهياكل لعبادته.

قلب أمون الذى مزقه الذئب الخاطف إلى صدر النبى رونى الذى ختم أنفاسه فى اليوم السالف.

ما استقر هذا الكلام فى أذن أنى حتى هبط من المركبة وجثا على ركبتيه بينما كانت الجماهير يصفقون ببعض أيديهم على الأيدى الأخرى استحساناً لفعله ويقتدون به، وبسط نحو السماء يديه ليحمد الإله ويثنى عليه، ثم وقف بعد ذلك وانصرف متجهاً صوب القصر الذى خرج منه فى هذه الأونة برهط من العبيد يحملون خبزا على صفحات كبيرة وأخذوا يوزعونه على الأهلين الذين لهجت ألسنتهم بالثناء على الوالى وتحذثوا بكرمه وسخائه.

فقال نجار من طيبة لواقف بجواره: حقاً إن والينا رجل كريم . فقد أجزل لنا العطاء من الخبز الطريء والطعام الناعم.

وكان طفل عارى الجسد من المتشردين قد سمع هذا الكلام فوثب على رغيغ الخبز الذى كان صاحبنا يطيل فيه التأمل إعجاباً بطراته وصفاء مادته، فخطفه وراغ بين الناس روغان الثعلب، ثم ظهر فقال: اعطنى منه كسرة صغيرة وأنا أرده إليك. أجاب النجار: أه يا ابن التمساح ويا سلالة البله والحمقى.. إن وقاحة الأطفال من أمثالك قد أخذت بالزيادة فى هذه الأيام.

قالت امرأة شهدت الحادث : دعه يا ولدى، فالأطفال قد عضهم الجوع بنابه لبقاء آبائهم بميدان الحرب، ومن أين للأمهات القدرة على إعالتهم وهم لا غذاء لهم ولا قوام لحياتهم غير نخاع شجر البردى وبذور النيلوفر الأزرق؟

قال النجار ضاحكاً: ولم لا يداومون على التغذية بها؟ انظرى لترى الصحف مملوءة بها.

قال صانع الأحذية: لا بد أنه قد بات قرير العين مبتهج الفؤاد سروراً بنبأ المعجزة،
لأننى رأيتَه يجود بالعطايا الكثيرة على وجه لم نألفه من قبل. والمحقق أن هذا
السخاء كلفه ما! طائلاً.

قال خباز: لم نسمع بهذا ولم نره منذ زمان، ولعل الباعث عليه الابتهاج بما كان
من اختيار قلب أمون لجثة النبى رونى مستقراً له، وكان رونى نبياً لهيكل حاتاسو
وحاتاسو جدة الوالى أنى. قال النجار: نعم وقد فهمت الآن أن الكهان أنصار للأسرة
الملكية القديمة.

قال صانع الأحذية: هذا لا يحتاج إلى دليل .. واعتقادى أن الأحوال فى العهد
السالف كانت خيراً منها الآن، لأن الحرب غيرت معالم كل شىء حتى أصبح أشرف
الناس وأتقياؤهم يسيرون حفاة لأنهم لا يملكون ثمن حذاء. أما أسلاب الحرب
وغنائمها فهل رأينا منها الشىء الكثير؟ إن رعمسيس ابن رع من أبطال الحروب،
إلا أنه لا يبرم أسراً ولا ينقضه إلا إذا استشار الآلهة. وقد وضع لى الآن أنهم
يكرهون طيبة لأن قلب الحمل المقدس تخطى النيل وحلّ صدر كاهن من أنصار
الأسرة الملكية السابق..

فقاطعهُ خوَّاص كان حاضراً: حذاريك! فقد حضر أحد الحراس. قال الخباز:
استودعكم الله أيها الإخوان فإنى عائد إلى مخبزى لتهيئة الخبز، وليس بعازب
عليكم ما ساعانيه من جراء الاحتفال منذ الغد بأعياد الوادى.

فتنة س الحذاء الصعداء وقال: إنى راحل لممارسة حرفتى وأسأل هل منكم من
يطيق السير بلا حذاء فى طرقات مدينة الموتى، وكيف بغيره يقتفى أثر إله الآلهة
ورب الأرباب؟

قال الخواص: يبدو لي أنك كثير الريح.

أجاب الحذاء: هو كذلك كلما اتقن صناعتنا عملهم وعجلوا به.. وإنى لاسف لوجود المتقنين منهم بميدان القتال ولبقاء الأغبياء العاجزين عن أداء واجباتهم. أما النساء فقد طمحت زوجتى إلى اقتناء ثوب جديد للعيد وعقود تحلى بها أعناق الأطفال وسيعرزنا الإنفاق على القرابين نقدمها للموتى لنستحق عنايتهم إلى غير ذلك مما يربو كثيراً على ما أربحه.

قال الخباز: لما توفيت زوجتى أخذت على نفسى موثقاً بتقديم قربان صغير كلما طلع هلال ، وقربان كبير على رأس كل عام، ولكنى لم أحسب حساباً للمستقبل ولم أنظر إذا كنت أستطيع الوفاء بهذا النذر، فلما رأيتنى عاجزاً عن الوفاء به والتمست من الكهان إعفائى منه لم يحققوا رجائى فما برحت متقلبا في عنائى. وزاد الطين بلة أن زوجتى الشقية مازالت وهى فى عداد الموتى تجحد فضلى كما كانت تفعل وهى على قيد الحياة. فإنى كلما رأيتها فيما يرى النائم ألفتيتها عابسة الوجه تريد بى السوء وتنحى على باللوم.

قالت امرأة الخواص: لعلها فى الآخرة أبعد نظراً فى العواقب منها فى الأولى، أو لعلها عرفت من سابق معاملتك إياها أنك لم تكن لها وفياً صادقاً، ولا عجب فأرواح السعداء والأبرار تحيط بشؤون الحياة الدنيا.

قال صانع الأحذية: أقسم بأنوبيس صاحب السماء السفلى لئن خيرت لأطلبن الموت لنفسى قبل أن تموت زوجتى العجوز التى أوليها الحب والاحترام، لأنها إذا انتقلت إلى الآخرة قبلى وروت على مسامع أهلها كل ما أتيته فى الدنيا ثم تقمصت بشكل مما أميل إليه فستوافيننى كل ليلة لتذيقنى كأس العذاب وتلقى على من

الأثقال مالا طاقة لي بحمله، فلا يكون من الموت بدّ. قالت المرأة: وإذا قبضت روحك قبلها، أفتظن أنها ترباً بنفسها عن اقتفاء أثرك لتعلم ما ينتهي إليه أمرك؟

فتبسم الحداء وقال: إن يكن الأمر كما ذكرت فلا بأس من النظر وقتئذ في أحوالها الماضية. وإنى على ثقة بأن فيها ما يذممها إلى ، إلا أنني أخشى - إذا أنا فاتحتها في الأمر فحنقت ثم حلمت على بذاتها تريد أن تهوى به على رأسى - أن أقابل هذا الاعتداء بمثله.

فأخذت امرأة الخواص بيد قرينها وقالت: هلم بنا إلى المنزل، إذ لا شيء هنا يفيدك سماعه. فضحك الحاضرون جميعاً لكلامها.

وقال الخباز: لقد حانت ساعة الارتحال فإنى أود الوصول إلى المقابر قبل أن يولى النهار لأعد مكانا للبيع في عيد الغد. وقد تركت بضاعتي في مدخل الوادى ولا بد لي من نقلها. وأرجو منك أن تبعث لي بأولادك لأتحفهم بالحلويات والفطائر. فهل لك في مرافقتي إلى ذلك المكان؟ قال الخواص: إن أصغر أخوتي هناك يحرس البضاعة. وأرى أن أبادر بالانصراف لأعد المعدات التى ألفت بها نظر المشتريين والمشتريات. ولكن أفى النية أن يعرضوا في الغد قلب الكبش الذى توأطأت به أحاديث الناس؟.

أجاب الخباز: لا خلاف في ذلك ولا التباس.

وردة مصر

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارئ في ماضى الحقب إلى ثلاثة آلاف سنة وخمسةائة، فيجس إذ يتلوها كأنه يحيا بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثانى، وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والآداب، ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارهم الكهنوتية ويلم بالأسباب التى علت بهم فوق شعوب الأرض طرا في زمنهم

أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى

الدكتور ايرس الألماني

ونقلها إلى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجزء الثانى

مكتبة مدبولي

التاسعة

الجزء الثاني

من رواية وردة مصر

الفصل الأول

«مكائد ومصائد»

كانت المدينة في هرج واضطراب والأهلون في ذهاب وإياب ينصبون منها إلى المرفأ فينزلون في الزوارق ويشقون بها سطح الماء، قاصدين إلى الضفة الأخرى حيث المنظر أجدر بالاعتبار وأحرى، وكان الباعة وأعيان التجار بمدينة الأموات يتناقسون في نصب السرادقات وتزيينها من الزينات، بما يلفت النظر ويحير الفكر. ذلك لأنه كانت ستقام في الغد شعائر الاحتفال وتخصص الزوارق لنقل المتفرجين من رجال ونساء وأطفال. وكان الهرج داخل بيت سیتی مثله خارج الباب، ولئن تكن معجزة قلب آمن قد انصرفت نحوها العيون، وصرفت الهمم عن إعداد معدات الاحتفال بعيد الوادی، إلا أن الكهان والطلاب أتموا بالليل ما أغفلوه من هذا الباب، فكنت ترى فريقاً يتمرنون على إنشاد الأغاني الدينية وآخرين يمثلون فوق البحيرة المقدسة رواية هيراطيقية^(١) وجماعة غيرهم يُفرغون على تماثيل الآلهة الحلی

(١) كان في كل هيكل لقدماء المصريين بحيرة مقدسة. وذكر هيرودت في الجزء الثاني من تاريخه مارآه في بلدة (صا) من تمثيل الكهان للروايات ليلا بالقرب من بحيرة (بيت) المقدسة وقال إنهم كانوا يسمون الروايات بالأسرار الواجب كتمانها

والحلل^(١) وطائفة يدهنون بالألوان الرموز المقدسة التي تقادم عليها الزمان، ثم يعرضون للهواء جلود الفهود وثياب الكهان، ويخرجون من الخزانات المجامر والمحاجن والشارات والرموز وزورق الاحتفالات المقدس والمشاعل والآلات الموسيقية وينسقون كل هذا في المواضع اللائقة به^(٢).

وكان الأطفال يصفرون الأغصان لتزيين الجدران، ويرصعون بالزهر الأكاليل لتتحلى بها التماثيل، ويرفعون الرايات إلى أعلا الأذقال والساريات، ويفرشون الأرض بالبُسط الفاخرة وينثرون فوقها الأزهار الزاهرة. وكان مفتش القرايين وبعض الكتّاب يحصون في السجلات ما قدمه أهالى طيبة والأقاليم^(٣) لهيكل سیتی من الهدايا والهبات، من حبوب وماشية وما إليهما مما لا حصر لعدده. أما أمینی فكان يشرف على هذه الحركة مراقباً ومرشداً ولم يهمل شيئاً، فكان تارة يرى بين المنشدين ورجال المعجزات الذين يبهتون الناس بغريب الأعمال، وطورا بين المنوط بهم تدبير الأماكن لجلوس والى مدينة طيبة وأنبيائها ووفود الأمة المصرية الآتين من قاصى أنحاءها . ولم يغفل على الجملة شيئا حتى مصابيح الزينة ومجامر العطر

(١) يدل على أن قدماء المصريين كانوا يكسون التماثيل بالحلل الفاخرة ويزينونها بالحل النفيسة ما وجد على بعض هذه التماثيل من المسامير التي كانوا يثبتون الحلل بها عليها ، وكانوا يكسونها بها ثم يجردونها منها بطقوس واحتفالات خاصة موضحة في قانون الاحتفالات الدينية. وتحتوى نقوش هيكل أبيدوس (الرابية المدفونة) التي نشر مارييت باشا ترجمتها معلومات كثيرة تتعلق بتلك الاحتفالات لكل منها معنى رمزى خاص به.

(٢) يؤخذ من الرسوم والنقوش البارزة المحفوظة إلى الآن في بيت سیتی (هيكل القرنة) أن هذا الزورق المقدس كان يسمىه قدماء المصريين بسفينة سام.

(٣) تدل النقوش التي بالجانب الشرقى من هيكل القسونة على أن الوفود كانوا يأتون من أقاليم الوجه البحرى إلى طيبة لشهود الاحتفال بعيد الوادى.

الموضوعة في كل مكان لتعطير أرجاء الهيكل . وإن تأكد من حسن النظام واستقامة الأمور استدعى إليه في الحال الشاعر بنطاؤر.

وكان هذا الشاعر اللبيب قصد غرفة نبسشت الطبيب بعد أن ودع الأمير راميرى على أثر طرده من الهيكل، فألفاه بها في قلق وانزعاج لم يسبق له مثلهما، لأنه كان لا يكف عن السير فيها حائراً من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، يتأمل في قنيناته تارة وطورا في أقفاسه، وينحى بقدمه أنية بعض حزم النباتات الجافة ويضرب المناضد أحيانا بكفيه ضربا مسرفا. فلما شهد بنطاؤر ذلك أنشأ يقص عليه ما رآه في غرفته من الفساد والاختلال، إذ ألقى الطيور المحبوسة في الأقفاص ميتة والقرود قد التمس لنفسه مخرجاً من محبسه والأفاعى والحشرات الأخرى التي جعلها موضوع أبحاثه العلمية قد ذهبت بددا. ثم شرح حادثة القرد فقال:

ما أخبث هذا الحيوان! قلب الأنية التي تحتوى الجعلان وصندوق الدقيق المعد لغذاء الطيور، وألقى من النافذة ما وجده من المدى والمجسات والإبر والأقلام والبركارات. ولما دخلت الغرفة أتعرف أين رأيتة..؟ رأيتة بأعلى هذه الخزانة، وقد استحال لونه إلى أبيض ناصع، لأنه تمرغ في الدقيق فصار كعبد الطاحون. وأمر من هذا وأدهى أننى وجدت في يده كراسة كنت أدون فيها مشاهداتى، وملاحظاتى واستكشافاتى في تركيب أعضاء الحيوانات ووصفها. وهى خلاصة أبحاثى في بضع سنوات. وقد حاولت أن أقبض عليه، وكان يقلد حركاتى في تلاوته تلك الكراسة، فما كان منه إلا أن اندفع بوثة شديدة خارج النافذة ووقف بحافة البئر وأخذ يمزق ورق الكراسة ويلقى به فيها، فاشتد غيظى وطار عقلى فوثبت خلفه من النافذة للقبض عليه، فما كان منه إلا أن استقر في إحدى دلوى البئر وأخذ يهوى بها

الى القاع فجذبت الحبل لأرفعه فيها إلى ظاهر الأرض، ولكنه وثب منها وهوى إلى القاع، وفي يده بقية الكراسية المكتوبة بخطى.. قال بنطاؤور: إذن مات غرقاً ذلك الحيوان المسكين؟ قال نبشت: كلا، لأننى رفعت الدلو ثانياً إلى وهو فيها وعرضته لأشعة الشمس، فلما جف أكل بعض العقاقير والأدوية فمات ظهر هذا النهار، وماتت معه الحقائق العلمية التى قيدت فى كراستى أوأبدها. نعم، إن جملة من تلك الأبحاث والملاحظات ما برحت عندى، ولكنى أرى أنه لا غنى لى عن تكرار التجارب والأبحاث التى سبق لى القيام بها، وإنك لتستخرج من هذه الحادثة أن القرود كالرجال يعارضوننى فيما أقوم به من الأعمال.

طابت نفس بنطاؤور إلى سماع هذه النادرة اللطيفة، إلا أنه شاطر صديقه الحزن على فقدان الكراسية الفريدة فى بابها، ثم جال بضميره خاطر جعله يقول: إذا كانت جثة الحيوان لا تزال موجودة فلم لا تضعها فى مصل توت بالقرب من خزانة الكتب؟ ألا تدرى أنه من القرود المقدسة التى يشبه رأسها رأس الكلب؟.. ثم إن أمين خزانة الكتب ما أودعك القرد إلا لتعالج له عينيه، فهل ذهب عليك أنه سيطالبك به^(١)؟ قال نبشت: أما العلاج فقد تم وشفى القرد. قال بنطاؤور: أين جثته.. ألا تدرى أنه ربما طالبك بها؟ قال نبشت، وكان فى كلامه كالطفل الذى يحاسب على تفاحة أكلها: أو ترى أنه يطالبنى بها..؟ قاطعه بنطاؤور: يلوح لى وهو الأرجح أنك شرحت الجثة. قال نبشت: نعم شرحتها وقطعت القلب للبحث فيه. قال بنطاؤور: أنت فى جراتك على فحص القلوب كالمراة التى تغزو قلوب الرجال.. أو تستطيع أن تخبرنى بما آل إليه قلب الرجل الذى أعطاكه الشيخ بينم؟ فروى نبشت كل ما

(١) كانت القرد توهب للإله توت، وقد وجدت فى موميאות طيبة (هرموبوليس) صور هزلية تمثلها وهى مشغلة بالقراءة وعل جدار هيكل إيزيس (أنس الوجود) صورة منها .

حصل ولم يكتف شيئا ، إذ ذكر ما كان من مجازفة الرجل بنفسه واعترافه بأن البحث الدقيق فيه لم يوصله إلى حقيقة علمية جديدة ثم قال: ولعله قلب حيوان لا إنسان. على أنه لا بد لي من درسه وفحصه من إحدى نواحي العلم الأخرى، ومقارنته بغيره من القلوب. واعلم يا صديقي أنى انتويت مغادرة هذا المكان للدخول في طائفة المشرحين. وليس في قدرة مخلوق أن يرهقني بالعدول عن هذه النية، مع ما فيها من بواعث السقوط إلى الدرك الأسفل من الاجتماع الانساني. قال بنطاور: لاشك عندي في أنك تهذى ولا تقول حقا. قال نبسشت: لك أن تعتقد ما تريد وليس في اعتقادك ما يرجع بي عن تنفيذ ما اعتزمته. قال بنطاور: إن في شغفك بتشريح القلوب وشق الجثث ما تشمئز منه النفس وينبذه الذوق ولا يقره الطبع. وحيث إنك لم تستفد شيئا جديداً من بحثك في القلب كما تقول، فلم تكلف نفسك عملاً لا خير فيه؟ قال نبسشت: ليست نتيجة بحثي - حسناً وقبحاً خسارة أو ربحاً - مما يهمني شأنه. لأنى لا أقصد بأبحاثي وتحقيقاتي إلا الحقيقة المجردة وما يمكن أن ترمى إليه من فائدة للنوع الانساني. قال بنطاور: من قولك هذا يؤخذ أنه لا يعصمك من العيب بالأمن والإضرار بالناس عاصم من ضميرك، ما دمت معتقدا أنك بالطموح إلى استبطن خفيات الأسرار ترضى شهوات نفسك. بل بلغ من أمرك أنك - مع إضرارك بالناس عامداً - تلحق الضرر بذاتك، فتطلق مهنتك الشريفة لتمارس عملاً ليس من ورائه إلا السفال والهوان مضحياً في ذلك بما نسميه نحن الحقيقة والضياء والطهر. هس نبسشت لسماع هذه الكلمات بينما كانت تبدو على بنطاور علامات الغيظ والغضب، إذ أصفر وجهه وشجت عروق جبهته أنفة وكبراً، وقال للطبيب بلهجة حادة: أيها الغافل المغرور.. أخطر ببالك أنك ترى بعينيك وتلمس بيدك تلك الحقيقة الخفية، بل السر المكنون الذي عزّ مرامه منذ الأجيال على

فحول الرجال؟.. ألا تدرى أنك بإصرارك على الفحص في الثرى- كما يفعل المعتوهون- تهبط بنفسك إلى درك الأغبياء والبلداء؟. أما كان خليقاً بك أن توسع نطاق معلوماتك بدلاً من أن تحصرها في أضيق الدوائر.. حذاريك وأنت تجرى وراء الحقيقة الوهمية- التي لاح لعينيك بريقها فغرك سناؤها- أن تزل قدمك في مزلق الخطأ والغرور، فتتعذر عليك الإقالة وتصير إلى أسوأ حالة..

قال نبسشت: ما الخبر يا صديقي.. رأيت لو أنني ملكت الحقيقة من ناصيتها أكنت أكلف نفسى مؤونة البحث عنها وتتبع آثارها..؟ إننى كلما أمعنت في البحث وأدمنت المراقبة أحست نفسى ضرورة التوسع في العلوم. قال بنطاؤر: لست كما تعلم من تخدعه ظواهر تواضعك وحلمك، لأنى عالم بماهية الغرض الذى ترمى إليه بوضعك من خطورة الأبحاث التى تفرغت لها وتوفرت عليها. أنت لا تسلم بوجود شىء ولا تقر بحقيقته مالم تلمسه يداك وتنظره عيناك. رسخ هذا الاعتقاد في نفسك فلم تجعل لاعتقاد غيره سبيلاً إليها، وملك عليك إرادتك فأصبحت منه كمن يرضى البقاء ما عاش في سجن جدرانه المشاعر الخمس، ولكأنى بك قد غفلت عن حقيقة من أمهات الحقائق وهى أن من وراء المادة الواقعة تحت هذه المدارك ما يسمونه «ما بعد الطبيعة». قال نبسشت: ولكن هاأنذا أراك لا تحيط علماً بشىء منه. قال بنطاؤر: أو تجهلنى وتجهل نفسك ونحن من المطلعين على الأسرار الكهنتوية؟.. انه منذ صنع قائم الذات ومفيض الخيرات هذا الوجود بباهر حكمته أدرك الإنسان طبيعة المادة التى تجحد على وعلى نفسك العلم بسر تدبيرها وقوتها المحدثه. ولست فيما أسوقه اليك من أسرار ما بعد الطبيعة مبتدعاً ولا مخترعاً، بل ناقلاً ومعلنناً على الملأ نتيجة بحث الأمم الغابرة، وهى ثمرة جهودهم التى توارثتها الأعقاب على مر الدهور والأحقاب.. حقا إن علومنا ما برحت ضيقة الدائرة ولكن ألم يظهر في الشعوب أنبياء

صفت طبائعهم وسمت أحوالهم وولعت أذهانهم فاطلعوا على صحيفة المستقبل وأحاطوا بأسرارها من غير قياس على الحاضر المشاهد أو الماضى المعروف؟ ألم يبرز من بين الهمل وأفناء الناس من أتوا بمعجزات أدهشت العالم وامتدت نحوهم بسببها الأعناق؟ كل هذه المعجزات وما أشرنا إليه من الأنبياء بمستقبل الأحداث مخالفة في ذاتها للنواميس الطبيعية، إلا أن خروجها عن طور النظام المؤلف لا يستدعى إنكار وجودها. وليس أقبح في نظرى ممن ينكر وجود ما لا يقع تحت المشاعر والإدراك.. إن روح الألوهية منبثة فينا انبثاؤها في الوجود، فاذا اعتُبر الإنسان من ناحية الجثمان فقط فلا يكون كفؤاً لإحراز قصب السبق في العلوم العالية، أما إذا انفك من قيود الجثمان وحوّم في مسابح المراثيات الإلهية وتسامى عن أوطان الحدثان لسماع صوت الوحدانية فقد تجاوز الشأو وبلغ من المدى غايته القصوى. واعلم أن الأنبياء وأصحاب المعجزات لم يسطع عليهم سوى شعاع واحد من ذلك الضياء الأقدس، بل قطرة واحدة من عميق بحار العلوم اللدنية والقوة السرمدية التى لا حد لها ولا نهاية.. قال نبسشت: خلنا من هذا الكلام ودعنا من الأنبياء والمعجزات. قال بنطاؤور: كنت بادئ ذى بدء أعتقد أن نواميس الطبيعة التى أخذت نفسك بالبحث الدقيق فيها تكشف لك أوجه عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات، فلم إذن تجحد مظاهر الوحدة الربانية في هذا الكون؟ ألم تكن نفس الانسان بجرأ بعيد القرار، ألا تتعرض أجسامنا لما لا يخطر في الوهم والخيال من شواذ الأحداث؟ أما رأيت اليوم رأى العين قلب الكبش المقدس؟.. قاطعه نبسشت وقد احتدم غيظا: اعلم يا صديقى أن هذا القلب إنما هو قلب كبش هزىل اشتراه جندى ثمل بل رجل دنس بثمن بخس دراهم معدودة، ثم وضعته سرا يد محنط حقير في صدر نبيك المقدس روني.. أعلمت وأدركت؟

قال هذا وعمد إلى الخزانة ففتحتها وأخرج منها جثة القرد وطرحها أرضاً، ثم تناول أنية من حجر النهاء كشف عنها الغطاء وقال: رأيت رأى العين هذه العضلات المغموسة في الماء الملح.. هذه المادة التي لا حراك لها كانت ناعمة بنعمة الحياة والحركة، وكانت في صدر روني متأثرة بمختلف المؤثرات لما كان سيال الحياة سارياً في جسمه.. وإن تعجب مع هذا فعجب أن تقوم الأمة وتقع غداً لقلب الكبش وأن يحمله السذج والبسطاء في الموكب بأطراف الأنامل كما يُحمل على الأكف القائد المنتصر. ولقد كان بوسعي أن أثبتك هذا السر من قبل لولا ما وعدت الشيخ بينم من الكتمان.. ولكن ما ذا عراك وبمصابه دهاك؟

كان بنطاؤور في حديثه مع صديقه مولياً بجانبه يئن أنين النكل، ففهم نبسشت أنه متأثر بما سمع من قوله فدنا منه بحركة الغلام الذي يحس بوقوعه في هفوة ولا يجسر على طلب الصفح لنفسه، ثم ظل واقفاً خلفه متردداً حائراً حتى نهض بنطاؤور وبسط يديه نحو السماء وقال:

«إلهي أنت الواحد المتفرد بالبقاء المتوحد بالعزة والثناء، أنت مسير النجوم والكواكب في مسابحها الأبدية بمقتضى ما وضعت لها في سابق علمك من النواميس الثابتة والقواعد السرمدية، فلا تلجأ إلى الراحة والسكون أبد الآباد^(١). أنت تلقى الشهب- ليالي الصيف - من أوج الفضاء الذي لا نهاية له وتعلم أسرار الكون وتضع أمامي من الأمثال ما أستجلى منه الصدق والكذب، أحدهما في أحسن رواء والثاني في أقبح الاشكال، فتجنح نفسي إلى الحقائق وتميل عن المفتريات. أفض نورك على نفسي وابعث شعاعاً منه إلى فؤادي اهتدى به إلى الرشد في عمل والحقيقة

(١) كان يقرن ذكر الكواكب في النصوص المقدسة بأنها لا تلجأ إلى الراحة والسكون .

في قولى فأكون دائماً سالكا مسلك الحقيقة الأبدية ساعياً إليها بجميع قوائى».

قال الشاعر ذلك بعبارة شديدة التأثير في النفس، وكان نبسشت يصغى إليه كما لو أنصت لصوت منبعث من مكان يجهله أو لوسواس هاتف لا يدركه البصر، فتجلت لنفسه به محاسن ما بعد المادة فدنا من صديقه ومدّ إليه يده فضغط عليها بنطاؤر بعد إذ تناولها ضغطاً شديداً وقال: ما أشد لفحات الحزن الذى أحرقت ناره فؤادى! أنت تعلم مكانة الكاهن الأعظم أمينى من نفسى.. أما الآن فأه.. وقبل أن يتم كلامه سمع وقع أقدام، فلم تمض برهة حتى طلع على الصديقين شاب من الكهان طلب اليهما أن يجيبا الكاهن الأعظم ويتوجها إلى المكان الخاص بالمطلعين على الأسرار الكهنوتية فهرع الاثنان إليه، وكان قد تكامل فيه عدد الأعضاء وأضىء بأنوار متألقة السناء.

وكان أمينى في هذا الاجتماع جالساً على أريكة خاصة أقيمت تجاه مائدة مستطيلة الشكل وإلى يمينه ويساره أساطين الهيئة الكهنوتية، كل واحد منهم بحسب رتبته. وجلس تجاهه بقية الكهان الذين كانوا يرتدون ثياباً من التيل ناصعة البياض فُصلت على مثال نصفى دائرتين متحدتى المركز. وقد أقيم في بهرة هذا الجمع تمثال إلهة الحقيقة والعدل ونُصب خلف العرش الكهنوتى تمثال الإله توت وصورة أخرى تمثل إلهة طيبة وأمامهما رعمسيس الأول وسيتى يقدمان إليهما الضحايا والقرايين. أما بنطاؤر فجلس في أخريات القوم لحدائثة عهد انتظامه في سلك المطلعين على الأسرار الكهنوتية.

وكان البحث بينهم دائراً على احتفال الغد. فشكا الكهان قلة القرايين هذا العام، وقالوا: لعل الحرب استنزفت معين الثروة فلم تعد الأمة بقادرة على أن تقوم

بفروض الدين. ولاحظ غيرهم أن بهجة الاحتفال لا تكون بالغة قصارى درجات الكمال لغياب الملك وأسرته في الحرب، فقال آخرون ساخرين: ولكن له في طيبة ولدا وابنة يكون من الخرق في السياسة طردهما من هياكلنا فأسكت أمني الجميع وقال: لا يمكن لسبب ما أن يعود راميرى الى هذا المكان، لأننا طردناه نهائياً من مدارسنا. أما بنت أنات التي رأى كاهن هيكل آمون في تكسر وذلة وكعاعة أن يطهرها من الدنس فلا بد لنا من معاملتها بشيء من الشدة ، لأنه إذا خُلِقَ أبناء الملوك ليطلبوا في ظلال القصور ورفاهة العيش الاستمتاع بملاذ الحياة، فقد خلقنا باريء النسم لإعداد النفوس للحياة السرمدية. على أنه لا محل للخوف من أن يشوب بهجة الأعياد نقص أو فساد لأن الوالى أنى من سلالة الأسرة الملكية السالفة سيرز للجمهور في موكب فخم وزى عظيم، بل فيما يناسب نفوذه وقوته من مظاهر العظمة ومجالى الجبروت. ولا يرعكم قولى هذا أيها الأصدقاء والإخوان فأنتم الآن في ليلة حبلى من عجيب الحوادث بما المستقبل وحده كفيل بإظهار مكنونه وكشف مستوره في يوم واحد. ولست أخالكم تنقمون، إذا بزغت على الأفق في ذلك اليوم شمس تجمع إلى تائق الضياء لطف الحرارة فتطرح على أفراد أمة أضنتها أثقال الحروب أشعة ساطعة لطيفة. ولقد تمت معجزات جمة ترتبط بتلك الحوادث، إذ رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا حلو الشمائل مكللا بالتقوى والصلاح قد جلس على عرش (رع) وأنه كان يصغى لنصائحنا ويوفينا حقوقنا ويرد إلينا العبيد الذين انتزعوا من مزارعنا انتزاعا حتى أصبحت معطلة، بل كادت تصير خرابا لقله من يفلحها من عمال الحقول، ويهدم الهياكل التى شُيدت للآلهة الأجنبية ويطرد من أرضنا المقدسة جميع الدخلاء والمدنسين..

قال رئيس المنجمين: لعلك بكلامك هذا تشير إلى الوالى أنى، فما طرق هذا القول

مسامع الحاضرين حتى هاجوا وماجوا واختلط حابلهم بنايلهم. قال أميني بصبر وتؤدة بعد أن شابوا إلى السكون والصمت: إذا لم يكن هو فعله يشبهه. وليس بعازب عليكم أن روني كان من الموالين للأسرة السالفة، ولهذا حل قلب الحمل المقدس في صدره. وما هو إلا الغد حتى تقف الأمة المصرية على سر هذا الأمر الدال على عناية الربوبية بها ورعايتها إياها. وقد اتصل بي منذ ساعة أن قد وُجد عجل جديد في قطعان الوالى آنى بمدينة هرمونتيس ليقوم مقام العجل أبيس.

ما أتم أميني قوله حتى لاحت على وجوه الحاضرين علامات الدهش ولبثوا متحيرين في أمرهم زمنا استأنف أميني الحديث بعده، إذ قال: لقد عهدت إلى بنطاؤر مهمة الخطابة في عيد الغد، ولأنتم تعلمون أن الشيطان استفزه بغروره فصرفه عن الرشد وزين له قبيح عمله فأضله عن سواء السبيل، ولكنى رأيت الصفح عنه لحسن ماضيه في خدمة الدين وتفانيه في إعلاء كلمة اليقين. ولا يبعد علينا مع هذا أن ننظر في أمره متى تم الاحتفال. فإن كنتم لا تخالفون رأيى - وهو ما أرجوه منكم - فقل يا ولدى ماذا في استطاعتك أن تشنف به غدا مسامع القوم، وماذا اخترت من الموضوعات لتعالجه أمامهم بما ألفناه من فضلك ورجاحة عقلك ومتانة حجتك وعذب الفاظك وشرف معانيك؟

فأقبل بنطاؤر على الكاهن الأعظم وأنشأ يسرد الموضوع الذى وقع عليه اختياره. وكان الحاضرون يصغون إليه فأخذوا بسحر بلاغته وفي طليعتهم شأنه. فإنهم لم يسعهم إلا التثويه بفضائله والإطراء في مدحه بعبارات ساهمهم فيها الكاهن الأعظم، إلا أنه قال: ولكن خطبتك تكون بتراء وغير مستوفية لشروط الكمال كلها إذا لم تتناول معجزة قلب الحمل بالشرح المستفيض. فلا بد لك من

الإسهاب في موضوعه بعبارات الإعجاب والحماس والإطناب. قاطعه بنطاؤور وحدق بنظره في عينيه اللتين كثيراً ما نظم عقود الأشعار في وصف ما يتشعع منهما من بريق الهمة ومضاء العزم وقال بجهير الصوت: ولكن أرجو منك أن تخلينى من مهمة إعلان المعجزة على ملأ من الأمة. فبهت الحاضرون لاستدراكهم وثاروا حتى أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض متسائلين بالإيماء عن سبب هذا الرفض. ثم وجهوا أنظارهم جميعاً إلى بنطاؤور الذى كانت تبدو على وجهه علامات الثبات والعزيمة، ثم إلى أمينى الذى كانت تحف به هالة من الوقار والسكينة، فتبين الكاهن الأعظم من لهجة الشاعر أن الشكوك خامرت عقيدته وأخذ يضرب لذلك أخماساً فى أسداس. ثم لزمت السكوت زمناً رمق عقبه بنطاؤور بعينى المستثيت وقال له: لقد أصبت باعتراضك كبد الحقيقة يا صديقى، إذ الواجب التطهر من الدنس قبل الكلام فى موضوع المظاهر الربانية والتجليات الإلهية، وأنت لكونك لم تكفر حتى الآن عن سيئاتك لا يجوز لك الكلام فى هذا الموضوع، فاقنصر إذن على البحث فى الفضائل وحث الناس عليها. أما المعجزة فقد عولت على الإفاضة بنفسى فى موضوعها.

تلقى الحاضرون هذا الحل بالرضاء والارتياح، فختم أمينى الاجتماع موصياً بكتمان سر الرؤيا التى رآها ومستبقياً عنده من الحاضرين جاجابو وبنطاؤور. ولما خلا بهم المجلس قال أمينى للشاعر: قل لى لم رفضت البحث فى المعجزة الكبرى التى ملأت أفئدة الكهان بالسرور والرضى؟ أجاب بنطاؤور. رفضته لأنك فيما لقنتنى من المبادئ والتعاليم أوصيتنى بالحرص على الحقيقة، فأنا لا أجهر بغيرها. قال: أنا مازلت أوصيك أن تستمسك بها، ولكنى أناشذك بابنة (رع) هل تسرب إلى ضميرك الشك فى المعجزة التى رأيناها رأى العين؟ أجاب: نعم خامر ضميرى الشك فى أنها حقاً من المعجزات. قال: اشرح كيف استربت فيها، وكيف تلبدت فى سماء إيمانك

سحب الأوهام، وظنى بك أنك من المخلصين في خدمة الحقيقة؟

فرمق بنطاؤر الكاهن بعين يخامرها الأسف والإنكار وقال: إنى على يقين من أن القلب الذى ستحملة الأكف غدا ويحتفل به احتفال الظافر على مرأى من جماهير الناس ومشهد منا نحن معشر المطلعين على الأسرار الكهنوتية ونؤدى إليه إتابة التبجيل والاحترام إن هو إلا قلب حيوان دُس فى الآنية التى وُضعت بها أحشاء النبى روى ساعة تشريح جثته.

ما كاد أمينى يسمع هذا الاعتراض حتى تخبل فى أمره وتراجع إلى الخلف منزعجاً كالمنزول به. أما جاجابو فقد أردد ارتياعاً وحملت عيناه دهشاً وقال أمينى بعد أن رجع إليه صوابه: من هو الزاعم بهذا الادعاء وأين دليله على صوابه؟ لا بد أن يكون المرء ممن قوس الهرم ظهورهم وأكل الدهر عليهم وشرب لى يسمع مثل هذه المقولة ويسلم بها كأمر واقع. أجب: إن ما سمعته منى هو الحقيقة التى لا ريب فيها، ولن أبوح مادمت حيا باسم من سارتنى أياها. فواجب الأمانة يقضى بالكتمان. قال: لعل مشعوذا محتالاً استدرجك حتى أوقعك فى شباك ختله وغدره، فإن كان الأمر كذلك فلسوف يظهر أمره ويلقى من الجزاء أشده. إن الذين يضعون من مقام الألوهية ويصفون للأكاذيب يرتكبون إثماً غليظاً ويكونون من الضالين المضلين كمن ضلوا وأضلوهم. اعلم يا أعمى البصيرة ويأسىء السريرة أن القلب الذى سيعرض غدا على أنظار الشعب قلب مثلث التقديس. أسمع؟ وستلزم- إن اختياراً أو اضطراراً- بالركوع له. والآن أودعك وأتركك فى خلوة إلى نفسك لتفكر فيما ينبغى أن تقوله موافقاً لميول سامعيك. وأعلم أن الحقيقة درجات متفاوتات ومنازل مختلفات، وأن للألوهية أشكالاً لولا تباينها لعسر على العقول إدراك كنهها.

الم تر كيف تقطع الشمس والكواكب في مسابحها خطوطا هليجية لا منتهى لمداها مع ظهورها لعين الرائي مستقيمة لا عوج فيها؟ إن العلماء القائمين بإرشاد العامة في طريق الدين يذهبون أحيانا إلى الإتيان بأعمال قد لا تصل إلى فهمها مدارك الجهلة مع أنها لا تتعدى حدود الأعمال المرضية للألوهية، وهم مأذونون بعملها بل المتحتم عليهم القيام بها. أما علمت أن الغاية تبرر الوسيلة؟.. لعلك تعتقد أن الوسيلة إذا حادت عن الطريق المستقيم تعوج بنا عن محجة الصواب، والحقيقة هي أنها لا تفضى في الواقع إلا إلى الحق وتنكب بالمرء عن المزالق والمغالط. ولعلك تكون الآن أدركت يون ما بيننا وبينك، فنحن نقيس الأشياء بأشباهها ونعرضها على أصولها فنتجلى لنا أحوال المستقبل في ثوبها الناصع الذى لاشية فيه. أما أنت فتتصر فهمك على إدراك الحاضر دون سواه فيضيق على العقل مجال التصرف، ولا يفسح للادراك مدى القياس الصحيح. فواجب عليك الآن أن تسلم بصدق ما تعتقد صدقا وتجهر بأنه صدق لا ريب فيه. واعلم يا بنى أن الكذب يندس الروح وأن الشك يسطو عليها ويأكلها كما يأكل المبرد الحديد.

فاه أمينى بهذه العبارات وقد أخذ التأثر منه كل مأخذ، فلما انصرف بنطاؤر من حضرته سال جاجابو: ما معنى هذا.. من أفسد علينا هذا الشاب بعد أن كان كريم الخلق مهذب النفس؟ أجاب: هو الذى أفسد نفسه بانحرافه عن طريق التقاليد القديمة وشذوذه عن الأصول المرعية رضوخا لشهوات النفس ومضيا مع تيار الباطل. قال أمينى: إن يكن هذا اعتقاده الذى يتمسك بأهدابه فقد أخطأ، لأن القوانين لم يستأثر بوضعها مقنن واحد، بل اشترك فيها الجم الغفير من الاساتذة الفطاحل والثقات في العلوم الشرعية بعد صبر وأناة في التروى والملاحظة والمقارنة والتجربة. فالقوانين في اتساع نطاقها وانفساح مجال حقائقها أشبه ما تكون بأشجار الأجام

تبدأ صغيرة ثم تكبر حتى تصير بتوالى الأعوام أشجاراً باسقة ذات أغصان ممتدة وظلال وارفة.. إننى أحب الشاعر بنطاؤر وأميل إليه، ولكن حبى وميلى يدعوانى إلى كسر شكيمته وكبح جماحه، وإلا فلا تلبث أن نراه كالنيل يعلو ماؤه شيئاً فشيئاً فيطغى على الجسور ويفيض على الأرضين، ثم إن ما قاله الآن فى معجزة..

قاطعة جاجابو: لعلك أنت الذى أثار غبار الشكوك فى نفسه. قال أمينى: كلا. قال جاجابو مفكراً: ومع هذا فإنى أعهد فى بنطاؤر علو الهمة والصدق. قال أمينى: وأنا مثلك أعرف فيه هاتين الفضيلتين. ولذا سلمت من غير مناقشة بصحة ما نقله إلى من الأخبار، ولكن لا أدرى من الذى ارتكب الفعلة النكراء، وهى الإفضاء إليه بسر ذلك الحادث.

سكت الاثنان هنيهة بعد ذلك فقال الكاهن الأعظم: رأيت بنطاؤر ونبسشت داخلين فى هذا المكان، وليست بالسر الكمين صلات المودة بينهما، فأين كان هذا الطبيب أثناء وجودى بطيبة؟ أجاب جاجابو: كان يعالج فتاة المحنط بينم وهى التى دهمتها مركبة بنت أنات فأصابتها بجرح أليم وقضى فى العناية بأمرها ثلاثة أيام. قال أمينى: بما أن هذا الشيخ هو الذى حنط جثة النبى رونى فقد فهمت الآن كيف غشيت الشكوك عقيدة بنطاؤر.. لا بد أن يكون الشاب الطبيب هو الذى أفسد عقيدة صاحبه ولسوف يقر بهذه الحقيقة. والآن لا تنصرفن خواطرنا إلى غير الاحتفال بالعيد، فإذا كان يومان أو ثلاثة أيام بدأنا بسؤال المجرمين وأوقعنا بهم العقاب المهين. قال جاجابو: الرأى عندى أن تسأل الطبيب فيما تعزوه اليه من التهم. ولا تنس أنه ممن رفعوا الهيكل إلى نرى المجد والشرف بسعة العلم والحدق والكياسة فى العمل. قال أمينى: خلنا من هذا الآن فإن لدينا من الامور الخطيرة ما هو أولى

بالبحث والاستقصاء. قال جاجابو: أرى في تأجيل البحث في المسائل المهمة ضرراً بالغاً بل مصاباً فادحاً، إذ لا يغيب عنك أننا بتنا على قيد أئمة من الهلاك. حقا إنى شيخ قد تضعضع بالهرم ركنه ورق بالضعف جانبه، ولكن الخطر لا يروعنى وإن جل، وكفى أن أذكرك بسُلطان رعمسيس وجبروته وأحذرك التخبط في تيار الانتقام، فإنك لن تجنى منه غير الغمط من ححك والنيل من حميد سيرتك وإصاق تهمة القسوة والصرامة بما سرى مسرى الأمثال من رفك وسلاستك.

قال أمينى: لم أبغض رعمسيس قط ولن أبغضه أبد الآباد. ولولا أنه القابض على صولجان الملك اليوم لكنت أقرب الناس إليه والحظى من دونهم برعايته.. لقد تبينت أطواره واستقصيت أحواله وأسراره فما وسعنى إلا احترامه لشرف صفاته ونادر فضائله وواسع إدراكه. غير أنه قد كاشفنا بالعداء والبغض لا كراهية في ذاتى أو حقداً على شخصك، بل كراهية في مبادئنا وغيظنا مما تطمح إليه نفوسنا. ولو كان أقل شوكة ونفوذاً مما هو في الحقيقة لما تعذر علينا الخلاص منه بوسيلة ما. أما الآن وقد علمت ما له من قوة ونفوذ فلا بد من اتخاذ التدابير للفتك به.. ولا يفزعك ذلك لأنه انصرف عنا فاستغنى عن مشورتنا وأنكر علينا حقوقنا وانتهك حرمة امتيازاتنا وغض من كرامتنا بما يستفزنا للدفاع عن حقوق طائفتنا. أما الوسائل التى سنتذرع بها لنيل هذه الأمنية فجائزة لا يحرمها شرع، لأنه لما كانت حقوقنا مستمدة من حقوق الآلهة فالكذب في سبيل الدفاع عنها يجب اعتباره صدقا. واعلم انه إذا أفلتت أزمة الحكم من أيدينا ولم تكن لنا سيطرة فيها ولا نفوذ فقد سقطت مكانتنا إلى حيث تتساوى مع العبيد والأرقاء.

وافق جاجابو على هذا القول بإيماءة منه واستأنف أمينى حديثه متخيلاً أنه

يخاطب الشعب فقال: لقد كنت مولاي وسيدى فاحترمتك وأحببتك، فقف إذن على الأسباب التي دفعتنى إلى هذه الحرب.. لقد ربّيت مع رعمسيس في هذا الهيكل الذى قضت حكمة أبيه الملك سيتى أن يختلط فيه بسائر أبناء طبقات الأمة. وكنا فى الآن الواحد صديقين وخصمين، ففى الدرس واللعب كنا كفرسى الرهان فى احراز المكافآت المقدرة للفائزين بالسبق. وكان من أخص فضائله قوة الإدراك وسرعة الخاطر، ولكنى كنت أمتاز عليه بالمثابرة على الإصغاء. وكان محبا الحركة نزقا بينما كنت ميالا إلى السكون والرصانة، وظل كل منا فى مدة التلمذ متصفا بهذه الصفات التى أمتاز بها على نده. فلما ألقىت أزمة الأحكام إليه دفع بالبلاد إلى حرب الفتوح والتوسع فى الملك، فأظفرها الإله بأعدائها إذ فازت فوزاً مبيهاً فى وقائع كثيرة كان هو بطلها المشار إليه بالبنان. فتفرغت للدرس والبحث فى التقاليد القديمة وأحوال الأمم الغابرة فى أخلاقهم وسيرهم، فثبت لى أنه لولنا معشر الكهان لأصبحت مصر خرابا يبابا، إذ من هم الكهان؟ هم كل شىء فى العالم. وما هى المهمة التى وُكِّلَ إليهم أداؤها؟ تسكين كل ثائر وإرشاد كل ضال. فالملك ذاته ليس هو فى الحقيقة إلا فرعاً من روحنا وقبسا من نارنا وشعاعاً من ضيائنا، وإن يكن شيئاً فبكونه الواسطة بيننا والأمة التى يحكمها بسلطان القهر والإرهاب. وهو إذا قاومنا فى أمر أو اعترض علينا أو عدل عن التماس مشورتنا فى سياسته فليسقط من علينا عرشه. هذا ما كان يجب أن تكون عليه الروابط بيننا والملك، وهو من الأصول التى حافظ عليها سلفنا الصالح من الكهان. أما الآن فقد تبدلت الحال غير الحال، إذ أصبحنا بأيدي الملوك آلة يتقون بها شر الأمة، ولا سبيل الى أن تحترم الأمة أميرها القابض على زمام الامور مالم تحترم الآلهة قبله. فإذن يكون الكهان قوام الملوك وعمادهم فيما يجرونه من الأحكام على رعاياهم. ولقد كان سيتى ملكاً جريئاً عزيز

الجانب مرهوباً ومحترماً، لأنه كان موفقاً للنجاح في أعماله ولأن محاسن الفرص جاءت إليه منقادة فهمً بانتهازها، وجرى رعمسيس على منهاجه فتراه شديد المحافظة على الصلوات وتقديم القرابين، حريصاً على صيانة الطقوس والتقاليد فلا يكف عن التنبيه على إشعال المصابيح وإحراق البخور في المجامر والترنم بالأناشيد الدينية وتفسير الأحلام، إلى غير ذلك مما لا يسع سرده المقام. ولكن مع هذا كله أرايتنا ولاشئ عند الناس كلها أكبر منا قد صغرنا عنده حتى صرنا كلا شئ؟.

أرايت كيف تهاون بنا وأصبح لا يعدنا شيئاً ونحن نحن؟ أما ينبغي أن نكون منه بمنزلة المشير والناصح، بل أن نملى عليه أوامره وأحكامه! ولقد حاول الكاهن المحترم الذى حللت محله أن يفرض على سيتى الأول الأخذ برأيه من العدول عن إيصال بحر الشمال بالبحر الأحمر المدنس الماء^(١) وجاهد عنده في ذلك جهاداً لم يقتنع معه بأن ذلك المشروع لا يعود بالفائدة على غير الآسيويين. وأنا.. هل تمكنت من حمل خلفه رعمسيس على إبقاء تقسيم مصر القديم إلى أقاليم كما هو والعدول عن تعديله، مع ما بذلت من شتى الوسائل لإقناعه بضرر التقسيم الجديد؟ وهل ازدجر بنصائحنا المتعاقبة حينما أثبتنا له ضرر تجهيز المعدات للقتال وتسيير الحملات لمحاربة كبار الأمراء والأفيال؟.. ألم يذهب به تجاوز الحد في العدوان إلى حشد عبيدنا وعمال أراضينا مخالفاً بذلك التقاليد القديمة والقوانين النافذة؟ ألم

(١) كان الفينيقيون قابضين على أزمة الملاحة في البحر الأحمر الذى كان معروفاً في ذلك العهد باسم «البحر المغطى بنبات الديس»، وكانوا يتجرون فيه بالمواد العطرية المستوردة من بلاد العرب وبالذهب الذى كانوا يستوردونه من بلدة زفر (كان يقال إنها بلدة في اليمن)، وقد خطر ببال الملك تيخؤس أن يجمع بين البحرين بترعة توصل أحدهما بالآخر ولكنه عدل عن هذا المشروع لأن الكهان قالوا إن الهواتف أخبرتهم بأن فائدته ستكون مقتصرة على الأجانِب دون المصريين، إذ يمكنهم من الإيغال في مصر والاستيلاء عليها «انظر الجزء الثانى من تاريخ هيرودت».

يخرج به الشطط في الاعتقاد الدينى الى تشييد الهياكل لآلهة الشرق الكاذبة السفاكة للدماء، بعضها على سواحل البحر والبعض الآخر في منفيس وطيبة! قال جاجابو: أصبت فما نحن الآن إلا كهانا بالاسم، يدل على ذلك ما قاله رعمسيس من أن مهمتنا دينية محضة يجب أن تقتصر على إعداد الناس للحياة الأخرى وأن عليه هو إرشادهم في الحياة الدنيا. قال أمينى: أعلم أنه قال ذلك وهو بهذا القول قد أثم واعتدى. وهل نسيت أنه وأركان أسرته قد اعتدوا على حقوقنا وامتيازاتنا التي يتوقف على صيانتها مستقبل هذه البلاد، وهل أنا بحاجة إلى تذكير أن رعمسيس مدنس الأصل قذر الجرثومة؟ ألم يكن من سلالة أولئك اللصوص الذين انقضوا على بلادنا انقضاض النسر الكاسرة وانتشروا فيها انتشار الجراد الفاتك؟ ولقد صد أجداد أنى غارتهم الشعواء، ولكن جد الأسرة القابضة الآن على زمام الأحكام من أولئك العرب العمالقة استأذنتهم في المقام مع أبنائه بوادى النيل فأذنوا له، فما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى فاز هؤلاء الأجانب المعروفون بالبسالة ولين الجانب، بالزلفى من الأمير الحاكم فتوجه الايثار منه إليهم وانبسط له الجاه عندهم، ومازالوا به حتى استقر نفوذهم على أسس متينة واستمالوا رجال الجند إليهم بإفاضة الأموال فيهم وسن الجوائز والصلوات لهم فتمكنوا بواسطتهم في النهاية من ثل عرش الاسرة الملكية السالفة وإلقاء سمائها عليها.. ولست بمنكر عليك أن جماعة الكهان الصادقين كجدك وجدى أخذوا بناصرهم وحوّموا عليهم لما جال في ظنونهم من أن الأسرة الجديدة التى خلقت بهم ستعيد ما انطمس في عهد سالفتها من معالم التقاليد القديمة. وليس هذا بالأمر المستغرب، فإن لنا في غضون الأجيال المنصرمة أجداداً يفوقون المائة عدداً أحرزوا جانباً كبيراً من النفوذ والسلطان فسارت بذكرهم الركبان، وأشير إليهم في وادى النيل بالبنان.. وأن كهانا كثيرين غيرنا قد كرمت أحسابهم ورسخت أنسابهم.. ولكن كم لرعمسيس من الجدود يسمو بهم إلى ذروة الشرف؟ هب أن له عشرة جدود، ولكن بأى أصل يتصل أولهم

وأية دوحة هو غصنها؟.. ألا ينتسب إلى جرثومة (الأمو) تلك القبيلة المعروفة عندنا
بخبث الطبع وندس الأصل؟.. ألا يكون الأمير القابض على زمام الحكم الآن وهو
ذلك المتهاثر الجزوع سليل الساميين.. إنه يسمينا بالفلاحين استخفافاً واحتقاراً
ونحن لا ذنب لنا ولا عيب علينا إلا أننا نقوم بأشرف الأعمال التي قام بها أبائنا من
قبل في سكون ورضاء وصبر.. أما هو فليتماد فيما هو فيه من الحركة والانتقال
ومتابعة الهوى بإضرار نار الحرب والقتال ومد الأيدي للنهب والاغتيال.. ومن
غريب شأنه أنه كلما أشرفت خصوبة الأرض على النفاد لامناص له من مغادرة
البلاد وانتجاع الوهاد والنجاد، مقتدياً في ذلك بأبيه سیتی الأول.. يقيم في طيبة يوماً
أو أياماً أو شهراً أو عاماً ثم يفاجئك بشد الرحال قاصداً إلى قارة آسيا محط الآمال..
حقاً قد كان الأجنبي وما زال سبب ما تعانيه مصر من صنوف البلاء، يعبد الأصنام
والأوهام.. فليسقط ذلك الغاصب وليذهب هباء!

بإدر جاجابو بمصافحة أميني وصوت: ليسقط الغاصب وليذهب هباء. قال
أميني: لا يذهب عليك أن أنى ركب من طينة مصر، فهو بيضة بلده وقتى قومه بل
سلالة ملوكها الأولين. ولقد اشتهر بالدهاء والحيلة، ولكنه يحبنا ويحترمنا، وإذ
كنت أدرى الناس بما يجعله من القيود وثيق الارتباط بنا، فقد عولت على تنفيذ ما
عقدت النية عليه لتأييده. فهل لك في مشاركتي لتحقيق أمنيته؟ قال جاجابو: إنى
مشارك لك قلباً وقلماً وسراً وجهراً. قال أميني: هذا ما كنت أتوقعه من ودك القديم
فغليك إذن بإضرار نار الحمية والحماس في أفئدة أصحابنا، وتفهم الطلبة والمطلعين
على الأسرار الكهنوتية أنه إذا أجزى لهم فهم ما يتهدى الآن من الحوادث فليس لهم أن
يفشوا سرها وإلا نزلت بنا وبهم الكوارث.

الفصل الثانى

«كيف كان الإله يعبر النيل.. فى عهد رعمسيس الجليل»

بزعت شمس اليوم التاسع والعشرين من الشهر الثانى التالى لفيضان النيل^(١) فشوهدت عند أبواب أحياء مدينة طيبة وربوعها جموع من النساء بحلاهن متحليات، وأفواج من الرجال والأطفال والجند والعبيد ينتظرون بذهاب الصبر ساعة بزوغ الشمس. وكان الكهّان يتأهبون للتغنى بالأناشيد المقدسة وعامة الأهلين يستعدون للسير فى الموكب الدينى والطواف حول أسوار الهيكل المقدس وعبور النهر فى الزوارق والسير بعد ذلك صفوفًا منتظمة فى الطريق الذى أقيمت على جانبيه تماثيل أبى الهول، مفضياً بسالكة إلى هياكل المقبرة. وكان من العادات المرعية فى هذا الاحتفال أن يُحمل آمون إله طيبة إلى مدينة الأموات ليقدم القرابين إلى آبائه الآلهة ويجعل نفسه قدوة لعابديه فى احترام الحياة الأخرى ومحبة الآباء. ولا عجب إذا رُتب الاحتفال على هذا المثال، فإن هذا الترتيب يشير إلى معنى جليل لا يعزب عن الأفهام. فقد جعلوا الضفة الغربية من النيل مستقراً للموتى يلتمسون فيه الراحة الأبدية، لأن الغرب تستتر وراءه الشمس الأكلة، تسبقها إليه فيه شمس وتتلوها شمس، كلها بنات الليل ومستحدثات الظلام. فالضوء الجديد يلبث

(١) هو يوم ٢٩ من شهر بؤونة وكان المصريون يقسمون السنة إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة أشهر وهى: فصل الفيضان وفصل البذور وفصل الحصاد، وتسمى باللغة المصرية القديمة (شا) و(بر) و(شيمو)، وكان الشهر الثانى من أشهر الفيضان يدعى بؤونة. وكان فى التاسع والعشرين منه يوم الاحتفال بعيد السوادى وهو يوافق ٨ نوفمبر من السنة الشمسية الميلادية

مغموراً بما انعكس من أشعة الضياء المستتر الذى استمد منه سناءه المتألق، وإنما يؤدى آمون فروض التمجيد والتكريم للشموس الأفلة كى يتعظ الأحياء به ويقتدوا بفعله فلا يمحوا من صحيفة قلوبهم ذكرى الموتى الذين استمدوا منهم الحياة وفازوا بنعمة الوجود فى هذا الوجود.

على أن النصوص المقدسة صريحة العبارات واضحة المعانى فى هذا الباب، فقد جاء فيها أن الواجب تقديم القرابين لروحى الأب والام اللذين دُفنا فى القبر، لأن تمجيد الآلهة يقتربن بتمجيدهما. وجاء فى تلك النصوص أيضاً أن الواجب على المرء أن يزور موتاه إذا أراد أن يحفظ أبناؤه ذكراه.^(١)

هذا العيد السنوى للموتى لم يكن فيه شىء من شارات الحداد كما يوهم مدلول اسمه، إذ كان المحتفلون لا يبثون صيحات الحزن ولا يبكون. بل كانت وجوههم ناضرة ومخايل السرور على شمائلهم ظاهرة، لا تلهج ألسنتهم إلا بترديد آيات الحمد وإحياء ذكرى من طوتهم الأرض، بالمطارحة فى محاسن سيرتهم. وكانت الأسر تمد الموائد أمام المدافن والطرقات غاصة بالجموع، حتى كنت ترى الآباء والأمهات والأطفال من الأسرة الواحدة متماسكين بعضهم ببعض، خيفة أن يضل أحدهم فلا يُعلم له مستقر فى هذه السيول المتدفقة من الخلق. وكان العبيد يتبعون موالبيهم حاملين على رؤوسهم ما يعوزهم من الغذاء وأدوات الاستصباح يسرون على ضوئها فى كهوف المقابر ويهتدون بها فى الطريق لدى العودة. وكان لسراة المدينة وأغنيائها زوارق خاصة بهم نمقوها بما يعجز القلم عن وصفه من

(١) انظر ملحوظات المسيو ماسبيرو على أوراق البردى الموجودة بمتحف باريس، وانظر أيضاً ورقة البردى نمرة ٣ المحفوظة بمتحف مصر.

الزخرف البديع والتنسيق الإنيق. أما الفقراء فكانوا ينزلون جماعات كثيرة في القوارب متزاحمين متراكبين بعضهم على بعض حتى يبلغوا إلى الضفة الأخرى فينسابوا منها انسياب الماء من الجدول على بساط الأرض.

وكان المحتفلون على تفاوتهم في المراتب وتباينهم في الدرجات ينتظرون بذاهب الصبر مرور الزورق المقل للإله آمون. ونذكر هنا أنه كان لا يوجد في أطفال طيبة طفل لا يقضى ليله مفكراً في جلال هذا الزورق وجماله معللاً النفس بأمنية مشاهدته في الغد. ما ذلك إلا لأن العناية بزخرفته كانت تتجاوز حد الإقتان، حتى كان يماثل الزورق الذهبي الذي يعبر عليه إله الشمس ورفاقه في كل نهار أقيانوس السماء ذات اللون اللازوردى.

وكان على مدرج هيكل آمون- المفضية درجاته إلى نهر النيل وترتطم بالأخيرة منها مياهه المشبعة بالطمى- جم غفير من الكهان، وفي المسالك المؤدية إلى الهيكل وعلى ضفة النهر أقوام لا يحصى عديدهم، شاخصة أبصارهم صوب جهة واحدة، كما كان غيرهم ينسلون إلى الساحل مقبلين من كل فج وحذب، لشهود الموكب خارجاً من الهيكل في جلال أبهته وعزة فخامته فلا يفوتهم هذا المنظر البديع المنقطع النظر، فخلت المدينة من سكانها وكادت الطرق تصبح قفاراً والديار معطلة من الأنيس. فلما أزف الموعد الموعود والأجل المحدود لتحرك الموكب ولم يتحرك بعد، أخذ الناس يتساءلون عن السبب لا سيما وقد كانوا يرون في الكهان قوماً موفين بالعهد محافظين على الوعد، وأخذ الضجر يشملهم شيئاً فشيئاً حتى إذا لم تعد لهم طاقة على الصبر انتشر بينهم الخبر بأن سبب تخلف الموكب عن المسير غياب أعضاء الأسرة المالكة، وكان من عادتهم فيه الحضور للأنبيثا بين الجماهير والاختلاط

بأفناء الناس والسير على الأقدام من القصر الملكي الى الهيكل الربانى. وأضيف الى
ضجرهم وملهم الانتظار التخبط فى تأويل غياب بنت أنات عن الاحتفال وقد كانوا
يرون حضورها من بواعث الكمال له والجمال.

وبينما القوم فى حيرة التساؤل إذا بأصوات الكهان يرن صداها فى الأذان، منبعثة
من فناء الهيكل المقدس خلف الاسوار العالية. ولم تمضِ برهة على ختام هذا النشيد
حتى اجتاز أنى بابه فى موكب تحف به المهيبه ويعلوه الوقار، لأنه ما كاد يبلغ إلى
هذا الباب حتى انشق سريعاً عن مئآت من الأطفال على صدورهم الميادع^(١)
وبأيديهم الأزهار ينثرونها فى كل اتجاه وصوب أى نثار، ليطأها السائرون فى
موكب الإله آمون. أما الروائح العطرية فكان يوضع شذاها فى جميع الأنحاء يحملها
إليها النسيم فيكون لها فى الأنوف أحسن شميم. وكانت الآلات الموسيقية تصدح
بألحان تهز النفوس هزاً. وإن القوم لفى مرح وحسن تطريب وإذا بدوى شديد
تردد الآفاق صداها من بعيد، إعلانا بتحرك موكب آمون فهاج الناس وماجوا
وأخذوا للقاءه يستعدون ولم يظهر لبنت أنات أثر ولم يقع على موكبها نظر.

وتداولت الألسنة فى خلال ذلك عدة إشاعات ذهبوا فى تأويلها مذاهب مختلفات،
وأيدَ خدم الهيكل صحة إحداهما، إذ أكدوا للسائلين أن الكهان قرروا منع بنت أنات
من التطلع إلى تلك الاحتفالات. وما قرع دوى هذا الخبر أذان المزدحمين حتى تهرموا
وعبسوا الوجوه. وما هى إلا خلجة خاطر حتى شهدوا الأميرة بشرفات قصرها
وإلى جانبها الأمير راميرى ونيفرت ينتظرون ساعة خروج الآلهة للتفرج على
جماعات الناس وأفواجهم وهم بين غادٍ ورائحٍ فى الطرقات المجاورة لمساكنهم.

(١) الميادع جمع ميدعو، وهو الثوب يُلبس ليكون وقاية لغيره.

أما حرمان الأميرة شهود الاحتفال فسيبه أن (بك أن شونسو) كاهن هيكل آمون تعهد بتطهيرها من الدنس، غير أنه في مساء اليوم الذي جاء إليها فيه بهذه البشرى أخبرها أن الكاهن الأعظم أميني لا يسلم بدخول المقابر قبل الحصول على العفو والغفران من آلهة الغرب. ثم اعتذر بأنه في مركزه لا مفر له من إطاعة أمر هذا الرئيس، لأنها بدخولها هيكل هاتور في حالة دنس قد أثقلت أوزارها وضاعفت خطاياها. فلما سمعت بنت أنات هذا الكلام استنجدت بالوالى أنى وسألته أن يلبي نداءها فوعدها بذلك. غير أنه تلكاً في إنجاز وعده وظلت تنتظر حتى إذا كان آخر الوقت أخبرها بأن أميني ما برح وطيد العزم على حرمانها الحضور في الاحتفال، ثم نصحها أن تدعن لأمره ولا تثير ساكن غضبه. ودنا القزم نيمو من نيفرت في الوقت نفسه ليلبغها رجاء والدتها راتوتى أن تحضر لزيارتها، فأجابته بأنها لا تستطيع -بل لا تريد- مفارقة صديقتها الأميرة في مثل هذه الظروف الخطيرة.

وكانت بنت أنات أذنت لكبار حاشيتها بزيارة المقابر وشهود الاحتفال وسألتهم أن يخصوصوا في هذه الزيارة بصالح الدعاء وطيب الذكر، وبعد أن قضت حصة من الوقت في استشراف الجماهير في حركاتهم واختلاطهم، عادت من الشرفة إلى حجرتها وأنحت على شقيقها راميرى باللوم والتأنيب لأنه بسوء تصرفه وطيش عمله جعل الكاهن الأعظم يضطهدها ويتابعها بعدائه الفادح، ثم أحالت على هذا الكاهن بالتعنيف واستطالت في سيرته وأساءت غيبته، غير أنها مع هذا قبضت على يدى أخيها وقالت له وهى تحنو عليه بقوامها اللدن: أى أخيه! حيث إننا ركبنا معاً متن الشطط وسقطنا في هاوية الغلط، فلنكفر عما فرط منا بقبول ما حكم أميني به علينا. والرأى عندى الآن أن نمسك عما لا يجدى نفعاً من الكلام وأن تنتهج من الخطط والمسالك ما لا يحيد عما كنت تنتهجه منها لو كان والدنا حاضراً.

فأجهش بالبكاء واندفع يشهق ثم صاح عالياً: لو كان أبى هنا لما اجترأ أمينى على هذا الهذيان وأفاعيل الصبيان، بل لخلع عن كتفيه فروة الفهد وأخلى منصبه لمن يصون كرامة الملوك ويحفظ العهد... سوءة له! كيف يعاملك بهذه الإهانة؟ قالت هدىء روعك يا أخى، وقل لى أتذكر أنك كنت لاتزال طفلاً لما شهد والدنا هذا الاحتفال لآخر مرة؟ أجاب: نعم أذكر، وما كان أجملها من صبيحة قضيناها فى سرور وابتهاج! قالت بنت أنات: وأنا كذلك ما زلت أذكرها بما جمعت من أسباب السرور والاعتباط. لقد كنا آنئذ أطفالاً وكانت الزينة التى أقمناها مما يبهر الأبصار ويأخذ بالألباب، وكنا جميعاً جلوساً فى البهو الملكى الكبير فدعانا والدنا ثم أخذ بيدنا إلى حجرة والدتنا المغمورة برحمة الآلهة، وكان لم يمضِ على وفاتها زمن طويل، فقال لنا بصوت الحنان والرفق إنه قد عفا عنا وتجاوز عن سيئاتنا تلقاء ما أظهرناه من الندم على ارتكابها والحذر من السقوط فيها مرة أخرى. ثم قبلنا بين عينينا وجذبنا إليه بيديه الكريمتين قائلاً بصوت الشفقة: لا أكون ذلك الملك الجبار العظيم رعمسيس إذا ألحقت بكما ذرة من أذى ولم أسلك معكما مسلك العدل.

وما سمعنا منه هذا القول حتى ألقينا بنفسنا عليه وأخذنا نقبله قبلات الاعتراف بالجميل، فدفعنا عنه بلطف وهو باسم الثغر وقال لنا: لقد كنت ولازلت أحبكما حباً جماً وأسوى بينكما فى هذا الحب، وإنى لموقن أنكما تقابلانه بمثله لى. ثم جاذبنا الحديث فى والدتنا ونوه بذكرها وأطرى فضائلها وحثنا على الاقتداء بها وانتهاج طريقها ووعدنا باصطحابنا لزيارة قبرها وتقديم الهدايا والقرايين إليها. وتكلم بعد ذلك على ندرة الفرص المتاحة للمرء يقيم بها الدليل على براعته وشجاعته، وعلل ذلك بقلة الحوادث الجليية والأخطار الجديرة بالاعتحام، وبأن الحياة سلسلة حلقاتها الحوادث المألوفة، تتألف منها كما تتألف السنوات من

انضمام الشهور والساعات، والساعة بالساعة والشهر بالشهر أشبه من الماء بالماء، فإن اتخذتم لتافهات الحوادث من ثبات وجلد تلقيتم كبارها من غير خوف ولا اكترات. ولما جاء والدنا على ختام أقواله الحكيمة تصافحنا وتعانقنا متعاهدين على اتخاذه إماماً لنا في أعمالنا. وأذكر أنى ما كنت في وقت أرحب صدرأ ولا أهدأ بالا منى حينما شنف والدنا أذاننا بهذا الوعظ البليغ على مقربة من قبر والدتنا.

فشخصت نيفرت في بنت أنات بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت: إنه لهين على المرء كسب المحامد والفضائل إذا بلغ والسده مثل هذا المبلغ من الرفق واللطف في النصح. سألت بنت أنات: ألا تذكرين يا نيفرت أن والدتك أطربت سمعك بمثل هذا القول في صبيحة تلك الأعياد؟ أجابت وقد علت وجهها حمرة الخجل: كلا، لأنها كثيراً ما كانت تخطيء موعدا الاحتفال لقضائها الوقت في تسوية شعرها وزينة نفسها فلا يكون لها هم ولا وكدا إلا سرعة الوصول إلى الهيكل. سألت بنت أنات: أتأذنين في أن أحل اليوم منك محل والدتك.. وأنت يا راميرى هل تعلم أن والدنا كان يعفو عن ضباط جيشه، ويصفح عن حاشيته وخدمه وعبيده، ويحضهم - كما كان يحضنا - على الاستمسك بعروة التقوى والصلاح واستلال الضغائن والأحقاد من القلوب..؟ ألم يكن من كلمه الماثورة قوله «لا يكفى المرء لبس الثياب الناصعة البيضاء، بل يجب أن يكون قلبه أرق من النسيم وأصفى من الدمع».. فواجب عليك يا شقيقى أن تكف عن لوم أمينى وسبه والحنق منه، فإنما هى القوانين والأنظمة تطالبه بالشدة في تطبيقها. ولا يغيب عنك أن والدنا سيقف على ما دار بيننا وبينه من الحادثات، وله وحده حق الفصل بأرائه السامية وحكمته البالغة فيما شجر من الخلاف.. أه.. إنى يا عزيزى راميرى ويا عزيزتى نيفرت أشعر بقلبي يفيض حنانا ورافة، فليات كلاكما ليقبلنى ولنذهب بعد ذلك إلى المصلى حيث نمتع النظر

باستجلاء تماثيل موتانا الأعزاء الذين لم أ حظ بتقديم القرابين إليهم في هذا اليوم
النير المقدس.

قال راميرى: سأصحبك إليه يا شقيقتى. قالت بنت أنات: أما أنت يا نيفرت
فالزمى مكانك لتجننى من هذه الأزهار الزاهية النضرة باقة جميلة نعهد إلى بعض
الأتباع وضعها على قبر والدة قرينك مينا. قالت هذا وانطلقت نحو المصلى مع أخيها،
ثم عاد الاثنان بعد ساعة فوجدا نيفرت قد ضفرت أكليلين من الزهور انتوت إهداء
احدهما لوالدة مينا عملا بإشارة نبت أنات والثانى لوالدة الأميرة. فلما علم راميرى
بقصدها قال: سأتولى أنا وضع الأكليلين على القبرين. فسالت بنت أنات: وكيف
تكون الحال لو شهدك أمينى وهو الأمر بمنعنا من دخول الهيكل؟ أجاب راميرى:
لن أذهب إلى ذلك المكان بزيى وشارتى الحالين، بل متنكراً بزي صبى بستانى.
أتسمعين صوت البوق المؤذن بخروج الإله من الهيكل؟ قال هذا وهرول نحو الشرفة
فاقتفت نيفرت وبنت أنات أثره، وتمكن الثلاثة من شهود الاحتفال كما لو كانوا فيه
حاضرين.

قال راميرى: إن هذا الموكب لطالع شؤم ونحس مادمننا نحن ووالدنا غير
موجودين به. (١) ولاريب أن تجرده من مظاهر الأبهة والجلال عزاء لنا عن عدم
مثولنا فيه بأزيائنا الجميلة يحيط بنا الحراس والغاشية، ولكن عزف هذه الموسيقى
جميل جداً.. وها أنذا أرى هناك حملة الأعلام والمنشدين والنبي الأول للهيكل
الأعظم وهو الكاهن (بك أن شونسو) الذى تحف به المهابة ويحدوه الوقار، غير أن

(١) استدلت الدكتور ايبرس في وصف هذا الموكب بالنقوش المثلثة للاحتفال بعيدالدرجات في مدينة
آبو.

علامات التذمر بادية على وجهه، وما قد أوشك الإله أن يظهر لأن رائحة البخور قد بلغت إلينا محمولة على أجنحة النسيم.

قال الأمير هذا وجثا على ركبتيه فاقتدت به الاميرة ونيفرت، وكان نظرهما قد وقع على ثور تنعكس أشعة الشمس على جلده الأملس البراق، وبين قرنيه إطار ذهب خالص يعلو حافته ريش النعام الأبيض وتلاه حملة المراوح المتخذة من ريش النعام الأبيض والاسود مثبتة بأطراف قضبان من الذهب. وكان مستويا على عرش منصوب على مصطبة مفروشة بقماش مسدول وموشى بأسلاك الذهب ومزين بأكاليل الأزهار الغضة، يحمل ذلك كله على أعناقهم جماعة من الكهان يسرون الهوينا بخطوات مقدره، ينبعث من المجامر حولهم دخان البخور فينعقد فوق رؤوسهم. وما وُضع الإله في وسط الزورق -الذي بلغ الغاية من الزخرف- حتى وقفت جموع الجماهير على الأقدام بعد إذ جثوا طويلا. ثم توارد بقية الكهان يحمل بعضهم في صندوق مبرقش بالألوان شجرة أمون المقدسة التي لا تذوى. وجاءت بعقبهم فرقة موسيقية ثم جماعة من الكهان يحرقون البخور في المجامر فتنتشر ريحه في أرجاء الفضاء.

تنفست بنت أنات الصعداء عندئذ وقالت: لو كان والدى حاضراً لبرز للنظارة بعد الإله في موكب حفيل جليل. قال راميرى مكملًا: ثم لتلاه موكبك يا شقيقتى العزيزة، فموكب مينا ورجال الحرس. ولكن هاأنذا أرى الآن بدلا من ذلك كله العم أنى سائراً على القدمين! وما أغرب الزي الذي برز فيه يريد أن يحاكي به أبا الهول. فسألته نيفرت: وما تعنى بهذا القول؟ أجاب باسمًا: إن أبا الهول حيوان بجسم ليث

ورأس إنسان، ولكن عمنا أنى قد تدثر بأمساح الكهان التى هى رمز السكون والسلام، ثم غطى رأسه بخوذة الجند. قالت نيفرت: ليت الملك حاضر، إذن ما اجترأ أحد أن يحرمك المشاركة فى هذا الاحتفال. قال راميرى: الحق أولى بأن يُتبع، لو كان والدى حاضراً لتغيرت معالم هذا الاحتفال، إذ كان لابد له من الجلوس على عرشه الذهبى وخلفه تمثال الحقيقة والعدل حفيظين عليه، وفوق رأسه الظلة المزخرفة. انظرى يا شقيقتى هذا الجم الغفير من المنجمين والكهّان الذين يحملون الاعلام وتمثيل الآلهة، انظرى قطعان الماشية التى تتبعهم لتُقدّم قرباناً. أفلو كان الملك والدنا حاضراً، أما كان يتجاوز عدد هذه القطعان أضعاف ما هو عليه الآن؟ وأما كانت الوفود تترادف من أقصى الأقاليم لأداء ما يجب لمقامه السامى من التبجيل والتعظيم؟.. إنى لم يغب عنى شيء من دقائق الاحتفال حتى الشعار المرسوم على الاعلام^(١)، وهل تعرفين من هم جود الملك والدنا الذين تمثلهم تلك الصور والأشكال؟ أظنك لا تستطيعين التمييز بينها لبعدها عنك.. أما أنا فأعرف من تمثلهم.. أرى أن الصورة الأولى تمثل (أحمس) الأول الذى طرد من أرض مصر قوم العمالقة الذين يُمت إليهم والدنا بصلة، ولا تمثل جدى سيتى الأول تمثيلاً تاماً. أرايت الجنود؟.. لعلهم ممن عادوا من الحبشة ظافرين ودخلوا بالأمس مدينة طيبة فرحين مستبشرين.. ما أجمل هذا الاحتفال! ما أحسن هذا الاستقبال! ما أشد هذا

(١) كان لكل مركز من مراكز مصر شعار خاص به يُرسم أو يطرز على الاعلام التى كانت ترفع فى الاحتفالات والمواكب العمومية، وكانت تُرى فى عهد سيتى الأول ببلدة أبيدوس «العرابة المدفونة» خافضة تتضمن أسماء المراكز والأقاليم. وتحتوى النصوص التى كانت تستعمل فى هياكل دندره وأنس الوجود لتفسير قوائم الأقاليم ببيانات مفيدة تتعلق بالانظمة السياسية والدينية لكل إقليم. وقد وصف هاريس وبروكش ودوميشن ودى روجيه وادى النيل وصفاً جغرافياً دقيقاً.

التصفيق! إن الجيش لجدير به وحقيق! لأنه سلك مسلك الشجعان وثبت في مواطن الجلال والطعان. وإذا كان استقبال الأهلين له على هذا المثال من الفخامة والجلال فكيف يكون استقبالهم إذا عاد والدى الهمام وحوله من أسرى الملوك مائة بالتمام، وكان يدبر سير موكبه المنيف قرين نيفرت مينا ذو الأصل العريق الشريف؟ إنى أرى من هذا المكان جميع أصدقائي والخلان ، وأكابر رجال الدولة تبدو على وجوههم أمارات العز والصلوة .

ما سمعت نيفرت ذكرى قرينها حتى تنهدت وقالت: وا أسفاه! وا حر قلباه! ما برح ميعاد عودتهم إلينا بعيداً . وكان الموكب لا يزال يمر في مجال أنظار الناظرين كأن لا نهاية له ولا ختام، إذ كانت الجنود تتلو الجنود بأشكالها المتباينة تتخللها الفرق الموسيقية وتتبعها الحيوانات النادرة^(١) ، يمسك بأرسانها وأزمتها العدد العديد من العبيد. أما زورق الإله آمون فكان في هذه الاثناء بلغ إلى منتصف النهر ، فبدأ لانظار الجموع المتزاحمة على الضفتين كالعروس تتهادى في أبهى حلة وتختال في أجمل زينة، لأنه كان مصنوعاً من الخشب المصقول المطلى بالذهب ومرصع الحافة بكرات بلور^(٢) لونها كلون الزمرد والياقوت. وكانت سارياته مموهة بالذهب وشراعه من الحرير القانى ومقاعده من العاج المصقول بلونه الجميل

(١) وصف يونانى يدعى راليكسونوس شاهد هذه الاحتفالات الحيوانات الأجنبية التى كان يجلبها المصريون من الخارج ليتزين بها احتفال أمر بإقامته (بطليموس فيلادلف) أو (قيلو ذوفوس بن سوط)، وهو بذلك قد أحيا عادة سابقة تشهد بوجودها كتابات ونقوش الأسرة الثامنة عشرة في قبر (رش مارا)، انظر صفحاتى ٤٦ و ٤٧ من كتاب «المنحة الدهرية في تخطيط مدينة الاسكندرية» تأليف معرب هذه الرواية.

(٢) وجدت في المتحف المصرى ضمن مجموعة (مينو تولى) ومجاميع أخرى غيرها أنواع كثيرة من الأحجار التى صنعت تقليداً للأحجار الكريمة. ويقول العارفون إن أمهر الصناع في العصر الحاضر يعجزون عن صناعة مثلها في إتقان التقليد.

وأكاليل السورد والزنبق متعانقة متزاوجة في حبال الساريات بشكل جميل ومثال أنيق. أما سفينة الوالى فكانت تتلألاً بانعكاس أشعة الشمس على رسومها ونقوشها الذهبية. وكانت مفروشة بالطنافس البابلية الثمنية النادرة، وفي مقدمها رأس أسد من الذهب، في موضع العينين منه حجران كبيران من الياقوت كسفن الملكة حاتاسو. وما كادت السفينة المقدسة المقلّة لآلهة آمون والكهان- الذين أخذوا مجالسهم فيها- تصل إلى الضفة الأخرى حتى تهافت أخلاط الزمر على النزول في القوارب والزوارق الأخرى التي غصت بهم ، إلى حد كان يخشى معه عليها الغرق . وقد بلغت هذه الزوارق عدداً لا يُحصى وانتشرت فوق سطح النهر حتى لم يعد الراؤون يرون ماءه من خلالها ولا أشعة الشمس تنعكس عليه لاتصالها بعضها ببعض واختفاء سطح الماء تحتها.

فلما شهد راميرى هذه الجلبه قال: لقد تهيأت لى الفرصة فلا بد من اغتنامها. لقد اعتزمت التنكر بزى بستانى لاجتياز النهر ولترصيع قبور الأجداد بأكاليل الزهر . قالت بنت أنات: أو يرضيك أن أبقي وحيدة مع نيفرت ؟ أجاب بصوت المبتهل : لا تملئى فؤادى حزناً وشجواً يا شقيقتى، فقد كفانى ما لقيته . قالت الأميرة : اذهب أنى شئت، ولو كان والدى هنا لاستطعت مرافقتك. قال راميرى: وما الذى يمنعك منها مادام لا يعوقك أنت ونيفرت عن التنكر مثل عائق قاطع؟

فنتظرت بنت أنات لنيفرت بعين المستفهم وقالت: إن هذا لضرب من الجنون. فهزت نيفرت رأسها بما يفيد اقتداءها بها في كل عمل. فأدرك راميرى مغزى هذه الإشارة وقال وقد تهلل وجهه فرحاً واستبشاراً: هيا بنا ، فإنه لم يبق أحد- ولو كان ابن شحاذ- إلا وقد برح داره اليوم ليلقى أكاليل الازهار فى الهاوية التى عُيبت

فيها جثة والده، فكيف يليق بأولاد رعمسيس وقرينة مينا الطاهرة الذيل التقصير في أداء هذا الغرض المقدس؟ وكيف لا يحق لهم وضع الأزهار على قبور موتاهم الأعراء؟ فما سمعت بنت أنات هذه الكلمات حتى احمر وجهها خجلاً وقالت: إن في وجودى بجوار القبور ما يدعو إلى تدنيسها . فمد الأمير راميرى ذراعيه لعناق شقيقته وقبّلها بين عينيها قائلاً : أمثلك مَن يدنس القبور! ... أنت التى خلقها الله لتخفيف ويلات المنكوبين وتخفيف دموع الباكين بحسن العزاء ومقبول الدعاء ! .. أنت التى بصورتها الفاتنة ومخايلها الطاهرة تذكّرنا بصورة والدنا الكريم ؟ .. أممكّن أن يكون مثلك - أنتِ أيها الملاك - مدنساً ، يقذر بلوثة ويلطخ برجسه الموتى ؟ .. إذا سلمت بالمستحيل فقلت إن البجعة الناصعة البياض التى أراها هناك حالكة السواد كالليل البهيم أو الغراب الفاحم اللون، وأن هذه السورود الزاهية الألوان التى نُمقت بها شرفة القصر وامتلاً بعبقها كل مكان ليست وروداً بل هى نبات الشكران، فأهون على نفسى التسليم بهذا الزعم من أن تتخيل لحوق الدنس بك . وبعد فهل أنت مدنسة ؟ .. ألم يطهرك الكاهن (بك ان شونسو)؟ وإذا كان أمينى.. قاطعته بنت أنات: لقد أصاب أمينى الحق فى فعله . وأولى بك أن تفكر فيما نحن فيه لا أن تذمه . قال راميرى ساخراً : نعم أصاب أمينى وأجاد وأتى بما فوق المراد، وإنى لمآلئه على القول بدنسك وبأنه لا يجوز لك غشيان المقابر ولا الهياكل ، ولكن أهنك ما يحول دون امتزاجنا بأخلاق الزمر؟ أم هل للطرقات فى تلك الجهات حاسة شم تتبين بها طهر الإنسان ودينسه؟ أما هى نفس الطرقات والمسالك التى تطأ ثراها صباح مساء أقدام المحنطين وغيرهم ممن ضُربت عليهم الذلة والمسكنة لدنس حرفتهم؟ .. زنى كلامى يا أختاه بميزان العقل واعرضيه على محك النقد الصحيح واعدلى عن عزم البقاء فى هذا المكان وتعالى معى إلى حيث ترمى بنا ظروف

الحدثان .. تعالى نتنكر ، فإذا انطلقت الحيلة ولم يتعرف علينا أحد جعلت نفسى مرشداً لك وهديتك السبيل . عندئذ نضع أكاليل الزهور على القبور ونصلى للموتى، ثم نتبع الموكب فنسمع الخطب ونمتع الطرف بعجائب أصحاب المعجزات ، ولا بد لببطاؤر بالسرغم مما دهى به أن ينبرى للخطابة . ولا يذهبن عليك اعتقاد أمينى أنه متى تكلم خلب المسامع بسحر بيانه وأطرب الأفتدة بالاناشيد المقدسة. فهيا بنا.. هيا يا أختاه لشهود الاحتفال. قالت بنت أنات فجأة : هلم بنا إلى الامام؟

ما سمع راميرى هذه الكلمة حتى اعترته دهشة السرور لاجابة أخته طلبه وتحقيقتها متمناه. أما نيفرت فنظرت للأميرة بعين المستفهم المستثبت ثم حولت وجهها إلى جهة أخرى، بعد إذ أيقنت توله فؤاد بنت أنات وأنها دخلت فى زمرة العشاق المستعرة قلوبهم بنار الأشواق.

الفصل الثالث

«وقائع أميرتين وشاب اقتحم الأهوال.. فصار من الأبطال»

لم تمض ساعة من الزمان حتى كان ثلاثة أشخاص متتكرين بثياب خالية من الزخرف يجتازون نهر النيل ، امرأة معتدلة القوام تبدو على محياها سمات الهرم إلا أن في رشاقة قدها ولين أعطافها ما يدل على فتاء السن. وشاب أسمر نيفرت و غلام يناهز الخامسة عشرة من العمر. وكان يتعذر على المتوسم فيهم التسليم بأنهم بنت أنات وراميرى ونيفرت الذين أتقنوا التنكر بتغيير أزيائهم وألوانهم حتى لا يرتاب أحد في أمرهم.

فلما بلغوا إلى الضفة اليسرى من النيل أشارت بنت أنات إلى اثنين من أتباعها أن يدنوا منها. فلما فعلا سارتها بكلام ثم صرفتهما فذهبا بعيداً عنها وأخذا يقتفیان أثرها بحيث لا يتوهم أحد أن لهما علاقة بها. ولم يكن الثلاثة قد تمكنوا من عبور النهر إلا بعد ما ذاقوا من المشاق ما لا يذوقه عادة غير العامة والافناء ، ذلك لأنهم لم يكونوا التمسوا دليلاً ليفسح لهم الطريق كالمعتاد أو يمنع الزوارق الأخرى من مسابقة زوارقهم ومزاحمتها في الوصول قبلهم إلى الضفة الغربية من النيل . ولم يكن على أحد في ذلك حرج لأن الظروف قضت بأن يجهل الطرفان أحدهما الآخر بهذا المثال. وما نزل الثلاثة هذه الضفة حتى كان الموكب بلغ الى هيكل سیتی ودخل فيه.

وكان الكاهن الأعظم واقفاً على الضفة النيل لاستقباله، يحف به الكهان والمنشدون وأنبياء مدينة الأموات الذين سارعوا إلى وضع الإله آمون في سفينة سام

المصفحة بالفضة والذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة . ثم تقدم ثلاثون خادماً فحملوا السفينة على الأعناق لينقلوها إلى صدر الهيكل حيث تقام الصلوات الدينية. وكان المشرّحون يركعون أمامهم وينثرون يمناً ويسرة في الطريق شذور الذهب^(١). وكان نواب الأقاليم ووفود المراكز أفواجا وشتاتاً في فناء الهيكل يستعدون للقاء الإله وتقديم ما جاءوا به من الهدايا والقرابين إليه. وبعد أن قاموا بهذا الفرض المقدس تحرك الموكب من الهيكل سائراً في الطريق التي اعتاد السير فيها كل عام وهي الآخذة من الشمال إلى الجنوب. فلما دنا من مدخل هيكل أمينوفيس الثالث الذي نُصب أمامه تمثالان هما أكبر تماثيل وادى النيل حجماً وأعظمها روعة، قصد إلى هيكل تحتمس الأكبر^(٢) تم قفل راجعاً ، مقتفياً في سيره السفوح الشرقية من جبال ليبية، وهي السفوح الصخرية الصلدة التي نُقبت فيها القبور على شكل يجعلها شبيهة بخلايا بيت النحل^(٣) ثم صعد إلى سطوح هيكل حاتاسو وانحدر منها إلى السهل المجاور لقبور الملوك السابقين^(٤).

ولما أذنت الشمس بالمغيب كان الموكب قد بلغ مقر الاحتفال بالقرب من مدخل الوادى المؤدى إلى مقابر سيتى، وفي نهاية قبور الأسرة الملكية التي اغتصب زمام الحكم من يدها . وكانت العادة في زيارة هذه القبور الاستضاءة بالمصابيح والمشاعل قبل رجوع الإله إلى الهيكل وأن يبدأ بالتمثيل قبيل نصف الليل فوق

(١) هي المعروفة اليوم باسم قرنة موارى.

(٢) هي المعروفة اليوم باسم الأساسيف ودار أبو النجا

(٣) انظر صفحات ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٨٨ من الجزء الأول من كتاب بابرونى المسمى «ايبرى جركس

رجى تورنن سيس»

(٤) هي أقدم جزء من هيكل مدينة أبو، ولا تزال محفوظة لم تعد عليها عوادي الدهر.

البحيرة المقدسة جنوبى مدينة الأموات. وكان قلب الحمل المقدس، أثناء سير الموكب، فى إناء من البلور مثبت بطرف قضيب طويل يحمله رجل يتبع زورق الآله، وقد روعى هذا الترتيب لتقع عليه أنظار الجموع المحتشدة لشهود الاحتفال.

أما بنت أنات وراميرى ونيفرت، فقد تهيأت لهم بتدابيرهم الأسباب لوضع الزهور على قبور الأجداد دون أن يتنبه لهم أحد، ثم اندمجوا فى الجماعات التى كانت تقتفى أثر الموكب، وظلوا سائرين حتى بلغوا إلى كهف جدود مينا الذى شاده والد جدّه (نفر حوتب) وقتما كان نبياً لهيكل آمون. وكانت رحبة ذلك الكهف غاصة بالناس يتسمعون فى سكينّة وخشوع صوتاً منبعثاً من الداخل، هو صوت شاعر ينشد نشيداً نظم لآلىء الفاظه ودرر معانيه شاعر ممن عاصروا ذلك النبى، تعظيماً لمقامه وترفيحاً لقدره، لأنه أوقف قطعة أرض ليُنْفَق من ريعها على من يقوم بترتيل ذلك النشيد فى كل عام لمناسبة الاحتفال بعيد الموتى، وحتى لا يعتور معانيه تحريف نُقِشت عبارته على الصخر لتدوم بدوامه ما كرّر الجديدان وتعاقبت النيران.

وكان مينا يترنم فيما مضى بأبيات هذا النشيد الحسنة الانسجام، وكانت نيفرت تتابع نغماته بالإيقاع على العود. وليس فى هذا ما يستدعى العجب لأن المصريين كانت تدفع بهم الفطرة إلى مزج الأفراح بذكرى الموتى، وهذا الدافع الغريزى نفسه هو الذى حمل بنت أنات ونيفرت وراميرى على الوقوف لسماع النشيد الذى نوره هنا بمعناه.

«أيها الميت الشريف ذو المقام المنيف! لقد لجأت إلى الراحة الابدية والسعادة السرمدية، وتجلت لك حقيقة الأشياء بأسبابها بعد أن عزّت على طلابها، وتأكد أن أحداً من البشر لا مفر له من يد القدر، بل لا مناص له من محتوم القضاء لأن

الارض طريق السماء. لقد أذنت الشمس بالأفول وأمست في دنو أجلها كالشيخ الكهول، فيا أيها الكوكب البهى الساطع والجرم العلوى اللامع: لقد أقمنا لك شعائر الاحتفال على أحسن مثال. فلا غرو إذا تعاقبت الأعياد على توالى العصور تعاقب الليل والنهار، وأطرقنا الرؤوس برهاناً على الخشوع والوجل لتودع قلوبنا الامل، وسكبنا ما عندنا من الزيت وزيادة تفاؤلاً بالحسنى والسعادة، وطرحنا أكاليل الزهور على هذه القبور، التى غُيب فيها خير الأهل والأقرباء وأعز الأصدقاء الأوفياء، فتقبل إلهننا هذه الروائح العطرية التى تسطع إجلالا لقدرتك الربانية، واطرح على وجوهنا شعاعاً من ضيائك المتألق ليظهر ما عليها من الدمع المتدفق، واجعلنا في موئل من صواعق غضبك والانتقام فإنها تمحق القلوب الضالة في حالك الظلام. أيها الآلهة الساكنون في منازل السلام والسكون تقبلوا دعاءنا حققوا رجاءنا، كونوا لنا أدلاء وأصدقاء أوفياء، يوم السفر إلى المحشر، يوم الرحيل الى الحظيرة الربانية بالصفة القدسية» .

فلما أمسك المنشدون عن النشيد أخذ جمهور السامعين يلقون على المصلى نثار الأزهار، إشارة إلى ما يداخلهم من الفرح والاستبشار. أما راميرى ونيفرت فنزلا الى كهف الموتى، فأخذت نيفرت تصل وتلتمس من أرواحهم أن تصون حياة مينا من غدر الزمان وطوارئ الحدثان. ثم وضعت برفق ولطف أكليلا من الورد على التابوت الذى يحتوى جثة والدته. وحدث في غضون ذلك أن فريقا من رجال البطانة الملكية مروا بالأمير راميرى والأميرة بنت أنات دون أن يعرفوا منهما أحدا وازدحم الناس ازدحاماً اضطر الأميرة ونيفرت مراراً إلى اللوذ بالكهوف الموجودة بالطريق. وكان أغلبها ساطعاً بالأنوار يتهافت الناس على غشياتها أفواجاً حاملين معهم الشواء والفواكه والخبز والجعة. وليس في تقديمهم هذه الهدايا ما يستدعى العجب،

فليس الموتى بحسن العقيدة المستكنة في نفوسهم إلا قوما رحلوا الى بلد مجهول، هم فيه أحوج من سواهم إلى الزاد اللازم لصيانة حياتهم وحفظ دمائهم في هذه الرحلة الطويلة.

كانت الشمس تهوى إلى الغروب حينما مُدت على مشارف الساحة التي أقيمت بها الحفلات الموائد ورُصت عليها ألوان الطعام وما تشتتبه النفوس من الحلويات اللذيذة على اختلاف أشكالها والفواكه الطريئة من تين وأعناب وتمر ورمان، وصُفت على موائد غيرها ألوف الصنوف من الأحذية والأنسجة والعطور والمراوح ومواد الزينة والزخرف وأدوات القرايين ووسائل التجميل والتزيين ، فما هي الا ساعة حتى خلت الأوعية الشاملة لتلك المعروضات مما فيها لإقبال الناس على شرائها وتنافسهم في اقتنائها، وتهافت الناس حول موائد اللعب وبيع السوائل المخمرة والمشروبات المخدرة. وكانوا يتلاقون في الطرقات فيسوق أحدهم للآخر مثلاً من أمثال الحض على التقوى أو حديثاً من الأحاديث الموضوععة للحث على الاحسان والخير . أما الأطفال فكانوا يتبعون والديهم ويشيرون إلى ما يروق لهم من الحلوى المعروضة والأحذية التي كسبت في اللعب ، ويتكاثرون بما معهم من الحلقات النحاسية التي وُزعت عليهم للإنفاق والتنعم. وكان أرباب المعجزات في بيت سیتی يستهون الجموع ويستدرجونهم إلى الالتفاف بهم بما كانوا يعرضونه عليهم من غرائب الحيل. وكانت حلقة الجمع إذا صفت استحساناً لمعجزة، توارد المارة حولها لاستطلاع الخبر. فلما مرت بنت أنات بهذا المكان كانت الحفلات الدينية قد انتهت، وبدت لأنظار الناظرين الظلة التي اعتاد الملك وأعضاء أسرته الجلوس في ظلها أثناء الاحتفال. ولكن لم يكن أحدهم جالساً تحتها، وإنما الذي اغتصب حق الجلوس فيها هو الوالى أنى تحف به هيبة الملوك، غير أن الكراسى التي صُفت إلى

جانبي عرشه كانت خالية من الجلساء فضاع منها الروثق والرواء.

في هذا المكان المعظم وتحت تلك الظلة الملكية الجليلة نهض أمنيى الكاهن الأعظم واقفاً وأعلن للشعب معجزة قلب الحمل والاهتداء إلى عجل أبيس جديد في قطعان ماشية الوالى أنى. وقد تداولت الألسنة الخبرين وأخذ ألوف الناقلين على الأسرة المالكة يفسرون خطبته كلمة كلمة ويحملونها على معانى كثيرة ويذهبون في توضيح غوامضها مذاهب شتى ، ولكنهم أدركوا بالرغم من هذا التباين مغزى قوله «إن معجزة قلب الحمل وسهولة الاهتداء إلى عجل أبيس في قطعان الوالى أنى فألان مبشران بدخول مصر في دور جديد من السعادة والطمأنينة اللتين حُرمتها منذ عهد يعيد» ، إذ حولوا أنظارهم جميعاً نحو الوالى وقد أدركوا أنه المقصود بهذه الإشارة المبهمة. أما بنطاؤور فكان انتهى من إلقاء خطبته لما بلغت بنت أنات ورفيقاها ساحة الاحتفال، وقد صدمت في سيرها شيخا قوس الهرم ظهره كان يحدث ولده الواقف إلى جانبه بقوله: ما أمر علقم هذه الحياة! .. كثيراً ما خطر لى أن أطرح هذا العبء الثقيل الذى أرهقت الآلهة به عاتقى، وهما هى المرة الأولى التى سمعت فيها الكاهن الشاب يقول ما فهمت منه أن الآلهة يعاملوننا برفق يوجب علينا لهم جزيل الحمد ووافر الثناء.

ثم سمعت زوجة كاهن تقول لابنها: أرايت يا (هور أونزا) بنطاؤور الكاتب الحصيف والشاعر الجيد الشعر الحسن الانتزاع له، وهل سمعته وهو يقرع الأسماع بجواهر لفظه؟ .. إذا نظرتة وعرفتة فإننى مخبرتك عنه بأنه مع ضعة أصله قد سبق فحول الرجال برجاجة عقله وسعة علمه وصدق فراسته وحسن تصرفه فى الاسترسال ووفور حظه من صياغة المعانى الشريفة فى الألفاظ العذبة

اللطيفة ، وإنى لآتمنى له مستقبلا حسنا ومكانة عليّة بين رجال هذا العصر. وكانت غادتان واقفتين بالقرب من منبر الخطابة فلما شهدتا بنطاؤُر أعجبهما حسن مرآه وجمال محياه فقالت إحداهما للأخرى: إن خطيب اليوم قد برع في الجمال كما برع في البلاغة وحميد الخصال، وما أرق صوته الذى يدخل الأذان بلا استئذان ! فقالت الأخرى: لقد رأيت علامات الهمة والنبل بادية على وجهه حينما طرق باب البحث في الحقيقة والفضيلة ، لهذا لا أستبعد أن يكون قلبه ممتلئاً بالمنح الربانية والهبات الإلهية، وما الوجه إلا مرآة القلب.

ما طرقت هذه المدائح سمع بنت أنات حتى احمر وجهها خجلا وتمنت لو أرخى الليل سدوله لتعود الى قصرها مع رفقتها ، غير أن أخاها راميرى أبى إلا أن تقتفى معه أثر الموكب والاسترشاد في طريقه بنور المشاعل ليوغل في الوادى الغربى ويزور قبر جده سیتی، فوافقتة الأميرة بالرغم منها لأنه كان يتعذر عليها الرجوع بلا رفيق في الطريق المؤدى إلى ضفة النيل لتدفق الناس فيه وتدافعهم بالمناكب ابتغاء السيق إلى هذه الضفة . وكان لا مفر لها إذا هى خالفت أخاها ، من أحد أمرين: إما الانحدار مع تيار الجموع، أو الرضاء بمصادمتهم في معارضتها هذا التيار الجارف ومقاومة حركته.

ما بلغت الأميرة ونيفرت وراميرى إلى الوادى حتى أرخى الليل سدوله ولم يبق للضباغ وبنات آوى من أثر لما أجفلها من ضوضاء الناس وتالق الأنوار وهو ما لم تألفه في بطن الصحراء، بل ومن تحول غمغمة أصوات هؤلاء القوم وهم في طريقهم إلى الوادى إلى ضجة عالية وصياح مرتفع، وذلك بعد إذ انسابوا فيه وانتشروا في نواحيه يحملون المصابيح التى يحيط بلهبها ورق البردى ملونا بالألوان الزاهية

ويتصاعد من بينهم العثير والدخان فيصير فوق رؤوسهم كالسحب المتكاثفة.

وكانت بنت أنات قد بلغت من سيرها مع رفاقها إلى نقطة تجاه الكوخ الحقير الذى يسكنه الشيخ بينم، فوقفت مع من وقف من الناس، لأن الحراس المنوط بهم صون النظام كانوا يدفعون الجموع المزدحمة بعصيهم الطويلة إلى جانبي الطريق، ليمكّنوا الموكب من المرور. فأومات الأميرة عندئذ إلى بيت بينم وقالت لأخيها: أترى هذا المنزل الحقير؟ إن فيه الأيكة البيضاء التى دهمتها جياذ مركبتى وأصابتها فى صدرها بجرح بالغ. ثم نظرت من خلال الحاجز إلى الضوء الضعيف الذى يلقى أشعته على محياها السنى، وقالت: ها هى تلك الجالسة إلى جانب جدها.. أفترأها؟..

فوقف الأمير على أطراف أصابع قدميه حتى استمكن من رؤيتها وما كادت تقع عيناه عليها حتى بسّهت وصاح: إن جمالها ليأخذ بالالباب، ولكن ماذا تراها تعمل لهذا الشيخ الهرم..؟ يبدو لى أنه يؤدى فريضة الصلاة وأنها تضع منديلا على مكان والقلق يساور فؤادها. قالت الأميرة: لعل جدها الشيخ أصيب بعارض مرض. قال الأمير ضاحكاً: المرجح عندى أنه أفرط فى شرب النبيذ فتوهم أن نفسه تسيل معه، وإلا فماذا أرى؟ إنه يحرك شفتيه وعينيه على وجه ترتاع منه النفس، ولعل بالرجل مساً أو طائفاً من الجنون. قالت نيفرت: كل ما فى الأمر أنه من المدنسين. قالت الأميرة: ولكن دنسه لا يحول دون اتصافه بالتقى والاستقامة. ولقد تقصيت أحواله واستبطنت أسراره فعلمت أنه رجل قنوع محب للصالح والخير متفرغ للعبادة ومن ثم ترانى أرجح أنه مريض لا سكران. وما كادت الأميرة تتم هذا الكلام حتى ألقى راميرى المصباح من يده وصاح قائلاً: إنى أراها تقف على قدميها.. هلمى انظريها يا بنت أنات.. أفلا تكون فى حاجة الى معاونة أحد.. ما رأيت قط فى

حياتي فتاة فاققتها في بياض البشرة ورشاقة القوام وحلاوة المنظر، غير أنى أتبين اضطراباً وتخلخلاً في مشيتها لعل منشأهما ضعف قوتها على أثر مرضها.. ها قد عادت فجلست إلى جانب الشيخ وأخذت تعرك جبهته بكفها ما أشقى حظ هذه الغادة الفاتنة! فإنها بدأت تئن وتبكي.. أود أن ألقى إليها بكيس نقودى لعلها بما يحتويه تصرف الشجن عن فؤادها. قالت بنت أنات: حذاريك هذا الامر، لأننى كثيراً ما أرسلت إليها الهدايا فكانت تأبى قبولها، وليست نقودك هى التى ستجلو صدا الحزن عن نفسها، لأن المال وان كثير لا يكفك الدمع ولا يستل الحزن من ثنايا الصدر. وقد اعتزمت أن أرسل إليها فى الغد العجوز (أسنات) لتقف على سر ما برح بها من الحزن، فتعمل عندئذ على تسرية همها وإجلاء كربها.. أجيل يا نيفرت النظر فى الموكب واحتشاد الناس فيه ومضايقتهم إيانا بتدققهم.. ولا مفر لنا عقب مرور الإله من الأوبة إلى القصر. قالت نيفرت: وأنا الأخرى أود أن لو سارعنا بالعودة إليه، فقد استطيع لى وملا الرعب قلبى. ثم دنت من الأميرة والتصقت بها فزعة مضطربة.

قالت بنت أنات: أخشى أن يقع ما لم يكن فى حسابنا من التأخر فى العودة. قال راميرى: ما أجمل هذا المنظر!.. فإنى أرى قلب الحمل يلمع فى إنائه لمعان الكوكب فى السماء. وكان الناس خروا على الأنقان سجداً إجلالاً له، فاقتدى بهم أصحابنا الثلاثة. وحدث أن وقف الموكب فترة من الزمن تجاههم، لأنه كان كلما قطع ألف خطوة وقف ليلتمس السائرون فيه الراحة من عناء السير، لاسيما وأن عددهم بلغ الألوف ومنهم الضعيف وذو العاهة، وهم أحوج الناس إلى تزويد أنفسهم بالقوة لاستئناف المسير. ولقد سمعوا البشير فى مقدمة الموكب يزف إلى جمهور الأمة بشرى المعجزة ويفسر لهم أسبابها، وكان صوته الجمهورى يرن فى أركان الفضاء

فيرجعه الافق ترجيعاً واضحاً صريحاً ، بالرغم من غممة الجموع المتزاحمة والافواج المتراكمة . ومما ضاعف اضطرابهم وضجيجهم عند تطفيل الشمس أن القلب الإلهي كان يسطع في إنائه البلورى، كأن له شعاعاً ذاتياً ينبعث منه فيكاد نوره يضيء الاقطار ويخطف سناؤه الابصار.

أما (بينم) فكان لم يذق الطعام منذ برح - في اليوم السابق- دار المحنطين عائداً الى كوخه الحقير، بل ظل الوقت كله واجماً صامتاً لما ألقى في روعه من القلق والانزعاج، وبلغ من ذهوله أنه لم يجاوب على سؤال واحد مما كانت زوجته وحفيدته توجهانه اليه. وكل ما شهدته منه أنه كان دائب التحديق بنظره في نقطة واحدة، وأنه كان يتمتم بكلمات لا يفهم السامع لها معنى ويرفع يده من وقت لآخر إلى جيبته بحيث كان يخيل لهما أنه مصاب بالحمى شديد في رأسه أو ان بهذا الرأس أفكاراً وهواجس رديئة سلبته الطمأنينة وصبت عليه جام الهموم. وتمادت به هذه الحال حتى ضاع رشده وأخذ يهذى تارة ويضحك أخرى من غير سبب ظاهر، فلما خشيت زوجته عاقبة أمره عجلت بالذهاب إلى هيكل سيدي لاستدعاء الطبيب نبسشت.

ولقد سبق إلى نفس وردة - لما رآته في هذه الحال- أن تضع على جيبته بعض الحشائش الخضراء التى جاءت بها الساحرة نيخت معتقدة أنها إذا لم تشفه من علته فلا أقل من أن تخففها عنه. وما وقف الموكب الذى كانت تحف به الالوف من حملة المصابيح أمام بيت المحنط حتى قال رجل لآخر: هذا قلب الحمل، أفلا تراه؟ فلما سمع (بينم) سؤاله ارتعدت فرائصه، بيد أنه ملك جأشه ووقف على قدميه وأخذ يمعن النظر في القلب وهو يتلألأ في إنائه البلورى الشفاف ويتصعد الدخان

حوله من مجامر الطيب فحفز الخوف أحشاءه وتطاول عنقه للاستطلاع، ثم أخذ يتسمع أقوال الناس ليعي طرفاً من حديثهم ويعير أذنه لكل صوت، فسمع المبشر يعلن بشرى المعجزة بصوت جهير وأخذ يتقرس في الوجوه فرأى الناس وقد لزموا الصمت والسكون خشوعاً واجلالاً، وكان لهذه المظاهر أثر شديد في نفسه فلم يتمالك أن دفع بنفسه بينهم ومضى في تيارهم ونفذ في صفوفهم مغطياً بكفه وجهه وجبهته، واستمر يزاحم الناس حتى إذا صار على مقربة من القلب المقدس ضحك ظهراً لبطن وعلت قهقهته حتى خيل للسائرين في الموكب أن من وراء الأكام والصخور رهطاً من المجانين يضيعون في التماجن والتطايب الوقت الثمين.

وقف الناس لهذا السبب، وقد أخذ الهلع من نفوسهم كل مأخذ، فحدد الكاهن الأعظم نظره في بينهم، ولم يكن يعرفه من قبل. وتصفح وجهه ثم وقع بصره على الضوء الضعيف المنبعث من بيته ففهم على الفور أن الرجل تسلسل إلى الموكب من هذا الوكر الحقير وأيقن أنه لا بد أن يكون من طائفة المحنطين اللعينة وعالماً بسر القلب، فمال على ضابط كان يسير إلى جانبه ليتلقى منه أوامره وهمس في أذنه بكلمات مومناً إلى بينم المجنون ثم استأنف السير كأن لم يحدث حادث ولم يضحك ضاحك.

أما الشيخ فكان لا يزال يضحك ضحك من أصابه خبل المجاذيب حتى ألقى بنفسه على حامل القلب اللامع فانفتل إليه بعض الأعوان وأدركوه قبل أن يلحق به أذى ثم قبضوا عليه، فحاول التملص من أيديهم فضربوه ضرباً مبرحاً ثم تركوه. وما كادت الزمر التي تتألف منها مؤخرة الموكب تمر بمكان الواقعة حتى كان مطروحاً أمام كوخه الحقير يتخبط في دمه الذي كان يسيل عزيزاً من جراحه الفادحة. ولقد برزت وردة فرأته في هذه الحالة، فلم تعرف بادىء ذى بدء أنه جدما

لحلقة الظلام.. وكان فريق ممن أخذتهم نكرة الدين اقتفوا أثره وهم سكرى بحمأة الغضب والنبيذ وأخذوا ينعمون: أفاسرعوا الوثبة إليه.. اقتلوا هذا الدنيء الحقير، سواة له! .. قطعوه إرباً، أسخن الله عينه!.. احرقوا وكره المدنس.. القوه فى النار مع هذه الفتاة التى برزت من هذا الوكر اللعين لترى ما حلّ به.. فى لى لعنة الآلهة كلاهما وحر سقرا!..

وكان فى الجمع امرأتان نزعتا المصابيح من أطراف قوائمها ورمتا بها الرجل المسكين، ودنا جندى حبشى من وردة فجذبها من ناصيتها وسحبها على وجهها. ولكن لم تمض برهة حتى أقبلت زوجة بينم ومعها بنطاؤر، لأنها لم تجد الطبيب نبسشت فخبرت الشاعر بأن الشياطين حلت فى زوجها فحضر من فوره للاطلاع على هذا الحادث. وكان ساعتئذ بلباس العمل لأنه لما ألقى خطبته وعاد إلى الهيكل لم يتجرد من الثياب البيضاء وهى شوار الكهان وشارتهم التى يُعرفون بها وأفرغها على جسمه حتى لا يقف أحد على حقيقة أمره.

ولقد مرّ بنظره حينما وصل إلى بيت المحتط أمر هائل ومنظر رهيب. ذلك أن أخلاط القوم وساقطهم كانت صدورهم تغلى بحزازات التعصب الدينى فطرحوا ذلك الشيخ الضعيف أرضاً وامسكوا بتلابيب وردة - كما قلنا- وأسرفوا فى الإساءة اليهما، فما وسعه عندئذ - وقد أحفظه هذا العدوان الذى لا مبرر له - إلا الانقضاض على الحبشى وإشباعه ضرباً. وقد أمسك به من نطاقه ورفع فى الجو بكلتا يديه ثم طرحه بعيداً عنه كما يطرح العبء الثقيل، وشهد القوم منه هذه البسالة فارتاعوا وتقهقروا متراجعين، بيد أن الحقد الذى ملأ صدورهم حفزهم للوثبة على بنطاؤر والتنكيل به وتناصروا فى هجومهم عليه. وكان من شأنهم معه فى

ذلك ما يرى من الذئاب الخاطفة حينما تهم بالهجوم على فريستها للفتك بها، فما تمالك أن اقتلع أحد أعمدة الظلة التي كان أقامها بينم لوقاية حفيدته من حر الهجير. وكان هذا العمود من خشب الحبشة المعروف بشدة الصلابة فأخذ الشاعر يدور على نفسه وهو قابض على أحد طرفيه فيرسم في دورانه بالطرف الآخر دائرة لم تُحدِّث نفس واحد من أولئك الناقلين باقتحامه إياها لما كان يصيبه من الأذى لو أقدم على هذا الفعل، وبهذه الطريقة استطاع أن يستخلص وردة من مخالب عدوانهم، ثم قال لهم: إن من يجروء منكم على إصابة هذه الغادة بأذى فليوطن نفسه على الاعتقاد بدنو أجله.. تعساً لكم وسوأة أيها الأندال! أفلا تخجلون وقد بلغ عددكم المائة أن تسيئوا الى شيخ قد وقع على الأرض مغشياً عليه وفتاة لا تملك لضعفها الذود عن حياتها؟ لحياكم الله ولا حيا أباكم، فقد دنستم هذا الاحتفال بارتكاب جريمة لم تُنسج في الشناعة على منوال.

فظل المعتدون تجاه هذا التقرير مبهوتين فترة من الزمن لا يدرون ماذا يعملون، ولكنهم مالبثوا أن أعادوا كرة الهجوم على الشاعر والفتاة والشيخ، بإغراء من لم يشهدوا الحادث من أصله بل كانوا ينسلون من كل فج وحذب لاستطلاع الخبر. وقد اختلط حابلهم بالنابل فلم تُسمع إلاهممة تتخللها صيحة: فلنحرق المدنسين، فلنضرم النار في وكرهم اللعين؟ .. ودنا من الشاعر بنطاؤر فريق من صنّاع مدينة طيبة وأخذوا عليه الأفاق وضيقوا النطاق، دون أن يتمكن أحدهم من تبين حقيقته أو يعلم أنه من الكهان، بسبب تنكره من جهة واحتدام الفتنة في ظلام الليل من جهة أخرى، وتناول غير العمود عصا كبيرة أخذ يهوى بها ضرباً مسرفاً على كل من يدنو منه ويتقى بواسطتها لكمات المعتدين وضربات عصيهم، ولبث هكذا في جهاد عظيم وبلاد شديد حتى اصطدم وهو لا يدري بحاجز ضعيف خلفه، فجاء سقوط هذا

الحاجز هدية، إذ اغتنم بقية الثائرين هذه الفرصة لمهاجمته من الخلف والقاء جذوة نار على بيت المحنط، فسرعان ما شب فيه ضرامها. وكان مبنياً بسعف النخل الجاف فأكله عن آخره وجعله رماداً تذرره الرياح وأضاء القوم لهيب النار فاستأنفوا كرة الهجوم، وكان بنطاؤر قد خارت قوته وتلاشت، بيد أن ذلك لم يثنه عن مواصلة الدفاع عن وردة التي كانت لائذة به لا تفارقه، غير أن رجلين اختطفا العصا من يده على غرة منه فأمسى أعزلاً من سلاح يذود به عن حوضه ويدفع شر العدوان عن وردة، وصاح الناس لذلك صيحات الفوز والانتصار. وكان اليأس أنثى يدب في قلبه ويحل منه محل الرجاء، فإذا بشاب قد اخترق الصفوف وبيده سيف مصلاً قدمه إلى بنطاؤر، وتراكن الاثنان ظهراً لظهر فأخذ بنطاؤر يجيله متهدداً به القوم حتى تراجعوا بعيداً عنه لما تولاهم من الخوف. ثم حمل عليهم حملة صادقة صارخاً في وجوههم فكان في حركاته ووثباته وصيحاته أشبه ببطل كمي رأى مع ضعف قوته أن الغلبة له على أعدائه الكثيرين أو أنه ليث العرين أريد به السوء فخرج للذود عن حوضه مزمجراً مكثراً عن أنيابه فملاً قلوب مريدي السوء به هلعاً وفزعاً. وكان الأمير راميرى وهو ذلك المجهول الذي حمل السيف إلى بنطاؤر ممسكاً بخنجر يدفع به عن نفسه، فقال للشاعر: .. إن هؤلاء الجبناء يلقون علينا جذوات النار. ثم ترامى على وردة فأطفأ النار التي بدأت تشب بأطراف ثوبها. ورمى بعض الناس بنطاؤر بالأحجار فأصابه أحدها بإصابة تززع منها ركنه وخارت قوته ثم تدفق القوم كتلة واحدة على بنطاؤر فسقط حاجز كان قائماً هناك وظهرت في الحال منه عادة سمهرية القوام لم تنشب أن توسطتهم قائلة: قفوا مكانكم أيها القوم! .. إننى بصفتى بنت أنات فتاة رعمسيس أمركم بالكف عن هذا العدوان الخسيس..

فما سمع المعتدون هذه الكلمات حتى بهتوا وتولتهم الحيرة ووقفوا صامتين

واجمين، فرفع بنطاؤر رأسه وود أن لو جثا على ركبتيه أمام ابنة رعمسيس التى ساقها القدر فى أنسب وقت لإنقاذه من مخالب الموت شكراً لها. ولكنه تذكر ما تلقاه من الدروس عن الكاهن الأعظم وما بناه عليها من الحكم بخطأ الأميرة فى مخالطتها جموعاً تسمو على عظماء أفرادها سمواً عظيماً، فبدلاً من أن يجثو على ركبتيه قال بصوت جهورى: مهما يكن من أمر هذه الغادة التى ساقها القدر لإنقاذى من مخالب الموت، ومهما يكن بينها وبنت أنات من قرائن الشبه الكثيرة فليست هى حتماً بابنة رعمسيس. أما إن أردتم معرفتى فإنى منبئكم بأنى بنطاؤر كاهن هيكل سيتى وخطيب الاحتفال فى هذا اليوم وبصفتى هذه وباسم وظيفتى المقدسة أمرك أيتها الفتاة بمغادرة هذا المكان فى أقرب أن.

خضعت الأميرة لإشارته وظل الناس سكوتاً زمناً قام بعقبه شاب أصيب فى يده بجراح خطيرة فقال: هذا الرجل جندى لا كاهن كما يدعى، فلا بد لنا من قتله لأنه غاش والغاش غير خليق بالحياة . ولكن سُمع صوت آخر منبعثاً من وسط الجمع يقول صاحبه: تنحوا للكهان.. دعوا بنطاؤر صديقى وخطيب الاحتفال فى أمن وسلام.. أما من أحد بينكم يعرفنى؟ أجاب نوتى من الحاضرين: أنا أعرفك، أنت نبسشت الطبيب.. أنت الذى عالجنى من كسر فى ساقى. وأجاب آخر: أنت الذى عالجنى من رمد فى عيني كاد يذهب بنورها. وقالت غادة هيفاء مومئة إلى بنطاؤر: أما هذا الشاب الجميل الطلعة فكان خطيب الأعياد اليوم.. فلما سمع الشاب المصاب فى يده بالجرح هذا القول ثار فيه ثائر الغضب وحاول الوثوب على الشاعر قائلاً: إن يكن خطيباً أو لم يكن فهذا لا يعنينى . فجذبه بعض الحاضرين من ناصيته وحالوا دون اعتدائه على الشاعر، ثم أفسحوا الطريق لنبسشت الذى مال على بينم هنيهة لم يلبث أن رفع رأسه بعدها وقد ظهرت على وجهه علامات اليأس والغضب وقال:

لبئس القوم هؤلاء الذين قتلوا الشيخ المسكين. قال بنطاؤور: وهذه أول مرة في حياتي لوثت يدي فيها بدم الغير في سبيل استخلاص وردة النضرة الزكية من مخالب الموت الذي انتاب جدها العاثر الحظ.

ما كادت كلمة وردة ترن في أذن نبسشت حتى أخذ يروح ويغدو مجدأ في البحث عنها واستطلاع حقيقة أمرها. ثم أخذ يستميل فيمن اعتدوا عليه بالسب الشائن، إذ كان يقول بصوت عالٍ: يا ذوى القلوب المشوبة بالسموم! يا أولاد الافاعي والعقارب! يا قطع الطرقات! وما زال يسترسل في هذا السباب، حتى عثر على وردة ريحانة فؤاده جالسة بالقرب من نيخت الساحرة، فزفر زفرة المكروب الذي زالت كربته وصُرُفت غمته ثم عاد فاهتم بالجرح، وسأل الشاعر عما إذا كان هو الذي صرع وحده كل الذين اعتدوا عليه. فتبسم بنطاؤور ابتسامة الحياء والتواضع لا الاستكبار والعلو والزهو، وكان في حالته هذه تجاه الشاب الذي جُرحت يده كالطفل الذي يجرح عصفوراً بعد صيده ثم يبكي حزناً عليه مع أنه السبب في مصابه. أما نبسشت فقد حدق بنظره في بنطاؤور، وقد أخذ منه القلق والذهول كل ما أخذ وسأله: لمَ لم تجهر باسمك في الحال؟ أجاب بنطاؤور: إن روح الإله (منث) سرت في عروقي حينما شهدت هذا الرجل الحقيير وقد جذب إليه وردة من شعرها المرسل على كتفها، فلم أعد قادراً على ضبط نفسي... قال نبسشت: لقد أحسنت، ولكن قل لي كيف نخرج سالمين مما دخلنا فيه متورطين؟

طرق الأذان دوى طبل كانت تردده أركان الوادي، فما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى وقد الضابط الذي أنفذه أميني للقبض على المحنط ومعه شردمة من الجنند. فأمر المجتمعين حول بيت هذا الرجل أن ينصرفوا فأذعن بعضهم وعصى

الآخرون فحمل عليهم وشتت شملهم حتى لم يبق في مكان الحادث أحد سواه وأعوانه وبنطاؤور ونبسشت. أما الأميرة وأخوها ونيفرت فقد زابلوا المكان من بادىء الأمر مع الممتثلين لأمر الضابط، إلا أن راميرى كان كثير الاهتمام بوردة فلم يبرح المكان إلا بعد أن استوثق من سلامتها وأيقن أن لا خوف على حياتها. واستولى الجزع الشديد على نيفرت فلم تستطع السير على قدميها فحملها رؤساء حملة المحفات على أكفهم متشابكة الأصابع وساروا بها أمام الأميرة لتشملها بسامى التفاتها . ولم يفتر راميرى لحظة واحدة عن التفكير في وردة وما عسى أن يؤول اليه أمرها في هذه الليلة، فقال لأخته: لقد أصبح بيت المحنط أثراً بعد عين، فأين يقى أولئك المساكين أنفسهم من طوارئء الجو وأعراض الحياة في الخلاء ؟ ..

أما الضابط وجنده فإنهم بعد أن أجلوا الناس عن الوادى عادوا إلى مكان الشيخ بينم فوجدوا به الساحرة نيخت ووردة وبنطاؤور ونبسشت، فشرح الشاعر للضابط ما عاينه من الحوادث ثم عرفه بنفسه فمد إليه الضابط يده مصافحاً وأمعن النظر في ذاته معجباً ، وقال: ما أشد هذا الساعد وأمتن هذه العضلات !. لو كان حول رعمسيس أعوان مثلك لما طال بمحاربته أمة الريتاس الأمد .. ومن الأسف أن يكون الذين صرعتهم هذه الساعد من أبناء طيبة لا من الآسيويين. ويزيدنى أسفاً أن أكون مضطراً بحكم المهمة التى نيطت بى إلى القبض عليك والذهاب بك إلى الكاهن الأعظم أمينى..

فأوما بنطاؤور برأسه إيماءة الامتثال وقال: أفعل ما بدا لك، فلست بمعارضك في شىء. فأمر الضابط أعوانه بحمل جثة بينم إلى بيت سىتى ثم التفت إلى بنطاؤور ونبسشت وقال لهما: أرى من الواجب القبض على هذه الفتاة. قال الشاعر: إنها

مريضة وليس لها شأن. قال الطبيب: والراحة لها لازمة وإلا ضاع كل أمل في نجاتها من الموت.. وعندي أن الصواب في تركها حيث هي، لا سيما وأن الأميرة بنت أنات كريمة ملكنا قد خصتها بمحبتها وجبتها برعايتها منذ أصابتها الجراح التي كادت تودي بحياتها. قالت نخت: سأجملها إلى بيتي للعناية بصحتها، ولقد بعثت إليه بجدتها لأنها كادت تختنق بدخان الحريق، إلا أنها قد أفادت من غشيتها وعادت إلى سابق حالتها. قال الطبيب: كل ما أسمح لها به أن تقيم في بيتك بين عشية وضحاها، أي ريثما أهتدى إلى مكان يليق بهما. فتبسمت الساجرة وقالت ساخرة: إنى أعرف كثيرين غيرك يودون أن لو تقيم هذه الغادة في بيوتهم وأن لو يتولوا العناية بأمرها والمحافظة على حياتها.

كان الجند في خلال ذلك أتموا وضع الجرحى على الأسرة المعدة لنقلهم فأمرهم الضابط بالمسير فساروا ومعهم بنطاور وجثة الشيخ بينم أما بنت أنات وراميرى ونيفرت فوصلوا في غضون هذه الحوادث إلى شاطئ النيل بعد أن لقوا من الصعاب ما يقصر عن وصفه القلم، وكانوا أنفذوا أحد حملة المحفات ليبلغ إلى النوتية الأمر بإعداد الزوارق واستعجالهم في ذلك، لأن نغمات الآلات الموسيقية وأصوات المغنين كانت تصل إليهم من بعيد، كما كانت المصابيح الساطعة الأنوار تتحرك في الأفق فيتخيلها النظارة جذوات متحركة من النار. وفي هذا الدليل على أنهم إذا لم يبادروا باجتياز النيل قبل عودة الموكب في هذا المظهر الجليل فقد تعذر عليهم عبوره، إذ من العادات المتبعة في ذلك الوقت أنه مادام زورق آمون يشق خياله صفحة النيل اللامعة فليس لزورق آخر أن يجرى عليه ولو كان أمير أو عظيم. ويجوز بمثل هذا الانتظار أن تنمى أية الليل ويسفر النهار فلا يعودون إلى مساكنهم، بل يلبثون في أماكنهم.

وكانت بنت أنات وشقيقها ينتظران في الظلام-بذاهب الصبر- عودة الرسول الذى أنفذه لإعداد الزورق ، وإلى جانبهما نيفرت وقد تلاشت قوتها وخارت عزيمتها . فالقت بنفسها على الأميرة فأحست هذه بارتعاد فرائصها واضطراب سائر أعضائها. وعاد الرسول فى الأثناء فأخبر الأميرة بعودة الزورق من الضفة الأخرى وانه سار منها بهدوء وتوازن حتى رسا تجاه المكان الذى كانت تقف فيه مع أخيها ونيفرت فأسرع راميرى إليه ونزل فيه وأمسك بالمجداف . وكان ضابط حراس هيكل سیتی أنثذ فى طوافه يتعهد رجاله وأعوانه، فدنا من الزورق وقال لراكبيه: ليكن فى علمكم أن هذا آخر زورق يرخص له بعبور النيل إلى الضفة الأخرى قبل أن يتم زورق الإله اجتيازه إياه.

فما سمعت بنت أنات هذا الانذار حتى همت بالنزول فى الزورق وكانت تبذل قصارى همتها للمحافظة على نيفرت ووقايتها من الطوارئء. وكان يضىء مكان النزول من الشاطيء نور باهت منبعث من بضعة مصابيح، فما كادت الأميرة تصل إلى حافة النهر وهى على ما وصفناه من العناية بنيفرت حتى شعرت بيد شديدة قد هوت على كتفها وصوت أبح يدوى فى أذنها، عرفت على الفور بنبراته أن صاحبه إنما هو بعاكر وكان يقول: مكانك أيها الحقير! .. تراجع بزورقك إلى الورا ليحل زورقى محله ، وعندك من الوقت متسع لتعبر بمن معك بعد انقضاء الاحتفال.

فلم تنبس شفتا ضابط الحرس حينما سمع هذا الأمر بكلمة بل تركه يهتر بما يشاء علما منه بجفاء طبيعه وخشونة خلقه، ولم يعارضه بعد ذلك فى صفيه الشبيه بزئير الأسد أو هرير الكلاب، ولم تكذ تردده الآفاق حتى سمع اصطدام المجداف بالماء من زورق أخذ يتقدم متهاديا نحو الشاطيء. وقد رآه بعاكر فصاح برجاله:

ادنوا الزورق منى. أما هؤلاء الناس فعليهم بالانتظار حتى يمر موكب الإله.

وكان زورق بعاكر أكبر من زورق الأميرة وأمتن، ولصدمة خفيفة منه تكفى لتحطيمه. فلما رأى راميرى من بعاكر ما رآه أوعز لأخته أن تعجل بالنزول إلى البر، فأجابته إلى طلبه مسرعة وبالغت في التنكر والتخفى حتى لا يعرف رئيس الطلائع هويتها. إلا أن هذا الأخير استوقفها ثانياً وصاح بها: أما أمرتكم أيها المتشردون بملازمة هذا المكان؟ ثم أمر نوتيته بدفع الزورق إلى وسط النهر. فخشيت بنت أنات سوء العاقبة لاسيما وأن الخلاف بين أخيها وبعاكر اشتد واحتدم، لأن قائد الطلائع أمعن في مهاتراته وحماساته حيث قال: كيف يجرؤ هؤلاء المتشردون العرايا على معاندتى ومخالفة إرادتى؟ .. لا بد لي من تأديبهم وتقويم المعوج من أخلاقهم.. عليك ياديكرا^(١) بهذه المرأة وهذا الغلام!.. احمل عليهما واطردهما قصياً عن هذا المكان. قال هذا وأوما إلى الكلب فوثب عليهما نابحاً. فلما رأت نيفرت هذا الأمر صاحت صيحة المذعور فعرف الكلب صوتها فعدل عن توثبه ونباحه وتمسح بها مداها متملقاً. وكان بعاكر على وشك النزول في زورقه فلما شهد الكلب يحوم حول نيفرت ويتمرغ عند قدميها أخذته الدهش واتجه نحوها وصاح بها مغضباً: سوف أعاقبك أيها الشاب المفتون لأنك استعنت بالسم والسحر على إذلال هذا الكلب لطاعتك. ثم رفع سوطه وأراد أن يهوى به على نيفرت فسقطت على الأرض رعباً وهلعاً. ومما لا ريب أنه فيه لولا بنت أنات التي كانت أنثذ خلفه واستطاعت أن تجذب يده لمزق السوط خدها تمزيقاً بدلاً من الأثر الخفيف الذى تركه فيه وكان سبباً لذعرها ووقوعها مغشياً عليها. وما وقع نظر راميرى على هذا العدوان حتى برح الزورق

(١) اسم كلب بعاكر ، وقد سبق الكلام عليه في الجزء الأول.

وبيده المجداف وابتدر المعتدى الأثيم بقوله: إنك لجبان سافل!!

أما بعاصر فلم ينبض له منذ سمع هذا القول نبض لاعتياده مكافحة الأنداد في ميادين الجلال، بل نظر إلى كلبه ديكر وصقر له صغيراً خاصاً يفيد معنى الامر بالهجوم على الأمير وتمزيقه جلده بأسنانه. ففهم راميرى هذا المعنى، وكان ثبت الجنان جريئاً كما كان صياداً حاذقاً حاضر الذهن طالما تفرغ مع رعمسيس أبية للصيد في الآجام العامرة بالوحوش الكاسرة، فضرب الكلب بطرف المجداف ضربة أصابته في أنفه فصرعته. ولم يكن لبعاكر صديق أوفى له عهداً من هذا الكلب، إذ كان رفيقه الأمين في جولاته وأنيسه في سكونه وحركاته والصديق الذى لا يميل في وحدته واجتماعاته. فلما شهده طريح الثرى يتمرغ في دمه وتنازعه عوامل الموت والحياة غلب عليه التهور واستمكن من نفسه الغضب فرفع السوط يريد أن يهوى به على الأمير انتقاماً منه على فعلته.

أما راميرى فقد كانت تلك الحوادث المتتالية بما تخللها من المصاعب والأخطار قد نيهت في نفسه عزة الملك وكرامة الإمارة فكبر عليه أن يجرؤ مثل بعاصر على ما ارتكب من اعتداء شائن وقذع مهين في حق أخته ونيفرت. وكان يحس كرجل أنه المسئول عنهما، وأن الواجب عليه منع الأذى من الوصول إليهما. ودبت فيه نخوة الرجال وشجاعة الأبطال فضرب بعاصر بالمجداف ضربة نثرت من يده السوط وجعلته يئن من شدة الألم ويعول كالثكل، غير أنه جرد من نطاقه خنجرأ ماضياً وحاول أن يضرب به الأمير فسرعان ما توسطت بنت أنات بينهما وجهرت باسمها ولقبها، فما طرق صوتها سمعه حتى تراجع إلى الوراء خشوعاً وخجلاً. ولم تنبس شفاته بكلمة، بل وقف منها موقف العبد الخاضع يتلقى من مولاه الأمر. ولقد

أمّرت النوتية بأن يدنوا الزورق من الشاطيء ورأها تجذب إليها نيفرت التي روعتها هذه الحوادث وتأمّر أولئك النوتية بالابتعاد عن الشاطيء فتم كل ذلك طبق إرادتها، وأخذ الزورق يشق وجه النيل بمقدمته فما هي إلا دقائق معدودة حتى وصل إلى الضفة الأخرى فغادره ركابه جميعاً إلى القصر الملكى تتنازعهم عوامل الوصب والقلق والارتياح.

وكانت (ستخم) مضطجعة في محفتها بأعلا الجسر، فوصلت إلى سمعها ضوضاء المعركة التي نشبت بين الأمير وابنها. وقد تاقت نفسها إلى استطلاع الخبر، فلما جاء هذا الأخير في زورقه سألته عنه فلزم الصمت وكفت هي عن السؤال، وظل الاثنان كذلك إلى أن تم عبور الموكب للنهر، وعبره بعض المتخلفين بأمره . وكان يلقي في خلال ذلك نظرات الأسف والحسرة على كلبه العزيز الذى قتله راميرى ثم إلى يده التي أصابها المجداف بضربة مسرفة فجُرحت جرحاً فادحاً فيمتلئ صدره حقداً ويتأجج بضراوة حب الانتقام ويقول: هذه البذرة الشريرة التي غرسها رعمسيس.. هذا النسل الخسيس! لسوف يعلمون من أنا.. إن مينا ورعمسيس بالمعسكر متجاوران فهما لا محالة هالكان.

الفصل الرابع

«وليمة في هيكل.. والكهان بين المشرب والمأكل»

بعد أن ظل بعاصر واقفاً طويلاً على ضفة النهر عاد إلى طيبة مصطحباً والدته ورمة كلبه ليرسلها إلى كينوبوليس^(١) وقصد بعدئذ إلى طيبة الأموات لحضور مأدبة الليل. وإذا كان يحس في يده آلاماً شديدة من جراء الضربة فقد ضمدتها له والدته كيلا يعوقه عائق عن حضور تلك المأدبة التي دُعِيَ إليها لأول مرة بعد وفاة أبيه، ثم كان لا مفر له من الذهاب إليها، وقد أبلغه أمينى أن الوالى راغب جداً الرغبة في مقابلته ومحادثته.

كان بعاصر من أسرة اشتهرت بالأصل العريق والمحتد الكريم والنسب الراسخ، بل عُرفت بين العموم بأنها بزّت أسرة فرعون شرفاً ومجداً، غير أنه إذا رمت به المصادفة في جمع من عليّة القوم ووجهاثهم ظهر عليه في الحال من الإمارات ما يوقن المتفرس فيه أن في أمره سرّاً خفياً لا قدرة لأحد على استجلائه . وكان حائزاً على لقب «كاتب» وإن لم يكن في الواقع من الكهان الكاتبين، كما كان جندياً وإن لم يُدرج اسمه في ديوان الأبطال المحترمين. فهو إذن لم تتوافر فيه فضيلة ولم تتحلّ نفسه بمحمدة من محامد الخصال. وكل ما أثر عنه أنه كان حريصاً على أداء

(١) هي سملوط الآن، وكانت مقر عبادة الإله (أنوبيس)، وكان الكلب من بين ألهتها المحترمين. روى بلو تارك معركة حصلت بين أهالى (كينوبوليس) و (أوكر نكوس) التي كان أهلها يعبدون السمك المسمى بهذا الاسم. وسبب هذه المعركة أن أهالى المدينة الأولى أكلوا سمكة من السمك الذى يعبده جيرانهم فانتقم منهم هؤلاء بأن أدبوا مأدبة تناولوا فيها ما أمكنهم الحصول عليه من الكلاب.

واجباته في المواعيد الموقوتة لها، وأنه كان من الهمة والنشاط بما لا يجاريه فيه أحد متى كان الغرض الذي يرمى بهما إليه تحقيق أمنية أو قضاء وطر أو نيل مطمع. وبالجملته فقد كانت أطواره وطباعه تناقض ما عُرف عن أفراد الطبقة الرفيعة التي حشرته الظروف في زمرتهم، وكان والده الموهار في مقدمتهم فضلا وشجاعة وكرما.

ولم يكن بعاصر بخيلا بل كان بما أسنى له من الرزق عليه من العيش رخي اللبب كثير البذل. ومما يؤثر عنه أنه أنفق أموالاً طائلة مما أخلفه له والده في سبيل الخير والبر، غير أن نقائصه الشائنة وعيوبه الفاضحة أفقدته الصواب فلم يعد يستطيع وضع الأشياء في مواضعها أو يقدرها قدرها. وكان إذا أجزل لأحد العطاء تقاضى منه في مقابل إنعامه عليه إتاوة الثناء على شمائله وضريبة الإطراء في كرمه وسخائه، وربما تعسف في الطلب فركب المركب الخشن وأتى من قبيح الفعل ما لعل سببه أنه كان يرى حقاً لنفسه الظهور بالصرامة والعزم على مرأى من الناس جميعا حتى من أسداهم الجميل ووصلهم بالمنح. لذا كان لا يجنى من غراس فعالة الحميدة غير العداء له والحقده عليه. وكان أخص ما يعرف به من الخصال الكبرياء والصلف، إلا أن غباوته كانت تبدو من خلال هذه النقيصة واضحة كالشمس بين السحب الكثيفة. وما يُعرف من صفاته المحسوسة خشونة صوته وصلصلته في رداءة تجزئة عند الكلام، واتساع وجهه في انبعاث يشوهه، وقصر جسمه في اختلال تناسب وانعدام تجانس وضيق عقل لا يدرك معه لطف الإشارة ولا حسن الإنباه. ولقد كان يفضل الإقامة في المعسكر عليها في المدينة لأنه في المعسكر غير مقيد بما يصده عن جماحه في غوايته وتخبطه في أباطيله واسترساله في شهواته. أما المدينة فإنه فيها مضطر إلى مخالطة أمثاله فلا ينعم بينهم باله، بل يشعر أنه دخيل فيهم

وأنه أدنى منهم مرتبة. تلك هى علة إيثاره العزلة عن الناس وتجنبه مخالطتهم، فإذا أجاب دعوة أمينى فما هو إلا ليظهر فى مظهر العاتى المتجبر المتغشمر.

وجرت العادة بأن لا يمد السماط إلا فى منتصف الليل ليشهد المدعوون ما يعرض على البحيرة المقدمة من المرائى العجيبة وليسمعوا الأناشيد والمدائح التى صاغ الشعراء قلائد نظامها وافترعوا أبكار معانيها تمجيداً لإيزيس وأوزيريس. ومع هذا فإنه ما ولج مكان الاحتفال الذى بلغ بزينته منتهى الأبهة والجلال حتى رأى المدعوين مجتمعين وتجلى له (أنى) مستويماً على العرش إلى يمين أمينى وأمامهما المائدة الكبرى، وقد صُفّت حولها كراسى خالية من الجالسين، وكانت مخصصة لبعض كهنة هيكل آمون الذين دُعوا لشهود الاحتفال ثم امتنعوا عن إجابة الدعوة معتذرين. وما كان لتخلفهم عن الحضور من سبب صحيح سوى إخلاصهم الولاء لرعمسيس وارتياهم فى صدق نيات أمينى على وجه ألزمهم اعتبار جكاية المعجزة حيلة مبتدعة لدس دسياسة وتدبير فتنة انتقاماً منه فيما أظهره من الإيثار لكهان طيبة الاموات^(١).

لما دخل يجاكر هذا المكان واتجه نحو المائدة كان يجلس إليها القائد العام للجنود

(١) تبرع جميع ملوك الدولة الحديثة بالأموال الطائلة لهيكل الكرنك، وأقدم اسم نقش على جدرانها هو اسم أوزرتسن الأول من الأسرة الثانية عشرة. وقد عُطلت أعمال العمارة فيه فى عهد الهكسوس أى عرب الرعاة ولكن ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة اهتموا بتوسيع نطاقه اهتماماً عظيماً فبلغ من السعة والفخامة وحسن التتميق ما لم يبلغه هيكل آخر. فإن القاعة الكبرى منه التى بُدئ بها بإنشائها فى عهد رعمسيس الأول وتمت فى عهد سيتى وزينت بالنقوش والرسوم فى أيام رعمسيس الثانى كان تحتوى ١٢٤ عموداً وكان يبلغ طولها ١٠٢ متر وعرضها ٥١ متراً. وقد ضم رعمسيس الثانى هيكل الأقصر إلى هيكل الكرنك وأتم نظامها بمبان بلغت الغاية القصوى من الإتقان والفخامة. وكانت الهدايا والقرابين والتبرعات تنصب فى خزائن ذلك الهيكل الجليل كالسيل الغزير وكان كل فرعون يلى الحكم يجارى أسلافه فى العناية به.

الظافرة العائدة من الحبشة وفريق من عظماء الضباط، فرأى بجواره مكاناً خالياً فسارع إليه وما تاهب للجلوس فيه حتى رأى هذا القائد يوعز إلى جالس على مقربة منه أن يسبقه إليه ففطن بعاكر لهذا الإيعاز وفهم منه أن القوم لا يتقبلون مثوله بينهم فولى عنهم مدبراً وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ويمد بصره أمام وخلف للبحث عن مكان يليق به، بينما كان ذلك القائد يتمتم لسانه بالكلمات الآتية: «إن نبئذى يحمض إذا نظر إليه هذا اللفظ الغليظ» أى أن مجاورته إياه تفضى إلى غضبه وتذمره منه.

انصرفت الانظار نحو بعاكر وحومت عليه دون أن يدعوه أحد إلى الجلوس، وأحس أنه دخيل فاحتدمت نار الضغينة في صدره وبدأت أمارات الغيظ على وجهه وعن له أن يفصح من قاموا بترتيب الاحتفال، فاتجه إلى الباب من فوره، غير أن الوالى شهده وهو عائد ففطن في الوقت الى حقيقة قصده وسار أمينى في أمره فدعاه هذا إليه ورجا منه أن يجلس إلى جانبه مؤكداً له ان المكان الذى يدعو الى الجلوس فيه كان معداً برسمة ومحجوزاً له، والحقيقة أنه كان مما خلا على أثر رفض أنبياء هيكل آمون وكبار كهنته إجابة الدعوة إلى الوليمة. فما استقرت هذه الكلمات في أذن بعاكر حتى انجلى كربه واهتزت نفسه سروراً، فأحنى رأسه شكراً وإجلالا وجلس في الكرسي مطرقاً برأسه خشية أن يرى حوله من يرمقه بعين الاحتقار ويستكثر ما لقيه من مظاهر الحفاوة والإكبار.

غير أن الهواجس لم تلبث- وقد استقر في مكانه- أن خامرتة فأنشأ يقول جلس والدى مراراً في مثل هذا المكان وكذا جدى ومن قبله أجدادى الأولون، فلم لا أجلس فيه مثلهم وأنا غصن دوحتهم ووارث مجدهم؟.. ألم يكن لأسرتنا الفضل على رعسيس بإخلاصها في خدمته؟ وبينما كان تائها في بيءاء هذه الهواجس إذا بخادم

أقبل عليه ووضع غصنا منضداً بالأزهار على كتفه وتلاه آخر سكب في قدحه النبيذ ووضع أمامه من ألوان الطعام ما يسيل له اللعاب، فرفع عندئذ رأسه فكان أول من أبصر به النبي الثاني جاجابو وهو يرشقه من نظرات السخر والاستخفاف بسهام حادة، فعاد إلى الإطراق حياءً واستخذاءً وأحس بنفسه الصغار والهوان. ولقد حانت من الوالى التفاتة إليه وهو في هذه الحيرة فهمّ بتخليصه من هذه القيود، إذ أخذ يطيب نفسه برقيق اللفظ وعذب المؤانسة وقال للحاضرين: إن الموهار سيرحل غداً إلى البلاد السورية لأداء مهمته الخطيرة. وأردف هذا القول بالإطراء في مدحه والثناء عليه، فلم يجاوب بعاكر بكلمة على هذه التحية الجميلة ثقة منه بأن الوالى كان يتكلف الظهور بهذه الرعاية ليبرر للحاضرين إجلاله إياه إلى يمينه أى في أشرف مقام وأسنى مكان، ولكن صمت الموهار لم يمنع الوالى - حينما حان أوان تعاطى الشراب - من تمنى الفوز لبعاکر في كل ما نيط به من جلائل الأعمال.

وأردف الكاهن الأعظم هذا التمنى بالثناء على بعاكر بالنيابة عن كهنة هيكل سیتی، لأنه كان في اليوم السابق تبرع للهيكل بقطعة أرض جيدة التربة^(١) وما ختم أمينى ثناءه حتى ارتفعت من السامعين أصوات الاستحسان والتصديق وثلج صدر بعاكر ورضيت نفسه ونعم باله، إلا أن علامات الألم من الجرح الذى بيده كانت ظاهرة على وجهه وفهم الوالى ذلك فسأل: أبيدك جرح؟ أجاب: نعم بها جرح ولكن لا خوف منه، وسببه أنى كنت أرافق والدتى إلى الزورق فسقط على يدي.. فقاطعه أحد كبار ضباط حامية طيبة مازحاً، وكان من رفاق بعاكر في المدرسة:

(١) توجد وثائق كثيرة تتضمن بيان تبرعات الملوك والكبراء بالأراضي الزراعية للهيكل. وكان الأغنياء من الأمهين يقتدون بالملوك إذ كانوا يتبرعون بمبالغ جسيمة لترميم المعابد وتوسيع نطاق الهيكل كما فعل الغنى (أمن أم أبت) في هيكل مدينة أبو.

سقط على يده مجداف أم عصا؟ فسأل الوالى: أو هذا من الممكنات؟ قال الضابط: نعم، وقد وصلت إلينا تفاصيل ما وقع في تلك الليلة ومنها يفهم أن الذى جرحه شاب في مقتبل العمر وأنه قتل كلبه قبل أن يجرحه في يده.

فسأل متولى أمور الصيد بصوت الأسف: أو قُتل كلبك ديكر!.. إن والدك كان كثيراً ما يحضر به للصيد والقنص وكنت أصيد معه جنباً لجنب، فصادق بعاكر بإشارة على هذا القول. وكان يود أن لو ينتهى الحديث في الموضوع لولا أن قائد الحراس الذى له من سمو المرتبة ما يبيح له الكلام قال ساخراً منه غير مكترث بما بدا على وجهه من علامات الحياء والاستخذاء: نعم ، وما صرع الفتى الكلب حتى قهرك وجردك من سلاحك. سألت أنى: وهل أفضت المعركة إلى هرج بين الناس؟ اجاب قائد الحراس: كلا، فإن الاحتفال انقضى على ما يرام من السكنية والسلام. ولو لم تعرض حادثة المحنط بينم الذى بما اعتراه من الخبل والجنون أخل بنظام الموكب فترة من الزمن لساغ لنا القول بأن هذا النظام بلغ من الإتقان أقصى حدود الإمكان. وقد أصبح لزاماً علينا الآن أن نشكر للمحتفلين حرصهم على النظام اجمعين. ولكن قل لى يا بعاكر: ماذا استلان قسؤادك واستل من قرارة نفسك كمين الحقد حتى تنازلت عن الانتقام من ذاك الشاب الذى أصابك بيدك وصفح عنه هذا الصفح الجميل؟ قال جاجابو: أصحیح ما تزعمه من صفحه عنم اعتدى عليه وما عرفنا عنه الا الغلظة في معاملة الناس والغدر في التشفى منهم لأقل حادث؟

تحول أمينى نحو جاجابو ورشقه بنظرة فهم منها مراده، وأنه كان لا ينبغي له نقل الحديث إلى هذا الوضع فسرعان ما تحول من هذا التهكم على بعاكر إلى الظهور بمظهر المهتم بأمره المشفق عليه إذ سأله عن أسباب المعركة وعن الفتى الغر الذى

تعدى عليه بالضرب والإهانة. أجاب: إن طغمة من الاشرار الاغرار راموا أن يحولوا دون رسو الزورق الذى أعدته لكى تعبر والسدى به النهر على الشاطيء بيتفون بذلك المرور قبلنا فأفهمتم أن تقدمنا عليهم حق ثابت لنا، وبينما كنت ماضياً فى حديثى إذا بفتى شريـر توثب على فصرع كلبى ديكر ثم.. ولكن قسما برأس والدى الاوزيسى الذى طالما أكرم هذا الحيوان الأمين الشريف أنه لو لم تقف بينى وذلك الفتى المغرور امرأة قالت إنها ابنة رعمسيس، ولولا أنها بهذا الاعتراض منعتنى من الانتقام لنفسى لكانت التماسيح الآن تنتاب فى قباغ النيل جثة ذلك الغر الذى يخيل لى أنه راميرى المنبوذ منذ أمس من مدارسكم نبذ النواة.

فلما سمع متولى الصيد والقنص هذا القول قال: قف مكانك يا حضرة الموهار، فلست أنت بالثمل حتى تخبط فى حديثك خبط عشواء. كيف تجرؤ على ثلب أبناء رعمسيس والنيل من كرامتهم بمثل هذا التلبيس؟ وكان بعض الضباط الحاضرين من الموالين للأسرة المالكة قد ساءهم سماع هذا الافتراء، فمال أمينى على بعاكر وسارّه أن يلزم الصمت ثم قال بصوت جهير مخاطباً متولى أمور الصيد: بدا من خلطلك فى كلامك وعدم تدبرك مصائره ما أوقع فى روعى أنك مصاب بحمى، تعال يا جاجابو لنفحص جرح بعاكر ولنقرر ما يحتاجه من علاج.. أرى فى الاعتداء من أمير كراميرى ما يحط من كرامة المعتدى عليه ويزرى بشرفه. فأخذ جاجابو يد بعاكر وبعد أن نزع عنها ما حولها من الضماد صاح: رياه!.. لقد كانت الضربة شديدة تكسرت بسببها عظام ثلاثة أصابع.. انظر يا بعاكر زمردة خاتمك.

ما ألقى بعاكر نظره على الجرح حتى ساد على عقله إيمانه بالأوهام الباطلة، ولم يعد يشعر بالألم. وما كاد يوقن أن فص الخاتم قد شدخ، وهو الفص الذى كان

رعمسيس أهده إلى والده لا الذي أهده إليه تحتمس الثالث حتى زفر زفرة الاغتباط والرضاء وأحس بالهموم وقد انجلى صداها عن صدره. وزاد اغتباطه أن أجزاء الخاتم تطايرت حتى لم يبق به أثر من كلمة رعمسيس المنقوشة فيه. واضطربت شفثاه بعد ذلك وسمع هاتفاً يقول له: لقد رسمت الآلهة لك الخطة التي يجب عليك اتباعها، لأنه وقد انمحي اسم الملك من الفص وذهب هياء فلا بد أن يخسر صولجان الملك. قال جاجابو: يحزننى بل ويكمدنى أن يضيع الفص دون اليد التي كانت تتحل به.. ولكن حمداً للآلهة أن جعلت الإصابة باليد اليسرى.. والذي أراه أنسب بحالك الكف عن الشراب والبحث عن نبسشت فإنه هو الذي يستطيع دون سواه معالجتك واعادة العظام المرصوصة إلى مواضعها طبقاً لقواعد العلم، فهممّ بعاكر بالانصراف واعداء الكاهن الأعظم والوالى بالعودة نهراً لمقابلتهما. وما كاد الباب يُغلق من خلفه حتى قال أمين صندوق الهيكل وكان يشيعه بنظره: لقد لقي الموهار اليوم من شؤم طالعه ما ينبغي أن يكون له العظة الزاجرة. وهو ما زال مصراً على إرادة الجهل بها حتى الآن وهو أن المرء في اختلاطه بالناس واحتكاكه بهم ينبغي أن يعاملهم بغير ما يعامل به الجنود في المعسكر. وإن تأذنوا لي فإني أقص عليكم حادثة وقعت له ليس فيها ما يرتاح له الفؤاد أو يتلج منه الصدر. فصاح المدعون جميعاً: نعم! نعم! هات ما عندك هات. قال أمين الصندوق: أتعرفون الشيخ سيني؟.. هذا الرجل المعروف بثروته الواسعة تبرع للفقراء بكل ما تملكه يمينه، لأن أولاده السبعة لبوا نداء الآلهة وهم في مقتبل العمر إما في ميدان القتال وإما مرضوا بمختلف الأمراض. ولم يحتفظ لنفسه من تلك الثروة الطائلة بغير حديقة وبيت صغير. يعتقد هذا الشيخ أن الآلهة دعوا أبناءه إلى السماء فلبوا دعوتهم فرحين مستبشرين وأنه لم يبق عليه بعد مفارقتة إياهم إلا إسعاف المنكوبين ومواساة

البائسين ومراعاة أوامر الدين القاضية بإطعام الجائعين وإرواء العاطشين وكسو العرايا والمقرورين. ولقد استنزف في هذا السبيل كل ثروته فلم يبقَ عنده منها ما يدفع عادية الجوع والعطش وطوارئ الجو عن نفسه، وهو لذلك ما برح يقطع أقطار المدينة ويجوب أنحاءها جائعاً عاطشاً عارياً يستندى أكف السابلة، فإن تصدقوا عليه بشيء بذله للفقراء كيلا تنقطع عنهم سلسلة إحسانه. وقد عرف الناس منه هذه الشيم العالية فتراهم يتسابقون إلى الصدقة عليه، وشهدته اليوم حاملاً زقه يسأل المارة إحساناً ناظراً إليهم بعين الابتهاال وخص بالسؤال من بينهم بعاكر، فسرعان ما نأى عنه بجانبه وصاح فيه قائلاً: إليك عنى.. واخساً لا تتعلق بأذيالى. ولكن الشيخ لم يعبا بهذه الإهانة بل اقتفى أثره طمعاً في إحسانه وأحف في السؤال، فدار بعاكر على كعبه وضربه بسوطه ضرباً مسرفاً وقال: ها هى الصدقة التى تلح في طلبها، فتلقى الشيخ الضرب بالاحتمال والتجلد ومدّ يده بالزق إلى بعاكر وقال له وهو يذرف الدمع غزيراً من عينيه: إذا كان ضربك إياى نصيبى من صدقتك فأين نصيب الفقراء؟..

وكنت ساعتئذ ماراً بجوار بعاكر فرأيتته يتسلل كالحرباء حتى دخل كهفا معداً لجثث الأموات. فاعتنمت والدته البائسة فرصة اختفائه فأفرغت ما معها من النقود في زق سيني. فما لحها الناس مقبلة على الصدقة حتى سارعوا إلى الاقتداء بها في التصدق عليه، إذ بسطوا له الأيدى بالإحسان إليه، فاجتمع عنده من الصدقات والمبرات ما لم يخطر له ببال.

وكان الجالسون إلى المائدة مقبلين على سماع هذا الحديث بطيب نفس لأن الإنسان مفطور على حب سماع الذم فيمن اشتهروا بالتجبر والصلف والطموح الى

مالا يناسب حالهم من المعالي وشريف الرتب. وكان أميني وأنى فى أثناء ذلك يتناجيان إذ كان الأول يقول للثانى: لقد شهدت بنت أنات الاحتفال من بدئه الى نهايته. قال أنى: لعلها كانت تود أن تتحين الفرصة للقاء الكاهن الذى شملته برعايتك، قال أمينى: لا بأس من سؤال بنطاؤر عن هذه الامور. قال أنى: أرى فى الظروف الحاضرة أن استدعاء الشهود لسماع أقوالهم تدبير سابق لاوانه. قال أمينى: وهل أنت بحاجة إلى شهود وقد عهدت فى شاعرنا الصراحة والصدق ولو أحرقة الصدق بنار الوعيد. قال أنى باسماء: لنبرح هذا المكان فإنى أحب أن أراه فى متنازع بين الصدق والإنكار.. وهل نسيت يا صديقى أن للمرأة فى هذه الحادثة ضلعاً؟ قال: صدقت فإن الحوادث بلا نساء كالطعام بلا ملح.

ثم دعا إليه جاجابو وعهد إليه برياسة المادبة بالنيابة عند ووصاه بمجاملة المدعويين وتحريضهم على الشراب ومنعهم عن الخوض فى أحاديث الملك أو الحكومة أو الحرب ثم قال له: ولا يذهب عليك أننا اليوم فى قوم من الأجانب وأن النبيذ فاضح للأسرار هاتك للستار، وأن أس التدبير أن يتلفت الإنسان يمناً ويسرة فى كل خطوة يخطوها ليتقى شرور من يترسمون أثره لتسمع ما يقول وتريص السوء به، فلا تنس هذا ولا يبرحن عن بالك!

فضرب أنى بكفه كتف الكاهن امينى كما يمزح الصاحب مع صاحبه وقال: أما أن المدعويين سيستنزفون فى هذه الليلة ما ادخرته من النبيذ العتيق فهذا ما لا خلاف فيه. ولقد اتصل بى أنك لا تهتم بأمر الشراب وأنت لا تفرق بين الكأس ممتلئة بالشراب والقدر فارغاً منه ولكنى أنصح إليك إذا طاب لك الشراب أن تطلب من

تابعى ذلك الواقف هناك ليملاً قدحك بنبيذ ببلوس^(١) فإنه خير الأنبذة طعاماً ولونا على الإطلاق.

وكان مما جرت به عادة أمني أن يبرح مائدة الطعام عندما يهجم القوم بالشراب فلما ترك مع أنى بهو الاحتفال علت ضوضاء بين المدعويين، وجاء الخدم والحاشية بأغصان الأزهار يطوقون بها أعناقهم وتبعهم غيرهم يحملون أباريق الشراب ليملاًوا بها الأقداح الفارغة، وسُمت في أثناء ذلك الحان موسيقية تهز النفوس لحسن صنعها وصحة تجزئتها، فما هي إلا فترة من الزمن حتى وصلت إلى بهو الاحتفال جوقة من الموسيقيين يصدحون بالأنغام المطربة وفي طليعتهم رئيسهم موجهها وجهه إليهم ضارباً بأطراف أصابعه اليمنى على كفه اليسر لوزن الأنغام وضبط الإيقاع وأدائه الأداء الصالح في تطابق تام وحسن انسجام، وأخذوا يطوفون حول المدعويين ويواصلون العزف حتى دب الحماس في نفوسهم فأخذوا ينقرون على أقداحهم البلورية مراعين في الضرب والتلحين موافقة الموسيقيين.

تلالات وجوه الكهنة عندئذ وأبرقت أسرتهم ومضى الضباط في المطايبية والتملح بعضهم مع بعض بينما كان جاجابو يشير إلى شاب من خدمة الهيكل فأقبل عليه مكلل الهامة بأكليل من الأزهار ويده مومياء صغيرة مذهبة طفق يطوف بها على المدعويين قائلاً لكل مدعو «كل مريئاً واشرب هنيئاً واطرح الهموم ظهرياً فعماً قريب تصوير مثل هذا»^(٢) ثم دعا النبي جاجابو بتابع الوالى الذى كان يحمل أبريق نبيذ ببلوس فشرب منه كأساً دهاقاً بعد كأس حتى انتشى واتقدت في قلبه نار الغيرة على

(١) بلدة في فينقيا كانت شهيرة في ذلك العهد بكرومها.

(٢) أشار هيرودت إلى هذه العادة في الجزء الثانى من تاريخه.

أنى فأخذ يطربه ويتبسط في تعداد مناقبه. وكان بين الحضور كاهن معروفاً بالوقار وحسن السميت فلما لعبت الخمر المعتقة بعقله خرج عن أفقه وانطلق لسانه من عقاله فقال: ما أطيب هذا النبيذ وما أجود طعمه وما أشبهه بالصابون! قال جاجابو: هذا تشبيه غريب في بابه فماخبرنا عن أسبابه. قال الكاهن: إن النبيذ يطهر القلب من أدران الهموم والأكدار فهو من هذه الجهة كالصابون الذى يطهر الجسم من الاقذار. قال جاجابو: لله درك أيها الكاهن، ولا قُض فوك. ثم التفت إلى بقية الكهنة وقال: ليات كل منكم بمثل سائر وقول معروف في مدح هذا الشراب والتنويه بحسن أثره، ثم التفت إلى النبي الأول لهيكل أمينوفيس وقال: هات ما عندك، هات فأنت أول من يشنف سماعنا بتلك الآيات البينات. قال النبي: الحزن سم ترياقه النبيذ. ثم تلاه المستشار الخاص في معية الملك فقال: لكل شيء سر، وسر النبيذ الفرح. وانبرى أمين الاختام بعده فقال: النبيذ يطرد الهم من عتبة البيت ويوصلد دونه الباب. واقتفى أثره حاكم هرمونتيس وكان من المعمرين فقال: النبيذ ينعش أفئدة الشيوخ ولا يفيد الشباب.

هنا صاح الحضور: هذا قول مبهم يحتاج إلى بيان فضحك الشيخ حتى بانث نواجذه وقال: أى بيان تبغون والقول من البداهة بمكان؟ ألا تدرون أن النبيذ يبعث الهممة والنشاط في نفس الشيخ ويكسب الشاب أخلاق الصبية؟ قال جاجابو ملتفتاً للمدعوين الشبان: لا تنسوا هذا البيان معشر الشبان. ثم قال لرئيس المنجمين: وأنت هات ما عندك من الأمثال. قال: النبيذ سم نافع وشراب يستل من الرأس العقل النافع. قال جاجابو ضاحكا: إذا كان الأمر كما تقول أيها الصديق فليس لمثلك أن يخشى عاقبة الإدمان فدونك والشراب!. ثم التفت إلى ضابط الصيد والقنص وسأله: وأنت هات ما عندك من الأمثال قال، إن الكأس تشبه حافظتها الحسناء فمن

احتسأها كان كمن ارتشف الرضاب من ثغر الاحباب. ثم التفت إلى قائد وسأل:
وأنت يا حضرة القائد؟ أجاب: أود أن يجرى في النيل بدل مائه الدافق مثل هذا النبيذ
وأتمنى أن يضخم جسمى حتى يصبح كأحد تمثالى أمينوفيس، وأن تكون بيدي
كأس يبلغ ارتفاعها مسلة حاتاسو^(١) لاجرع بها ذلك الشراب وأسكر حتى لا
يهمنى أحضر عقلى أم غاب. وإذا قد جاد كل منا بما في نفسه من الأقوال فعليك أن
تتحفنا أيها النبي المحترم بما في خزائنه ذا كرتك من الحكم والامثال.

رفع جاجابو رأسه رويداً رويداً وأدنى الكأس منه وأخذ يحدق فيها بنظره
مستتباً كما يفعل العاشق المتوله إذا رمق معشوقه الكثير الصد، وبعد أن شرب
منها متمهلاً أرسل إلى السماء نظرة من نظراته الحادة كأنه يستنزل وحيها وقال:
إن منزلتى لا تخولنى النهوض بمفروض الحمد والشكر لآلهة تلقاء ما غمرونا به
من جزيل النعم. قال الوالى أنى وكان داخلا من الباب دون أن يشعر به أحد: أصبت
أيها الكاهن، ولو كان لنبيذى لسان لما عجز عن أداء حق الشكر لك تلقاء تنويهك
بذكره على هذا النسق البديع. فما بلغ صوته إلى مسامع الحاضرين حتى هموا
واقفين وقالوا: السلام على الوالى. فسلم عليهم واستأذنهم فى الانصراف، ثم قال:
أدعو إلى تناول الطعام غدا كل من طاب له تعاطى هذا النبيذ حتى إذا سره شرابه فى
الغد كما سره اليوم فتحت له باب دارى فى كل مساء ليتعاطى ما شاء من الشراب.
وليكن خير وافد وأكرم ضيف وأجدر بالإكرام والترحاب.

ما كاد يتم أنى هذه الكلمات حتى دوت أركان المكان بالتصفيق وصيحات
السرور وتضاعف دوى الهتاف له حينما دنا من الباب وشيعته الأفئدة والألباب.

(١) هى المسلة التى مازالت قائمة فى هيكل الكرنك، ويبلغ علوها ٢٣ متراً. ويبلغ ارتفاع المسلة التى
نقلت من الاقصر إلى باريس وأقيمت بها فى ميدان الكونكورڍ ٣٢ متراً.

وليث المدعوون في تعاطى شراب وهرج واضطراب ولم يزايلوا مكانهم إلا بعد أن تنفس الصباح وكلل هامات الجبال بتاج لجيني من ضيائه المتألق. وكانت العادة في مثل هذه الظروف أن السواد الأعظم من المدعوين يقيمهم العبيد من الجانبين أو يحملونهم من الذراعين والقدمين ليضعوهم في المحفات ثم يسيرون بهم إلى دورهم شتى وزرافات، ولكن الكاهن الأعظم أمر بإعداد الأسرة لهم داخل الهيكل لهبوب العواصف المريضة وهياج عناصر الطبيعة.

وبينما كان المدعوون مقبلين على الشراب لا يكفون عن الضحك والاسترسال في التطايب والمالحة بلطيف النكات، كان الشاعر بنطاؤر في غيابة السجن جاثياً على ركبتيه باسطاً إلى السماء كفيه لا يفتر عن الدعاء والصلاة، وقد تجرد لهما حتى لم يشعر بالرسول الذي أنفذه الكاهن الأعظم يستدعيه إليه ليستجوبه في حضرة الوالي عن حوادث اليوم الماضي. ذلك لأن بنطاؤر كان يجهل حقيقة الحب ومقدار سلطانه على القلب فأصبح من نفسه في حרב عوان، إذ كان تارة يتغلب عليه بقوة الإقناع وطورا يذل له بما فُطر عليه من الميل وسرعة الاندفاع. وكانت عاداته في كل مساء قبل الاستسلام إلى الراحة من العناية أن يعرض على ضميره صحيفة سلوكه وأعماله في اليوم الماضي ويحاسب نفسه حساباً عسيراً ويوازن بين حسناته وسيئاته، فإن خفت موازينه ولو بمئقال ذرة انحى عليها باللائمة. ولكنه في تلك الليلة لم ينظر أمامه غير الظلام الحالك ولم يوجه إلى ضميره كلمة لوم قارص ولم يتمثل لخاطره غير صورة خيالية واحدة هي صورة بنت أنات التي كانت تتجلى له في أجمل المظاهر فتسلبه المشاعر وتحيطه بسياج متين لا منفذ فيه للخلاص.

وزاده اضطراباً وحيرة في تلك الليلة أنه لم يعتد على أحد بالضرب من قبل ولم

يسفك قط دما فأخذ يقرع نفسه على سوء فعلها ودبت الوسواس في ضميره. ولكنه كان كلما استمكنت هذه الخيالات من نفسه أحس بالجند الموكلين بحفظ الامن يهونون بأيديهم الجافية على ناصية وردة ولح كان بنت أنات تحديق فيه النظر تستحثه على إنقاذ الفتاة وتستنهضه إلى تخليصها من أيدي الظالمين فلا يسعه إلا تلبية نداءها بالمبادرة لتنفيذ طلبها. وكان يخيل له في أثناء ذلك أنه يراها تتابع حركاته بنظرها فتبث فيه الإقدام على القيام بالمهمة الخطيرة التي عهدتها إليه. وما كان له أن يتخلى عن تنفيذ أوامرها لأنه كان -فضلا عن انصياعه لميوله القلبية- يشعر بأن ما عمله يطابق الواجب تمام الانطباق، وأنه لا لوم عليه ولا تثريب على الإطلاق.

على أنه ما نشب أن تبين مما مرّ به من الحوادث أن مستقبله في الحياة قد أخذ سبيلا أخرى أجدر بالاعتبار وأحرى.. ألم يخالف التقاليد التي رسمتها عليه النصوص الكهنوتية.. ألم يرسخ في عقيدته أن التقيد بالقيود السابقة وحصص النفس في دائرتها الضيقة أصبح مستحيلا، وإن توافرت في هذه الدائرة أسباب الراحة والهناء والبعد عن الهرج والضوضاء!؟

لما عبثت به لجات الحيرة وقذفته على ساحل الشكوك والريب مد يد الضراعة والابتهال إلى الإله الواحد ذي الجلال أن يكلاه بعين رعايته ويسبل عليه ستر حمايته، ثم حلق بأجنحة الفكر في سماء الهداية والتمس من والدته التقية الرحيمة أن تشد أزره في التماس الطمأنينة لقلبه والراحة لضميره والقناعة بحاله، غير أن إخلاصه في التوكل لم يعصمه من الوقوع فيما قدر له منذ الأزل. لأنه كان كلما بالغ في الإنابة والطاعة وبذل في ذلك جهد الاستطاعة شعر في نفسه بدافع لا يقوى على

رده يلقى به في تيار لا غاية له من الامانى والامال. ثم يتولاه الذهول فيقع في وهدة اليأس من الرشيد والقنوط من الهداية إلى سبيل الصواب يضرب صدره أسفاً وحسرة معتقداً أنه ارتكب جرماً لا يغتفر وذنباً لا شفاعة فيه، وعض أنامله حزناً وندماً.

كان بنطاؤور في هذا النزاع الشديد بين أهوائه النفسية ووازع الضمير حينما وفد عليه رسول الكاهن الأعظم. فلما وقف على مهمته قام من فورهِ تلوح عليه علامات البشر والاعتباط لا علامات الخوف أو الامتعاض . فلما صار في حضرته روى عليه الحوادث بتفاصيلها وشرح كيف أنه نازل طغمة الأشرار، ثم وصف الخطر الذي أهدق بوردة من تعديهم عليها وتضافرهم على الفتك بها حتى اضطر إلى الإقدام على حمايتها. وذكر ما كان من جهاده في ذلك حتى تمكن من خلاصها وفاز هو بالنجاة من أيسر أو لعلب السليمانية.

فقال أمينى: ولكن أجهلت أنك للوصول إلى هذه الغاية قتلت أربع أنفس ممن حرمت الآلهة قتلهم وجرحت ضعف هذا العدد من أنفس أخرى؟ وما الذى عاقك عن مكاشفة القوم بأمرك وأنك من الكهان ليكفوا في الحال عن العدوان .. لم لم تخبرهم بأنك أنت الذى قام فيهم خطيباً فخلب البابهم ببلاغته وملك أفئدتهم بفصاحته.. لم لم تجتهد في تسكين الخواطر الثائرة بما اشتهر عنك من شدة التأثير في الحث وقوة الحجة في الإقناع.. لم عدلت عن هذه الوسائل كلها مؤثراً عليها القوة الجائرة؟ أجاب بنطاؤور: لم أكن ساعتئذ في ملابسى الكهنوتية. قال أمينى: هذه غلطة فوق تلك الغلطات وذنوب أشد وأنكى من تلك الذنوب.. أنسيت أن القوانين تحرّم عليك مبارحة الهيكل في غير زى الكهان المعروف بلونه الأبيض من قديم الزمان..؟ أتتكر

أنك لو كنت على الاقل لابساً ثياب العمل لكفت كلمة منك لصد المعتدين، أم كنت تجهل ما خولته من نفوذ الكلمة بين أفراد الأمة؟

قال بنطاؤور: لا أنكر أنه كان باستطاعتي أن أصد الناس عن التعدي لو لبست ذلك اللباس، ولكنهم كانوا قد اندفعوا في تيار الغضب والانتقام فلم ينفع معهم غير انتضاء الحسام، على أنى لم أجد من الوقت ساعتئذ فسحة للتفكير في ذلك الأمر، لاسيما وقد رأيت أحد الهمل المتشردين قد انقضَّ على الفتاة المسكينة كالذئب الخاطف وجذبها من شعرها فلم أتمالك من الاندفاع لإنقاذها غير مفكر في أنه ربما عرّضت للموت حياتي، وسرى في عروقي دم الغيرة والحمية بحيث كان في قدرتي أن أقتل ألف نفس بدون أن أحسب حساباً أو أخاف عقاباً.

قال أميني: أرى في عينيك لمع البرق الخاطف ، ولربما كنت الآن تعتقد أنك جئت بما عجز عنه الأوائل من آيات البسالة في حومة الوغى.. أما علمت أن الذين قاتلتهم وأصبتهم هم أبناء وطنك البررة وأنهم كانوا عزلاً من السلاح كما لم يكن معهم من يدفع عنهم السوء، وأنهم إذا استشاطوا غيظاً فما هو إلا للغيرة على الدين حينما رأوا أن الدنس كاد يلحق به بسبب ذلك الشيخ الدنيء.. من أين جاءتك تلك الحمية العسكرية والحماسة الحربية وأنت لم تخرج عن كونك ابن بستانى يتفانى في خدمة الربوبية في اخلاص وسكون؟. قال بنطاؤور: لما رأيت القوم قد تكاثروا من حولي وأناى تاهبت للدفاع عن نفسى شعرت في قلبى بما يشعر به الجندى أو البطل الكمى إذا أحس ضرورة الدفاع عن الراية التى عهدت حراستها إليه. نعم لم أخرج عن كونى كاهناً وأناى بهذا الوصف اعترف بذنبى وأكفر عنه بقبول العقوبة عليه دون تدمير ولا مقاومة. ولقد شعرت بما طرأ على نفسى من العواطف فلم يسعنى إلا

العمل بمقتضاها. قال أميني: وتريد بعد هذا أن تكفر عن ذنبك بقبول العقوبة! ولكن لم أغفلت في سياق كلامك الحادثة التي ترتبت عليها نجاتك...؟ أتريد أن تعلم ما هي.. هي وصول بنت أنات في خلال تلك الحادثات وتدخلها بين الجموع وهو ما لم يكن منتظر الوقوع.. وتكذيبك للأميرة أمام القوم بأنها ليست بنت أنات، مما دل على معرفتك إياها بالذات وأنتك عمدت إنكار ذاتها لغرض في نفسك.. فجاوب على هذه التهم جاوب أيا من جعل نصب عينيه الترفع عن سفاسف الأمور ورفع بيمينه لواء الحق المنشور.

ماطرت هذه الكلمات أذن بنطاؤر حتى تربد وجهه واكفهر وشخص بعينه إلى أنى الذى كان عند سماعه هذه الأسئلة يلزم الصمت ثم قال: لا أرى مجال القول ذا سعة إذ لسنا هنا بمعزل عن الناس. قال أميني بفتور: الحقيقة واحدة لا تتعدد وماتريد الإجابة به عن سؤالى يجوز أن يسمعه جناب الوالى، فهل عرفت بنت أنات وأنها كريمة فرعون. إن الحق لا ينكره إلا الخاسرون؟. قال بنطاؤر وقد تخبل في أمره وارتاع: حقاً إن المرأة التى أنقذتني من الخطر تحاكي بنت أنات، ولكن أوجه الشبه بينهما لم تكن متوافرة في نظرى، ولو أنى نظرتك وأنت أستاذى ومهذب روحى ومتقف عقلى، الذى طالما أكرمنى ورفع مكانتى، ثم قذف بى من حالق في درك المهانة، أقول لو أنى نظرتك كما نظرت بنت أنات لعاملتك بما تؤاخذنى به بلا وجل ولا تردد... ألم يكن من واجبى إزالة الشبه في نفس الأميرة وصون كرامتها المستمدة من الألوهية والتي تسمو بها درجات على العناصر البشرية..؟ ألم تهبط من عرشها الملكى لتتخذ من الخطر رجلاً مثلى منحوس الطالع؟ أما كان فرضاً محتوماً على بعد ذلك التفانى في حمايتها ودفع الأذى عن ذاتها؟..

قال: أميني لا عجب، فأنت فارس الميدان في البلاغة والبيان. ثم تكلف العسف والتجبر في كلامه وقال: إنى أطالبك بأجوبة سهلة خالية من التعقيد. نحن موقنون أن بنت أنات كانت متنكرة بزى نساء العامة، وقد كاشفت بعاكر بحقيقة أمرها، وهو الذى أخبرنا بأنها شهدت الحلقة من أولها إلى آخرها وأنقذتك من مخالب الخطر.. فهل كنت تعلم أنها كانت معتزمة عبور النيل؟.. أجاب بنطاؤور: ومن أين لمثل الاطلاع على مكونات الصدور؟ قال أميني: لاريب أنك حينما تدخلت في الأمر، كنت تعلم أنها بلا اشتباه ولا تلبيس فتاة الملك رعمسيس. أطرق بنطاؤور رأسه وارتعدت فرائصه ثم قال: نعم كنت أعتقد أنها هي. قال أميني: إن طردك إياها مع اطلاعك على سرها وإصاقتك بها الغش والادعاء لنفسها بما ليس فيها لمن الوقاحة والجرأة بمكان. قال بنطاؤور: لست أنكر هذا الفعل إلا أننى رأيتها جازفت بكرامة والدها، إذ تقدمت لإنقاذى من الخطر، فأردت أن أفدى هذه الكرامة بحياتى وحرىتى وسمعتى. قال أميني: كفى! كفى.. قال أنى: وماذا تم في أمر الفتاة التى أنقذتها؟ أجاب بنطاؤور: أخذتها الساحرة نيخت إلى مغارتها كما أخذت جدتها زوجة الشيخ بينم.

انتهى الاستجواب هنا، فأعيد بنطاؤور إلى سجن الهيكل وما كاد يتوارى عن العيان حتى قال الوالى: حق لنا أن نخشى هذا الرجل لما يبيديه من التحيز لجانب رعمسيس. قال أميني باسمًا: بل لجانب كريمته بنت أنات.. إن تشييعه إليها هو ما يُخشى منه، وأما ميوله فيما بقى من أحواله فأنا من أعرف الناس بها. قال الوالى: ولكن راعنى منه جمال منظره وسعة مخبره وطلاقة لسانه وثبات جنانه.. إنى أريد سجنه عندى لأنه قتل واحداً من جندى. فعبس وجه أميني وقال بتؤدة: إن لهيئة الكهان وحدها الحق في محاكمة الخارجين عن القوانين من رجال الدين. وهو امتياز

ممنوح لها، فكيف تطالبني بذلك وأنت باعتبار كونك مليكننا والقابض في المستقبل على زمام أمورنا أقسمت بالمحافظة على هذا الامتياز، لاسيما وقد نصبنا أنفسنا للدفاع عن حقوقك المقدسة؟ فتبسم أنى وطمان الكاهن الأعظم قائلاً: سأستبقى امتيازاتكم مبسوطة دائماً، ولكنى أرى الخطر سيتهددنا بهذا الرجل فملت إلى الصرامة في معاقبته. قال أمينى: أما الصرامة فهى ما لا بد منه، ولكن ليس لأحد سوانا أن يجاسبه على ما قدمت يداه. قال أنى محتدماً غيظاً: ارتكب الرجل جريمة القتل بسفك دم أربعة أنفس كان حراماً قتلها بغير الحق فهو لعقوبة الإعدام مستحق. قال الكاهن الأعظم: متفق معك على أنه قتل أكثر من واحد، ولكنه كان فيما اجترمه مسوقاً بحقه في الدفاع عن نفسه. ولست أرى ما يدعو إلى التفریط في حياة شاب أقاضت عليه الآلهة أسمى المواهب، لمجرد أنه لم يجد سوى التجبر مركباً فركبه في ظروف غير ملائمة. وإنه ليلوح لى من قولك وحركاتك أنك تضمر له الحق، وهو ما يحملنى على الريبة في نيتك نحوه ويدعونى إلى الخوف على حياته منك، فعندى وعداً صادقاً إن كنت لى محالفاً ولمشروعى مؤازراً إلا تغدر به. فتبسم الوالى وقال: أعدك هذا الوعد. ثم مدّ يمينه مصافحاً، فقال الكاهن الأعظم: أشكر لك هذه المنن. إن بنطاؤر مقدّم على تلاميذى كلهم وهو أحقهم باحترامى ومحبتى رغم غلطاته المتكررة، وأناشدك الحق، أما لحظت وقتما كان يشرح لنا أسباب منازلته القوم تلك الشمائل التى كان يتجلى فيها فلا يسع الناظر إليه معها إلا القول بأنه آسا أو ابنه الموهار السابق الوالد الأوزرىسى لبعاصر رئيس الطلائع؟

قال أنى: لا بد مع توافق الشبه بينهما أن يكون وضع الأصل خامل الذكر.. وإلى أى أصل تمّت والدته؟ أجاب أمينى: أمه زوجة بواب الهيكل، وهى معروفة بحسن الخلق وسلاسة الطبع ولين العريكة. قال أنسى بعد أن أطرق رأسه مفكراً: إنى عائد

فوراً إلى المدعوين ولكن لي عندك حاجة أروم قضاءها، ذلك أنى كنت أشرت إلى سر يجعل بعاكر في قبضتنا وآلة في يدنا. وإن كان لا يعرف هذا السر سوى ساحرة أوت وردة عندها فمن صواب الرأى استدعاؤها هنا لاستجوابها في أمور أروم تحقيقها بشرط ألا يصرف هذا الأمر الخواطر إلى مشروعنا. فوعده أمينى بقضاء هذه الحاجة إذا بادر بإنفاذ الجند ليأتوا بالعجوز وأمر أحد أعوانه بإعداد قاعة الجلسات وإضاءتها بالأنوار الساطعات ووضع كرسي له في الحجرة المجاورة لها ليتسمع من وراء الباب ما يدور بين الوالى وبينها من السؤال والجواب.

الفصل الخامس

يبكى إحدى حسان طيبة الفاتنات.. وليلة التجليات

بينما كان ضيوف بيت سیتی يعاقر بعضهم النبيذ ويدير البعض الآخر الدسائس على ما يوافق أطماع الوالى، وبينما كان حراس الكاهن الأعظم يقطعون وادى المقابر ركضاً على الأقدام فى طلب الساحرة، هبّت فى وادى النيل ریح عاصفة اقترنت من ناحية الجنوب الغربى بريح السمائم التى كانت تطارد أمامها سحباً قاتمة اللون وتثير رملاً أسود فتذروه فى جميع الأنحاء وتلوى أشجار النخل العظام فتجعلها كالقوس إذا أرسلت منها السهام، وتقوّض أعمدة الخيام وتقذف فى واسع الفضاء قماشها فيبدو كالخيال الأبيض فى حالك الظلام، ثم تصدم وجه النيل فبعد أن يكون فى استواء المرأة يضطرب كالبحر الخضم فيلمتس راكبوه النجاة، وتصطم موجاته ضفافة بالتواتر كصفوف جيش انتضى جنده من السلاح كل حسام بآتر.

وكان بعاكر أنثى فى زورقه فأخذ يحث النوتية على بذل الجهود لبلوغ الضفة الأخرى. وكثيراً ما أشرف الزورق على الغرق ولكنه تلافى الخطر منذ قبض على الدفة وسير الزورق بنفسه حتى وصل فى أمان إلى الضفة الأخرى. وكانت الرياح لشدتها أطفأت المصابيح المعلقة بأطراف الأذقال إيذاناً بالرجوع، فلما هبط بعاكر البر من الزورق لم يجد بانتظاره أحداً من الخدم وحملة المشاعل فاضطر إلى اختراق الطريق الموصل إلى بيته فى حالك الظلام تعبث به الرياح المحرقة وتسفى على وجهه الرمال وتثير العثير. وكان إذا صار على مقربة من داره وسمع البواب نباح كلبه

بادر- وقد أيقن أنه عاد- بفتح الباب وقابله بالترحاب، غير أنه لما قتل الكلب اضطر النوتية الذين صحبوه لحراسته ومؤانسته في وحشة الطريق إلى طرق الباب ولبثوا يطرقونه بكل ما أوتوا من قوة زمناً طويلاً فتنبه البواب من نومه وهمّ بفتحه خائفاً مذعوراً.

وكان صحن الدار حالك الظلام لأن المصابيح كانت أطفأتها الرياح ولم يكن بها كلها غرفة مضاعة سوى مخدع ستخم. فلما أحست الكلاب همسه هو ومن صحبه من الحراس عوت عواء طويلاً فانقبض لسماعه صدر بعاكر إذ لم يتبين في هذا العواء هدير كلبه المحبوب. ولشدّ ما تألم قلبه وكسف باله لما أبلغ الشيخ الحبشى القائم على حراسة مخدعه قتل كلبه فبث أنين الحزن والشجو، لأنه كان شريكه في الحياة وقسيمه في السراء والضراء. وتغلب اليأس على بعاكر فألقى بنفسه على كرسى وسأل الحبشى ماء بارداً يضع فيه يده الجريحة عملاً بإشارة الطبيب نبسشت. فلما شهدها الخادم الأمين والدم يسيل منها صاح صيحة الجزع سائلاً: من الذى جرحك وقتل كليك؟ أما زال هذا المجرم الغادر على قيد الحياة؟ فأوماً بعاكر بإيماءة الإيجاب ثم أطرق رأسه وعجل بوضع يده في ركوة ماء جاء أحد الخدم بها خلال ذلك الحديث.

وكان بعاكر يحس بضعف في قوته وانحطاط في مكانته وجرح في عزته. وكان يود أن لو تنشق مياه النيل كالأخدود فتبتلعه أو يعود طفلاً ليسترسل في البكاء دون أن يلومه لائم. واتجه خاطره بعد ذلك صوب غاية أخرى واشتد خفقان قلبه وجمحت عيناه وازداد تقلبهما في حجاجيهما كما يفعل الذى به طائف من الجنون. وكانت نفسه ساعتئذ متأثرة بعامل التشفى والانتقام وإرادة السوء لمن صبوا عليه

جام الرزايا والالام. ولقد بدا بعد من أمره انه أطرح الهوى ولم يتخذه شفيحاً لدى من جنوا عليه، وظل تنتابه الهواجس ردحاً من الزمن ثم قال: أيا شافة رعمسيس لسوف استأصلك وأمحوك من الوجود فلا يبقى لك من أثر. وسأعمل معاول الهدم والاستئصال في حاشيته المقربين فلا يكون فرقى في الاندثار بين الملك في سماء المجد والعلياء ومينا والامراء الذين أخذتهم الكبرياء.. لا بد لي من إبادتهم جميعاً والتعفية على أثارهم. وإنى لعالم بالسبيل إلى تحقيق هذه الأمنية فصبراً صبراً، وما انتهى من مناجاة نفسه بهذا الكلام ورفع يده كمن تأخذه حدة الغضب فيهم بضرب من حوله حتى انفتح باب الغرفة، وإذا بستخم داخله تسير على مهل. ولم يكن بعاصر سمع لها همساً حينما أقبلت على مخدعه لشدة قصف الرعود وعصف العواصف فرأته وهو في ذلك الوضع الغريب، فدنت منه وصاحت باسمه وقد تولواها الذعر إذ كان ما خمنته أنه أصابه من الشيطان مس فما أبصر بوالدته حتى أرعد ولكنه تكلف السكون وضبط النفس وقال: يا والدتى! ها أنت ذه! لقد أوشك الصباح أن يسفر وينتشر ضياؤه في الخافقين. وهى ساعة ما أحلى النوم فيها، فلم جئت هنا؟ أجابت: اعترانى سهاد لأن الرياح اشتد عصفها فخيل لي أنها تدك جدران الدار دكا وصرت من الفزع في حالة لايمائلها إلا حالتى يوم توفى أبوك. قال مشفقاً: أفضل أن تبقى هنا وتنامى في فراشى. قالت: لم أت هنا للنوم، بل لما وقع بضفة النهر فإنه ألقى في فؤادى الهلع والقلق. وليس هذا لأنك أصبت في يدك بجرح بالغ ولا لما تعانیه الآن من الالام، بل لأنك سلكت مع ابن الملك مسلكاً يستثير عليك غضبه ونقمته.. لا يفوتنى أن جلالته لا يحبك كما كان يحب والدك، بل مقتك المقت كله، ولذا ترانى على خوف من أن يفتك بك. ثم إننى لم أفهم معنى لضحكك الذى سمعته.. ونبراته بلياتها وعطفاتها ومداتها تدل على خبث الطوية وقصد السوء.. وما رأيتك عليه من

الأوضاع الشاذة.. أفلا يكفي أن يملأ قلبي رعباً وترتعد له فرائصي فزعا؟

لزم بعاكر ووالدته الصمت بحيث كان يتوهم الناظر إليهما أن قصف الرعود قد استرعى سمعهما فأصاخا إليه. ولقد ظلا في هذا الوضع الجامد زمناً قالت بعده ستخم: أحس بعاطفة غريبة تملكني هي غير التي تظن أنني متأثرة الآن بها.. ما برحت أفكارى متولوية شطر ذلك الشاب بنطاؤر الذى خطب الناس فبهرهم بفصاحته وعواطفى نزاعة إليه لاني أرى قرائن الشبه متوافرة بينه ووالدك يوم خطبني من أهلى.. أوجه الشبه بينهما تحملنى على الاعتقاد بأن الكهنة لما دعوا إليهم المرحوم زوجى قضت إرادتهم النافذة بأن تُبقى على وجه الأرض صورة حية من ذلك الأصل العريق المليح. قال الشيخ الحبشى: أصبت!.. إنى أرى بين سيدى المرحوم وشاعر القوم قرائن شبه كثيرة. ولقد أمعنت فيه النظر أمام بيت المحنط وهو ينازل المتعدين عليه فعرفت فيه الشهامة، وكان يرفع بيد واحدة عمود الخيمة ويجيله بها كما كان سيدى المرحوم أسا- إذا نزل في حومة الوغى- يشهر سيفه ويخطر به بين الأعداء. وما سمع بعاكر هذه الأراء حتى اندفع يقول: دعك من هذا الهذى يا مجنون، أين وجه الشبه بين واحد من الكهان ووالدى زعيم الشجعان؟ ولو أن هناك جامعة شبه تربطهما لما منعتنى ذلك من المضي في أخذ الثأر ممن سبنى وبوقاحته غلبنى. قالت ستخم: ولم هذا العناد وهذه البغضاء، وكيف لا تقتدى بأبيك في خلاله السماء؟ أتكره التشبه به في إكرام الأشباه واحترام النظراء؟ قال بعاكر: وهلى يبنى هؤلاء الأشباه حتى أحبهم؟.. قد بلغ من نكد طالعى أن يعارض الكهنة أنفسهم رغباتى ويعاكسوا مطالبى ويلقوا المعائر فى طريقي وأنا أنا الذى يوافقهم بالهدايا والقربان فى كل أن. فيا للطامة الكبرى والمصيبة العظمى!!

قالت ستخم: حذار يا بنى! إن زمام أمور العالم بأيدي الكهنة فلا تطير ريشة في مهب الريح إلا بأذنهم وسابق إرادتهم. وقد كان المرحوم أبوك على هذا الاعتقاد يجهر به في كل محفل وناد، ولكن ما أعظم الفرق بينك وبينه في محاسن الأخلاق وتصوير الخلاق؟ قد امتلأ قلبي ذعراً منذ رأيتك تقذف من فيك شواظ الشتائم الفاضحة على ولى نعمتك ومغدق الخيرات على والدك من قبلك، أميرك المبجل رعمسيس. قال بعاكر: أصبح هذا الملك ألد خصومى وسوف تسمعين عنه ما هو أجدر من الشتائم بالاهتمام، بل لسوف يعلم أبناؤه أن ابنتك وابن المرحوم زوجك لا يتذلل لأحد ولا يصبر على الهوان والضميم، بل ينتقم شر الانتقام ممن يريدونه بالإساءة أو يقصدونه بالحطة والدناءة.. إن صدرى لينشرح سروراً لو رأيت تلك الذرية القذرة تتلوى حول قدمى. فصاحت ستخم وقد طار لبها: إنك لعتل ذميم وخائن أثيم.. نعم لست إلا امرأة ضعيفة الحول ولكننى أقسم بطاعتي لأبيك واجلالى لسيرته لاسلبك نعمة حبي وعطفى إن لم.. أه لقد رأيت.. لقد فهمت.. لقد علمت.. أجبني أيها الجانى الاثيم أين السهام السبعة التى كانت معلقة هنا؟

ما كادت ستخم تفوه بهذه الجملة حتى ألقت بنفسها على بعاكر فتراجع إلى الخلف كما كان يفعل فى طفولته إذا سقط فى هفوة، وهمت والدته بعقابة فاقتقت أثره حتى أدركته وجذبتة من نطاقه. ثم كررت عليه صائحة ذلك السؤال، فاضطرب حنقاً وحقداً لا خوفاً من والدته واحتراماً ثم قال: أما السهام فما برحت فى كنانتى وها هى، على أننى ما زلت مصراً على رشقتها فى كبد عدوى ولسوف تقفين قريباً على حقيقة كل شيء.

وفاضت العبرات من عيني ستخم وثارَت نفسها فرفعت يدها ثانياً فى وجه

بعاكر الذى لم يتمالك إن دفعها بعيداً عنه قائلاً: اعلمى لست- أيتها السيدة- طفلاً، وإنما أنا رجل ولى وحدى هنا الكلمة والأمر. لا مفر لى إذن من تنفيذ ما أردت ولو اقتفى أثرى مائة امرأة مثلك يعولن خلفى أو يعوين كالكلاب المسجورة. قال هذا وأشار إلى الباب يريد بذلك صرفها من حجرته، فطفقت ستخم تبكى وتنتحب حتى إذا بلغت إلى الباب وقفت ثم أجالت النظر فى داخلها وكان بعاكر جالساً فى كرسى معتمداً رأسه بيديه فصرخت مراراً باسطة يديها نحوه وقائلة: لا يمنعنى مانع من أن أضمك إلى صدرى إذا عدلت عن نياتك الخبيثة ومشاريعك الشيطانية.

هز بعاكر رأسه إيماء إلى الرفض فتولى الأم من جراء هذا العقوق بأس شديد وأرخت ذراعها وقبضت كفها ثم قالت منتحبة: أتذكرى يا ولدى ما جاء فى الكتابات المقدسة من الأوامر والنواهي التى لقتك إياها والدك فى صغرك.. فقد جاء فيها «اعتبر طاعتك لوالدتك جزءاً لها على صنيعتها لك بالقيام على تربيتك، ولا تلجئها بسببك إلى بسط يديها بالدعاء عليك، وأسلك معها مسلكاً يحجب عن السموات صعود شكواها إليها»^(١).

ما طرقت هذه الكلمات أذن بعاكر حتى أخذ يئن وينتحب، ولكن لم يبرح مكانه ولم يتكلم بكلمة. فصاحت ستخم باسمه مرة أخرى وكان صوتها يدل بنبراتة الناعمة على ما يخالج قوادها من عواطف الحنان والرفق، فلبث ساكناً ساكناً كأنه لم يسمع نداءها. وكانت فى خلال ذلك قد لمحت الكنانة بين أسلحة أخرى فانقبض صدرها وتربد وجهها وقالت بصوت متهدج: لست أرضى لك المضى مع هوى النفس فيما تروم من الانتقام.. أسمعت قولى؟ أعولت على اتباعه؟ لم لا تجاوبنى؟

(١) هذه التعاليم تتضمنها الورقة الرابعة من أوراق البردى المحفوظة بالمتحف المصرى.

لقد ضقت ذرعا أيها الناس فخلصوني من شر هذه المحنة!

وبعد هنيهة انقضت على الكنانة فاستلت منها سهماً همّت بكسره فوثب بعاكر عليها من مكانه واستخلص السهم بعنف من يدها، فأصاب نصله ذراعها فسال الدم منه دافقاً على جسمها. وقد أحست الألم ورأت الدم متقطراً فتولاها خوف شديد، لأنها كانت تكره سفك الدماء، ثم قالت بصوت خافت: إن هذه اليد التي سفكت دمها عليها عهد الألهة وميثاقها ألا تلامس يدك ما لم تقسم الأيمان المغلظة لتعدلن عن نية الانتقام وتنبذن ظهرياً هواجس القتل والإعدام وتطهرن ضميرك من كل ما يدعو إلى تلوث شرف والدك والحط من مقام أسرتك.

ما سمع بعاكر هذه الكلمات حتى جثا على ركبتيه متأثر الوجدان وأخذ لوخز الضمير وعقاب السريرة يتلوى كالثعبان، فاتجهت والدته نحو الباب إذ وقفت قليلاً دون أن تنبس شفتها بكلمة، إلا أن توجه نظرها نحو ابنها ونزوع نفسها إليه جعلها في وضع يخالها الرأي فيه أنها تنادى ولدها وهو لا يجاوبها وترجو منه وتبتهل إليه. ولا بد أن قد أعيثها معه الحيل فخرجت من الباب الذي انغلق فجأة خلفها بقوة الرياح التي دفعته.

وكان بعاكر قد فطن لانصراف والدته فأخذ يبكي وينتحب قائلاً: والدتي! والدتي! لا أستطيع العدول.. لا يمكنني الرجوع.. وهنا كفّ عن الكلام لأنه سمع من قصف العواصف ما كاد يصم أذنيه وما لم يعهد له نظيراً من قبل وأحس الدار كأنها تنتفض كعصفور بلله القطر، وخُيل له أن صخوراً صلدة تتساقط من الجو في فناء الدار فتحدث تلك الرجة التي ارتاح لها قلبه، وقام نحو النافذة ونادى بالخدم يسألهم عن الحادث الجلل، فتقدموا إليه فوجاً بعد فوج. وكان في طليعتهم قيّم الدار

فقال لمولاه: لقد اقتلعت العاصفة كل الأدغال المغروسة أمام الباب الكبير. قال بعكر:
أو ممكن هذا؟ قال القيم: مولائى هذا ما حصل، ولاشك عندى فى أن الخواص الذى
كُسر ترقوته قطع تلك الأدغال عند مغارسها فى الأرض. وإذا حصرت الشبهة فيه
فما هو إلا لأنى بحثت عنه فى أركان الدار فلم أجده ولعله أركن إلى الفرار. قال
بعكر: أطلق الكلاب فى أثره، وليطارده من يحسن الركض منكم لياخذ النفاق عليه،
ولمن يرجع به فك رقبتة وملء يدي خمس مرات ذهباً.

* * *

كان ضيوف هيكل سیتی يلتمسون الراحة بالنوم وقتما ورد على أمينى خبر
قدوم الساحرة مع الأعوان الذين أنفذهم فى طلبها. فقص فى الحال إلى الغرفة التى
كان أنى ينتظر بها ساعة اللقاء بالعجوز. وكان هذا الوالى نهياً للهواجس أنئذ، فلما
سمع وقع أقدام أمينى وهو مقبل عليه هبّ من غفلته وقال فجأة: أوصلت العجوز؟
أجاب الكاهن الأعظم: نعم. فأخذ الوالى يسوّى شعره المرسل على كتفيه ونظم عقده
الكبير ثم قال: فى قدرة تلك الساحرة أن تلحق بي أذى، أفلا تمنحنى البركة أتقى بها
شر سحرها. نعم إن معنى التعاويذ الواقية من الشرور كعين حورس وقتنة ايزيس،
وإنما يحسن من باب النظر فى العواقب أن.. قال أمينى: فى وجودى هنا وقاية لك من
شر السحر، بيد أنى أعلم من جهة أخرى أنك راغب فى مكاشفة العجوز بشئون ليس
لى أن أطلع عليها. والامثل عندى أن تدخلها الغرفة المنقوشة الجدران بالأمثال
المقدسة حتى لايتسلط سحرها عليك، وأبرح أنا هذا المكان طلباً للراحة. ثم ودعه
وأمر كاهناً كان يسير وراءه: جىء بالساحرة إلى الغرفة المقدسة ورش عتبتها بالماء
قبل أن يتخطاها الوالى.

قصد أميني إلى خزانة صغيرة لصيقة بالقاعة المقدسة التي أمر الكاهن باستقدام الساحرة والوالى إليها ليتمكن وهو جالس بها من سماع ما يدور من الحديث بينهما بواسطة أنابيب وضعت بالجدار في أوضاع مديرة بحيث توصل الصوت مفخماً إلى أذن المتسمع وإن يكن في الحقيقة خافتاً. وما هي إلا فترة قصيرة حتى دخلت الساحرة فتفزع أنى لرؤيتها واستطير لبه روعاً من هيئتها. وزاد في تفزعه أن المرأة لبست ثياباً رثة بالية وفكت شعورها البيضاء المرسلّة إلى ما يوازى منتصف الجبهة واتخذت لها عكازاً تتوكأ عليه فلما أن وقفت شخصت في الوالى بعينيها الحمراءين بتأثير ما كانت الرياح تسفيه عليهما من الرمال حتى صارتا كجذوتى النار. وكان الناظر إليها في هذا الشكل الرهيب لا يفرق بينها والضبع الذى يتربص بالفريسة. فلم يلبث أنى - حين رآها وسمع قولها وهى تسلم وتعاتب لأنه استقدمها في وقت لا يلائمها - أن ارتعدت فرائصه فزعاً وتوجس منها خيفة واستطردت هى الكلام فانتقلت من العتاب إلى الثناء والشكر تلقاء وعده إياها تجديد الإذن لها، إلى أن قالت معترفة إنها هى التى وافت بعاصر بالماء السحرى. ثم أزاحت الشعر عن وجهها فعلم أنى أنثى أن أنثى أن الواقفة أمامه امرأة وكان قبلاً في ريبة من أمرها.

كان الوالى جالساً في كرسى والعجوز واقفة تبدو عليها أمارات التعب والضحج فرجت منه أن يأذن لها بالجلوس قائلة إن عندها من جم الأخبار ما يمهد له اتخاذ بعاصر آلة في يده، فأشار أنى إلى زاوية من زوايا الغرفة فأنحدرت العجوز إليها وجلست فيها ولم تنتظر أن يأذن لها بالكلام، لأنها ما كادت تستقر في مكانها حتى أخذت تنسجى نفسها: نعم لا بد لي أن اذيع له ما كان كامناً من أسرارى كى يرتاح بذلك ضميرى وتهدأ نفسى وأخلص من أعباء المسئولية، فلست أحب أن أحرم

تحنيط جثتى، بل أود الاطلاع على حوادث الحياة الأخرى.. أعرنى سمعك! يجب عليك قبل أن أثير لك ما هو كامن في صدرى أن تقسم بالآلهة لتدعنى وشأنى أعيش في سلام وأمان وتباشرن في تحنيط جثتى بعد موتى.. أقسم باليمين وإلا فلست أبوح بشيء.

اقتصر أنى في جوابه على ايماءة الرضى بهذا الشرط. فاعترضت العجوز: الايماء في هذا المقام لا يكفي لتوكيد القسم. بل لابد أن تجهر في صراحة بصيغة اليمين التى أمليها الآن عليك وهى: «إذا لم أف لنيخت بوعدى إياها قضاء مرادها في مقابل عملها على أن تجعل الموهار في حوزتى وتلقى بزمامه في قبضتى فللشياطين الخاضعة لمطلق إرادتها والمنفذة لجازم مشيئتها أن تسلبنى نعمة الحياة قبل الصعود إلى عرش الملك».. لا تحفظ علىّ يا مولاي إذا شرطت هذا الشرط، فإنما بقولك «نعم» توكيدا لهذا اليمين تستفزنى إلى سرد حوادث على مسامعك هى لغرابتها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، مع أنها الواقع الذى لا اختلاف فيه.

قال أنى وقد عيل صبره: أقسم بذلك القسم وأقول «نعم» غير حانث ولاناكث. عندئذ تمتت العجوز بكلمات لاتفيد معنى ولا تؤدى إلى مراد وظلت ساعة في تأمل واستجماع فكر، ثم اشرابت عنقها فبدا جيدها ضئيلا يكاد يظنه الرائي لشدة نحوله فقرات عظم مكسوة بالجلد، ثم شخصت فيه بعينيها المتقدتين نارا قائلة: أسمعت في شبابك أن غادة تدعى (بيكى) فتننت الشبان بجمالها الباهر وخبلت مسامعهم بصوتها الرخيم.. إذا كنت لم ترها ولم تسمع عنها فانظر أمامك جيدا تجدها بين يديك. قالت هذا وضحكت بطناً لظهر ثم استجمعت بيديها أطراف ثيابها الرثة البالية لتستر بها ما بدا من سواتها وقبح صورتها. وبعد هنيهة استأنفت الحديث

قائلة: نعم إن الرجل يتناول قطف العنب فيمتص عصير حباته بلذة وهناء ثم يطرحها على الأرض ويدوسها بقدميه. فما أشبهنى اليوم منها أهينت وديست بالاقدام بعد أن استنزف خيرها وامتص كل حسن ولذيد فيها.. لا ترمقني بعين الرأفة.. لأننى وإن قوست الشيخوخة ظهري والتصقت بالتراب ذلا ومهانة وقرأ واستكانة لم يستطع أحدهم أن ينكر على أننى كنت ذلك القطف اللذيذ الطعم الذي طالما جدّ الكثيرون في طلب التمتع بلذته.. ولست أجد في ألف امرأة مثل كانت في حياتها مجمعا لتضارب الأضداد من سعادة وشقاء وحب وبغضاء وسرور وآلام وتسامح وانتقام ونشاط وثبوت وأمل وقنوط. لذلك أرانى كلما فكرت في هذه الحياة جديرة بالصعود إلى عرشك المنيع والاستواء في مكانك الرفيع. ولا توجس منى خيفة أبداً فقد اعتدت من أمد بعيد الزحف والتسلق والهجوم والتدفق، فاسمع إذن كل كلامى ولا تقاطعنى وأنا أوافيك بما تتوق إلى الوقوف عليه من الحوادث الجلى والوقائع العظمى.

كنت فيما عبر من أهل الطبقة العالية في الأمة، وكانت عادة الأكابر وذوى الهيئات أن يتزلفوا إلى المرأة الجميلة بأنواع الملق والمداهنة وتصنع الخشوع، وابتسم لى ثغر السعادة والعز فأصبحوا طوع أمرى جميعا. هذا ولقد أن لى أن أقص عليك تاريخ حياتى وإن لم أجرؤ من قبل على مفاتحة أحد به ولو كان من أولياء الأمور.

قبل نحو الخمسين عاما كانت الشبيبة تتهافت على سماع صوتى وتتنافس فى التقرب إلىّ للأنس بى والحظوة منى بلفتة أو ابتسامة أو كلمة، وكنت لا أغنى صوتا إلا ويجيء صحيح الصنعة والتجزئة فتراهم يتوثبون من أماكنهم إلىّ اهتزازا

بتلاحيته وإعجاباً بما كنت عليه من براعة جمال وحسن محاضرة وكان والدى ذا أصل وفضل وجاه. عهدت إليه في زمانه أزمة الحكم في مدينة أبيدوس ولجهره بالولاء والإخلاص للأسرة التي أنت غصن دوحتهما والحلقة الأخيرة من سلسلة سلالتها اضطهده رعمسيس الأول بعد إذ خلص له الملك اغتصاباً وتعدي بالبغي عليه وأوصل صنوف الأذى إليه، فقد أمر بإبعاده هو وأفراد أسرته إلى منجم الذهب ببلاد الحبشة فلقوا حتفهم فيها جميعاً ولم يبقَ منهم وقد انقرضوا سواي. وكنت لم أزل على جمال غض وصوت رخيم، فلما عدت إلى مصر اندرجت بطيبة في سلك فرقة موسيقية، فكانت لانتقام معالم الأفراح والحفلات إلا وأكون لها غرة جبين ودرة تاج. وقد جمعت من ممارسة هذه الصناعة ما لا كثيراً وجذبت إلى دائرتي عدداً لا بأس به من الشبان وحصلت من مشهيات الحياة الدنيا ما تجاوز المأمول. ولكن الرزايا التي ألت بأسرتي والمكاره التي حفت بإخوتي ووالدي ووالدتي أقعمت قلبي بهموم جعلتني ذاهلة دائمة التفكير كثيرة الهواجس، مع أنني كنت في سن يحلو فيه مذاق المر ويعذب طعم العلقم.

وكان لايجرؤ أحد من أبناء الأمراء والكبراء- الذين تدلهوا في عشقي وتسابقوا إلى كسب مودتي وتنافسوا في مرضاتي- على أن يلمسني بأطراف أنامله، إذ كنت أضن عليهم حتى بهذه الحظوة استعلاء واستكباراً..بيد أنه كان لكل كبرياء حد ينبغى أن تقف عنده، فقد قضت الألهة في حكمتها الأبدية ان تستذلني وتكسر من شكيمتي، فسأقت لي الشاب أسا الذي لا بد أن تعرفه، وهو والد الموهار السابق وجد بنطاؤر، وإن تشأ فقل جد بعاصر رئيس الطلائع. كان ذلك الشاب يجمع إلى جماله الرائع شرف الأصل وكرم الأخلاق، فكانت كلما غنيت دوراً عمد إلى الجلوس أمامي ووضع عينيه على وأصغى سمعه إليّ واستقر في مكانه لا يتلفت يمنة ولايسرة. وفي

هذا القدر كفاية لكى تعرف ما وقع بعد.. ولكنك لاتستطيع أن تعرف ما حصل.. لم يتفق لمخلوق على وجه الأرض ان يتفانى فى عشق أسا كما تفانيت فى عشقه.. مالى أراك لاتهش لسماع هذا الكلام..؟ ولكن لعل لك عذرا فقد يكون من المضحكات أن تسمع الحديث من عجوز مثل لا سن واحدة فى فيها.. توفى أسا منذ بعيد، ولعل لم أزل أضمر له البغضاء ذلك لأن حبه ما برح متأصلا فى فؤادى.. قضى أسا حولين كاملين لم يعرف فيهما امرأة غيرى ثم سافر مع الملك سیتی فى محاربة الأعداء، فكان لايمربى يوم إلا كما يمر العام مللا من الانتظار. فلما حطت الحرب الأوزار وعاد إلى الوطن متوجا بأكليل الغار ومنيت النفس بقرب لقائه وبعودة المياه إلى مجاريها، فما كان أشد مصابى حين علمت أنه اقترن بفتاة جميلة من بيت عظيم ذى محتد كريم وما أسرع ما دبب فى قلبى عقارب الغيرة حتى كدت أنوب غيظاً وأموت حسرة وكمدأ.

وكننت لم أزل على جمال غض وشباب نضير فتحننت الفرص حتى التقيت به وجها لوجه عشرين مرة، غير أنه كان فى كل منها يصدف عن طريقى ويلتمس الفرار منى كما يفر السليم من الأجرى، فكبر الأمر على نفسى وانتابنى من جرائه جزع شديد وتوله لم يلبث أن نالتنى بسببه حمى شديدة عجز عن علاجها أعاضم الأطباء حتى كادت تذهب بحياتى. ولما يئست من شفائى وقنطت من تحقيق رجائى حررت له الرسالة الآتية: «أشرفت بيكى على الهلاك وتتمنى أن لو تتزود منك نظرة قبل وفاتها فتفضل بتحقيق أمنيتها» ثم طويت ورقة البردى التى حررت فيها هذه الكلمات على أول هدية قدمها إلى وهى خاتم وضيع القيمة.. أتعرف ماذا كان جوابه على رسالتى؟ أرسل إلى مالا وفيراً من النقدين الكريمين. فما وقع نظرى عليه حتى خُيل لى أنه وضع فى عينى حديدا حمى فى النار حتى احمر، ومازلت حتى اليوم

أحس لسعته الحامية كلما فكرت في خيبة أمل وفشل سعبي، ولكنكم أنتم معشر الرجال والسادة الذين طالما استسهلوا الصعب وانقادت لهم الأمال لا تقدرون تأثير اليأس في القلوب الكسيرة والأفئدة الكليمة. ولو اجتمع منكم ثلاثة أو أربعة وقصصت عليهم هذه الحادثة لما وسع أرفعكم مقاماً أن يقول بصوت جهورى «لقد أصاب فيما فعل» ثم يبنى هذا الحكم على أن أسا كان متزوجاً زواجا شرعياً وأنه لا يليق به أن يختلف إلى غانيه تطرب الجمهور بصوتها الرخيم، لأنه إن فعل فقد نقض عهد الزواج ولم يبق بالواجب وجرّ على نفسه اللوم والتعنيف.. ولكن أفي مثل هذا التعليل ذرة من الحق والصواب؟ كلا! لأن صاحبه لا بد أن يكون ممن يعتقدون في المرأة البائسة التي فوجئت بالهجر المتلف أنها ليست من البشر وأن جوفها خال من قلب رحيم يتأثر بالعواطف الشريفة أو يحفظ عهد الوفاء، وأن هذا القلب لو وُجد فعلا لبقى متنكساً في وهدة اليأس والقنوط خمسين عاماً فلا يحس قلب امرأة أخرى شيئاً من الغيرة بسببه، فهو إذن وجود عدم.. إن أسا تحرى في سلوكه اجتناب اللوم من قرينته.. ولكنه جوزى على بغيه بتساقط اللعنات عليه والتصاقها بذريته من بعده، فهي ملازمة لهم أبد الأباد.. رأى أنه كان حريصاً على الفضائل متمسكا بأهداب العفة في حين أنه قد أثم إثماً ليس له من شافع إذ ألقى في مهواة اليأس قلباً كان ما برح مقيماً على عهد الولاء له.. ولا ريب في أن اجتنابه الحضور عندي في ذلك العهد دليل على أنه كان لم يزل مغرمًا بي، وإنما خشى أن تذكى رؤيته إيأى بعد طول التناثى نار هذا الغرام في فؤاده، وحسبى ذلك باعثاً على التماس العذر له. وإذا كان هناك ما يفت في عضدى ولا أعذره من أجله فإنما هو إرساله إلى بذلك المال.. إنه بهذا الفعل الذميم قد جنى جنائية لا شفاعاة فيها ولا غفران.

فاهت العجوز بهذه الكلمات فكان يخيل للسامع أنها في حلم تهذى، فارتاع الوالى

من منظرها وبدرت منه حركات جعلته وهو في كرسيه يتراجع إلى الخلف، وتنبهت الساحرة إليه فاستجمعت قواها لاستئناف الحديث وقالت: أنتم معشر القوم الذين تحلقون في سماء السيادة والعز بأجنحة الكبرياء والعظمة كما تحلق الطيور الجارحة في أجواز الجو، لا يقلق بالكم ولايزعج ضميركم شأن أولئك الذين وضعتهم الأقدار في السدرك الأسفل.. ولكنى استأنف حديثى فأقول: لما كُتِب لي الشفاء مما اعترانى من الأدواء شعرت بصوتى الرخيم وقد ذهب محاسن نغماته ورسالة نبراته وعطفاته، وكنت مع هذا في مال كثير وعيش رغيد فصرفت ما أملكه على سحرة طيبة وشربت مياههم السحرية التى تجدد في القلوب ما اندثر من معالم الحب وتستأصل جرثومة الشر، وصرفت همتى إلى استرجاع صوتى الذى كان رسول الخرام بينى وقلب آسا وبه امتلكت قياده، فلم تجدِ الأدوية نفعاً، بل أصبح صوتى أقرب ما يكون إلى نعيق الناعق أو نعيير الناعر. وقد اطلع على خبيثة أمرى كاهن طرد من هيكله وكان ساحراً ماهراً عرافاً، فلزمته ملازمة الظل للشبح حتى تلقيت عنه أسرار السحر، وإذا رأى أن أصدقاءه في وقت الصفاء والهناء قد انفضوا جميعاً من حوله، فقد التجأ إلى المقابر، فاقفيت أثره بيد أن الحكومة ساقته إلى المحاكمة وانتهى أمره بالمشنقة فبقيت وحدى في إحدى المغارات واشتهرت بين الناس - حتى الصبية في الطريق - بممارسة السحر، فكانوا يعدلون عن طريقى وامتلات صدورهم على بالأوغار والإحن كما امتلأ صدرى بها على نفسى، وكان هذا كله جنابة وحيد طيبة في التقوى والمروءة والصلاح.. أسأ.

ومع توالى هذه النكبات كنت حذقت مهنتى الممقوتة ومارست معها نحو مائة مهنة أخرى. فلما كان مساء ذات يوم قدم إلى (سنت) مباشر البستان الذى كنت أشتري منه ما أحتاج إليه من الحشائش، ومعه غلام وليد أصابع إحدى قدميه تبلغ

السته عدأ، وسألنى أن أصلح منه ما أفسد الدهر بأن أجعل الستة خمسة، وقال إنه جاءنى على غير علم من زوجته وأنها لو كانت وقفت على سر ما أرادته لمانعته فى تسليم الغلام إى، وكان من المستطاع فى الواقع إصلاح ذلك التشويه أحياناً.

وفى ضحى اليوم التالى سمعت صدى ضوضاء وهرج فى الوادى فما هى إلا برهة حتى أقبل فوج من الخدم يسألوننى المبادرة بمصاحبتهم لإنقاذ مولاتهم، وكان أخذها الطلق وهى فى زيارة قبور الأجداد، فأخفيت الغلام السداسى الأصابع طى ثيابى وأمرت خادمى أن يحضر الماء ثم عجلت بالانصراف مع الخدم إلى مكان الحادث، فإذا بى أمام قبر والد أسا. وهناك علمت أن المرأة التى جعلتها أم الطلق تتلوى كالثعبان إنما هى ستخم قرينة ابن أسا، وكانت قد وضعت الجنين قبل وصولى إليها بدقائق. غير أنى رأيت فى حالتها ما ينذر بالخطر. فأنفذت الخدم فى الحال ومعهم محفة كنت رأيتها بجوار الباب لاستدعاء أحد الأطباء من بيت سىتى.

وفى غيابهم جميعاً قالت لى خادمة من غاشية السيدة إن مولاها الموهار والد الغلام فى ميدان الحرب وأنه جده الشريف أسا وعد بالحضور إلى المقبرة وهو لا بد وأصل إليها بعد فترة من الزمن وأنه لم ينته إليه بعد نبأ الوضع. وكانت ترمى بهذا القول إلى الاستئذان منى فى الخروج للقاءه، فأذنت لها ولما ألفت نفسى وحيدة غسلت جسم الطفل وأخذت أقبّله بشغف كأنه ولدى، ثم سمعت وقع أقدام الطفل وأخذت أقبّله بشغف كأنه ولدى، ثم سمعت وقع أقدام على أحجار الوادى فمرت بخاطرى ذكرى ساعة النزاع التى رأيت الموت فيها رأى العين. وكنت أنتظر أن يقبّلنى أسا القبلة الأخيرة ولكنه بدلا منها أرسل إلى من المال ما كنت عنه فى غنى، فتولانى من ذلك غيظ وامتلاً صدرى حقداً وميلاً إلى الانتقام حتى أصبحت كمن

مسها خبل، ولم أدر كيف استطعت أن أعطي خادمتي المولود حفيد أسا، وأن أمرها بالذهاب فوراً إلى المغارة. ووضعت في حجرى ولد البستاني الذى كنت أحمله في طيات ثيابى البالية. وقد خُيل لى عندئذ أن الدقائق تمر كالساعات لشغفى باستطلاع محيا أسا، فلما أقبل رأيت - بالرغم من بياض شعره- أنه مازال باسم الثغر حلو الشمائل فقدمت إليه ولد البستاني وأنا أشعر بقلبى وقد سكنته الشياطين والجن والمردة.

أما هو فأطال فى الغلام النظر ثم أعاده إلى دون أن يعرفنى أو يستبطن حقيقة امرى، وأبرز لى من جيبه بعد ذلك ملء كفه ذهباً فتقبلته منه دون أن أفوه بكلمة واحدة، ثم انصرفت. وكان كهان بيت سیتی قد تواردوا منه تباعاً. فسمعتهم ينشدون الاناشيد يضرعون فيها إلى الآلهة أن يكون طالع الوليد الجديد سعيداً ومستقبله فى أوج السماء. فلما عدت إلى المغارة أغربت فى الضحك حتى تساقطت الدموع من عینى. ولم يكن ذلك لابتهاج فؤادى الواله إلى حد أنه من كثرة ما قد سرنى أبكاني وإنما لأسباب ، لا تخفى على اللبيب الفطن.

وبعد أيام سلمت إلى البستاني حفيد أسا قائلة له إننى قد نجحت فى إزالة إصبعه الزائد. وكنت - لخدعه وذر الرماد فى عينيه- قد عنيت بخدش أصبعه وتضميده. وعلى هذا المثال شب ابن الموهار وحفيد أسا وترعرع فى أسرة البستاني الوضيعة كما تربي ابن هذا الرجل الحقير فى أسرة ذاك. ولقد تلقى بنطاؤور العلوم فى بيت سیتی واشتهر فيها بالتفوق على أقرانه.. وبعد أفلا ترى قرائن الشبه متوافرة بينه وأسا وأن بمقدارها تجد أسباب التباين واضحة بين بعاكر ذى الستة الأصابع وجده الشريف المزعوم؟..

أصغى أنى إلى العجوز وكان على رأسه الطير. وإذا كان الإنسان مجبولاً بفطرته على اصطناع من يحسن إليه أولاً يفشى له سرا أو يساعده على إنجاح مشروع فإن أنى لم تحدثه نفسه قط بعقاب الساحرة على هذه الجناية، كلا ولا بتوبيخها على سوء فعلها، بل طفق يطيل التأمل فيما كانت عليه من جمال رائع وصوت رخيم، وفي أنها فتنت بحبها شبان ذلك العصر. ثم قارن بين خلالها في ريعان شبابها وبينها الآن فشبهها بالزهرة الزاهية وقد ذبلت وذوت وبالقناة وقد احدودبت. لهذا قال لها: يا بيكى! لك أن تعيشى فى أمان حتى ترحلى من هذا العالم الفانى وإنى لأعبك وعداً صادقاً بتحنيط جثتك إذا مت، وإنما أرى أن قد أصبح جديراً بك ترك السحر والعيش بما عندك من المال فى أرغد حال وأهنا بال. وإذا كان المال يتقصك فخبرينى بما تحتاجين إليه منه وأنا لا أضن عليك به، ولست أخشى أن أتحكف بشىء من الذهب وإن أكن علمت من كلامك أن الذهب يثير كامن الحقد فى صدرك. قالت: ربما احتجت يوماً إلى مالك ولكن دعنى الآن أذهب إلى حال سبيلى. ثم اتجهت مهرولة نحو الباب فاستوقفها أنى ليسألها إذا كان أسا هو والد نيمو قزم راتوتى فضحكت ظهراً إلى بطن وقالت: ألمحت فى هذا القزم مشية أسا أو ملامح بيكى؟.. حقيقة أمره أننى ربيته ككثيرين من أمثاله. قال أنى: لقد أنست منه حيلة واسعة وذكاء مفرطاً. قالت: لا عجب فإنه من أقدر الرجال على حسن التدبير وجودة التفكير. وقد امتاز بشدة إخلاصه لراتوتى، وهو خير من يعاونك على نيل مقاصدك لأن له هو أيضاً مقاصد يسعى إليها. سأل: وماهى هذه المقاصد؟. أجابت: إذا أصبحت راتوتى قوية بعضدك ومثرية ببعاكر فلن يعترض الموهار مانع عن الرحيل للفتك بمينا وترميل زوجته نيفرت. قال: أرى أنك واقفة على أسرار كثيرة تدعونى إلى توجيه سؤال آخر إليك.. أصبح أن هناك ماء سحرىاً يذكى فى شاربه نار الحب؟ أجابت:

سأقفك على الحقيقة لتفى لي بوعدك.. نادراً ما يؤثر الماء السحري في شاربييه بقدر ما يؤثر في النساء الخالية قلوبهن من الهوى، فأنت إذا قدمته إلى فتاة فاتنة تهوى فتى جميلاً وشربته هامت به. سال: أعندك حيلة للمرء يستطيع بها الخلاص من غائب؟ أجابت: كيف لا.. يكفى لذلك أن يسعى الوضعاء والأفناء بالنميمة في حقهم ويشهروا بسيرتهم. والظاهر لي من أسئلتك أن ما رويته عليك من الحوادث لم ينبه في قلبك عاطفة الرحمة فإننى استخلص منها شدة كراهيتك لنبطاؤ.. لم أراك تضحك.. إن ذكرى هذا الشاب ما برحت متمثلة لخاطري لأننى بشطارتى حرمته ميراث أبيه.. إن جمال صورته وعزة نفسه يصوران لعينى تمثال أسا، فلاعجب أن أشعر في نفسى بعاطفة تدفعنى إلى حبه كما أحببت جده وهو أمر من الغرابة بمكان ولكن لاعجب ولا دهش إذا قيس هذا الشعور بما أشهده من السيدات السيئات الحظ اللائى يفدن زرافات وشتى على مغارتي لالتماس معونتى. إننى أراهن على شغف عظيم بمن تنحوا عن وداهن وهجروهن الهجر المتلف. وما اشبهنا معشر النسوة بعضنا ببعض في أمور كثيرة. ومع هذا فلست راغبة في حب حفيد أسا وليس لي أن أحبه وإنما ينبغى لي أن أعمل على إيصال الأذى إليه بين خصومه .. نعم إن أسا مات وأصبح من الرفات، ولكن نار إساءته إلى ما برحت متقدة في جوانحي وهى لا تخمد إلا بخمود حياتى، فليكن إذن ما قدر في سابق الأزل لنبطاؤ من الشقاء والتعاسة.. وإذا كنت تريد به سوءاً فما عليك إلا الاتفاق مع نيمو الذى يضمه له الحقد.. فإذا استعملته في هذا الغرض، فإن عمله سيكون بلا ريب أكبر أثرا من سحري وتمائمى وميساهى السحرية.. وبعد فإننى أرجو منك أن تأذن لي في الانصراف.

انقضت ساعات على انصراف نيخت من حضرة السوالى فإذا برسول أمينى يمثل بين يديه ليدعوه إلى تناول الطعام على مائدته، فلما ذهب إليه أتى سأله: أتدرى من

هى الساحرة نيخت؟ أجاب أمينى: كيف لا، إنما هى بيكى فاتنة شبان طيبة بجمالها وساحرة عقولهم بركة صوتها.. وهل لى أن ألم بما قالتة لك؟ فرأى أنى أن من الأوفق له الا يكاشف أمينى بسر ولادة بنطاؤر ولهذا تردد فى إجابته إلى طلبه، وإذ كان أمينى داهية دلكتة الحوادث وحنكته العبر فقد استأذن من حليفه أن يوافيه هو بمجمل الأسرار التى أفضت إليه بها ثم أخذ يسرد عليه ما دار بينه والعجوز متعمدا التغيير والتبديل فى بعض الحوادث حتى لا يداخل الوالى أنه كان فى مخبأ يتسمع لهما. وما استقرت الرواية فى سمعه حتى تظاهر بالدهشة ووافق على ما ارتأه الكاهن الأعظم من وجوب كتمان أصل بنطاؤر وإنكاره عليه. قال أمينى: إن بنطاؤر ذو قريحة وقادة وفكرة نقادة وأخشى أن يدبر لنا المكاييد وينصب المصايد إذا نحن لم نكاشفه بحقيقة أصله.

وكانت العواصف فى خلال هذه المحادثة هدأت والسحب انقشعت وصفا أديم السماء وبرد الجو، ولكن الحرارة لم تلبث أن انتشرت فيه رويدا رويدا بطلوع الشمس على الأفق. وما غادر الناس مراقدهم لممارسة أعمالهم حتى رأوا وجه الأرض مجللا بما اقتلعتة العواصف من الأشجار والأكواخ خاوية على عروشها والمنازل متهدمة والخيام المضروبة فى حى الأجانب متمزقة، وطارت مئات السقوف المتخذة من سعف النخل بفعل تلك العاصفة التى لم تصدها قوة الإنسان ولم تنفع فيها حيلته.

عاد الوالى والكاهن الأعظم إلى طيبة وكان ثانيهما يود أن لو يقف بنفسه على ما أتلفتة العواصف فى حديقته فما كاد زورقهما يتوسط النيل حتى اقترب من زورق بعاكر فصوتا به، فلما التفت إليهما طلب الوالى منه فى رفق وملاطفة أن لا يضمن عليه بزيارته والتردد عليه لمشاهدته ومحادثته.

وكانت حديقة الكاهن الأعظم لا تقل انفساح جوانب وحسن تنسيق عن حديقة الموهار، لأنه ورثها عن أبيه فعنى بترتيبها على أجمل نسق. وكان يخيل للناظر أن الدار القائمة بوسطها - بين الأشجار الباسقة - قصر باذخ وبناء شامخ. وكان من عادته تناول طعام الغداء مع قرينته وهي امرأة مازالت في فتاء السن وتوافر الحسن، ومع بناته الفاتنات بجمالهن. فلما أن وصل إلى حديقته وشهد ما لحق بها من أذى العاصفة جلس معهن تحت أرجوحة متخذة من أغصان الشجر وأنشأ يسليهن عن تلك الخسارة الفادحة ويعدهن بإصلاح ما سقط على الأرض بقوة الريح من أقفاص الحمام وأن يجعلها امتن وأحسن مما كانت، ثم انتقل من التسلية والسعد إلى المزح والتملح، لأنه كان مع ظهوره ببيت سیتی في مظهر الرئيس الشديد الوطأة لين العريكة كان في بيته متواضعاً فكان لزوجته القرين الموافق ولبناته الوالد الحنون يشاركنهن في سرورهن ويقتدى بهن في محبة أزهارهن وطيورهن.

ولما تناول الطعام وغادر المائدة يحيط به بناته دخل أحد الخدم يعلن وصول السيدة ستخم والدة بعاكر. فأمره أمینی: أرشدها إلى مكان سيدتك. غير أن الخادم الذي كان يخفى في كفه الهدية الثمينة التي أتخفتها بها ظل واقفاً في مكانه قائلاً: إنها إنما تريد مقابلة الكاهن الأعظم لمصادته في أمر خطير. قال أمینی مغضباً: ألا يتاح لي التمتع بالراحة ولو ساعة من الزمن؟ الأحسن أن سيدتك تستقبل ستخم وأن تبقى معها حتى أستطيع مقابلتها بنفسی.. ألم يكن المعقول يا أولادی أن أخصمكم بهذه الساعة أنتم والدجاج والبط والحمام؟

فلم يجاوبه أولاده بغير التعلق برقبته والاستمسك بذبول ملايسه ثم انصرفوا يتوثبون ويطفرون مبتهجين. وقد مضت - وهو بينهم على هذه الحال - ساعة طلب

بعدها إليه السيدة فجاء بها إلى الحديقة فأنشأت تقص عليه ما نالت الأحران
والهموم منها، وكانت عيناه أثناء الحديث تترقرقان بالدموع. ومما قالت له: أنت
المرشد الروحاني لولدي وقلدة كبدى، وغير خاف على مقدار ما يقدمه للآلهة من
القرابين إثباتاً لاحترامه إياهم، إلا أنه لا يصغى لنصائحى ولا يحترمنى احترام الولد
البار لوالديه. وظهر لى أخيراً أنه يضمّر النيات الخبيثة والمقاصد السيئة، فإذا لم
تتهده بغضب الآلهة عليه فلا خلاص لينا من بين يديه وربما.. وربما.. قال أمينى:
وربما اعتدى على الملك.. إنى عليم بموضوع شكواك ولسوف أحدثه فيها. قالت وقد
تناولت طرف ثوبه لتقبله شكراً وامتناناً: أشكر لك صنيعتك معى مادمت على قيد
الحياة ولا تنس أنك على أثر ميلاد هذا الولد قد بشرت والده بحسن طالعه ويمن
نقيبته وأنه سيكون زينة أسرته وفخر قومه، وإلا فهل قدرت الآلهة على أن أخسره
فى الدنيا والأخرى بعصيانه أمرى ومروقه عن طاعتى؟

قال أمينى : ما بشرت به المرحوم قرينك من حسن طالع ولدك ويمن نقيبته
متحقق لا محالة، لأن للآلهة فى تحقيق الآمال سبيلاً غير سبيل الرجال. قالت
ستختم: فلتكن كلماتك هذه برداً وسلاماً على قلبى المفعم بالحزن مما نابنى من
ولدى. ولقد كنت مترددة فى الحضور إليك لعرض شكواى عليك، ولهذا لم أبح لك
بكل ما حصل.. فقد سقطت الأدغال العالية التى جلبها من جبال لبنان البعيدة
لتخفق الأعلام بأطرافها أمام داره وألقتها العواصف على الأرض بعد أن اقتلعها من
مغارسها. قال أمينى: صبرا صبرا يا سيدتى فلسوف يطمئن قلبك وينشرح صدرك
ولا بد لولدك أن يذعن لإرادتك كما أذعنت تلك الأدغال لقوة العواصف. قالت ستختم:
شكراً لك ولكن عندى سرا أريد مكاشفتك به.. أعرف أننى ضيعت عليك شطراً ليس
بالقليل من نفيس وقتك، وهل أنفوس عندك من الوقت تقضيه بين أفراد أسرتك؟ ولقد
سمعتك تقول يوماً لزوجى المرحوم إنك كلما جئت إلى طيبة تشعر فى نفسك برضاء
يسرى عنها الهم ويجلى الكرب وتكون أشبه بالجواد الكريم يخلى من سرجه ولجامه

ويرخى لبيه ثم يطلق سراحه في المروج الزمردية والسهول المترامية الأطراف فيمرح كما يشاء. ولكننى أسألك أن تصغى إلى حديثى فقد رأيت فيما يرى النائم ما يوجب الدهشة ويقضى بالعجب .

ذلك أن بعاكر لما أبى العمل بنصيحتى وولى عنى بكتفه عُدت إلى حجرتى فأخذتنى عند طلوع الشمس سنة من النوم رأيت فيها بنطاؤُر خطيب الأعياد الذى خلب العقول بذلاقة لسانه وفصاحة بيانه وأنه من توافر الشبه بزوجى المرحوم بما يخيله للناظر قريبا لا غريبا، ثم رأيت بعاكر يتقدم نحوه ويمتنهه ويسفقه ويفحش فى حقه ويستطيل فى عرضه. وكان فى توثبه عليه يحاول إلحاق الأذى به، فلما تبين بنطاؤُر منه هذه النية بسط يده للدعاء كما فعل يوم الاحتفال، ولكنه إنما بسطها ليأخذ بتلابيب ولدى وليجره إلى منازلته. وقد تم له ما أراد إذ تنازل الاثنان فخيلى لى أن بعاكر قد تدخل جسمه بعضه فى بعض حتى تبدل من صورته الإنسانية المقومة بكتلة لا وصف لها ولا كيفية، وأن هذه الكتلة سقطت على قدمى بنطاؤُر، وتبين عند فحصها أنها لم تكن إلا قطعة صلصال كالذى تتخذ منه الآنية سواء.

قال أمينى: غريبة فى بابها هذه الرؤيا! على أننى مازلت أبشرك أنها فال خير وعنوان سعادة، لأن الصلصال بمرونته يتشكل بجميع الأشكال وفى تحوله إليه حكمة خفية أرادت الآلهة بها إفهامك أنهم يعوضونك من بعاكر خيرا منه صورة ونفساً وعقلا. ولست أدرى على وجه التحقيق كيف يتم ذلك كله، ولهذا أرى أنه لا بأس من مواصلة الدعاء بالدعاء والصلاة بالصلاة وإهداء القرابين مع الاتكال على احكم الحاكمين. وهناك نصيحة أخرى لن أضن عليك بها وهى أن تقابلى بعاكر-كلما لقيك- بوجه باش وصدر رحب، فإذا أقام على عناده القديم فلا تدعيه يدنو منك والفظيه كما تلفظ النواة.

وما ختم الكاهن الأعظم نصحه حتى همت ستخم بالانصراف مطمئنة القلب

مرتاحة الضمير. وكان أميني يناجى نفسه ساعة انصرافه: لست فى ريب من أن هذه المرأة ستجزى خيراً على صبرها وآلام نفسها فقد أمرت عيشها وأطال ليلها سلوك ذلك الشاب الحقيق. ولكن استنقاذها منه فى المستقبل لن يحول دون إمكان جعله آلة لتنفيذ مقاصدنا، ولطالما شككت فى صحة الأحلام ولكن لم تحدثنى نفسى يوماً بأن المستقبل سيميط عن هذا السر العجيب اللثام.. ولعل قلوب الأمهات تحس ما يقع فى المستقبل من الأحداث.

ما بلغت ستخم إلى دارها حتى التقت ببعاكى يسوق عجلته عند بابها فلم تحفل به ولم يعن هو بها، ولا يعلم إلا الآلهة مقدار ما شعر به كلاهما نحو الآخر حين تلاقيا من انقباض الصدر واكتئاب النفس.. وفى المساء التقى بعاكى بالوالى للتفاوض ثم قصد بيت سىتى ليطلب إلى الكاهن الأعظم أن يبارك فى مشروعه ويدعو له بالتوفيق، ثم وضع القرابين الكثيرة على قبر والده. وعلى أثر عودته أخذ يعد معدات السفر إلى الديار السورية فلما هم بالركوب فى مركبته وافاه الخدم بنبا القبض على الخواص المتهم بقطع الأذقال فأمرهم بأن يفتأوا عينيه عقاباً له على فعلته وكان آخر ما أصدره من الأوامر والأحكام قبل رحيله إلى بلاد الشام.

ابتعد بعاكى رويداً رويداً، ولم تكن ستخم وجهت إليه كلمة وداع أو إيماءة تدل على رضائها عنه، إلا أن هذا الصدود لم يمنعها من الابتهاال للآلهة أن يلينوا من قسوة قلبه الجلودى ويقوه شر الوقوع فى الخطايا والآثام. وما تحرك قلبها بهذه العاطفة إلا لان الأمهات فطرن على الرحمة بالاولاد والمفاخرة بهم فى كل محفل وناد.

الفصل السادس

تدريب الأمراء على الأعمال ..كى يكونوا للغير خير مثال

مضت أيام ثلاثة على رحيل بعاكر إلى الشام، كان المصنع الذى أنشأته بنت أنات يدوى فى خلالها بهمس العاملات كما تدوى الخلية بطنين النحل. وكانت الأميرة ونيفرت قضت ليلة العاصفة أى الليلة التالية ليوم تنكرهما لشهود الاحتفال دون أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفاتها. فلما تنفس الصبح رجت نيفرت من الأميرة أن تأذن لها بقضاء النهار فى التماس الراحة من عناء الحوادث الأخيرة، فرفضت الأميرة طلبها قائلة: الأليق بنا يا صديقتى أن ننفض عن أنفسنا غبار الخوف وأن نوجه أفكارنا شطر غاية أخرى. أما سمعت قول العقلاء «لا تؤجل إلى الغد ما يمكنك أن تعمله اليوم» فافتقى إذن أثرى بجلد واطمئنان. ولكن هاأنذه أشعر برعدة تهز أركان جسمى كما لو كان الوحش بعاكر قد أهوى بيده على كتفى فلوثتها بدنسها.

أذعنت نيفرت لأمر صديقتها فقضت معها اليوم الأول وقد عانت فيه تعباً ممضاً وتولاها يأس مضجر. فلما كان اليوم التالى أنست من نفسها الميل إلى ملازمة الأميرة والاعتباط بصحبتها. ولم يسعها فى اليوم الثالث إلا أن تعترف بما أحرزته من براعة فى العمل وأنسته فى نفسها من ميل إلى مجاراة غيرها فى إتقانه. وهذا شأن الإنسان فى ممارسة الأعمال، كلما اتجهت عزمته وخلصت نيته فى إنجازها ازداد شعفاً بها. وما عليه إلا أن يجلد ويصبر بادىء الأمر على قمع نزعاته التى تصده عن مزاولتها، فمتى تمكن من صدها حلاله العمل وانكب عليه من غير سأم ولا ملل.

ولقد أحسنت بنت أنات إذ فوضت إلى صديقتها الرقابة على طائفة من العاملات، ومنهن فتيات صغيرات مات عنهن أبائهن، وأيامى قُتل في مواطن الحرب أزواجهن، ولقطاء ولقيطات وبائسون وبائسات خانهم الدهر ورشقهم بسهام الغدر وأوقعهم في مخالب الفقر، لأن هذا العمل كان مما يوافق ميلوها ويطابق رغباتها.

وكان عمل تلك العاملات مقتصرًا على فرز النباتات الطبية. وكان يجلسن على الثرى متربعات حلقات بدواثرها متلامسات، بوسطها النباتات ما بين رطبة ويابسات. وكان يرشدهن إلى كيفية فرزها وترتيبها طبيب من ذوى الأسنان لا يكف عن التنقل من حلقة إلى حلقة حاثًا مرشداً، وكانت نيفرت تحب الأزهار حبها للأطفال فوجدت من العمل الذى ناطته بها بنت أنات خير فرصة للبحث فى تلك الأزهار ودرس خصائصها وحث أولئك الأطفال على مواصلة العمل، وصرفت نحو هاتين الغائتين همها فتمكنت فى الزمن القصير من التمييز بين المجتهد والكسول، تعد ذلك بالمكافأة وتحت هذا على الاقتداء به.

ورأت أثناء هذه المراقبة طفلة عارية البدن نجلاء العينين فاتجهت صوبها وسألتها: ماذا تصنعين أيتها الفتاة، ألا تدرين أنك بخلط هذه النباتات بعضها ببعض تسببين الهلاك لمن يعالجون بها؟ أى مصاب أجل وخطر أفدح من أن يصاب أبوك بجرح فى ميدان القتال فإذا وضع عليه بدلا من النباتات النافع الناجع نبات ضار ورد شر الموارد وساء مصيرا؟!.

فلما سمعت الفتاة هذا العتاب علا وجهها الاحمرار وأومات برأسها ايماءة الامتثال لأمرها والعمل بنصحها واستأنفت عملها بيقظة والتفات. عندئذ انصرفت نيفرت عنها قاصدة إلى فتاة أخرى بدت عليها علامات التوانى والكسل، فقالت لها: أنت كثيرة الهذرا! أنسيت والدك الذى ينازل الأعداء فى ساحة الوغى معرضا جسمه

لطعنات الرماح وقاتل الجراح!.. ماذا يكون مصيره إن لم يجد الطبيب لطعنات الرماح وقاتل الجراح!.. ماذا يكون مصيره إن لم يجد الطبيب على مقربة منه يسعفه بالدواء؟ أو ماذا يقول هذا الوالد التعس إن رآك في حلمه مخلدة إلى السكون واضعة يديك على ركبتك.. ألا يقول إن ابنتي لا تحبني ولا تحترمني لأنى أراها قاعدة لا تزاول عملا في حين يجب عليها الاجتهاد في إعداد الدواء الذى يترتب عليه خلاص والدها المريض من مخالب الموت.

ثم تراجعت إلى مكان حلقة كبيرة من الفتيات فقالت لهن: أتدرين أينها الفتيات أين تنمو هذه النباتات؟.. لعلكن تجاوبننى بلا، إذن انبئكن بأصلها.. خرج حورس الطبيب يوما لمحاربة سبت الخبيث فلما احتدمت بينهما نار القتال تمكن هذا الشيطان المرید من إيدائه إذ فقا له إحدى عينيه^(١)، ولكن الظفر كان في النهاية لحورس لأنه لا بد من انتصار الخير على الشر وإن طال الأمد. ولما رأت إيزيس أن الدائرة دارت على ابنها العزيز تلتفته بين ذراعيها وأسندت رأسه إلى صدرها^(٢) وشعرت بما يشعر عامة البشر به من الحزن وانقباض الرجاء. وقد تأكد لها انه يتعذر - بل يستحيل - تعويض تلك الخسارة، فتماطرت الدموع من عينيها وكانت تنحدر على الأرض فينبت في مسقط كل قطرة منها نبات من النباتات التي بأيديكن^(٣).

(١) هذه الحقيقة التاريخية مستخرجة من كتاب الاموات.

(٢) يؤخذ مما جاء في مقدمة أوراق البردى المعزوة إلى الدكتور ايبرس مؤلف هذه الرواية ومما ورد في كتاب الاموات أن ايزيس عالجت عين ابنها حورس فأعادتها كما كانت.

(٣) يسند المصريون إلى دم آلهتهم ودموعها مزايا الخصب. وقد استقصى هذا البحث المسيو (لوفيبورد) في كتابه تحت عنوان «عينا حورس» ونشر (نافيل) كتابا في مدايح را أو رع سمي الإله فيه (ريمى) ومعناه الباكي. ويوجد في الكتابات المنقوشة على قبر سبتى الأول مع الصور المثلة للذريات الأربع التى يتفرع منها أفراد الجنس البشرى ما ترجمته «أنتم دموع عيني» إلخ.

فقال إحدى الفتيات: إن ايزيس تحب الخير، وقد ذكرت لى والدتى أنها تحب الأطفال الطائعين. قالت نيفرت: ما ذكرت لك والدتك حق لا مرء فيه فإن لإيزيس ولدا شغفت به حباً وهو حورس الصغير. وغير خاف أن الإنسان إذا تحلى فى حياته بالفضائل عاد بعد وفاته طفلاً صغيراً فتتبناه ايزيس وتعزه وتكرمه وتمده بمساعدتها وتشمله برعايتها حتى يشب ويتعرع ويصبح قادراً على القتال انتقاماً لأبيه.

ورأت أثناء كلامها امرأة أثرت فى نفسها هذه الرواية بما حملها على الكباء فدنت منها وسألتها عن أمور أجابت عنها بما يفيد أنها فقدت زوجها ثم ابنها، الأول فى حرب الشام فالثانى عقب عودته إلى مصر. قالت نيفرت: ما أسوأ حظك أيتها المرأة.. ولكن الواجب عليك التسلى عن فقدهما بالعمل لعلاج الجنود الجرحى.. أتدرين ما فعلت ايزيس؟ كانت ايزيس تحب زوجها أوزريس كما كنت تحبين زوجك الذى رماك الزمان بفقده، وكما أحب قرينى مينا وأتفانى فى الإخلاص له والمحافظة على عهده، فلما وقع أوزريس فى الشرك الذى نصبه له سبت اللعين حارت ايزيس فى أمرها وضافت عليها المذاهب، لأنها كانت تجهل المكان الذى احتوى جثة قرينها العزيز. فهى قد ناقت إذن من العذاب أضعاف ما تذوقينه، ذلك لأن قبر زوجك موجود تستطيعين زيارته متى أردت. أما هى فلا، لأنها لم تهتد إلى مكانه فأخذت تخترق البلاد وتجوب الأفاق باكية نادية حتى خشى على مصر أن يصيبها الجذب المهلك. ولما كان أوزريس هو المودع لعناصر الخصوبة بين ذرات تربتها، فقد كاد النيل يجف وتذوى الأشجار واشتد اليأس وعزت الحيلة، غير أن دموع ايزيس سقطت فى مجرى النهر فارتفعت فيه المياه حتى بلغت ضفتيه. ومن ذلك العهد إلى الآن صارت النقطة الواحدة من دموعها تكفى لإفاضة النيل فى كل عام بالبركة الوفيرة والخير العام.

وكانت المسكينة تصغى إلى حديث نيفرت، فلما جاءت هذه على آخره قالت: لقد ترك ولدى بموته أربعة أطفال فكفلتهم ، لأن أمهم وهى تحترف بغسل الثياب للناس التهمها التمساح وهى تمارس حرفتها على شاطئ النيل وكان لاينبغى لمثلنى أن يعنى بشأن الغير وهو عاجز عن العناية بشأن نفسه ولا أن أرثى لمصاب غيرى إذا كانت المصائب محددة بى.. وهل تظنين أننا فى هذا البيت كنا نشتغل ونقضى معظم الوقت فى العمل لفائدة الجرحى، لو لم تغدق علينا الأميرة بنت أنات جزيل الإحسان ووافر الصدقات.. إنه لما يضاعف الأحزان ويثير الأشجان أن يتولانى الضعف والاضمحلال فلا أعود قادرة على تربية أربعة من الأطفال.

ارتاعت نيفرت لسماع هذا القول الذى ما طرق مثله سمعها إلا منذ ثلاثة أيام فلم يسعها- وهى عاجزة عن مؤاساة تلك المرأة المسكينة بعبارات العطف والرفق- إلا أن قصدت بنت أنات ورجت منها أن تزيد مرتبها من فيض مكارمها. فلما شهدت الأميرة جزعها هدأت روعها قائلة: هل لى أن أرفض رجاك ولا أقدر مسعاك وأنت الوزر والعون لى على عملى؟.. تعالى معى الآن لتفقد أحوال الطاهيات فقد أمرتهن بانضاج بعض الثمار والفاكهة وحفظها فى العلب ليتذوقها والدى وإخوتى، وسأرسل إلى قرينك مينا حصته منها. فرافقته نيفرت إلى المطبخ حيث رأت الطاهيات يرتبن الثمار الذهبية اللون المجلوبة من واحة أمون^(١) فى علب يحكمن اقفالها ويضعن الثمار المستوردة من النوبة فى أوعية أخر برسم الملك رعمسيس، لتفضيله إياها على غيرها. قالت: دعينى أضع هذه الثمار فى الأوعية الخاصة بها. ثم أخذت ترتبها، يتخللها فواكه أخرى مختلفة ألوانها، فكانت كل طبقة منسقة على

(١) هى واحة سيوة

شكل جميل يروق العين مرآه. وكانت بنت أنات ترمق الأطباق على مختلف نسقها بعين السرور والارتياح. فلما أتمت نيفرت عملها صافحتها الأميرة قائلة: ما لمست هذه الأصابع شيئاً إلا وجعلته جميلاً ومحبوياً مثلها. ثم تناولت الورقة التي تلتصق على الوعاء للدلالة على مافيه وكتبت عليها «رتبته ونمقته قرينة مينا العريقة في الحسب ورفيقة بنت أنات».

وبعد الغداء وصل إلى القصر لفيف من الناس سألوا عن الأميرة فبرزت لمقابلتهم، ولزمت نيفرت العاملات إلى أن أذنت الشمس بالمغيب، وهمت هذه النسوة بالانصراف فأستوقفتهن نيفرت وقالت لهن: إن زورق الشمس يغيب وراء حجب الجبال الشرقية فنبتهل إلى الآلهة أن يحفظوا حياة الملك ويقوا الغائبين عنا شر العناء والهموم، ولتفكر كل منكن في أقربائها وذويها المحاربين في مواطن القتال. وأنتم أيها الأطفال اذكروا آباءكم بالخير وادعوا لهم بالنجاح والفوز. وأنتن جماعة النسوة اذكرن أزواجكن، ولنسأل آمون أن يعيدهم إلينا سالمين كما تعود الشمس بعد غروبها إلى الشروق، ثم جثت على ركبتها فاقتدى بها الأطفال والنسوة. ولما نهض الجميع تقدمت إليها فتاة فجذبته من أطراف ثوبها وقالت: بالأمس قد أجلسنتي على ركبتى وشهدت اليوم أن صحة والدتى قد تحسنت فهل سبب هذا التحسن أننى دعوت لها بالشفاء؟ فربتت نيفرت بيدها شعرها الأسود وقالت: أجل، إن سبب شفائها دعاؤك لها. ثم انصرفت للبحث عن بنت أنات فرأتها متكئة على حاجز الشرفة ناظرة إلى طيبة الأموات التي كان الظلام ينسدل عليها شيئاً فشيئاً، وما شعرت بوقع أقدام نيفرت حتى انتفض جسمها لأنها كانت سابحة في تيار الأفكار.

فلما رأته نيفرت ذلك تراجعت إلى الوراء قائلة: لعل كدرت صفوك وأقلقت راحتك. أجابت بنت أنات: كلا يا عزيزتي، إنى أشكر الآلهة أن ساقوك إلى هذا المكان لأنس بك وأسرى عن نفسى الهموم والأحزان بمخالطتك. قالت نيفرت بصوت خافت: تبينت الآن بواعث أشجانك وأحزانك، إنك مازلت تذكرين بنطاؤر. قالت: حقاً ، إننى دائمة التفكير فيه ولذا أصبح فؤادى ملتقى هواجس وميول وعواطف لو انتزعت منه لكف عن الخفقان وكان نصيبى من هذه الحياة الحرمان. يروون عنى أننى انتهكت حرمة العادات وخرقت سياج الآداب ويتهددونى بعقوبة ربما صرفتك عن مصاحبتي، إذ لا أشق منها على مثلي فتكون النتيجة حرمانى لطف معاشرتكم والأنس بك. قالت نيفرت: إننى قسيمتك فى الضراء كما أنا شريكك فى السراء. وما الذى يتهددونك به ويفرضونه عليك وأنت كريمة مليك هذه البلاد والمتصرف فى رقاب العباد؟ أجابت: برزت للأنظار كإحدى بنات الشعب وكان هذا من فساد الرأى ولا بد من الرضاء بعاقبته.. دار بينى وكبير كهنة هيكل آمون حديث تأكد لى من فضله وثبت عندى علمه ونبله، واطلعت من خلاله على أنه من نوى البر، فعقدت النية على العمل بنصائحه، لاسيما وأن والدى كان قبل رحيله إلى مواطن القتال قد وصانى بالخضوع لأمره والعمل بإشارته. ومما شرحه لى وأيقنت معه عظم ذنبى أننى دخلت أحد هياكل طيبة الاموات ملوثة بالدنس ثم عدت فدخلت بيت بينم المحنط رغم تعزير الكاهن الأعظم إياى لدخولى فيه المرة الأولى. وقد خبرنى أن جماعة الكهان قد انتهت إليهم تفاصيل ما وقع لنا من الحوادث يوم الاحتفال وما كان من تنكرنا وإخفائنا على الناس حقيقة أمرنا. أقبعد هذا كله أستطيع الامتناع عن

التطهر؟ ألا ترين أنه لم يبق أمامى سوى إحدى سبيلين: إما التماس الصفح من أمينى بعد الإقرار بالذنب أمامه في محفل حافل من الكهان والأعيان، وإما الحج إلى هيكل هاتور الزمردية^(١) إلهة المعادن المطهرة، فمددها هو الفاصل بين الحق والباطل وسرها وسيلة الطهر من الدنس. وهيكل هذه الإلهة الذى يقوم كهانه بتطهير الأدناس على مسيرة يوم من المناجم وإلى جانبه وادٍ ينحدر الماء إليه من جبل سيناء المقدس كما يقول أمانتو^(٢)، وهى شقة بعيدة يقاسى المسافر فيها العناء ويتكبد أهوال الصحارى والقفار. وقد شرح لى كاهن آمون ضرورة الرضاء باحتمال المشاق وأوصانى بالغنى عن استشارة أمينى فى أمر ما حتى أتقى أذاه وها أنذه أرانى مضطرة الآن إلى العمل بنصيحته لاسيما بعد أن اقتضح أمرى وخيف أن يقتدى بى فيه غيرى.. إن الكهان لسان حال الآلهة، وقد قضى هؤلاء على المدنسين بالتماس الطهر من الذنوب، لا فرق فى ذلك بين كبير وصغير. ومع علمى الآن بصواب هذه الأحكام أرى من الصعب على نفسى الخضوع لأوامر الكهان.. ألسنت فى الحقيقة ابنة رعمسيس؟ قالت نيفرت: نعم أنت كريمته وهو من الآلهة.. فقاطعتها بنت أنات: علمنى والدى احترام القوانين ولذا تريننى حفيظة عليها محترمة لأحكامها عاملة بنصوصها.. وقد دار بينى وبين الكاهن الأعظم حديث ثانٍ

(١) كانت هاتور إلهة المعادن والأحجار الكريمة وكانت تلقب بهاتور المفكات، والمفكات نوع من حجر أخضر ولعله محرف من مسكات الذى معناه بالسان المصرى القديم الزمرد أو الزجاج الملون بالأخضر. ويوجد فى القصر اليابانى بمدينة درسدن فى ألمانيا صورة الإله بتاح مصنوعا من هذا الحجر.

(٢) سكان جبال سيناء.

في موضع آخر هو الزواج بالسوالى أنى. فإنه غير خاف عليك أنه طلب الاقتران بى
فرفضت رفضاً لا أرتاب في أنه من أجله سيبغضنى، غير أننى أصبحت في حيرة
شديدة لأن والدى اختاره وصياً علىّ ومشيراً لى، وليس في وسعى الآن الاستمداد
بمعونته ولا الاسترشاد بمشورته. وكيف يليق بمثل الركون إليه في أمر وأنا أميرة
ابنة أمير؟ إننى أفضل أن أجوب الصحراء ألف مرة على أن أصم والدى الملك بوصمة
العار.. على أننى سأنتظر إلى غد لاعتزام أمر، ولكن لم هذا التردد وهذا الارتياب؟..
لقد عقدت النية على الرحيل وإن تكن الشقة طويلة والمصاعب جليلة. فلا تجزعى
إذن يا صديقتى، لا تجزعى فقد عرفتك من رقة الحاشية ونعومة الأعضاء بما لا
تستطيعين معه اقتحام الأخطار وتجشم مشاق الأسفار. وقد رغبت.. فقاطعتها
نيفرت: أبداً! أبداً! لا مناص لى من مرافقتك ولو كان السفر إلى أعمدة السماء
الأربعة^(١) أو أطراف البقاع المسكونة من العالم. وكيف لا أرافك وإليك يرجع
فضل وقوفى على أمور كثيرة كان زهدى في معاشره الناس سبب جهلى بها وتطورى
الآن بطور حياة لم يسبق لى عهد بها. لست أخاف إن أنا عدت إلى والدتى أن تذوى
أغصان الأفكار التى وضعت غراسها في قلبى وتعهدت نبتها بمواد النماء من فضل
رعايتك وغزير علمك..؟ ولا يذهبن عليك أن بيت مينا لا ينبغى أن يقبض على دفته
سوى واحدة منا نحن الاثنتين، وإذا كانت والدتى تريد أن تكون فيه صاحبة الكلمة
النافذة والأمر المطاع على كل حال فجدير بى ألا أعود إليه إلا مع أليف حياتى
وشقيق روحى مينا.

(١) توجد على تمثال تحتمس الثالث الموجود بالمتحف المصرى هذه الكلمات «أنا آمون».. انشر
أمامك الخوف حتى يبلغ إلى أعمدة السماء الأربعة». وكانوا يريدون بهذه الأعمدة الجهات
الأصلية الأربع أو حدود العالم كما يؤخذ من بعض النصوص.

قالت الأميرة: يبدو لي من قولك أنك مصرة على الرحيل، ولكنني أسفة لغياب والدي فإنه لو كان مقيماً بين ظهرانينا الآن لفزعت إليه لاستشارته وفضلت العمل بإرادته. فتنهدت نيفرت وقالت: إنني لأسفة كذلك، ولكن هي الحرب لا تعرف أسفاً ولا تفتح صيوان أذنها لشكوى ولا يخفق قلبها لرثاء. ولست أدري لماذا لا يقنع الرجال بما قسم لهم من الخيرات ولماذا يطمحون دوماً إلى المزيد منها ويضحون السلام لذلك على مذبح الحرب. قالت بنت أنات: لو كانوا على غير ما نلوم منهم لما أجبناهم إلى مطالبهم، بل لما ملنا إليهم. وهل رأيت منظرأً أجمل في النفس أثراً من بنطاور وقد حمل على قوم طاشت أحلامهم وضاع صوابهم وخاطر بحياته لينقذ روح طفلة بريئة من الذنوب منزهة عن العيوب. قالت نيفرت: لم التفت إلى ما وقع أمام بيت المحنط لما تولاني من شديد الجزع، ولكن لا يزال صدى صوته حينما كان يحمل على أعدائه يرن في أذني. قالت بنت أنات: هكذا يدوي صراخ الشجعان حينما يتقهقر أمامهم الأعداء ويولون الأدبار. ودخل الأمير راميري أثناء الحديث فسمع بعضه فقال: صدقت، فهكذا يدوي صراخ الأبطال في الأفاق. فارتعدت فرائص بنت أنات لأنها لم تكن رأتها، إذ كان الليل أرخى سدوله ثم قالت: لقد أزعجتني وألقيت الهلع في قلبي. قال الأمير: كيف يعرفونك خوف ويملاً قلبك جزع؟ قالت: كنت فيما سبق لا أخشى أمراً ولا أهاب خطراً ولكنني منذ ليلة الاحتفال عراني من الذهول ما صرت معه أخاف من لا شيء. ولعله أصابني مس من شيطان أو عدائي بعدوي خلقه جبان. قال راميري: مادمت صاحبة الأمر والنهي في كل مكان فليس من يطالبك بالطاعة له. هذا وما زلت أراك متأثرة بحوادث ليلة الاحتفال. وأنا أيضاً كلما فكرت فيما كان من أمرى مع الكهان وطردهم إياي من المدرسة وتذكرت جراءة بعاكر حينما حرّش بنا الكلب نالني من الغيظ ما حرك في نفسي حب الانتقام، ولكن

حمداً للآلهة فقد نصرونا عليه في الختام. سألت بنت أنات: وماذا كنت تفعل منذ منعك عمنا أنى من مبارحة القصر؟ أجاب: لا حاجة بى إلى وصى يتولى شؤونى ويهيمن على فى تصرفاتى، فى الشهر المقبل أناهز الثامنة عشرة من عمرى. قالت: ولكن أنسى والدك وأنه.. أجاب مقاطعاً: إن والدى يجهل دخيلة نفس الوالى فهو غير ملم بما يدبره له من الدسائس وينصبه من الشرك. أما علمت أن أنصاره عاهدوه على الطاعة وحلفوا بالإيمان التى لا فسحة فيها أن يكونوا له عوناً على تحقيق مراده، وما مراده فى الحقيقة إلا ما يتهامس به بعض مقربيه من طموحه إلى عرش الملك، فهو إذاً عامل على إبرام التدابير المؤدية إلى إسقاط والدنا الملك من عرشه. ولعلك تنكرين عليه هذا السعى وتستبعدين أن يفكر مثله فيه مالم يكن طاف به طائف من الجنون، ولكن لا تنسى معنى المثل السائر « لا دخان بلا نار ».

ما سمعت نيفرت هذا الخبر حتى اصفر وجهها جزعاً وسألت الأميرة أهاها أن يوافيها بما عنده من تفاصيله فسرد لها كل ما انتهى إليه من أقوال الناس وآرائهم وما تأكد له فى أثناء تنكره. ثم قال مبتسماً: إذا حاول أنى أن يسقط والدى مع علوة عرشه فيكون أشبه بنا فيما لو حاولنا أن نستنزل من كبد السماء كوكب إيزيس لنوقد به ما نحن الآن فى حاجة إلى الاستضاءة به من المصابيح. قالت نيفرت: أرى فى الظلام الذى نشر جناحيه علينا ما استحسنه. قالت بنت أنات: كلا بل لا بد لنا من الضوء إذ لا يستقيم الحديث معى إلا إذا استجلبت وجه من أخاطبه. ومع أننى لست ممن يحفلون بما يدور من الأقاويل على السنة العامة فلا بد لى من مكاشفة والدى بها. قال راميرى: وأغرب هذه الأقاويل ما التقطته من أفواه الناس بمدينة الأموات. قالت الأميرة: يؤخذ من كلامك أنك عدت ثانياً إليها بعد مغادرتنا إياها.. إن كنت فعلت فقد أخطأت ولم تأخذ بالروية فى عملك. قال راميرى: نعم فعلت متكرراً وقد

وقفت بتنكرى على أخبار يسرك سماعها، فإن وردة الزاهية قد تماثلت للشفاء وهى تقيم الآن فى بيت خاص بها بفضل رعايتك وما أغدقت عليها من نعمتك. وهذا البيت كان مكاناً مهجوراً على مقربة من كوخ جدتها الذى أحرقه المتظاهرون. فاستعان والدها ببعض الناس على إقامة جدرانها وتدعيم أركانها. وقد أخافنى منظر هذا الرجل لأنه جندى جاف كثيف اللحية بدين الجسم هائل الخلقة، ليس بين وردة وبينه قرينة شبهة. فإذا كانت تشبه الأيكة البيضاء فى رقتها ولطف شمائلها فإنه كالقنفذ فى خشونته وقبح سحنته. ولقد عرضت عليها أن تجىء إلى قصرك الرفيع العماد لتزاول عملاً مما تجزين عليه البنات الفقيرات خير العطايا وأجزل الهبات فرفضت معذرة بحاجتها إلى مواساة جدتها والقيام على خدمتها، ولكننى أعلل هذا الرفض بأنه مظهر من مظاهر الإباء وعزة النفس.

فحدقت الأميرة فيه وقالت: أهدس أنك لبثت طويلاً بين المدنسين ولم تتعظ بما وقع لى. قال راميرى: لست أرى بعد الكمال الذى بلغت إلى أوجهه باستقلال فكرك وقوة إرادتك مجالاً تنزع إليه همتى وتسمو نحوه نفسى. إن المحنط الذين يقولون إنه سبب البلاء وأصل الشقاء قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ولم يبقَ غير والد وردة، وهو رجل طاهر من الدنس وعاره. فأى بأس من الاختلاف إليه واستجلاء أسرارها؟ أما العجوز الشمطاء فقد بذلت فى اجتنابها الجهد وبهذا التحرز لا أرى ما يمنع من القصد إلى بيته فى الغد. ولقد عاهدت على ذلك ولا بد لى من الوفاء بالعهد. سألت الأميرة: ولئن أعطيت هذا العهد؟ أجاب: أو تُعطى العهود وتُضرب الوعود لغير وردة ذات الجمال الرائع! لقد عهدتها شغوفة بالأزهار وفهمت أنها لم تشم لها عرفاً منذ الوردة التى تكرمت فأهديتها إليها فى زيارتك الأولى لها. ومن ثم أمرت مباشرة الحديقة بتنسيق باقة أنيقة سأحملها إليها بنفسى. قالت: أحجم عن هذا

الفعل.. أحجم وعليه لا تقدم، فأنت فتى لا تحسن النظر في العواقب. وإن كنت ممن يحبون لها الخير والنفع فلا تجعل لك بها صلة، وإلا كان لعاقبتها سوء الوقع.

فتربد وجه راميرى وقال: أنا الآن في معزل عن الوشاة والرقباء ولهذا أكاشفك بدخيلة نفسى دون أن أهاب أحداً.. إن كنت تريدني منى الطاعة لك فهأنذا مقرّ لك بها، بدليل أنى أترك عندك باقة الأزهار. بيد أن هذا لن يحول دون زيارتى لوردة وتفقدى حالتها.. إن وردة عادة فتانة للعقول بروعة جمالها ورشاقة قدها وورد خدها، جذابة للقلوب بمحاسنها التى لا يحصيها العد.. ولم تقع قط عيني على امرأة تضارعها في محاسنها، فإن يدي نيفرت اللتين تضرب بدقتهما وانفتال أصابعهما الأمثال تشبهان قدميها. ولقد دار بينى وبينها الحديث على شؤون كثيرة وتناول حديثنا الشاعر بنطاؤر فخيرتنى أنها تعرف والده مباشر البستان وتلم من أموره بما لا يعلمه إنسان. ومما أنقله عنها أنها لا تعتقد أن هذا الشاعر ولد البستاني، وإنما هو ملك هبط من سماء الخير والإحسان، وقد يكون إليها جاء بالبركة والفيض العميم. ولقد كانت في بدء حديثها يقظة شديدة الحذر والاحتياط في حياء واحتشام، ثم انطلقت في الحديث فما نطقت باسم بنطاؤر حتى انطلق لسانها بتقريظه بما استخلصت منه أنها تحترم هذا الشاعر أو تكاد تعبده. ولقد غاظنى منها ميلها إليه وعطفها عليه. قالت بنت أنات باسمه: إذن ترى نفسك أولى من بنطاؤر باحترامها واعجابها. قال: كلا، وإنما أنس في نفسى سروراً لا يوصف كلما جلست إلى وردة، ثم إنى انظر إليها بوصف أنى أنقذتها من الهلاك كما أنقذها بنطاؤر. ولقد اعتزمت أن أنضد الأزهار في شعرها الذى يشبه شعرك غزارة واسترسالاً وإن اختلف عنه لونها، فهو أشقر ذهبى، إذا مسه الإنسان بيده من أصوله إلى فروعه أحسّ حالاً بالغبطة والهناء.

فتبادلت بنت أنات ونيفرت عندئذ نظرات لم يفهم معناها سواهما ثم التفتت الأولى إلى أخيها قاتلة: بنى العزيز! نصحتك ألا تذهب إلى طيبة الاموات فلم فعلت؟ قال راميرى: سأنظر غداً فيما ينبغى أن يكون من إقدام على الزيارة أو إحجام عنها. ثم أعقب هذا المزح بالجد فقال: اعلمى يا شقيقتى أنى حدثت أنا أنا أحد رفقتى السابقين بمدرسة سیتی فيما يقع بها من الظلم والحيث، فقلت له إن بنطاؤور ملقى فى السجن وأنه حوكم بالأمس فى حضرة عمنا الوالى الذى كان يريد به الأذى والنشر، لولا معارضة الكاهن الأعظم الذى جهر لأمينى بأنه سيشمل بنطاؤور برعايته ويسبغ عليه درع حمايته. ومع أن هذه الأخبار بلغت إلى علم الطلاب فإنهم مازالوا يجهلون ما تم فى أمر الشاعر. وكل ما وصلهم أنهم سمعوا أمينى يقول لجاجابو: إنه يستحق شديد العقاب، ولكنى لا أسمح لأحد بإعدامه.. فالمرجح عندى أن يكون بنطاؤور هو المقصود بهذا القول. وإذا كنت عقدت النية على الذهاب غداً إلى المقبرة فما هو فى الواقع إلا لاستطلاع الحقيقة، إذ هل يبعد أن يكون حكم الإعدام أبداً بعقوبة السجن عدة أعوام؟..

ما سمعت بنت أنات هذا الكلام حتى امتقع لونها وصاحت: أنا سبب ما نزل بهذا المسكين من المحن والمصائب، فىا أيها الآلهة اسعفونى واطفرونى بحاجتى. ثم اعتمدت رأسها وخرجت مهرولة. فقال راميرى لنيفرت: ماذا حصل بشقيقتى، ولم تغير لونها.. وأنت لم تبدل من حالك؟ أجابت: تختلف أحوال الإنسان باختلاف ظروف الزمان. قال: وما تعنين بهذا الكلام؟ أجابت: لا تطلب مزيداً من البيان، وكل ما أقوله إنك سترى مغيبة تلك الظروف إذا بقيت مصرراً على زيارة بيت المنطين والعدول عن نصائح المخلصين.

الفصل السابع

تأمر العواطف على الحب.. وتأثيرها في القلب

في بكرة اليوم التالى جاز القزم نيمو مع رجل عليه رداء قاتم اللون بالخربة التى اتخذتها وردة مسكناً لها مع أهلها. وكانا يقصدان سيراً على الأقدام إلى مغارة الساحرة ، فلما وصلا إليها قال القزم: ليتفضل مولاي بالانتظار هنا ريثما أخبر بوصوله والى العجوز. قال الرجل: أخبرها ألا تصوت باسمى فىنى أحب ألا يخيلنى الناس إلا قيما ككثيرين غيرى، ومع هذا فأنا فى غنى عن هذا التحرز إذ لا يستطيع أحد أن يقف من أمرى على شىء مادمت متنكراً بهذا الزى. فهرول نيمو إلى المغارة، وقبل أن يلتقى بالعجوز وجهاً لوجه صاحت به قائلة: لا تترك سيدك الشريف وحده خارج المغارة، فليس هذا من الأدب اللائق فى شىء، ولست بجاهلة اسمه وإن أخفى على رسمه، فرفع نيمو سبابته إلى شفته إشارة الأمر بالسكوت وقال بصوت خافت: إن مولاي لا يحب التعريف بنفسه وهو يرغب فى تسميته بالقيم. قالت العجوز: هب أنه كذلك، فما هو إلا كالنعامة تخفى رأسها تحت جناحها واهمة أن أحدا لا يراها. سألتها القزم: وهل طالت زيارة الأمير لوردة؟ أجابت ضاحكة: وهل هناك بأس إذا اجتمعا وهما طفلان يمرحان.. ألا يشبه راميرى الحمل الصغير الذى لم ينبت قرناه بعد، وإنما يشعر بالمكان الذى سيذران منه ويود أن لو يستطيع الانتفاع بهما؟ فالأولى بك الالتفات إلى من هم أشد بأساً وأصعب مراساً من راميرى كالشاعر بنطاؤر خصمك اللدود، ولكن دعنا الآن من هذا الحديث فإنه مما لا يليق ابقاء القيم على جمر الانتظار.

قالت هذا ودفعت القزم بقوة ساعدها فانطلق مهرولا نحو الباب حيث كان الوالى واقفاً بزى المتنكر، ثم أخذت الطفل شراعو المسكين الذى كان مثبتاً فى آلة تقصير القامة فألقته بداخل المغارة وغطته بكيس قماش قاتم اللون إخفاء له عن النظر. وبعد هنيهة دخل الوالى فلما رآته العجوز حنت رأسها إجلالا ودعته إلى الجلوس على الكرسى الوحيد الذى تملكه فلم يجبهها إلى هذا الرجاء فألحت عليه أن يجلس قائلة: اجلس من فضلك ولا تخف أن يراك من بطن الوادى أحد، ثم أخبرنى ما سبب زيارتك إياى فى هذه الساعة؟ أجاب: أمر جلل أنا منه فى حاجة إلى استشارتك والتزود بنصيحتك. ولقد كان فى قدرة الحراس- وقد مدّ الليل رواقه- ان يقبضوا على لولا أنى بهذا الزى تنكرت فلم يعباوا بى. على أنى لبست تحت ثياب التنكر ثيابى العادية كى أتمكن بعد مغادرة هذا المكان من التوجه إلى المقبرة لخلع ذلك الزى والتعجيل بالأوبة. وسأعتذر للأمة بأنى خرجت لزيارة قبر والدى فى أحقر زى وسائراً على القدمين وفاء بنذر نذرته من قبل. قالت: صنيع حسن وفعل مستحسن . قال: كيف لا، وتلميذك نيمو هو الذى دبر تلك الحيل فأصاب فيما فعل؟

لما قصت العجوز على أنى روايتها التى كشفت له بها عن سر مولد بنطاؤور وسردت له ما سبق هذه الرواية وماتلاها من عجيب الحوادث لم ينظر إليها بوصف كونها تلك العجوز الفقيرة الحقيرة التى قوس الهرم ظهرها، بل باعتبار ما كانت عليه سالفاً من غض الشباب والجمال الفاتن للألباب، وشعرت هى بهذا العطف فبالغت فى احترامه، حتى إن رأسها حينما انحنت أمامه كاد يلامس قدميها. وكان بجوارهما غراب استأنسته ففزع من منظرها الرهيب ونعق نعيقاً لبث بعده فاغراً فاه، فألقت العجوز إليه بقطعة من الجبن فتوثب إلى مكانها لالتقاطها، ساحباً على الأرض جناحيه اللذين أثقلهما الضعف، إذ لم تكن فيه قدرة على رفعهما والاستعانة بهما فى الحركة والطيران.

أما أنى فقد قال لها: أريد الحديث معك في شأن بنطاؤر. قالت: ولم؟ أجاب: لأنى أرى في وجوده خطراً يهددنى بل حائلاً دون إصابة الأغراض التى إليها أرمى. ثم إنه ارتكب جريمة القتل بالاعتداء على الأبرياء، بيد أن كهان هيكلى سبتى يبغون إعفاءه من العقاب لمنزلته من نفوسهم. ولا يذهب عليك أنهم ينتحلون لأنفسهم حق محاكمة بعضهم البعض ويدعون بأنه ليس لمثل أن أخرج حكمهم الذى أصدره عليه بالنفى إلى محاجر رحنو^(١)، غير مكترئين بأمرى. ثم نظر إلى نيمو وقال: اذهب يا نيمو لتنتظرنى عند قبر أمينو فيس فأنى أريد الحديث مع والدتك فى أمر خطير.

قال: سمعاً وطاعة يا مولائى. ثم سار واثقاً بأنه لسوف يحيط علماً بكل ما سيفضى الوالى به إلى الساحرة. وما اختفى عن الأنظار حتى وجّه الوالى إلى العجوز فجأة السؤال الآتى: أما زلت مقيمة على عهد الولاء للأسرة الملكية السابقة التى اشتهرت عشيرتك بالإخلاص لها؟ أشارت بالإيجاب. قال: إذن فأنت لا تضمن بمساعدتى على المطالبة بسرير الملك، وهذا ما اغتبط به. ثم إنك تعلمين بلا ريب أنه لا غنى لى عن الكهان وأنهم أخذوا على عهداً بأن لا أوصل إلى بنطاؤر أذى. ومع هذا فمازلت أشعر بقلق فى نفسى وانزعاج فى ضميرى من هذا الشاب، لا سيما وقد أبلغتنى العيون التى بثنتها فى بيت سبتى أن الكهان إذ حكموا عليه بالنفى إلى محاجر رحنو كانوا يقصدون إلى جعل عقوبته مقتصرة على نحت الأحجار مدة قصيرة من الزمن، فى حين أن هذه العقوبة ليست بالشىء المذكور لرجل مثله شديد القوى وثيق الأركان، بل ربما كان النحت رياضة له وتمريناً فتزداد أساطينه قوة وفصوصه اندماجاً. ثم إن فى رحنو كما تعلمين مدرسة للكهان تابعة لبيت سبتى.

(١) محاجر رحنو هى جبل السلسلة الآن، وهى التى استخرج قداماء المصريين منها الأحجار التى بُنى بها أغلب المعابد فى الصعيد.

ومن العادات المرعية أنه إذا فاض النيل وارتفعت مياهه إلى الحافتين أقيمت لذلك أعياد (١) يجتمع فيها الكهان لانتخاب ثلاثة من المجرمين المحكوم عليهم بالنفى مع الأشغال الشاقة في المحاجر لاتخاذهم خدماً لهم في الهيكل. ومما لا مرأى فيه أنهم في الأعياد المقبلة ينتخبون بنطاؤر ويطلقون سراحه فتنتطلي بذلك حيلهم ويتم مكرهم. قالت العجوز: يبدو لي أنهم يبغون الاستخفاف بك والاعتداء على حقوقك، قال الوالى: لقد راجعت نفسى وضربت أحماساً في أسداس واستشرت راتوتى ونيمو فرأيت أن العمل بمشورتها وبما تنصرف إليه نفسى ربما جرّ إلى مشكلة تدعو الحكمة إلى اتقائها، فما رأيك أنت؟ قالت وقد بدت على وجهها علامات الاكتئاب: لا مفرّ لك من إبادة ذرية آسا عن آخرها. ثم أطرقت رأسها هينهة وقالت: ورأى الحكيم أن تجعل ثقباً في السفينة التى سيرسل المجرمون عليها إلى رحنو، فإذا ما توسطت النيل هوت إلى قاعة فيلقى بنطاؤر حتفه مع من يغرقون. قال: قد خطرت هذه الحيلة ببالى وأشار بها القزم، ولكنها حيلة عتيقة عملت بها أكثر من مائة مرة فشاع أمرها وافتضح سرها، دعى أن أمينى لابد أن يتهمنى وقتئذ بنقض العهد والحنث في اليمين التى أقسمت بها ألا أوصل إلى بنطاؤر أى أذى. قالت: قلت حقاً، وليس بمستغرب أن أرى الرجال يوفون بالعهد بينهم ثم لا يحافظون عليه مع غيرهم. وإذا لم ترق لك تلك الحيلة فإليك حيلة أخرى أحق بالاتباع منها وأحرى، وهى أن تأمر ربان السفينة التى سيركبها المحكوم عليهم باجتياز محاجر رحنو في (١) ينحسر النيل في جهات رحنو المشار إليها، وقد أقيمت بها في عهد رعمسيس الثانى وخلفه متفتاح آثار اسطوانية الشكل نقشت على سطحها الأناشيد المقدسة التى كانوا ينشدونها، وبينت القرابين التى كانوا يقدمونها لمناسبة تلك الأعياد. وقد استخرج الدكتور ايبرس وصديقه استرن معانى هذه النصوص وقابلوها على المعلوم من غيرها. وربما كان الاحتفال الآن بنزول النقطة أو وفاء النيل أثر تلك الاحتفالات التى يرجع فضل اقامتها إلى رعمسيس الأكبر.

ظلام الليل، والاستمرار على الصعود في النهر إلى مدينة أسوان، فيبعث بالمجرمين إلى معادن الذهب فيما يلي الصحراء وربما انقضت أربعة أسابيع أو ثمانية قبل أن يطرق الأسماع في طيبة هذا الخبر وتتداوله الألسنة. فإذا رأيت من أميني التذمر والغضب فتظاهر بالحنق على الريان وبالغ في تعنيفه لما تعدد ارتكابه من الغلط بإيعازك، فإن أميني لا يستطيع وقتئذ أن يحتج عليك بأنك أردت ببنطاؤر شرأ. وفي غضون ذلك يسهل عليك بما توافر فيك من لباقة وحقق، وبما عرف بعاكز به من عسف وتجبر أن تحقق أملك في الاستواء على عرش الملك. أما الأيمان والعهود فإنها تصبح أوهى من بيت العنكبوت، ووقتئذ يمكنك أن تترك بنطاؤر بمعادن الذهب لأن الذاهب إليها لا يعود منها.. ألم يمت والدى وشقيقى فيها وبيضت الشمس عظامهما.

قال أنى: إن أميني لا يسلم بوقوع الغلط. قالت العجوز: إذا لم يصدقك فاكشف له عن وجه الحقيقة وزد عليها أنك لما تبينت الحيلة التى دبرت لإنقاذ بنطاؤر من العقوبة في رحنو، أبت نفسك أن يبقى هذا المذنب جامحا في غوايته وأن تهان حرمة القانون بمثل تلك التدابير. ومتى علم منك بوجود الشاعر في معادن الذهب استفسر عن أحواله، فإذا أيقن أنه على قيد الحياة صوّب الكهان رأيك واستحسنوا فعلك.. هذه نصيحتى إليك فاعمل بها ولا تحد عنها إذ لا يسع القيم الذكى القصى مرامى النظر في العواقب مثلك إلا أن يجعلها نصب عينيه مادام طامحاً إلى الاستئثار بالدار التى وُكلت شؤونها إليه. قال أنى: عندى اعتراض على هذا الاقتراح وهو أنى لست فى غنى عن مساعدة أميني، ولست أحب أن أصبح العوبة فى يديه فيغلبنى على أمرى ويشاركنى فى سلطانى.

فهزت العجوز كتفيها استنكافا ثم دخلت المغارة حيث غابت هنيهة ثم خرجت وبيدها قنينة وقالت: خذ هذه القنينة فإن أربع نقط منها تكفى إذا وضعت في قليل من النبيذ لإضاعة الصواب. وما عليك إلا أن تجربه في أحد العبيد لتعلم صدق قولى وتتأكد سرعة تأثيره. قال أنى: وماذا استفيد منه؟ قالت ضاحكة: تستفيد منه إقناع أمنيى بأنك لم تهتك للقانون حرمة ولم تجر عن قصد السبيل ، وكيفيه ذلك أن تبادر بلقاء الربان عند عودته من أسوان وتقدم له قدح نبيذ فيه أربع قطرات من هذا السائل ثم تبعث به إلى أمنيى فإذا تأكد له أمره وعلم أن به خبلا فإنه لا تبقى عنده ربيبة في تجاوزه موردة رحنو وابتعاده عنها إلى الجنوب. قال أنى: عجباً لك يا بيكى ما أعظم قدرتك على جعل المستحيل ممكناً! ولكن لا محل للعجب، وقد فتنت الناس بمحاسنك الباهرة وصرت أمهر امرأة وأحذق ساحرة. قالت العجوز: لست أسمى بيكى فإن بيكى قد انقضت أيامها وزالت دولتها. وإنما اسمى نيخت فادعنى بهذا الاسم. قال أنى: لا بأس، إلا أننى أفضل صوت بيكى الرخيم على نعيب نيخت العجوز.. على أنه لايجمل بى أن أفارقك، وأنت أحرصن نساء طيبة عقلا وأحذقهن تدبيراً وأوسعهن حيلة، قبل أن أوجه إليك سؤالاً وهو: هل لك في إخبارى بحوادث المستقبل وأسراره؟ وإذا استطعت ذلك فهل ترين أن سعيى سيكلل بالنجاح؟ لا أخالك إلا عارفة بما أرمى إليه من المقاصد.

أطرقت نيخت رأسها برهة ثم قالت: لا أستطيع أن أخبرك الآن بنجاح سعيك أو فشله.. صوّب نظرك إلى هذين الصقرين المقيدين بمخليبيهما، إن الذى سقط ريشه وهبطت جفون عينيه هو رعمسيس.. أما الثانى المتحلّى بريشه الزاهى اللون وعينيه البراقتين فهو أنت ، إلا أننى لا أدرى أيهما يموت قبل صاحبه. فألقى أنى على الأول نظرة احتقار واشمئزاز بينما كانت العجوز تقول: إننى أعامل الصقرين بالسواء، لا

أفرق بينهما ولا أتحيز لأحدهما، وللقضاء المبرم حق الاختيار. فجزع أنى ولم يتمالك أن أخرج كيس نقوده وألقى به إلى العجوز قائلاً: أرجو منك العناية بأمرهما ليتيسر لك إخبارى بعاقبة أمرهما. ثم تحفز للانصراف قائلاً: إذا طرأ حادث على أحد الصقرين فابعثى نيمو ليخبرنى به.

وبينما كان أنى يتوارى عن العيان ملتمساً الطريق الموصل إلى قبر والده تمتعت العجوز بهذه الكلمات: إنك لأحمق معنوه، تجعلنى فى عهدك وتحت رعايتك لأجل صقرين لا تأثير لهما فى الحظوظ ، ثم تطمح بعد ذلك إلى الجلوس على أريكة الديار المصرية. لقد كان رعمسيس فاقد الرشده حائر الصواب حين أنابك عنه فى الحكم على هذه البلاد. ولعله تعمد اختيارك من بين الأغبياء ليتقى شرك. فإذا كان هذا هو ما ارتاه فقد سقط أنى فى هاوية الغرور، وعادة الحمقى والأغبياء إذا عجزوا عن العمل بالحكمة والروية أن يقتحموا المصاعب دون أن يتدبروا فى العواقب.

الفصل الثامن

ما حدث أثناء الوداع.. من مظاهر الوجد والالتياح

خرج أنى من مقبرة والده بعد ساعة متشحماً بأفخر الثياب واستوى في مركبته فمر بمغارة الساحرة وكوخ والد وردة. وكان نيمو جالساً يحدد إليها النظر ويتوثب في مكانه غيظاً وحنقاً، لأنه كان يرى من خلال الحاجز شبح إنسان جالساً إلى جانب وردة.

وما كان هذا الدخيل سوى الأمير راميرى متكرراً بزى كاتب من كتاب الخزينة، جاء ليسأل عن بنطاؤر ويستقصى أحواله. وقد رصع شعر وردة الجميلة بوردة زاهية، وجعل همه عند وصوله المبادرة بترصيع شعرها بهذه الوردة مسوغاً هذه المسارعة بأن الوردة كانت مخفية في طيات ثيابه وأنها إذا بقيت فيها طويلاً غشيها الذبول. وقال أيضاً في تسويغ فعله إنه لو بدأ بزيارة بنطاؤر لطلال مقامه عنده واضطر إلى الأوبة إلى طيبة قبل أن يتمكن من استجلاء محيا تلك الغادة الفاتنة ولأزعج غيابته اخته بنت أنات فترسل بعض أعوانها في طلبه. أما الآن وقد تحققت أمنيته وتأكدت بغيته، فهو يحسب نفسه من أهل السعادة والتوفيق.

وكان قلب راميرى في جلوسه إلى جانب وردة يخفق سروراً وابتهاجاً برؤيتها. ولولا أن الهموم أخذت تساوره لمخالفته القوانين بالدخول في بيوت المدنسين وإخفائه حقيقة أمره عن العالمين، لشيب سروره بالكدر. ثم إنه لم يكتفِ بذلك بل تعدد البيهتان والكذب، إذ قال لوردة إنه من حاشية بنت أنات. ولما كان الكذب يجرُّ إلى الكذب فقد اضطرَّ - في إجابته عن أسئلتها - إلى حشو كلامه بالأخبار الملققة

ليتوافر التوافق بين مقدمات الكذب ونتائجه. وبالجملة فقد كان الشر في هذه المعاهد المدنسة متفاقماً أكثر منه في بيت سیتی أو قصر عرفون. ثم حلق رامیری بفكره في جوّ هذه الخيالات، غير أنه كان يرغب نفسه على إنكار صحتها. لأن سیت الذي يسلط العواصف على الأرض ويحرك القوب الساكنة، كان قد نفخ فيه من روحه فغدا لا يرى في مرامی نظره سوى غرض واحد يبغى إصابته، وهو أن تكون وردة في عيشة راضية ومرتبة سامية. وعلل هذا الانعطاف بأنه لا يليق بها - وهى في ذلك الجمال الباهر والحسن الزاهر- أن يكون مهبطها بين أقوام ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ووصموا بالعار والدنس وباءوا بغضب من الآلهة.

وكان وقت وصوله إلى فناء الكوخ لم يقع نظره عليها وإنما سمع صوتها وقتما هبت من مكانها لتزجر الكلب الذي هرّ عند رؤيته هريراً شديداً، فلما رآته تراجعت إلى الخلف فزعة وقالت: لم عدت إلى ما وأنا المدنس وقد أنذرتك بأن جدتى أرملة أحد المحنطين المدنسين؟ قال رامیری: لست بمجيبئ هنا أقصد جدتك وإنما أقصدك أنت لاستجلاء محياك السنى والتلذذ بحديثك الشهى.. وأرى أنه لا مانع قاطع يمتنعى عنك، إذ لا علاقة بينك والقوم المدنسين. وهل من عجب إذا تفتحت أكمام الورود في وسط الرمال أو بين الجلمود؟ قالت وردة في ثبات واطمئنان: إننى ابنة والدى الجندى وحفيدة جدى المحنط الذى ذهب فريسة الغدر والحقد والظلم. ولست أعرف معنى العقوق حى أجدهما أو أتبرا منهما.. إنى لهما ما دمت على قيد الحياة، وكل الصلات تربطنى بهما ولا صلة بينى ومن يترفع عنهما، لأن من يقدم على هذا الفعل ثم يود أن أفارقهما يكون كمن يبغى أن ينزع قلبى من بين جنبى.

قالت هذه الكلمات ثم نظرت نحو الباب، فجذبها رامیری إليه وقال: لو قيس

الصخر بقلبك لكان ألين منه وأعطف.. أنت تعلمين أنني بذلت فوق المستطاع من الجهد لإنقاذك وجئت إليك دون أن يحدثنى وسواسى بأنك.. أه.. من الحقائق الثابتة عندي أن ليس بينك ومن تدعين أنهم أقاربك جامعة شبه.. ولا يسوؤك منى هذا الكلام وإنما ينبغى لك تدبر معانيه وإدراك مراميه لتوقنى أن كل مشتهاى أن لا تثقل كاهلك أعباء الدنس. ومن ذا الذى إن رآك لا يشعر فى نفسه بالحنين إليك والعطف عليك ومحبة الخير لك؟.. إن سيدتى بنت أنات نفسها قد.. كلا! من المستحيل أن تكون.. قاطعته وردة: أن أكون من زمرة المدنسين! ثم أطرقت رأسها قليلا وقالت بصوت جهورى: إن وصمة الدنس التى أُلصقت بنا ليست إلا ظلماً فادحا وإلا لما كان جدى على ما عُرف به من الفضائل والكمالات.

قالت هذا واغرورقت عيناها بالدموع فابتدرها راميرى بقوله: إنى مشايخ لرايك، ولكن يتعذر على المرء أن يبقى محافظاً على الفضائل والكمالات اذا ظلت الفضائح محدقة به ونظر الناس إليه بعين الاحتقار والمقت. وقد أيدت التجارب ما أقوله، فإنه إن لامنى أحد على أمر فانه يثير فى صدرى عواصف الغيظ منه والحدق عليه بخلافه لو مدحنى، فإنى أشعر فى نفسى بدافع على إيتاء المعروف. ومع هذا فإن خلطائى ملزمون باحترام وإجلال عشيرتى فى معاملاتهم معى ومعهم. فقاطعته وردة: أما نحن فلا نصيب منهم غير الازدراء والتحقير. هذا ما يستخلص من قولك، وإنما يجدر بك علم أنه لا ينبغى لامرئ أن يابيه للناس أوصابوا فى حكمهم عليه أم أخطأوا مادام واثقاً بأنه لم ينحرف عن جادة الفضيلة. وإذا كنا فى حالة تستدعى الاهتضام والاستذلال كما تقول، فلدينا من الأسباب ما يدعوننا إلى الرضى بها وإيثارها على سواها. لأنكم معشر العظماء الطاهرين من الأرجاس المبرئين من العيوب يخالجمكم الشك أحياناً فى حقيقة مراكزكم فتتوهمون أنكم أقل

خطرا مما أنتم في الحقيقة، بخلافنا نحن فإننا لسواثقون الوثوق كله بأننا أشرف قدرا وأنبه ذكرا مما تظنون وأننا نحن العالون فوق ما شاء ظلمكم واضطهادكم أن نكون في حضيضه متنكسين.

قال راميرى: إن ما ذكرته هو مجمل رأيي فيك، وإنما لا يرغب عنك أن في هذا الوجود إنساناً يقدرك تقديرا خاصا ويضعك في أسنى المراتب وأسناها ويقر لك بالرفعة التي لا تطاول والمجد الذي تطمح إليه العيون. وهبى يا وردة أنك غير خليفة بالاحترام والإعجاب، فمثل من لا يسعه أبدا إغفال أمرك. قالت وردة: إن ما مرّ بخاطرك من هذا قد مر مثله بخاطرى. إذ بينما كنت نهياً للهواجس وأنا على مقربة من مرقد جدتى خُيل لى أنه لو كان لى أخ مثلك لعشت فى الهناء والنعيم المقيم . ثم أتعلم ماذا كنت اصنع لو أنك كنت لى شقيقاً؟ قال: ماذا كنت تصنعين؟ أجابت: كنت أشتري لك جوادين كريمين ومركبة فتذهب إلى ميدان القتال لتتارب الأعداء وتذيقهم مع رعمسيس النكال. سأل: أو عندك مال يكفى لاشترائها؟ أجابت: نعم عندى، وهو ما تسلمته منذ ساعة فقط... أو تعرف القراءة؟ أجاب: نعم، أعرفها. قال: لما أصابنى الجرح فى صدرى عادنى طبيب من بيت سىتى، وهو رجل حاذق فى فنه عارف بمهنته إلا أنه غريب الأطوار شاذ العادات، فإنه مثلا كان لا يكف عن تصويب النظر إلى والتحديق بعينيه فى وجهى كما يحدق السكران فى الناس مستتباً. وكان يتعاجم متلعثما بلسانه، سأل: أليس اسمه نبسشت؟ أجابت : نعم هو بعينه، وكان يحدث جدى فى أمور غريبة. ولقد عمل لنا خيرا كثيرا بعد حادثة الاعتداء التى دافعت أنت وبنطاؤر فيها عنا. ثم توارى عن أنظارنا فلم نعد نراه إلا اليوم منذ ساعة، فقد عوى الكلب عواء طويلا فخرجت من الكوخ فوقع بصرى على شيخ قال لى إنه أخو نبسشت وأن هذا الطبيب أودعه مالا طائلا باسمى وعهد إليه

أن يسلمنى خاتما ذكر عند تقديمه إلى أنه يكفى أن أبرزه له ليسلمنى الوديعة على الفور، ثم تلا هذا على سمعى، فتناوله راميرى من يدها وقرأه بصوت عالٍ فإذا فيه ما يأتى:

«من نبسشت إلى وردة الجميلة.. إن نبسشت يهدى سلامه إلى وردة ويخبرها بأنه كان مدينا لجدما بينم الذى توفى وأخذ المحنطون يحنطون جثته الآن بمثل العناية التى تحنط بها جثث العظماء بمبلغ ألف حلقة ذهباً، فعهد إلى أخيه تيتا حفظ هذا المبلغ عنده ليكون تحت طلبها فى أى وقت تريده.. ولها أن تثق بتيتا وأن تأخذ المبلغ منه، وإنما الأفضل والأمثل أن تستثمره أو تشتري به بيتا للسكنى أو أرضاً للزرع. فإذا فعلت ذلك فإنها ستعيش مع جدتها فى أمن ورغد وهناء. وكل ما يسأله نبسشت منها أن لا تتزوج أحداً قبل مضى عام واحد من تاريخ هذا اليوم لأنه يحبها حباً جماً. فإذا انقضى الثلاثة عشر شهراً ولم يعقد عليها كان الخيار لها فى الاقتران بغيره، وإنما عليها فى هذه الحالة تكليف مترجم الملك بالبحث فى الخاتم الذى تركته والدتها وحل رموزه».

ما كاد راميرى يأتى على ختام هذا الكتاب حتى صار كالمنزول به، فقال: إن هذا الأمر لمن الغرابة بمكان. ومن ذا الذى يصدق أن ذلك الطبيب الشاذ الخلق الرث الثياب يبلغ به الكرم إلى حد البذل بكل ماله، ثم ما هو الخاتم الذى أشار فى رسالته إليه؟ وقد نشرت وردة ثوبها فأبرزت منه الخاتم الذى كان بريق أحجاره الكريمة يخطف البصر. قال راميرى: إن فصوصه من حجر الماس الثمين فلا بد أن يكون رفيع القيمة نادر المثال وهأنذا أرى وسط هذه الظفرة (١) البيضية الشكل حروفاً منقوشة لا أستطيع حل رموزها.. سأطلع مترجم الملك على هذا الخاتم.. أكانت والدتك تتحلل به؟ أجابت: لقد عثر والدى عليه فى ثيابها عقب مماتها، وكانت

(١) الظفرة حجر العقيق اليمانى.

خرساء من سبايا الحرب، فلم يهتد أحد إلى معرفة موطنها ولا إلى حقيقة أمرها. قال: لاريب عندي في أنها من أسرة شريفة، لأن الأبناء سر الوالدين.. فأنت أميرة صغيرة إذا يا وردة.. ما أسعد طالعى بك، وما أكبر حبى لك! قالت باسمه: لعل الخوف الذى امتلأ به فؤادك فجعلك تعلق على علوا كبيرا قد زال الآن. قال: لست أرى منك إساءة الظن بى إلى حد تتوهمين معه أنى أرفع من قدر نفسى بمقدار ما أضع من منزلتك، فلقد قضيت يوم أمس وليته أعيد محياك الزاهر لخاطرى. وإلا فماذا سبب سهادى وقادنى إلى هنا اليوم؟ قالت: تكلم، لا أدرى السبب.

فاستخرج راميرى من طيات ثوبه الوردة البيضاء وقدمها إلى وردة فأخذتها منه بيد مرتجفة، وقد علت وجهها حمرة الخجل واعتراها الدهش، ثم قال: أنا أعلم أن هديتى هذه من عبث الصبيان، ولكن لا يسعنى قبل تقديمها إليك إلا الاستئذان منك فى ترصيع شعرك الناعم بها. أفتغدقين على نعمة هذه الحظوة وتحقيق أمنية طالما منيت النفس بقضائها؟ أجابت: ما أجمل هذه الوردة والطف شذاها العبق!.. وما رأيت فى حياتى وردة تشبهها فى لونها الباهر وشذاها العطر. قال: إنما هذا الجمال مستمد منك وإليك يسند، فدعيني أزين بالوردة شعرك، بل أزينها بهذا الشعر الذى يفوق حرير(صور) نعومة ملمس وأشعة الكواكب الدرية امتداداً واسترسالاً.. ها قد رشقتها والحمد للآلهة أن ثبتت فى مكانها.. لا تضعى يدك عليها.. لو رأتك الهواتير^(١) السبع لاصفرت وجوههن حسداً وكمداً.. ألسنت فى الحقيقة أبرع منهن جمالا؟ فتنفست وردة الصعداء وتوارت خجلاً ثم عادت فقالت: ما أبرعك فى المداهنة والملق، ثم حددت فى الأمير النظر وكانت عيناه تقدحان كالشرر

(١) جمع هاتور.

لتأثر وجدانه بحب وردة التى لم يتمالك أن أخذ بيدها فوضعها على قلبه لتحسّ قوة ضربانه وسرعة خفقانه ويتأكد لها هيامه بها، وسألها بعد هنيهة: أشعرت بخفقان قلبى وعلمت مقدار حبى؟ أنا لا أهنا براحة يا وردة إلا إذا أجبتنى إلى أمنية أخرى هى في نظرى أهم من تلك، وأرجو أن يكون اغتباطى بها أعظم منه بها.. أفتسمحين لى بقبلة يا وردة.. بقبلة واحدة ليس إلا؟ فتراجعت الفتاة إلى الخلف فزعة وقالت: كلا.. لقد فهمت الآن سر أمنيتك.. ولم يبق عندى ريب في أن العجوز نixت قد وقفت على أسرار الرجال وأن نصيحتها لى كانت في محلها من الصواب.. سأل : ومن هى هذه العجوز ومن أين لها الوقوف على أمرى والاطلاع على سرى؟ أجابت: أنبأتنى بأنه قد حان الوقت الذى سيدنو منى فيه رجل يجاذبنى أطراف الحديث في الغرام ويمعن النظر في وجهى، فإذا نظرت إليه كما ينظرنى همّ بلثم شفتى وأوصتني بأن أدعه وشأنه لا أنظر إليه ولا أحدثه قائلة إننى إن مكنته من تقبيلى فقد خولته القدرة على انتزاع روحى من بين جنبى. ومتى أصبحت بلا روح تسلطت على أرواح الشياطين فلا يهدأ لى بال ولا يستقر حال، بل أكون كالريشة في مهب الرياح تدفعها المهاوى وتلفظها البحار وتطردها السموات، فأليك عنى أيها الصديق واعلم انه يشق على أن أضن عليك بقبلة، ولكن أيروق لك أن أصبح بلا روح فأهيم في الأودية والبيداء وأقضى حياتى في التعس والشقاء؟

سأل راميرى: وهل العجوز تحب الخير وتصطنع المعروف؟ فأومأت وردة بإيماءة تفيد السلب، فقال الأمير: ليست هى بلا ريب من ربات الخير والمعروف لكذبها عليك. وجدير بى أيتها العزيزة أن أمزج روحى بروحك لا أن أنزعها من بين جنبيك كما تدعى تلك المرأة منبع الضلالة والكذب، فتندمج الروحان وتصيران روحاً واحدة. وهل من سبيل إلى ما دون ذلك لمن هو على شاكلتنا رقة قلب ولين

عطف؟ قالت: أحب إلى أن يتحقق قولك، فقد سبق لى أن شعرت بأثر من مدلوله فى نفسى. ألم أكن-قبل أن ألزم الفراش- كلما قصدت الى ضفة النيل لجلب الماء أطيل المقام على مقربة من الساقية لما كان يستوقفنى من منظر مياهها دافقة وقطراتها متناثرة، وما كان يأخذ بلبى من انطباع ضوء القمر بسنائه الباهر على كل قطرة منها فتبدو كمرآة صغيرة للناظر ينبعث منها نور يخطف سناؤه الأبصار، فيرى الرأى من الأعمار قدر عدد القطرات، وما هى فى الحقيقة إلا قمرأ واحداً يسبح فى كبد السموات.. شهدت هذا المنظر الأنيق فجال بخاطرى تعدد القمر وهو واحد فقلت إن ما وقع عليه منه لما يجوز أن يقع مثله على القلب.. حقاً.. ليس للمرء إلا قلب واحد، ولكن يظهر أن من المحبة والعطف تنبعث قلوب كثيرة لا تسلب القلب الأصلى قوته ولا تخفض من حرارته ولا تهدىء من خفقانه. وإذ كان القلب قابلاً للتجزؤ والتعدد فلسوف أخصك بنصيب منه بعد أن أوزع الأنصبه الأخرى على من أوليتهم حبى وإخلاصى وهم جدى وجدتى ووالدى وشراعو الصغير والآلهة.. وبنطاؤر. قال راميرى: أويكفينى نصيب واحد من أنصبه عديدة؟ قالت: رأيت هذا النصيب الذى تستخف به لضآلته؟ فإنه لسوف ينطبع فى نفسك قلباً كاملاً كما ينطبع القمر فى كل قطرة من رذاذ ماء الساقية؟ فيبدو كأنه أعمار بقدر عددها. قال: صدقت فى تشبيهك. ثم مد ذراعيه لعناقها وكانت تضطرب استحياء. فلما أطرقت رأسها قبلها قبله سجلت بين روجيهما عهداً وثيقاً وربطتهما برباط متين، فلم تتمالك وردة بعد ذلك أن قالت: إليك عنى! عجل بالانصراف من هذا المكان. قال: إن تأذنى لى بالبقاء هنيهة بين يديك، فإنك توليننى نعمة وسعادة لن أنساها أبداً الدهر.. هلمى بنا نجلس على ذلك الكرسي ولنا من هذا الحاجز ستار يصدّ عنا أعين الرقباء.. ثم لم نخشى الرقيب وما أمامنا إلا الصحراء مترامية الأطراف إلى أبعد

مدى، وما حولنا ديار ولا نافخ نار؟ قالت وردة وقد علتها علامات القلق: لم نتواري عن الأنظار إذا لم يكن في دنوك منى ما يستدعى وخز الضمائر ولا مؤاخذة السرائر؟ قال راميرى: اتظنين أن ما يعمله الكاهن الأعظم في قدس الأقداس شر وباطل؟ كلا! إنا نربأ به عن فعل الشر، ولكنه رغم ذلك يتواري فيه عن الأنظار. قالت وردة مبتسمة: ما أقوى حجتك وأوثق قدرتك، ولكن لا عجب أن يكون عارف القراءة والكتابة مقنعا ومتلقى العلوم عن أمينى هماما قديرا. قال راميرى: لست تلميذ الكاهن الأعظم وإنما أنا تلميذ بنطاؤر وهو أستاذى المحبوب، ومع حبى له وإجلالى لمقامه فإن قلبى يكاد يتمزق غيظاً منه وكراهة له، كلما ورد اسمه على لسانك، أنت تفضليته على وعلى كثيرين غيرى.. نعم إن ذلك الشاعر قطرة يتلألأ بالانعكاس فيها سنا قمر محبتك ولكنى لا أحب منك أن توزعني قلبك على الكثيرين من الناس لهذا الحد!

قالت وردة: لم تحدثنى بهذا الكلام؟ ألا تحترم نفسك والوالدك والآلهة معا، وهم مع ذلك أنفس متعددة؟ على أن نصيبك من حبى أعظم من نصيب الآخرين، لأننى لم أحب أحدا منهم بقدر ما أحببتك. ألم تر أن التأثير العجيب الذى أشعر به الآن - وقد وضعت ثغرك على ثغرى- يشبه الشعاع منبعثاً من القمر؟ وهذا الشعاع ألم يكن شبيهاً بالأشعة الشمسية فى حرارتها وشدة نفاذها؟ وهذه القبلة التى طبعتها بطابع شفقتك ألم تكن كجذوة نار سرت حرارتها الشديدة فى جسمى.. إننى كلما أفكر فىك وأماتك لخاطرى لانا جيك أفقد أسباب الراحة ولا يهنأ لى بال. ولطالما مددت نظرى إلى الباب أسائل نفسى أيتنازل منقذى ومخلصى من مخالف الموت، ذلك الفتى ذو الشعر المرسل إلى الكتفين.. أيتنازل بالحضور إلى هنا ليرمق بعينيه أسيرة فضله وصنيعة مروءته، أم يأنف من زيارة فتاة فقيرة حقيرة مثلى؟ فلما جئت محققا

بمجيئك ما هو مظنون بمثلك ومقدر فيك قلت في نفسي لقد سالمتني الأيام وهادننتني صروف الزمان ووافقتني بما كنت أطمح إليه من العز والسعادة. فعليك إذا بالصدق في حبك والاستقامة في سيرك، وإلا جذبتك من شعرك المرسل هذا..

قال راميرى: اجذبيني منه ما شئت، فإنه لا يلحقنى ضرر من جذبك مهما يبلغ من قوة، ولكنى سمعت من كلامك ما ينفذ إلى الفؤاد ويمزق الأكباد.. إنك تؤثرين بنطاؤر على، ولا عجب، فينطاؤر أوسع علماً وأكثر فضلاً وأرفع مقاماً وأسرع نجدة. قالت وردة بجد: كل ما أستطيع أن أقوله في هذا الموضوع إنه رجل لا نظير له بين الرجال، ولو أنه حاول تقبيل مثلك لذهبت أمامه هباء كالرماد، تعطيه حرارة الشمس في رأى العين صلابة وقسوة فإذا لمس بطرف البنان استحال تراباً تسفيهه الريح. ولو أنه أقدم على ذلك الفعل لتراجعت خوفاً من أن يلامس ثغره ثغرى والملئت رعباً وفررت أمامه فرارك من الأسد. ولك أن تسخر منى وتضحك على ما تجدنى عليه من سذاجة الطبع وما ربما تعده حمقاً وبلاهة، ولكن هذا كله لا يمنعنى من الاعتقاد بأنه إله هبط من السموات. ولقد خبرنى والده يوماً أن معجزة ظهرت في اليوم التالى لميلاده، وكانت كثيراً ما تكلفنى العجوز بالذهاب للسؤال عنه. وهو مع أنه من العامة حسن السيرة طيب السريرة. وكان كثيراً ما يطنب فى مدح ولده، ومن كلامه لى فيه انه كان يقول الشعر صغيراً وأنه تعلم القراءة والكتابة بلا معلم وأن أمينى رآه يوماً فأدخله بيت سبتى بعد إذ تأكدت له براعته وعبقريته. وكنت يوماً مع أبىه إلى شجرة عريضة الأوراق كثيرة الأزهار وقال لى: إن ولدى يضارع هذه الشجرة التى نمت أمامى وامتدت أفنانها دون أن أعرف سر نموها ولا كفيته، وكل ما فى الأمر أننى كنت اشتريت بذوراً من طيبة وجدت بينها بذرة واحدة أجنبية الأصل فأنبتت هذه الشجرة التى لا يعرفها الزارعون فى بلادنا، ولم يستطع أحد أن

يوافقنى على أصلها، وهى مع ذلك ملكى وغرس يدى. وهكذا شأن بنطاور، فإنه لا يشبه والدته ولا اخوته ولا أحدا منا، فأجسامنا صغيرة ناتئة العظام فى حين أن جسمه واف وقوامه لدن ولون بشرتنا أسمر ولون بشرته كالورد ولهجتنا خشنة وعبارته مهذبة عذبة. وهذه الفروق تحملنى على الحكم بأنه أحد أبناء السماء وضعتة الآلهة فى مسكنى الحقير. ولقد أبصرت بنطاور فى الأعياد فتساءلت أبين الكهان من يدانيه جمالا وكمالا وعلما وفضلا..؟ أما أنا فتبينت فيه بعض أمارات الألوهية، كيف لا وقد شهدته يصارع جموع الناس فيصرعهم لوقايتى من شر عدوانهم. أفلا أحترمه بعد هذا، وأنا كلما وقع عليه بصرى تجمد الدم فى عروقى لتأثر وجدانى ولا أحير قولاً لحصر لسانى! كل ما أستطيع أن أوضحه لك يا صديقى من الفرق بينكما أن فؤادى يخفق لخفقان فؤادك متى التقى شعاع بصرى بشعاع بصرى. أما بنطاور فإننى إذا رمت استجلاء طلعتة عزّ على هذا المرام ما لم أخلق فى جو الخيال وأصعد إلى السماء بأجنحة الوجدان. ولا تنس أنك لى كأكليل غضّ ناضر نمق بالورود الزاهية الطيبة ورضع بالأزهار التى تقر العين بمراها، كما أنه لى كالشجرة المقدسة الثابتة الأصل الملتفة الأفنان التى تعنو لها الجباه اجلالاً واحتراماً.

كان راميرى يسمع هذه المقارنات اللطيفة ساكناً ساكناً، فلما انتهت وردة منها قال: أنا ما زلت فى غضاضة الشباب ومقتبل العمر ولم أت من جلائل الأعمال ما استحق من أجله وصفك إياى بتلك النعوت الجليلة الجميلة. غير أنى أطلب إليك أن تصبرى صبراً قليلاً جميلاً فإنك لا تلبثين أن ترفعى بصرى إلى بعده لا كما ترفعيه لرؤية شجرة مقدسة بل إلى شجرة جميز يحبب ظلها الوارف ابن السبيل التماس الراحة تحتها بالتقيؤ. بها واعلمى يا وردة أن سروى قد انمحت آيته كما تنمحي آية

النهار وأنى اعتزمت مزايلة هذا المكان ومفارقتك لكى اقتدى ببنطاؤر فى فضله وحكمته وسمو أدبه وكرم خلقه حتى إذا تم لى بهذه القدوة ما أطمح إليه من تثقيف عقلى وتهذيب نفسى صرت أكليلاً جميلاً من السورد أسرح الطرف فى حسنه الشائق وأمتع النفس بشميم عطره الطيب الأرج. ولقد سمعتك الآن تشبهيننى بذلك الأكليل وهو تشبيه لا ينطبق على الرجال إذ هو بالفتيات الفاتنات مثلك أليق وعليهن أطبق. وليس فى الرجال من هو أبغض إلى نفسى ممن يشبه السورد الناضر والسهر الزاهر!

ثم قام من فورهِ وصافح وردة فقالت له: أرى فى يدك قوة وصلابة، فلعلك تستعين بها على عمل الخير واصطناع المعروف. وقد كان من شدة فعلها فى يدي أن تركت بها هذا الأثر الأحمر كما ترى.. ولكن لا تظنن أن هذه اليد الصغيرة لا تفيد أحداً، فإن من أقل مزاياها تخفيف الآلام عمن توكل إليها العناية بأمرهم من البائسين والمنكوبين. ولقد كان جدى يقول على السدوام إن يدي تجلب السعادة وتبشر بالشفاء. أترى فى ذلك المكان أشجار الزنبق والسمران وقد تفتحت أزهارها؟ جاءنى جدى يوماً بشيء من طمى النيل وأعطانى والسد بنطاؤر بذوراً غرستها فيه فلم أستطع استنباتها إلا بتعهدا بالرى فى الوقت المناسب. فخذ زهرة السمران هذه فإنها أول زهرة تفتحت أكمامها من هذه الشجرة. وقد قالت لى جدتى يوماً لما رأتها أخذة بالتكون والتطور والاكساء بالأكمام وأنها تحمر بتأثير قبلاات الشمس لها فى كل يوم: « إن قلبك سينفتح قريباً يا وردة كما انفتحت هذه الزهرة الجميلة وبرزت من ثوبها السندسى». وقد أدركت الآن مغزى كلامها فخذ هاتين الزهرتين فهما لك. تناولهما راميرى منها فوضع الحمراء وهى زهرة السمران على ثغره كأنه يلثمها، ثم مد يميناه لمصافحة وردة فتراجعت إلى الخلف بغتة، لأنها رأت من خلال الحاجز

شبح إنسان ماراً. ولكن لم يلبث خاطرهما أن اطمأن حينما علمت أنه شراعو الصغير الذى كانت العجوز الساحرة تعمل على تقصير قامته لتجعله من الأقسام، وقد اكتسى بالاحمرار وجهه الجميل لإسراعه فى المشى. ولم تستطع وردة أن تقف منه على خبر، لما اعتراه من التعب الذى أعجزه عن الكلام. وكل ما بدا منه أنه كان يرمق راميرى بعين الحذر والريبة، فأدركت وردة أن وراء الأكمة ما وراءها واستدرجته بعد الملاطفة والمواساة والأخذ باللين إلى التحدث، فهمس فى أذنها أنه يبغى الحديث معها فى خلوة، فقالت: إن هذا الواقف بجوارنا صديق لى حميم فلا تخشَ بأساً. قال: إن ما عندى من القول لا يتعلق به، بل ببنتاؤور المقدس الطيب الذى أظهر من دلائل الرحمة بى والحنان عليه ما يقصر عن وصفه اللسان، وأقام الدليل على نجده وشهامته بإنقاذه إياك من المعاطب. قال راميرى: اعلم يا هذا أننى أريد الخير كله لبنتاؤور. ثم التفت إلى وردة وقال: ألا ترين يا وردة أن بإمكان هذا الغلام التحدث إليك أمامى بما فى نفسه دون أن أن يخشى فضحا لأسراره. قال شراعو: سأتحدث دون خوف ولا وجل: انتهزت غفلة العجوز نيخت فعمدت إلى الفرار من وكرها قاصداً إلى هذا المكان. ومؤكداً أنها لو وقفت على الحقيقة لبادرت بالحضور إلى هنا وعاقبتنى بحرمانى الغذاء الذى أقيم به أودى. فلما سمع الأمير كلامه عبس وجهه غضباً وقال: ومن تكون تلك العجوز الغادرة؟ قال شراعو: عند وردة خبرها.. واسمع الآن قبيح فعلها معى.. طرحتنى أرضاً بداخل وكرها فى اللوح الذى اخترعته لتقصير القامة ثم ألقت على قطعة قماش لتسترنى بها.. ولم ألبث على هذه الحال هنيهة حتى أقبل نيمو ومعهم رجل كانت تدعوه «حضرة القيم» فأنشأت تحدثه فى شؤون لم أفهم المراد منها، ولكنى سمعت مع ذلك اسم بنتاؤور فأبرزت رأسى من تحت الغطاء فسمعت كل ما دار من الحديث بعد ذلك. وخلاصة ما فهمته أن حضرة

القيم كان يقول عن بنطاؤر إنه شقى عنيد يعوقه عن بلوغ مراده وتحقيق أمنيته، وأن الكاهن الأعظم كان عازماً على نفيه إلى محاجر رحنو فاعترض عليه بخفة هذه العقوبة وأنها لا تناسب الجرم الذي ارتكبه. فلما سمعت العجوز ذلك أشارت عليه بأن يأمر ريان السفينة التي تقله إلى المنفى باجتياز موردة رحنو والذهاب به إلى معادن الذهب التي كانت كثيراً ما ترعنى بها قائلة إن والدها وإخوتها ماتوا جميعاً فيها. قال الأمير: والواقع أن من ذهب إليها لا يعود منها. قال شراعو: ولم أفهم ما قيل بعد ذلك سوى أنها ذكرت شراباً إذا تعاطاه أحد جعله مجنوناً. وليس هذا كل ما سمعته ورأيته في وكر العجوز التي تعذبني كل يوم بوضعي في لوح لتقصير القامة، فإن ما يقع تحت حواسي من حوادثها المزعجة يجعلني أؤثر الموت على الحياة.

ثم أخذ شراعو يبكي ويئن فلاطفته وردة حتى هدأته ، فقال راميرى: تلك حوادث غريبة ومزعجة معاً. ثم التفت إلى شراعو وسأله: ومَن هو القيم الذي كان عندها.. ألم تسمع باسمه.. طب نفساً وقر عيناً يا صديقي الصغير وكف عن البكاء، واعلم أن حياة بنطاؤر قد أهدقت بها الأخطار ويجب علينا أن ندفعها عنه. ولكن لا بد لذلك من معرفة اسم القيم الشرير.. أقلاً تذكره؟ فعرض شراعو على شفتيه ليسكن نائفة نفسه ثم أخذ يفتش في ثيابه البالية فلم يلبث أن صاح قائلاً: اصبر قليلاً فربما تعرفه من الصورة التي صنعتها على مثاله. قال الأمير، وقد دهشه هذا القول: كيف!.. ومن ذا الذي صورته؟ قال شراعو: هو.. القيم.. ثم أخرج من طيات ثوبه البالي تمثالاً ملفوفاً في خرقة، واستأنف حديثه فقال: بينما كان القيم يتكلم ظهر لي أحد شقى وجهه فصنعت له مثالا من الطين الذي كان عندي، وأظنه جاء طبق الأصل. قال هذا وأزال اللفائف عن التمثال بيد مرتجفة ثم قدمه إلى وردة. فلما وقع نظر راميرى عليه لم يتمالك أن صاح: هذا أنى بعينه.. من كان يدور بخلده أنه

يريد ببنطاؤر سوءاً وبم أساء هذا إليه حتى يستحق منه الخيانة والغدر؟ ثم أطرق رأسه مفكراً وقال بعد هينهة: لقد أدركت السر الآن، إن أنى طامح إلى الاقتران ببنت أُنات، وحيث إنى يا وردة أصبحت عاشقاً لك ومتفانياً في حبك وعالمنا بما للعشيق من الصولة على القلب، فقد تبينت من أحوال الأميرة أموراً تشير إلى ما يختلج في نفسها نحوه من النفور أو الميل.. لست أستطيع يا وردة البقاء على إنكار الحقيقة التى يؤلم اخفاؤها قلبى ويخز ضميرى. لم أكن غلاماً من حاشية بنت أُنات، بل أنا شقيقها وابن الملك رعمسيس.. ولقد رأيت الخاتم الذى تركته لك والدتك واستوضحت حقيقة أصلك. ألا تدرين أنى لو كنت فى مرتبة أسمى من مرتبة الإمارة بل لو كنت حوروس ابن الآلهة ايزيس لما حدثت عنك فتيلاً ولا اتخذت منك بديلاً. وإنى لهذا أعاهدك على الوفاء والصدق مع الرعاية المتواصلة لك ما دمت حياً.. لقد حان الرحيل وجاء وقت ينبغى فيه لمثل أن يعمل بعقله الراجح ورأيه الرصين لإنقاذ بنطاؤر من مخالف الموت، فسلاماً عليك ووداعاً لك يا وردة عند من لا تضيع الودائع عنده.

همّ الأمير بالرحيل فجذبه شراعو من أطراف ثيابه سائلاً إياه: أنت ابن رعمسيس؟ قالت العجوز فى كلامها عن أبىك الملك إنه كالنسر الذى تعرى من ريشه لهرمه وعجزه. قال الأمير: إذا كان هذا كلامها فى حق أبى فلسوف يحس أنى نفوذ مخالف النسر الملكى فى جسمه. ثم التفت إلى وردة قائلاً: أستودعك الله ثانياً، ثم مد إليها يده فلثمتها بشفتين كانتا كجذوتى النار حرارة ولوناً، فجذب راميرى يده بلطف وجذب معها وردة فلما دنت قبلها بين عينيه ثم انصرف.

وبينما كان ينطلق مهرولاً كانت وردة تشيعه بنظرات تشف عما عراها من التأثر. وقد مر برجل عرفت هى بزيه وسحنته أنه أبوها، وكان مقبلاً عليها لوداعها

قبل سفره، اذ صدر إليه الأمر بمرافقة الأسرى والسير معهم في الصحراء. سألته وردة: وإلى أين ترافقهم. إلى رحنوق؟ أجاب: كلا، بل إلى الشمال. فروت وردة عليه ما اتصل بها من خبر بنطاؤر ورجت منه أن يساعده على النجاة. قال: لو أن معي شيئاً من المال!.. فابتدرته وردة قائلة: عندنا ما يكفي وزيادة. ثم قصت عليه هبة نبسشت وقالت: عليك يا أبت أن تساعدني على عبور النيل، فما هي إلا ساعة حتى يكون في قبضة يدك ما يكفي لجعل الفقير غنيا والمعدم ثريا^(١)، ولكن كلا، فجدتني طريحة الفراش وليس لديها من يعنى بأمرها ويتوجع لمصابها فخذ أنت هذا الخاتم واعلم أن بنطاؤر قد جرّ العقوبة على نفسه بسببنا، لأنه دافع عنا دفاع الأبطال وعاملنا بشهامة الرجال. قال: ما برح خيال هذا الشهم مرسوما في ذاكرتي وإنى لأبذل حياتي- بل أبيعها رخيصة- في التحيل لنجاته. غير أنى أتمنى التوفيق لإنجاح ما خطر بخاطري الآن من التدبير الذي أرمى به إلى الحيلولة دون ذهابه إلى معادن الذهب. وقد عاهدت نفسي على أن لا أتعاطى نبيذاً وأن أستيعض عنه الماء ليخلص دماغى من شوائب الخبل والاضطراب، فلا يطيش سهمى أو يذهب سعيبى أدراج الرياح. قالت وردة: هاك يا أبت قليلاً من النبيذ الممزوج بالماء.. اجرعه بالصحة والعافية ثم اذهب في قضاء مهمتك وعد عاجلاً لتبشرنى بخبر ما فعلت. قال: تتعذر على إجابة سؤلك لأنى راحل في انتصاف الليل، ولكن إذا جاءك رسول بالخاتم من عندى كان ذلك آية توفيقى للنجاح فيما أردت. فلما سمعت وردة هذا القول دخلت العش فدخله أبوها على أثرها ليستأذن من أمه في الرحيل ليودعها، ثم

(١) كان للنساء في مصر حق التصرف في أموالهن. وفي السورقة السابعة من أوراق البردى المحفوظة بباريس صورة مخالصة بين أرسيزيس بن أحد محنطى طيبة واسكليباس زوجة أحد دافنى الموتى أو خادمه وكان أبوها مديناً لزوجها أو مخدومها.

قال لفتاته: إن ما أتحتك الأميرة به من الهدايا السنوية كافٍ لقضاء مطالبك حتى أعود. أما أنا فيكفينى نصف المبلغ الذى تبرع لك به الطبيب.. ولكن لمَ لا أرى زهرة الرمان التى اقتطفتها الآن؟ أجابت وردة: وضعتها فى مكان حريز لصيانتها. قال: عجباً للنساء فى طباعهن وميولهن. ثم قبَّل جبين ابنته وسار سيراً حثيثاً فى الطريق الموصل إلى ضفة النيل.

وكان راميرى فى هذه الأثناء يجدُّ فى السير جاعلاً وجهته موردة المقابر التى تبرحها السفن المخصصة لنقل الأسرى ليلاً، ليستجمع البيانات الدقيقة عن السفينة التى تقرر سفرها إلى محاجر رحنو. فلما وصل إليها عبر النهر ودخل القصر الملكى حيث اجتمع بأخته ونيفرت فألفاهما فى وجد وقلق إذ أبلغهما رئيس التشريفات -نقلاً عن بعض حاشية أنى المخلصين لفرعون - أنه أمر بوقف تصدير المراسلات إلى الجيش المصرى فى الشام، ولو كانت من أبناء رعمسيس إليه. وأيد الخبير عند بنت أنات أن أحد الحجاب المقيمين على الولاء لرعمسيس وافاها بنبأ اعتزام أنى تنفيذ تدبير يقصد به اغتصاب الملك وطلب منها أن لا تأمن جانب نيفرت نظراً لما بين والدتها وأنى من الصداقة الوثيقة العرى.

ولما بدا لبنت أنات أنه لم يبقَ ريب فى طموح أنى إلى الاستيلاء على صولجان الملك بدلا من والدها نياته بعزمها على الرحيل إلى هاتور الزمردية لتلتمس الطهر فى معبدها المقدس. ولكنها كانت تريد فى الحقيقة موافاة والدها - وهو قريب من الشام- بما يدسه له الوالى من الدسائس ويدبره من المكائد ولاستئذانه فى التوجه إلى المعسكر الملكى. ولقد فاتحت صديقتها نيفرت فى هذه النية فكادت تطير فرحاً وابتهاجا لأنها كانت ترجو أن يمهد لها الرحيل مع بنت أنات طريق اللقاء بزوجها

المحبوب فلم يسعها إلا أن تحضها على إنفاذ عزمها وإعداد المعدات اللازمة له.

ولما سألتها راميري عن أحوالهما أخبرتها بما جدّ من الحوادث، فقص الأمير عليهما ما اتصل به من الأخبار وألح على شقيقته أنه وقف على حقيقة ما اعتزمت، وكان يتوخى في لهجته الظهور على خلاف عادته بمظهر الجد والرزانة. ولهذا أيقنت بنت أنات أن هناك أخطارا تهدد العرش من جراء الدسائس التي يدسها الوالي لاغتصابه.

وقد استحسنّت الأميرة ما اتخذها راميري من الحيلة للذهاب بعد غروب الشمس إلى جهة (قطبوس) مصحوباً بثقة خبير يجوب الصحراء والوصول معه راكبين متون الجياد إلى سواحل البحر الأحمر، وأن يستأجرا من هناك سفينة فينيقية تنقلهما إلى أيللا (العقبة) ويجتازا بعدئذ الجبال الصخرية الممتدة في شبه جزيرة سيناء ويلحقا بالجيش المصرى لإيقاف رعسيس على ما يدبره أنى له من الدسائس ويحيكه من الحيل لنزع زمام الملك من يده. وأخذت بنت أنات على عهدتها انقاذ بنطاور، مستعينة في أداء هذه المهمة برئيس التشريفات. وكانت ترجو تحقيق الآمال لا سيما والخزينة عامرة بالأموال، ينفق منها الخازن ذات اليمين وذات الشمال، وهو من المخلصين للأسرة المالكة. وإنما الصعوبة الوحيدة كانت في التغلب على ريان السفينة بحمله على توجيهها صوب رحنو لا صوب الجنوب كما أوعد إليه به. لأن نكبة الشاعر بالمقام في رحنو أهون منها به في معادن الذهب. وقد اتفقت آراء الجميع على انفاذ رسول ثقة إلى حاكم رحنو ليسلمه كتابا فيه أمر ملكي بضبط كل سفينة تمر ليلا بالقرب من أسوار المدينة. وحجز الأسرى المحكوم عليها بالنفى إلى الحبشة لاستخراج الأحجار. وقام راميري بعد هذا الاتفاق فاستأذن من شقيقته

ونيفرت في الرحيل من طيبة فغادرها دون أن ينتبه أحد.

أما بنت أنات فقد سجدت أمام التماثيل الأوزيسية لولاداتها وأمام تماثيل هاتور وصور الآلهة حفلة الأسرة المالكة، وظلت تدعو وتبتهل إلى أن عاد رئيس التشريعات فأخبرها بنجاح مهمته لدى ربان السفينة إذ استكتبه عهداً بالوقوف تجاه محاجر رحنو وبأن لا يبلغ إلى أنى مخالفته الأمر الصادر إليه، فطابت نفس الأميرة لهذا الخبر. وكانت قد اعتزمت- فيما لو امتنع الربان عن الامتثال لإرادتها- التوجه إلى موردة المقبرة لمنع السفينة من مزايلة مكانها.

وفي اليوم التالي أقبلت راتوتى على القصر تبغى اللقاء بنيفرت ومحدثتها في أمر ما، فأبت بنت أنات مقابلتها وبادرت نيفرت باستقبالها فما هى إلا هنيهة حتى طرق الأسماع صوتها رافضة ما اقترحته والدتها عليها من العودة إلى بيتها والعدول عن السفر مع الأميرة لتأمن عليها من أخطار الطريق. ولما يئست راتوتى من إقناعها بالامتثال لها قصدت إلى أنى من فورها والتمست منه العون على منع نيفرت من مغادرة الديار وأغرته بها إذ طلبت منه القبض عليها في خروجها من أبواب طيبة ومعاملتها بالقهر والشدة حتى تعدل عن مرافقة الأميرة في رحلتها الخطيرة. وكان أنى يود من صميم فؤاده أن تبرح بنت أنات مدينة طيبة كيلا يعوقه وجودها عن تحقيق مقاصده الاستقلالية ، فأجاب: ليهدأ روعك فقد عولت على أن أرسل في أثرهما من يتولى منعهما- إذا ما دخلتا هيكل هاتور- من مغادرته فتبقى الاثنتان به حتى يتم لنا الأمر ويتيسر لك تزويج نيفرت من بعاكر الفظ إذا كنت مصرة على عزمك. وفي اليوم التالي ودع الوالى بنت أنات وصديقتها نيفرت وشيعهما بما يليق بهما من مظاهر الإجلال ، ثم انصرف. وأخذ ركب الأميرة طريقه إلى مرسى السفن

فشيعها إليه كهان هيكل آمون، وفي طليعتهم الكاهن بك أن شونسو. وكان المرسي غاصاً بوفود الناس على اختلافهم تقاطروا من كل ناحية لتوديع بنت أنات. فلما أن بلغت إليه صاح هؤلاء الوفود صيحات الهتاف وانطلقت ألسنتهم بالدعوات يستمطرون عليها بها وافر البركات. وقد اندس بين الحاضرين رهط من خصوم رعمسيس فاستطالوا في حق ابنته الراحلة بالسب الفاضح، إلا أن أصواتهم لم تبلغ مسمعاً بل تلاشت في أصوات الجموع الزاخرة وأدعيتهم المتواترة. وكانت سفينة حجاج هيكل هاتور تتبعها سفينتان كبيرتان تحملان عدداً وافراً من الجند. وكانت ريح الجنوب شديدة، فكورت أشعة السفن الثلاث ودفعتها إلى الأمام صوب مصب النهر، فصوبت بنت أنات بصرها إلى القصر الملكي وما حوله من الحدائق الغناء، ثم إلى ناحية المقابر والهياكل البانخة، وظلت شاخصة فيها تارة وفي القصر طوراً حتى اختفت تلك المشاهد والمعاهد عنها خلف حجاب الأفق، ولم يبق أمامها وخلفها إلا النيل تحف به ضفتاه يمنية ويسرة. عندئذ فاضت عينا الأميرة بالدموع ثم تنفست الصعداء لما رأت من حولها الصحراء مترامية الأطراف إلى أبعد مدى وأحست بشعور جعلها تظن بنفسها أنها برحت قصر أبيها ملتزمة الفرار أو مفلوبة على أمرها، وأن قد لحق بها الهوان والصغار. ولكنها لم تلبث أن عاودها الأمل فوطنت النفس على الصبر ولقاء كوارث الزمان بالثبات والجلد. ثم دنت من المخدع الخاص بها في السفينة فإذا ببابها فتاة ملثمة، ما كاد يقع نظرها على الأميرة حتى أماطت اللثام عن وجهها وقالت: أيتها الأميرة تجاوزى عن زلتى واصفحى عنى الصفح الجميل، أنا ورده التي دهمتها مركبتك ثم نلت من إحسانك وعطفك ما كان سبب شفائى.. وأنبئك الآن بأن قد توفيت جدتى، فلما رأيتنى وحيدة تنكرت واختلطت بنساء حاشيتك لاكون دوماً في خدمتك، أفترضين بى خادمة أمينة؟.. قالت الأميرة:

إنه ليسرني وجودك معي يا وردة . ثم مرت بكفها على شعرها المرسل فتذكرت
وردة ما كان يفعله من ذلك معها الأمير راميرى إعجاباً بشعرها ومن وضعه في
غدائرها وردة وأزهاراً تحاكي خدها نضرة واحمراراً.

الفصل التاسع

قفار موحشة خطيرة.. وقلوب حزينة كسيرة

لما مضى شهران على اعتقال بنطاؤور وسفر بنت أنات، كان جمٌّ غفير من الرجال وعدد عظيم من الدواب المحملة بالأنثقال يسيران في واد ضيق يدعى وادي (انت بابا) بالجهة الغربية من شبه جزيرة سنياء^(١) وكان ذلك في منتصف الصيف، وكانت الشمس محتدمة الحرارة تنعكس أشعتها على الصخور الصلدة فينبعث منها بريق يرتد عنه الطرف حسيراً. وكان في طليعة السائرين ثلثة من الجنود الليبيين وفي المؤخرة ثلثة أخرى منهم مسلحين بالخناجر والدروع والرماح، على أهبة الدفاع في كل أونة عن أنفسهم. وكان الأسرى الذين نيظت بهؤلاء الجنود حراستهم كثيراً ما ينزعون للعصيان بالإغراء والتحريرض من الزعماء الناقلين. وكانوا مرسلين إلى سواحل البحر الأحمر لتسخيرهم في نقل الذخائر والمؤن الواردة من مصر باسم الجيوش بعد طرح ما حملوا به من المعادن باسم الديار المصرية.

وكانوا يمشون الهويناً بادية على وجوههم علامات الكلال والإعياء من ثقل تلك الأعباء. وكانوا يرسفون فيما كبلوا به من القيود، ولم يكن عليهم من الأظمار سوى ما يستر عوراتهم. وكانوا على السدوام ينظرون إلى الأرض مطرقين، فإن توانى أحدهم ابتدره أحد الفرسان المحافظين عليهم بضربة سوط يستحثه بها على مواصلة السير بلا توانٍ فكان لا مناص لهم من أحد أمرين: إما مواصلة السير بلا توانٍ، وإما الضرب بالسياط. وكان لا يسمع من الأسرى ولا من الحراس همس (١) بحث الدكتور ايبرس بالتفصيل في شؤون شبه جزيرة سيناء وتاريخ أماكنها المقدسة في كتاب طبعه باللغة الألمانية عام ١٨٧٢، وقد وصف فيه تلك الأرجاء وصفاً دقيقاً.

بكلمة، حتى ولو ضرب الأولون ضرباً مسرفاً مبرحاً، ذلك لأن عضو الصوت فيهم قد تلاشت قوته كما تلاشت في قلوب الآخرين عواطف الرحمة والحنان أو كما تتلاشى الحشائش الخضراء على الصخور المحرقة الجرداء.

كان الأسرى يمشون بعضهم على رسل بعض فلا يجرؤ أحدهم أن يخاطب زميله بكلمة، بل كانوا كالطيف يمرون متعاقبين من جهة واحدة، وإنما كان يطرق الأذان في بعض الأحيان قرعقة انحدار الأحجار تحت أقدام السائرين أو نفثات المصدورين من أولئك المظلومين. وكان مما يزيد في كآبة هذا المنظر - ولاسيما إذا علا النهار - تعطل الأرض مما ترتاح له الأنظار من زينة الأشجار والأزهار والحيوانات والأطياف.

وكان أولئك التعساء قد برحوا الجون في ظهيرة اليوم الماضي فظلوا ساعتين في سير مغدّ متابعين سواحل البحر الأحمر^(١) فاجتازوا هضبة بلغوا منها إلى مدخل وادٍ مفض إلى المناجم، فوقفوا عنده لالتماس الراحة في الليل والتجأ الحراس إلى الصخور ليناموا عندها وأشعلوا النار ورتبوا الحراسة إذ جعلوها مناوبة بينهم. أما الأسرى فلبثوا في بطن الوادي، لا نار عندهم يصطلونها ولا أغطية يقون بها أجسامهم التي أنهكها التعب وأضناها العذاب، فارتعدت فرائصهم واقشعرت جلودهم لشدة القَرِّ وتمنوا أن لو تبرزغ الشمس لتنقذهم بحرارتها من شر ما هم فيه، مع أنهم كانوا في النهار يترقبون إقبال الليل للتخلص من حرارة الشمس وعذاب السفر ومواصلة السير. وهكذا يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكره.

(١) سمي البحر الأحمر إما بسبب الصخور الحديدية التي على سواحلها وإما لأن الأحباش كانوا يسكنون بعض هذه السواحل. وكانوا معروفين عند الأقدمين بالرجال الحمر، وسمى البحر الأحمر في أحد النصوص القديمة باسم (مياه البلاد الحمراء).

وقبل التأهب للمسير وُزعت عليهم الاغذية من مطبوخ العدس ويابس الخبز وقليل الماء، فلما تعاطوا ذلك وأوغلوا في الوادى الضيق تحف بهم الجبال الشاهقة عن أيمانهم وشمالهم لم يلبثوا أن شعروا بالشمس ولكأنها نار الله الموقدة وبأشعتها ولكأنها سهام محرقة. ولقد أفضى بهم ذلك الطريق إلى مكان ضيق لم يستطيعوا المرور به إلا فرادى. وكان يخيل لهم في بعض الأحيان - بسبب اعتراض الصخور- أنهم بلغوا من الطريق إلى نهايتها، ولكنهم كانوا إذا دنوا منها انفتحت المسالك عن يمينهم أو عن شمالهم فيستقر في اخلادهم أن عذاب السفر لم ينته بعد، وأن آمالهم في الاستقرار قد ذهبت أدراج الرياح. وكانت للصخور في بعض الجهات أشكال تخيلها للرائى قلاعاً حصينة شيدت بحجارة منحوتة، ولم يكن في الأسرى جميعاً سوى رجل واحد كان يجيل الفكر في ميدان التأملات ويمعن النظر في العبر، وكان ممتازاً على صحبه بقوة الأساطين ومتانة البنية وعدم التأثر بعبء ما يحمل على عاتقه من الأثقال التى ينوء بها ذور العصبية من الرجال، إذ كان يناجى نفسه بقوله «في هذه الفلوات التى تنبو عنها العين ولا يطمئن القلب أغفل (الشنيمو) الذين عهد إليهم تكوين الأرضين تمهيد تلك الذرى الشبيهة بنصال الرماح المصوبة وسد هذه الأخاديد التى يهوى إلى قاعها الغافل، فصارت للسائرين فيها عذاباً ولا عذاب الجحيم. ولست أدرى كيف عزوا إلى الإلهة هاتور ربة الحنان والرافة تلك الفياق القاحلة التى لا يسع الإنسان فيها - مهما جبل على الشفقة والرحمة- إلا أن يفلق أبواب قلبه دونهما». وكان هذا الرجل المناجى نفسه قد انحرف عن الطريق فانفتل إليه أحد الملاحظين وقال: لا تبعد عن طريقك يا «هونى».

ما طرق هذا النداء سمعه حتى استقام في طريقه، إذ دنا من رفيقه في البؤس والشقاء، وهو عين رفيقه في السعادة والهناء الطيب نبسشت. وما كان ذلك الأسير الطويل القامة المتين البناء غير الشاعر بنطاؤز، وقد أدرج اسمه في كشف المحكوم

عليهم بالعمل في المناجم باسم «هونى». أما الأسرى الباقون فقد أخذ منهم الجهد وأعيانهم النصب وأملهم طول الشقة فتثاقلوا في المشى وزادهم ثقلاً أنهم كانوا يصعدون في منحدر من الأرض مفروش بحصى أحمر وأسود، يبدو من شكله أنه كان أحجاراً كبيرة ثم كسرتها يد الإنسان. وما وصلوا إلى نهاية السبيل حتى انفتح أمامهم سبيل آخر كالشعب بين الجبلين وخيل لهم أن بنهايته سداً لا منفذ منه إلى ما بعده. فصاح رئيس الحراس في أعوانه أن انزلوا الأحمال عن متون الحمير وضعوها فوق ما يحمل الأسرى من أمثالها. فتذرع هؤلاء بالصبر واستمدوا من همهم قوة جديدة وقدرة على اجتياز الدرب. وكان الأسير الذى يتقدم بنطاؤر شيخاً ضعيفاً نحيفاً فما كاد يتوسط الشعب حتى هوى إلى الأرض وانصب الملاحظ عليه ليصب على رأسه سوط عذاب، جزاء على ما أبداه من وهن. إلا أن ضيق الطريق حال دون وصوله إليه، فما كان منه إلا أن رماه بحجر ليستفزه به على النهوض، وحاول المسكين ذلك بما استجمع من قواه الخائرة وجهوده الفانية ولكنه لم يلبث أن هوى إلى الأرض ثانياً متوجعاً من هول ما أصابه. وما سمع بنطاؤر توجهه وأنيته حتى تذكر المحنط بينم وقتما كانت طغمة المتظاهرين يرشقونه بالأحجار ومر بباله ما كان من حسن بلائه في الدفاع عنه وما حدث بعقب ذلك من حضور بنت أنات. وما مضت فترة من الزمن قصيرة بعد هذه الذكرى حتى اتجه بنطاؤر - بدافع الرفق ولطف الشعور - نحو الشيخ الراح تحت حمله الفادح فأخذ ما كان من الأثقال ووضعها على كتفه في الحال، ثم ساعده على النهوض وأدرك معه القافلة التى واصلت السير حتى بلغت إلى نهاية ذلك الطريق المتعرج الكثير الملتويات والمنعطفات. وهناك أخذت بنطاؤر قشعريرة الخوف والفرع، إذ أرسل النظر فرأى عند قدميه هاوية لا يصيب البصر آخرها ثم أرسله كرة أخرى إلى فوق فرأى جبالا تناطح ذراها السماء مختلف ألوانها فمن أزرق إلى أصفر كالكبريت إلى أسود إلى

أحمر يبدو للرائي كأنه خضب بدماء سفكت في قمتهـا فأنحدرت إلى سفوحها. وقد تذكر عندئذ بحيرة (موث) التي يحيط بها في طيبة مائة تمثال برؤوس الأسود للإلهة هاتور، فخيـل له أن تلك الجبال السامقة ليست إلا تلك التماثيل تضخمت حتى بلغت إلى ذلك القدر. واندفع في تيار الخيال فصور له أن هذه الجبال أو التماثيل الأسدية الرؤوس قد فغرت أفواهاها وأن الدم يصعد إلى رأسه من شدة الذعر، وسمع طنيناً ظنه زئير تلك الأسود الوهمية وتمادى في الوهم والظن حتى وقع في نفسه أن الأثقال التي أنقضت ظهره ما هي إلا مخالب هذه الأسود أنشبت في صدره.

وما وصل الأسرى إلى نهاية الطريق حتى طرحوا الأثقال عن متونهم وتراموا على الصخور يلتمسون الراحة فاقتدى بنطاؤر بهم. ولما نال قسطه منها واطمأنت نفسه زال عنه الاضطراب وتلاشت من أمامه الخيالات وأتيح له فهم ما يسمعه من القول وإدراك ما يراه من المرئيات، وعاودته قوة الفكر. وكان كل من الشيخ ونبسشت إلى جانبه، فأخذ الشيخ يمر بيده على أوداج بنطاؤر وقد انتفخت، واستدر عليه بدعائه البركات السماوية. وشهدهما رئيس الحراس فتقدم إليهما وقال لبنطاؤر: ماذا ياهونى وفيك من القوة ما يعدل قوى ثلاثة رجال ويستفزنى على إضافة حمل إلى ما تحمله من الأثقال. فنظر نبسشت إليه متغيظاً وقال: إن الآلهة يقابلون دعوات المظلومين بالقبول والإجابة وهم يثييون المحسن على إحسانه ويعاقبون المسيء على إساءته. فالتفت بنطاؤر برفق إلى الشيخ وقال: إن مكافأتك إياى بهذه الأدعية كفايتى. ثم نظر إلى نبسشت وقال: وأنت أيها الساخر بحوادث الزمان، مالى أراك باهت اللون وكيف حالك؟ أجاب الطبيب: حالى كتلك الحمير التي تراها واقفة هناك ترتعد فرائصها من الإعياء والألم. ولست أشتهي أكثر مما تشتتهي هي من العودة إلى مقرها الذى اعتادت فيه الراحة والعلق. فتبسم بنطاؤر

وقال: أهنتك بما أوتيت من قدرة التفكير ونحن فيما نقاسيه من الأهوال، لأن هذا دليل استقامة أحوالك وجودة صحتك. قال نبسشت: بينما كنت أنظر إليك الآن وأنفك في الهواء وعيناك شاخصتان في السماء مرت بخاطري فكرة ساطعة. يقول الكهان إن الذكاء هو القوة المحركة للعالم وأن الروح خميرة القطعة الطينية المسماة بالإنسان. ولقد بحثت عن مقر العقل أنى القلب هو أم في المخ. فذهبت تجاربي وأبحاثي أدراج الرياح. أما الآن فقد أيقنت أن مقر العقل في قوة الساعدين وصلابة الساقين، ومع أنى الآن في حالة لا تسمح لى بالتوسع في هذا الموضوع فقد عولت على أن احترم في المستقبل ساقى وساعدى كما كنت أحترم في الماضى عقلى وفكرى. وبلغ صدى هذه الكلمات إلى سمع رئيس الحراس فصاح بهم قائلاً: إلى متى هذه المناقشات أيها الرجال؟ هلموا إلى المسير واستعدوا لعذاب السعير.

نهض الأسرى فوضعوا الأثقال على الحمير ثم على أكتافهم واستأنفوا المسير يبتغون الوصول إلى المناجم قبل غروب الشمس. وكانت بوسط واد فسيح تحيط به أوعار جبال صخرية عالية كان المصريون يسمونها (تمسكا) والعبرانيون (دوفكا). وكانت صخور الجبل الجنوبى منها من الحجر الأعبل الأسود اللون وصخور الشمالى منها الذى يلى معادن الفيروز من الجص الأحمر. وعلى مقربة منها معادن النحاس في مضيق عمودى الاتجاه^(١) على ذلك الجبل. وكان بوسط هذا الوادى أكمة تحيط بها أسوار عالية وبيوت صغيرة مبنية بالأحجار لسكنى الحراس والضباط والمفتشين والمراقبين^(٢). ولم تكن سقوف تلك المساكن ثابتة في أماكنها، إذ كانت العادة المرعية وقتئذ- بسبب ما ينشأ عن البرد الشديد من الأمراض- أن تغطى

(١) اكتشف هذا المضيق حديثا السائحان بلمر وولسن، ووصفاه في كتابهما المسمى «صحراء الخروج».

(٢) يسمى الوادى الآن «وادى المغارة»، وما زالت تُرى فيه آثار المعادن.

المباني بعد الغروب بغطاء متخذ من سعف النخل المجلوب من واحة العمالة القريبة من هذا الوادي.

انقضى على بنطاؤور ونبسشت شهر مع عمال المعادن في وادي (مفكات) دون أن يقف الشاعر على سبب ارساله إليه وبقائه فيه، بل ولا على سبب مقاسمة الطبيب له هذا العقاب الجائر، لاسيما والمعروف أنه كان سيرسل إلى محاجر رحنو. وقد حار في تعليل هذا الاختلاف ولكنه تذكر أبا وردة- وهو أحد الحراس- فلم يستبعد أن له ضلعاً في تغيير وجهة السفر، مع أن هذا الجندي الهمام لم يخاطبه بكلمة واحدة منذ رافق الأسرى من طيبة. غير أنه ما وصلت القافلة إلى الوادي حتى دنا منه الجندي وساره بقوله: لا تخشَ ضيراً فإنني محافظ على حياتك وستجد هنا الطبيب نبسشت فتظاهر بخصومته وليفعل هو كذلك، وإلا فُرق بينكما.

بادر الشاعر فأطلع صديقه على نصيحة الجندي فأقسم الطبيب ليعملن بها بقدر ما يتفق مع مزاجه وينطبق على علاقته الذاتية ببنتاؤور، فقد كان يذكره بأفكاره الحكيمة التي خالفها الحقائق المشاهدة ويقول له: أين القدرة الإلهية التي ترسل من أوج السماء بين الناس أشعة رحمتها لتسكين الخواطر الثائرة وتوطيد دعامة العدل؟.. أين الإنصاف المانع لوقوع الشقاق والخلاف بين الناس؟.. وكان الطبيب يسترسل في هذا المزح كلما زادت آلامه وتراكت أشجانه، ولم يكن ميله إليه بقصد التهكم على صديقه، بل لقضاء الوقت فيما يدعو إلى ارتياح النفس ويمحو من القلب أثر الحزن. وكان كلما لمح حارساً من الحراس أفاض في المزاح بعبارات لا يدرك معناها السامعون، ويزيد في تعقيدها تعاجمه ولعثة لسانه حتى يخيل لأولئك الحراس ان نزاعاً ثار ثائره بين الاثنين فينأون عنهما بجانبهم ويغفلون مراقبتهما. ومن مبهم العبارات التي كان الطبيب يكررها على سمع بنطاؤور قوله: يا

غلاف المعارف الربانية .. يا أيها المشعوذ الذى يحاول إقناع الناس بأن الدنيا دار ملاذ ومقر فناء وسعادة.. يا أيها المعجب بأثار جراحه الزرقاء ، إلى غير هذا من العبارات التى كان يدرك الشاعر والطبيب معناها ويرد عليها بنطاؤُر بالفاظ عذبة ومعانى دقيقة لا يفهم الحراس شيئاً منها.

وكثيرا ما كان ينقلب المزاج بينهما على هذا النمط إلى مناقشة ليست فى شىء من المزاج، وإنما هى جد يقتطفان منه ثمر تبادل الأفكار فى العلوم والمعارف التى كانا لا يكفان عن الاشتغال بها قبل وقوعهما فى أحبولة الأسر. وكان بنطاؤُر ونبسشت يشتغلان النهار كله، أولهما فى معادن النحاس والثانى فى مناجم الفيروز، فإذا أرخى الليل سدوله تلاقيا فى مكان واحد فتبادلا عبارات الوداد والسلوان وعزى كلاهما الآخر وواساه على مصابه. وكانوا قد قرروا لكل منهم عملا يناسب قوته الجسمية، فكان الطبيب لهزاله وضعفه يشتغل بإزالة الطبقة الترابية المغلفة لأحجار الفيروز. أما بنطاؤُر فكان لمتانة قواه وجودة فصوصه يقطع أحجار المعدن بالمعول الكبيرة الثقيلة ويدأب على العمل بما يوجب رضاء رؤسائه وارتياحهم منه. وكان فى أثناء قيامه بالعمل المفروض عليه يتمثل بنت أنات ماثلة أمامه، يحيط بها الشبان يعالجون الفوز بالقرب منها فيبالغ فى ضرب الأحجار بالمعول ظلماً منه أنه يضرب أولئك المزاحمين له على حب تلك الغادة الفاتنة، ويقضى على حياتهم الواحد بعد الآخر. وكان يمسك أحيانا عن العمل ويمد ذراعيه كمن يريد أن يضم إلى صدره محبوبا شاقه الوجد إليه ثم يلقيهما إلى جنبه متنهدا كاسف البال، كمن يهب من نومه والأحلام تداعبه فيرفعها إلى جبهته ليمسح ما يقطر منها من العرق الغزير. هذا الشاب الذى جمع إلى كرم الخلق وسلامة الطبع همة الأبطال وقسوة الرجال أصبح فى نظر حراسه ونظر نفسه سرا لا تستطيعه الأفهام، إذ كان يسائل نفسه عما طرأ عليها من التغيير وكيف أنه بعد أن وُلد من أب وأم لم يكن لهما همٌ ولا وكد

سوى التماس الهناءة ونعيم البال في شظف العيش، وبعد أن رُبى في بيت سیتی مهد العلوم ومعهد السلام، أصبح وكان في نفسه قوة خفية تسوقه إلى الجلال في ميادين القتال. وكان كلما حلق في أجواء هذه التأمّلات ثارت فيه نخوة الشجعان وهمّ بالنزول في حومة الوغى، ولكن أين الميدان؟ وكان أول شعوره بهذه الميول الحربية ليلة اتخذ من الطنب المنصوبة أمام كوخ المحنط بينم سلاحاً دافع به عن هذا الشيخ المسكين الذي اغتاله الأشرار وعن حفيدته وردة.

وكان العمال قد وهنت قواهم بمواصلة العمل والحراس سئموا استمرار المراقبة فعمدوا إلى مضاجعهم وناموا جميعاً بينما كان ملاحظ المناجم وجماعة الضباط في منزله يصطلون النار جالسین على شكل حلقة واسعة، فقال كبير الضباط لزملائه: اشربوا ما بقى في أقداحكم من المدام ثم ليدنُ بعضكم من بعض للمشاورة، فإن عندي أنباء خطيرة تحتاج إلى إعمال الروية وقدح زناد الفكر، فقد قيل ما خاب من استشار. وخلصا الخبر أن الوالی بعث إلى مرسوماً يأمرنى فيه بتوجيه نصف رجالنا إلى (بيلزيوم) تعزيزاً للجنود المرابطة بها، ولكن أخشى إن نحن نقص عددنا أن ينتهز الأسرى هذه الفرصة لإثارة غبار الفتنة ونشر لواء العصيان. وهم أن اقتصروا على قذفنا بالأحجار من قمم الجبال أبادونا عن آخرنا وسدوا في وجوهنا أبواب الرجاء في الفوز عليهم، فكيف بهم وهم يحلمون آلات العمل^(١) في النهار وهى سلاح يقوون به علينا. دع أن العبرانيين العاملين في معادن النحاس أشد خطراً منهم. ومع هذا فإننى لا أخشى أذاهم وان أكن أحس في قلبى خفقانا شديداً وفي ضميرى قلقاً وانزعاجاً، وهو ما يحملنى على الحكم بحرج

(١) كان شكل آلة عمال المعادن المصريين كدليل الخطاب إذا اتخذها حامله سلاحاً فاز به على عدوه. وقد وصف المؤرخ ديودورس الصقلی في الجزء الثالث من تاريخه أحوال الأسرى المحكوم عليهم بالعمل في مناجم الذهب الواقعة بين البحر الأحمر والنيل واهتدى إلى تلك المناجم في عامى ١٨٢٢ و١٨٢٣ ليتان بك دى بلفون وبونومى.

مركزنا هنا، ولا يخفى أن الغاية المجاورة لنا هي التي تؤخذ الأخشاب منها للوقود، وقد أشرفت على النفاذ بحيث سنضطر منذ الغد إلى التماس الخشب اللازم لأفران المعامل بغيرها أو نرسل شردمة من الجند إلى رفيديم^(١) لجلب الأخشاب التي حقاً على جماعة العمالقة أن يقدموها إلينا. فعلينا لدفع تلك الأخطار أن نحمل الأسرى ما لا يطيقون من النحاس لنوهن قواهم ونتقى شرهم، ولكن إذا تم لنا هذا التدبير فما الوسيلة للمحافظة عليهم؟.

أطرق الحاضرون رؤوسهم مفكرين ثم بسط كل منهم رأيه فتقرر إرسال شردمة من الأسرى يومياً بقيادة بعض الجند للاحتطاب وأن يكبل العصاة والمشاكسون بالقيود، فاعترض الملاحظ على هذا القرار بأنه إذا قرن اثنان في قيد واحد ازدادا قوة بضرورة اتفاقهما على العمل. قال رئيس كتبة حساب المناجم: الرأي الراجح أن يقرن كل رجل متين القوة وثيق الأعضاء بأخر ضعيف، ويحسن أن يكون الاثنان خصمين كلاهما للآخر، إذ يستحيل الاتفاق بينهما. قال أحد الضباط: كأن يُوضع هونى القوى مثلاً مع نبسشت الضعيف الذى لا يكف عن مجادلته. قال رئيس كتبة المناجم: إنى بما أدليت من الرأي الآن إنما كنت أقصدها. وعلى أثر ذلك جعلوا الأسرى فريقين يخالف أحدهما الآخر قوة وضعفاً وينافره مزاجاً وطبعاً، ثم قرنوا كل واحد من فريق بنقيضه من الفريق الثانى وناطوا بالجندي والد وردة حراستهم. فلما كان فجر اليوم التالى سلكت أرجل الأسرى فى القيود، وكان من بينهم بنطاؤور ونبسشت فُقرن الاثنان فى قيد واحد. وما كادت الشمس تتكيد السماء حتى همّ الجميع بالمسير بعد أن رفعوا إلى أكتافهم سباتك النحاس قاصدين إلى واحة العمالقة يحرسهم ستة من الجند بقيادة ابن المحنط (١) رفيديم واحة فى سفح جبل عريب.

بينم. ولما أن قطعوا من الطريق شطراً كبيراً ثابوا إلى الراحة في نقطة (أوس) فإذا ما أخذوا قسطهم منها استأنفوا السير في شعب ضيق بين صخرين من حجر السماق. وكانت الشمس في وقت بلوغ الجند والأسرى إلى هيكل هاتور الزمردية جانحة إلى الغروب، فرأى بنطاؤر طيوراً تحلق في الفضاء فانشرح صدره لرؤيتها. وكان قد مر زمن طويل دون أن يقع نظره على ما سوى الصخور والجبال الجرداء والصحارى المتناثية الأنحاء والفلوات العاطلة من حلية الحياة. لذا قال لأصحابه: إن مشاهدة الطيور في مكان دلالة على وجود المياه به. وفي السواقع فإنه ما كاد يتم كلامه حتى طالعت السائرين شجرة نخل وارفة الظلال وطرق آذانهم خرير الماء ساقطاً على الأحجار الصلدة فارتاحت صدورهم واطمأنت قلوبهم وانبثت الآمال في نفوسهم.

وكان إلى غرب الغدير ثلاثة سرادقات كبيرة من قماش معلم بخطوط زرقاء وحمراء تتخلل نسيجها المتين أسلاك الذهب وتحف بها شذمة من الجنود المصريين. ولم يكن أحد يعلم من هم المتقيئون بظلال تلك السرادقات، فلما مر جند الحرس بقيادة والد وردة أمامهم وأدوا التحية العسكرية برزت من السرادق الأكبر عادة تجر مطرفها الخز واتجهت نحو الأسرى وتصفحتهم جميعاً وجهاً وجهاً، فما أن وقف عليها نظر بنطاؤر حتى سرت بجسمه قشعريرة الدهش والفجأة بما لم يكن يتوقعه وخيل له أنه إنما رأى خيالاً لا حقيقة. أما نبسشت فقد صاح صيحة عالية دلت على تأثيره بهذا الحادث الذي لم يكن يخطر بباله. ولقد رأها أحد الحراس وهما في هذه الحالة فظن أنهما مختلفان على أمر فألهب كتفيهما بالسوط وقال: المشاتمة جائزة ولكن الملاكمة ممنوعة. ثم التفت إلى حارس وسأله: رأيت الفتاة الفاتنة التي برزت من الخدر؟ أجاب: لا ريب أنها إحدى وصيفات الأميرة التي نزلت بهذا المكان منذ ثلاثة أسابيع لأداء فريضة الحج في هيكل هاتور. قال الأول: يؤخذ من كلامك أن الأميرة تلوثت بلوث الخطيئة فجاءت تلتمس الطهر.. لو

كانت من عامة الامة لما اقامت بهذه السراقات في أسعد حال وأنعم بال، بل
لاشتغلت بتنظيف رمال المعادن أو بسحق الألوان. ولكن أين صاحب اللحية
الشقراء؟

وكان المقصود بهذا الوصف والد وردة وكان يتشاكل في مشيته ويتمهل ، لأن
وردة- وهى تلك الغادة الفاتنة- أشارت إليه بالدنو منها فدنا فتبادلت معه حديثاً
قصيراً وهروا نحو الأسرى والجنود القائمين بالحراسة فلما أدركهم سار معهم
فقال له أحدهم مماًزحاً: أنت من أعرف الناس بمحاسن النساء. أجاب وقد بدت عليه
أمارات الاستحياء: إنما هذه المرأة من وصيفات الأميرة، وقد عهدت إلى توصيل
كتاب إلى رئيس كتبة حساب المعادن، ولست أشك في أننا إذا نزلنا هنا على مقربة من
هذه السراقات الملكية نحظى بنعمة الالتفات الخاص ونطفء ظمأنا بجرعة من
النيبذ العتيق. وقال آخر: ألا ترى هذا السكير يتحرى بأنفه أجود الشراب كما
يتحرى الثعلب مكان الدجاج؟ فلنقف هنا قليلاً وليطرح كل منكم ما يحمله من
الانقال وليشرب هذا الماء الزلال وليأكل ما يساقط عليه من الرطب الجنى. دع أنه
لا بد من نزول المنّ علينا(١) فنتغذى به. ثم التفت إلى هونى ونبسشت وقال: كفى
عناداً ونزاعاً أيها الشقيان وإلى متى الشحناء والضوضاء؟

(١) المن مادة سكرية تفرزها شجيرة معروفة في علم النبات باسم نماركس مانيفرا وتنمو بكثرة
في الأودية الخصيبة بالصحراء ويكون الاقراز عادة في مايو حيث يشبه المن عندئذ الصمغ،
ويقول العلماء إن المن هو الذى ورد ذكره بهذا الاسم في الكتب المنزلة. وأصلها أن العبرانيين لما
عثروا على المن في البرية قال بعضهم لبعض «من هو» أى «ماهو» فسمى بالمن. وهو الآن يطلق على
المواد السكرية التى تفرزها أشجار الطرفاء والبلوط والخطمي. ومنه الاسترالى الخارج من
الكافور والفارسي ويسمى الحاجى ويعرف عند العرب «الترنجبين». قال في وصفه ابن البيطار:
«طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب وأكثر مايقع على شجر الحاج وهو
العاقول ينبت بالشام وخراسان» والسيناوى ويخرج من الأثل والطرفاء والكرديستانى وهو
عجيني القوام.

قضت بنت أنات بضعة أسابيع في السفر بطريق النيل حتى وصلت إلى بلدة (ريت)، ثم اجتازت الصحراء على جملة مراحل، مسيرة كل يوم مرحلة. فلما بلغت إلى سواحل البحر الأحمر ظلت تنتظر أسبوعاً ووصول سفينة فينيقية لنقلها إلى بلدة (فران). فلما حضرت إلى هذه البلدة سعدت في الجبال الشاهقة التي تلي سفوحها من الناحية الأخرى الواحات الفسيحة المشيد فيها هيكل هاتور الزمردية. وقد استقبلها كهنة هذا الهيكل بما يليق بمقامها الملكي من الإكرام والتعظيم، إلا أنهم تكلفوا الإكثار من الرسوم الدينية حينما كاشفتهم برغبتها في التطهر من الدنس، آذ عينوا يوماً لغمس جسمها في الماء المقدس وآخر لتطهيره بماء الغدير الذي يسقى منه النخل وثالثاً لتلاوة النصوص المقدسة وإطلاق البخور من الجامر، إلى غير ذلك من الطقوس الكثيرة التي جهرت الإلهة من بعدها برضاؤها عن بنت أنات وصفحها عما ارتكبه من الغلطات. وكانت الأميرة قدمت إليها ما جلبته برسمها من التحف النادرة والهدايا النفيسة.

لما انتهت مراسم التطهير من الدنس صدرت أوامر الأميرة بالعودة فأبى الامتثال رئيس الحراس وهو ضابط حبشى الأصل أنعم الوالى أنى على أبنائه بالرتب العالية ليتخذة آلة في تنفيذ أغراضه، وقال لرئيس التشريفات إن التعليمات التي تلقاها من الوالى قبل مغادرة طيبة تقضى عليه بحجزها في الواحة حتى يرد إليه أمر جديد بشأنها. فلما أطلعها الرئيس على قول الضابط الحبشى احتدمت غيظاً، ولكنها كظمتها وفاءت إلى سكونها، رجاء أن يصل إليها المدد من أبيها فيما لو وفق راميرى لأداء المهمة التي أخذ على نفسه القيام بها.

وكان لا ينقضى على بنت أنات ونيفرت يوم وهما في هذا المكان إلا ويضاف إلى همومها همّ جديد، لأنهما أصبحتا ملتقى أنظار العيون التي بثت عليهما بل أسيرتين

ذليلتين اتضع قدرهما وسقط جاههما في نظر الجند الذين أصبحوا ولا هم لهم إلا العريضة وارتكاب المنكرات والعدوان على سكان الواحة بالأذى وسفك الدم على مسمع منها ومرأى وهي لا تستطيع شيئاً.

ولقد أحست بتوالى هذه الحادثات أن اليأس أخذ يستولى على قلبها وأنها بعد أن كانت تسمو على العامة بجناحين قويين- هما عزة المكانة وسعة الإدراك- هوت إلى مهبط الذل وحضيض الصفار، فأخذت من ثم تناجى نفسها بأن الحب الذي استقر في قوادها لينطاؤراً لا ينتهي إلا بانتهاء الأجل. ثم خُيل لها أنها ترى طيفه ماراً فبدت عليها أمارات التأثر الشديد لفراقه وأكسبها هذا التأثر هيبة وعزة وزاد وجهها جمالا ونضرة. وكان يتردد بخاطرها أنه قد تكون المنية أدركته أو أنه وقع في فخاخ الغادرين فتظهر عليها علامات الالتياح والجزع. أما نيفرت فقد جاءها من أمها كتاب تؤيد لها فيه خيانة مينا عهد الأمانة الزوجية وشغفه بالفتاة الآسيوية، وأن بنطاؤراً لم يصل بعد إلى جهة المناجم التي نفى إليها فأجمعت الآراء على أنه مات في الطريق بحادث ما. قرأت نيفرت هذه الرسالة فلم يضطرب لها جأش ولم ينبض نبض ولم يخفق قلب بل لم يظهر بالمرّة على وجهها يدل على تحرك عوامل الغيرة في نفسها، وذلك لأن ثقّتها في إخلاص زوجها مينا وقيامه على عهد الوفاء لها كانت ثقة لا حدّ لها. ولم تغير تلك الأقاويل شيئاً ما من أحوالها، بل زادت إيماناً بحب زوجها وبدلت في نفسها من اليأس الرجاء حتى لقد كانت تقول لبنت أنات مساء كل يوم إن الامدادات ستصل إليهما في الغداة لتخلصهما من عناء ما هما فيه من ذل الأسر. وكانت تنساق أحياناً في تيار المزاح تلتمس به تسلية الأميرة وتسرية الهموم عن نفسها فتقول لها: لا يبعد أن نرى في هذا المكان بيننا قرينى مينا بخيله ورجله، ولكن من يرافقك في هذه الحالة بصيوانك ويساعدك على قضاء الوقت في الأحاديث

الظريفة والنوادر المستملحة. وكيف نقسم الصواوين شطرين بيننا؟ ثم اتفضلين يا ترى البقاء هنا أو نرحل إلى جنوب الواحة لتمتيع النظر بالمناظر الجديدة والمشاهد الجميلة؟

كانت وردة في خلال ذلك تقوم بما عهد إليها من العمل حائزة على رضاء الأميرة في كل حال، وكانت إذا جلست في حضرتها لسزمت 'لأدب وحرصت على الصمت والوقار، فلا تتكلم إلا بإذن ولا تظل جالسة إلا بمسوغ، وكانت إذا حدثت خلبت المسامع بعذوبة حديثها وطلاوة لفظها ورقة لهجتها، وإذا ضحكت خيل للمسامع أن ضحكها رنين قطع البلور إذا تلاطم بعضها ببعض، وإذا غنت بصوتها الرخيم أطربت الأميرة ونيفرت. ولا عجب إذا برعت وردة في الغناء، فقد كانت في كل ليلة تنصت إلى العجوز نيخت تتغنى بالأناشيد التي برعت فيها أيام صباها وتجتهد في تقليدها حتى أتقنت الغناء ولم يضارعا في إجادته أحد بجميع الأنحاء.

وقد سر الأميرة مالمحتة في وردة من مخائل الذكاء والفطنة فألت على نفسها أن تربيها على أحسن المبادئ وتعلمها القراءة والكتابة. ولقد صادفت في هذه السبيل عقبات حائلة وصعوبات مانعة، بيد أنها بذلت في تحقيق أمانيتها جهد المستطاع واتخذت من الاجتهاد في العمل سلاحاً تقطع به حبال الوقت الطويلة، حتى بلغت ما يتجاوز المأمول من أمنيته. وكانت من وقت إلى آخر ترمق قمة الجبل الذي ضربت السراذقات على سفوحه بعينين تقرأ فيهما آيات التمدل في الغرام، فتتنظر إليها وردة من طرف خفى وتدرك مكنون سرها. غير أنها كانت لا تستطيع أن تفتاحها في شأن ما من شؤونها اجلالا لها واحتراما. وكانت تترقب الفرصة المناسبة للكلام فتقص عليها من ظريف النوادر ما له علاقة بينطاور وأسرته فينصرف عنها الهم وتخف أعباء الكدر والحزن. وكان يتفق أن يمر الأسرى أمام خيام الأميرة وهي جالسة

تحت ظلالها مع نيفرت عند غروب الشمس تتطارحان الأحاديث في أحوال الملك ومينا وبنطاؤر، فلما مروا بعقب وصول كتاب راتوتى إلى ابنتها صاحت هذه قائلة: لاشك أن بنطاؤر لا يزال على قيد الحياة، وقد أصابت والدتى فيما كتبتة لى، لأنها لم تقل إنه مات بل قالت إن أخباره انقطعت وهو إذا استطاع الفرار فلا بد أنه جعل معسكر الملك وجهته لتحظى بلقائه فى القريب العاجل.

لم تجاوب الأميرة على هذا القول بل أطرقت رأسها حزناً، فشخصت فيها نيفرت بعين الرفق والاشفاق وقالت: لعلك تفكرين فيما بينكما من تفاوت المرتبة وتباين الشرف. قالت بنت أنات: إنى باختيارى إياه قريناً لى أجعله أميراً على الكعب رفيع المقام واجب الاحترام، وإذا استطعت أن أجعل زمام الأرض كلها بيديه وملكته الحكم على العباد كافة أفلا يكون أرفع منى مقاماً وأسمى قدراً وأشرف مرتبة؟ قالت نيفرت مستحيرة: وماذا والدك فاعل إذا رأى منك هذا الميل؟ قالت الأميرة: يحببنى والسدى ويكرمنى ويفهم مقاصدى. وقد انتويت- إذا ظفرت بمقابلته- مفاوضته فى جميع شؤونى ومطالعتة بأسرارى كافة. وبعد أن سكتت هنيهة استأنفت الحديث فقالت: ليحضر الخدم السراج والنول لأقضى بعض الوقت فى النسج.

هرولت نيفرت إلى باب الصيوان فالتقت عنده بوردة فأمسكت بيدها وجذبتها إلى خارجه وسألتها: مالى أراك مضطربة ووجلة؟ أجابت وردة: وصل أبى إلى هنا مرافقاً بعض الأسرى المقبلين من معادن مفكات، وقد رأيتهم فإذا باثنين منهم قرنا فى قيد واحد، ولا شك عندى فى أن أحدهما بنطاؤر. وقد حدثت أبى فى أمره فوعدنى أن يطلق سراحه. ولست أود أن تطلعى بنت أنات على الخبر إذ الأحسن أن نتركها على غير علم به ليكون سرورها عند مفاجأتها بلقاء بنطاؤر أعظم منه فى حالة علمها بوصوله، ثم إننى من جهة أخرى أخشى أن تتدخل فى أمره بما يمكن أن يؤدى إلى

فشل تدابيرنا. سألت نيفرت: أترين أنني أصلح لمساعدتك على إنفاذ مشروعك؟ أجابت وردة: ولم لا.. والسدى أسالك إياه الآن أن تأمرى القيم بإرسال قرينة نبيذ جيد إلى الأسرى وتأتى لى بالقنينة التى فى متاع الأميرة وتحتوى الشراب المخدر الذى يلقى شاربه فى سبات النوم، وما زالت تأبى الانتفاع به رغم نصائحك المتكررة.

فانصرفت نيفرت من فورها إلى القيم وأمرته أن يذهب بقرينة نبيذ مع وردة إلى حيث ترشده وأن يعطيها من تعينه له من الناس، ثم دخلت مخدع الأميرة وفتحت صندوق عقاقيرها^(١) وأخذت تفتش فيه. فسألت بنت أنات: عمّ تبحثين؟ أجابت: عن دواء ضد الخفقان. ولما عثرت على القنينة أخفتها فى كمها وهمت بالخروج من الصيوان لتعطيها وردة، وكانت وردة تنتظرها مع القيم خارجه، فلما أخذت القنينة من نيفرت تظاهرت بأنها تريد أن تشرب من قرينة النبيذ فى حين أنها كانت تسكب فيه السائل المخدر دون أن تنبه القيم إلى حقيقة الواقع. ثم قدمت النبيذ إلى الحراس الذين أنهكهم التعب. وقد وقع عليها نظر شاب من شبان العمالقة فقال: السلام عليك أيتها الغادة الهيفاء.. أقدم إليك أربع حجال^(٢) ذبحتها بيدي وحجراً من الفيروز عثر عليه أذى بين الصخور^(٣) وهو فال السعادة وبشرى الخير لحامله وجالب النصر له على الأعداء وطارد الأحلام المزعجة^(٤). فتناولت وردة الحجر،

(١) فى متحف برلين صندوق مصرى للعقاقير ثبت أنه صنع قبل عصر رعمسيس الثانى «سيزوستريس» بزم من طويل.

(٢) يوجد بقمة الجبل الذى يسميه رهبان طور سيناء جبل القديسة كاترينة مجرى ماء يدعى بغدير الحجال ويروون بشأنه حكايات غريبة، منها أن مياهه تنفجر بإذن الله من عيون كثيرة تشرب منها الحجال التى رافقت الملائكة الذين حملوا جثة القديسة كاترينة من الإسكندرية إلى جبل طور سيناء.

(٣) أحجار الفيروز التى تستخرج من صخور جربال هى أجمل أحجار هذا النوع وأحفظ لونها من الأحجار التى تستخرج من وادى المغارة.

(٤) مازال العرب يستدون هذه الفضائل إلى أحجار الفيروز

وكان سنجابى اللون، جميل الشكل، وقالت: إنى أشكر لك هديتك. ثم أخذت بيد الشاب وذهبت به إلى مكان لا تهتدى إليه أعين الرقباء، وقالت له بصوت منخفض: انصت يا ساليش لكلامى وع قولى.. قد ثبت لى الآن شرف نفسك وطهارة قلبك ولطف شعورك وعلمت من تابعات الأميرة أنك قلت عنى إننى كوكب سماء هبطت الأرض فى صورة إنسان.. ولا ريب أن أحداً لا يقول هذا القول إلا إذا كان عاشقاً والهاً، ولهذا لا أخالك إلا كذلك لاسيما وإنك ترسل لى فى كل يوم باقات الأزهار النضيرة والطيور التى يصطادها أبوك برسم الأميرة. فإن تكن هذه حقيقة حالك معى أفنتقد أن تقدم للأميرة لى خدمة جليلة نعدنا من أجمل المنن علينا ونحفظ ذكراها لك مقرونة بالشكر مدى الدهر؟.. لعلك مجاوبى بنعم.. فإذا حققت رجائى فيك فإنى مخبرتك بأن لمولاتى الأميرة صديقاً يههما من أمره أن يكون فى معزل عن الرقباء بضعة أيام، فهل لك فى إخفائه مع رفيق آخر له فى بيت أبيك القائم هناك على قمة الجبل المقدس؟ أجاب الفتى: فلينزلا عندنا على الرحب والسعة، فإن عادتنا إكرام المثوى وقضاء الحاجات.. وأين هما هذان الأجنبيان؟ أجابت وردة: سيحضران هنا بعد ساعة.. أفتريد أن تبقى فى انتظارهما حتى يطلع القمر؟ قال الشاب: بل انتظر حتى يختفى القمر خلف حجاب تلك الجبال السامقة. قالت وردة: اجعل مكانك فيما يلى هذا الغدير فإذا حضرا واقتربا منك وذكر لك اسمى ثلاثا فارشدهم إلى بيتك، ولست أخالك جاهلا باسمى. قال الشاب: لقد أسميتك الكوكب الدرئى وأسميت كل امرأة سواك بوردة. قالت وردة: إذا بلغت الأجنبيين إلى دارك ورضى أبوك أن يكرم فيها مثواهما فعجل بالعودة لى لتخبرنى بهذه النتيجة، وهأنذه باقية فى انتظار عودتك بباب الصيوان. وإننى لآسفة من أننى لا أملك شيئاً معى الآن لأتحفك به جزاء صنيعتك وصدق ولائك، ولكن لا تياس فلا بد للأميرة من أن تجزل لأبيك العطاء وتفيض فى أسرته الخير فكن حذراً يا ساليش ولا تغفل.

قالت هذا ثم انصرفت قاصدة إلى مكان حراس الأسرى وهناك وجهت إليهم عبارات التمنى أن يقضوا ليلتهم في هناء وسرور. ولما عادت إلى بنت أناة سألتها عن سبب ما تراه من امتناع لونها وكسوف بالها وقالت: هلمى إلى سريرك فإننى أرى الحمى قد اعترت جسمك اللطيف. ثم التفتت إلى نيفرت وقالت: أترين الدم يا نيفرت وهو يجرى في عروق جبينها؟

وكان الحراس في خلال ذلك يجرعون النبيذ الملكى ويهنيء بعضهم البعض لفوزهم بهذه السعادة التى لم تكن تخطر لهم ببال. وكان والد وردة يرقب حركاتهم وأقوالهم فاقترح عليهم أن ينعموا بشيء مما يشربونه على الأسرى فاستجاد أحد الأحراس هذا رأى وقال: لقد أصبت، إذ الواجب أن يكون لهؤلاء المنكوبين -ولو مرة واحدة في حياتهم- نصيب من نعيم الحياة ولذة السعادة. فلم يكد والد وردة يسمع هذا الإستحسان حتى ملأ الكوب بالنبيذ ثم دنا من بنطاؤر وتركه له بعد أن همس في أذنه ألا يشرب قطرة منه وألا ينام ليله. ولما دنا من نبسشت وأراد أن يقدم إليه الكوب جاء جندى آخر ومنعه من تقديمه ثم عرض عليه قدحاً كان بيمينه فأخذه نبسشت وأخذ يكرع منه. وكان الحارس ينظر إليه ويعجب من قدرته على تجرع بنت الدنان وعجزه عن الكلام بحسن البيان وفصيح اللسان.

الفصل العاشر

أين يلتقى بربه ويتوجه إليه بكل قلبه

لم تمر بالشاربين ساعة أو بضع ساعة في اللهو والمرح والمطايبة حتى أحسوا بثقل رؤوسهم فلم يتمالكوا أن ألقوا بجنوبهم على الثرى، وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى دهمهم النوم. وكان القمر أنشد يلامس الأفق، فقام والد وردة ودنا متمهلاً من الحراس ليستوثق من نومهم، ثم دنا من بنطاؤور فحل قيوده وفعل مثل هذا بنبسشت، غير أنه لم يستطع إيقاظه من نومه فحمله على كتفيه وقال لبنطاؤور: اقتف أثرى. ثم سار مسرعاً نحو المكان الذى عينته له وردة على مقربة من الغدير، فلما وصل إليه نطق باسمها ثلاثاً فبرز الشاب العملاقى، فرجا الجندى من بنطاؤور أن يصاحبه إلى حيث يسير به، فتردد كأنه خشى عاقبة هذا الفرار فقال له: لا خوف عليك كما لا خوف على نبسشت، وسأعنى كل العناية بأمره. قال بنطاؤور: لا قدرة لى على مفارقة صديقى وأرى أن بالامكان إفاقتة بالماء البارد . فجرداه من بعض ثيابه ووضعاه فى ماء الغدير، فلما أحس قوة تياره أفاق وسار مع بنطاؤور متمايلاً كالثمل وأمامهما الشاب العملاقى وظلوا سائرين جميعاً حتى بلغوا إلى البيت الذى على قمة الجبل.

وكان والد الشاب نائماً فأيقظه من نومه وأخبره بما سارته به وردة وما عاهدته عليه من العهود، فهب الرجل من مكانه واستقبل نبسشت وبنطاؤور بالإكرام وطرح للأول على الأرض حصيراً نام عليه وهياً للثانى مضجعاً من الفرو، وقدم إليه ثياباً جديدة ليلبسها بدلاً من أطماره البالية ونادى بابنته أن تغسل قدميه، فاضطجع

بنطاؤر على الفراش الذى أعده له والد الشاب العملاقى فإذا به فراش لين لا تفضل عليه أرائك الملوك نعومة ونظافة، بيد أنه لم يستطع النوم لما أنهك جسمه من التعب وتولاه من الدهش وانزعاج الضمير. ولبت على هذه الحال زمناً نهض بعده من مكانه فوضع نبسشت على فراشه وخرج من الدار للايغال قليلا فى الخلوات تسرية للهَمّ عن قلبه، فقاده السير إلى غدير منحدر من مكان عالٍ تتكسر مياهه على الصخور فيُسمع لها خريير لطيف فغمس فيه رأسه ثم أدلى بجسمه ليتنعم بطراوة مائه النقى، وقد تخلص بذلك من الادران التى تراكمت عليه كما نجت نفسه من أضرار الحقد والعار والحزازات الناشئة من مخالطته قوما لا نصيب لهم فى الحياة الدنيا إلا التلطح بأدران العار والهوان وفساد الأخلاق. ولقد أحسّ كأنه فى صبيحة عيد من أعياد بيت سبتى التى كان ينتبه من نومه فيها مبكراً فيستحم ويتطهر ويلبس الثياب الكهنوتية الناصعة البياض. لهذا عجل بالعودة إلى دار العملاقى تبدو عليه مظاهر النشاط والخفة والاعتباط، فبعد أن جفف جسمه لبس الثياب التى قدمها الرجل إليه فأصبح فى يومه الجديد عكس ما كان عليه أمس الدابر.

وكان يرى أمامه صخوراً قاتمة اللون فيخالها سحباً متراكمة تنذر بوابل غزير، إلا أن السماء كانت بأديمها الصافى تلوح من خلال قماتها الشاهقة وقد رصعت بالوف الكواكب المتلألئة. وقد أثر هذا المنظر العجيب فى نفسه تأثيراً سما بها إلى أوج الحرية. وكان النسيم فى ذلك الوقت عليلاً فسار- وقد لاحظت عليه علامات السرور والاعتباط- فى درب يوصل إلى قمة الجبل التى اتخذها والد الشاب العملاقى مقراً له. وكان فى صعوده إليها يشعر كمن يطير أو تجذبه نحوها أيد خفية، ورأى وهو صاعد تيساً أركن حينما رآه مقبلاً إلى الفرار وتسلق مع أنثاه الصخور الصلدة فصاح الشاعر بهما: لا تخافا منى أذى فلست من جبل على الأذى. وقد جاء قوله

هذا دليلا على ما تحن إليه جوارحه من العشق وعلى ما يحسه من ضرورة الإعراب عنه للحبيب.

ثم وقف على هضبة ضيقة عند مأخذ القمة الصخرية، فإذا به يرى مسرباً تجرى فيه المياه من أعالي الصخور فترتوى به الحشائش الطبيعية وتنعكس فيه صور الكواكب التي أخذ بريقها الساطع يبهت قليلا قليلا تلاشياً وتفانياً أمام ضوء الفجر المبلج، فنظر إليها نظرة تدل على تتبعه لها بفكره في سيرها السرمدي بأكناف الفضاء اللانهائي . ثم التفت إلى الجبال التي أضاء النور سفوحها وأبان للناظرين ما يليها وما يتخلل أكامها من المهاوى التي لا قرار لها. وما زال الليل يولى الأدبار حتى سطع النهار وتمثلت للأنظار قمم تلك الجبال تتسحب فوقها السحب كدخان يتصاعد من بؤرة النار. وكان ضباب كثيف يصعد وقتئذ من الواحة، فلم تمض هنيهة حتى انجلت دقائقه وانتثر بعد التماسك حينما فعلت فيها أشعة الضوء فعل السهام النافذة في الأجسام.

هذه كانت حالة تلك الأصقاع من الوحشة ساعة طلوع الفجر. ولم يكن بها من دلائل الحياة سوى نسر كان يحلق بجناحيه العريضين حول بنطاؤر، وهو مأخوذ بالتأمل في عجائب الخليقة وأسرار الكائنات من تلك القمة العالية. وكان السكون قد مدّ أرواقه على الطبيعة فلما رأى بنطاؤر ذلك النسر منحدرًا إلى قاع الوادي وشاهد الضباب تتلاشى جزئياته هباء وتهبط في تلاشيها إلى أسفل المنحدرات، خطر بباله أن يواصل الصعود إلى نقطة أسمى يكون فيها بمعزل عن مصائب الجنس البشري بعيداً عن التاثر بالنوازع الدنيئة التي تجذب إلى ناحيتها أفئدة العاجزين فتحول دون تأملهم في عجائب الكائنات، بيد أنه كان في حالته هذه أشبه به يوم أن اطلعه

الكهان على أسرار الكهنوت المقدسة، إذ كان يجمع إلى الخشوع الذى امتلأ به قلبه يومئذ عزة النفس التى تسمو به على الكافة. وغاية ما أحسه من الفرق بين الحالين انه كان فى ذلك اليوم يستنشق أريج الزهور ورائحة البخور وغيرهما مما يثقل على النفس ولا ينتعش به الفؤاد وهو واقف على ذروة الجبل الشاهق يستنشق النسيم النقى العليل ويرى من السكون السائد على الخليقة ما يوطئ سبيل الفوز بالقربى من الألوهية أكثر مما تمهد منه أناشيد الكهان.

ثم أوغل فى التأمل والتفكير فرأى أن الأنفاس الخافتة المنبعثة من صميم الفؤاد تتقبلها الآلهة أكثر مما تتقبل الأناشيد والأغاني التى يلحنها الكهان ويصدحون بها فى كل آن، وأن الإنسان مدين للمنع عليه بشكر ما أنعم وبالأقرار بالطاعة له، ولكنه لم يكن مديناً بتصوير ذلك الشكر وهذه الطاعة فى صور محسوسة مغالاة فى إفهام المراد منهما. وكاد لسانه- مع هذا التصور- ينطلق بترديد بعض الأناشيد لولا أنه أحس بحصر فجئنا فى الحال على ركبتيه للصلاة والدعاء وأداء مفروض الشكر والثناء.

ونهض واقفاً بعد الصلاة فأمعن النظر فيما حوله من عجائب الكائنات، وكان مستشرقاً الشرق وميامناً الجنوب حيث تمتد أراضى النيل المقدسة التى تقام فيها الشعائر الدينية لآلهة لا يحصى لها عدد، فاختلط عليه الأمر إذ حار فى اختيار من يعبد من هذه الآلهة: أ (أوزريس) أم (حوروس) أم (زيفا) أم (رينوت) صاحبة البركات العميقة ومفيضة النعم؟ وبينما هو فى هذا التردد إذ هبَّ نسيم لطيف انقشع بسببه الضباب الذى كان منسدلاً كحجاب يحول دون رؤية الوادى، وانبعثت أشعة الشمس من وراء الأفق، فكللت هام جبل سيناء بتاج من الذهب وطرحت على الماء طبقة ناصعة البياض من اللجين.

ومرّ بباله أنثذ أن يبتهل إلى الإله (فيرو) ، ولكنه عدل عن نيته اذ تذكر تفاهة عبارة الصلوات الدينية الخاصة بمعبودات السهول والفلوات وخلوها من المعانى اللاتقة بالزمان والمكان، ثم سكت برهة قال بعقبها: «إنى الآن فى حضرة الواحد الأحد الذى تقدس عن الحاجة إلى المكان وليس فى مكان ولا على مكان، لأن كل ما فى العالم تحت قدرته وتسخيره، تراه عينائى بلطفه وقدرته وعجيب صنعه، لأنه تعالى منزه عن الكيف والكمّ وكل ما يخطر بالخيال والوهم من التكيف والتمثيل، فإليه ضراعتى وإليه إنابتى». ثم بسط كفيه وقال: أنت الواحد الأحد! أنت الواحد الأحد! أنت الواحد الأحد!

وكان شيخ بدين الجسم قوى الأساطين واقفا وراء بنطاؤور وهو يكرر تلك الكلمات، فلما التفت بنطاؤور إليه قال له الشيخ: بورك فىك وعليك، إن كنت تبحث عن الإله الحقيقى. فحدق الشاعر فى وجه الشيخ وكان طويل اللحية مهيب المنظر وقال له: لقد عرفتك.. لأنت ميسو (١) بعينه. وإذا عرفتك فما هو إلا لأننى كنت ببيت سىتى أتلقى فيه المبادئ العلمية وقتما تخرجت أنت منه نابغاً فى المعارف والعلوم اللدنية. وقد أطلعنى أمينى - كما أطلعك - على سر الاعتقاد بوجود إله واحد لا إله إلا هو. قال ميسو، وقد حدق بنظره فى الأفق الذى كانت تسطع الأنوار من ناحيته الشرقية: أما أمينى فلا يعرف من الوجدانية شيئاً.

فى خلال هذا الحديث برزت الشمس من وراء حجاب الأفق وأصابت سهام أشعتها الذهبية كبد الفضاء، فكان أول ما بدر من بنطاؤور أن استقبلها بوجهه وبدأ يصلى. فلما انتهى من الصلاة شهد ميسو وهو يصل أيضاً، إلا أنه كان مستقبلاً

(١) أى موسى عليه السلام.

الغرب، فلما أتى على آخر صلاته سأله: لم استدبرت الإله «الشمس» وقد تعلمنا بالمدرسة وجوب استقباله عند شروقه. قال ميسو: إنى أعبد إلهاً غير ما تعبد.. الشمس والكواكب مسخرات لأمره . قال بنطاؤر: أرشدنى إلى طريق هذا الإله القادر. قال ميسو: ابحث عنه تجده، لأنك كابدت الألام وقاسيت مشاق المتربة. واعلم أنه تجل لى فى مكان مثل هذا وفى صبيحة يوم كهذه.

قال هذا ومضى فى سبيله، فوقف بنطاؤر وحده سابحاً فى بحار التأملات، ثم نزل متمهلاً نحو دار العملاقى ، وبينما هو فى طريقه طرقت سمعه همس أناس على مقربة منه. وكانت تحجبهم الصخور عن نظره، فوقف هنيهة حتى ظهروا من خلفها ودنوا منه، فإذا هم ابن العملاقى ورجل بثياب مصرية وامرأة ميادة القوام ترافقها فتاة رشيقة الحركات وعبيد يحملون محفة. فحقق قلبه شديداً حين وقع بصره عليهم، لأن تلك المرأة كانت بنت أنات كريمة رعمسيس. ثم وقف مستنداً إلى صخرة لا يقدر على الحركة لما غلبه من الدهش، وغابت عنه الحواس فصار لا يسمع وقع الأقدام على الصخور الصلدة، ولا يرى انعكاس الأشعة الشمسية على حجر السماء، كلا ولا المرأة الحسناء التى هرولت نحوه لاستجلاء محياه. وما نادته باسمه وطرقت صوتها أذنيه حتى صار كالأعمى الذى يرجع إليه البصر أو الأصم الذى يعاوده السمع، فقد عرته رعشة فتنبه فسمع بنت أنات تكرر نداءها له: يا بنطاؤر! فأوسع لها الشاعر صدره الرحيب فترامت بين ذراعيه فضمها إليه وعانقها عناق المشتاق الذى أضناه الفراق.

أما رقيقات الأميرة فكن جالسات فى بيت العملاقى. فقالت وردة لنيفرت: لقد رأيتها تلقى بنفسها بين ذراعيه.. لست أنسى - ماحييت- هذا المنظر البديع الذى

كانا يحاكيان فيه البحر المتلاطم عند الأفق هناك، وقد تحركت مياهه لعناق الجبل المقدس. قالت نيفرت: كيف ابتدعت هذا التشبيه الجميل، ومن أين لك مثله أيتها الفتاة؟ قالت وردة: عثرت عليه في صميم فؤادى وليس عندى ما أكاشفك به سوى أننى أشعر الآن في نفسى بسعادة وهناء، لم أشعر بهما من قبل. قالت نيفرت: لعل سعادتك وهناءك ناشئتان من اعتقادك أنك وفيت لبنطاور ما عليك له من الدين، إذ كنت سبب إنقاذه من الهلاك كما أنقذك منه. قالت وردة: ليس هذا سبب سعادتى، بل إن هناك سبباً آخر كان داعية هناءتى وجالبية سرورى. وغاية ما أخبرك به أننى كنت يئست من كل شيء فلم ألث أن تحول اليأس في نفسى رجاء بفضل الآلهة وعدلهم.

فاستحسنت نيفرت هذا القول بإشارة ثم قالت وهى تتنفس الصعداء: ما أسعدهما حالا وأهنأهما بالا وقد تلاقيا بعد الفراق! قالت وردة: إنهما جديران بهذه السعادة لأن بنت أنات إلهة الحقيقة، وليس في الديار المصرية من يجارى بنطاور في علمه وشرف نفسه وعلو همته. فصمتت نيفرت زمناً ثم قالت بصوت اليائس الحزين: أما رأيت مينا؟ قالت وردة: من أين لى أن أراه.. عليك بالصبر يا نيفرت ودعى عنك الجزع، فلسوف تجتمعين بمحبوبك. وثقى بقولى هذا، فأنا أعرف من حوادث المستقبل ما يعرفه الأنبياء.. ولكن دعينا من هذا الآن ولنقصد نبسشت لنرى إن كان لا يزال نائماً.. أنا عرافة بما للشراب المخدر الذى مزجته بالنبيذ من تأثير في إضاعة الرشد. قالت نيفرت: أصبت، فهيا بنا. ثم سارت مع وردة مقتفية أثرها.

وكان الطبيب ملقى على ظهره فاغراً فاه، فتقدمت وردة نحوه وحدقت فيه النظر

فقلت: لقد أجهد هذا الرجل نفسه في دراسة العلوم والاطلاع على خفايا الحقائق ، ولكن ما زلت أجد أقرب في هيئته إلى الحيوانات العجم منه إلى الإنسان. ثم تناولت عوداً يابساً وعبثت به في أنفه فتحرك أولاً ثم عطس وتقلب على أحد جنبيه واستغرق في النوم، فقهقهت وردة ضحكا كان يرن رنين الفضة النقية أو الذهب المصفى ولم تلبث أن احمر وجهها خجلا إذ وبخها ضميرها على استخفافها بالرجل الذي أحسن إليها فاعترفت بخطأها وندمت على ما فعلت وتذكرت ما كان عليها له من مآثر تدل على كرم محتد وطيب عنصر.

وفي الحال تناولت يد النائم فقبلتها وعمدت إلى جبينه فمسحت العرق الذي كان يتصبب منه. وكان في هذه الأثناء بين يقظان ونائم فقال: وردة عزيزتى وردة! فتراجعت الفتاة إلى الخلف هاربة. فاقتفت نيفرت أثرها. فلما تنبه نبسشت من نومه نهض واقفاً ونظر فيما حوله فوجد أنه في مكان لم يره من قبل ولم يعلم سبب وجوده فيه ولذا خرج مهرولا فالتقى ببنت أنات تحذر أصحابها مما يكنفهم من الأخطار والنكبات.

الفصل الحادى عشر

«الرحلة من سيناء إلى لبنان.. وما وقع فيها من غرائب الحدثنان»

مرت قرون عديدة وأحقاب عديدة على سكان الواحة وهم يؤدون الجزية للفراعنة، مقابل تعهدهم لهم أن لا يطاء عسكري مصرى ثرى بلادهم. وكان هذا هو سر نزول الأجناد الحبشان خارج حدود الواحة وإقامتهم صواوين بنت أنات بعيداً عنها، غير أنه حدثت بالرغم من هذه التدابير معارك كثيرة سالت فيها الدماء بين أولئك الجند الذين أركنوا الى البطالة والكسل وبين العمالقة سكان الواحة الذين عرفوا بعزة النفس وسمو الهمة وسرعة النجدة وحب الاستقلال. وكانت تلك الحوادث تنذر بالخطر فى مساء يوم أفرط فيه أولئك العساكر فى الشراب حتى ترنحت أعطافهم وضلت عقولهم وضاع صوابهم فهاجموا النساء وهن ذاهبات للاستقاء.

وفى فجر ذلك اليوم استيقظ أحد الحراس الأسرى من نومه، فتنبه إلى غيبة بنطاؤور ونبششت فذهب مع أصحابه من فوره وفيهم والد وردة - وكان قد عاد الى مكانه مستتراً بالظلام بعد قيامه بما عهد اليه- ليرفعوا الأمر إلى ضابط الجنود الحبشان الذى أيقن أن الشاعر والطبيب اختفيا بالواحة عند أحد العمالقة. فخابروهم فى تسليمهما له، ولكنهم لم يبالوا به لاعتقادهم فساد التهمة الموجهة إليهم وسخروا منه فاستشاط غيظاً وأمر بتفتيش الواحة. ولم يكن هذا الأمر متفقاً مع نصوص المعاهدات المبرمة بين حكومة مصر وبينهم. ولما لم يعثره البحث عندهم عليهما اقتفى النساء والأطفال أثره يشيعونه بالفاظ التهكم والتبكيك وتمادوا فى ذلك حتى

ضاققت عليه المذاهب فذهب إلى الواحة بنصف قوته العسكرية واحتلها.

لما رأى العمالقة هذا التعدى هبوا إلى أسلحتهم فتقلدوها وتظاهروا بالانسحاب إلى الورا ليستدرجوا تلك القوة إلى متابعتهم، وما زالوا بها حتى بلغت إلى بقعة ممهدة من الوادى حول جبل صخرى صغير ^(١) فاعتصم به سوادهم الأعظم. فلما مرّ الأحباش بجوارهم انقضوا على الطليعة والمؤخرة انقضاض النسور وفتكوا بهما شر فتك. ثم انجلت الواقعة عن قتل عدد عظيم من الجند وإصابة الضابط نفسه بجراح اضطرته إلى الارتداد على الأعقاب . وما ترك شذمة من جنده لحراسة الأميرة إلا لكى تستنجد بها عند الحاجة لأنه سارع بعد الانسحاب بالانضمام إليها واستأنف كرة الهجوم على الواحة بها وبالقوة التى عهدت إليها المحافظة على الاسرى.

لم يكذ يتوارى شبح آخر جندى وراء غاية النخل عن نظر بنت أنات حتى أصدرت أمرها بإعداد العدة للرحيل. وكان رجال حاشيتها متفانين فى الإخلاص لها، فما هى إلا ساعة حتى قوضوا الخيام ووضعوا على متون الجياد ما خف حمله وغلا ثمنه من المتاع والزاد، وانطلقوا فى دروب سيناء يقرونها فرياً وفى طليعتهم ساليش متجهاً معهم صوب دار أبيه، بينما كان الضابط وجنوده فى قتال عنيف مع سكان الواحة الأبرياء.

وكانت وردة فى أثناء المسير تدبر بذكائها وصدق رويتها التدابير للالتقاء بنت أنات وبنطاؤر. وقد شرحنا كيف تم هذا الالتقاء وسردنا ما وقع فيه من حوادث الهيام ووقائع العشق والغرام. فنضرب صفحاً عنه الآن لنقول إنهما لما استأنفا

(١) يسمى هذا الجبل الآن أكمة مهاوت وتوجد بها إلى الآن أطلال كنيسة فران

السير لم يفترقا حتى وصلا إلى آخر المرحلة، في محلة كسيت أرضها بديباج الحشائش الخضراء، فجلسا على هذا البساط السندسى وشرعا يتطارحان ذكرى ما اعترضهما من الشدائد والصعاب. ولما كان قبيل الظهر أقبلت ابنة العملاقى واخت ساليش تحمل قدراً مملوءة لبناً فتناولتها بنت أنات منها وسكبت بعضاً مما فيها في طاس متخذ من قشر القرع المجفف وقدمته إلى بنطاؤر الذى كان يشعر ساعتئذ كأن روح العزة والكرامة مقرونة بالتواضع تنبت في كيانه الذاتى حتى تناولته جميعاً. ولقد حدق في بنت أنات النظر فعاهد نفسه على أن يبقى ما عاش مخلص الولاء لها مضحياً روحه في سبيلها ومتفانياً في حبها. وكانت حوادث الماضى الذاهب والحاضر المشاهد لحسن طالعه قد محت من قلبه الخوف من المستقبل، فأصبح وكأن جناحى السعادة يرفرفان على رأسه. وما انتهى الاثنان من تناول ما هبىء لهما من الطعام حتى أحس بنطاؤر بسطان الغرام الذى نجاه عن مواطن التفكير في شؤون الدنيا قد تغلب عليه، فأخذ يجهد الفكر في تدبير تخلصه من المأزق الذى زج بنفسه فيه حيال بنت أنات وحاشيتها.

وكان الناظر اليهما وهما في حديثهما يأخذه العجب من أمرهما، فإنه بينما كان يسمع منهما عبارات الخوف والفرع كان يقرأ في عينيهما آيات السرور، وبينما كان يسمع مفاوضتهما في تدبير مخرج لهما من هذا المأزق كان يراهما متراجعين نحو دار العملاقى. وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى شهدا هذا الرجل وابنته مقبلين عليهما ومعهما شيخ جليل من العمالقة، فلما دنا الثلاثة من بنت أنات خروا سجداً وقبلوا الارض بين يديها.

كان اسم ذلك الشيخ (ابو شرابوس) وهو عميد الواحة وكبيرها. وكان قد اتصل به نبأ محاصرة الحراس لبنت أنات ووقعها في شرك أسرهم فحضر ليجعل نفسه في

خدمتها ولينفذ ما تأمره به. وقد قال لها إنه موال لأبيها الذى صان حرمة المعاهدات المبرمة بين مصر وعرب العمالقّة. وكان الرجل طويلاً القامة قوى الأساطين أسمر اللون اقنى الأنف، وفى وجهه ندبة جرح أصيب به فى منازلة عدوّ له. ثم أخذ يقص على بنت أنات وبنطاؤور - وكان يظن أنه شقيقها- ما لحق جند الأحباش من الخذلان وأنهم وقعوا جميعاً بين قتيل وجريح وأسير، ثم قال: إن هؤلاء الجند أشداء على أهالى (رزوح) الذين يشبهون الكلاب جبنًا وسفالاً. أما نحن فرجال إذا طمع فينا أجنبى وحاول الإغارة على بلادنا أذقناه من دفاعنا الذى يشبه دفاع الليوث عن عرائنها كأس المنون. فليات منهم الألوفا تلو الألوفا ونحن ننكل بهم ونوردهم موارد الحتوف.

وما أيقنت بنت أنات إخلاص الرجل وصدق استعداده لدفع المكاره عنها حتى وعدته بأن تذكره بخير عند أبيها الملك وتوصيه برعايته هو وقومه، ثم أخبرته برغبتها فى الذهاب مع بنطاؤور إلى المعسكر المصرى فى الشام وذكرت أن هذا الشاب سيكون فى المستقبل قرينها.

وكان الشيخ يمدّ بصره إلى بنت أنات وهى تفوه بهذه الكلمات حتى إذا التفت إلى بنطاؤور أطرق رأسه احتراماً وإجلالاً له ثم قال: أنت يا ابنة الملك لأزهى من القمر سناء وتألّقاً، إنه لا نظير لرفيقك فى العالمين، وإنما هو أشبه الناس بـ (دوزاره) إله الشمس. ثم ضرب صدره بكفيه وقال: لم أرَ فى حياتى زوجين يشبهانكما غير (أبى شرابوس) وزوجته ولهذا عولت على مرافقتكما بنفسى إلى (هبرون) ومعى رجالى الشجعان.. ولكن عجلوا بالرحيل قبل وصول الجند الذى لا بد أن يبعث به ذلك الخائن الأثيم الحاكم الآن على مصرائهم (١) لينتقم من العمالقّة. هلموا إلى خيامكم لإعداد معدّاتكم وغداً لا تبتزغ الشمس حتى تكون فى الطريق.

(١) اسم مصر عند العبرانيين

ثم وقفوا تجاه بيت العملاقى فتقدم رجال حاشية الأميرة صوب بنطاؤور وأدوا له واجب السلام، فلما دنا منه رئيس الحجاب كانت تبدو على وجهه علامات القلق والتردد، لأن الملك رعمسيس وإن يكن قد أمره بالطاعة المطلقة لكريمته المحبوبة لم يرق في نظره أن تهوى من أوج كرامتها العالية إلى حضيض الرضاء بأن يكون أحد رجال العامة قريناً لها. أما نيفرت فكان مما يشرح فؤادها أن تحدد في بنطاؤور النظر وتعجب بما رزق من جمال صورة واعتدال قوام وكانت تنأجى نفسها بأن هذه الصفات العالية تمثل لخاطرها صورة أسا زوج خالتها.

وكان هذا شأن وردة مع بنطاؤور وبنت أنات، فإنها كانت لا تمل النظر إليهما والدعاء بتحقيق أمانيهما، وأن تكون هذه السعادة مقدمة خير لتحقيق أمنية نيفرت بقاء قرينها مينا وتحقيق أمنيتها أيضاً.. وكان نبسشت في أثناء هذا بمعزل عن الجميع تواضعاً منه أو حياء، وقد ذهب صفاء الجو وطراوة النسيم بصداع رأسه. فلما انتهت مراسم السلام على بنت أنات وبنطاؤور على الوجه المتقدم دنا من الشاعر فأخذه بيده ثم قال: إنى أكف منذ الآن عن تعزيرك لأن مبدع هذا الكون الذى تستمد به في صلواتك قد محا من نفسك العيوب التى لأجلها عزرتك. قال بنطاؤور: لا مدعاة لأسف أيها الصديق، ولسوف يجيء دورك فنكون على وفاق تام ونعيش في صفاء وسلام. قال نبسشت معترضاً: أرى بلوغ هذا المرام وعراً، لأن بنى الإنسان آلات رُكبت في مصنع واحد لا تدركه الأبصار. وكل الفرق بين آلة وغيرها أن تكون إحداهما من الخشب الجيد والآخرى من الرديء، وأن تكون الأولى صحيحة الصنعة محكمة تناسق الأجزاء والثانية عكس ذلك. أما أنت فمن الطراز الأول لأنك تشبه الآلة الموسيقية التى يُسمع اهتزاز أوتارها كلما هبت عليها رياح القدر وأما أنا فكالآلة التى تبين اتجاه هذه الرياح وتعين مهاجها، ولكنى كلما تحركت يمناً أو يسرة

سُمع منى صرير يملّ السامع. وإذا اتخذنى ربان السفينة دليلاً للسلوك بفلكه إلى الوجهة المرومة فليس هذا ما يهمنى شأنه، ولذلك ترانى أدور كلما حركتنى الرياح، وسواء عندى التفت الربان إلى أم لم يلتفت.

غادر بنطاؤر وبنات أنات بيت العملاقى بعد أن أفاضت عليه النعم. وكانت الشمس فى التطفيل وقمة جبل سيناء تتوهج كعلم على رأسه نار أو كأحجار ياقوت تسطع فى أكليل ذهب. وكان قرص الشمس كجذوة نار شديدة الاحمرار، إلا أنها كانت مغشاة بسحاب خفيف كالقبس تغشاه طبقة رقيقة من الرماد. ولما افتتر ثغر الفجر وبدا عمود الصبح تحرك ركب الأميرة جاعلا وجهته معسكر رعمسيس، وكان (ابوشرابوس) إماماً لها يهديها سواء السبيل فى المنعرجات، وكان ابن المحنط بينم سائراً خلف ابنته وردة. فلما قطع الركب المرحلة الاولى والتمس الراحة بالوقوف عندها دعتة الأميرة إليها وسألته أن يقص عليها ما استنبطه من التدابير لتخليص بنطاؤر، وكيف استطاع الذهاب به إلى شبه جزيرة سيناء، فى حين كانت النية معقودة على نفيه إلى محاجر رحنو فقال:

«انباتنى وردة بالمكان الذى تقرر أن يُنقى إليه هذا البطل الذى تطوع للذود عنا وبسطت لى ضرورة العمل لإنقاذه حتى لا يرسل إلى ذلك المنفى، ولكننا لم نوفق لحيلة نقضى بها هذا الوطر. ولم يكن لمثل أن يستنبط حيلة أو يخترع وسيلة، فربّ أمر أستحسنه فيكون بذاته قبيحا فأنساق به إلى فعل الشر وأنا لا أريد إلا الخير. وحدث قبل أن تفاوضنى وردة فى هذا الشأن أنى كنت أقوم على حراسة بعض المحكوم عليهم بالعمل فى معادن (مفكات) وجرت العادة بإنزالهم فى السفن من مرسى مدينة الأموات فرأيتهم قبل نزولهم، وقد علت وجوههم غبرة الحزن

والأسى، وكان منهم من يلزمون السكوت والسكون إلا أن امتقاع ألوانهم واصطكاك أسنانهم رعباً وفزعاً وإنصراف أنظارهم إلى الفضاء أوحى إلى ضميرى الاعتقاد بأن أولئك الساكتين الساكنين أولى بالشفقة وأحق بالرعاية من الذين ارتفع صياحهم إلى عنان السماء ورددت جلبتهم أركان الفضاء. وكنت كلما تأملت الفارق بين الفريقين انتابت جسمى قشعريرة التأسى لهؤلاء والحقد على أولئك.

«وكان فى الفريق المتمسك بأهداب الصبر والسكينة رجل تبينت حقيقته لأنى كثيراً ما رأيتة حين كان أسرى الأجانب الذين نيطت بى حراستهم يشتغلون ببناء القاعة الكبرى ذات الأعمدة. تأكد لى منه أنه مفتش حراس حمل آمون المقدس، وكنت أعهد فيه الحرص على أداء الواجب، وكان لجأ ليلة إلى الراحة فدخلت الذئاب الهيكل واغتالت الحمل الذى وجد قلبه بعد فى صدر النبى رونى. وإذا كان لا غنى عن إرضاء الامة وتسكين نائرتها بمعاقبة الحارس المسمى هونى فقد صدر عليه الحكم بالنفى إلى معادن الذهب وعُين بدلا منه رجل أشد يقظة وأكثر حرصا على الحمل المقدس.

«شهدت هونى فى معزل عن بقية المحكوم عليهم فدهشت لعزلته لاعتقادي أن له زوجة وأولاداً كان يجب عليهم الحضور لوداعه وتشجيعه بعبارات العطف التى تخفف عن القلوب أعباء الحزن فسألته عن سبب إهمال أهله أمره وعدم عنايتهم به، فأجاب أنه ودعهم عند الباب حتى لا يروه مع باقى المحكوم عليهم من المزورين والقاتلين. وكان قد حدث منذ أيام حريق هائل فى بيته فالتهم ما به من أثاث ومتاع حتى لم يبق عنده ما يسدون به الرمق، فزاده ذلك كدراً على كدر. وكان فى روايته لى حوادث هذه الفاجعة لا يستطيع متابعة الكلام، بل كانت تخنقه العبرات فيصمت.

وحيثما أنس منى العطف عليه والرفق به قال بصوت جهورى: إننى أرضى بالنفى إلى معادن الذهب، بل أرضى أن يقطع جسمى إرباً، ولكن لا أرضى أن تحتمل زوجتى ذل الفقر ويقع أولادى فى مخالف الجوع.

«وعلى أثر ذلك خرجت لتوديع ابنتى وردة ممثلاً لخاطرى حالة ذلك الرجل وما استولى من اليأس على فؤاده فقلت فى نفسى لو كنت غنياً لما توانيت عن إسعافه بما يجعل زوجته وأولاده بعيدين عن الحاجة وذل السؤال، ولكنى سأبذل قصارى الجهد لتعزيته بما يسرى الهم عن قلبه. ولما التقيت بوردة أبلغتني تبرع الطبيب نبسشت لها بماله وحادثتني فى أمر بنطاؤر ووجوب انقاذه، فأصبحت تجاه أمور ثلاثة تتنازعنى: إسعاف المنكوبين والشكر لنبسشت وإنقاذ بنطاؤر. غير ان هذه الأمور الثلاثة اندمجت فصارت أمراً واحداً اتخذته رائدى ودليل فيما استخزرت الله على اتباعه، فعجلت الأوبة إلى الميناء حيث سلمت هونى مبلغاً كبيراً من المال ليحل محل شخص محكوم عليه بالنفى إلى محاجر رحنو. وأطلعته على أنه سيرسل فى الحقيقة إلى معادن الذهب لا إلى هذه المحاجر، لأنه إذا جازت الحيلة على من حنكتهم التجارب ودلكتهم المحن فإنه لا يجوز على الأطفال والمرضى - أعنى المنكوبين فى عقولهم وأبدانهم - غير الحقيقة الواضحة. عرضت عليه المبلغ وأصدقته القول فتلقى طلبى منه بالرضاء والقبول قائلًا إنه يفضل عذاب السعير على أن يرى أولاده فى ذل الحاجة والسؤال. وبناء على هذه الحيلة التى لم أعالج عناء فى استنباطها إذ جائتني عفوا حضر بنطاؤر إلى السفينة منتحلاً اسم هونى، بينما كان هونى الحقيقى يواصل السير صوب الجنوب منتحلاً اسم بنطاؤر، ولم يظهر قط سر هذه المعاوضة الاسمية حتى الآن. أما ما وقع بعد من الحوادث فعندكم علمه، وها أنتم أولاء تقصدون إلى الشام التى خبرت أحوالها منذ كنت أذهب بالأسرى منها

إلى مصر وأقامت خمس سنوات في حراسة الموهار الأكبر أبى بعاكر رئيس الطلائع». شكرت له بنت أنات هذه الصنيعة وأثنت عليه بأجمل الثناء، فقال نبسشت: لقد كنت في أثناء السفر شديد القلق على بنطاؤور إذ كانت تبدو عليه علامات الألم، ولكن قلبى عاد فاطمأن عليه لما وصلنا إلى الصحراء إذ أخذت تلك العلامات تتبدد شيئاً فشيئاً. وكان كلما نزلنا بمكان أو وقفنا عند مرحلة يشنف سمعى بما ينظمه من شعر وافر الحظ من بسديع المعنى وشريف اللفظ، فقالت بنت أنات: يالها من مصادفة حسناء فإنى ما بلغت من رحلتى إلى الصحراء حتى فارقتنى الهموم ونشط جسمى من عقاب المتاعب. قال نبسشت لبنطاؤور: أى رحمك الله. شنف مسامعنا بالقصيدة الغراء التى نظمتهما في وصف نبات البعيثران، سأل بنطاؤور الأميرة: أو تعرفين هذا النبات؟.. إنه ينمو في الصحارى والفلوات وها نحن أولاء نراه حولنا وبعيدا عنا.. إن عركه الإنسان بين أصابعه سطع منه شذا عطرى يملأ الأنوف. وقد نظمت فيه أبياتاً كما نظمت في غيره على ما تعلمين. فتبسم نبسشت قائلاً: نعم! هى الأبيات التى تمجد فيها إلهة واحدة ملكت عنان الجمال وقبضت على صولجان الحسن والدلال. قالت بنت أنات: هات ما عندك هات واتحفنا بما نظمته من الأبيات. قال الشاعر: «عثرت بالصحراء على النبات ذى الأوراق الخضراء، التى إذا عركت بالأصابع انتشر شذاها الساطع، مع أنها نبتت من الصخر، في بلد قفر، إن قلبى قد أدمته الكوم، وساورته الهموم، فلما سرحت النظر في الصحراء، انجلى عن قلبى البؤس والعناد، وأدركت كيف يكون نظم الاشعار، حينما انسدل عليها من السكون ستار».

سألت نيفرت: ماذا تقول؟ الصحراء علمتك قرض الشعر! وهل نسيت ما للعشق

في تعليمك إياه من الأثر الظاهر؟ أجاب بنطاؤور: حمداً وشكراً للثنتين معاً. ولكن لا يسعني أن أنكر ما للصحارى ومد النظر في الأفاق من حسن التأثير في نفوس العشاق. ألا يضطرنا السأم من تجانس ظروف الحياة وتماثل أحوالها في كل وقت إلى مراجعة النفس في استطلاع أسرارها وكشف مضمورها؟ ألا نحس أننا نبتدئ بمشاعرنا وقد امتد عليها رواق السكون وخفقت عليها أعلام الهدوء لا يساورها شيء من العوامل المحيطة بها، ألم يكن هذا الاطمئنان مستفزاً للذهن على الإيجاد والابتكار حاشاً للروح المنطوية في ذاتها على الانفعال بأقل المؤثرات؟ إن الإنسان في مدائننا الكبرى كالهبة الصغيرة بل كالجذء الذي لا يتجزأ إذا قيس بالمجموع، وهو متصل به اتصال اندماج وتلاحم وخاضع لما هو له خاضع، ولكنه متى انفصل عنه ملتجئاً إلى الصحراء أصبحت علاقته به منحلة العرى مفكوكة الروابط، إذ يكون وقتئذ خالياً من قيود التضامن بينه وذاته، فيها يتحسس أسباب الفرح وكل ما تصبو إليه نفسه من خير. إن العقل ليرى في البعد عن المجموعات البشرية مجالاً للفكر لا تحده عقبة ولا يقوم دونه مانع قاطع، لأنه لا ينصرف إلا إلى المستقبل، أما الماضي فيتلاشى تجاه ما تترامى إليه الآمال في آفاق الاستقبال.

قال نبسشت. أصبت! فإن الصحراء خير مجال لتوارد الخواطر والأفكار وأحسن مستغل لثمرات الابتكار، بدليل أنى وأنا بمصر كنت أنظر إلى الكثير من الأشياء فيخيل لي أن بينى وبينها حجاباً مسدولاً أو ضباباً كثيفاً، فلما أن جئت إلى الصحراء انحسر الحجاب وانقشع الضباب. سأل بنطاؤور: أجبني ما هي تلك الأشياء؟ أجاب نبسشت: ثلاثة أولهما أننا لا نعلم بالحقائق علماً أكيداً، وثانيهما أنه إذا كانت النفس تميل إلى الورد مثلاً فليس معنى هذا أن الورد يميل إلى النفس، وأما الثالث فسر غامض أحب استبطانه. وإذا ارتبط هذا السر بأحوال الكون فمن ذا الذي

يكلف نفسه مشقة الاهتمام به؟ ثم التفت إلى الحاجب وقال: فلنبين هذا السر معا أيها الحاجب.. أنت أعلم الناس بضروب التحية وماتقتضيه من الطقوس والمراسم.. علمت ذلك ممن يتشرفون بلقاء الأميرة، ولكن أخطر ببالك يوما البحث في تركيب العمود الفقري للإنسان؟ أجاب الحاجب سائلا: كيف تطالبنى بالوقوف على سر تركيب الفقرات وإنما أنا منوط بتحديد وتنسيق ما ينبغي أن يبديه المتشرفون بلقاء الأميرة من ظاهر الإشارات والحركات؟ ان مثلك من يجدر به الوقوف على سر تركيب العمود الفقري لأنك تواصل ليلك بنهارك في استطلاع أسرار الجسم البشري، ولو أنك هونت على نفسك ولم تعكف عكوفك هذا على الدرس والمذاكرة والبحث والمناظرة لاستطعت أن تنسق شعرك وترتب ثوبك.

وصل ركب الأميرة إلى هبرون -عاصمة أمة الخيتاس- دون أن يلقى بالطريق عائقاً ولا حادثاً مكرراً. فلما استقرت بها الأميرة وأمنت على نفسها استأذن منها أبو شرابوس ورجاله في الانصراف فأذنت لهم بعد أن غمرتهم بجزيل انعامها، ثم تحرك الركب إلى الشمال تحف به كوكبة من الفرسان المصريين. وكان بنطاؤر قد تخلف عنه في ذلك المكان مع أبي وردة العارف بأسرار طرق الشام ومنافذها، ولكنه ما غاب عن الأنظار وانقضى الليل وطلع النهار حتى هطلت الأمطار وأصبح متعذراً اجتياز جبل السامرية. ومع هذا فقد جدّ الركب في المسير فوصل إلى مدينة ماجدو^(١) فاستقبلته الحامية المصرية بمظاهر الإجلال إكباراً لمقام الأميرة التي أقامت بها أياما نالت نيفرت فيها الشفاء من مرض ألمّ بها. أما وردة فكانت تزداد

(١) تسمى باللغة المصرية مارطة وهي إحدى مدائن فلسطين ومازال اسمها منقوشا في الآثار المصرية. وكانت مشهورة بمناعة موقعها الحربى قبل أن يعيد بناءها النيسى سليمان. وقد أغار عليها ملوك الأسرة الثالثة عشرة المصرية في القرن السادس عشر قبل الميلاد.

كل يوم نحولاً وضعفا لما غشيها من الهموم، وشهدت ذلك منها بنت أنات فسألته
عن السبب فلم تجاوب بما يشفى الغليل موارية عنها مكنون سرها، لأنها لم تكن
فاهت قط باسم راميرى على مسمع من أخته الأميرة كما لم تكن حدثتها بمسألة
الخاتم الذى تركته والدتها استحياء وخوفاً من أنها إذا أطلعتها على دخيلة أمرها
وأبانت ما هو مبهم من سرها ازدرت بما يربطها وراميرى من عواطف العشق
وأنحت باللائمة عليه فيعرض عن حبها وينقض ما توثق بينهما من عهوده ويلقى
بها في مهواة من المحن والأحزان لا قرار لها.

ولما صار الركب على مقربة من الحدود أنفذت الأميرة إلى المعسكر الملكى رسولا
للاستفهام عن الطرق المأمونة والمسالك التى تؤدى بالسائر فيها إلى قصده فى سلام
وطمأنينة، فما هى إلا فترة من الزمن حتى عاد ذلك الرسول وبيده رسالة موجزة
من الملك رعمسيس إلى بنت أنات يأمرها فيها ألا تبرح ماجدو لتوافر أسباب الأمن
فيها على الأرواح، بما يحيط بها من الحصون المنيعة ويقوم على حفظها من القوى
العسكرية المدربة على القتال. وهذا فضلا عن أنها قاعدة الاجراءات العسكرية
للجيش المحارب، ومستودع لوازمه من مؤن وذخيرة، والحاكمة بموقعها الحربى
قرب البحر على شمال فلسطين ووسطها. ثم زاد أمره تعليلا بأنه أصبح على وشك
محاربة العدو فى معركة فاصلة تقضى العادات والتقاليد ألا تحضرها حتى لا
يصيبها فيها مكروه.

وبينما كانت بنت أنات فى ماجدو تنتظر توارد الرسائل من أبيها تطمئن قلبها
بتلاوة ما تحتويه من أنباء الظفر، كان بنطاؤر والجندى والد وردة وكوكبة من
الفرسان- نصب حاكم هبرون على قيادتها ذلك الشاعر- يسرون حثيثا نحو

الشمال. وكانت هذه أول مرة امتطى بنطاؤُر فيها سهوة جواد ولكنه استوى على متنه بما خيل للرائى معه انه من الفرسان المدربين الذين قضوا شطرا كبيرا من حياتهم فى ركوب الخيل، مع أنه لم يكن تلقى هذا الفن ولا برع فيه إلا منذ يومين فقط على والد وردة. وبلغ من مهارته وبراعته أنه كان يفضل امتطاء الفرس الشموس على السهلة القيادة، فما هى إلا دقائق معدودة حتى يكبح جماحها ويكسر من حدتها ويخضعها لإرادته. وكان قد تجرد من ملابسه الكهنوتية ولبس الزرد وتقلد السيف وأرسل اللحية إلى أن مست منه الصدر. وكان والد وردة لا يكف عن النظر إليه والاعجاب بشكله، بل كان كثيرا ما يناجى نفسه بقوله: يخيل لى أن الموهار الأوزيسى الذى كثيرا ما جبت معه الأمصار وسلكت القفار قد بُعث من بين الموتى متقمصا شخص بنطاؤُر. إنى لأراه يضارعه نضرة وجه ونبرة صوت إذا أمر الجند بأمر، ويشبهه فى لفتته ومشيته والقبض على زمام جواده وفى العدول عن ركوب المركبات إلى متون الجياد، كلما حالت وعورة الطريق دون سهولة السير فيه.

ولم يكن بين رفاق بنطاؤُر من يسكن إليه ويرتاح لمحدثته إلا والد وردة. ولهذا كان يسير فى الغالب خلفهم بمفرده ناظرا إلى كل ما يقع تحت بصره ممعنا البحث فيه حتى لا تفوته الاستفادة بعلم ما لم يعلم. وما زالوا مجدين فى السير حتى بلغوا إلى جبال لبنان فشهد الوادى الذى كثيرا ما قرأ عنه فى الكتب وسمع من الناس وصف محاسنه، فسره منظره وأعجبه على الأخص خريير الماء المنحدر على صخوره، وإنما ساءه أن يرى القرى وقد عبثت بها يد الخراب والتهمتها النار من جراء الحرب وأن تصبح ضواحيها موحشة معطلة من الأنيس لانتظام سكانها الفلاحين فى سلك الجيش المحارب. وقد علم أن الأعداء مروا بهذه الجهة واغتصبوا من الفلاحين بقرهم ومن الرعاة أغناهم. وكان رجل يعالج فى هذه الساعة بعض

الكروم، فلما سمع وقع حوافر الخيل وثب وثبة اختفى بها عن الأنظار دون أن يتلفت إلى المقبلين عليه. وكادت الأرض محروثة ومحضرة للزرع وآلات الحراثة ملقاة على حواشيتها، وليس فيها للسبب المذكور من يتم الحراثة بالبذار، فانشأ يقارن بين هذه الأودية النضيرة ذات الخيرات الوفيرة وبين رمال ليبية وصخور سيناء وسهول مصرائم، فلم يتمالك أن صاح: ما أجمل هذه البقاع!.. إن الآلهة فيها أراف بالإنسان منهم به في بلادنا. ولقد أصاب أساتذتنا حين بثوا فينا بغض الأجنبي ومقت الكافرين وخشية الايغال فيما يل النيل، حتى لا يتجاوز شعب بلاده التي نشأ فيها إلى بلاد غيره فيطمح إلى منازعته على الاختصاص بخيراتها.

وكان الشاعر في أثناء ذلك يدنو من معسكر الملك، فلما صار على مقربة منه تنازعه عاملان: ذكرى بنت أنات ورهبة رعمسيس فيما سيدور بينهما من المحادثات. إلا أنه كان يطمئن خاطره بقوة الاعتماد على النفس وحسن الظن في العاقبة فيتغلب بهذا الاطمئنان على ما عراه من الأحزان ولكنه كان يعود فيتهم نفسه بالتطرف في حسن الظن والتهور في الاعتماد على النفس فيغشى قلبه الحزن ويعترى خاطره الاضطراب ويستسلم لهذه العوامل حتى إذا أوشك أن ييأس وقى نفسه شر اليأس بالجلد وعدم المبالاة وأزاح بهما عن قلبه غشاء الحزن ووطن نفسه على الثبات والإقدام.

وتذكر بنطاؤر - وهو في متنازع بين هذه العوالم - ما كان من حكم أميني عليه وهو واقف وراء أقرانه في تواضع واستحياء وانصراف عن الناس، فتبسم وأخذ يسائل نفسه - أهو الآن كما كان يصفه أستاذه أميني في مصر، وإذا كان هناك تباين فهل سببه اختلاف المكان وهل تؤثر الأمكنة في النفوس والطباع؟ وأخذ بعد ذلك

يمثل لنفسه حالته فقال إنه لم يكن إلا كاهناً لفظته الهياكل لفظ النواة وأخرجه الكهان عن أنفهم وطرده الدين من حظيرته القدسية.. دع أنه ليس إلا ابن بستانى وضيع القدر منحط الكرامة.. ولكن عاطفة الشمم وعلو الهمة تغلبت على هذه الضعة بالأمل في حب بنت أنات فقال مناجياً نفسه: إن حبه لها متم لما ينقصه من الكمالات وساتر لما مئى به من العيوب وأنه أصبح صاحب الحق في التطلع إليها بطلب الاقتران بها. ثم راجع نفسه فقال: ولكن ما العمل إذا قابل رعمسيس بالرفض هذا الطلب وانقلبت من عنده شر منقلب. ووقف ثابتاً في مكانه كمن ينظر سيف النعمة الذى يود الملك ضرب عنقه به معلقاً على رأسه ثم قال: لا أحد على وجه الأرض مهما يكن له من الجبروت والسلطان ينتزع من يده قلب بنت أنات. وهو أنفس ما أغدقته الآلهة عليه من النعم والهبات.

الفصل الثاني عشر

بداية الحوادث.. و فاتحة الكوارث

كان سكان الجبال يترصدون في الغابات والأجاص لنبطاؤر وصحبه حتى إذا مروا بهم باغتوهم بالحمة عليهم والتنكيل بهم، فيهب هؤلاء للذود عن أنفسهم وقد ظلوا بين اطمئنان وانزعاج وبين سلم وحرب حتى بلغوا إلى بقعة ليس بينها والمعسكر سوى مسيرة يومين للمجد، فإذا هم يرون فيها جموعا كثيفة وأفواجا حشيدة من العدو خرجوا من مكامنهم. وكان بربروس والد وردة قد أحس الخطر الداهم فتقدم ليستطلع الخبر ثم عاد كاسف البال منزعج الضمير مروع الفؤاد فأخبر بنطاؤر بأن الخيتاس ملأوا الأرض وسدوا بجموعهم الأفق وراء الغابة، وأن في هذا الدلالة الأكيدة على تقهقر جيش رعمسيس ، وإلا فمن أين للعدو أن يقتحم الخطر بالزحف على مؤخرته طمعاً في قطع خط الرجعة عليه والفتك به؟ ومما ضاعف الخوف والأسى أن أصحابنا التقوا في أصيل اليوم الماضي بشرذمة من الجنود المصرية خرجت للاستطلاع فأخبرت بأن الملك مازال موجودا بمعسكره، وأنه على أهبة مقاتلة الأعداء في واقعة يكون فيها فصل الخطاب، وأن المرجح أن الحرب لم تُضرم نارها بعد لخلو الغابات من أثر الجبناء اللاجئين إلى الفرار. فلما لم يهتد بنطاؤر إلى الحقيقة الثابتة تجاه تناقض الأخبار دنا منه والد وردة وقال له: إذا استطعنا أن نتقى شر مدهامة العدو ساعتين فقد نجونا. وأرجو ألا يهتدوا إلينا إذا سلكنا الطريق الموصل إلى سهل قادش، وهو طريق وقفت على سره وتبنت مسالكه كالموهار السابق وخاصة رجاله. وأذكر أن عند منتصفه كهفاً طالما لجأنا إليه واختفينا أياماً ولياليها به دون أن يقف الخيتاس لنا على أثر، حتى لقد رسخ في

عقائدهم أن الموهار ظفر بخاصية الاختفاء عن الأبصار في أية ساعة من الليل أو النهار، مع أنه ما كان لنا أن نلجأ إلا إلى ذلك الكهف الذي ساقطنا إليه المصادفة . فإذا كنت لا تخشى على نفسك خطر الصعود إلى قمم الجبال ولا تستصعب مشاق السير في الوهاد والنجاد فترجل عن جوادك وابتغى بلا كلام وأنا كفيل بوصولك إلى معسكر رعمسيس في أمن وسلام. عهد بنطاؤر قيادة الشرذمة عندئذ إلى بربروس فسار هذا المقدام على رأسها صاعداً تارة ومنحدرًا أخرى وماراً من جهة اليمين طورا وجهة الشمال آخر حتى وصل إلى شعب ضيق بين جبلين تنحدر منهما مياه يبدو زيدها في ثانيا الصخور بشدة الاصطدام فنزل والد وردة عن متن جواده فاقتردى به بنطاؤر والجند. ولما عبرت الجياد الماء محا بربروس أثر الأقدام والحوافر في الرمال وأفرغ في أداء هذه المهمة كل حذق، ثم صعد مع صحبه في المسيل وعانى صنوف المشاق في هذا السبيل لمقاومتهم اتجاه التيار. وما برحوا كذلك حتى وصلوا إلى بقعة اشتبكت فيها أغصان الورد بأغصان الغار، فكان بربروس يفرق بينها لاقتصاص الأثر في الطريق، وبذل في ذلك جهده حتى اهتدى إليه. وكان بنطاؤر ورجاله والدواب قد نال منهم التعب فلم يصلوا إليه إلا بشق الأنفس. وظلوا يحثون السير حتى اجتازوا غابة مترامية الأطراف إلى أبعد مدى ثم انحدروا من شعاب ضيقة إلى نجاد بعيدة القاع وصعدوا منها في صخور كأسنة الرماح في ارتفاع الذرى، ثم هبطوا غدراننا فاضت مياهها لانسياب مياه الأمطار فيها فركبوا فيها متن الأخطار والمعاطب. وقد اكفهر وجه السماء في هذه الأثناء فهطل المطر غزيراً، ثم أظلم الأفق وماهى إلا هنيهة حتى أرخى الليل سداله وشد وشد النهار رحاله.

فقال بربروس: هلموا بنا سريعاً وتماسكوا بعضكم ببعض، فبالاتصال

والتماسك تكون النجاة، وبالجلد والثبات نصون الحياة. وما أتم هذه الكلمات حتى كبا جواد فعانى والد وردة وأعوانه النصب في إقالته من عثرته وإشالته من كبوته، وكان الليل أسود فاحما والمطر وابلا، فأخذ بربروس يتحسس بيديه الطريق ورجال الشرذمة حوله تتنازعهم عوامل اليأس والرجاء، وكانوا إلى اليأس أميل منهم إلى الرجاء. ثم وقف فجأة وجذب بنطاؤُر إليه وقال: لعل المغارة قريبة منا.. ادنُ منى ليتأكد لك صدق قولى، ولكنى أخاف أن نلتقى فيها ببعض خدم بعاكر الذى اتخذها والده في حياته مستودعاً للمؤن والذخيرة.. أترى شبهى في هذا الظلام الحالِك.. أمسك بنطاقى وحدب ظهرك ولا تقف إلا بأمرى، ثم تقلد سلاحك إن لا أستبعد أن نلتقى في طريقنا بجماعة من الخيتاس أو اللصوص فلا نؤخذ على غرة منا. أما أصحابنا فلا تفكر في أمرهم فسندعوهم عما قليل. فسار بنطاؤُر والدليل متراكنين في نفق ينتهى إلى جب عميق ذى حافة من الحجر الصلد المشرع الأطراف كأسنة الرماح. فلما بلغا إليه قال بربروس: خذ حذرک ومل إلى يسارك لأن الجب إلى يمينك.. ماذا.. إننى أشم رائحة دخان.. عليك بمقبض سيفك لأن في المغارة رجالا. انتظر هنا حتى أدعو رجالنا.

قال بربروس هذا وانقلب راجعا وظل بنطاؤُر ينصت إلى الجهة التى لاح له أن الدخان مندفع منها بتيار الريح، ثم أمعن النظر فلمح نوراً وسمع أنينا وتبادل سباب، فدنا من مصدر الصوت ومنبعث الضوء متكئاً بيسراه على الصخور وقابضاً بيمناه على السيف وناظرا إلى الضوء. وكان والد وردة قد عاد في هذه الأثناء فسار الاثنان حتى بلغا إلى باب المغارة الذى كانت أشعة النور تنبعث من شقوقه، فاستند إليه وقال بنطاؤُر للجندى: إن القوم من المصريين وهأنذا اسمع حديثهم. قال والد وردة: فال حسن ولعل الموجودين هنا بعاكر وفريق من أعوانه.

ولاريب أننا إذا طرقتنا الباب أربع طرقات شديدة وثلاثا خفيفة فتحوه لنا لأن هذه الطرقات رمز التعارف بين الذين خارج المغارة والذين داخلها، وهل تفهم ما يقولون؟ قال بنطاؤر: أسمع صوت رجل يلتمس إطلاق سراحه وفك قيوده وآخر يظهر من سياق حديثه عن الأول أنه خائن غادر، وطرق أذنى بعد ذلك صوت خشن يرفض هذا اللتمس ويطلب من صاحبه أن يقيم على طاعة مولاه. فلما سمع صاحب اللتماس هذا الجواب شكاً وبكى واستحلف رفيقه بروح والده أن يطلقه من قيوده. ويلوح لى من شكله وقوله أن اليأس قد استحوذ عليه.. إن قلبى ليرفق بحال هذا الرجل، فأطرق الباب يابربروس فقد حان وقت إنقاذه من هذا العذاب الأليم.. أطرق! اطرق! لا تخف! فأطاع بربروس الأمر وطرق سبع طرقات أربعاً شديدة وثلاثاً خفيفة، فسمع من داخل المغارة صوتاً رددت صداه أركانها ثم فتح الباب رجل صلصل بصوته سائلاً: أنتى بعاكر. قال بربروس: كلا، بل أنا (رشتا) ألا تعرفنى يا (نوبى). فلما سمعه الرجل وهو أحد عبيد بعاكر الأحباش تراجع إلى الخلف وقال: من جاء بك إلى هنا وأنتى على قيد الحياة.. قال رشتا أو بربروس وأشار إلى بنطاؤر : يجاوبك مولاي هذا عن سؤالك.

فتقدم بنطاؤر نحو الحبشى ووقف إزاءه فى موقف تجلت فيه هيئته وبيانت طلعت بأشعة الضوء المنبعث من نار مشتعلة بالمغارة، فحدق فيه نوبى النظر ثم سقط على الأرض كالمصروع وأخذ يهرّ كالكلب يؤدبه صاحبه ويتمرغ كمن أصابه مس ويقول: هذا خيال الموهار! هذه روحه قد تجلت لى فى شبح ! لعله أراد ذلك! لعله أراد ذلك! فلما رأى بنطاؤر منه هذه الفعال وسمع هذه الأقوال أخذة العجب، وزاده عجباً أن رأى رجلاً مكبلاً يحبو متعثراً وينظر إليه مسترحماً ويقول: أنقذنى الهلاك يا روح الموهار يا أبت! أنقذنى إحساناً منك ورحمة! قال بنطاؤر بعد أن تأمل فيه:

لست روحاً لأحد الموتى حلت في جسد ليكون بها كما كان بين الكائنات.. عجباً! إنى أعرفك! ألسنت حورس أخا بعاكر؟ ألم تتلق العلوم معى في بيت سیتی؟..

ارتعدت فرائص الأسير المصنف بالحديد وشخص في بنطاؤور وقال: كن كيف شئت فأنت أشبه الناس بوالدى وصوتك كصوته، فحق عليك إذن أن تحل قیدی وتطلق سراحى. أنقذنى! أنقذنى من هذا الذل الشائن والعذاب المهين! أنقذنى! فقد أبرم الخائنون الحيل للفتك برعمسيس وما نحن جميعاً إلا حزبه وأنصاره. فما قرعت هذه الألفاظ سمع بنطاؤور حتى جرد سيفه ففرى به الجلود التى شدَّ بها وثاق الأسير وفك الأغلال، فوقف الرجل وصاح صيحة السرور بالخلاص وشكر للآلهة إسعافهم وإمدادهم وأثنى على مخلصه ثم قال: إن تكن محباً لمصر صادق الولاء للملك فاتبعنى، فقد أن أوان كشف المكيدة المدبرة للملك والضرب على أيدي مدبريها بما يكون عبرة لهم وأمثلة للأعقاب. قال بربروس: ان الليل الآن حالك الظلمة والطريق الموصل إلى الوادى محفوف بالأخطار. قال الرجل: الاستهانة بالاهوال واحتقار المصاعب واجبان الآن، فاقترفوا إذن أثرى ولو لقينا الحتوف. ثم استولى على سيف الشاعر وخرج. أيقن الحبشى عندئذ أن الشاعر لم يكن روح الموهار تقمصت في جسد أحد الأبرار، وتذكر أنه الكاهن الذى كان يدافع عن وردة وجدها دفاع الأبطال فحاول الفرار مقتفياً أثر حورس شقيق بعاكر فجذبه حورس من ناصيته، فصاح لشدة الألم وقال: إذا طلبت لنفسك النجاة وتركتنى وحيداً هنا فلا خلاص لى من بعاكر. فدفعه حورس إلى باطن المغارة واغلق عليه الباب وقال: انتظر في هذا المكان فليس لمثلك أمان.

سار بنطاؤور وحورس وربروس حتى بلغوا إلى الصخرة وانسابوا في النفق

وسارورا فيه حبوا تارة وصعوداً وهبوطاً تارة أخرى. وما زالوا كذلك حتى نفذوا إلى الجهة الأخرى. وكان البرد قارساً فأثر زمهريره في وجوههم كما لو كانت تلهبها السياط. فقال حورس: أرى السحب تنقشع انقشاعاً يدل على قرب انقضاء العاصفة فامتط يا بنطاؤر صهوة جوادك ولا تُضع دقيقة من وقتك. فأمر الشاعر والد وردة بمرافقة الجند فاعترض هذا بقوله: إنهم ومطايهم قد أنهكهم التعب فضلاً عن أن السير في الليل الدامس يعرض السارى إلى الأخطار والمخاوف ولا يقطع به إلا شوطاً قصيراً من البيداء، والصواب عندي أن ندع الجياد تأخذ نصيبها من الراحة وتستجمع من قوتها ما تستعين به على استئناف السير والجد فيه. ولا يخفى أن القمر سيطلع علينا بعد ساعة ويملأ الأفاق نورا. فإذا استرشدنا به في سيرنا أمنا العثار وتجنبنا الأخطار وأطلقنا الأعنة للجياد. قال حورس: الصواب ما رأيت أيها الجندي، ثم أخذ بيده ذاهباً إلى مغارة أخرى احتوت كثيراً من الشعير والبلح وقرب النبيذ العتيق، فبعد أن أخذ بربروس من ذلك ما طاب له ولجنده أشعل وإياهم النار ثم تولوا العناية بالخيول ثم بتسخين الماء بينما كان حورس وبنطاؤر يسيران سهلاً، وقد بدت عليهما علامات الجزع. وكان بنطاؤر يسأل حورس: أكنت موثوقاً الأكتاف قبل وصولنا بزمن طويل؟ أجاب: فعل بي بعاكر أخى ما رأيت منذ أمس. ولقد نجا مما كان لا بد أن يحل به من النكال لولا تعجيله بالانصراف، ولعله يقصد إلى الخيتاس لينضم إليهم قبل وصولنا إلى معسكر الملك فتحسر الفرصة ونضيع النهزة. قال بنطاؤر: يؤخذ من قولك أن بعاكر يدبر المكائد للملك. قال حورس: نعم.. فقد دبر له حيلة تخجل الوقح لشناعتها وتعافها النفس لبشاعتها. فدنا بنطاؤر من حورس وكان اعتمد رأسه بكفيه وسأله: ثق بصداقتي واعتمد على أمانتي وقل لي كيف أصبح شقيقك عدواً لك. أجاب: بعاكر هو أخى الأكبر، فبعد أن

تخرجت من بيت سیتی بزمن توفی والدی وكان آخر كلامه لی وصيته إیای بالامتثال لامره واعتباری إیاه رئيساً للأسرة من بعده، غیر انی أنست من هذا الأخ البکر - بل الأب الجدید - ميلاً إلى القسوة واستبداداً فی الرأى وشدة فی المعاملة، فغالبت ضمیری فی احتمال تلك الرذائل منه وأطعت أوامره احتراماً لإرادة أبی واتماماً لمقاصده الشریفة ، ولبثت هكذا حولین کاملین عدت من بعدهما إلى طيبة وفيها تزوجت ورزقت أطفالاً لا يزالو فی حضانة أمهم، عند والدتی . وقد مرّ بی إلى الآن ستة عشر هلالاً وأنا ببلاد الشام وأجوب الصحراء وأفرى مع بعاكر القفار. وكان مازال على سابق عهده من جفاء الطبع وغلظة الكبد وحب الرياسة، فقابلته بشهامة الرجال وهمة الأبطال لأننی أصبحت بعد الزواج غیرى قبله، إذ تعلمت به كيف أصون كرامتی واحتفظ بمرکزى وأعمل لتعزیز جانبی. واتفق خلال ذلك أن سافر أخی إلى مصر ثم عاد منها منذ ثمانية أسابيع، ضارباً بأوفى سهم فی سوء الخلق وخشونة الطبع. وقد قدم للعبات الملكية جملة تقارير وقدمت أنا غيرها فحازت تقاريرى من لدن الملك الرضى والاستحسان فنغرت فی قلبه قروح الحسد فعاد إلى مناقشتى ومخاصمتى ومعاملتى بصنوف التعذیب والأذى، فتذرعت بالصبر.. آه ولكنى لا أود أن أبوح بما صبه على من ألوان العذاب، فإنه ليس مما يحيط بوصفه اللسان. ومع أنه وهو فی مصر قد وقعت له حوادث خطيرة الشأن فإنه لا يبوح لأحد بسرها جریاً على عادته فی كتمان أحواله، سارة كانت أم مكدره. ومع هذا فقد استنتجت من كلمات فاه بها لأحد الأجانب أنه حاقده على مینا وناقم على الملك فأنبهته إلى مواقع الزلل ومواطن الخطر فیما یروم أن یسلکه من هذا الطريق، ثم لم أكرر علیه التنبيه لما ألفتة من غضبه وسرعة انتقامه. وإذ كانت الهمم فی المعسكر منصرفه منذ أيام إلى إعداد المعدات لواقعة یكون بها فصل الخطاب بین

المصريين والختياس، فقد كلفنى الملك بمهمة خطيرة وهى تحرير تقرير ببيان الحالة فى مواقع العدو فبادرت بالاستطلاع وبنثت العيون والأرصاد حتى إذا توافرت عندى الأخبار حررت بها فى صبيحة أمس التقرير المطلوب وما كدت أشرف على ختامه حتى أقبل بعاكر نحوى وطلب منى أن أسلمه إياه قائلاً: إنه هو الذى أخذ على عهدته أن يقدمه إلى الملك فرفضت معتذراً بأن الملك هو الذى تفضل فعهد إلى أداء هذا العمل وأنه لا يليق أن يكون تقديمه على يد غير يدي، فاحتمد غيظاً واتهمنى بأنى اغتنتم فرصة غيابه فعملت بحيلتى للتقرب من الملك حتى فزت برضائه ودونه، ولهذا كلفنى بتحرير التقرير مع أنه كان ينبغى أن يعهد إليه هذا العمل. ثم حتم علىّ بعد أن أقسم باسم والدنا الطاعة لأمره وعدم معارضتى له فى فعله وخرج متخبطاً كالمجنون. وبينما كان الخدم يسرجون الخيل رأيت منهم عبداً أسود وضع على متن جواد بعض المتاع وأشياء أخر منها ملفات من الورق فهرولت نحوه ظناً منى أنها التقرير الذى حررتة.. ولكن ماذا وجدت؟ وجدت تقريراً ملفقاً بقلم بعاكر قرأت فيه أن الوادى الأكبر المؤدى إلى نهر العاصى (الأوزنت) فى الشمال الشرقى من بلدة قادش لا أثر فيه للعدو وأنه ممهد يسهل على المركبات سلوكه، مع أنى فى أثناء الاستطلاع رأيت ذلك الوادى غاصاً بالأعداء ودونت هذا الخبر فى تقريرى الذى اغتصبه أخى منى وقرأت أموراً أخر إذا اعتقد الملك بصحتها وأخذ بها كأنها قضية مسلمة كانت له كالشباك الممدود أو الفخ المنسوب. فلما أيقنت المكيدة بحثت فى كنانة بعاكر فرأيت بها سهاماً كتب عليها «فليهلك مينا» ثم رأيت ملفاً صغيراً من ورق البردى ففتحتة، فجمد دمي فى عروقى حين قرأت فى عنوانه ما يأتى «إلى ملك الختياس.. إلى تيتور رئيس ضباطه». وكان هذا الملف والملف الأول فى يدي حين أقبل بعاكر، فلم أتمالك حينما أبصرت به أن قلت: ويك من خائن أثيم!

فلم يعر لهذا القول أذنا بل ألقى حول عنقي حبلا بطرفه أخية وهو يتخذه لضبط الخيل الجامحة في المرعى فضغطت الأخية على رقبتى وكتمت أنفاسى حتى كدت أختنق ثم أرخى الحبل وجذبني إليه من ناصيتى وشرع يشد وثاقى بمساعدة عبده الأسود. وحملنى هذا العبد إلى داخل المغارة ووقف على حراستى، بينما كان يعاكر يرخى العنان لجياده قاصداً معسكر العدو. هذه خلاصة ما اتفق لى مع هذا الخائن، ومنها ترى أن لى حقا فى طلب التعجيل بالسفر، وها قد تلالأت الكواكب وبدأ القمر يعلو على الأفق.

قال بنطاؤور بصوت جهورى: هلموا إلى الرحيل وأحضروا ثلاثة من كرام الخيل لحورس وبربروس ولى، ولا يرافقنا أحد منكم بل لا بد لكم من البقاء هنا حتى نعود. وكان القمر يتخلل السحب فاستوى الثلاثة على جيادهم وانطلقوا مسرعين فلما وصلوا بعد ساعة إلى السهل عادت بهم الجياد قاصدة بحيرة قادش التى كانت تبرىق فى الأفق كمرآة من الصلب مصقولة تنعكس على سطحها أشعة الشمس المشرقة، ولم يمض زمن حتى بلغوا الضفة الغربية من تلك البحيرة، وكانت أرضها جرداء لا نبت بها فلمحوا من بعيد غبارا متصاعدا كان ينجل بين أن وآخر عن أشباح متلاحمة ورماح متشابكة وسيوف متشاجرة، فأكب حورس بنفسه على جيد جواده باكيا مصعدا الزفرات قائلا: الواقعة! الواقعة! قال بنطاؤور: نحن لم نخسرها. ثم أطلق لجواده العنان وتبعه رفيقاه فسقط جواد رشتا والد وردة من تحته لكثرة الإعياء والإجهاد وتلاه جواد حورس الذى قال: ربما جاءت السلامة من ناحية الجناح الأيسر.. إننى عالم بأسرار المكان فلا بد من الوصول إليه ركضا على الأقدام. أما أنت يا بنطاؤور فذهابك إلى الملك ميسور إذا سرت على ضفة النهر قرب الجسر المدعم بالأحجار، لأن مهاجمة الجناح الذى ستناط به مفاجأة الجيش لا تكون إلا

من الوادى المجاور للنهر على مسافة ألف خطوة من الشمال، فانطلق إذن واجتهد أن تقابل رعمسيس لتطلعته على جلية الأمر. وإذا سألك عن كلمة السر فقل (بنت أنات) وهو اسم كريمته العزيزة.. عجل بالذهاب واطلب لقاءه وإلا دهمه الألوف من الأعداء أما أنا فسأعمل للانضمام إلى الجناح الأيسر والحملة على مؤخرة العدو. فأطلق بنطاؤر العنان لجواده ولكنه لم يلبث أن أجهدته التعب وسقط من تحته فعدا على قدميه عدواً سريعاً وجرى كهبوب الريح مكرراً لفظتى (بنت أنات). وكان كلما طرق هذا الاسم مسمعه تجددت فيه قوة تعاونه على احتمال مشاق الركض وظل كذلك حتى التقى بأحد فرسان العدو فصرعه بطعنة رمح، ثم استوى على ظهر جواده مكانه، وأرخى له العنان مندفعاً إلى ميدان القتال ، بهمة من يطمح إلى الاقتران بغادة كريمة من الحسان.

الفصل الثالث عشر

ليلة تقلد السلاح.. والاستعداد للكفاح

كانت ليلة المعركة من الليالي المشهودة في معسكر الملك، إذ كنت ترى الجنود في حركة دائمة، وهمتهم في إعداد معدات القتال قائمة، وعيونهم للتبكير قبل بزوغ الشمس غير نائمة، عملاً بالإرادة الملكية وتحقيقاً للمقاصد الوطنية. وكانت تبدو على وجه كل جندي أمارات الشوق إلى النزال لإحراز فخر الانتصار والعودة من حومة الوغى مكلاً بالغار. وكان بعاكر قدّم لمولاه الملك تقريره عن مواقع العدو، فعقد المجلس الحربى للنظر فيها، فأقر على أن تكون خطة الهجوم كما يأتى: تزحف فرقة (رع) جنوباً حتى تبلغ إلى ما يلي بحيرة (شباطوم) كى تقاچىء جناح العدو وتنكل به. وتسير فرقة (سب) المؤلفة من جنود الوجه البحرى فى القلب من ناحية (أنام). ويزحف الملك بمركباته وصفوة الأبطال من جنده فى الوادى الذى أشار بعاكر إليه فى تقريره حتى يصل إلى نهر (أوزنت) فيعبه خوضاً بجنوده ثم يبرحه ليستولى على قلعة قادش. أما فرقة أمون فى الجناح الآخر فتسير مع الجنود الحبشان فى طريق ذكر الموهار أنه سهل وهو لم يكن كذلك فى الحقيقة وتقرر أن تبقى فرقة (فتاح) على أهبة نجدة الجناح الأيسر وإمداده عند الحاجة.

لم تكتحل جفون الجند بنوم، بل قضوا ليلهم فى إعداد معدات الكفاح. وكانت ثلة من الجنود المدججين بالسلاح يحرسون أبواب المعسكر وفى يد كل منهم درقة مستطيلة وسيف قصير عريض محدد الطرف، وعلى مقربة منهم نيران مشتعلة ينبعث منها ضوء أحمر اللون. وكان الجنود الآخرون مجتمعين داخل المعسكر على

هيئة حلقات لتعاطى النبيذ أو إنضاج اللحوم أو لعب الميسر على الغنائم المأمول أخذها، وكثيراً ما أفضت هذه اللعبة المسماة (مورا) باللاعبين إلى أخذهم بتلابيب بعضهم البعض. وكان يشتغل الحدادون في جوارهم بوضع الحدوات في حوافر الخيل، والسنانون بإرهاف الأسلحة لتكون بئارة لرقاب الأعداء، وخدم الضباط بتهيئة المركبات وحمل أجزائها على الحمير لنقلها في مضائق الجبال ومنعرجات الصخور والأوعار. وكان الكهان شرقي المعسكر في أشغال شتى حول ظلة نصبوها هنالك، إذ كان فريق منهم يترنمون بالأناشيد الدينية والفريق الآخر يقدمون القرابين ويباركون في الضباط وعليهم. وكان يصم الأذان في غضون ذلك صراخ اللاعبين وسباب السكارى وصهيل الخيل ونهيق الحمير، ويحول دون الوقوف على معانى أغاني المنشدين، غير أن هذه الجلبة كانت لا تلبث أن تتحول إلى سكون عام فيحل محلها- بين حين وآخر- زئير الأسود المستأنسة التي ستحف بمركبة الملك في معمعة القتال حتى لا يجسر على الدنو منها إلا من حقت عليهم كلمة الهلاك. وقد تعمد المكلفون بخدمتها عدم تقديم الغذاء لها منذ اليوم الماضى ليستفزها السغب إلى الثورة والغضب ويزداد منها على الأعداء العطب.

وكانت صواوين الملك مضروبة وسط المعسكر، تحيط بها خيام الحراس والضباط أصحاب المركبات. أما الجيوش التي حُشدت من غير المصريين فكانت مصطفة خطوطاً متوازية يراس رجالها جنود من المصريين، فكانت ترى الحبشان بشعورهم المتجعدة وهناك أبناء الرمال الذين تواردوا من الصحراء، يلفتون الأنظار بقوامهم المعتدل ويميدون يمناً ويسرة راقصين كعاداتهم عند نشوب الحرب ويخطرون بسيوفهم ورماحهم، وعلى مقربة منهم الجنود الصقليون صفر الوجوه بخوذاتهم المعدنية وسيوفهم الكبيرة والليبيون بألوانهم الواضحة

وأذرعته الموشومة ورؤوسهم المزينة بريش النعام، والعرب سمر الوجوه بلحاهم الجميلة المحددة الأطراف وقد وقفوا إلى جانب جيادهم يسانونها بمس جيدها لاهجين بالأدعية للكواكب أن تدمهم بالانتصار وتتوجهم بتاج العز والفخار، إلى غير هؤلاء وأولئك من القبائل التي لا حصر لأسمائها، وقد تقلدوا جميعاً السيوف وملأوا كناناتهم بالسهم ليرشقوا بها الأعداء اللثام ويوردوهم موارد الحتوف. ويرأسهم على اختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم وتنوع ملايسهم الملك رعمسيس، فكانما هو سائق جياد يسوسها بعنان واحد.

وكان بوسط الصواوين الملكية هيكل صغير غير سميك الجدران رُفعت فيه تماثيل آلهة طيبة وصور أجداد الملك، وكان دخان البخور يصعد منه إلى طبقات الجو فتبدده الرياح كما تبدد السحب الكثيفة وتنتشر رائحته الساطعة في أركان الفضاء، وكان الكهان يقدمون فيه القرابين لأمون رب الأرباب، و(نیشب) إلهة الجنوب التي بيدها الفوز تؤتية من تشاء، و(منث) إله الحرب.

وكان إلى جانب الصيوان المعد لنوم الملك المكان الخاص بحارس الأسود، وأقيمت تجاه صيوان عقد الجلسات أعلام كثيرة. وكان السكون بهذه الناحية من المعسكر سائداً بخلافه في النواحي الأخرى منه حيث كانت جلبة الجند وغيرهم ولاسيما في الخيام المعدة لادخار المأكولات والأنبذة وتحضير الأطعمة ترتفع إلى عنان السماء. وكان بين هذه الخيام خيمة منصوبة على مستطيل كبير من الأرض مدت فيه الموائد وعُلقت بداخلها وخارجها مصابيح الزجاج الملون ووقف حولها الجنود الصقليون والليبيون والمصريون وقد شهروا السيوف، يرون ما يمر أمامهم من الحوادث دون أن يبدوا إشارة أو ينبسوا بكلمة ويقفون أنظارهم على الأواني

الذهبية يتصاعد منها بخار الطعام والقناني البلورية تشبه العقيق لونا وتلالؤا بما شملته من الشمول، ويطوف بها حول المائدة الملكية ولدان من أبناء الأشراف والأسر الكريمة في الهيئة المصرية. وكان هذا الصيوان موضوعا بحيث يستطيع الخدم عند الانتقال والارتحال أن يفكوا أجزاءه في وقت قصير، ثم يركّبونها كذلك. وكانت جدرانه قطعاً من قماش لين كثيف لا ينفذ منه الماء تُسج بمدينة منفيس وطلته بالألوان الجميلة والنقوش العجيبة في بلده طانيس أيدى أمهر العمال الفينيقين. وكان في أجزائه جزء نسجه عمال (صائيس) ورسموا فيه بأسلاك الفضة صورة نسر الانتصار الذي يمثل الإلهة نيشب مكررة مائة مرة. أما الأعمدة فكانت من خشب شجرة الأرز المرصع بالذهب الخالص والنضار المصفى تمسكها أطناب فُتلت بخيوط الحرير وأسلاك الفضة.

مُدّت بداخل هذا الصيوان أربع موائد جلس إليها مائة مدعو وقد خُصص ثلاث منها لقواد الجيش ورؤساء الدين وأكابر الكهان والمستشارين، والرابعة للأمرء من الأسرة المالكة. إلا أن رعمسيس لم يكن يجلس بينهم إذ جلس إلى مائدته الخاصة التى مُدّت في مكان مرتفع يصعد إليه بدرج مفروشة بجلود النمر والفهود ليشرّف منه في أثناء الطعام على جميع الأكلين فتزداد هيئته وشوخته استقراراً في نفوسهم.

وكان رعمسيس جميل الصورة متين الأركان مرتفع القامة معتدل القوام مرسل اللحية إلى الصدر مكلل الهامة بأكليل الوجهين القبلى والبحرى، في عنقه عقد عريض سلّكت فيه الأحجار الكريمة، وعلى كتفه وشاح ساتر لبعض جسمه، أما الذراعان فكانتا تكاد تخفيهما دمالج الذهب النقى لكثرتها. وكانت أعضاؤه المتينة وعضلاته البارزة وبشرته الصقيلة اللامعة النحاسية اللون تنم عن حقيقة نفسه

وأنة خُلِقَ للنهى والأمر وللحرب والفوز. وكان في مجلسه الذى وصفناه يرمق أبناءه بعين الاغتباط والفخر ويحوطهم بمظاهر العطف والرفق. إلا أنه كان مع ذلك أشبه بالليث، مهما يخلد إلى السكون ويلتزم الراحة تصحبه القوة والشوكة والقدرة على قهر المصاعب. ولئن قطعت يده الخبز في لين ورفق فإنها سرعان ما يشتد وقعها ويقسو ضربها إذا أمسكت بمقبض السيف وأطارت به المثات من هامات الأعداء.

كانت أحوال هذا الرجل العظيم وتصرفاته فعلا وقولا تشف عن أخلاق فاضلة وصفات تنطق بعبقريته وتسمو به على النظراء. ومع ما خصه الله من هذه الفضائل التى قلما اجتمعت في أحد إلا أن كان نادرة زمانه ونسيج وحده، فإن ناظره أو محدثه كان لا يرى منه إلا الدعة والدمائة والرفق في سمت وهمة وعزة، ولا يلبث أن يأنس من باسمة ثغره ما يملأ بالطمأنينة قلبه. وإذا كان العدو ترهبه صلبصلة صوته التى تشبه الرعد القاصف في حومة الوغى، فإن محدثه لايسعه إلا أن يعجب بعذوبة لفظه وسلاسة خلقه إذا خاطبه ملتماً إقناعه بصحة ما يريد إقامة الدليل عليه. وكل هذا عائد إلى المبادئ الصحيحة التى شب عليها منذ نعومة الأظفار فجعلته ملكاً يُخشى بأسه في سويغات الأمر والنهى وحليماً يُرجى خيره في أوقات الراحة من عناء الحكم.

وكان يقف من خلفه ساعتئذ شاب شديد العضلات في ضمور، معتدل القوام في اطمئنان حسن الشارة من غير تعمل، يقدم إلى فرعون كأس شراب بعد أن يشرب هو منها قليلاً فكان كلما أفرغها رعمسيس في جوفه ملاًها ثانياً وقدمها إليه بعد أن يكرر ذلك الفعل. هذا الشاب هو مينا زوج نيفرت وأقرب المقربين إلى الملك. وكان الناظر إليه يستشف من ملامحه عزة النفس وكرم المحتد. وهو وإن لم يكن ممن

يُعتمد على آرائهم في المجالس العالية أو يُركن إليهم فيما يستدعى شدة العارضة وثقافة الفكر وبعد النظر في المصائر، إلا أنه كان على إرث كبير من الرقة وصفاء الطبع وصدق الولاء في المخالطة. أما (شاموس) بكر أبناء رعمسيس - وهو الذى رقى في الكهنوت إلى مرتبة كاهن أعظم لمدينة منفيس - فكان أقرب موضعاً في المادية إلى أبيه ويتلوه أخوه (منفتاح) ثم صاحبنا (راميرى) ذو الشعر المرسل الذى كان العدو أسره فأنقذه من الأسر بعض الجند الذين يدينون بعهيدة الولاء للأسرة الملكية. وكان رعمسيس يحدث ابنه راميرى في موضوع المؤامرة التى كان نقل إليه خبرها وقال: إن ما نقلته إلى من أخبار مصر لموجب لشديد القلق وداع إلى الخوف من سوء العاقبة. ولست أشك هنيهة في صحة التهمة التى وجهتها إلى المتأمرين، غير أنى ما زلت أجنح إلى الاعتقاد بأن إفراطك في محبتى وغلوك في الولاء لى قد حدا بك عن نهج الصواب وصرفاك عن مشاهدة الحقيقة المحسوسة. ومن ثم عراك الخوف من سوء مغبة ما وقع فى وهمك. وإذا أضيف ما رويته لى من ذلك إلى الرسالة التى وردت من بنت أنات والتقارير الذى حرره مباشر خيل مينا والإخطارات السرية التى تواردت على تباعا من مصر، فإن قلبى مع خطورة ذلك كله لن يرتاع بسوء مغبته، لأنه وان يكن أنى يتمنى من صميم الفؤاد التربع فى هذا العرش لإيهام السذج بعزته وعلو مكانته إلا أنى أعتقد أنه يقنع بأى نصيب أمنحه إياه عند عودتى، بل يرضى بلا شىء. فلتطمئن إذن خواطركم، فالرجل ليس من ذوى الصبر والجلد فى جسام الأمور وخطير الأعمال. وقد حبيب عجزه هذا إلى اعتقادى غباوته وضيق عقله وقصر نظره وأنه لن ينفذ ما يبتكره أو يبتكره له غيره. فقال شاموس وقد أحنى رأسه أمام والده احتراماً له: ومع هذا فقد استطاع أمينى أن يذكى فى قلبه نار المطامح فأصبح مما يصح الجهر به أن الكاهن الأعظم هو رأس الفتنة وأنى ساعدها، وهو رجل

عُرف بالذكاء وقوة الإرادة، إذا قال فعل وأجاد الفعل وأحسن التدبير بحيث يخضع لأمره نصف الكهنة في الديار المصرية.

قال فرعون: إنى عالم بذلك وعالم أيضاً أن أكابر الأمة وسراتها مازالوا ناقمين علىّ لأنى سقت عبيدهم وفلاحهم إلى ميدان القتال، ومع هذا فلم يأت هؤلاء العبيد بفائدة لأنهم جبناء تقشعر أبدانهم متى احتدمت المعركة. وقد عولت على تخصيصهم منذ الغد بحراسة المعسكر ولعلمهم يفلحون في أداء هذه المهمة السهلة. وإذا نحن حملنا على قادش ودخلناها عنوة فلسوف نغنم منها التحف الكثيرة والخيرات الوفيرة التى سيؤول أوفى نصيب منها إلى هياكل وادى النيل. فعليك يا شاموس أن تبلغ إلى زملائك كهان هيكلمنفس أن والدك سيضعف لهم ما كان أخذه منهم. قال شاموس: إن لتذمر أمنيى وتحيزه لأنى وممالاته إياه في تدبير المكائد ضد الملك أسباباً أخر أولى بالالتفات، ويكفى مولاي الوالد هذا الإلماع فإن فكره.. قاطعه رعمسيس: إن سراة الأمة وكبراءها اعتادوا إرشاد الملوك والأخذ بزمامهم في القيام بشؤون الرعية ولكنى أضرب بنصائحهم ومشوراتهم عرض الحائط لأنى النائب وحدى في إدارة تلك الشؤون عن ملك الآلهة ورب الأرباب.. نعم لست أزعم أنى إله وإن يكن يقام لى من المراسم ما يشبه أن يكون مراسم الآلهة، ولكنى أدع للكهان القيام بما هو اختصاصهم المألوف، وهو الوساطة بين الآلهة وبينى وأمتى فيما يرتبط بالأمور الدينية، أما الأمور الدنيوية فمازلت قابضاً بيدي على زمامها، إذ لى وحدى الحق الصريح في القيام بها. ولنترك البحث في هذا الموضوع لأن من الخصال التى فُطرت عليها اجتناب الظن في الأصدقاء والثقة بالغير ولو أدى ذلك إلى ما لا تحمد عقباه .

قال هذا وأشار إلى مينا فأقبل عليه بالكأس الذهبية فتجرع ما فيها من الشراب
عباً، ثم حدق في الحاضرين بعين الليث وقال بصوت جهورى متهدج: إذا كانت
صفوة القوم الذين وضعت في أيديهم زمام مملكتى ليسلكوا بها سبيل الرشاد في
غيابى كأمينى وأنى يريدون إيقاعى في شرك الحيل السافلة والتدابير السخيفة،
فسيكون عهدى بالعودة إلى مصر وشيكا. ووقتئذ لا يكبر على وطء تلك الأفاعى
بقدمى وهى تدب في رمال استتباط الحيل والتدابير. وكان لصوت رعمسيس وهو
يفوه بهذه الكلمات دوى تردده أركان المكان حتى جمد السامعون في أماكنهم
لاينبسون بكلمة ولا تبدو منهم حركة. ولكنه بعد إذ سكت هنيهة رفع رأسه وقال
بصوت تختلجه نبرات السرور والعطف: أصدقائى وخلصائى! لتطمئن أفئدتكم
وليهدأ جأشكم قبل أن يشب ضرام القتال. فغير خاف عليكم أننا قمنا بفعال توجب
المجد والفخر وأن شعوب الأرض كلها - حتى القاصية منها- قد أحست شدة
بطشنا ونفوذ سلطاننا وأننا شدنا على ضفاف الأنهر أثاراً ببيان ما فتحناه من
الأمصار، ونقشنا في الصخور الصلدة ما يخلد ذكرى شهامتنا في صدور الذريات
والاعقاب. ما ذلك إلا لأن مليككم وصاحب السيادة عليكم وأعظم الملوك شوكة، ما
عظمة ملكه وبسطة نفوذه إلا من فضل الآلهة وفضلكم أيها الإخوان الأعزاء.
ولاريب في أن واقعة الغد ستضيف إلى فخاركم فخراً جديداً وإلى مجدكم مجداً
مستأنفاً، فادعوا إلى الآلهة أن توفقكم فيها للفوز وأن تمنحكم الغلبة على العدو إلى
أن تضع الحرب أوزارها ويدنو موعد الأوبة إلى الوطن العزيز. ارفعوا جميعاً
كؤوسكم واشربوا معى في نخب الانتصار وسرعة العودة إلى الديار.

فصاح الجميع بصوت واحد: لك الإقبال والنصر! لك العزة والفخر! لك الصحة
والعافية! لك الرفعة والمجد! فنزل رعمسيس من علوة عرشه ثم سار بين ضيوفه

قائلاً: عليكم بالراحة حتى يختفى كوكب ايزيس ، فإذا ظفرت منها بما يجدد فيكم النشاط ويستفز الهمم فاتبعوني إلى هيكل آمون ومنه إلى ميدان القتال. فما أتم رعمسيس هذه الكلمات حتى انطلقت الألسنة بالدعاء للملك بالفوز والنصر وعلوّ القدر وبقاء الذكر. وكان في خلال ذلك يخاطب ولديه منفتح وراميرى بعبارات التشجيع ثم أمرهما باتباعه. فبرح الثلاثة صيوان المادبة يتقدمهم الحرس يحملون بأيديهم قضباناً نيط بأعلاها ريش النعام وزهور الزنبق المموهة بالزرياب واقتفى مينا أثرهم وظلوا سائرين حتى وصلوا إلى الصيوان الملكي المعدّ للنوم، فأمر رعمسيس قبل الدخول فيه بإحضار اللحوم النيئة، فلما أحضرت قدمها بيده إلى أسوده الذين كانوا يطوفون به ويتملقونه ويستجدونه نظرة عطف. ثم دخل اسطبل الأفراس الكريمة فتفقدتها واختار منها اثنتين لجرّ مركبته في الغداة إلى ميدان القتال، واسماهما (نوره) و (نصره طيبة). ثم عاد إلى صيوان النوم فأشار على ندمائه وصحبه بالانصراف وأمر مينا بتجريده من السلاح والعقود والدمالج، فلما انتهت هذه المهمة دعا بولديه وكانا بباب الصيوان مضطربى خاطر شديدى القلق، فقال بصوت مرتفع: أتعلمان لمّ أمرتكما بإقتفاء أثرى؟ فلزما الصمت فكر السؤل، فأجاب راميرى: لعل مولانا الوالد استشعر ما بينى وشقيقى من الشقاق. قال الملك: نعم هذا ما استشعرته وبعينى شاهدته. وإنى لراغب فى أن يسود الوثام بين أبنائى جميعاً وكفاكم فى الغداة ما ستمتلء به صدوركم من المقت والبغض للأعداء، ثم اعلموا أن الأصدقاء الصادقين أصبحوا ولا وجود لهم فى هذه الأيام، مع أنهم أول من ينبغى أن يلاقوا النكال فى حومة القتال، فإذا كان من حظ أحدنا أن يصرعه الأعداء فأولى به أن يذهب فى خير وسلام وأن يمحو من قلبه أثر الضغينة والبغضاء.. قل لى يا راميرى ما سبب النزاع بينك وأخيك؟.. أجاب الأمير: أبت! لست

أكمن له حقدا ولا أريد به سوءا. وخالصة الأمر أنك جزيتنى على ما أظهرته من الشهامة في منازلة الخيتاس بسيفى هذا الذى تراه معلقاً بنجاد أخى منفتاح. والمألوف أننا ننام معا في صيوان واحد، فلما كانت صبيحة أمس جردت سيفى من غمده لأغبط بحسن صنعه ومضاء حده فتولانى الدهش إذ رأيت أنه ليس السيف الذى وهبتنى إياه، وأيقنت أن منفتاح أخذه وبدّله بغيره. قال منفتاح: ما فعلت هذا إلا من باب الممازحة والتطايب، ولكنى علمت فيما بعد أنه يكره المزاح وقد قرصنى بواحدة من قوارص كلماته حيث قال إنه لمتنازل عن سيفه لى كى أتحل بمكافأة لم أنلها بفضلى وأن فى وسعه القيام من جليل الفعال بما يستحق عليه المكافأة بسيف آخر. قال الملك: كفى.. كفى! لقد وقفت على سر الخلاف وسبب قلة الائتلاف. وحكمت عليكما بأنكما وقعتما معاً فى الغلط وركبتما متن الشطط. واعلم يا ولدى منفتاح أنه خليك بمثلك اجتناب الغش ولو قصدت به إلى المزح، فقد حدث يوماً أنى كبوت كبوتك بارتكاب ما يشبه هفوتك.. سألتنى والسدى المقدسة (تائى) قبل سفرى إلى بلاد (التنوس) أن أجلب لها فى عودتى منها قطعة من حجر سواحل (بيلوس) التى دفعت لجج البحر إليها جثة أوزريس للتبرك به، فاتفق لسوء حظى ونكد طالعى أن نسيت قضاء ما سألت ولم أنكره إلا عقب عودتى إلى طيبة وكنت وقتئذ فى مقتبل العمر وربيع الشباب، فدفعت بى النزق إلى التقاط حجر من أحجار الطريق قدمته إليها مدعياً أنه ذلك الحجر المقدس والتحفة النادرة التى كلفتنى إحضارها، فسرت سرورا وتهلل وجهها بشراً وحبوراً وأخذت تعرض الحجر على إخوتها وأخواتها إعجاباً وافتخاراً. ثم جعلته فى حرز حريز ووضعتة إلى جانب تماثيل الأجداد، فلما رأيت منها شدة الاهتمام بعرض دنىء لا يستحق العناية وعلمت أننى غششتها وضللتها بما ادعيت كذباً وبهتاتاً دبت فى قلبى عقارب الندم

ووخزنى واخذ السريرة فلم أذق للراحة طعاما، ليلا ولا نهارا، وأبت نفسى أن يكون ذلك الحجر الوضيع محترم المقام على الشأن كأنه علق من الأغلاق النفيسة أو تحفة من التحف النادرة فلم يسعنى إلا أن ألقيت به فى النيل. فلما شعر القوم فى القصر بضياعه قاموا على قدم وساق وفتحوا للتحقيق أبوابا وألقيت الشبهات على الغاشية والحشم والندامى، فحفت أن يضحى أحدهم ويذهب فداء لآخرين، وأن يؤخذ البريء بذنب الجانى فبادرت بالاعتراف وقصصت حقيقة الأمر من رأسه إلى قدمه. وكنت أود أن لو أقع تحت طائلة العقاب، ولكنهم صرفوا النظر عن معاقبتى وتركونى وشأنى فإزداد قلقي واضطرابى واشتدت على نفسى وخزات السريرة وتبكيك الضمير، ولم يذهب عنى البأس إلا بتوالى الأيام وتعاقب الأعوام. غير أن هذه الحادثة أفادتني فائدة ذات قيمة وهى تجنب الكذب ولو فى المزح، فعليك يا منفتحاح بالسير على سنن أبىك وسلوك منهاجه. أما أنت يا راميرى فخذ سيفك ولا تنس أن الحياة سيل ينحدر بالشقاء والألام وأن خير الناس من عود نفسه وهو فى شرح الشباب التجاوز عن الهفوات إلا عاد مكفهر الوجه كاسف البال كبعامر رئيس الطلائع. فهيا يا ولدىّ تصالحا وامحوا الضغائن من قلبيكما.

فدنا الأميران من بعضهما وألقى راميرى بنفسه على أخيه بحركة مصدرها الانبعاث النفسى ثم قبله. فوضع الملك يديه عليهما وقال: هيا اذهبا للاستراحة كى تفوزا غداً بالحمد والثناء. فلما غادر الأميران مجلس أبيهما التفت فرعون إلى مينا وقال له: أود أن أحدثك قبل اندلاع الحرب فى أمر ذى بال. لقد قيل إن العين مرآة القلب وهأنذا أرى فى عينك ما يشير إلى هموم تساور فؤادك منذ حضر من طيبة حارس خيوك، فماذا يا ترى قد دهاك؟ وما الأخبار التى بها وافاك؟ أجاب مينا بصوت ينم عما فى فؤاده من الكدر والحزن: إن حماتى راتوتى أساءت تدبير أموالى

فقد رهنت أطياني وباعت ما كنت أملكه من الخيل. قال الملك: إن لهذا الداء دواء فلا تحزن.. سأعقد عليك من النعم والعطايا السنوية ما يتجاوز مأمولك إن أقمت لى الدليل على أن نيفرت لم تتغير حتى الآن ثققتها بك وانها ما برحت مقيمة على حبك.. ألا يكون القلق الذى ساورك وبدت علاماته على وجهك نتيجة وهم وقع بشأنها فى قلبك؟ ما عهدتك قط شديد الاهتمام بمالك وأرضك.. فإذا كنت بقصرك الكلام عليهما تقصد إلى ستر حقيقة الواقع عنى فإنى أحب منك أن تميظ الستار الذى مددته عليها وأن لا تنكر على شيئاً، واعلم أنى منك بمشابة الوالد من ابنه فكاشفنى بكل ما فى صدرك ولن ينقلب قائد فرسانى المحبوب إلى أهله كاسف البال حزين القلب.. فقبل مينا صولجان الملك وقال : تركت نيفرت والدتها لترافق كريمتمك بنت أنات فى حجها إلى جبل سيناء وبلدة ماجدو. قال رعمسيس : فى التنقل والارتحال تحسين للحال ورجاء للاستقبال، فدع نيفرت تعيش فى كنف بنت أنات فإنه لا أحد يعنى بحمايتها ويحرص عليها مثلها. قال مينا: لا ريب عندى فى هذا، وإنما وقعت قبل رحيلى من طيبة حوادث ليست مما يرتاح إليه خاطر، فإنه لما تكرم مولاى فخطب لى نيفرت من أمها كانت مخطوبة لبعسكر ابن خالتها، وقد اغتتم هذا فرصة غيابى عنها بعد زواجى بها إذ قضت الظروف بذلك الرحيل لقتال الأعداء فأكثر التردد على بيتى والاختلاط بحماتى والتودد إليها حتى لقد نُقل إلى أنه أنعم عليها بمال طائل لتسد به ديون ابنها وقد تذرع بصنوف الحيل والتدابير للتدخل فى شؤون أسرته حتى بلغ من سماجته فى ذلك أن أهدى إلى حليلتى باقة من الزهور وقد رآه حارس جيادى رأى العين . فتبسم الملك ثم أهوى بيده على كتفه وقال: يؤخذ من قولك أنك تطلب من زوجتك الثقة العمياء بك وأن تكون المثل الأعلى عفة ونزاهة مع أنك لم تأنف من إيواء امرأة أجنبية فى صيوانك. وإذا كان هذا عجباً

فأبعث منه على العجب أن تفتح للظن باباً إلى فؤادك لمجرد أن ابن خالة زوجك أهدى إليها باقة من غض الزهر.. ليس من العدل ولا الحق أن يكيل المرء بمكيايلىن أو يزن بميزانين.. والمرجح فى نظرى أن كل ما فى الأمر أن ثارت بنفسك عواصف الغيرة من ذلك الوحش الذى تلاقت فيه صنوف النقائص بل الحجر الثقيل الذى قذفت به الشياطين فى بيت المرحوم الموهار السابق. قال مينا: الحقيقة يا مولاي أن ثقى فى نيفرت لاتزال كما كانت ثقة الرجل النزىه بزوجه الطاهرة النقية الجيب. إلا أن نفسى لا تطيق أن يكون بعاصر - ذلك الشخص الديم الخلفة الشبىه بالذبابه السامة- هو الذى يجرؤ على استجلاء محياها وتقديم الزهور فى بيتى إليها. قال الملك: جدير بمن يطمح إلى إحراز ثقة الناس أن يثق بهم فعلا. ألا ترانى مضطراً فى أحوال كثيرة إلى قبول القصائد الشعرية فى مدح فعلى والتنويه بذكرى من قوم هم فى أخلاقهم وطبائعهم مثال الدناءة والسفال؟ فدر عنك الهمّ والبال واستعد غداً للنزال.. استعد للانتصار والعود إلى وطنك مكللاً بالغار، ولا يذهبن عليك أن بعاصر سيعفو عنك بقدر ما فرط منك.. انصرف الآن وتفقد الخيل واركب غداً المركبة بما عهد فىك من الشهامه فى مواطن الطعن والنزال.

ذهب مينا ليتفقد الخيل فالتقى براميرى الذى ابتدره بقوله: لعلك تعلم يا مينا أنى مازلت أنزهك من المعائب وأبرئك من الشوائب وأرفع قدرك إلى المنازل العالیه واقتدى بك فى المحامد. ولكن لا أنكر عليك ما اعترانى من الشك فى نزاهة قصدك منذ علمت أنك أتيت إلى صيوانك بامرأة أجنبية وأنت تعلم أنك قرين أجمل نساء طيبة وأكرمهن محتدأ.. إنى- كأخ لنيفرت عارف بما ينطوى عليه فؤادها وما تجنح إليه نفسها- أؤكد لك أنها لن تعيش ساعة واحدة إذا أيقنت أنك فضحتها بإيوائك امرأة أجنبية فى صيوانك.. هذا الفعل منك عار كبير لا يلصقه بالمرأة المصرية إلا عدم الوفاء

لها بالأمانة والعفاف، فأرجو منك ألا تحقد علىّ فلا يعلم إلا الآلهة ما يجيء به الغد.

وكان مينا يصغى إلى حديث راميرى دون أن تبدو عليه علامات الاكتراث. فلما أتم الأمير كلامه قال: يعجبني منك أيها الأمير الكريم اقتداؤك بأبيك في الصراحة والصدق والإعراب عن كل ما يتلجلج به خاطرك دون تصنيع ولا مواردية، كما يسرنى أن تكون مثله في الإمساك عن الحكم على متهم قبل سماع دفاعه عن نفسه..

لست بمنكر عليك أن في صيوانى امرأة أجنبية هي ابنة مالك الدنائم. ولكن لعله وصل إلى علمك أنى منذ بضعة أعمار لا أتردد على هذا الصيوان بل أقيم على الدوام بباب صيوان والدك الملك.. أدنُ منى قليلاً لأروى عليك القصة بحذافيرها حتى لا يداخلك الشك في نزاهة قصدى وحسن نيتى وأوقفك على أسباب وجود تلك المرأة عندى.. كان المعسكر ضارباً تحت حصون قادش، وكان رعمسيس ملازماً الفراش لجرح أصابه فأصبحنا في بطالة يسأم منها النشيط، وكنت لذلك أقضى جل وقتى في الصيد والقنص على سواحل البحر. وحدث يوماً أن أوغلت في تلك الجهة فإذا بكتيبة من جيش الدنائم أحاطت بى إحاطة السوار بالمعصم وأخذتنى إلى معسكرها أسيراً بعد إذ أوثقت كتافى. وقد اعتبرنى قواد العدو من العيون المبيوثة عليهم فحكموا علىّ بالإعدام وشرعوا في تنفيذ الحكم، إذ أحاطوا بالحبل عنقى. وكان الملك لحسن طالعى ووفور حظى مقبلاً في تلك الساعة فسألنى عن حالى فأطلعته على الحقيقة فأطلق سراحى وأحسن معاملتى وأكرم مثوائى ودعانى لتناول الطعام على مائدته. وكان لحسن صنيعة من التأثير في نفسى ما حبيب إلىّ مقابلة هذا الصنيع بمثله. وقد سنحت فرصة لذلك بعد زمن يسير إذ لم ينقض على تلك الحادثة شهر حتى هجم جنودنا الليبيون على معسكر الملك وجاءوا بما لا يُحصى عدده من السبايا والأسلاب والغنائم، وكان من بين السبايا ابنة ملك الدنائم. وإذ قرر والدك

الملك مكافأتى جزاء ما أظهرته من ضروب البسالة والإقدام فى القتال، فقد أمر بأن أكون أول من يختار حصته منها فاخترت ابنة ذلك الملك الذى صان من الموت حياتى وذهبت بها إلى صيوانى ومعها نساء حاشيتها وتركتها معهن فيها هادئة البال مطمئنة النفس محترمة الجانب، حتى تسنح الفرصة لردّها إلى أبيها تحف بها الحشمة ويحدوها العفاف والصون، وأكون بهذا قد قابلت الصنيع الحسن بمثله.

وما أن وقف راميرى على سر الخبر حتى مد يده إلى مينا مصافحاً وقال له: التمس منك الصفح عن سوء ظنى بك فقدت الآن على سر سؤال والدى الملك لى عما إذا كانت نيفرت ما برحت مقيمة على عهد الوفاء لك. قال مينا: وبم أجبتي؟ قال: أجبتي بأنها لا تكف عن التفكير فيك وأنها لم يداخلها قط شك فى أمانتك ووفائك، وقد بدا لى أن هذه الإجابة قد حلت منه محل الرضاء فالتفت إلى أخى شاموس مبتسماً وقال: «لقد كسب مينا الرهان». قال مينا: نعم، فإن الملك حفظه الله وعدنى بمكافأة حسنة وتحفة سنوية إذا كانت نيفرت- بالرغم من إقامة امرأة أجنبية بصيوانى- تبقى على ولائى وتستحق شكرى وثنائى. ويظهر لى أنه كان يرى الأمر مستحيلاً، ولكن الحمد للآلهة أن كسبت الرهان، إذ ثبت إخلاص نيفرت لى بالدليل والبرهان.

الفصل الرابع عشر

ذل الانكسار.. وعز الانتصار

ما خلعت الشمس جلباب الأفق وبرزت من خدرها حتى كان الكهان وقوفا في طليعة كل فيلق من فيالق المشاة والفرسان، يرفعون الأصوات بالأدعية والصلوات، ويقدمون القرابين التماساً للنصر المبين ويعرضون صور الآلهة على الأنظار في زوارق من العسجد والنضار، وانبث المبشرون في كل مكان يبشرون بما استطلعه رئيس الكهان، من الطوالع المؤذنة بالسعادة والهناء والفوز على الأعداء. وكان لكل فيلق علم خاص قد رُسمت عليه صورة الحيوان المقدس أو المرموز به إلى الإقليم الذى ينتمى هذا الفيلىق إليه. وكان كل جندي قد حمل معه - لوقاية نفسه من فتكات الأعداء وحفظ كيانه من شرورهم - التمام والأحجية والأحكام الدينية المسطرة على ورق البردى والخواتم ذات الفصوص المصنوعة على مثال الجعل. وكان سوادهم الأعظم يخفون في ثنايا ملابسهم أو قطر ميزات مؤونتهم خصلا من شعر الحيوانات المقدسة أو أفاعى أو جعلانا على قيد الحياة^(١) تبركاً بها وتفاؤلاً بالخير ودفعاً للشرور والنكبات.

أما الملك فكان في محفة يحملها أربعة وعشرون شاباً من أشراف مصر ونبلائهم يستعرض الجند ويتفقد أحوالهم قبل نزولهم إلى حومة الوغى. وكانوا يقدمون إليهم آلهة طيبة الثلاثة ومنث إليه الحرب ونيشب إلهة الانتصار، وما ظهر الملك بين

(١) كان لكل إقليم حيوان مقدس يعبده أهله، وكان بعض هذه الحيوانات معبوداً من المصريين كججران فتاح وابن أوى وغيرهما

صفوف الجند حتى جثوا جميعاً ولم يقفوا إلا بعد أن أحرق البخور بيده وتناول من ابنه شاموس الكاهن الأعظم رمز الحياة والقوة. وما انتهت هذه الرسوم الدينية حتى أخذ الكهان ينشدون بصوت واحد أناشيد التمجيد والإجلال للإله (رع) وظله وخليفته في الأرض الملك رعمسيس.

وما تحرك الجيش للزحف حتى سطعت في السماء كواكب لامعة كانت قبل السير بدقائق معدودة تحجبها عن الأنظار سحب كثيفة قاتمة، فتحرك الكهان من فورهم للقاء الملك وفسروا له هذا الحادث العلوي بانكشاف الغمة وأن جيوشه ستبدد شمل العدو كما بدد الإله رع السحب المتلبدة ومزقها تمزيقاً. وكان المشاة يحثون السير دون جلبة ولا غمغمة حتى يخلد الأعداء إلى الطمأنينة وينصرفوا عن الحذر والحيطه فيكون مأخذهم سهلاً والانسحاب عليهم فجأة. ووقف الضباط في مواضعهم المعينة على مركبات القتال وبأيديهم أعنة الجياد. وكان رعمسيس في مقدمتهم يحمل في مركبته كنانتين إحداهما للقسي والأخرى للسهام. وكانت الجياد التي تجرها مكللة الرؤوس بريش النعام تلامس متونها أعنة مرصعة بالأحجار الكريمة. وكان الوهج يسطع من سنابكها إذ كانت تضرب الأرض مللا من الوقوف ورغبة إيراد العدو موارد الحتوف.

وكان رعمسيس متوجاً بتاج الوجهين البحرى والقبلى ومحصن الجسم بقميص الزرد تحمله كتفاه برافعات من الحرير الأحمر. وكان مينا واقفاً من ورائه ممسكا بإحدى يديه أعنة الخيل وبالأخرى درقة يقى بها مولاه سهام الأعداء. فلما جاوز باب المعسكر عند بزوغ الشمس في تلك الهيئة الهيئة والشارة العجيبة أقبل بعاكر رئيس الطلائع فقبل الأرض بين يديه وترامى على قدميه، وقال جواباً عن سؤال

وجهه الملك إليه عن أحوال أخيه وأين هو، إنه قد أصابه مرض اضطره إلى ملازمة الفراش في بعض النقط الأمامية. ولم تكن الشمس قد تم وقتئذ شروقها ليتبين الملك أقدم اكتسى وجهه بحمرة العار والخجل أم بصفرة الخوف والوجل، فإذا به يراها تتداولان وجه هذا الخائن الأثيم الذى لم يعتد سبك الحيل ولا تدبير الخيانات والدسائس، إذ كانت هذه أول مرة فرط فيها في واجب الأمانة نحو وطنه ومليكه.

ثم سأله رعمسيس: وماذا العدو صانع الآن. أجاب: يحشد كل قواه جنوبي المدينة وشرقيها. لذا أصبح القتال قاب قوسين أو أدنى، فإن رأى مولاى أن يفاجيء قادش في الوقت الذى يزحف فيه الشطر الأكبر من الجيش لمناوشة الآسيويين من جهة الجنوب فإن حصونه واستحكاماته لا بد ساقطة اليوم بين يديه الكريمتين. ثم إن طريق الجبل - وهو الطريق الذى لا بد لجيوش مولاى من الزحف فيه للوصول إلى القصد - طريق معبد ممهد لا وعورة فيه. فسأل الملك: أنت مريض كأخيك، فإنى اسمع في صوتك خلخلة واضطراباً؟ أجاب الموهار: لم يمض وقت من حياتى كنت فيه أجود صحة منى الآن. قال الملك: هلم إذن لترشدنا إلى هذا الطريق.

والتفت رعمسيس بعد هذا إلى مينا قائلاً: إن الطريق ممهد معبد وغير وعر كما أخبرنا الموهار، فلا عجب ان طابق الواقع هذه الأخبار. أليس هو الوارث عن والده فضيلة الإحاطة بأسرار الطرقات؟.. ثم جياده العاديات ضبحا المثيرات نقعا المباريات للريح سبقاً.. ما كادت تصل به إلى جبهة الجيش ليرشده إلى الطريق الممهد والمسالك القويمة حتى عادت به إلينا. فالتفت مينا إلى بعاكر ولم يتمالك أن صاح: إنه لدنىء الطبع سافل النفس منحط الهمة، فإن الجياد التى أعجب بها مولاى إنما هى جيادى التى أبلغت أن راتوتى أهدتها إليه قبل رحيلى من طيبة، وما كنت

لأصدق هذا الخبر حين بلغنى ومع أنى ما اشتريتها إلا لتجر مركبة نيفرت لولا أن زال الشك الآن وارتفع اللبس. ولقد رأيت هذا الغر بعينى رأسى فى مركبة تجرها تلك الجياد المشترأة بمالى. فلاطفه الملك وسكّن من غضبه وقال: إن زوجتك ما زالت لك، فدع له الجياد.

لم تمضِ بعد هذا الحديث هنيهة حتى ترجرج الهواء بدوى بوق لم يدر السامعون مصدر النافخ فيه، غير أن شدة ارتفاع الصوت كانت تدل على قربه من مكان الجيش. فوقف رعمسيس فى مكانه وانتضى سيفه ووقفت الخيل آذانها فقال مينا: هذا بلا ريب صوت بوق الخيتاس. وكانت مركبة ذات أربع عجالات حاملة أسود القتال تتبع مركبة الملك، فأمر رعمسيس بإطلاق سراحها. وكان قد سمع صيحات العدو ورأى جنود الطبيعة ترتد على الأعقاب بغير نظام وقد تخللتها مركبات الخيتاس التى كانت تنحدر تباعا من رأس الوادى وتُسمع لها قرعة تصم الآذان، فانطلقت الليوث مزمجرة إلى أن اتصلت بمركبة الملك وأحاطت بها، فرفع مينا السوط وأهوى به على متون الجياد فكبت فى بادىء الأمر ثم وثبت مندفعة إلى الامام حتى بلغت إلى قلب الميدان. وكان الجنود المصريون قد خذلوا فعلا وأخذوا يلتمسون لأنفسهم مخرجاً للفرار من وجه العدو الذى كان نكل بهم تنكيلا وأثخن فيه إثخائاً وبيلا، فلما رأى الملك الخطر محققا به ولم يكن ليخطر له ببال سأل: أين بعاكرك؟ فلم يجاوبه أحد لأنه كان اختفى عن الأنظار. وكانت الأرض تتزلزل تحت أقدام الهاربين والمطاردين والخيول تدوس السرمم وعجلات المركبات تصم بصريها الآذان والرعد يلقى بهزيمه الوجل فى القلوب، فلم يتمالك رعمسيس أن صاح صيحة الحرب المألوفة له فى مواطن القتال إذا اشتد الحرج عليه وعلى جنده فتغلب على صوت البوق ورددت صدها الجبال والأودية. وقد اجاب الضباط على

هذه الصيحة بمثلها، فوقف الفارون في أماكنهم مترددين بين متابعة الركض طلباً للنجاة وبين الثبات في مواطن القتال. إلا أن الخوف أخذ من قلوبهم ما أضعف بأسهم وهدّ ركنهم فمضوا في طريق الفرار لا يلبون على شيء. وما هي إلا دقائق حتى طرق أذان الملك صوت الأبواق وصرخات الخيتاس ، وكان منبعث الصوت من خلفه حيث يمتد أحد الأودية عمودياً على الطريق الذي سلكه الجيش المصرى. ومر هذا الجيش دون أن يداخله شك في أمره، إذ كانوا يجهلون ما دُبر لهم من الدسائس ونُصب في طريقهم من الشباك. على أن ذلك الوادى لم يكن سوى الذى انطلق بعاكر فيه حينما توارى عن الأنظار لإخبار العدو بقرب زحف الجيش المصرى فيه وحضه على مفاجأته بالهجوم من حيث لا يدرى. وما كادت تصل صرخات الخيتاس إلى سمع رعمسيس على ما شرحناه أنفا حتى رأى المصريون ألوف الفرسان من أعدائهم والمئات من مركباتهم طغت طغيان السيل على المؤخرة والجانب وحالت دون الاتصال بينهما والكتيبة الملكية، وتمكنوا بهذه الحركة من الإحداق به وأخذ المنافذ عليه حتى صار أشبه ما يكون بالصخرة في وسط البحر تساورها اللجات من جميع الجهات.

نظر رعمسيس على الفور في أمر نفسه ومصير جيشه وكلاهما في أخرج المواقف وتأمل في ذلك بعين الحكيم الذي لا تززع ركنه الحوادث فأدرك حقيقة الخطر الذى أحدق به، ولاسيما وقد كان يرى الأعداء يتدفقون من الخلف على جيشه ويسمع صلصلة سيوفهم وشخشخة دروعهم وضبح خيولهم وغمغمة الفريقين في قتال عنيف ونزال مخيف، كما كان يرى من الأمام خطباً جلاً وطامة كبرى. كان يرى في مرامى نظراته قتلى تبقر بطونهم حوافر الخيل وجرحى يثنون أنين الثكالى وفارين يلتمسون الآفاق هائمين على وجوههم حذر الموت وخلف هؤلاء أعداء الأداء قد انشرفت صدورهم لبوارق الانتصار والفوز.

إلا أن الملك قَوْم قامته ورفع هامته إذ استفزته فداحة الخطب فثارت حميته فصاح صيحة ثانية تغلب بدويها على زئير الأسود وجلبة العساكر وصلصلة السيوف. وكان أنين الجرحى وصوت القواد ولغب المحاربين بالنسبة لهذه الصيحة كالصمت المطلق. ثم تناول قوسه وأرسل منه سهماً أصاب به كبد أشجع قواد الخيتاس فأرادته. أما الأسود فكانت تثب على جياذ العدو وتنشب في صدورها الأظفار فتعوقه عن متابعة الزحف. وقد ذعرت جياذ الفرسان من مرأى تلك الضواري فتراجعت إلى الخلف براكبيها وتلاحقت في الفرار من ميدان القتال حتى حالت بين جيوش الخيتاس والمصريين. وكان رعمسيس لا يفتّر لحظة عن رشق العدو بسهامه الصائبة حتى كادت تنفذ من كنانته. وكان مينا يقيه بدرقته سهام العدو فلم يصبه سهم واحد منها بل كانت تتكسر نصالها على النصال ، وألقى أعنة جياذ المركبة الملوكية على غاربها فانطلقت حتى توسطت صفوف الأسيويين، فجرد رعمسيس سيفه وطعن به الجم الغفير منهم فصرعهم جميعاً . وكانت ليوثه الكواسر في غضون ذلك تفتك بهم شرفتك وتلقى في قلوبهم الفرع، كلما نشبت أظافرهما وكثرت عن نابها. والخلاصة أن الجيشين التحمت عساكرهما جسماً لجسم وطال بينهما النزال والجلاد واشتدت الجلبة وعلت الضوضاء بما يصم الأذان ويرهب النفوس ويذكر الرائي بالبحر الخضم وقد ثار ثائره واضطربت عناصره، وصعب مراسه وانحلت أمрасه. أما مينا فقد أبدى من معجزات البسالة والتدبير ما يخلب العقول ويسترعى الأنظار، فقد كان يخيل للناظر أنه نفوس متعددة في ذات واحدة، إذ كان يواجه الخطوب بثاقب الرأى فيتجنبها بتوجيه المركبة ذات اليمين تارة وطوراً ذات اليسار وحيناً إلى الوراء. وكان يرقب السهام في مسراها مخترقة الفضاء فيتصرف في أوضاع درقته بما يكفل وقاية الملك شر

الإصابة بها. وكان يبدى في ذلك من آيات التبصر وحضور الذهن ما يندر أن يتوافر مثله في واحد من مشاهير الأبطال. وكان تفاقم الخطب قد حرك في نفس رعمسيس سواكن الغضب، فتطاير الشرر من عينيه وأكثر من الصيحات المزعجة وأمعن في الفتك والتنكيل وأبل بلاء لم يسبق له مثيل.

وقد انغرزت ثلاثة من سهام العدو بدرقة مينا فقراً عليها بالحروف المصرية كلمات معناها «الموت لمينا» ومر بجانب أذنه سهم رابع فنظر صوب المكان الذي جاء منه فأصابه بكتفه سهم خامس فصاح: خيانة سافلة! إنى لأشهد بعاكر بين الخيتاس بعينى. وقد سمع الخائن صيحة مينا فلم يركن إلى الفرار، بل دنا من المركبة الملكية وأرسل من قوسه سهما سادسا وقال: دونك أيها الغاصب السالب.. ها نحن أولاء في ميدان القتال! مازالت خطيبتى قرينتك ولكنها بعد هذا السهم ستصبح أرملا، فاستولى عليها وأحظى بها. وما مرق السهم من القوس حتى أصاب خوذة مينا فاضطرب جسمه وسقطت الدرقة من يده وكان قد رفعها إلى رأسه ليدفع بها الخطر عن نفسه وسمع بعاكر في أثناء ذلك يغرب في الضحك فما هى إلا لعة البرق حتى أحس سهما سابعاً ينفذ من كتفه فأزعجه الألم وصرفه عن القيام بمهمته نحو الملك إذ أرخى الأعنة للجياد ووثب من المركبة وثبة الليث، ثم جرد حسامه وحمل به على خصمه اللدود الذى كان ينتظره ثابت الجنان هادىء الجأش، وما أن دنا منه حتى حمل عليه حملة منكرة. ورأهما الملك يتناجزان ويتصاولان، فلم يستطع الفصل بينهما، لأنه ما شعرت الجياد بارتخاء الأعنة على غاربها حتى انطلقت كالريح مقتفية أثر الأسود.

وكان حراس الملك هبوا إلى الأرض صرعى، بعضهم تلو بعض، فسرعان ما

أحاط به العدو يريد به الأذى والشر. ولكنه أخذ درقة مينا وانقض عليهم يطعنهم بسيفه، فكان في كل طعنة حتف واحد منهم. ورأى راميرى أن أباه أصبح في عزلة وأنه لم يعد ثمة اتصال بينه وجيشه فاخترق الصفوف واقتحم الألوف حتى وصل إليه ودنا منه. فقال رعمسيس : المجد والفخر لك يا ولدى ولفذة كبدي! أنت خير حفيد لسيتى الأول وأحق الناس بالانتماء إليه. قال راميرى: إنى طامح لإحراز سيف غير الذى اغتصبه أختى منى. ولقد حمل في هذه الأثناء على جندى ضيق عليه الخناق فاحاط العدو به، وشهد الملك جماعة من الدنائم يقبضون على أعنة جياذ الأمير وآخرين انصبوا عليه بسيوفهم، كما شهد رفاق الأمير يولون الأدبار بمركباتهم إذ خافوا الخطر على حياتهم.

وأصيب أسد بسهم فسقط يتلوى- لشدة ما ناباه من الألم- ويزار. وأدركت رعمسيس طعنة سيف شطرت درقته شطرين فاشتد عليه الكرب لما عاناه من توالى الطعن والضرب. ورأى كأن أجنحة الموت ترفرف على رأسه وأسنة الهلاك مشرعة إلى صدره، غير أنه بدلا من أن يواصل صيحات الحرب التى كانت ترتجف منها أفئدة الأعداء وتقوى بها عزائم المصريين بسط يديه بالدعاء إلى آمون أن يعززه بنصره ويوافيه بالنجدة والعون، فما أتم الدعاء حتى برز له من بين الجمع شاب مصرى طويل القامة تبدو عليه ملامح الهمة والشهامة، فأمسك بأعنة الخيل وحيا الملك بأحسن تحية، ثم وثب في المركبة فارتعدت فرائص رعمسيس دهشاً وعجباً إذ خُيل له أن هذا الحادث الغريب ما هو إلا إحدى المعجزات أو إجابة لتلك الدعوات. ولما هدا روعه التقت إلى الشاب، وهو يدبر حركات المركبة بحذق غريب وشجاعة لم يكن للأبطال منها نصيب، فلاحته له فيه ملامح الموهار السابق والد بعاكر خائن الوطن وسبب الرزايا والمحن، فقال مناجياً نفسه لعل الإله آمون تقمص شكله

لينقذه من الويال ويدفع عنه عار الانخزال. وزاد هذا الاعتقاد رسوخاً في نفسه أنه سمعه يقول: الثبات يا مولاي الثبات! فبعد هنيهة ترد لك الإمدادات فتنجو من المهلكات، ثم تصل بنا في ميدان الفوز إلى أبعد الغايات.

اطمأنت نفس الملك بهذه الكلمات فصاح صيحة القتال التي رددتها الآفاق والجبال وأطار رأس رجل من الخيتاس كان بدنوه منه كالباحث عن حتفه بظلفه. وكان الشاب الذي أرسلته العناية الربانية لنجدته يحمل الدرقه يحميه بها من سهام الأعداء الأندال ويثخن فيهم ويوردهم موارد النكال. وظل الملك ونصيره على هذه الحال هنيهة من الزمان، فإذا بصوت الأبواق يقرع الأسماع منبعثاً من الجهة اليمنى، فتبين رعمسيس فيه صوت الأبواق المصرية، فسطعت بوارق السرور على وجهه وأيقن الظفر بالأعداء. ولم تمض إلا دقائق معدودة حتى لاحت للأنظار من خلف الجبل القريب بضعة آلاف من جنود فيلق (فتاح) تحت قيادة حورس. ولقد رأت هذه النجدة الخطر محققاً بالملك فانقضت على العدو بهمة لا تعرف الكلال وثبات تميد له الجبال، واخترقت صفوفه وفنكت برجاله فتكا وببلا والزمتمهم بعد طول المجاهدة بالفرار، وأنقذت رعمسيس من الانكسار. أما الشاب الذي كان ملازماً لركابه فقد اختفى عن الأنظار، لأنه أصيب بسهم أدماه. وقال قائل أنه لم يكن من الإنس وإنما هو الإله آمون تقمص شكل رجل من الشجعان ليمحو عن الملك معرة الذل والهوان.

شاب رعمسيس إلى الراحة ساعة جمع فيها شتات جنوده ثم هجم بهم على الخيتاس ففرق شملهم ومزق جمعهم وقتل بعض رؤسائهم وأسر الآخرين، ثم انتشر بجنوده في أركان السهل فضم إليهم ما بقى بالمعسكر من الجنود الاحتياطية وهجم بهم على قلب جيش العدو فاضطر الفارين إلى التفرق في نهر الأورنت وبحيرة

قادش، واستمرت المناوشة بين الفريقين حتى أرحى الليل ستاره. ولما أسفر الصباح استأنف القتال بشجاعة لم تخطر للخيتاس ببال، فحاربوا متقهقرين ثم ولوا مدبرين بعد أن كانوا من النصر بخيانة يعاكر واثقين.

ولقد كانت الحيلة التي دبرها هذا الخائن الأثيم على وشك النجاح وكان ينبغي أن تكفل به إذا صح دائماً أن يُدلى إلى النتائج بالمقدمات، في مثل هذه الحالات. فإن قواد الخيتاس اختاروا من جنودهم أحذقهم في سياسة الجياد وأثبتهم في مواطن الجلال، فتواروا خلف أشجار الوادى الذي تعهد بعاكر لهم باستدراج رعمسيس وجيشه إليه. فلما وفى بهذا العهد وسار الجند المصريون في اطمئنان من بغتات العدو، إذا بألفى مركبة وخمسائة قد هاجمت جناح الجيش المصرى، بينما كانت مقدمته تستعد لمقابلة فريق آخر من الأعداء انساب عليها من خلف الوادى، ولم تكن تتوقع الاشتباك معه في قتال لبعده مكانه على ما أكده بعاكر في استطلاعه قوة العدو واستعداده. ولكن العناية الربانية تداركت الخطب بما أشرنا إليه من المدد الذى خسر الأعداء بسببه ثلثى جيشهم ومعظم قوادهم، وفي مقدمتهم (تيتور) المشير الأكبر و(شيرو بازار) مؤرخ ملك الخيتاس الذى كان ملازماً ركابه، يدون الحوادث تمجيداً لاسمه وتخليداً لذكراه.

أما رعمسيس فقد استقبله الجنود في معسكره بهتاف السرور وأناشيد النصر. وعمّ الخير الديار المصرية فهش له الكهان في هياكلهم والجند في ثكناتهم، بعد إذ طال عبوسهم، لما حرك أنى من خواطرهم ونبه من كامن بغضائهم. ولم يبقَ حديث يتداوله القوم في محافلهم ومجتمعاتهم سوى ظفر المصريين بأمة الخيتاس. وعلى أثر الواقعة أرسل الأعوان لتفقد الجرحى ورفع جثث القتلى، فوجد مينا في الفريق الأول ولم يقف لراميرى على أثر ولم يعرف عنه خبر. وانقضت أيام لا يدرى أحد

عنه شيئاً فأفضى ذلك إلى تواطؤ الأنبياء بوقوعه في أسر الأعداء. وأن الفريقين اتفقا على المفاوضة عليه ببنت ملك الدنائم التي اختار ميना أن تكون نصيبه من الغنائم، وأسكنها في صيوانه وعاملها بكرمه واحسانه. وقد نقبوا عن بعاكر في كل مكان فلم يعلموا من أمره شيئاً، ولكنهم وجدوا مركبته فخلصوا الجياد منها وسلموها لميना صاحبها الذي ما كان أعظم فرحه برجوعها إلى حوزته بعد أن سُلبت منه غدرأ في غيبته.

استولى المصريون على قادش واستتب لهم الأمر فيها، فالتمس (خيتازار) أمير الخيتاس الصلح فأجاب رعمسيس بأنه لن يفاوضه في هذا الموضوع إلا عقب عودته إلى الديار المصرية، فاضطر السفير المنوط هو واثني عشر من أمراء الأمم المتحالفة ضد المصريين إلى اقتفاء أثر الموكب الفرعوني في قصده - بمظاهر الانتصار- إلى وادي النيل كأسرى حرب لا يمتازون على هولاء إلا بما كان المصريون يعاملونهم به من الاحترام والتكريم.

وكان رعمسيس شديد الاشتياق إلى العودة منصرف الرغبة إلى المسارعة بها، لأن وسواسه كان يحدثه بوقوع أمر خطير في مصر وكان ضميره يناجيه بتحرج الأحوال، واستمكن منه هذا الشعور على وجه أحس معه أن الفوز المبين الذي فاز به على الأعداء قد شابته شوائب الفتنة، وكدر صفوه بوجه خاص تحققه من خيانة بعاكر ونزوع أنى إلى الاستقلال بالملك ومعرفة الدانى والقاصى بهذا الخبر، حتى إن أمير جيش العدو لما سأل الصلح ألمع إلى فوائد المبادرة بإبرامه من حيث انه يمكن أولياء الأمر من رتق الفتوق الداخلية التي تواردت عليه أخبارها من مصر. وكان رعمسيس موقناً أنه قادر على كبح جماح الثائرين والضرب على أيدي المارقين، إلا انه ظل واجماً كاسف البال، لأنه أحسن الظن بقوم ألقى إليهم بأزمة الحكم ليدبروه

في أثناء غيبته على ما يطابق مصلحة الرعية فاغتنموا هذه الفرصة للاستئثار به وضاعف حزنه ما حل بمينا من الردى، وهو البطل المقدم الذى كان يوليه من الإعزاز والإكرام ما يذهب بالفوارق بينه وأبنائه ويعهد إليه قيادة جياد مركبته وتلقى أوامره التى كان يكفيه لتنفيذها التلميح بكلمة أو إشارة بطرف العين.

ولم تشفع هذه الصفات النادرة له عند القائد العام للجنود المصرية، فقد حكم عليه بالتجريد من رتبته والعزل من وظيفته وبعدم صلاحيته للقيام بها وبنى هذا الحكم على أسباب منها أنه أثر الانتقام لنفسه فتخلى عن مركبة الملك وعرض حياته للخطر فى أخرج المواقف، كما عرض الجيش بذلك للهلاك والفناء، ومثل هذه الجريمة فى القانون العسكرى المصرى يُعاقب مرتكبها بالإعدام. فلم يجد رعمسيس من ثم سبيلا للاعتراض على الحكم، بل رأى فى الاقتصار على التجريد من الرتبة والعزل من الوظيفة مبالغة فى الفرق بالمذنب وغلوا فى الصفا عنه، ولكنه رضى بذلك لمكانته منه وسالف خدمته لذاته السنية.

وكان رعمسيس شديد الانتاد والحذر بفطرته ومقتضى غريزته، لا يمضى أبدا مع الخيال ولا يستسلم للوهم. ولذا كان يرى منشرح الصدر لين الجانب متهلل الوجه فى غالب أيامه، حتى أيام الشقاء التى تُنْهك فيها قوة البدن ويعتور الفكر الكلال والضجر، ولكنه كان ذلك اليوم سابحا فى تيار الأفكار تائها فى فياتى الخيالات تنفعل نفسه بأقل المؤثرات، فيرتفع رأسه بغتة كمن يقوم من نومه منزعجا. وكثيرا ما اقتحم الأهوال وعانى الشدائد ورأى الموت مجسما فى أقبح الأشكال فلم ينبض له نبض، إلا فى يوم قادش الذى ختم مع ذلك بفوزه. وهو مادام حيا لن ينسى ما استشعره فيه من العجز وقلة الحيلة وقتما انفض جنده من حوله واندفعت به الجياد نحو الأعداء رغم أنفه، فكان كريحشة فى مهب الريح تتلاعب بها الحدثان، بل

لن يذهب عنه أبدا ما تولاه من الحيرة كلما عالج الخلاص من الأعداء وأراد أن يعرف من أنقذه من أيديهم أ أمون- وقد سمع دعاءه ولبى نداءه، فتجلى له في صورة إنسان وكان له خير معوان- أم غيره، أم انه ابن الشمس يجرى في عروقه الدم الإلهي؟ وكان لرعمسيس أن يسلك في الظنون كل مسلك لأن الإله خصه بمزية لم يخص بها أحدا من البشر وأدركه من عنايته بما يدل على سمو مرتبته، ولكنه كان ينظر إلى نفسه ليرى أنه بشر سوى وأنه كغيره من بنى الإنسان خلق ولا فارق بينه وبينهم، وإلا لما أن من ألم الجرح الذى أصابه واشتكى بل لما ازعجته خيانة بعاكر. ثم قارن بين نفسه وقد توسط شيع الأعداء ولم يجد حوله أحدا من الاصفياء ونجا من مكرهم السييء بما أيده من المدد الإلهي، ومن حكم عليه بالإعدام، وأنه لما جىء به إلى دائرة التنفيذ صدر الأمر بالعفو عنه فاستنتج من هذه المقارنة أنه أحد أفراد البشر وأيقن ذلك وسر له لأن بشرية الإنسان تكفيه مؤونة التصدى لعلم المستقبل، ومتى كان الإنسان لا يعينه من علم الغيب شىء خلا قلبه من هموم الحياة ومشاغفها.. وفي هذا منتهى الهناء والسعادة.

كانت واقعة قادش من الوقائع الفاصلة وكان فوز المصريين فيها مبينا إذ استولى رعمسيس بها على مضائق الشام وقلاعها ثم عاد إلى مصر مطمئن النفس، بعدما أنفذ إليها بحراً شطراً كبيراً من أدوات القتال وجماً غفيراً من الجرحى، وصحبه في عودته الأمراء المغلوبون على أمرهم. وقد بعث باثنين من أبنائه إلى ماجدو للمحافظة على أختهما بنت أنات في بيلوز(١) ولينتظرا معها في سفينتها حتى يصل هو إليها.

(١) بيلوز هي الفرمة الآن ، وكانت مفتاح مصر لكل جيش حاول الإغارة عليها من جهة الشرق.

الفصل الخامس عشر

ملتقى الأبطال.. والخونة الأندال

مضى على واقعة قادش ثلاثة أشهر كان الجند والأهلون بمدينة بيلوز في خلالها يعدون معدات الاحتفال باستقبال الجيش المصرى الظافر بالأعداء الأندال. وكان أنى المعروف بفتور الهمة وخمود العزيمة لا يكف عن استنهاض العمال وحثهم على إنجاز الأعمال، وكان دائب الحركة في مركبته ذهاباً وجيئة لمراقبة العبيد المكلفين بإقامة أبواب النصر وتنميقها بالأزهار وترتيب الأسود الصناعية المموهة بزاهى الألوان في أماكنها. وكان يقف مع كل فوج منهم هنيهة حاثاً على إتمام القصر الذى شيد إكراماً لفرعون وتنويهاً بذكره في موقع معسكر الهكسوس ومستنهضاً على الاحتفال بتنميجه وتزيينه.

وبهذا الحث والاستنهاض استطاع بضعة آلاف عامل تشييد هذا القصر^(١) في عدة أسابيع، فجاء قصرأ فخم المنظر حسن النسق خليقاً بسكنى الملوك والأمراء. وكانت الأرض من حوله صلدة لا تصلح للنبت فإذا بها حديقة غناء، بل جنة فيحاء يمتد في وسطها طريق يفضى بالسائر فيه إلى غرفة المائدة وهى غرفة مرتفعة أيضاً عن أرض الحديقة ذات أزج يمثل القبة السماوية في لونها السنجابى وتلالؤ كواكبها السنية، مرفوعة على أعمدة بشكل النخل علقت بتيجانها أطراف قطع مستطيلة من الخز اللازوردى اللون، بحيث تتصل أطرافها الأخرى بعضها ببعض في نقطة واحدة هى مركز الظلة القائمة فوق العرش الملكى. أما الظلة فكانت عبارة عن قبة (١) جاء في بعض النصوص ما يشير إلى أن المصريين كانوا يبذلون الأموال الطائلة لتشييد القصور وإقامة الحفلات بها يوماً واحداً أو بعض يوم ثم يهدمونها

مجوفة مرصعة بالألوان زرقاء وخضراء وقطع من البلور النقي منشورية الشكل كانت بسنائها، تلالؤ ألوانها تخطف أبصار الناظرين.

أما العرش الملكي فكان موضع الجلوس منه درقة يقف إلى جانبيها ليطان يتكىء الجالس عليهما. وكانت زواياه الأربع قائمة القوائم على أربع صور تمثل أربعة من أمراء آسيا قد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون. أما الأرض فكانت مفروشة ببساط أزرق اللون رسمت فيه الحيوانات البحرية من أسماك وغيرها، إشارة إلى البلاد التي استولى فرعون مصر عليها، وقد مدت عليه موائد يحيط بها ثلاثمائة كرسي للمدعوين الذين سيدعون إليها من عظماء المملكة وقواد الجيش الظافر. وكانت ألوف المصابيح التي تشبه بشكلها أزهار الزنبق والخزامى تضيء القاعة بضوئها الباهر وتلفت الأنظار إلى شكلها البهي الزاهر.

وكانت مخادع النوم على هذا المثال من الجمال والجلال، إذ كانت مكسوة الجدران بنسيج أحمر مزركش بأسلاك الفضة والذهب وسقوفها مغطاة بقماش لازوردي دقيق السلك وأرضها مفروشة بجلود الزراف. وفيما يلي الحديقة من الناحية المجاورة للمدينة شيدت مباني الخشب على صفوف متوازية لإقامة الحراس والجند، وجُعِلت الاسطبلات في آخر ذلك كله ومن بينها إسطبل موه بالذهب وزُين بالأزهار للحياد التي كانت تجر في ميدان القتال مركبة الملك. وقد وهبها رعمسيس لإله الشمس شكرا له على ما منحه من الظفر.

وكان الوالي أنى وصديقه راتوتى يتفقدان هذه الغرف فقالت له: يظهر لي أنك قد بلغت المراد بتشييدك هذه الأماكن وتنسيقك إياها على ما يوافق الذوق السليم. أجب أنى: أصبت، إلا أنني لا أدري ممّ أعجب، أمن سلامة ذوقك في الترتيب أم من

رجاحة عقلك في إتقان الاساليب. فتبسمت راتوتى وقالت: إذا كنت أهلاً لبعض المدح فما هو إلا لأننى أخلصت لك الولاء ورُمت لك الصعود إلى أوج السماء. وإلا فأى باعث يحملنى على إجهاد القريحة في استنباط الوسائل الرجيحة لإنشاء هذا القصر الفخم في مستنقع امتلأ بالحشرات، مع أن مصيره للزوال بعد أن يُنفق في سبيله الكثير من الجهد والمال. قال أنى مطرقاً رأسه: نعم سيكون عمر هذا القصر قصيراً وبقاؤه كالطيف، ولكن هل ذهب عليك أن مشروعنا الذى قدحنا في تدبيره القريحة وأعملنا في تحضيره الفكرة قد ذهب نفخة في رماد؟.. أرى أمينى قد خمدت همته وتلاشت عزمته كما أرى الجنود التى اخلصت لى الولاء وحالفتنى على الصدق في السراء والضراء قليلة العدد يكاد لا يبدو لها أثر في جيش عرم قد ثمل بخمرة الانتصار وتعلق برعمسيس لما أصاب من المجد والفخار. ثم إن الرعاة العبرانيين الذين استملتهم هنا إلى مودتى بما رفعت عنهم من الضرائب الفادحة لم يتعودوا حمل السلاح والنزول في مواطن الكفاح. وأنت تعلمين فوق هذا ما جُبل عليه شعبنا من اتباع الغالب وتحري مواطيء أقدام الظافر والغاصب والتزلف للقوى، فهم ولاشك مبادرون بتقبيل قدميه ولو سعوا حبواً إليه مع علمهم بما سفك من دماء أبنائهم وأزهم من أرواحهم.. لذا أرانى فقدت الثقة فيمن حالفتهم واضطرب خاطرى لأمر آخر لا أجد مجال القول ذا سعة لشرحه.. وهو أن الصقر المرموز لى به والذى عهدت إلى العجوز نيخت العناية بأمره لا يزال مريضاً، بل على وشك الموت لما تولاه من الضعف والوهن.

قالت راتوتى: إذا سلكت مسلك الرجال وجاريت في شهامتك الأبطال ، قويت أجنحة ذلك الصقر فاستطاع الطيران وحلق في سماء القدرة والامكان. واعلم انه لا يحسن بك النكوص على الأعقاب ولا أن تخشى من الملك أى عتاب. لأنه متى رآك

وقد استقبلته استقبال الآلهة العظام انتفخت أوداجه بالكبرياء ونسى الانتقام، ومنعه ذلك عن توهم الغدر فيك وتحامل على من يناويك ، وعز عليه أن يسيء الظن فيمن أنابه لإدارة شؤون الوطن. ولكنه إذا أصغى اليوم لمقالك ولم يشك في حال من أحوالك، فإنه يُخشى أن ينقلب عليك في الغد بوشايات الواشين إذ لا يغيب عنك ما وقع في طيبة من حوادث لا يرجى أن تمحو أثر الوشايات. وما أشبهك الآن بأسد حبس في قفص حديد فاختلس من غفلة حارسه فرصة أفلت منه بها، فلما أخذت عليه الآفاق وامتدت الأيدي للقبض عليه كثر عن نابه. فإذا سلكت اليوم مسلك الأسود ولم تخش بأس أحد من العباد فويل ثم ويل لمن يحاول أن يخضعك لجبروته ويرغمك على الطاعة لحكمه.

قال أنى: أنت لا تكفين عن إغرائي بما أخشى أن تكون عاقبته شقائي وبلائي.. من يدري أن يخيب سعينا كما خاب سعى بعاكر من قبلنا، وهو الذى دبر لرعمسيس من محكم التدابير ما كان ضمينا له بسوء المصير. قالت راتوتى: أتظن أنك إن أخطأت الرمى اضطرب حالك وساء مالك.. إذن ما معنى قول الناس إن الآلهة هم الذين يدبرون حركة العناصر وأن لا أحد منهم على تحريك ذرة منها بقادر . أتستبعد أن تكون الأقدار ساقتك إلى إنشاء هذا القصر الفخم العظيم لتدمره بالنار وتجعله العظم الرميم؟ قال: ومن يأخذ على عهده إشعال النار في هذا المكان الذى ملأه عبدى ونيمو بالقصل والقار؟ أجابت: أنا التى تقوم بهذه المهمة مع رجل لا مطمع له عند رعمسيس ، وهو من أرباب النجدة والهمة. سأل: ومن هو؟ أجابت: بعاكر ! سأل: وهل هو هنا؟ أجابت: كيف تجهل وجوده وقد رأيتك بعينيك؟ قال : لعلك واهمة. قالت: كلا! وقد خاطبته بنفسك. أتدري من العبد الأسود الأعور الذى وافاك أمس بخطابى؟ إنه لبعاکر ابن أختى ستخم. فأرعد أنى لسماع هذا الخبر

وقال: ما أسوأ حاله! قالت: نعم، إنه في أسوأ ما يخطر بالبال من الأحوال لتغير معاملة وتبدل ملامحه. ولقد فقد إحدى عينيه في منازلته لمينا فأصبح أعورا، وكان جسمه أبيض نقيا فطلاه بالسواد حتى تنكره أمه والناس. وقد أصيب بطعنة رمح نفذت من رثتيه فأصبح لا يتكلم ولا يتنفس إلا بعناء. وكان متين الأساطين قوى العضلات عريض الأكتاف، فصار نحिला ضئيلا لا يفرق الناظر إليه بينه وعبء التصق بطنه بظهره من فرط الطوى. وما رأيت في هذه الحال التى يتعذر معها تبين أمره حتى عنى أن أجعله من أتباعى دون أن أطلع على ما أرمى إليه من المقاصد. والذى أتوقعه أنه سيكون لنا على تحقيقها عضدا ونصيرا ولو كان من وراء ذلك حقه.. مالى أراك مترددا؟ أما رأيت أنى لك كمن يهز الجذع ليلتقط غيره الرطب ومن يفرس الشجر ليجنى غيره الثمر؟ وأذكرك هنا بوجود التنبيه على حافظ الأنبة ألا يبخل بها على العسس والحراس وغيرهم من الجنود السردينية كيلا يفسدوا علينا تدابيرنا. ولقد علمت أنك أمرت بإفراغ ثلاث من السفن الخمس التى جاءت من مصر مشحونة بما كان مدخرا عندك من النبيذ. وعهدى برب مصر فى المستقبل أن يكون كريما لا شحيحا لثيما.

قالت ذلك وافتر ثغرها عن ابتسامه الاستكاف. فادرك أنى مرادها بها وقال: لقد خيل لى أنى خجول وفى جلائل الأعمال غير عجول، ولكنى أكاشفك بما يجول فى خاطرى الآن وهو أن يكون ما فرط منا أضغاث أحلام لا حقيقة شديدة الأيلام.. أود تنفيذ يدى من الدسيسة التى أحكمت تدبيرها بإنشاء هذا القصر الذى تكلف المبالغ الطائلة من المال. أما النبيذ الذى أشرت فى كلامك إليه ففى وسعى التصرف فيه على كل حال وإهراقه على مذبح الأمانى والأمال. ومع هذا فإنى أكل الأمر إليك وأدع تصريفه على الوجه الموافق لسعة حيلتك. وقد اعتزمت الذهاب بعد الاحتفال

إلى معسكر الحبشان لأقضى به ما بقى الليلة من الزمان.

قالت راتوتى: ان تفعل هذا وشهد الناس أن النار التهمت ذاك الذى اغتصب عرش الفراعنة يبابعوك ملكا على مصر، ويكفى أن يبدأ أحدهم بالمبايعة ليقتدى به الآخرون.. ولا يهولنك من الأمر شيء فإن الكاهن الأعظم أمينى يؤثرك على رعمسيس ويتلقى نبأ جلوسك على الأريكة المصرية بالبشر والارتياح، ولو بقى صدره حاملا بعض الحقد عليك . ها قد أقبل الملك وها هى أعلامه تخفق من بعيد. قال أنى: نعم لقد جاء فى قضة وقضيضه. ثم سكت هيئته وقال: أنبهك يا راتوتى إلى أن بنت أنات قد حلت بالجناح المخصص لها من القصر ولست أحب متى اشتعلت النار فيه أن تذهب فريسة للنار. فضحكت راتوتى باستخفاف وقالت: أهذا كل ما عندك؟.. كن واثقا أنها ستنجو من الخطر ولن يلحقها شيء من الضرر. فودعها أنى ثم أجال النظر فى البهو المعد لإقامة الحفلات وقال متنهداً: لقد ضاق صدرى وحررت فى أمرى، ألا ينقضى هذا اليوم وليلته بخير وسلام.. فضحكت راتوتى وقالت: أراك تشبه هذا البهو الفسيح فى التجرد من مظاهر الجلال ومجالى السرور، ولكنك متى وضعت التاج على مفركك وأمسكت الصولجان بيدك تهلل وجهك بشراً وتهافت لاستجلاء محياك النضير أفواج الناس فيكون شأنك عندئذ شأنه فى هذا المساء، متى اضيئت المصابيح وخفقت الأعلام وتلألأت كؤوس الراح وبدت على المحتفلين علامات الارتياح. فشكر أنى لها هذا التعبير الجميل بغمزة عينه وانصرف، فشييعته بنظرها وقالت فى نفسها: سادع بنت أنات هنا فريسة النار.. إذ لا أود أن أرى إلى جانبى من يشاطرنى النفوذ والاعتدار.

وكانت بيلوز غاصة بالوفود توافدوا من كل صقع وحذب لتهنئة الملك وجيشه

الظافر. وكانت طوائف الكهان أوفدت الوفود لتحية رعمسيس وتهنئته بالانتصار على العدو. وكان -وفد مدينة الأموات منها مؤلفاً من خمسة أعضاء يرأسهم أمينى والنبي جاجابو. فقصد الجميع، وقد لبس بعضهم ثياباً ناصعة البياض والبعض الآخر جلود الفهود التى حُص بحملها الأنبياء- إلى القنطرة المشيدة على فرع النيل، يتقدمهم أعضاء وفد هيكل فتاح فى منقيس وهو الهيكل الذى شيد فى عهد الفرعون مينا أول مصرى جمع بين التاجين وملك ناصية الوجهين وعلى رأسه كاهنه الأعظم والمدبر لاموره ابن رعمسيس. وتلاه وفد مؤلف من كهان عين شمس فكهان هيكل مدافن طيبة الذى سبقت الإشارة إليه. وكان بيد كل كاهن محجن طويل منمق بأزهار الزنبق والورد، وبيد الكثيرين منهم مجامر البخور يشبه شكلها يداً منضمة الأصابع وُضع فى تجويفها العطر الثمين. وكان ضمن مبعوثى هيكل آمون بعض نساء الأسر الكبيرة فى طيبة، وقد وهبن أنفسهن لعبادة هذا الإله، وكانت راتوتى انخرطت فى سلكن حديثاً بناء على طلب الوالى أنى.

أما أمينى فكان يسير إلى جانب جاجابو مفكراً كاسف البال فسأله هذا بصوت خافت: أنظرت كيف جاءت الأحوال بما لم يخطر ببال.. أين آماننا التى عللنا بها النفوس.. السنا الآن أشبه بسعاة البريد يحملون كتباً مختومة لا يدرون ما تتضمنه من الأقوال؟ قال أمينى: كن واثقاً أنى جئت لتهنئة رعمسيس مسوقاً بعواطف الإخلاص.. أما علمت أنه سيعود إلى مصر على أثر ما وقع من الحوادث فى قادش على غير ما جاء منها وفى حالة تباين حالته حينما برحها.. إنه ليقدر بلا ريب ما وافاه آمون به من النجدة والنصر ولعله نذر لهذا الإله تشييد الهياكل الباذخة إجلالاً وإكراماً ووعد بتقديم القرابين لهيكلى. ولقد عهدت من رعمسيس حفظ العهد والوفاء بالوعد أكثر من ذلك الرجل النحيل الذى أراه فى مركبته هناك باسم الثغر..

قال جاجابو: أخاف على هذا الوالى أن تبطش به يد الملك. قال أمينى: إني واثق من عفو فرعون عنه لأن الرجل لا حول له ولا حيلة فهو كالغصن الرفيع الذى تثنيه الرياح. قال جاجابو: ومع هذا فقد كانت ثقتك به عظيمة فإذا أمالك فيه أصبحت الآن كآمال العاطش الذى يحسب السراب ماء فإذا جاءه لم يجده شيئاً. قال أمينى بصوت منخفض: إن ثقتى كانت بنفسى لا به، وآمالى كانت مستمدة من همتى لا من همته. وغاية الأمر أنى أردت استعماله فى قضاء بعض الحاجات، فإذا أنا تخليت الآن عنه فما هو إلا لغلطه وغروره.. وأول ما زلت قدمه زلت معنا فى رفضه رجاء العفو عن بنطاؤر ثم حنثه فى يمينه انتقاماً من شاب شريف الخصال حسن الخلال. وإنه لجدير بالنفس الشريفة أن تناصب العداة نفساً مثلاً لا نفساً خسيصة ممتهنة، أفيجوز إذن أن يكافأ الرجل الذى انتزع بنطاؤر من بيننا بإجلالسه على عرش الملك ووضع التاج على مفرقه؟! كلا إن المرء إذا أبى الظهور فى مظهر الرجل السهل القيادة المنحدر مع تيار الأهواء فالضرورة تحتم عليه الاستمساك برأيه وعدم الحيد عنه، إلا بعد إمعان النظر وإطالة الروية. ولكننا معشر الكهان الذين لا همّ لهم إلا السهر على مصلحة الجمهور لا يسرى علينا مالا محيص لغيرنا عن العمل به من المبادئ والقواعد. فمن الحقوق المخولة لنا الرجوع عن الغاية التى إليها نرنو، ولو بلغنا إليها وجذبناها من ناصيتها كما لنا أن نتخلى عن نصرناه ورفعنا شأنه ولو هوى إلى الحضيض. ومن مبادئنا الخالدة التى لم نحد عنها منذ أوف السنين أن الحياة الطيبة هى التى يقبض الكهان على زمامها. وهذا رعمسيس قد فتح البلاد وأخضع لسلطوته العباد، لا أظن إلا أنه سيدأب بعد عودته إلى الوطن على تشييد الهياكل الشامخة وفاء بالذنر، ولا بد له من الالتجاء إلينا لالتماس معونتنا، وأنت أدرى أنه لا محيص لمن كانت له حاجة عندنا من الإذعان لنا. ها هو سر تهنئتى ابن سیتی على ما ناله من الفوز والغلبة ولا سر سواه.

وكانت الأعلام تخفق على ضفة فرع النيل بينما كان ارتفاع الغبار في الضفة الأخرى يشير إلى دنو الجيش المصرى. ولم تكن إلا غمضة الطرف حتى طرق الأذان عزف الموسيقى العسكرية التى تسير فى طبيعته وكان الملك رعمسيس على رأس الجيش تقدح عيناه شرراً وتبدو فيهما آثار العظمة والكبرياء، ولكنه ما كاد يرى عند الجسر الممدود على النهر عشرات الآلاف من الأهلين يصيحون صيحات الفرح ويهتفون بالصدعاء له وينثرون فى طريقه الأزهار اليانعة والغصون الناضرة حتى تحولت عظمته إلى تواضع وكبريائه إلى عطف وحنان. ثم تواصل سير الموكب على هذا النمط فلما وقف تقدم أنى إليه وقبّل الأرض بين يديه ثم عرض عليه صولجان الملك موضوعاً فوق وسادة من الحرير، فأشار فرعون إليه أن يدنو منه فلما دنا مال عليه وقبل ما بين عينيه ورجاً منه أن يصحبه ويسوق مركبته لتشرّف بقيادته إياها. وكان رعمسيس يحس فى نفسه ساعتئذ بعاطفة الشفقة على أنى والشكر له بعد إذ رأى من ظاهر أمره ما يحمله على حسن الظن به وطرح الاعتقاد بأنه قد نزع إلى الخيانة ومزق عهد الأمانة.

وكان رعمسيس يستشعر كأن قلبه إناء يفيض سروراً لمشاهدته الوطن الذى يريد له السعادة والسيادة على سائر الأوطان. ثم استقبل الكهان بأرق التحيات وأظهر لهم من الميل ما انتنوا منه داعين له بدوام البقاء غوثاً للوطن وحافظاً له من الشرور والمحن. ثم سار بإرشاد الوالى حتى بلغ إلى القصر فدخله وصعد إلى القاعة التى أعدت له متهلل الوجه باسم الثغر وتفقد بعد ذلك العجول وكانت تبلغ الألفين عدا ثم الأسود فالفهود المستأنسة فالأشجار النادرة المجلوبة من البلاد الأجنبية وقد تخللت أغصانها الطيور المغردة بالسوانها الزاهية، وهذا فضلاً عما لا يحصى عدده من الزراف والنعام الذى خصص لجر المركبات. وكان لذلك دائم الانصراف

نحو البحر ينتظر بذهاب الصبر حضور كريمته بنت أنات.

أقبلت الأميرة بعد هنيهة فعانقها الملك وضمها إليه ضمة المشوق، لاسيما وقد أثار مرآها في نفسه ذكرى والدتها المحبوبة التي اغتالها المنون منذ عهد غير بعيد. وكانت نيفرت تلازمها وتحمل لها مروحتها، فلما دنت من الملك جثت على ركبتها فأمسك بيدها لإنهاضها وتلطف بها إذ قال: لقد وقفت اليوم على أمر جديد لا بأس من موافاتك به يا نيفرت.. لاحظت أن السعادة القصوى التي كنت أظن أن لا سعادة بعدها وأن الجمال الرائع الذي كنت أعتقد أن لا جمال بعده قد يتدرجان في النمو والازدياد إلى ما يتجاوز الظن والاعتقاد. ومن هذا القبيل طالع مينا، فقد كان كوكباً ساطعاً لا يدانيه كوكب في السما والتلالُ فأصبح شمسا متألقة الضياء. وما فاه رعمسيس باسم مينا حتى فكر في أمره فتقطب وجهه وكسف باله ولكنه تدارك ما فرط منه فالتفت إلى كريمته وسألها: ماذا فعلت صديقتك نيفرت حينما علمت أن قرينها اختار من بين السبايا امرأة جميلة أكرم في صيوانه مثواها وأقامها عنده أشهراً طويلة؟.. أريد منك يا ابنتي العريضة أن تكشفى لى النقاب عن هذه الحقيقة. قالت: إن الشطط الذى ركب مينا بهذا الفعل متنه اضطر نيفرت إلى ملازمتى في هذا السفر الشاق، فقد نقلت راتوتى ذلك إليها فحنقت عليها وقالت لها إنها تظلمه بذمه والافتراء عليه وذكرت لها بعد ذلك أنها واثقة به ثقة لا حد لها وأنها تفضل البعد عنها حتى لا تسمع ما تكرهه في حقه منها.

سأل رعمسيس نيفرت: أحقيقى ما روته بنت أنات؟ فاحمر وجه نيفرت خجلا وأومات إيماءة الإيجاب، بينما كانت دموعها تترقرق في عينيها وتندحر كاللآلىء على خديها. فقال الملك: إن رجلا أحرز السعادة كلها باقترانه بمثلك لخليق به أن يكون

قدوة الناس في كرم الخصال ومحاسن الشيم. ثم التفت إلى رئيس التشريعات وقال: بلغ مينا أنى أحب منه أن يقوم اليوم على خدمتى في أثناء الطعام كما خدمنى ليلة الاستيلاء على حصون قادش وأذكر له أنه تركنى في معمة القتال عندما أبصر ببعاصر وأنه إن رأى قرينته في هذا المساء فلا يترك قرح الشراب يسقط من يده. فشكرت نيفرت للملك هذا العطف جاثية قلم ينتظرها حتى تقف، بل انصرف للسلام على رجال بطانته الذين حضروا معه تضحية القرايين وكرر لهم وعده بإنشاء هيكل فخم في طيبة. وكان الملك في مروره بين الأهالى والجند الذين ثملوا بخمرة الانتصار وأطالوا له الهتاف والدعاء يقطع الطريق الموصل إلى المرسى حيث كانت سفن كثيرة تقل جرحى المصريين فتفقد أحوالهم واستفسر عن جراحهم وتمنى لهم الشفاء السريع. وكان أنى قابضاً على أعنة جياد الملك يجذبها إليه ليكبحها عن السرعة، ولكنه بالغ في الجذب حتى حرنت ولم يهدأ ثائرها إلا بشق الأنفس. وكان رعمسيس في خلال ذلك يشعر بأحاسيس غريبة تنتاب نفسه، فقد خيل له أنه يرى وسط المزدحمين حوله شاباً توافرت فيه قرائن الشبه بالبطل الذى انقذه في واقعة قادش عقب استغاثته بأمون، فقال محدثاً نفسه لعل الجياد حرنت عندما أبصرت بهذا الإله الذى لم يكن في الحقيقة إلا بشراً كغيره عاد من موطن القتال جريحا كما عاد كثيرون غيره. ولقد كان في سعة الخائن الذى يقود مركبته ايقافه على جلية الخبر بعد إذ شهد بنطاؤر وسط الجموع، ولكنه لم يفعل ولن يفعل لأنه قد هاله منظره فجذب إليه الأعنة بدون إرادته لتشنج أعضائه واضمحلال قوته.

الفصل السادس عشر

المأدبة الملكية.. لتنفيذ المؤامرة السياسية

كانت الشمس على وشك الأفول وقتما عاد الملك من المرسى إلى القصر الشامخ الذى أعده أنى إجلالا له وإعلانا لانتصاره. وكان جماعة المدعوين يتهافتون على البهو الفسيح المخصص للمأدبة، وقد أضىء بالأنوار المتألقة. فلما دخل رعمسيس وجلس على أريكته واصطف أبناؤه حوله على شكل الهلال أطرق الحاضرون رؤوسهم ثم مثلوا بين يديه يتبع بعضهم بعضا، فكان يقابلهم بوجه باش ويحدثهم بلطف ارتاحت له أفئدتهم وانشرحت منه صدورهم وتطابقت ألسنتهم بالشكر له والثناء عليه. وكان رعمسيس يحدث نفسه بقوله: إن أخص صفات الملوك السدعة واللين والدمائة، فإذا كان أجدادى اختاروا الثعبان رمزاً لعظمة شأن الفراعة ومبلغهم من البطش والجبروت فلست أود أن يحمل رأسى تاجا يحتوى هذا الرمز الجائر. ثم أجال النظر فيمن حوله وقال: ارفعوا عن رأسى هذا التاج وضعوا بدلا منه أكليل ورد زاه نضير.

وفى غضون هذا الاحتفال انصرف من البهو اثنان دون أن يشعر بهما أحد، وهما الوالى أنى والكاهن أمينى. أما الأول فما كاد يبلغ إلى الباب الخارجى حتى أمر حراسه بالذهاب إلى مكان الجرحى لإحضار بنطاؤور وحجزه فى صيوانه ليتصرف كما يرى فى أمره، وكان لا يزال لدى الوالى ذلك الشراب الذى جهزته الساحرة نيخت ليصيب ربان السفينة بالجنون فى الحال إذا ساغه، فحدثته نفسه أن يستعمله فرارا من بنطاؤور إذ كان يتوقع منه الأخطار والشورور.

أما أمينى فقصده إلى صديقه جاجابو ليعوده، وكان أغمى عليه لشدة القئظ فى

أثناء التشریفات الملكية. ولقد سأل عن حاله فلما اطمأن علیه عاد أدراجه إلى القصر الملكي لحضور المأدبة السنیة، فالتقى فی طریقہ بالجنود الذین نیط بهم استدعاء بنطاؤر، عائدین به. وقد لفت نظره إلى الشاعر اعتدال قده وهیبة وجهه فوقف فی مكانه حائراً من الدهشة. أما بنطاؤر فقد عرفه وصوت باسمه فأقبل الكاهن الأعظم علیه وعانقه فرحاً بلقائه. ولقد همّ الحراس بالتفرقة بینهما فكاشفهم أمینی بحقیقته وأمرهم أن یذهبوا به إلى صیوانه لا إلى صیوان الوالی مؤكدا لهم أنه یتحمل عنهم تبعة مخالفتهم وأمر الوالی. فبکی جاجابو فرحاً برؤية بنطاؤر وأمر له أمینی بثیاب بیضاء فلما تدرثر بها وقف نظره علیه ثم وضع كفه على كتفه كما یفعل الأب الحنون بولده الذی ضل ثم اهتدى. وقد قص بنطاؤر علیهما كل ما اتفق له من الحوادث منذ برح مصر، وما كان من التقائه ببنت أنات ومشاركته الجنود المصریة فی واقعة قادش، إلى غیر هذا من جلیل الحوادث، إلا أنه لم یفه بكلمة ما فی حبه لبنت أنات وانقاذه الملك من الأخطار والمهلكات، بل قال فی ختام حدیثه: كنت منذ ساعة فی خیمتی أسرح الطرف فی الأنوار الزاهیة المنبعثة من القصر، فإذا الحراس قد انسأبوا فی خیمتی على غرة منی وانتزعونی منها قائلین إنهم سیذهبون بی إلى صیوان الوالی الذی لست أعلم من أمره معی غیر أنه ناغم علیّ متعمد ایصال الضرر إلىّ.

فأرسل جاجابو وأمینی كلاهما إلى الآخر نظرة كفتهما مؤونة الكلام، ثم قام الكاهن الأعظم وانصرف معتذراً بقرب میعاد الاحتفال وضرورة وجوده وسط المجال وأمر الحراس بالانصراف قائلًا لهم إنه سیخبر الوالی بتعرضه لهم ومنعه إیاهم من أخذ بنطاؤر إلیه. وحينما بلغ أمینی إلى القصر كان أنى منصرفا إلى إجلاس المدعویین فی الأماكن المعدة لهم، فاتجه نحوه وبعد أن سلم علیه باحترام قال: لقد تأخرت عن المیعاد المضروب فعفواً عفواً. وسبب تأخری أنى ألفیت بنطاؤر على قید

الحياة فدعوته إلى النزول في صيوانى وأن يقوم على خدمة النبى جاجابو مكانى فإن هذا النبى لايزال طريح الفراش.

امتقع وجه الوالى غيظا حينما سمع هذه الأقوال، ولكنه كظم غيظه وتكلف البشاشة في وجه أمينى حتى لا تنكشف له نياته ثم قال: أراك مخطئاً في سوء ظنك بى، إذ يبدو لى من كلامك اعتقادك أنى قصدت هذا الشاب بالإساءة في حين أنى لم أطلبه إلا لأرسله إليك. قال أمينى: لا يسعنى إلا الشكر لك وطلب الصفح منك بعد إذ خرجت على إرادتك ولم أنتظر إتمام مشيئتك . ثم تركه وجلس في المكان المعد له إلى جانب الملك.

وكان مئات العبيد في غدو ورواح بين الموائد لتقديم الألوان الشهية ، وكانت تسير بين هذه الموائد مركبات صغيرة وُضعت عليها أوانى كبيرة من المعدنين الكريمين قد اتقن صانعوها نقشها، لتوزيع ما فيها على المدعوين. وكان فريق من الأطفال مختفين خلف أزهار النيلوفر المجسمة التصوير في خشب سقف البهو ينثرون على المدعوين أوراق الورد والبنفسج فيزداد منظر البهو بفعلهم هذا بهاء وبهجة ، لا سيما إذا أضيف إليه تموج الأقمشة الشفافة التى علقت بأطرافها فوق الثريات والمصابيح، فكان يخيل للرائى أنها سماء لازوردية اللون تتخللها على أبعاد متفاوتة منها سحب بيضاء تسير في الجو سيراً وتبدأ. أما الروائح العطرية فكانت تحرق في مجامر من الذهب الخالص ارتفاعها ستة أقدام موضوعة وسط البهو. وكان الموسيقيون في مكان لا تراهم فيه العيون، يشنفون الأذان بأنغامهم المطربة والحنانهم التى تهز النفوس هزاً. وكان الملك ابن الشمس تنبعث من وجهه الأنوار السنية كما تنبعث من هذا الكوكب الدرى، وحوله إلى اليمين واليسار أبناؤه الفخام.

وكان ميّنا يقدم إلى الملك الشراب في أكواب بعد أكواب، أما نيفرت و بنت أنات فكانتا تجاه كرسيه كالبدور الطالعات.

ولطالما انصرف نظر ميّنا وهو في مكانه إلى قرينته المحبوبة الامينة التي لم يظفر منها بحديث منذ جاءت إلى هذه الأصقاع ، فكان الملك يشعر بأنه لاه بها عنه فينبهه إلى تقديم الشراب ، كما كان في خلال ذلك يتحف المدعوين بأخبار الانتصار. وقد طاب له في ذلك تجنب الاختصار، فما جاء على آخرها حتى قال رئيس كهان عين شمس: لا غرابة أن أفاض الشعراء في تمجيد أعمالك والتغنى بخصالك . قال الملك: لا تقل تمجيد أعمالى ومدح خصالى بل عناية الآلهة الذين أنقذوني ببركاتهم الطيبات وأظفروا جندي بما لهم من باهر الآيات وعجيب المعجزات. سألت بنت أنات: أ رأيت الإله ذاته يا أبت، وإن رأيته فبأى شكل تجلى لناظريك؟ أجاب رعمسيس . بدت لى ملامحه كملامح الموهار السابق، أبى بعاصر الخائن. وكان طويل القامة بدين الخلفة تلوح سمات الهيبة على وجهه. وكان يحرك السلاح في يده برشاقة الطفل ولباقته إذا تفرغ للعبته. وكان أمينى يصغى إلى الملك وعلامات الدهش ظاهرة في وجهه، فلما أمسك عن الكلام وقف وقال: لو أن لمثلى أن يعود إلى عهد الشباب لما عاقه عائق عن التنويه بقدر هذا الاحتفال ، عملا بالتقاليد القديمة، في خطبة بليغة أنثر دررها، ولا عن تمجيد معجزة آمون وبسالة ولده في أبيات عامرة بالمعاني الشريفة والألفاظ العذبة اللطيفة كأملح شىء وأحسنه. إلا أنى لشيخوختى التمس منكم الإغضاء على ظاهر عجزى عن السبق في هذا الميدان. ثم التفت إلى أنى وقال: ولما كانت الأسماع يطربها الصوت الرخيم، وكان لا ينقص بهجة الاحتفال سوى شاعر يشيد بذكر انتصارات مولانا الملك بما ينظم من عقود الأشعار وينشد منها بين يديه الكريمتين وفي حضرته العلية بصوته الرخيم ونبراته البلبلية، فماذا لو

استدعينا الشاعر بنطاؤر الذى أفاضت الألهة عليه المواهب ، وهو الآن قريب من هذا المكان وحضوره فى حيز الامكان؟

ما طرق اسم بنطاؤر سمع بنت أنات حتى عرتها هزة الدهش والحيرة والاضطراب، ولم يتمالك الكهان - الذين ألم قلوبهم وفتّ فى عضدهم نبأ فقد هذا الشاعر الكريم الذى كان نابغة الشعر وبدر الشعراء الطالع فى سمائهم- أن انجلت كروبهم وثلجت صدورهم حين علموا أنه مازال حيا يرزق وأنهم لسوف يمتعون برؤيته أبصارهم ويهذبون بسمو ابتكاراته أفكارهم. وما هى إلا دقائق معدودة حتى مثل الشاعر بين أيدي الملك والمدعويين وأنشد أشعاراً حماسية بليغة المعانى وصف فيها زحف الملك رعمسيس وجنوده على مدينة قادش حيث قال:

«نهض حضرة الملك وهو فى غاية الصحة واعتدال المزاج، ونهاية القوة والابتهاج، كأنه المعبود منث أخذاً عدة الحرب فى الحال، ومتهيئاً للضرب والنزال، فأرسل مركبته فى صفوف الأعداء الأنزال، ليوردهم موارد النكال، فهجم على بنى الخيتاس منفرداً بنفسه، ولم يتقدم معه أحد من أبناء جنسه، واقتحم المعركة وحده أى اقتحام ، بمشهد من جميع الأتباع والخدام، وقد أحاط به ألفان وخمسمائة مركبة حربية، لأبطال الخيتاس وذوى العصبية، من القبائل المتكاثرة، والعشائر المتظاهرة، وهم (أرادوس) و (ماز) و (بتاسا) و (كشكاش) و (أليون) و (جاز) و (ناتان) و (شروت) و (اكتور) وغيرهم. وكان على كل مركبة ثلاثة محاربين، بالسلاح مدججين وبعده القتال مؤهبين، ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته، ولا من قواد جنده ولا من أمراء دولته، بل ولا من عساكر المركبات وجند الرماة، فتوجه إلى معبوده واستغاث بمولاه، قائلاً: تركنى وحدى بوسط الميدان جند الرماة

والفرسان، ولم يبقَ معى من يشد أزرى ويعضد ظهري ، فماذا يريد بى مولاي
أمون؟ فهل أنا ولد عاق، وللعقوبة أهل استحقاق ، مع أنى لمولاي سميع مطيع،
أصدع بالأمر على قدر ما أستطيع ، وأقوم بحقوق المشاعر، وإظهار الشعائر، وأملا
بيوت العبادة من غنائم الأعداء الغادرين، وأتقرب إلى المعبود بما لا يُحصى من
القربان، وقد أنفقت في تشييد المعابد المبالغ الفادحة، وذبحت ألف ثور قربانا مزينة
بالزهور الطيبة الرائحة، وأقمت الهياكل الجسيمة، واقتطعت لها الأحجار العظيمة،
وغرست في المعابد الأشجار المخلدة، ونذرتها لتكون مأثر مؤبدة، وأحضرت للمولى
المعبود من جزيرة أسوان أحجار المسلات الباقية على مدى الأزمان، وأجريت
السفن في البحار الزاخرة، لجلب غنائم الملل إلى الهياكل الفاخرة، فأبتهل إليك يا
مولاي وبك أستعين، وأنا بين من لا أعرف من قوم كثيرين، بل وأنا في حضرتك
وحدى، وقد انفض من حولي جندي، تركنى عساكر الرماة، وفرّ عنى الفرسان
الكمة، وقد دعوتهم فما أجابونى، واستغثت بهم فما أغاثونى، وأنت أولى بى من
الجنود الرماة والفرسان، وأحق بنصرتى من الأبطال والفتيان، فانصرنى على العدد
الكثير والجم الغفير، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً».

ثم أجاب الشاعر في قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبي دعاه وقبل رجاه، فقال :
«سمعنا يا رعمسيس نذاك، وقرع أذاننا من هرمونتيس صدك، فما أنا منك قريب،
ولك نعم الأب ونعم المجيب، وأنا الشمس أخذ بيدك، وأقوم بسعدك، خير لك من
الآلاف العديدين، من الناس ولو جاءوا مجتمعين، ومتى كنت بين مركبات القوم
ولو كانت ألفين وخمسائة تفرقوا منهزمين، وراحوا تحت سنابك أفراسك
منكسرين، وضعفت قلوب أعدائك بين جوانحهم، واسترخت أعضاؤهم بين
جوانبهم، فلا يرمون بها سهما ولا يهزون رمحاً، وسأغرقهم في الماء فلا

يستطيعون سبحاً، ويقعون فلا يقومون نهضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، ولقد تعلقت ارادتي بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه، ومن سقط فلا يسود، ومن هوى فلا يعود».

ثم قال الشاعر على لسان سائس ركاب الملك: «يا سيدي العظيم، وملكى الكريم، وحامى مصر يوم النزال، لقد بقينا بين صفوف الأعداء في وسط القتال، فمهلاً مهلاً والنجاة والنجاة! وباليات شعري يا سيدي الأجل، ماذا يكون العمل؟». قال الشاعر فأجابه الملك: «أشدد عزمك، وقوّ قلبك، فإنى سألقاهم وأحمل عليهم كما يحمل الصقر العلوى على غنيمته، فأخذلهم وأقتلهم حتى يُلْقوا في التراب». قال سائس الركاب: «فأرسل رعمسيس عليهم حينئذ مركبته وحمل عليهم ست مرات متواليات فقهر رجالهم، وخذل في كل مرة أبطالهم، واجتمع حوله من لم يشهد الواقعة من قواد عساكره وفرسانه، وانصرف كل منهم فضمهم حوله، وجمع بهم شمله، وقال لهم لقد احتد عليكم قلبى، واشتد عليكم غضبى، هل منكم من أدى حق وطنه، وحمى حما بلده؟ لو لم يقم مولاكم هذا المقام، لأدرككم الحمام، بل قعدتم في مساكنكم وتخلّفتم عن قلاعكم ومحاصنكم، ولم ترسلوا لجندي خيرا، ولا أوردتم عندي من أحوالكم أثرا، وإنما أرسلت كل واحد منكم في قلعتيه، وأوليته بولايته، موصيا أن يرتقب وقت الجهاد، وأن لا يتأخر عن النزال والجلاد، وها أنتم جميعاً أخطأتم، ولأوطانكم قد أسأتم، ولقد اقرتف جنودى وفرسانى أكبر الآثام، إذ تركونى يحيط بى الطغام، وإن إثمهم لأكبر من أن يُنعت ولكنى أبديت شجاعتى، وأظهرت جرأتى، وما أسعفتنى أحد من العساكر الرماة، ولا الفرسان الكماة، بل أخلى العالم بتمامه الطريق لبطشة عضدى، وكنت وحيداً لم يأخذ أحد بيدي».

ثم وصف بنطاؤر ميدان القتال وقتما عادت جنود الملك إليه بعد الهرب فقال:

«ثم أبوا فوجدوا وجه الأرض حيث ساروا مجلساً بالرمم، مغموراً بالدم، ولكثرة القتلى به كان لا يوجد فيه موضع لقدم، فخطبوا حضرة الملك بقولهم: - أيها البطل الباسل والسيد المقاتل، وصاحب القلب ذى الصبر والثبات، لقد أغنيت بنفسك عن جميع الفرسان والرماة. وبما أنك ابن الإله توم ومن صلبه فقد محوت بسيف الانتصار، قطر طائفة الخيتاس من بين الأقطار، وإنما أنت رب العظمة، وملك القهر والغلبة، ولا اتفق لك نظير من سلطان، قام بدلا من جنوده بأعباء الحرب والطعان. فلا غرو أيها الملك ذو القلب الكبير إذا كنت أنت حيث التقى الجمعان أول مبارز، وكنت أمام جندك أول بارز، والعالم بأجمعه ينظر إليك. إذ تعصب كله عليك». فأجابهم الملك بقوله: «لقد أخطأتم جميعاً خطأ شديداً، إذ أنكم تركتمونى بين الأعداء فريداً، فلا أخذ بيدي عشير، ولا أسعفنى أمير، ولا قام بناصرى مطلقاً نصير، بل هزمت الأحزاب من كل الملل وحدى، وقاتلت دون جندى، وكان يحملنى كل من الجوادين المدعو أحدهما بالعظمة فى الصعيد، والآخر بالسعادة فى الملأ الأعلى، ولم تجد يدى سواهما حين أحاط بى الأعداء، فأكرموهما واعلفوهما بجيد الحب فى حضرة الإله (فرا) كلما أويت إلى قصورى المشيدة، ذات الأعمدة العديدة. قال الشاعر: «فلما أصبح الصباح، وأشرق الفجر فى اليوم الثانى وبنوره لاح، عاد الملك رعمسيس إلى القتال، ورجع على الأعداء بالصيال، كأنه ثور نزل على أوز، وعاد الشجعان من أصحابه للمجد والعز، فانقضوا معه على العدو فى معركته، كالصقر ظفر بفريسته، وقاتل معه الأسد الكبير، الذى كان يسير إلى جنب جواده فاشتعلت جميع جوارحه غضباً، وصار كل من دنا منه سقط على الأرض ملقى، وظفر الملك بالأعداء، وقتلهم جميعاً فلم يترك منهم أحداً، وداسهم بسنابك الخيل حتى اندرست منهم الرمم، وتعجنت فى الدم، وصارت كلها قطعة واحدة، لم تلبث أن صارت جامدة خامدة».

وما أتى الشاعر على آخر قصيدته حتى بهت الحاضرون ولزموا السكوت والسكون. وكان رعمسيس لا يفتقر عن النظر إلى بنطاؤور. كأن نفسه كانت تحدثه بتوافر الشبه بين صورته وصورة المبعوث الإلهي الذي نصره في واقعة قادش على أعدائه وقد حدق فيه النظر حتى انتهت به الحال إلى الاعتقاد بأن ذلك الذي يراه هو الذي أنقذه من مخالب الموت ووقاه شر الوقوع بأيدي الأعداء، ولولا ذلك لما وقف على نص الدعاء الذي كان يستنجد به الإله آمون. ولقد أنس من نفسه ميلاً إليه لم يتمالك معه من الوقوف أمام عرشه إذ قال للمدعوين: إن هذا الرجل لحقيق بالاحترام والتبجيل فاحترموه وارفعوا قدره، لأن الألوهية تجلت في صورته لنجدة مليكم حين أحاط به الألوف من الأعداء. فصاح الحاضرون بصوت واحد: المجد والفخر لبنطاؤور.

وقد أثر هذا المنظر في نفس نيفرت تأثيراً جعلها تقصد إلى مكان الشاعر- وقد اكتسى وجهها النضير بحمرة الخجل- وتقدم إليه باقة ورد كانت وضعتها بين نهديها الرمانيين. فطرب رعمسيس لهذا العطف ثم التفت إلى بنت أنسات بعين المستفهم عن هذا السر، فنظرت إليه ثم قصدت إلى مكان بنطاؤور فكلت رأسه بأكليل من الزهور. فأعجب الملك بفعلها وصفق الحاضرون بأيديهم استحساناً، واسترسلوا في التصفيق زماناً. وكانت أنظارهم متجهة نحو الملك وابنته وبنطاؤور وظلوا كذلك حتى قال رعمسيس: لقد انتصف الليل فليصرف كل منكم إلى حيث يريد، وموعداً في الغد هنا.. فلا تنس هذا يا بنطاؤور. ولكن لنشرب قبل الانصراف في سر السلام والأمن، ولنشكر لأنى حفاوته بنا ومبالغته في إكرامنا، وإنى لأحمده حمداً خاصاً على غيرته وأمانته في إدارة شؤون رعيتى مدة غيبتي .

وهنا سار الملك يتقدمه أنى مرشداً وانصرف الحاضرون. وما استطاع مينا أن يحظى بمقابلة نيفرت إلا دقائق معدودة تبادل معها فيها عبارات الشوق والوجد. وكانت الأميرة أذنت لها بالمبيت عند والدتها راتوتى. أما رعمسيس فبقى بعد أن صرف رجال حاشيته في خلوة مع ابنته. وقد سالها: فيم كنت تفكرين وقتما وضعت أكليل الزهور على رأس بنطاؤر؟ قالت بصوت واضح وعبارة صريحة: وفيم يا والدى فكر بنات مصر إذا فعلن مثل هذا؟ قال رعمسيس: ألا تحسبين حساباً لوالدك؟ قالت: إن والدى يعلم أننى خاضعة لأمره ولو كان فى الخضوع حرمانى من السعادة، ولكننى أعتقد أيضاً أنك تحب لى الخير والهناء، ولن أنسى ما حييت تلك الساعة التى كانت والدتى المرحومة فيها على فراش الموت فوعدتنى باستطلاع أفكارى واستكناه مكنون أسرارى، كما كان هذا شأنها معى فى جميع أحوالى وأطوارى. ثم ما فائدة الإسهاب وأنا لم أعشق بنطاؤر منذ أيام، بل إن زمام قلبى بيده قبل اجتماعنا بهذا المكان. ولقد رأيت أنه بما أيداه من جليل الفعال جدير بأن يرقى إلى أقصى درجات الشرف والكمال. وهب أنه وضع الأصل وحقير الشأن، أفلم يكن خليفاً بشرف القربى من أميرة هى سلالة أعظم الملوك وجديراً بأن يسمو بفضائله إلى أسنى المراتب وأبعد الغايات؟ قال الملك: نعم لم أنس الوعد الذى تذكريننى به فافعل ما شئت وتصرفى بشؤونك على ما تشتهين. ولقد عهدت فىك من الصراحة فى القول والفعل ما يحملنى على الثقة بك والاعتماد عليك وإحلالك من نفسى منزلة والدتك منها، والدتك التى كثيراً ما سمعت قولها إن المرأة الصادقة أهدى إلى الصواب من الرجل مع ما اختص به الرجال دون النساء من الفضائل والمزايا. فانهبى الآن يا ابنتى العزيزة للتماس الراحة من العناء وابحثى عن أكليل جديد يزين رأسك ويظهر بأسك.

الفصل السابع عشر

ما يدبر في الظلام.. من الجرائم والآثام

في السهول المحيطة ببيلوز نُصبت خيام وِسرادقات ناصعة البياض يظنها الرائي- وقد طرحت الكواكب عليها أشعتها الباهتة المريضة- كثبان رمل في الفلوات الصحرأوية وأكام برد في المناطق الثلجية. وكان النازلون في هذه الخيام والسرادقات في ابتهاج وازدحام لا تشوبهما أكدار ولا آلام، لأنهم جلسوا للشراب من النبيذ العتيق الذي جىء به إليهم في ثلاث قرب وُضعت على ثلاث مركبات زُينت بالأزهار تجرها عشرة من عجول البقر، وأصابوا منه كثيراً دون أن يكتفوا فثملوا وترنحت أعطافهم وطاشت أحلامهم. وكان بعضهم يتهافتون على الموائد التي مُدت برسمهم في أماكن معينة من تلك السهول الفسيحة فيتناولون ما لذ لهم وطاب من الطعام والشراب.

وكانت خيام الجند مضروبة حول الحديقة التي أقيم بوسطها القصر الملكي، وكان سرادق أنى بينهما يمتاز بارتفاعه وانفساح جوانبه وجمال رونقه وحسن نظامه. وكان إلى اليمين منه الأمكنة الخاصة بإقامة وفود مدارس الكهنة، وإلى اليسار رجال حاشية الوالى وراتوتى خالة بعاكر تختال في مطارف العز والجلال. وكانت نيخت العجوز خلف السرادق لا يفصلها عنه سوى ستار رقيق. وكان أنى قد أخذها معه في سفينته وبقما حضر إلى مصر دون أن يُعلم بأمرها أحدا سوى راتوتى وبعض من يثق بأمانتهم من الخدم.

وكانت العجوز في أثناء الاحتفال قاعدة القرفصاء بالمكان المعين لها تعاني المشاق والإجهاد في استنشاق الهواء، لما أصابها في صدرها من الداء. وكانت تستضىء

بمشكاة من الفخار الأحمر وعلى مقربة منها الصقر المريض، وقد غشيت عينيه سحابة بيضاء. وكان كلما حملته العجوز بين يديها الجافتين لتنفخ في منقاره الأحدب ارتفع حاجباه وانتشر جناحاه، كما لو كان يتأهب لمنازلة جارح آخر أراد به سوءا. وكان الطفل شرّاعو على مقربة منها غارقا في نومه، وقد رأته في هذا الوضع فدفعته برجلها قائلة: قم من نومك أيها الخبيث. فهبّ المسكين من نومه فزعا وانتصب على قدميه وهو يتداعى للسقوط لغلبة النعاس عليه، فقالت له: يخيل لي أنني أسمع صياح امرأة منبعثا من صيوان أنى، فاسترق السمع وقل لي إذا كان ما خيل لي حقيقة. أجب: إننى أسمع صياحا يشبه أن يكون أنينا، وأسمع صياحا آخر من خيمة نيمو. قالت: انطلق إلى هناك ولا يدرين بك أحد ثم عد سريعا واخبرنى بما رأيت.

انطلق شرّاعو مهرولا بينما كان الصقر في يديها تحوطه بعنايتها لأن الضعف قد استمكن منه فأخذ يمد يمينه ويسرة، إلا أنه كان بالرغم من ضعفه وتضعفه يمد عنقه إلى يدها ويرفع منقاره يذود عن نفسه كلما بدت حركة منها تقصد بها إلى معالجة أمره. ولقد أيقنت العجوز أن لا أمل في استنقاذه من خطر الهلاك، فقالت بصوت خافت: هذا الطائر لا محالة هالك بعد قليل، أما الطائر الذى أسميته رعمسيس فإنه يزداد في كل ساعة قوة وشبابا.. نعم إن قوة هذا وضعف ذاك لا يدلان على شيء ما في المستقبل من أمر الملك والوالى أنى، فإن الاعتقاد بمثل هذه الخرافات ضرب من الهوس والجنون. ولكن من يدري ماذا تكون العاقبة؟ ألا يجوز أن يفضى التفاؤل بخير أو شر في أمر ما إلى الاعتقاد أحيانا بصحته.. رأيت الوالى قد ركب متن الخطر وزج بنفسه في مأزق الشر والضرر، مع أنه سيعود بصفقة المغبون كما يدل عليه ضعف جناحى هذا الصقر المسكين وارتخاء أعضائه وانكباب رأسه..

ها هو قد تدلى.. ها هو قد مات. طرحت العجوز الطائر ميتاً في حجرها ثم ألقت به إلى أحد أركان خيمتها ووجهت كلامها إليه كما لو كان الوالى أنى بعينه: أسعد الله مساعك يا أنى .. لقد عدت من أمالك في وضع التاج على مفركك بالخبية والفشل، وتبين ما بنيت عليه آراءك من الخطأ والخطل. ثم سكتت هنيهة وقالت بكلمات متقطعة: وماذا عسى يا ربى أن يقع بعد الآن من الحوادث؟ إن الرجل الحف في سؤالى أيقترن سعيه بالفلاح. وكان نيمو ينقل إلى أخباراً جعلتني أعتقد بقرب وقوع حوادث كثيرة خطيرة لم يكشف لي عن مكنون سرها، ولكنني أخذت منها أن القوم يدسون لي الآن الدسائس وينسجون من التدابير ما أخشى منه على نفسي.. أه! ها قد عاودنى الحزن والألم.

ثم رفعت يدها إلى قلبها وسقطت على الأرض مغشياً عليها ولبثت غائبة عن الصواب ساعة من الزمن. فلما أفاق من غشيتها أحست كان قطرات ماء بارد تجرى في عروقها، فقالت: لو أنني رببت صقراً أخيراً لاستطلع من حاله مستقبل امرئ لسار الآن في أثر أخيه. ثم من يدريني أيفى أنى بوعدته الذي وعدنى من تحنيط جثتى بعد مماتى! ولكن كيف يستطيع الوفاء وهو ذاته سائر إلى الهلاك.. ستترك جثتى معرضة إذن لعوالم الفساد والفناء دون أن أحظى بنعيم الحياة الآخرة. أو أظفر بما أشتهيه من اللقاء بمحبوبى آسا الذى لن أنساه ما خفق لي قلب في صدرى.

قالت هذا ثم لزمتم الصمت هنيهة استأنفت بعدها مناجاة نفسها ليس الموت في الحقيقة سوى واسطة للخلاص من آلام ذكرى الحوادث الغابرة وسبيلاً إلى الحياة الخالدة التى لست أياس من الفوز بها! نعم لا يليق اليأس بمثل فإن الموتى جميعاً

-على تفاوتهم في الدرجات- لا مناص من محاسبتهم على أعمالهم في الحياة الدنيا بمقتضى القوانين الإلهية التي لا ينبغي لنا التطلع لاستبطان أسرارها واستكشاف أسبابها. فأين يا ترى أجد محبوبى العزيز الذى أحرق بنار الحب مهجتي؟ أفى الجنة بين البررة المقربين أم فى الجحيم بين المعذبين؟ أما أنا فسواء عندى أفى السعير وجدته أم فى رياض الجنان رأيتة، مادامت غايتى اللقاء به والتملى بمشاهدته، وليس لهذا أم ذاك من ذريعة إلا تحنيط جثتى بعد الوفاة وصونها من الفساد والفناء.

وفى هذه الأثناء كان شراعو أبلغ إلى نيمو ما صارت العجوز إليه من تضعضع القوى والإشراف على الموت. فلما دخل عليها لتفقد أحوالها ووقع نظرها عليه تنفست الصعداء وقالت: إنك أحسنت بحضورك فى هذه الساعة، فقد حان يا بنى أجلي. ولا تغرب شمس اليوم حتى ألفظ النفس الأخير. فجزع نيمو وصاح قائلاً: كيف هذا يا والدتى؟ أتموتين! كلا، بل يجب أن تبقى على قيد الحياة لتنعمى - بعد انقضاء حوادث اليوم- بلذة العيش وتفوزى بجزيل العطايا والمنن. قالت العجوز: أما حوادث اليوم التى تشير إليها فقد وقفت على ظواهرها وبواطنها. ثم أوعزت إلى شراعو بالانصراف وسألت نيمو أن يذيع لها ما كان كاتماً من تدابير تُتخذ وفخاخ تُنصب. فدنا القزم منها وقال: إن القصر الذى سيقضى الملك فيه الليل بُنى من الخشب وقد وُضع القصل والقار فى جدرانه حتى إذا نام أشعلنا النار فيصبح القصر وليس به أنيس ولا ديار، أما الحراس فهم الآن بين موت وحياة لكثرة ما شربوا من النبيذ الذى نهب عقولهم وسلب شعورهم. قالت العجوز: لقد بلغت الغاية فى سبك الحيل، لكن لا أتوسم فىك الجرأة والإقدام على تنفيذها مادمت تجهل إذا كان قد اتصل بالملك سر المؤامرة عليه أم لا، أو سيشاركك فى ذلك رفقة توافرت فيهم صفات الشجاعة واقتحام الأخطار. قال القزم: لا يدري بدخيلة هذه المؤامرة غيرى

وراتوتى وبعاكر. وقد اتفقنا جميعاً على إضرام النار في وقت واحد بجهات معينة. أما الجهة التي أخذت على عهدي إضرامها بها فهي الحجرة الخاصة ببنت أنات. وقد تعهدت راتوتى بإحراق السلم المتصل بأداة إذا حركت سقط السلم ولم يعد الصعود فيه ولا النزول منه ممكنين. أما بعاكر فتعهد بإشعال النار في حجرة الملك رعمسيس. قالت العجوز: حسن كل هذا، ولكن من المرأة التي كان صوت استغاثتها قبل حضورك بقليل يدوى في الفضاء؟ فتردد القزم في الجواب فقالت: تكلم ولا تخش شيئاً من عجوز مثل ستحمل هذا السر معها إلى القبر. أجاب نيمو: التقيت في الطريق بحفيدة المحنط بينم فجئت بها إلى خيمتي معللاً النفس بزواجها متى استوى أنى على عرش الملك واعتنقتنى راتوتى من رقتها وكافأتنى على إخلاصى في خدمتها. والظاهر أنها كانت في حاشية الأميرة بنت أنات، وكان مقرراً أن تقضى الليلة معها في حجرتها. فساققتها الأقدار إلى حتى لا يصيبها ما سيصيب غيرها من الموت بعذاب النار. وكانت تريد منى أن أطلق سراحها كي تعود إلى القصر فلم أجبها إلى طلبها، ورأيت أن إنقاذها من الحريق فرض محتوم على. وقد ألحقت في الطلب فلم أرَ بدءاً في إخضاعها لإرداتي من شد وثاقها بحبل متين. سألته العجوز: وهل سكتت ولم تقاومك؟ أجاب: كيف لا وقد كانت تتقلب في يدي كمن يتقلب على الجمر ولم تمنعنى هذه المقاومة العنيفة من التغلب عليها بمساعدة الأخرس خادم الوالى الذى أمره مولاه بمساعدتى. ولما علا صراخها حتى ملأ الجو وخفت العاقبة سددت فمها بقطعة خشب فلم تستطع الصياح. سألته العجوز: وإذا ذهب في تنفيذ مكيديتك، فهل تتركها وحدها في خيمتك؟ قال: نعم لأن والدها معها. قالت العجوز دهشة: والدها رشتا ذو اللحية الصفراء!. وكيف لم يحطم عظامك كما يحطم قدر الفخار وقد رآك تسيء إلى ابنته؟ قال نيمو ضاحكاً: والدها لا يستطيع حراكاً لأنى كنت

التقيت به في المعسكر فأعطينته من نبيذ أنى قدراً وافياً أضاع رشده فهوى إلى الأرض جامدا كالمومياء. وهو الذى أطلعنى على مكان وردة فأسرعت من فورى إليها ومازلت بها حتى أحضرتها إلى خيمتى بحجة أن والدها مريض وأنه رجا منى استدعاءها ليخفف عن نفسه الألم بالنظر إليها، فما سمعت هذا القول حتى اقتفت أثرى وحين رأته أن والدها قد فقد صوابه جثت على ركبتيها أمامه ثم طلبت ماء لتنضح به جبينه بعد أن ظهر لها أنه أصيب بحمى شديدة وسمعتة يلهج بذكر جردان كان يقول إنها أهدقت به وحملت عليه. وقد لحظت بعد ذلك أن الوقت أزف وأنه لا بد من العودة إلى القصر الذى فيه بنت أُنات، فلما أبت البقاء عندى التجأت إلى العنف فى إلزامها على البقاء، ولو دريت يا أماه ما أصبحت عليه الآن من الجمال الباهر والحسن الزاهر! قالت العجوز: نعم جمال باهر وحسن زاهر! ولكنك إذا اتخذتها حليلة لك ستضطر إلى انكاء العيون عليها لأن الجمال مرعى. قال نيمو: اعلمى أنى سأعاملها بما يعامل الأمراء والكبراء به نساءهم فأرصد لخدمتها الخاصة بعض الجوارى الحسان.. أترى راتوتى قد عادت مع نيفرت؟ إنى أرى الكواكب تهوى قليلا قليلا، وعما قليل يتم الحادث الجال الذى اتفقنا على أن تكون إشارة الشروع بتنفيذه أن تصفّر سيدتى ثلاث مرات فتهم عندئذ بوضع النار فى الأماكن المعينة. وأذكر يا أماه أن عندك علبة ثقاب فاعطينها فإنها أجود من ثقاب علبتى. قالت العجوز: خذها فلست بحاجة إليها بعد أن فرغ نصيبى من الدنيا. ولكن قل لى مالى أرى يديك تضطربان. دع الجبن والكعاعة وخذ العلبة بقوة وإلا تناثرت ثقابها قبل أن تضرم النار بها. فودعها نيمو بعبارات تشف عن العطف فلم تبد منها حركة ولم تنبس شفتها بكلمة، فلما غاب عن نظرها وقف وقد ظهر القلق على وجهها وأنصتت لتسمع صفير راتوتى وكانت عينها تلمعان وساورتها

الهاجس ، فلما سمعت للمرة الثانية من صفير راتوتى المنبعث من صفارة فضة قالت تحدث نفسها: ما أشنع فعلتكم أيها الأغبياء الأذنياء، فبعاكر منكم عنوان الشر ونذير السوء وراتوتى صاحبة الصلف والخيلاء ونيمو مصدر المكائد وينبوع الحيل. ولكنكم لن تستطيعوا أن تمسوا رعمسيس بأذى ولو في أضغاث الأحلام . إن صقر أنى قد مات فلا أمل إذن له في تحقيق أمنيته كما لا رجاء لى في قضائه غايته، ولكن لورام رعمسيس.

ثم تناولت قنينة وسكينا وسارت مستندة إلى عكاز ومتعثرة في أذيالها ، حتى بلغت إلى خيمة نيمو، وكانت الأفاق تررد دوى الصفير الثالث. فلما وصلت إلى الخيمة وجدت بها وردة مطروحة أرضا وموثقة الأكتاف ورشتا فاقدتا الشعور. وكانت وردة ترتعد فرائصها وشراعو ممدودا عند قدميها كالكلب الأمين، فلما رأى العجوز مقبلة عليهما بسط يديه بالضراعة أن تنقذهما. أما هى فقد ألفت السكين إلى الطفل وأمرته أن يقطع الحبل الذى شد به وثاق وردة، وكان حبلا متينا مضمفورا بالياف ورق البردى.

وبينما كان شراعو يعالج قطع الحبل بالسكين كانت العجوز تدلك صدغى رشتا بالخلاصة التى فى القنينة ثم قطرت نقطتين منها بين شفتيه، فما هى إلا غمضة الطرف حتى أفاق الرجل من غشيته وأجال النظر فيما حوله دهشاً حائراً. فقدمت العجوز إليه ماء وألحت عليه أن يشربه وقالت لوردة التى نشطت من عقالها ووقفت على قدميها: اعلمى أيتها الأيكة البيضاء أن الآلهة قد بعثتك هنا لاداء مهمة جلية.. إن الملك وأولاده قد دُبرت التدابير لاغتيالهم ، ولى شوق إلى إنقاذهم مما أوشكوا أن يقعوا فيه، غير راغبة فى جزاء إلا أن تحنط جثتى وتُدفن فى طيبة. أفتقسمين لى

لتبلغن إلى الملك هذه الوصية؟ قالت وردة: أناشدك الآلهة ما الخطر الذى تتوقعينه؟
قالت العجوز: خذى على نفسك عهد الآلهة وميثاقهم أن تتعهدى قبرى بالعناية.
قالت وردة: أقسم لك بالآلهة وبحياتى لئن مت لاتعهدن قبرك، ولكن أى مصاب
يتهددنا الآن؟ أجابت نيخت: إن راتوتى وبعاكر ونيمو تأمروا على إضرام النار
بقصر فرعون فى ثلاث جهات منه، فعليك يا رشتا باقتفاء أثرهم وبادر بإيقاظ
الحراس وعجل بإنقاذ الملك من الهلاك. قالت وردة لوالدها: هلم بنا يا والدى نتلاقى
الخطر وإلا وقع بنا السوء والضرر. قالت هذا وأخذت تركض خلف أبيها. وبينما
كانت تمعن فى الركض كانت العجوز تشيعهما بنظرات العطف والحنان وتحدث
نفسها: إن وردة صادقة الوعد وأهل لحفظ العهد. ثم همت بالعودة إلى خيمتها
فخانتها قواها ولم تستطع نقل قدميها. ولم يكن شراعو الصغير لضعفه بقادر على
مساعدها، فسقطت على الثرى، والتفتت إلى القصر فإذا بشعاع يسطع فى السماء
بين حين وآخر كأنه لمع البرق الخاطف ثم ازداد تألقه وتصاعدت بعده سحب دخان
كثيفة اشتدت بها حلكة الظلام. وما هو إلا مرّ الطيف حتى اندلع لسان اللهب
وتطاير الشرر فى جميع الأرجاء. فلما رأت العجوز هذا المنظر المخيف صاحت
بشراعو أن يجرى إلى المعسكر ويوقظ النائمين. فأخذ يعدو صائحاً يملء فيه: النار!
النار! وقد أحست نيخت فى أثناء ذلك ألماً أخرج صدرها وضيق أنفاسها فرفعت يدها
إلى قلبها وتشنجت شفتاها، وكانت آخر جملة فاهت بها قبل أن تفيض روحها: إلى
الملتقى فى العالم العلوى يا آسا!.

الفصل الثامن عشر

النار! النار! وما وقع بالقصر من الدمار والاندثار

كانت راتوتى أخفت بعسكر في خيمة بعض الخدم كيلا ينكشف أمره ويفتضح سره. وما تمكن هذا الشاب الساقط الهمة من العودة إلى مصر إلا بشق النفس واستنباط الحيل. فإنه بعد معركة قادش التى أصيب فيها بالجراح الفادحة أخذ يتلمس الطريق في الأجام الكثيفة والغابات المظلمة حتى وفقته المصادفة لمقابلة فلاح سورى يقود حمارا فاشتراه منه ثم امتطاه وطار به من سبل لا يعرفها سواه وظل يواصل السير إلى أن بلغ إلى المغارة التى كان الشاعر بنطاؤر أرشد إليها والد وردة، فوجد بها تابعه الحبشى الأمين الذى أقام على خدمته والعناية بشأنه حتى أصبح بحيث يستطيع السفر إلى مصر. وقد قصد إليها فعلا فوصل إلى بيلوز متنكرا بلباس حداة الابل ولم يستصحب الحبشى، بل تركه في سوريا حتى لايشى به فتمتد يد الانتقام إليه. ولما دنا من الحدود بين سوريا ومصر^(١) وُجّهت إليه أسئلة عن حقيقة شأنه وعن سبب حضوره وعما إذا لم يلتق في طريقه ببعسكر الخائن لوطنه أو لم يسمع عنه خيرا. وأخذ السائلون - وهم حفظة الحدود وحراسها - يصفونه له بأنه عريض الأكتاف قوى الأساطين بدين الجسم ظاهر الصلف، ولم يخطر قط ببالهم أنه هو بعينه الذى يجاوبهم عن أسئلتهم، وكان لهم في ذلك عذر. وقد تنكر في زى جمّال أعور ووظفه الشيب وأنهك قواه التعب لاسيما مع تحيله على بشرته إذ غير لونها بعقاقير اشترهاها من طبيب وطلّى بها جسمه فأصبح أسود فاحما لا فرق بينه وبين الزوج.

(١) كان على طول الخط الفاصل للحدود المصرية من حدود الشام بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر حصون متعاقبة تكاد يتلاصق بعضها ببعض لحماية مصر من غارات عرب الشاسو وكانت هي العلامة على خط الحدود.

وكان أنى وراتوتى قد وصلا إلى بيلوز حينما وافاها بعاكر متنكراً بذلك الزى يستجدى الناس إحسانهم، وحاملا بيده سعة نخل. واتفق أن أبصر بخالته راتوتى فدنا منها مستجدياً فأثر منظره الرث الحقير في نفسها بما حملها على إسدائه البر. وقد سألته عن أصله وسبب جراحه والصناعة التى يزاولها وأظهرت الاهتمام بأمره عملاً بخطة عقدت العزيمة على اتباعها وهى 'ستمالة الفقراء للاستعانة بهم عند مسيس الحاجة. فجاوبها عما وجهت من أسئلة، وكانت تتلقى بيانه بتكلف الشفقة والرفق ولكنها تعذرت عليها معرفته بصوته، فلما كان اليوم التالى عاد إليها ليعرفها بنفسه. وقد كان، فلم تتمالك عندئذ أن أظهرت الدهش من تغير حاله وانقلاب سحنته. وكان أنى قد أصدر منشوراً ينذر فيه بعقوبة الإعدام كل من اهتدى إلى بعاكر ولم يقبض عليه ليسلمه إلى رجال الحكومة. ومع هذا فإن راتوتى قد رضيت بهذا الخائن في خدمتها غير مقدره لمخالفة ذلك الأمر عاقبة. وليس غريباً أن لاتعبأ راتوتى بالأوامر والمنشورات الرسمية لأنها كانت بحاجة شديدة إلى بعاكر ألد خصوم رعمسيس ومينا سائس ركابه. وكان ذلك الخائن على ما أصابه من العور ونزل به من المحن يجتهد في مجانية الخدم، لأن رذيلة الكبرياء في طبعه لم يقهرها وازع المصيبة، فأراد مغالبة سنة الدهر في الخلق بأن يكون بعد أقول نجمه كما كان في أيام عزه وبأسه. وكان ما امتلأ صدره به من الأحقاد والسخائم قد محا من فؤاده عاطفة الحب فلم يعد يفكر في نيفرت. وهو إن أفسح صدره للأحقاد ولم يمت بها فما هو إلا لتردد الأمل بنفسه في أنه سيقهر أعداءه ويدحر خصومه ويراهم في عداد الموتى، قبل أن يدهمه هادم اللذات ومفرق الجماعات.

كان بعاكر وهذه حالته أطوع آلة في يد راتوتى لتحقيق أمانيتها. ولقد وثقت من صدقه وأمانته لأنه ما كاشفته بالمكيدة التى دبرتها وفوضت إلى حذقه - بل إلى

حقده- إضرام النار بقصر الملك والفتك بمينا حتى برقت في عينه بوارق الارتياح للقيام بأعبائها. وكانت تحت نوافذ حجرة الملك - وهى من سطح الارض بأربعين قدما- دريزون مقاما على أطراف قوائم الخشب الحاملة للسقف. فوضع المتآمرون تحت هذا السقف مواد كثيرة قابلة للالتها ب وتلمس بعاكر الثقوب المعدة لدخول المتآمري ن منها ليشعلوا النار فاهتدى إليها بما احتدم فى بصيرته من نار الحقد لا بما بقى فى عينه الوحيدة من البصر.

وقد نفخت راتوتى فى صفارتها النفخة الاولى فاندس بعاكر فى الداخلى دون أن يمانعه أحد لان الحراس كان غلب عليهم النعاس، لما أفقد صوابهم من النبيذ العتيق الذى قدمه الوالى وأنصاره إليهم. ثم أخذ يتسلى الجدران بالأفاريز البارزة منها حتى بلغ إلى ارتفاع قامتين. وهناك وجد سلما من الحبال المتينة قد تُرك بمكانه عمدا بناء على خطة مرسومة من قبل، فاستمسك به خشية السقوط. وكانت حجرة الملك مضاءة بالأنوار الساطعة فشهد فى مكانه ما كان يحدث فيها وسمع ما يقال.

وكان مما رآه جلوس الملك يطيل التأمل ويُعمل الفكر وأمامه الوالى آنى، وعلى مقربة من سريره مينا يهيبء له لبسة المتفضل^(١) وأنه بعد هنيهة رفع رأسه ومد يده لأنى قائلا له بثغر باسم: اسمح لى يا ابن العم بأن يكون ختام هذا اليوم الجميل اعترافى بفضلك وشكرى مروءتك، فقد ألفيت فىك الصديق الحميم والخل الوفى والحافظ الأمين، وإن اعتقضى فىك لكذلك، ولهذا لم أحفل بما سعى الواشون والحساد به لى فى حقك. وأعلم أنى من أبعد الناس عن إساءة الظن بالناس، غير أنى رأيت أمورا رابتنى كثيرا وقلق من أجلها خاطرى. رأيت أننى ظلمتك وأجحفت

(١) ثياب النوم

بحقك، فقد بلغ من سوء ظنى بك ما لا أجد معه مندوحة من الاعتذار إليك. انك صديقى وأنا صديقك ومن أحب الأمور إلى أن تقف الأمة المصرية على مبلغ ثقتى فيك واعتمادى عليك، ولست أجد للدلالة على هذه الثقة ما هو أبلغ من دعوتك إلى القيام على حراستى هذه الليلة، فتم أنت على الأريكة بينما أرقد أنا في هذا السرير.

فمد أنى يده لمصافحة الملك، وكان بعاكر على مقربة منهما يسمع كل ذلك ويراه فلم يتمالك من التبسم حينما شهد السوالى ممتع اللون باادية عليه علامات الاضطراب والوجل. أما رعمسيس فلم يشعر بهذا التغيير الفجائى لأنه التفت إلى مينا وقال له: هلم إلى يامينا لقد اخترت قرينتك أيما اختبار، فعلمت ما انطوى فؤادها عليه من الأسرار، وتحققت أنها تهواك ولا تحب فى الدنيا سواك، وأنها قد أسلمت قيادها إليك لتمام ثقته بك واعتمادها عليك. وشأنها فى هذا شأن الاطفال الذين يأتون عفوا من الأعمال ما يفوقون به همة الرجال. وتذكر أنى وعدتك يوما بهبات وعطايا جزيلة إذا أقامت قرينتك على عهد الوفاء لك فى مدة غيابك الطويلة. وإن لم تبقَ عندى خلجة شك فى ذلك فسلنى ما تتمنى وهو يؤجّه فى الحال إلى بابك.

فجثا مينا أمامه وأخذ يقبل أطراف ثوبه ثم قال: لا أستميحك يا مولائى إلا الإغضاء عن ذنبى ليخف عبء الهموم عن قلبى، وأنت أدرى بما هو هذا الذنب الذى ما تورطت فيه إلا لأن يد الخائن بعاكر تطاولت إلى نيفرت الطاهرة الذيل. وقد أيقنت الآن- كما كنت أوقن من قبل- أن هذه الزوجة الصالحة المقيمة على عهد الوفاء لم تحس فى نفسها نحو ذلك العنل الذميم غير الاشمنزاز والاحتقار كما تشمئز النفس لرؤية الخنفساء والصرصار. قال الملك: ماذا أسمع؟ لقد طرقت أذننى الآن أنين شك وعويل باك. ثم دنا من النافذة وأطل منها فلم يرَ أحداً، لأن بعاكر الذى لم يكف عن النظر إلى الملك ولا عن متابعة حركاته، قد تمطى تحت الدرزون فلم يره الملك لحلكة

الظلام. ولقد عاد إلى مكانه فقال مينا، وكان لا يزال جاثيا على ركبتيه: اعفُ عنى يامولاي واصفح الصفح الجميل. أعد إلى ثقتك وسلمنى زمام جياذك الصافنات وفوض إلى أمر المركبات.. أنا لا أعيش إلا بك ولا أنعم بغير الإخلاص لك، فإذا كان مولاي قد رأى فى عبده كفاءة واستحقاقا فما الفضل فى ذلك إلا له وهو مليكى ومولاي وأبى. قال رعمسيس: قف يامينا، فلقد أجبت من قبل نذاك وحققت رجاك، ولا يأخذنك العجب إذا سبقتك إلى تحقيق مرادك لأنى مدين لك بأشياء كثيرة لولاك لما حصلت عليها. ولك الآن أن تحمد نيفرت حمدا جزيلا فقد جاءت بالدليل على تقانيها فى حيك، وأبسط أكف الدعاء إلى الآلهة الذين يجلون عن الموت ولا يدركهم الفوت، اعترافا بما وفقونى له فى هذا اليوم الميمون من مقابلة خلين وفيبين وزيادة أولادى فى شخص الشاعر بنطاؤور.

ما أتم الملك الكلمات حتى طرق الأذان الصغير الثالث منبعثا من صفارة راتوتى، مؤذنا بتنفيذ المكيدة، فما أن سمعه بعاصر حتى ألقى جذوة نار مشتعلة من الفتحة المثقوبة تحت الدربزين، ثم نهض لينصت إلى حديث الملك ومينا غير مكترث بالخطر المحقق به. وكان أنى فى خلال ذلك قد تقدم صوب الملك وقال له: ألتمس من مولاي العفو إذا اجترأت على الاستئذان منه بالانصراف وإنى لأشكر له التفاته السامى إذ عهد إلى حراسة ذاته العلية فى هذه الليلة، غير أنى أشعر بإعياء فى جسمى على أثر ما بذلت فى الأيام الأخيرة من جهود وعانيت من تعب. فإن راق لمولاي أن يأذن لى، وهو المرتجى والمأمول للنعم.. فقاطعه رعمسيس: سيبقى مينا طول ليله ساهرا، أما أنت فإذهب إلى فراشك مطمئن البال، واعلم أنه إن أبقيتك هنا حتى الآن فما هو إلا لرغبة منى فى إظهار ثقتى بك.. هلم إلى بالثياب يامينا.. ثم إن على لسانى كلمة أحب الإفضاء بها إليك.. اعلم أن الشباب يجذب الشباب كما يجذب المغناطيس الحديد.

فإن بنت أنات اختارت لنفسها بعلا من ذوى الشهامة والمروءة والفضل، ألا وهو الكاهن الشاعر بنطاؤر الذى أنقذنى من أيدي الأعداء وخلصنى من الشرور. وقد رُوى عنه أنه ابن بستانى بيت سىتى، ولكن أمنيى أطلعنى على حقيقة أصله وسر مولده، فتأكد لى أن بنطاؤر إنما هو ابن الموهار العريق الحسب الكريم المحتد، وأن ذلك الوغد المقوت بعاكر هو ابن البستانى، وأن عجوزا ساحرة تسكن على أطراف المقبرة بدلت أحدهما بالآخر لغاية فى نفسها وأنها اعترفت بهذه الحقيقة ولم تجدها. وهذا الذبا قد هسَّ له وجهى وارتاح صدرى، إذ لولا استكشاف ذلك السر لانتقمتم من ستخم إما بإعدامها وإما بنفيها إلى معادن الذهب فى بلاد الحبشة.. يالله.. ما هذه الحوادث العجيبة والمصادفات الغريبة!

وهنا سُمع دوى جسم ثقيل قد سقط وارتطم عند سقوطه بالأرض فهزول الملك ومينا إلى النافذة لاستطلاع الخبر فلم يستطيعا الوقوف عندها لتصاعد الدخان الكثيف من تحتها ودخوله منها. فقال الملك: أحضروا الخدم لإطفاء الحريق. قال مينا للوالى: عجل بالخروج وانجُ بحياتك، أما أنا فسأبقى هنا حتى تنجى الكارثة ويعود الاطمئنان. وما كاد أنى يسمع نصيحة مينا له بالنجاة حتى ولى الأدبار كالأسير الذى يُطلق سراحه بعد طول الاعتقال. وكانت راتوتى أشعلت النار بداخل القصر وكسرت الأداة الحافظة للسلم فسقط تلك السقطة التى ألقت الروع فى القلوب. ورأى أنى ثيابها السابطة إلى كاحل القدمين وهى تطلب النجاة بعد فعلتها الشنعاء فنأداها باسمها وهو يركض خلفها طالبا النجاة لنفسه أيضا.

أما رمسيس فأظهر من الثبات والجلد ما استوجب العجب، لأنه عاد إلى حجرته رابط الجأش ساكن القلب، ثم أطل من النافذة ليقف على مبلغ الخطر فرأى اللهب مندلع اللسان من الجناح الأيسر فيصبغ الفجر بلون يخيلى للرأى معه أنه فى رابعة

النهار. أما جهة الجنوب فكان السكون سائدا فيها، فوجه مينا نظره إلى الدربزين الذى نزل بعسكر منه واختبر بقدمه متانته فتأكد له أنه من المتانة بحيث يحمل جملة من الناس، ثم التفت إلى الجهة الأخرى فلم يسعه إلا أن صاح قائلاً: يا للخيانة إن هذا الحريق لم يقع اتفاقاً وإنما هو نتيجة تدبير سابق، فإنى أرى رجلاً يلقى جذوة نار مشتعلة، فأسرع مينا نحو السرير فتناول قوس الملك ورماه منها بسهم فسقط صارخاً. ولقد وجدت جثة ذلك المجرم بعد فإذا بها جثة نيمو الذى كان السهم أصابه فى قلبه. وكان بذلك المكان ليحاول إضرام النار بحجرة بنت أنات ومخدع الأمير راميرى. وخرج مينا من النافذة بعد ذلك ليقيس ارتفاع الوثبة، إلا أن الدخان كان فى حجرة الملك كالضباب المنتشر وكانت السنة اللهب تندلع فتلتهم أخشاب السقف. وأحس الناس كلهم هذا الحادث الرهيب فأخذ الجنود الذين يقودهم رشتا والد وردة يصيحون: النار! النار! ليمت الدساسون والخونة! انقذوا الملك! فلما سمعت وردة صياحهم أسرعت إلى القصر لتخبر بنت أنات بما وقع، وتحضها على النجاة بنفسها. وكان الملك واقفاً على الدربزين بجوار مينا يصيح بالجند: ليذهب بعضكم إلى القصر لإنقاذ ابنتى ويجتهد البعض الآخر فى منع سريان الحريق بإخماد النار، أما أنا فذهاب إلى الجناح القبلى لأرى ما حدث به.

ولكن جذوة النار التى ألقاها نيمو قبل أن يرمى بسهم مينا جاءت بالغرض المقصود من إشعال النار وإحراق أخشاب السقوف وتخريب القصر وإهلاك سكانه. وكانت غممة أصوات العساكر تمتزج بقرقعة سقوط السقوف ودوى الطبول وصدى الأبواق فتصدم السمع جلبية يعجز قلم البلوغ عن وصفها. وربط الأمراء أطراف ثيابهم ببعضها ببعض ليتخذوا منها حبلاً متيناً يستعينون به على النزول من النافذة وقد تمكنوا من ذلك بما لا يخطر بالبال من الجرأة والهمة. وكان

رعمسيس يشجعهم على الخلاص دون أن يتحرك من موضعه ليلتمس النجاة لنفسه، لأن الدربزين المحيط بالقصر كان مقسما أقساما متساوية يبعد كل قسم عن تاليه بستة أقدام وكان يمتد ويشتد استعارا وينبعث منه الشرر فيتساقط كالشهب عليه وعلى مينا.

فصاح رعمسيس: أحضروا القش واتخذوا منه كوما في هذا المكان فلا مطمع في النجاة إلا بالوثوب. وكان اللهب يخرج وقتئذ من نوافذ مخدعه، ولا سبيل للوصول إليه، غير أن رعمسيس ومينا لم يفقدا شيئا من الجلد والأناة وحضور الذهن، فلما رأى مينا أن الاثنى عشر أميرا ينزلون من النافذة بالحبل المتخذ من الثياب المتصلة الأطراف بعضها ببعض صاح براميرى-وقد تاهب للنزول- أن يرفع الحبل وان يثبت بمكانه حتى يجيء إليه. فأطاع الأمير أمره وقبل أن يعترض رعمسيس على مينا في فعله كان هذا قد وثب في الفضاء الذى بين أجزاء الدربزين فارتعدت فرائص الملك والأمراء وأكبروا مجازفته إلى هذا الحد بحياته. لأنه لو كانت قدمه زلت في شيء لسقط كما سقط بعاكر ومات شرمية.

وبينما كان الحضور يشهدون هذه المناظر المؤلمة المفجعة التى قوبلت فداحة الأخطار فيها بما يناسبها من الإقدام والثبات والاقترام، كانت النار تدمر السقوف وتلقى بها إلى الحضيض فيسمع لها دوى يختلط بترنيمات المنشدین المقلبين من المعسكر البعيد. وأبلغ شراعو نيفرت نبأ الحريق فأسرعت إلى مكان الحادث وجثت على ركبتيها تبتهل إلى آلهة النجاة أن ينقذوا أهل القصر من مخالب الهلاك. وكانت ترى مينا وأثبا من مكان إلى مكان وترافقه في حركاته بفؤادها وسائر جوارحها وتعض على شفتها لتكظم في نفسها أحاسيس الخوف فلا ينهمر من عينيها دمع ولا ينطلق لسانها بصياح. ولم تلبث الطمانينة أن عاودتها حينما أيقنت أنه يؤدى

الواجب عليه بشهامة الشجعان وثبات الأبطال فحل السرور في فؤادها محل الخوف والانزعاج.

ولما دنا مينا من راميرى ربط نفسه بطرف الحبل وأرشد الأمير الذى كان مستندا وقتئذ إلى النافذة إلى ما ينبغى أن يعمل له ليرفعه ثم اجتاز الطريق الذى وثب منه بحيلة، فلما شهدت نيفرت أن الخطر محقق به لم تتمالك أن كتمت أنفاسها بيدها حتى لا ينبعث صياح من فمها، ثم أغمضت عينيها حتى لا ترى ما يزعج فؤادها ويروع قلبها، وظلت كذلك زمنا. فلما فتحت عينيها رأت أن مينا اجتاز بعون الآلهة الفضاء الأول فالثانى فالثالث، حيث أمسك رعمسيس به وأوقفه إلى جانبه بعد أن كاد يفلت من يديه. وهنا تناولا الحبل وربطاه بطرف البرطوم ربطا متينا، ثم رمى راميرى بالطرف الثانى، واقتدى بمينا الذى كان ملما بأساليب الرياضات البدنية فاجتاز الفضاء السابق بدرجاته الثلاث ثم تلاه رعمسيس فمينا الذى عاجلته نيفرت بمسح العرق المتصيب من خديه وجبهته.

وما وطأت قدما رعمسيس الثرى حتى هرول قاصدا حجرة بنت انات فالفاها سالمة من أى عطب ولم يصيبها أدنى أذى، ولكن تجلى له من الحزن الذى استولى عليها أن وردة التى أنقذتها من الخطر بإنباهاها إياها من النوم قد عادت إلى القصر فأحاط بها اللهب ولم يُعلم من أمرها شيء بعد. وكان رشتا والدها انطلقا مقتفيا أثرها ينزع شعر رأسه لشدة ولهه وخوفه عليها وأخذ يصيح صيحات الانزعاج فرآه الملك وهو فى هذه الحال فعهد إليه قيادة الجنود الذين نيط بهم فتح ثغرة فى الأسوار ليُخرج منها من يستطيع النجاة. وكان بيده معول فلم يستطع فتح النافذة بأول ضربة منه فاستجمع قواه وضرب ثانيا فما هى إلا فترة من الزمن حتى انبعث منها دخان كثيف كالضباب وبدا منه رجل قد همت قواه، وبين ذراعيه وردة مخميا

عليها فأيقن أنها ابنته فاخطفها منه كما يخطف الصقر فريسته وذهب بها إلى حيث تستطيع استنشاق الهواء النقي الذي ينعش القلب ثم قبلها بين عينيها المغمضتين وانحدرت دموعه لما أثارت حالتها في نفسه من الأشجان وجددت في مخيلته من ذكرى امرأته التي كان متدلها في حبها، غير أن بنت أنات فاجأته وهو في هذه الحالة فلم تدع له فرصة الاستسلام للحزن على أمر مضي وانقضى حيث تسلمت منه وردة وذهبت بها فعاد رشتا لقيادة الجند المكلفين بإخماد الحريق وإنقاذ المنكوبين.

أما الرجل الذي برز من النافذة حاملا وردة بين ذراعيه فقد علم والدها حين رآه أنه الطبيب نبسشت الذي كانت الأميرة بنت أنات اتخذته طبيبا خاصا لها. وقد ظل في معيتها منذ التقت به في جبل سيناء واتفق له بعد أن تسلم رشتا ابنته منه أن سقط ثانيا في القاعة التي برز من نافذتها حاملا إياها. وكانت الريح شديدة الهبوب تزيد النار استعارا والدخان تكاثفا وتصاعداً إلى عنان السماء وجدران القصر وأركانه وسقوفه انهيارا وسقوطا. فلما رأى رشتا أن الخطر قد أحدق بمنقذ ابنته ارتكز على النافذة واتخذ وضعاً خيف عليه فيه من الهلاك ومن أن يلحقه ما لحق الطبيب، فطلب رعمسيس منه أن يعدل عن نيته وأن يترك نبسشت وشأنه فأجابه: لا.. لا.. يا مولاي إن على لهذا الرجل دينا يجب الوفاء به، إنه أنقذ ابنتي من مخالف الموت مرتين فإذا أنقذته الآن أبرأت ذمتي.

فاه رشتا بهذه الكلمات واختفى في اللهب ثم لم يلبث أن برز منه بعد دقائق حاملا على ذراعيه الطبيب الذي كانت النار تأكل ثيابه البيضاء. وكان يتحسس النافذة، فلما دنا منها رأى نفسه بإزاء مائة رجل تحت قيادة بنطاور قد اقتحموا هذا التنور المتلظى سعيراً لإنقاذ الطبيب. فلما رأى الشاعر أنه قد أغشى عليه وفقد الشعور بما حواله اختطفه وناوله لأقرب الجند إليه فآلقاه هذا إلى الذي بعده

وهكذا. وبينما كان بنطاؤر يمد يده إلى رشتا انقض السقف فأحاط والد وردة بشواظ من نار.

أما بنطاؤر فقد حمل نبسشت إلى صيوانه وهو لا يزال مغمياً عليه من شدة ما أصابه واستدعى الاطباء إليه للعناية بأمره وساعدهم على أداء هذه المهمة وكان في أثناء ذلك مضطرب البال متأثراً بالحوادث الغريبة التي وقعت في ذلك اليوم الكاسف. وكان - حينما همّت راتوتى بالصفير إيذاناً بإشعال النار في القصر- بحضرة الكاهن الأعظم أميني الذي أوقفه على سر أصله وما طراً من الحوادث على أثر ولادته إلى غير هذا مما أيقن معه أنه لم يكن ابن ذلك البستاني وأنه رُبي في الهيكل إكراماً له، بل أميراً من كبار الأمراء. ومع هذا فإنه لما استقر هذا الخبر في ذهنه لم يحس في نفسه أحاسيس سعادة جديدة ولم يوسوس في صدره وسواس الكبرياء ولا غرور الارتفاع عن ذل المرتبة التي وُلد فيها إلى عزة المجد المنتظر له. لأنه- منذ درج من عشه- جُبل على التماس السعادة والشقاء لنفسه من نفسه لا من غيره.

ولما اندلع لسان اللهب واشتد زفير النار وارتفعت أصوات الاستغاثة بطلب النجدة، هبّ من بين يدي الكاهن الأعظم لتلبية المستغيثين، فرأى ابن راتوتى ذلك الشاب الذي عُرف بالطيش والنزق. وكان قد أظهر في واقعة قادش من الشهامة والإقدام ما استحق عليه جميل الثناء، فأراد المزيد منه بإظهار براعته وشجاعته في هذا الخطب المدلهم. ولكنه جازف بنفسه مع نفر من صحبه مجازفة الطائش الذي لا يحسب للعواقب حساباً فتوسط معهم النار فسقط فوقهم جدار كان مستعراً كله فأوردتهم موارد الموت وحُرمت نيفرت بهذه النازلة لذة العيش مع أخيها.

أما وردة فكانت في أقرب صيوان إلى القصر، قد أسندت الأميرة رأسها إلى صدرها وأخذت نيفرت تبذل صنوف العناية بها لإفاقتها من غشيتها، إذ كانت لا تكف عن ذلك جبينها بالروائح العطرية حتى أفافت شيئاً فشيئاً من غشيتها، وعاد إليها الشعور فتمثلت لها حوادث اليوم الماضي في صورة انقبض لها صدرها وتذكرت اقتفاءها أثر أبيها راكضة لإخبار أهل المعسكر بالطامة الكبرى والجاثة العظمى، وكيف دخلت في الدهليز الموصل إلى مقصورة الأميرة وكيف كسر والدها الأبواب التي أحكمت راتوتى إغلاقها على بنت أنات حتى لا يكون لها سبيل إلى النجاة وكيف أيقظتها من نومها وذهبت بها إلى خارج القصر، وشعرت بعد ذلك أنها نسيت الخاتم الذى حفظته عن والدتها أثراً خالداً وطلسماً واقياً في خزانة الخاصة فأسرعت العودة إليها للبحث عن هذا الأثر النفيس. ولقد وجدته في الخزانة وأخفته في طيات ثيابها ثم حاولت العودة من الطريق الذى جاءت منه فوجدته مسدوداً بحاجز من اللهب والدخان. وقد وقع نظر الطبيب نبسشت عليها وهى في هذا الموقف الحرج فانتزعها منه انتزاعاً. ولم تذكر من كل هذه الحوادث سوى أنها ابتسمت ابتسامة أرادت بها الاعتراف بصنيعة الطبيب الذى أنقذها من برائن الموت، ولكنها لم تلبث أن شعرت بحرارة قبلة أثرت في خدها كما تؤثر النار الشديدة في الشيء الناعم الرقيق فتأثرها وبدت علامات الغضب على وجهها. فلم تتمالك بنت أنات أن قالت: ما أجمل هذه الفتاة ولا لوم على الطبيب نبسشت إذا ذهب إلى أنها من سلالة أسرة أجنبية شريفة، فهل وقعت الأنظار على يدين بلغتا من حسن الصورة وانفتال الأصابع ما بلغت يداها؟ وهل مائل صفاء أديمها وشفافية بشرتها غير بلور فينيقيا؟

الفصل التاسع عشر

«حيث تسهل الأمور.. ويباح المحظور»

لما أنفذت راتوتى الحيلة التى دبرتها ونالت منها مرادها وقضت بغيتها هرولت مسرعة إلى صيوانها، حيث أزالته بالماء أثر الدخان الذى كسا بالسواد يديها، إلا أنها لم تجد به ابنتها نيفرت التى كان صياح الطفل شراعو قد أيقظها من النوم، فوقفت لذلك فزعة حائرة فى أمرها. وكان بعاصر ونيمو وعداها بأن يوافقاها على الفور بنتيجة المؤامرة وفعل الحريق فلم يأت منهما أحد ببشرى نيل المراد ونجاح التدابير. وكانت فى خلال انتظارها الطويل تبعث القيم من أن إلى أن فى استطلاع أخبار أنى فلم يعد فى مرة واحدة مزوداً من الأخبار بما يشفى غليلها ويطفىء نار أحقادها. وغاية ما هنالك أنه أخبرها برؤيته العجوز نيخت ملقاة على قارعة الطريق، فاستمكن الانزعاج من نفسها بحيث كاد يفضى بها إلى الإغماء. وكان يزيد بها الحال كلما سمعت صياح منادٍ أو قرقرة سقف هوى إلى الأرض بعد أن تأكله النار وإذا خطف بصرها ضوء لامع. ومع هذا فإنها ما سمعت دوى سقوط السقف حتى قالت: لا ريب أن هذه الأخشاب المتساقطة قد أوردت صهرى مينا موارد الهلاك، ولولا أنه مرق من طاعتنا لمرافقة رعمسيس لما استحق هذا العذاب الأليم.

وبينما كانت نهبا لهذه الهواجس سمعت هتافاً عالياً وأناشيد جميلة تردد صداها الأفاق، فداخلها وهم أن الأتيوبيين يبايعون أنى ويعترفون به ملكاً على مصر. وتجسم هذا الوهم فى نظرها ساعتئذ فحُبل لها أن الوالى قد استولى على عرش الديار المصرية ووضع على مفرقه تاج الوجهين البحرى والقبلى. وزادت على ذلك أن

ترأت لها نفسها جالسة إلى جانبه، وقد أفرغت على قوامها ثوباً ثميناً. ثم علقت النفس بأنت تصبح هي وابنتها نيفرت - وقد أيقنت أن مينا ذهب فريسة الحريق - صاحبتى التصرف في أملاكه الواسعة. ثم أطرقت رأسها كمن يفكر في أمر ذي بال وقالت: أصبحت نيفرت اليوم من الأيامى فلم لاتقترن بأنى؟ وهل لمثله أن يرفض الزواج بأجمل امرأة في الديار المصرية؟ أما أنا فسيكون لي كوالدة ملكة الديار المصرية من سمو المكانة وشرف الرتبة وسعة النفوذ ما أعلو به علواً كبيراً على أهل الدولة، حتى على بعاكر نفسه الذى أصبحت لا أرى فيه إلا آلة حقيرة أعبت بها كما أشتهى. ولا يبعد أن تؤول أملاكه الواسعة وأمواله الوفيرة إلى ولدى الذى لا بد أن يعينه أنى سائساً لركابه أو رئيساً لضباط المركبات الحربية.

وبينما كانت راتوتى تغل نفسها بهذه المنى إذا بالقيّم مقبلاً عليها، وما أن صار منها على قيد خطوات حتى صاح قائلاً: مولاتى! مولاتى! إن الملك ومينا واقفان وسط النار على أفريز ضيق من أفاريز جدران القصر. وإن ينجواً من هذا الضيق إلا بمعجزة إلهية. ويقينى أن الذين أشعلوا النار بالقصر طغمة من الأشرار. ولقد رأيت جثة بعاكر فعرفته بخاتم أبيه وهو بأصبعه كما شهدت نيمو مصروعاً بسهم أصيب به. فما سمعت راتوتى هذا القول حتى اعتراها ما يشبه الخبل اضطراباً وحيرة ثم سألت القيم: وماذا حدث لأبناء الملك؟ أجاب: الحمد للألهة أنهم نزلوا بحبل من ثياب وُصلت أطرافها بعضها ببعض. وحينما برحت مكان الحادث كانوا جميعاً قد فازوا بالنجاة.

ماسمعت راتوتى هذا القول حتى تقطب جبينها واكفهر وجهها وأمرت القيم بالعودة لاستجلاء حقيقة الخبر. وماضى على انصرافه من حضرتها بضع دقائق حتى أظهرت الجزع وملت الاصطبار وخُيل لها أن الدقيقة الواحدة منها ساعة

طويلة. ثم انقضت الساعات فتتضاعف جزعها وازداد يأسها وفزعها. ولبثت تساورها الهموم حتى إذا اشرقت الشمس وارتفع النهار عاد القيم كاسف البال مضطرب الفؤاد ممتقع لون الوجه مصاباً بعمى أعجزه عن الإعراب عن مراده، فألقى بنفسه على قدمى سيدته وقال متلعثماً: لقد كانت ليلة شؤوم ونحس هلعت لهول حوادثها النفس .. توكلى يا مولاتى على الآلهة فيما نزل بك من الأرزاء وليكن لك فى الإلهة ايزيس التى سقط ولدها جريحاً وهو يناضل عن أبيه وملكه أسوة حسنة فى التعزى عن المصاب وصدق الاتكال على رب الأرباب، وليلهمك أمون اله طيبة القوى القهار الصبر الجميل على مصابك والقوة على احتمال رزتك وإلداك فخر الشبان وموضع الآمال فى الحال والاستقبال قد أودت بحياته الغالية قطعة خشب كبيرة هوت عليه. وكانت راتوتى تصغى إلى هذا القول دون أن تبدى حراكاً كأنها تمثال نُحت فى حجر أو صيغ من نحاس ولم تنذرف من عينيها دموع الأسى والحزن على فقد ابنها وظلت كذلك فترة من الزمن قالت بعدها: وماذا جرى لرعمسيس؟ أجاب القيم: حمداً للآلهة فقد أنجته من المعاطب. سألته: وأنى؟ أجاب: احترق جسمه فصار قطعة فحم ولم يُعرف إلا بالتاج الذى كان يكلل هامته.

هنا تولى راتوتى من الذهول ماكاد يُفقد الصواب ويُسقطها فى يدها جزءاً من العاقبة والعقاب. ووقف القيم فى مكانه كالمنزول به فزعاً مما رآه، فترجع إلى الورا وأحس كأن الدم قد جمد فى عروقه حين رآها وقد شبكت أصابع يديها وأرسلتهما فى الفضاء بعد ذلك كمن يريد خصمه بمصارعة أو ملاكمة، ثم قهقهت ضحكاً كمن أصيب بلوثة وبدا عليها بعد ذلك من العلامات والإشارات ما دل على أن سماعها قد أزعجها فسكتت مطرقة رأسها، بحيث لم يقع نظرها على رئيس حراس الملك المعروف باسم (عين وأذن فرعون) وهو مقبل عليها فى ثلة من ضباط الجند وبعض

الكتابة. وقد بلغ من ذهولها وجمودها أنها لم تسمع صوته وهو يناديها، بل لم ترفع رأسها إلا حين نبهها القيم بلمسه ذراعها فرفعتها في وضع تصنعت به أنها كانت في سبات عميق، ثم التفتت إلى رئيس الحراس وسألته بصلف وكبرياء: ماجاء بك إلى صيوانى.

أجاب: بالنيابة عن قاضى مدينة طيبة الأعظم القى القبض عليك وأعلنك بالحضور إلى مجلس العدل لمحاكمتك بتهمة الخيانة الموجهة إليك، وهى إحراقك قصر الملك للفتك به. قالت راتوتى وقد لاحت على خديها آثار ابتسامة الازدراء والتحقير: إننى مستعدة لك ومطبعة لأمرك، ثم أشارت إلى كرسى رجت من الضابط أن يجلس عليه ريثما تسوى شعرها وتلبس ثيابها، فأبى رئيس الحراس الجلوس بل ظل واقفاً عند الباب، بينما كانت راتوتى تضفر شعرها الابنوسى اللون وتضع على مفرقها تاج الإمارة، وأخذت تبحث في أشياءها بعد ذلك عن قنينة صغيرة تحتوى خلاصة الجوز المقىء، وهو سم قتال ابتاعته منذ أشهر من الساحرة نيخت على يد القزم نيمو. فلما عثرت عليها طلبت من إحدى خادوماتها مرأة، فلما تناولتها منها جعلتها إزاء وجهها بحيث لا يراه الضابط ثم شربت القنينة. فما استقر السم في جوفها حتى اضطربت أعضاؤها وخرت على الأرض صعقاً، فأقبل الضابط نحوها على عجل، فلما وقع نظرها عليه قالت له: لقد فشلت في تدبيرى، فأخبر الكاهن الأعظم بأنه سيصيبه من الفشل ما أصابنى. ثم تقلبت يمناً ويسرة ناطقة باسم نيفرت وفاضت روحها.

إن الذين سألتهم الأيام من بنى الإنسان وهادنتهم صروف الزمان وشربوا من

كوثر السعادة والهناء، يعلمون يقيناً أن لا بد من كدرة تشوب هذا الشراب العذب. ولكن ليس في هذه الكدرة من ضرر ولا ضير لأنها تنبّه الإنسان إلى وجوب الاعتقاد بأن أسباب الفرح والسرور لم تتوافر لأحد على وجه المعمورة مهما تجاوز له الدهر وابتسم له من السعادة الثغر.

فقد جاء موت راتوتى على ما بسطناه من الوجه المحزن نقطة سوداء في صحيفة هناء نيفرت ومينا، ولكنه بث في نفسيهما أحاسيس جديدة بالحب المتبادل بينهما على أشرف المبادئ وأقدسها وهو الزواج فإن نيفرت كانت تستعين بحبه لها على التسلى عن مصابها بموت والدتها وأخيها، وكان حبها له يزيح ما تراكم من الهموم في نفسه لتبديد والدتها المتوفاة ماله في غيابه. وقد فهم وقتئذ أن سعادتهم باللقاء بعد طول الفراق والتنائى لم تكن من بواعث تطامن قلوبهما وانشراح صدريهما فحسب، بل وسيلة أيضاً لإبانة ما هنالك من ضرورة قيامها بعضهما لبعض بواجب مقدس ألا وهو أن يطيب كلاهما الآخر بما يزيل عن صدره صدا الأكدار ويزيح عنه الهموم وردى الأفكار.

أما رعمسيس فإنه لم يبرح مكان الحريق إلا بعد أن أصدر أوامره بتقديم الأضحيات وتقريب القرابين ورفع الأصوات بالدعاء شكراً للآلهة على حمايتهم الباهرة ومساعدتهم الظاهرة. وقد كانت تلك المكيدة التى أخفق أنى وراتوتى فيها سعياً سبباً لهواجسه وبلباله فعدل عن مخالطة رجال الدولة متوخياً العزلة وفضل الانزواء في خيمة بسيطة أمر بضرب أطنايها على غشيان القصر الباذخ الذى كان ابتناه أنى رافعاً أركانه على أسس الدسائس والغش. ولبث فيها يقيس الحاضر بالغابر ويزن مارأه من خير الناس وشرهم، بميزان الاعتبار والاستبصار،

فاستنتج من هذه المقارنة أن الخير كان في كفة الرجحان فقال: ان الواجب عليه في هذه الحالة الشكر للألهة وبنى الإنسان. ثم ناجى نفسه بقوله: لقد علمتني والدتي وأنا في نعومة الأظفار كيف يكون شكر المعروف ومقابلة الصنيعة. وقد لقت أبنائى هذه الدروس النافعة ونشأتهم التنشئة الصالحة على تلك المبادئ الشريفة وغرست في قلوبهم وألقيت في عقيدتهم أن نكران الجميل ليس في شيء من كرم النفس ولا مقتضى الإحسان والعدل.

وكان رعمسيس قد تجرد من ميول الشر التي لا يخلو منها فؤاد إنسان فبعث في طلب كريمته وبنطاؤور، فلما مثلا بين يديه رجا من الأميرة أن تسرد عليه بالتفصيل الوافي جميع الحوادث التي أفضت إلى وثوق عرى الحب بينها والشاعر، فأنشأت تقص عليه تلك الحوادث بالإسهاب، فكان في سماعه لها يوافقها على سلوكها في بعض المواقف وينعى عليها تصرفها في البعض الآخر. ولكن علامات السرور كانت بادية على وجهه في الحالين فلم يسعه حين أشرفت على ختام حديثها إلا أن أمسك بيد الشاعر ووضع فيها يد بنت أنات التي أطرقت في الحال رأسها حتى لمست به صدره لشدة ماتولهاها من الفرح والدهش.

ثم التفت إلى بنطاؤور وقال له: لقد صرت منذ الآن بعضاً من كلنا وعضواً من أعضاء أسرتنا. وعليك أن تبقى إلى جانبي في أثناء انعقاد الجلسة التي ستعقد حافلة بالأمراء الآسيويين للتداول في شروط الصلح بين الأمتين.

وفي خلال ذلك تشرف أبناء الملك بمقابلته وحظوا بجميل رعايته وشامل عنايته. وكانوا أقبلوا لتهنئته بالنجاة من خطر دسائس أنى وراتوتى، فعرّفهم جميعاً ببنتاؤور وكشف الغطاء لهم عن سر أصله الحقيقي معلناً عقد قرانه بشقيقتهم بنت

انات. فوقف الأمير راميرى وأخذ يهنئ بنطاؤر بأبلغ عبارات التهاني، فسر الملك بقوله وعانقه عناقاً طويلاً شاكراً له ما أبداه من الإقدام والشهامة في حادث الحريق. وكان أفرغ عليه حلل الرجولة والبلوغ^(١) على أثر واقعة قادش، لما أظهره فيها من الثبات والجلد. وقد عينه في هذه المرة رئيساً لفرقة الكماة المحاربين في المركبات وقلده وسام الأسد^(٢) الذى لا يُمنح إلا للمتفوقين في الثبات والإقدام في ميدان القتال. فلما رأى الأمير ترادف نعم الإنعامات الأبوية الملكية جثا على ركبتيه مثنياً على والده وشاكراً فلاطفه الملك بإمرار يده على شعره المسدول وقال: أكافئك اليوم اعترافاً بشهامتك وتنويهاً بكفاءتك. وربما كان مقدوراً لك أن تلقى بدل المكافأة العقاب الصارم لأنك لم تخضع للنظام قط ولم تطع أوامر رؤسائك، وأنت عليم بأنه لا يعرف من الأمر والنهى شيئاً من لم يتعلم الامتثال قبلهما. ومن آيات ركوبك متن الشطط في مخالفة الأوامر أن طردك الكاهن الأعظم لهيكل سيتى من مدرسته فجئت إلى الشام وانخرطت في سلك الجندية دون أمرى أو أمر أحد القواد. نعم لست أنكر أنك رجل راشد بشجاعتك وحذقك ولكنك ما برحت صبيبا بعقلك ورأيك، وهذا نقص في خلقك كان من أثره أن ألقى بك مرتين في يد العدو فافتديتك مرتين إذ قايتت عليك في احدهما بابنة ملك الدنائم مع أن بقاءها في حوزتى كان خير وسيلة لنيل بغيتى منه على أيسر وجه وحسم كل خلاف بينى وبينه، ولكن سوء تصرفك أدى بنا إلى التقريط بعض الشئ في حقوق مصر. ولا تنس أن أبناء الوطن الذى تقوم على تصريف شؤونه وسياسة أموره حكومة منظمة متضامنون جميعاً في عمل ما يعود

(١) انظر صفحة ٢١٧ من الجزء الأول من كتاب فتوح مصر لماسيرو

(٢) انظر كتاب هارتمن .

عليه بالمنفعة. وإنى لأشبههم- وهم إزاء الواجب- بأسنان العجلتين المتعاشقتين في الناعورة إذا انكسر سن إحداهما تعطلت هذه الأداة الرافعة وعجزت عن رفع المياه من النيل.

ما أتم رعمسيس حديثه حتى جاء المنادون يبشرون بأن ملك الخيتاس وحلفاءه الأمراء ينتظرون وصوله إلى المجلس، فلبس أفخر ملبسه وتزين بأجمل حلاه ومس أجود طيبه ووضع على رأسه تاج الوجهين القبلي والبحري. ثم أقبل عليهم في المجلس يتقدمه رئيس التشريعات وحملة الإشارات والكرام الكاتبون، ويتلوه أشباله فقيادة الجيش فالترجمون. وظل سائراً على هذا المثال حتى استوى على عرش الملك، فأشار إشارة خسرلها الأمراء الآسيويون سجداً وقبلاً الأرض بين يديه. أما ملك الدنائم فلم يقتد بهم بل استقر في مكانه مكتفياً بأداء السلام المعتاد، فأما شمد رعمسيس ذلك احتدم غيظاً وسأله بلسان المترجمين أيعتقد أم لا أنه مغلوب على أمره. فأجاب: لم أحضر هنا أسيراً حقيراً. وقد سألتنا أن نخسر على الأرض سجداً فرأيت أن سجود الإنسان للإنسان لا يتفق مع ما ألفته من عادات بلادى ولا مع شهامة الأحرار الذين يابون السجود إلا للآلهة. وإذا كان مما ترامت إليه أم إلى أن أسير لك حليفاً في السراء والضراء، أفىروق لك أن يكون حليفك ممن تجردوا عن حلية الشرف والوقار.

سمع رعمسيس منه هذا الكلام فأخذ يجيل نظره في ملك الدنائم الذى كانت تبدو آيات الشهامة وعزة النفس واضحة على وجهه. ثم قال بصوت جهورى: أنا لا أقبل التفاوض في شروط الصلح إلا مع خصوم يسجدون لتاج الوجهين القبلي والبحري، فإذا أقيمت على إصرارك ولم تعدل عن عنادك فلن تصيب نصيباً ما من فوائد الصلح

الذى سأبرمه مع حلفائك. فلم يتحرك الملك الآسيوى من مكانه، بل قال: جئت هنا للمفاوضة فى الصلح ولن أبذل كرامتى ثمناً له. أما جبهتى هذه فلن تلمس الثرى لإنسان أو لتاج، على أن لى عندك رجاء أيها الملك الشريف الأصل الكريم المحتد، فهل أنت محققه لى؟ إن مينا سائس ركابك قد بالغ فى الحفاوة بابنتى (براكسيلا) وأكرم مئواها فى أسرها فأردنا أن نشكر له هذا الجميل، أفتأذن لنا بعبور النيل لنؤدى له هذا الدين فى صيوانه؟.

فأذن رعمسيس له بالانصراف ثم بدأت مفاوضات الصلح الذى كان الكتبة المصريون والآسيويون قد وضعوا المهم من شروطه وقواعده واتفقوا عليها قبلاً. وكان العمل بالمجلس لهذا السبب مقتصراً على مراجعة نسخ الشروط التى جرت المناقشة فيها وحصل الاتفاق عليها، وعلى تقرير النظر فى نص النسخة النهائية للمعاهدة بمدينة رعمسيس المسماة (طانيس) والمعروفة عند الساميين المقيمين فيها باسم (زاون).

ولما تمت المفاوضات دُعى الأمراء الآسيويون الى مأدبة ملكية أُقيمت على شرفهم فجلسوا الى موائد خاصة بهم، إذ كانت التقاليد المصرية فى ذلك الوقت تقضى بأن يكون الاجانب - فى أثناء تناولهم الطعام - بمعزل عن غيرهم خشية التلوث بالدنس فى مجاورتهم أو الأكل معهم. وكانت تظهر على رعمسيس أمارات الامتعاض والاستياء فى أثناء الوليمة، إذ خشى أن يترتب على إنصراف ملك الدنائم استئناف الحرب بعد زمن قصير، ولكنه مع هذا وبالرغم من إعجابه بشهامة هذا الأمير الاجنبى وإبائه قد عقد النية على التشدد معه فيما أراداه عليه من الرضوخ لشوكته، خيفة أن يجر التسامح إلى إقتداء بقية الأمراء به فكان لم يكن هناك صلح ولا اجتماع لتقرير سلم.

وكانت الشمس على وشك الغروب، فإذا بيميننا الذى أمر الملك له بالراحة والرياضة قد عاد والتمس المثول بين يديه ليرفع إليه أمراً خطيراً. فلما أذن له رعمسيس واستدناه منه أخذنا يتحادثان ملياً، ثم قام الملك بغتة على أثر الحديث وقال مخاطباً بنت أنات: هذا اليوم الذى بُدئ بالحوادث المروعة قد خُتم بالأنباء السارة والبشائر، فقد اتضح أن الغادة التى أنقذتك من مخالب الموت، وكادت تلتهم النار جسمها اللطيف من أسرة عريقة فى الحسب والنسب. فما طرق هذا القول سمع الأمير راميرى حتى صاح غير محتشم: أى نعم، إنها لمن أسرة ملكية راسخة فى الشرف، فنظر إليه والده نظرة مغضب وقال: خليك بأبناء رعمسيس أن يلزموا الصمت مالم يُدعوا إلى الكلام. فلم يكن من الأمير - وقد أدرك زلته وتعرف خطأه - إلا أن أطرق رأسه خجلاً، وظل كذلك بينما كان الملك يستأذن من ضيوفه فى الغيبة عنهم هنيهة. ثم أشار إلى كريمته أن تقتفى أثره فأجابته إلى أمره وكلمته مسارة فى شأن ما.

فالتفت إلى راميرى، وبعد أن ظل قليلاً فى التفكير أمره بمرافقة أخته بلا توانٍ ولا تأخير.

الفصل العشرون

حيث تتفتح أكمام الورد.. فيشم أريجه من واقاه السعد

كان راميرى -وبنت أنات منصرفة إلى إفاقه وردة من غشيتها- يسأل عن بعض أطباء المعسكر. فلما التقى بهم سألهم أن يرافقه إلى صيوان أخته فأجابوه إلى طلبه وما وصلوا معه إليه حتى أخذ يرمى الغادة بنظرات تتم على ما كان يخالجه من عواطف الرفق وأحاسيس المحبة لها، ولاحت على وجهه علامات الغبطة والابتهاج حينما تأكد له أنها لم تُصَب بجرح يُخشى منه على حياتها. وقد أخذ منه الوجد عليها والشغف بها مأخذاً لم يسعه معه إلا أن تناول يدها اللطيفة ورفعها إلى شفته يلثمها بلهفة وشوق. ولعله تخيل أن لا رقيب عليه فمضى في تيار العواطف الغرامية وانقاد إلى الأحاسيس القلبية، إلا أن بنت أنات ما لاحت لها هذه الجذبات حتى أبعدته عنها بلطف الحيلة رغم ذموله ولهاً بها ووجداً عليها. ولكنه استطاع بفضل مغالبيته لهذه الجذبات استحضر ذاكرته فابتهل إليها أن لاتمنعه منها ولا تدفعه عنها، ثم سارها بحقيقة أمره مع وردة منذ عرفها وأحبها وقال إنه عقد النية على الاقتران بها، فأرعدت بنت أنات لسماع هذا الكلام ثم قالت: إن الابنة ورثت الدنس عن أبيها، وهى مازالت ملوثة ولن تبرأ منه إلا بتجشم مشاق الأسفار وقطع الفيافي والقفار. فاعترض الأمير بقوله: إن الشرف عندنا معشر المصريين يتصل بالأعقاب من الأرحام لا من الأصلاب. وقد كانت زوجة الجندي الشجاع رشتا.. فقاطعته بنت أنات: لقد عرفنى نبسشت بأمرها، إذ قال لى إنها إحدى سبايا الحرب. ولأريب عندى فى أنها كريمة الأعراق على ما يؤخذ من شرف صورتها وحسن ملامحها. ولقد ورثت وردة عنها كل هذه المحاسن، فما أجملها من غادة تسبى النظر وتحير

الفكر! قال راميرى: إن لونها في صفائه لكالأزهار في حسن الازدهار. أجيل النظر في محاسنها أيا شقيقتى فقد تحركت من موضعها.. وردة افتحى عينيك.. وردة افتحى عينيك.. افتحى عينيك.. افتحيهما يا ريحانة قلبى وبهجة حياتى وسرورى من الناس جميعاً.. إنا إذا أشرقت الشمس نقدم القرابين إليها ونضحى الأضحى، فماذا نضحى ولى من عينيك شمسان متى أشرقتا أرسلتا إلى فؤادى سهاماً حادة النصال، فلما وقفت بنت أنات على ما به من العشق والهيام ابتسم ثغرها، ورجت منه أن يبتعد قليلا عنها لأنها كانت تتنفس بعناء. وفي هذه الاثناء جاء طبيب ليخبر الأميرة بأنه هيا للمريضة حماماً ساخناً من النباتات الطبية، وأنه قد آن وقت نقلها إليه. فدبرت الاميرة التدابير لحملها إليه. وإنها من ذلك لفى شغل شاغل وهم ناصب، وإذا برسول من عند الملك يدعوها إليه، فاحمر وجهها من الخجل إذ كانت تعلم ما لأجله طلبها، فرجت من راميرى أن يغيب عنها ريثما تحلى بثياب الأعياد وفوضت إلى نيفرت العناية بوردة بالنيابة عنها. تم تحوّل نحو أخيها وقالت له: إن نيفرت لعلى خلق كريم وخصال شماء وتفويضى إليها هذه المهمة الآن- وهى بين السرور والهم- خير ما تسرى به عن قلبها الهموم. ولقد أجاز والدى لدينا أن يلجا أياماً إلى الراحة، فأطلقت لنيفرت عنان الحرية وأعفيتنا من كلفة المراسم والطقوس الرسمية، لاسيما وقد أصبحت منذ الأمس فى شغل شاغل كما أصبحت أنت كذلك. ولا عجب يا راميرى إذا كنا الآن أشبه بطير (بينو) المقدس الذى يتهافت على النار فى عين شمس فلا يحترق بها، بل يصدر عنها أحلى رواء وأجلى مظهرا منه عند تهافته عليها. فإننا بعد نجاتنا من نار الحريق وخلصنا من الضيق قد رقرف السكون بأجنحته على رؤوسنا وبث الثقة فى نفوسنا وبشرنا بالدخول فى دور جديد من الهناء والسعادة.

وما كاد راميرى يغادر الصيوان حتى سجدت بنت انات أمام صورة جدة والدتها وعكفت على الصلاة، ثم أطلقت البخور من المجامر على مذبح الإلهة هاتور التى كان لايفارقها تمثالها أين ذهبت فضوحت رائحته المكان. ثم ازينت بأجمل وأفخر ما عندها من الحل والحل وقلبها يفيض فرحاً وابتهاجاً لقرب لقاءها ببنتاؤور. وما أخذت زخرفها وازينت حتى دخلت على نيفرت ورجت منها أن تتولى وردة بعنايتها فى مدة غيابها. وعندما برح راميرى صيوان شقيقته رأى الحراس يطاردون طفلاً كانت تفيض الدموع من عينيه. فعرف الأمير أنه النقاش شيراعو الذى كان أول من قصد إلى وردة وكشف لها القناع عن سر المؤامرة التى دبرها الوالى للفتك بالملك طمعاً فى الجلوس على عرشه، وتذكر أنه كان لمح على مقربة من القصر ساعة شبوب النار فيه. وكان الحراس يدفعونه عن صيوان الأميرة فيحاول الدنو منه فيزدادون ارتياها بأمره وخوفاً من شره، وإنهم فى معاملتهم إياه بهذه القسوة لمعدورون لأن الألسنة لم تكن تلوك فى هذه الآونة غير سيرة أعداء الملك وتقننهم فى أساليب تدبير الدسائس له للفتك به مرة أخرى.

وما وقع نظر راميرى على الطفل شيراعو حتى عجل باستخلاصه من يد الحراس وأخذ يترفق به ويسأله عن أمره، فسرد الغلام ما اتفق له من الحوادث وكيف أنفذت العجوز نيخت الجندى رشتا وابنته وردة لإخطار فرعون بالخطر المحدق به والدسائس التى تُدس فى الظلام له وكيف انطلق هذا الجندى بين صفوف الجند يوقظهم من نومهم وينذرهم جميعاً بالخطر المحدق بهم والذى جاء وقوعه على غير انتظار، وأنه لما لم يجد ملجأ يأوى إليه ولا حامياً يستظل بظله ويفىء إلى كنفه أراد أن يستنجد بوردة، فلما سمع الأمير منه هذا القول بعث به إلى نيفرت ورجا منها أن تأمر بعض الخدم بالقيام على شئونه والعناية بأمره.

وكانت وردة تفيق شيئاً فشيئاً من غشيتها على أثر نجاح الأطباء في العناية بعلاجها فتحلت بأحسن ملابسها وقصدت إلى نيفرت، فلما وقع نظر مينا عليها ولم يكن رآها من قبل بُهت لجمالها وخولط في أمره فلم يسعه إلا أن قال: عجباً لهذه الفتاة الفتانة! إنها لأشبه الناس بابنة ملك الدنائم التي أنزلتها سرادقي، ولا فرق بينهما إلا أنها أصغر سنّاً وأنخر شباباً وأوفر حسناً وبهجة. وكان شيراعو وقع نظره عليها فدنا منها، فحدقت فيه النظر، إلا أنها لم تفه بكلمة واحدة بالرغم مما بذل الأطباء من العناية بها. وكانت الدموع تتساقط على خديها فاتجهت نيفرت إليها وقالت: لست أنكر أنك فقدت في أبيك ركنا من أركان الشهامة وعزة النفس، ولكن خسارتى كانت ضعف خسارتك. فقد فقدت والدي وأخى في نفس اليوم الذي فقدت أنت أباك. فنطقت وردة: إن رشتا والدي كان على جفاء زيه وقبح شكله حميد الأخلاق كريم السجايا، ولهذا لن تنمحي ذكره من ذاكرتى ما دمت على قيد الحياة.. إن النارجيل خشن اللمس، ولكنه يعطى الحاذق الذى يعرف كيف يزيل غلافه شراباً لطيفاً سائغاً وطعاماً حسن المذاق.. وما كان والدى إلا كالنارجيل يجفل الإنسان من منظره ويقبل عليه عند مخبره. ولقد مات جميع أهلى وأصبحت بوفاته آخر من بقى منهم على ظهر الغبراء، فأنا اليوم أشبه ما أكون بورقة شجرة عبثت بها الرياح على ساحل البحر قبل وصولنا إلى هذا المكان، ثم سقطت في الماء فتلاعبت بها الأمواج وأصبحت بمعزل عن سائر الأوراق.

ما وسع نيفرت عندما سمعت هذا التشبيه إلا أن قبّلتها بين عينيها وقالت لها: ثقى بأن لك أصدقاء وصديقات لا يتركوك وحيدة تعبت بك عواصف الدهر وصروف الزمان، كما عبثت الرياح بتلك الورقة. قالت وردة: إننى مع وثوقى بهم مازلت أشعر أننى وحيدة لا أنيس لى في هذا العالم. ولقد كنت بطيبة أقضى نهارى في

رؤية الأوز البرى طائرا في الفضاء غدوا ورواحا فأميز بين السابقات منها واللاحقات. وكنت لا أرى أن السابقات قد هجرتها اللاحقات لأنها تظل مرموقة منها من بعيد. غير أنى رأيت لفيفاً من الصيادين جعلوا اللاحقات مرمى أنظارهم فشتتوها في جميع الأرجاء وبقيت واحدة منها بأيديهم، أفلا ترين أن هذه الأوزة جديرة بالشفقة، وإننى شبيهة بها من كل الوجوه بعد إذ فقدت عشيرتى الأقربين ولم تعد عندى وسيلة للاجتماع بهم، وقد طال أمد الفراق.

قالت نيفرت وقد ظنت أنها تزيل عن قلبها صداً الهم: ولكن أنسيت أنك الآن في كفالة أسرة أعرق أصلاً وأسمى شرفاً من أسرتك؟ فما طرقت هذه الكلمات أذنى وردة حتى اضطربت شفتاها ولعت عيناها وقالت بصوت يدل على إباء وعزة نفس: إننى فرع والدتى وهى رحمها الله من أصل عريق ومحتد كريم. أنتدين لم اقتحمت الأخطار إذ ألقىت بنفسى فى النار؟.. لم أجازف بحياتى الثمينة إلا للاحتفاظ بالأثر النفيس الذى تركته لى، وكنت وضعت مع ثياب الحفلات والأعياد وقتما جاءنى الشقى نيمو وأخذنى بدنئ حيلته إلى خيمته. ولا يخطر ببالك أن هذا الأثر مال دفعنى الجشع إلى الحرص عليه، إذ ما يلزم المرء لوقاية حياته من الموت بالجوع؟ إن هو إلا كسرة خبز وقليل من التمر وجرعة ماء نقى!.. بل كان فص خاتم نُقشت عليه كلمات لم أقف على سر معناها. وكانت تحدثنى الآمال بأننى ربما وقفت بهذا الطلسم النفيس النادر على حقيقة أصلى فذهبت آمالى أدراج الرياح ويثست من الحصول على السعادة المتمناة وفقدت بضياعه كل أمل فى الاستقبال.

وأخذت وردة العبرة فأمسكت عن الكلام فعانقتها نيفرت قائلة بلهف: إذن ذهب الأثر النفيس فريسة النار. أجابت وردة: كلا! بل انتشلته من الصندوق،

وكان لا يزال بيدي حينما تلقاني الطبيب نبشتت في ذراعيه. ولما أنقذت من القصر وحُملت إلى سرادق بنت أنات حضر الأمير راميرى فتراءى لعيني كما تتراءى الأشباح في المنام. قالت نيفرت: لعله فُقد منك وأنت في الطريق إلى هنا. فأومات وردة بايماء الموافقة، وكان شيراعو مضطجعا على الارض يسمع الحديث، فلما انتهت منه نيفرت ووردة نظر إلى هذه الاخيرة بعين العطف ثم تسال إلى خارج الصيوان دون أن يشعر به أحد.

كانت الساعات تنقضى، ووردة مطرقة إلى الارض برأسها كأنها تمثال الخشوع والحياء، ونيفرت ومينا صامتين جالسين أحدهما إلى جانب الاخرى يفكران فيمن التهمتهم النار. وكان السكون سائدا في السرادق فلم يسمع أحد به حسا ولا جرسا. ولم يكن في هذا المنظر الذى يقبض الصدور ويمحى آية السرور ما يستفز إلى العجب، فإن سحب الهموم أوشكت أن تكدر صفاء الزوجين فالترما جانب السكون الذى لولا ما تخلله من صوت الأبواق ودق الطبول لخيّل لناظرهما أنهما في بطن الصحراء. وكانت هذه الاصوات التى ترددها الآفاق منبعثة من مكان استقبال الأمراء الآسيويين في السرادق الكبير الذى أُعد لرعمسيس. وكان هؤلاء الأمراء مقبلين ساعتئذ على مكان انعقاد الجلسات وقتما كان ملك الدنائم خارجا منه بعد أن استأذن فرعون في الانصراف ليذهب في حاشيته إلى قاعة الطعام، فتأمل فيما كان من احتفاء رعمسيس به وإعادته إليه ما سلبه من ألقابه إكراما لنيفرت وجزاء لها على إخلاصها الولاء لزوجها. فأخذ يصفحها كمن يترجم بهذه الاشارات عما يخالجه من الشكر والامتنان.

وبينما هو في هذه الهواجس إذا بجلبة وضجيج، فالتفت مينا نحو مدخل

السرادق فإذا بضابط جاء ليخبره بقدوم ملك الدنائم وكريمته، تحرسهما شردمة من الجند الملكى، فأمر مينا بفتح أبواب السرادق وتقدم مع نيفرت لاستقبال الزائرين الكريمين اللذين لم تكن زيارتهما في الحسينان، بينما كانت وردة تتراجع إلى الخلف تتلمس ركنا لا يراها فيه أحد. وكان ملك الدنائم رجلا دب دبب الشيب في لحيته وراسه ولاحت أساريير وجهه ولم تذهب بشيء من نضرة محياه وجمال ملامحه، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان فتخطفان الأبصار وكانت ابنته تسير إلى جانبه بخطوات لاتباريها في الاستقامة والاتساق إلا التي تنظمها نقرات الآلات الموسيقية. وكانت ممنطقة بنطاق من العسجد المصفى حول حلة ناصعة البياض أفرغت على قدها السمهرى، وشعرها مرسل إلى الكتفين كما كانت مكللة الجبين بأكليل متقن الصياغة، باسمة الثغر مستجمعة من محاسن الجمال ما يستهوى القلب ويأخذ باللب. وكان معهما مترجم لترجمة ما يدور من الحديث بينهما وقرينته، ورجلان وامراتان يحملون الهدايا النفيسة برسماهما.

وقد بدأ الملك حديثه مع مينا متوها بكرم محتده وطيب عنصره وعزة نفسه وصدق شهامته ثم قال: لقد أتيتنا بدليل جديد على أن أبناء الدولة المصرية صاحبة الشوكة والاعتدار يعرفون الامانة والاعتدال ويأتون المعروف والجميل، غير أنى اعترف لك بأنك قد زدت في نظرى قدرأ حين رأيت أن قرينتك لاتعدلها ابنتى حسنا وجمالا. قالت نيفرت وقد احمر وجهها حياء: إن حسن ظنك بى هو الذى وهبنى نعمة الجمال الذى رأيت أنه يفوق جمال بنت ملك الدنائم، وما هو في الحقيقة إلا دونه. وإننى على كل حال التمس منها ومن مكارمك الصفح الجميل. فتقدمت براكسيلا ابنة ملك الدنائم نحو نيفرت وعرضت عليها ماجاءت به من الهدايا النفيسة وهى أكليل مرصع بالأحجار الكريمة ومشابك ذهب وعقود لؤلؤ، وقدم

الملك إلى مينا درعاً دقيق الصنع ودرقة من الفضة جميلة النقوش ثم دخل الجميع السرادق لتناول الخبز والنبيد كالعادة المصرية بين الضيف والمضيف.

وبينما مينا في حديث الملك كانت براكسيلا تقص على نيفرت حديث آلامها وتشرح لها ما لقيته في الأسر، وكيف تنازل مينا لما وقف على حقيقة أمرها عن حصته في الغنيمة وأكرم مثواها في سرادقه، وأن أحد الرؤساء أراد أن يخص نفسه بها. ثم أفاضت في شرح حسن معاملته لها وإيثاره إياها بعنايته ورعايته. وكانت متهدجة الصوت لشدة ما عراها من التأثير، حتى أشفق مترجم أقوالها وعطف عليها ولا سيما حين قالت: وقد أصيب خطيبي بجرح بالغ فأخذ من ميدان القتال محمولاً على الأعناق، وقد منّ الله عليه بالشفاء وهو الآن بالانتظار حتى إذا عدت إلى مسقط رأسي ارتبطنا بعروة الزواج التي لا انفصام لها.

وسمع الملك هذه الكلمات فقال: يا حبذا لو أسبغت الألهة علينا هذه النعمة فإن براكسيلا آخر سلالتنا وعليها نعتمد في استبقاء ذريتنا وتخليد ذكranنا. فقد فقدت في الحرب الأخيرة ابنتي الأربعة الذين كانوا في مقتبل العمر وصهرى الذى كان ابنه لا يزال طفلاً رضيعاً وسقطت زوجتى سبية بأيدي المصريين منذ سنوات، ولم يبق لي سوى براكسيلا التى هى أمل للمستقبل وعزائى للحاضر. وفيما هو ماضٍ في حديثه انساب طفل صغير راکضاً فى السرادق يصيح بملء فيه: ها هو.. ها هو.. لقد عثرت عليه.

وكانت وردة خلف ستر مسدول بينهما الملك وابنته من جانب ومينا وقرينته من الجانب الآخر، فسمعت مادار من الحديث وأحست في نفسها جذبات تجذبها نحو ملك الدنائم وبراكسيلا التى كانت لاتنكف عن النظر إليها والإعجاب بجمالها. وبثّ

هذه العواطف فيها اعتقادها أن والدتها ربما كانت من أفراد أسرة الملك فتقدمت إليه بقلب يخفق وديباجة عليها علامات الحياء وعرضت عليه الخاتم فما كاد بصره يقع على وردة حتى أخذته رجفة وتراجع إلى الخلف باسطاً إليها ذراعيه، وصار أشبه ما يكون بامرئ يتنازعه عاملان: الحنان والذعر. فبينما تحمله الجذبات القلبية على التماس من يوليه الحنان ليضمه إلى صدره كان يتراجع إلى الخلف تأثراً بروعة منظره أو ياساً من لقائه، فعدّ موأاة الزمان بتحقيق أمانيه المستحيلة من خوارق العادات أو الآيات الباهرات. وما وسعه وقتئذ إلا أن صاح: يا كزانت! يا كزانت، أهبطت ثانياً من السموات العلى للبحث عنى والقرب منى؟ وكانت براكسيلا تنظر إلى والدها بعين يخامرها القلق، ونزعت عقدها الثمين من جيدها، ثم ترامت على وردة فخطفت من يدها الفص المكسور قائلة: إن معى نصفه الآخر، ولقد كان لشقيقتى كزانت السيئة الحظ.

إن قلم البليغ ليعجز عن وصف ما ألم بالملك من الدهشة والذهول حين طرقت مسامعه هذه الالفاظ، وما عالجه من الجهد للتظاهر بالسكوت والاطمئنان، وما أحسه من الجذبات الغريزية نحو وردة حباً لها وعطفاً عليها. ثم قارن بين شطرى العقد اللذين كانت وردة متحلية الجيد بأحدهما وبراكسيلا بالآخر فأرعد دهشاً وخولط ذهولاً، وقارن بين نصفى الفص فبان له أنهما يكملان بعضهما وأنهما يمثلان جناح نسر متصلًا بقطعة أشبه ما يكون بنصف الشكل البيضاوى نُقشت عليه حروف ورموز يجهلها المصريون، وأن موضع التحام النصفين يكون في حالة اتصالهما شكل النسر الملكى ناشراً ذراعيه ومكتوباً على صدره بأحرف يونانية هذا الكلام الذى يكاد يكون من الأحاجى والمعميات «ليس نصف الواحد حلياً ولكن إذا ضم إلى نصفه الثانى توافرت فيه مسرات زفس».

وقد تأمل الملك قليلا في ذلك الفص الذي كان صنعه لقرينته وهي شقيقته التي كان وإياها توأمين وتوفيت في نضارة الشباب وإبان العمر فأعطى نصف عقدها براكسيلا عملا بوصيتها قبل وفاتها والنصف الثاني لابنته كزانت، يوم عرسها. وقد كفاه الوقوف على حقيقة العقد مؤونة البحث فبما إذا كانت الفتاة من سلالته، فضمها إلى صدره فلم تجفل منه وردة خوفا أو استنكارا، بل تركت نفسها إليه إذ أحست كأن الدم الذي يجرى في عروقها يسرى أيضا في عروقه. وبعد هنيهة أشار الملك إلى المترجم، فوقف أمامها ليكون واسطة التفاهم بينهما فسألها أولا عن والدتها، فأجابت بما لم يبقَ معه أثر للشك في أنها كانت من السبايا اللائى أُخذن إلى طيبة ثم اشتراها جندي مصري أحبها حباً جمّاً وأولدها هذه الفتاة الفتانة، فلم يسعه إلا أن عانقها مرة أخرى ودعاها: ابنتى! ولدى! فلذة كبدى! وعهد إلى براكسيلا العناية بها والقيام على شئونها ثم أخذ يسرد الحوادث المحزنة التى تلت وقوع ابنته في أسر المصريين وكيف أنه قضى زمنا طويلا في البحث عنها ووعده بالمكافأة من يأتيه بأخبارها أو يرشده إليها، وأنه كان إذا سأل المصريين عما إذا كانت ابنته خرساء أجاب نفيًا لأنه لم يكن يدور بخلده- وقد انقضى على سببها نحو العشرين عاما- أن تحرمها المخاوف والآلام والشدائد نعمة النطق، وأنه لو كان يعلم ما آل إليه أمرها لما انقضت تلك السنوات الطويلة دون أن يلتقى بها.

وكان وجه الملك يفيض ابتهاجا وسرورا. فظلت وردة تنظر إليه وتستثبته ويدها في قبضة براكسيلا، إلا أنها التفتت بعد إلى المترجم وسألته أن يترجم لها بلغة الملك «أنا سعيدة جداً»، فلما أجاب نظرت إليه باسمة الثغر ونطقت الجملة بلغته، ثم سألته أيضا عن ترجمة: «إن وردة تحبك من صميم فؤادها»، فلما أوقفها عليها فاهت بها صحيحة اللهجة كما لو نشأت على التكلم بلغة الملك الذى لم يسعه إلا أن

ضمها إلى صدره مرة أخرى. وكانت نيفرت في أثناء ذلك تذرف الدموع ارتياحا لهذا المنظر العجيب والاتفاق الغريب. فلما التفتت ورده إليها وجهت نحوها وجهها وقالت لها: إن الأوزة المتروكة أدركت بقية الأوز، والورقة التي كانت تتلاعب بها الرياح وتتقاذفها الأمواج قد عادت إلى غصنها من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء. فلتسعد من كانت وحيدة فريدة بما من الله عليها من نعمة الاجتماع بأهلها بعد اليأس من اللقاء.

وقضى القوم بعد ذلك ساعة يتجاذبون أطراف الحديث. وكانت ساعة هناء لا يشوبها كدر فأمر ملك الدنائم جماعته بالعودة، إلا أن مينا رجا منه الانتظار ريثما يطلع الفرعون على ما شهد من الحوادث، لاسيما وأن وردة أصبحت عداد غاشية بنت أنات التي عهدت إلى نيفرت العناية بشؤونها والقيام على مصالحها، ولم تأذن بتسليمها إلى أحد إلا بإذن منها. وكان رعمسيس على مائدة الطعام فلما رفع مينا إليه حقيقة حالها وأيقن منها أنها حفيذة ذلك الملك قام من فورهِ للاجتماع به. ثم التفت إلى راميرى وقال له: عليك بإصلاح ما فرط من هفواتك بالاقتران بوردة فتربطنا بجدها لحمة النسب وأصرة القرابة. فسكت راميرى ثم بادر بلثم يد أبيه وبدأت على وجهه لوائح الابتهاج والسرور ورأى رعمسيس ذلك فقال له: يبدو لي من حالك أنك سبقتنا إلى تحقيق قصدنا ودبرت التدابير لذلك دون علمنا.

وظل القوم سائرين مهلا حتى بلغوا إلى سرداق مينا حيث كان ملك الدنائم وابنته وحشمه وغاشيته بالباب. فتقدم رعمسيس لمصافحته فلم يكن من الملك إلا أن جثا على ركبتيه في الوضع الذي كان يرى أن فيه صغارا له يوم دعاه رعمسيس إليه فأبى ثم قال: لا تجعلنى عداد الملوك ولا تحسبنى من الأبطال، بل والدا حنوننا

وأباً رحيمًا يلتمس الصفح منك ويناشدك الصلح ويستأذنك في أخذ هذه الفتاة
حفيدته إلى بلاده.

فما بلغت هذه الكلمات سمع رعمسيس حتى هروول نحو الملك فانهضه وصافحه
وقال له بلطف: لا أبلفك إلا النصف من هذه الأمانى فإنه لا أشهى إلى نفسى
بصفتى صاحب هذه الديار من إبرام الصلح معك على وجه ثابت جلى، وبصفتى رب
أسرة لا أرى في أمر حفيدتك وردة إلا ما تراه ابنتى بنت أنات التى اتخذتها خليفة لها
تلازمها أثناء الليل وأطراف النهار، ويراه كذلك ابنى راميرى الذى أسرته في إحدى
الوقائع، وما نراه جميعا وهو اقتران ولدى هذا بها. قالت بنت أنات: لقد سقط حقى
على وردة في سبيل الأمانة التى يتطلع راميرى لتحقيقها، ثم سألت وردة: أيتها
الفتاة أترضين بأخى بعلا لك؟

فأحنت وردة رأسها علامة الرضى والقبول. ثم التفتت إلى جدها وحدقت فيه
بعينين أعربتتا عما يكنه ضميرها. فقال جدها لراميرى: إنى أعرفك أيها الفتى
الشجاع، لأنك شققت صفوف جيشى ونفذت فيها حتى صرت وإياى وجهها لوجه
فضربك أحدهم بالسيف فهويت من مركبتك إلى الأرض. وقد رأيت منك تهورا في
البسالة والإقدام، وهو عيب الزمان وحده كفيل بإصلاحه. وأما أنت أيها المولى
الكريم والفرعون العظيم فسأرفع إليك فكرى حتى لا تخفى خافية عليك من أمرى.
لست أعارض في اقتران الفتى بالفتاة، لأنى أرجو أن يكون من وراء هذا القران دوام
الصفاء والاتحاد وزوال الأحقاد والأضغان.

غير أنى أستمحيك الإذن بأخذها إلى بلادى وإبقائها فيها عاما واحدا لأشرف
أذنى بسماع اللغة التى كانت والدتها تتكلم بها. وأرى أن هذا الالتماس لن يجد

منكم إعراضاً، لا سيما والوقت الملائم للاقتران لم يحن بعد، إذا راعينا الطقوس المتبعة في بلادنا حيث الفتيان والفتيات يبلغون الحلم متأخرين بالقياس على ما تقتضيه نواميس الطبيعة في بلادكم. ولا يذهب عليكم أن وردة من سلالة ملكية، وهى هنا لا دار تأوى إليها لأن راميرى عثر عليها في مساقط الفاقة ومهاوى الشقاء. والأولى أن يتم الزواج في بلادنا إذ في وقوعه هنا ما يدعو راميرى إلى أن يتخيلها فتاة وضيعة انتشلها من وهدة الفقر ليرفعها إلى ذروة السؤدد والمجد.

قال الفرعون: ما تقوله حق وعدل فخذ حفيدتك مع العلم بأنها ابنتى وخطيبة ولدى. ثم أخذ بيد وردة وقال لها: اعلمى يا وردة أن الأجل المضروب لزواجك سيعلمك كيف يكون الصبر ويجعل راميرى كفؤاً لك بما يكسبه في هذه المدة من التجربة والخبرة. وأعلم يا راميرى أنه بعد عام ستصل إلى بيلوز سفينة فينيقية تقلك إلى بلاد خطيبتك حيث تقام الحفلات احتفاءً بزواجكما وإكباراً لمقامكما. قال ملك الدنائم: ليكن ذلك، وإنى أقسم بزفس - وهو قسم عظيم إن أحنث فيه أمت شر مية - أنى رضيت بابنة كريمتى كزانت قرينة لراميرى.

وما عاد راميرى إلى سرداق إخوته حتى عانقهم واحداً واحداً سروراً بالاقتران بوردة وبتحقيق أمنية من أعظم الأمنى التى تردد بها خاطره في حياته الماضية باعتبار أنه فتى في مقتبل العمر يفعل قلبه بعوامل العشق. ثم أخذ يمازح قيم القصر الملكى، وهو رجل قوَّست الشيخوخة ظهره. وتطرف في المزاح لشدة تأثير السرور في نفسه فانتزع من رأسه الشعر المستعار ورمى به في الفضاء. ولكنه استشعر غلظته وشططه في الهزل فأعاد إليه الشعر وأظهر له أمارات الود والحب بما أزاح الضغن والبغضاء من القلب.

الفصل الحادى والعشرون

(موت رجل من أهل الشكوك .. وموت والدة حميدة السلوك)

صحبت وردة جدها وخالتها برا كسيلا إلى السراذقات المعدة لهم بالصفة الأخرى من فرع النيل، على أن يعودوا في اليوم التالى إلى المعسكر المصرى، ولم تنسَ ما وصتها به نيخت قبيل وفاتها بساعات معدودة فأطلعت عليه بنت أنات. والتمست هذه من أبيها - وقد ثبت لها بالدليل المقنع، بل بالحقيقة المحسوسة الملموسة ما كان للخدمات الجليلة التى أدتها للأسرة المالكة من الأثر النافع- أن يحنط جثتها كما تحنط جثث نساء الأشراف فأجابها إلى طلبها، ولما همت وردة بمزايلة المكان دنا بنطاؤر منها وسألها أن تحقق لنبشت الذى أنقذها من غائلة الموت- وهو الآن على آخر رمق من الحياة- ما يتمناه من مشاهدتها فاحمر وجه وردة خجلا وأجابت الطلب قائلة إنها تعد نفسها سعيدة إذا أمكنها أن تخفف عنه وطأة الألام. فانطلق بنطاؤر ليبشر الطبيب بتحقيق أمنيته، وكان قد قضى عنده طول ليله للعناية به.

أما سبب إشراف نبشت على الموت فهو أنه أصيب بحمى شديدة من جراء الحروق البالغة التى انتابت رأسه. وقد تورم بتأثيرها خداه وانتفخت أوداجه، وحرار الأطباء فى علاجه لأنهم لم يهتدوا إلى سبيل فى شفاؤه ويئسوا من إنقاذه. وأبلغوا إلى صديقه الشاعر أنه لم يبقَ بينه والموت سوى ساعات معدودة فوضع بنطاؤر كفه على جبهة صديقه ليتحسس الحرارة فألفاها شديدة، ولكنه أخذ يشجعه بعبارات الأمل فتبسم نبشت الموقن بدنو أجله وقال بصوت خافت، وهو

يشير بأصبعه إلى رأسه وقلبه: ليس لى سوى أنفاس معدودة لأحصل على الراحة فى هذا العالم والعالم الثانى. قال بنطاؤور: إنا نسير بخطوات واحدة ونطمح إلى مثل أعلى جعلناه موضع أمانينا ألا وهو الراحة. فهل يبعد أن يكون هذا السير الباعث الوحيد على عمل الإنسان ونشاطه فى هذه الحياة؟ وإذا كانت الآلهة تطوف بالنعم أعناق العاملين المجدين، فلا ريب فى أنك ستنتال اسنى العطايا وأجزل الهبات جزاء عملك المتواصل وهمتك التى لاتنى فى البحث عن الحقيقة. وإذا كان عقل بشرى اندمج فى روح هذا الكون وغاص بحار العلوم لاستطلاع أسرارها، فإنما هو عقلك أيها الصديق الحميم. وإذا كان للعينين أن تبصرا الربوبية الصحيحة من خلال السحب الكثيفة الحائلة بيننا وسر وجودها فما هما إلا عينك، وهما أولى العيون وأحقها بهذا الامتياز الجليل.

قال نبسشت متنهذا: طالما نقتب عن هذه الحقيقة وكابدت فى سبيلها المصاعب واحتملت الضيم، فلما كشفت النقاب عن جانب منها مد الموت إلى يده الباردة الثقيلة ليغمض بها عينى. ولست بعد هذا أرى من فائدة فى شهود الألوهية ولا فى مشاطرتها الإحاطة بعلم الحقائق اللدنية والوقوف على الأسرار الكونية. لأن من وراء البحث عن هذه الحقائق والأسرار لذة لا تعادلها لذة شهودها بأعيانها أو الإحاطة اتفاقا بعلم ما لم يُعلم من أطرافها. لهذا كنت ترانى أوثر أن تتجدد حياتى فى هذه الدنيا على الخلود فى الأخرى، ليتواصل تمتعى بلذة البحث وحلاوة الاستكشاف التى تجعل الباحث إزاء نتائج بحثه كالثمل سرورا وفرحا.

قال هذه الكلمات وسكت، لأن قواه كانت تتلاشى بسرعة غريبة فلما رأى بنطاؤور ذلك رجا منه أن يهدىء روعه وأن يستحضر فى ذهنه ما قضاه فى الحياة من

سويغات الفرح والمسرة. قال الطبيب: تلك سويغات ما كان أحلاها، أذكر منها ساعة كانت تضمنى والدتى إلى صدرها وتملاً جيوبى بالتمر، وساعة خلوتى تفرغاً للعمل والأمل والمشاهدة، وساعة كنت أسرح الطرف فى أرجاء عالم غير عالم المادة والفناء، وهو عالم الشعر الخالد والخيال. تلك الساعات لم أنسها وياليت مداها قد طال وما زال. قال بنطاؤور: أنسيت الساعات الجديدة العديدة التى قضيتها فى علاج المرضى وتخفيف الأهم؟ طوبى لك وسلاماً عليك، فقد عشت ما عشت بيننا لم تمتد يدك بأذى لأحد من العباد، بل الكل يذكرون فضلك ويترنمون بذكرك من حاضر وباء. فهز نبسشت رأسه وقال بصوت خافت: ألم أكن سبب جنون المحنط بينم وموته؟!.

ثم لبث تأثها فى ببداء الفكر والتأمل زمنا لمعت بعده عيناه وقال: ما قصدت هذا الشيخ بسوء قط وما كانت سريرتى بناقمة عليه، بل كنت أرمى إلى غاية محمودة وغرض شريف ولكن الضرر الذى أدركه أثمر من المزايا والفوائد ما لم يكن فى وسعى إدراكه لولا القيام بأعمالى فى بلدة ماجدو وبلاد الشام فقد توصلت بذلك الضرر إلى استكناه حقيقة العضو الذى يسدى الإنسان نعمة الحياة العقلية وهو القلب. إذن ما هو القلب؟ إن لقلب الإنسان وقلب الكبش وظائف متشابهة، فكما أن الأول يزيد منه الخفقان بمؤثرات الخوف والاطمئنان، كذلك الثانى يزداد منه الضربان متى أثر فيه هذان المؤثران. وسببه أن الحيوان كالإنسان فى الشعور بالمؤثرات الطارئة من خوف وغير خوف. وغاية ما هناك من الفرق أن الإنسان خُص بمزية العقل الذى يقدر بواسطته على مقارنة الأشياء بعضها ببعض، والحكم عليها واستنتاج النتائج موافقة لما ترمى إليه مقدماتها، والإعراب عن الضمير وإبداء الآراء بالكلمات المنطوقة إلى غير هذا، مما يدل على أن مركز العقل الذى هو الروح

والحياة الحقيقية هنا، بداخل الرأس خلف الجبهة.

ما كاد يصل إلى هذا من الكلام حتى استمكن منه الوهن فلزم الصمت وخيل للشاعر بنطاؤُر أن هذيه في هذه الساعة الحرجة والموقف الخطير نتيجة حمى أصابته، فبادر بإعطائه شرابا ملطفا بينما كان الطبيبان اللذان يعالجه يطفوان حوله داعيين له. وما استقر الشراب في جوفه حتى انتعش وحاول النهوض من مضجعه فاعتنم بنطاؤُر هذه الفرصة وسأله: ألا ترى أن أحسن تذكّار علق بذهنك في حياتك مرأى تلك الفتاة الفتانة التي أنقذتها من الموت وضحيّت في سبيلها حياتك.. تلك الفتاة الجميلة التي ذكرت لي أن مرآها الجميل أيقظ في نفسك الشعور بحب الجمال والميل إلى الكمال؟ تلك الغادة التي تستعبد القلوب والمهج قد اهتدت إلى أهلها وهي بلقائهم الآن مغتبطة ولكنها لا تفتأ تذكرك وتشكر لك صنيعك معها، وقد آلت على نفسها أن لا تبرح هذه البلاد قبل أن تراك.

فتردد المريض هنيهة ثم قال ببطء: لمَ لا أراها؟ عَجَلْ يا صديقي بإحضارها، ولكن لا تدعها تدنو مني فإنني أريد أن أراها من بعيد. فخرج بنطاؤُر ثم عاد ثانيا ومعه وردة التي وقفت بباب الخيمة وخداها كجذوتي نار وعيناها مغرورقتان بالدموع. فأجال نبسشت فيها النظر ساكتا باهتا ثم قال: أشكر لك يا وردة تفضلك بزيارتى وأرجو من الله أن يسبغ عليك ثوب السعادة والهناء.

لم تتمالك وردة عندئذ أن تقدمت قليلا نحوه ولكنه أشار إليها بالتراجع مظهرا لها يده الدامية وقد أحيطت بالأضمة ثم قال: الزمى مكانك ولا تقربى مني. ماذا جرى لك؟ أتبكين؟ ولمَ هذه الدموع الغزيرة؟ أترفقين بحالى وتتوجعين لألامى؟ قالت وردة: إننى أرثى لحالك وأتوجع لمصابك أيها الرجل الطيب الكريم.. أبكى

لأننى أشعر بالامك أنت يا من أنقذت حياتى من الموت مرتين. وكان الطبيب قد أطبق جفنيه وهى تتكلم فلما أمسكت عن الكلام فتح عينيه وأمعن فيها النظر شبه المعجب بجمالها الباهر قال لها بصوت خافت: كفانى منك هذه النظرات قبل الممات يا من تحلت نفسها بأطهر الصفات.

فانصرفت وردة وأخذ بنطاؤر يرقب حركات صدر صديقه ويقيس قوة تنفسه وإنه لكذلك إذا بالمريض هب من رقدته وقال لبنطاؤر: أستودعك الله يا صديقى، إنى لراحل وليس من يدرى أين أرحل. قال بنطاؤر: أنت لا ترحل أبداً إلى فضاء العدم. فهز نبسشت رأسه وقال: كنت فى الدنيا شيئاً فأصبحت ومصيرى حتماً إلى شىء لأن مالا شىء لا يحدث عن شىء والعدم لا ينشأ عن الوجود. إن الطبيعة قائمة على التدبير والحكمة، فهى لا تدع شيئاً يذهب عفاء وفناء، بل هى تنتفع بالقتيل والقطمير كما تنتفع بالشىء الكبير، وستنتفع من جثتى بقدر حاجتها منها وتسير على قواعد ثابتة وأقيسة مبينة فى إيصال كل شىء إلى الغرض المرسوم له دنيا أو أخرى، ينتهى شىء، ولا يضيع شىء، بل لا بد لكل شىء أن يُنتج شيئاً أو يستحيل إلى شىء مطابق لما قُدر له أن يصير إليه، ولا دخل فى ذلك كله لإرادة البشر. أه لقد ضاع رأسى وضل عقلى منذ أصبت بتلك الجراح الموجهة، لا أستطيع التفكير ولا الملاحظة ولا القياس، فياليت لى قدرة على إثبات النظريات العلمية أو استنباط القواعد الفنية أو الغوص على الحقائق الخفية ولكن هيهات هيهات..

هنا تلجج لسان المسكين وتعاجم عليه النطق وكان صوته بعد صلصلة حلقة به يترامى إلى الخفوت وأنفاسه بعد شدتها تشرف على الضعف والضييق وأعضائه تتشنج وحشجة الصدر يعلو زفيرها ثم لم تكن إلا دقائق معدودة حتى فارق

الحياة. فأغمض بنطاؤُر جفنيه وفيما هو خارج من الخيمة إذا بأمينى مقبلا عليها معتقدا أنه سيلتقى به فيها لما يعلمه من استحكام عرى المودة بينهما فعاد بنطاؤُر معه إليها ولما شهد الكاهن الأعظم الطبيب مطروحا على الأرض جثة هامدة اشتد حزنه وأسفه لفقده وبعد أن صلى أشار إلى بنطاؤُر أن يتبعه وفي الطريق حادثه في أمور أراد أن يهيئه بها لاحتمال مباغثة لم تكن لتخطر بباله.

وكان قضاة مدينة طيبة حكموا بالنفى على ستخم أم بعاكر الخائن^(١) ولكنهم أجازوا لها مقابلة رعمسيس بحراسة شرذمة من الجند لتلتمس منه العفو فتظاهرت ستخم بالصبر على ما أصابها بخيانة ولدها ثم أعدت معدات السفر لتلتمس العفو عن ابنها قبل ان تلتمسه لنفسها. وكان الحكم عليها صدر في غيبة الكاهن الأعظم فلم يرَ فائدة لكتمان السر الذى سارت نيخت به الوالى آتى وسمعه من وراء حجاب أما ستخم فكابدت في سفرها من المشاق والأهوال ما لا يطيقه الاحتمال لجنوح سفينتها فلم تصل إلى بيلوز لهذا السبب إلا بعد حدوث الحريق المعلوم. وكانت شعبة النيل الموصلة إلى هذه المدينة غاصة بسفن الملك والأمراء والسفراء والتجار والاعيان واقدين من جميع الأنحاء فوقفت سفينة ستخم بعيدا عنها وبينما كان نبسشت يلفظ النفس الأخير تمكنت ستخم بعد العناء من لقاء الكاهن الأعظم ومكاشفته بسبب حضورها من طيبة.

وكانت سحنة ستخم قد تغيرت معالمها إلى حد أن أنكرها من كانوا يعرفونها لأن
(١) في الجزء الثالث من تاريخ ديودورس الصقلى أن من العادات المتبعة في مصر سابقا الحكم على أهل الخائن وأعضاء أسرته بالأشغال ولو لم يشتركوا معه في إثمه. وفي إحدى المعاهدات المبرمة بين رعمسيس والملك أرشيتا شرط مؤاده أن المتشرد الذى يؤتى به إلى مصر لا تطبق عليه عقوبة ولا يلحق ببيته ولا بوالدته ولا بأولاده أذى ولا يُحكم بالموت على والدته.

نكبات الزمان وتصاريف الحدثان أذوت غصن شبابها الأنضر وأبيست عودها الأخضر وجعلتها في نقيض ما اشتهرت به أيام عزها السابق ومجدها الرفيع السامق. فإنه بعد أن كان لسانها ينطلق بالمطايبة والملاحظة تارة وطورا بتمحيض النصيح أو إعطاء الرأي، أصبح في سجن بابيه شفتان متلاحمتان لا تفتحان أبدا إلا إذا أزفت ساعة الصلاة فيتلعثم ببعض كلمات تطلب فيها المغفرة لولدها بعاكر. وكانت على يقين من أن ولدها هذا سلك مسلك اللثام وارتكب الآثام الغلاظ وأنه غير أهل للشفقة من الملك ولا من الأمة والوطن، ولكنها بما جُبلت عليه من الرحمة كانت تعمل جهدها لدفع معرة الخيانة عنه واستصدار العفو له فكانت تواصل الليل بالنهار في الشخوص بعينها في مقره ساكبة عليه عبراتها الغزيرة.

وقد رأت ستخم وهي على ظهر سفينتها ضوء النار المضطربة في قصر الملك ووصل إلى أذنيها صياح الجماهير وجلبة الجند والحراس فأخبرها من كانوا على مقربة منها بأن قصر الوالي أنى التهمته النار واستحال إلى رماد، وأن الملك رعمسيس على وشك الهلاك، وأن بعض الخونة اللثام أضرموها نكاية فيه وذريعة لانتزاع صولجان الحكم من يده. فلما كان الفجر تواردت الأخبار ببيان الحوادث فطرق سمعها اسم ابنها بعاكر وأختها راتوتى، فلم تفه بكلمة واحدة ولم تسأل سؤالا، بل صمّت أذنيها عن سماع بقية الحوادث اكتفاء بما وقفت عليه منها وتأكدت لها مطابقته لما كانت تنبأت به وأنذرت بوقوعه لما أعرض عنها وأبى العمل بنصائحها والاعتبار بمواعظها، مؤثرا الجموح في ميادين البغى والايغال في بيداء الوهم والمضي مع نرذغات الشيطان على الوجه الذى أفضى به إلى ارتكاب جنائمه، ورمى بها من بعده في مهاوى الحزن والخزى. وكانت إذا سمعت دعاء على الخائنين واستنزالا للعنات عليهم من الرائحين والغادين، دوت في أذنيها أصداء الدعوات

واللعنات واستشعرت بصداع في الرأس وقشعريرة في الجسم وتجمد في الدم وقد ظلت في الغداة طريحة الفراش لا تفوه بكلمة ولا تبدى حركة كالمنزول بها ولم تذق طعاما ولا شرابا. ويثس قيم بيتها مما آلت إليه حالها فجذّ في البحث عن أمينيء وكان يومئذ في حضرة الملك رعمسيس فلم يستطع الوصول إليه إلا في اليوم التالي لمحدثته في أمرها. وما أن قابله فيه وأطلعته على الواقع حتى هدأ روعه ونفس من كربته وصحبه في مركبته إلى المرفأ حيث كانت ترسو سفينة ستخم وقد بادر بذلك ليهييء هذه المرأة المسكينة لما أراد أن يفاجئها به من سر صلة بنطاؤر بها ومته إليها بحبل البنوة الصحيحة وتعريفها بحقيقة أمره، لتكمل لها السعادة وتنجو من الهاوية التي أصبحت على وشك السقوط فيها من جراء ابنها خائن الملك والوطن. ولكن وصوله جاء بعد فوات الوقت المناسب فإن المرأة المسكينة أصابها خبل، فلما سمعته يتكلم أخذت تحديق فيه بعينها دون إصغاء إلى ما يقول. وكل ما كان يبدر منها من حركة أو قول أنها كانت تقطع عليه الكلام بسؤالها: هل فعل ذلك حقيقة؟ هل هو على قيد الحياة؟.. وظلت تكرر هاتين الجملتين من غير أن تفهم معنى لكلامه، حتى يثس من تفهيمها مراده. ولكنه استطاع مع ذلك أن يقنعها بمرافقته إلى سرادقه الخاص الذي وعدها بأن يقدم إليها ابنها فيه.

كان بنطاؤر كما ذكرنا صورة طبق الأصل لأبيه الموهار. وكان كل اعتماد أمينيء العارف بأحوال النفس وما يؤثر فيها من العوامل على هذه المشابهة الصادقة بين الموهار المتوفى وابنه الحقيقي، لكى يردّها إلى حظيرة العقل والصواب. فاستهل حديثه بأن سرد تاريخ استبدال بنطاؤر ببعاكروهما في الأيام الأولى من عمرهما، وما كان لنيخت الساحرة من الشأن في هذا العمل. ثم استرسل في تمجيده عبقرية الشاعر ووصف محاسنه جسما وعقلا ونفسا، وذكر ما يجمعه بالموهار من صادق

التشابه والمماثلة. وكانت ترمقه كما لو كان الكلام الذى يفوه به غير موجه إليها ولا هى مقصودة به، ولكنها قالت حين أتى على آخره: نعم نعم، أنت تريد بكلامك ذلك الشاعر الذى ألقى الخطبة البليغة يوم الاحتفال بعيد الوادى.. إننى أعرفه.. إننى أعرفه.. ولكن أين بعاصر؟ فتركها الكاهن الأعظم ليجيء إليها ببنطاؤور ويواجهها به، رجاء أن تهتدى إلى الصواب بتعرفها عليه. فلما عاد لم يجدها لأنها كانت طلبت الى جاجابو أن يطلعها على جثة بعاصر، فتميز الكاهن الأعظم غيظا ويئس من نجاحه فى سعيه. غير أنه دعا بنطاؤور إلى اقتفاء أثره عسى أن يدركاها قبل أن تبلغ إلى مكان الجثة.

وكانت جثة بعاصر ملقاة بخيمة أحد الجند ومغطاة الى مادون الوجه بقطعة قماش. فلما وصلت ستخم إليها جثت على ركبتيها وأخذت تحديق النظر فيها. وفاجأها أمينى وهى فى هذا الوضع فصوت باسمها فلم ترد عليه فأمسك بكتفها ثم أشار الى الجثة وقال: هذا الرجل الذى تنظرين إليه بلهف وحنان لم يكن ابنك بل ابن بستانى وضيع. أما ابنك الحقيقى وارث زوجك.. الابن الذى انطوت عليه جوانحك ثم هبط من بينها فهو بنطاؤور، هذا الذى جمعت الآلهة فيه صفات أبيه الجثمانية وشيمه الغراء، فواجب عليك أن تسدلى ستار العفو عن بعاصر وتمنحى بنطاؤور هذا الحنان الذى تولينه جسما لم يشتق من جسمك، لأن ابنك الحقيقى هو الشاعر البطل الذى أنقذ الملك من خطر الموت.

ما استقرت هذه العبارة فى أذن ستخم حتى انتصبت قائمة وأخذت بيدي بنطاؤور وابتسمت فى وجهه وقالت: هو.. هو.. فلتبارك فيه الآلهة. فلما هم بنطاؤور بعناقها دفعته عنها بعنف، ثم التفتت إلى الجثة صائحة: بعاصر!.. مسكين يا بعاصر!

فتأثر بنطاؤر من هذا المنظر وتولاه منه يأس فقال: والدتى! والدتى! والدتى! أما أن لك أن تعرفي ابنك البار بك. فلما سمعت صوته أقبلت عليه ثانياً وأمعنت فيه النظر وقالت: هذا صوته.. هو هو بذاته.. ثم ارتمت على صدره وأحاطت بذراعيها عنقه ووضعت شفتيها على ثغره وقالت: لتبارك الألهة فيك يا ولدى. ولكنها ما كادت تتم هذه الكلمات حتى انسأقت بجذبات خفية نحو جثة بعاكر وأكثرت من البكاء والعويل، كما لو أنها جنت عليه. ثم ألقت بنفسها على هذه الجثة الخاملة الهامدة وقد خفت صوتها وسكن جسمها حتى لم تبد منه حركة وخُيل لناظرها أنها سُلِبت نعمة الحياة لولا أنفاساً ضعيفة يتحسرج بها صدرها بين حين وحين. عندئذ نقلها الحاضرون إلى السفينة وطرحوها على فراشها، ثم قدموا إليها شيئاً من الطعام والشراب فألوت عنه وجهها وأمسكت عن الكلام إلا عن قولها بين وقت وآخر: ما أشقى حظك يا بعاكر.. مسكين يا بعاكر..

وظل بنطاؤر ملازماً لها، وهي على هذه الحال، حتى فارقت الحياة وهي تبغى اللقاء بهذا الابن الكاذب الغادر والبعد عن ابنها الصادق البطل الشاعر.

الفصل الثانى والعشرون

«مسك الختام»

قَوَّضَ العساكر الخيام وساروا فى ظلال الاعلام يتقدمهم الملك الهمام، حتى بلغوا إلى طانيس المعروفة بمدينة رمسيس. وكان سكانها اليهود الذين فك عنهم أنى جميع القيود، وأعفاهم من دفع الضرائب والرسوم ليستميلهم إليه ويتخذهم آلة طوع فى يديه، هم الذين سخَّروهم رمسيس فى تشييد الحصون الصعبة المرام والقصور المتسقة النظام. وفى تلك البلدة أبرمت معاهدة الصلح والأمان بين (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس وقُدِّمت إلى أعتاب فرعون منقوشة فى ألواح فضة^(١).

أما بنطاؤُر فقد اجتمع بالملك بعد أن أدى الفروض الواجبة عليه لوالده ستخم، إذ سار بجنتها إلى عين شمس حيث عولجت بمواد التحنيط ثم قصد بها إلى طيبة وقام على دفنها فى مدفن الأجداد، وأظهر فى ذلك من فائق العناية وبالغ الاهتمام والرعاية ما لا مطمح بعده لطامح. لأن المصريين كانوا يرون أن من أقدم الواجبات عليهم أداء تلك الفرائض التى لا يجوز بدونها أن تسمو آمال الراغب فى التزوج إلى الاقتران بمن يهواها. فلو أن بنطاؤُر قصَّر فى العناية بجثة والدته لما استطاع أن ينال بغيته من الاقتران ببنت أُنات التى جمعت إلى محاسنها الفتانة جميل الخصال وجليل الصفات.

(١) مازالت معاهدة الصلح هذه منقوشة فى الجدار القبلى لهيكل الكرنك. وقد جاء فى السطر الرابع منها وصف اللوح الذى نُقلت منه صورة المعاهدة والذى قدمه (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس ووزيره المفروض إلى الملك رمسيس. ويؤخذ من هذا الوصف أن اللوح كان مستطيل الشكل وكان يعلق بحلقة مثبتة بأعلى.

عاد الشاعر إلى طانيس ووافق يوم عودته الحادى والعشرين من شهر طيبى من السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس. وهو اليوم الذى تم فيه التوقيع على معاهدة الصلح والأمان، إلا أنه كان واجماً كثير الهموم، لأنه لما وصل إلى طيبة وسأل عن البستانى - الوالد الحقيقى لبعكر- علم أنه انتقل إلى الدار الآخرة فحزن عليه. لأن الرجل كان يحبه ويرى أنه ممن توافرت فيهم صفات الكمال، بل إنه ملك من ملائكة السماء هبط منها رسولا للخير ورائدا للسعادة والهناء.

وقد احتفل في طيبة -عقب عودة الملك رمسيس إليها- بزفاف بنت أنات إلى بنطاؤر احتفالاً باهراً زاهراً في قصر الفراغة العظام، وطابق هذا الاحتفال ختام الشهر السابع من وقوع حادث الحريق ببيلوز. وكان ما لقيه العروسان من المصاعب الشديدة من البواعث على ارتباطهما بعروة الحب التى لا انفصام لها. وكانت بنت أنات - بالرغم من قوة بنطاؤر وعلو همته- تحس أنها أصبحت منبعثاً لأشعة الأمل، وأن ابتسامه ثغرها تدعو إلى الاطمئنان، وأن كلمة واحدة منها تجبر القلوب الكسيرة وتسهل الأمور العسيرة. ولكنها مع هذا كانت موقنة أن وجودها مع بنطاؤر هو الذى محا من صحيفة صدره سورة الحزن وشجّعه على احتمال المصائب. وكان اغتباطها بذلك مقترنا بعزة الفخر بأنها هى التى دخلت به في طور حياة جديدة، فكانت له كالشمس إذا أشرقت انبعثت أشعتها على الوف الأزهار فتفتتح أكامها وتبهج بازدهارها الأنظار.

وكان الاثنان أيام اشتغالهما بمكافحة الصعوبات وتذليل العقبات، وشعورهما بالألام الشديدة التى أعقبت خيبة الآمال يظنان كل الظن أن لا تلاقيا. فلما اجتمعا وجاءت الأمور بما يتجاوز المأمول أدركا قيمة ما بينهما من الحب المتبادل، وأن

مايرميان إليه من المثل العليا ينحصر في الشرف والخير، وأن لا سعادة لهما في الحياة بإدراكه والتحلل بحليته.

وكان بنطاؤر يطلع بنت أنات على أسرارها ويشركها في الصعب من أعماله، فتزداد روابط الحب بينهما وثوقا. وقد أسبغ رعمسيس عليه من النعم والهبات ما رفعه إلى أسمى الدرجات فتنازل عن نصيبه في الإرث لأخيه حورس واتخذ الملك هذا الشاب المقدم موهاراً لجيشه جزاء ما أبداه من الإخلاص والبسالة يوم قادش. وكان مع عزة نفسه وكرم محتده عيوقا متواضعا، ولهذا استعاض عن جذوع الأرز العالية التي كان يعاكر غرسها في باحة القصر لرفع الاعلام اعجابا وكبرا بادقال قصيره ناط بأطرافها هذه الاعلام.

أما هونى المسكين الذى كان بنطاؤر انتحل اسمه للتمكن من الوصول إلى سيناء، فقد أعيد من المناجم بمساعيه المشكورة وعرفانه الجميل فانتقلب إلى أهله فرحا مسرورا بالتعاطفات الملكية وفيوض المكارم العلية. ولم يلبث الملك أن تأكدت له فضائل بنطاؤر فأولاه من العطف ما لم يوله أحدا إلا كريمته بنت أنات التي ظلت مقربة من والدها، حتى بعد أن اضطرت السياسة إلى الاقتران بابنة الملك (شيتا). ولكى يقيم له الدليل على ذلك الميل اتخذه مشيرا خاصا يستضىء بمشكاة آرائه في عويصات المسائل ومعضلات المشاكل.

وقد عثروا في صيوان أنى على وثائق ظهر منها بالدليل القاطع تواطؤه مع أمينى وأغلب الكهان، فانتوى رعمسيس معاقبة هؤلاء الخونة عقابا يكون عبرة زاجرة وعظة خالدة في الاعقاب. إلا أن بنطاؤر وشاموس ألحا عليه أن يعدل عن الانتقام قائلين إنه لا يليق بمقام الكرام، وأن بالعفو والإحسان يستقيم الملك وتتوطد منه

الأركان. وكان رعمسيس أشد الناس تعلقاً بالدين وتمسكاً بسببه المتين، لاعتقاده أن الإيمان تعزية الفقراء والمساكين وسلوان المظلومين والمنكوبين وركن البائسين، بل إنه الحافظ الأمين للحياة البشرية والحامى لسعادة الشعوب والباعث في الوجود البشرى ذلك الوجدان الذى يسيل الخير منه على جوانب الحياة فيخفف أعباءها ويصرف ضراءها، وأنه من هذه الوجهة أشبه ما يكون بالمدرسة التى يتعلم فيها الاطفال فروض الامتثال. ولكنه اجتنب مع الكهان مايقضى بهم إلى احتقار القوانين المسنونة لتدبير شؤون الامة، لأنهم وإن يكونوا الامناء على أرواح العباد فليس في وسعهم على جلال قدرهم وارتفاع منزلتهم وخطورة مهمتهم أن يعارضوا الإرادة الملكية بالانحراف عن جادة القواعد الموضوعة لتصريف أمور الجمهور.

ولقد قال لأمينى والكهان الذين التقوا به في طانيس إنه لا يتنازل عن شىء من حقوقه، وأن له وحده حق التصرف في شؤون مصر بلا منازع ولا شريك.

ولم يكن للإله سیتی صاحب المكانة العليا عند الساميين منذ عهد الهكسوس - إذ كانوا يعبدونه باسم الإله (بعل) - هيكل مشيد على ضفاف النيل. فقد كان المصريون يعتبرونه من المعبودات الأجنبية التى لا يُقام لها عندهم وزن، فأمر رعمسيس بإنشاء هيكل فخم له في طانيس ليتعبد فيه المهاجرون الأجانب، وكان إنشاؤه بالرغم من احتجاج الكهان على الملك باسم الدفاع عن التقاليد القديمة. وكان الحزب الذى تألف من هؤلاء المعارضين يسمى بحزب (المؤمنين الصادقين). وكان رعمسيس حريصاً على شرف آلهة الوطن بدليل ما بذله من المال في رفع بيوت العبادة، إلا أنه كان مفظوراً على التسامح والتساهل في أمور الدين، وهو شأن كل ملك عاقل يريد أن يؤلف حوله القلوب. ولم يشأ أن يعارض المذاهب والأديان الأخرى فلم يدع مدينة كبيرة في أنحاء المملكة إلا وأقام فيها الهيكل الجديدة، ثم

وسَّع هيكل فتاح في منفيس وشاد تمثالين جسيمين أمام مدخله تخليداً لذكرى نجاته من المكيدة التي دُبرت له ليلة الحريق، وأنشأ في مقبرة طيبة بناية وطيدة الأركان تخليداً لذكرى الساعة التي نجا فيها. ولا يزال السياح يعجبون بها ويبهتهم ما يرونه من حسن نظامها وجمال تنسيقها. وقد نقش في أعمدتها بالكلمات البارزة ما يتضمن شرح واقعة قادش كما نقش في جدران قاعة الطعام بها تاريخ الخطر الذي أنقذته منه أيدي الآلهة.

وكان بنطاؤر قد نَقَح القصيدة التي نظمها وألقاها ارتجالاً على مسامع رعمسيس في ليلة الوليمة ببيلوز، فأمر بنقشها في جدران ثلاثة هياكل وتدوينها في كثير من أوراق البردي، وبذا تمكن علماء الآثار من استكمال أبياتها. ولم يبقَ كبير ولا صغير من الأمالى إلا وحفظها عن ظهر قلب للتغنى بها كتنشيد وطني في المناسبات الحماسية.

وعهد الملك إلى بنطاؤر بعد ذلك إنشاء مدرسة جديدة للكهان من طراز مدرسة بيت سيتى وهيكل آخر سُمى بيت رعمسيس، وهو الذى نذر بناءه من قبل فوفى بالنذر. ثم قرر إصلاح الهيئة الكهنوتية على وجه يصد به الكهان عما اعتادوه من الاستئثار بالسلطة والتحكم في العقائد فذهبت بهم إلى الاعتقاد بأن لا سيطرة إلا لهم، ويعلمهم الخضوع للملك وأن هذا الخضوع لا يحط من هيبتهم ووقارهم. وعيّن بنطاؤر رئيساً للمدرسة الجديدة فأنشأ بها داراً للكتب لم تُنشأ بمصر دار مثلهما وسماها (دار صحة النفس)، وسارت المدرسة في طريق التقدم والنجاح حتى أصبحت مجعماً للعلماء ومحطاً لرحال الطلاب والفضلاء الوافدين عليها من جميع الأنحاء والأرجاء.

وقد أنشئت على مثالها مدرسة الاسكندرية ونبع منها مشاهير الفلاسفة

والحكماء والأدباء والشعراء وغيرهم ممن أحيوا ذكرها ووصلت كتاباتهم ومنشأتهم إلينا، ومن أهمها الأناشيد التى نظمها (أنانا) رفيق بنطاؤر فى عهد التلمذة ورواية الأخوين التى دبجها قلم (جاجابو). هذا ولم يستطع الكاهن الأعظم الإقامة فى طيبة، لأن رعمسيس وقف على سر مسألة قلب الحمل وعلم كيف استغلها أمينى لدس الدسائس ضده اعتمادا على ما له من النفوذ ولاستمالة قلوب العامة من الجهلاء إليه بأمثال تلك الخرافات الباطلة، فأجابه إلى طلبه بأن يقيم فى بلدة منديس من بلدان الوجه البحرى المعروفة ببلدة الحملان المقدسة. ولم يصادره فى ألقابه ووظائفه السامية وايراداته الواسعة، بل اقتصر فى نكايته على كلمة قالها فيه ليتناقلها الخلف عن السلف ولتبقى وصمة فى تاريخ حياته إلى الأعقاب وهى: «إن أمينى كان فى حاجة إلى قضاء حياته مع الحيوانات المقدسة». على أن هذا التلويح لم يمنع الكاهن الأعظم من السير بين مرؤوسيه بالشدة والهمة اللتين عُرف بهما فى طيبة، فأصبحت منزلته هناك كما كانت هنا من الاحترام، ولبت بنطاؤر يواصله برسائل المودة إلى أن جاءهما اليقين.

وكان أكبر تمثال من تماثيل القطر المصرى قائما بشكله المهيب فى وسط الفناء الأول من بيت رعمسيس الذى سبقت الإشارة إليه. وقد كُسر من وسطه بتوالى الدهور عليه، ولكنه ما برح موضع إعجاب السياح الذين يقصدون إليه لمشاهدته. وقد صُنِعَ من الحجر الصلد ممثلا صورة رعمسيس الأكبر، صنعه فى رعاية الشاعر بنطاؤر (شيراعو) الذى رأيناه فى مغارة العجوز نيخت يصنع تمثالا من الطين للوالى أنى، ثم حذق صناعته ومهر فيها مع الزمن فنحت ذلك التمثال الذى كان يفتخر به ويعتبره أحسن وأتقن ما قام بعمله من التماثيل الكثيرة التى نُحِتت لتخليد ذلك الملك الجليل.

وبعد حريق القصر بعام أبحر الأمير راميرى قاصدا إلى بلاد (الدنائم) حيث أقيمت الأفراح احتفاء بمقدمه وسرورا باقترانسه بوردة حفيدة ملك هذه البلاد. وقد أقام بها حتى توفى هذا الملك فأل الملك إليه وصار بذلك رأس أسرة ملكية جديدة فيها، ولبث اسم وردة معطرا في أفواه شعبيها الذى أخلص لها ولقرينها الولاء. وهى جديرة بهذا الإخلاص لأنها ذاقت مرارة الفقر وصاب الذل والفاقة فكانت أدرى من غيرها بتخفيف الآلام عن المنكوبين وإغداق الإحسان على المحتاجين. وكانت في إيتاء المعروف بين الناس كالورد إذا تضوع ريحه ترادف على الألسنة مديحه.

تضوع مسكا بطن نعمان إذ بدت

به (وردة) في سوسن وقطاف

فهرست

«الجزء الثانى من رواية وردة مصر»

رقم الصفحة

الموضوع

الفصل الأول: مكاييد ومصائد.....

الفصل الثانى: كيف كان الإله يعبر النيل.. فى عهد

رعمسيس الجليل.....

الفصل الثالث: وقائع أميرتين وشاب اقتحم الأهوال.. فصار

من الأبطال.....

الفصل الرابع: وليمة فى هيكل.. والكهان بين المشرب والمأكل.....

الفصل الخامس: يبكى إحدى حسان طيبة الفاتنات.. وليلة

التجليات.....

الفصل السادس: تدريب الأمراء على الأعمال.. ليكونوا للغير

خير مثال.....

الفصل السابع: تأمر العواطف على الحب.. وتأثيرها فى القلب.....

الفصل الثامن: ما حدث أثناء الوداع.. من مظاهر الوجد والالتىاع

الفصل التاسع: قفار موحشة خطيرة.. وقلوب حزينة كسيرة.....

الفصل العاشر: أين يلتقى المرء بربه.. ويتوجه إليه بكل قلبه.....

الفصل الحادى عشر: الرحلة من سيناء إلى لبنان.. وما وقع فيها

من غرائب الحدثان.....

الفصل الثانى عشر: بداية الحوادث.. وفتحة الكوارث.....

الفصل الثالث عشر: ليلة تقلد السلاح.. والاستعداد للكفاح.....

الفصل الرابع عشر: ذل الانكسار.. وعز الانتصار.....

الفصل الخامس عشر: ملتقى الأبطال.. والخونة الأتذال.....

الفصل السادس عشر: المأذبة الملكية.. لتنفيذ المؤامرة السياسية

الفصل السابع عشر: ما يُدبر فى الظلام.. من الجرائم والآثام.....

الفصل الثامن عشر: النار! النار! وما وقع بالقصر من الدمار.....

الفصل التاسع عشر: حيث تسهل الأمور.. ويباح المحظور.....

الفصل العشرون: حيث تتفتح أكام السورد.. فيشم أريجه من

واقاه السعد.....

الفصل الحادى والعشرون: موت رجل من أهل الشكوك.. وموت

والدة حميدة السلوك.....

الفصل الثانى والعشرون: مسك الختام.....



وردة

وردة . . .
رواية مصر الخالدة . .
ترجع بالقارىء في ماضي الحقب
إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة
فيحس إذ يتلوها كأنه بحياة المصريين
في عصر رعمسيس الثاني
ونصورها له تصويراً محسوساً . .
فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية
في العلوم والفنون والآداب .
ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية
والسياسية والإدارية . . ويستطلع مكنون أسرارهم
الكهنوتية ، ويلم بالأسباب التي علت بهم
فوق شعوب الأرض طراً في زمنهم .

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ ٥٧٥٦٤٢١ Tel 5 756421 6 Talat Harb SQ.